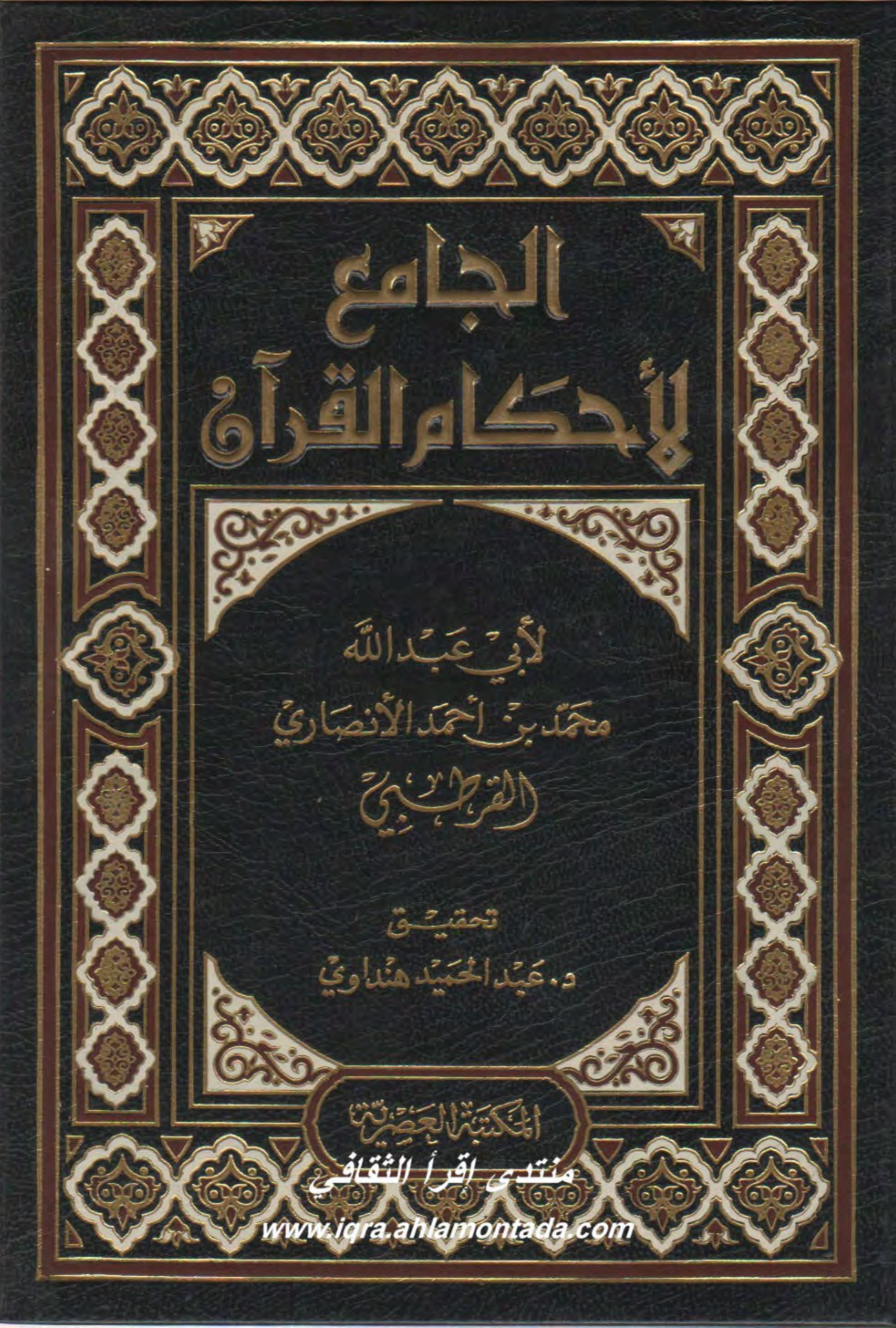

الجامع
لأحكام القرآن
لأبي عبد الله
محمد بن أحمد الأنصاري
القرطبي
تحقيق
د. عبد الحميد هنداوي
المكتبة العصرية

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري
القرطبي

تحقيق
د. عبد الحميد هنداوي

المجلد الثامن

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
00961 7 230841 - 07 230195
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

1437 هـ - 2016

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت

alassrya.com

ISBN 978-614-414-942-3

9 786144 149423

ISBN 978-614-414-942-3

سورة يس

مقدمة السورة:

وهي مكية بإجماع. وهي ثلاث وثمانون آية؛ إلا أن فرقة قالت: إن قوله تعالى ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾(يس: ١٢) نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ، على ما يأتي. وفي كتاب أبي داود عن معقل بن يسار قال: قال النبي ﷺ: (اقرؤوا يس على موتاكم)[١]. وذكر الآجري من حديث أم الدرداء عن النبي ﷺ قال: (ما من ميت يقرأ عليه سورة يس إلا هون الله عليه)[٢] وفي مسند الدارمي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ سورة يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له في تلك الليلة)[٣] خرجه أبو نعيم الحافظ أيضا. وروى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات)[٤] قال: هذا حديث غريب، وفي إسناده هارون أبو محمد شيخ مجهول؛ وفي الباب عن أبي بكر الصديق، ولا يصح حديث أبي بكر من قبل إسناده، وإسناده ضعيف. وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (إن في القرآن لسورة تشفع لقارئها ويغفر لمستمعها. ألا وهي سورة يس تدعى في التوراة المعمة) قيل: يا رسول الله وما المعمة؟ قال: (تعم صاحبها بخير الدنيا وتدفع عنه أهاويل الآخرة وتدعى الدافعة والقاضية) قيل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: (تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضي له كل حاجة ومن قرأها عدلت له عشرين حجة ومن سمعها كانت له كألف دينار تصدق بها في سبيل الله ومن كتبها وشربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف رحمة وألف رأفة وألف هدى ونزع عنه كل داء وغل)[٥]. ذكره الثعلبي من حديث عائشة، والترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه مسندا. وفي مسند الدارمي عن شهر بن حوشب قال: قال ابن عباس: من قرأ "يس" حين يصبح أعطي يسر يومه حتى يمسي ومن قرأها في صدر ليلته أعطي يسر ليلته حتى يصبح. وذكر النحاس عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لكل شيء قلب وقلب القرآن يس من قرأها نهارا كفي همه ومن قرأها ليلا غفر ذنبه. وقال شهر بن حوشب: يقرأ أهل الجنة "طه" و"يس" فقط.

رفع هذه الأخبار الثلاثة الماوردي فقال: روى الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لكل شيء قلبا وإن قلب القرآن يس ومن قرأها في ليلة أعطي يسر تلك الليلة ومن قرأها في يوم أعطي يسر ذلك اليوم وإن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن فلا يقرؤون شيئا إلا طه ويس)[٦]. وقال يحيى

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (١٠٧٢).
(٢) ضعيف
(٣) "ضعيف" بنحوه في ضعيف الجامع (٥٧٨٥).
(٤) "موضوع" انظر ضعيف الجامع (١٩٣٥).
(٥) "موضوع" ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، (١/٢٤٦).
(٦) "ضعيف".

ابن أبي كثير: بلغني أن من قرأ سورة "يس" ليلا لم يزل في فرح حتى يصبح، ومن قرأها حين يصبح لم يزل في فرح حتى يمسي؛ وقد حدثني من جربها؛ ذكره الثعلبي وابن عطية، قال ابن عطية: ويصدق ذلك التجربة. وذكر الترمذي الحكيم في نوادر الأصول عن عبد الأعلى قال: حدثنا محمد بن الصلت عن عمر بن ثابت عن محمد بن مروان عن أبي جعفر قال: من وجد في قلبه قساوة فليكتب "يس" في جام بزعفران ثم يشربه؛ حدثني أبي رحمه الله قال: حدثنا أصرم بن حوشب، عن بقية بن الوليد، عن المعتمر بن أشرف، عن محمد بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: (القرآن أفضل من كل شيء دون الله وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه فمن وقر القرآن فقد وقر الله ومن لم يوقر القرآن لم يوقر الله وحرمة القرآن عند الله كحرمة الوالد على ولده. القرآن شافع مشفع وماحلٌ مصدق فمن شفع لـه القرآن شفع ومن محل به القرآن صُدق ومن جعلـه أمامه قاده إلى الجنة ومن جعلـه خلفـه ساقه إلى النار. وحملة القرآن هم المحفوفون بحرمة الله الملبسون نور الله المعلمون كلام الله من والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد عادى الله، يقول الله تعالى: يا حملة القرآن استجيبوا لربكم بتوقير كتابه يزدكم حبا ويحببكم إلى عباده يدفع عن مستمع القرآن بلوى الدنيا ويدفع عن تالي القرآن بلوى الآخرة ومن استمع آية من كتاب الله كان لـه أفضل مما تحت العرش إلى التخوم وإن في كتاب الله لسورة تدعى العزيزة ويدعى صاحبها الشريف يوم القيامة تشفع لصاحبها في أكثر من ربيعة ومضر وهي سورة يس)[١]. وذكر الثعلبي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من قرأ سورة يس ليلة الجمعة أصبح مغفورا لـه)[٢]. وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف الله عنهم يومئذ وكان لـه بعدد حروفها حسنات)[٣].

قوله تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾

قولـه تعالى: ﴿يس﴾ في "يس" أوجه من القراءات: قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ بإدغام النون في الواو. وقرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة "يسن" بإظهار النون. وقرأ عيسى ابن عمر "يسن" بنصب النون. وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم "يسن" بالكسر. وقرأ هارون الأعور ومحمد بن السميقع "يسن" بضم النون؛ فهذه خمس قراءات. القراءة الأولى بالإدغام على ما يجب في العربية؛ لأن النون تدغم في الواو. ومن بين قال: سبيل حروف الهجاء أن يوقف عليها، وإنما يكون الإدغام في الإدراج. وذكر سيبويه النصب وجعله من جهتين: إحداهما أن يكون مفعولا ولا يصرفه؛ لأنه عنده اسم أعجمي بمنزلة هابيل، والتقدير اذكر يسين. وجعله سيبويه اسما للسورة. وقولـه الآخر أن يكون مبنيا على الفتح مثل كيف وأين. وأما الكسر فزعم الفراء أنه

(١) لا يصح.

(٢) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٥٧٨٧)، وليس فيه لفظة "الجمعة".

(٣) ذكره ابن عدي في كاملـه (٥/ ١٥٢) نحوه وقال: "وهذا الحديث بهذا الإسناد باطل ليس لـه أصل..".

مشبه بقول العرب جير لا أفعل، فعلى هذا يكون "يسن" قسما. وقاله ابن عباس. وقيل: مشبه بأمس وحذام وهؤلاء ورقاش. وأما الضم فمشبه بمنذ وحيث وقط، وبالمنادى المفرد إذا قلت يا رجل، لمن يقف عليه. قال ابن السميقع وهارون: وقد جاء في تفسيرها رجل فالأولى بها الضم. قال ابن الأنباري: "يس" وقف حسن لمن قال هو افتتاح للسورة. ومن قال: معنى "يس" يا رجل لم يقف عليه. وروي عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما أن معناه يا إنسان، وقالوا في قوله تعالى: ﴿سلام على إل ياسين﴾ (الصافات: ١٣٠) أي على آل محمد. وقال سعيد بن جبير: هو اسم من أسماء محمد ﷺ؛ ودليله "إنك لمن المرسلين". قال السيد الحميري:

يا نفس لا تمحضي بالنصح جاهدة   على المودة إلا آل ياسين

وقال أبو بكر الوراق: معناه يا سيد البشر. وقيل: إنه اسم من أسماء الله؛ قاله مالك. روى عنه أشهب قال: سألته هل ينبغي لأحد أن يتسمى بياسين؟ قال: ما أراه ينبغي لقول الله: "يس والقرآن الحكيم" يقول هذا اسمي يس. قال ابن العربي هذا كلام بديع، وذلك أن العبد يجوز له أن يتسمى باسم الرب إذا كان فيه معنى منه؛ كقوله: عالم وقادر ومريد ومتكلم. وإنما منع مالك من التسمية بـ "يسين"؛ لأنه اسم من أسماء الله لا يدرى معناه؛ فربما كان معناه ينفرد به الرب فلا يجوز أن يقدم عليه العبد. فإن قيل فقد قال الله تعالى: ﴿سلام على إل ياسين﴾ (الصافات: ١٣٠) قلنا: ذلك مكتوب بهجاء فتجوز التسمية به، وهذا الذي ليس بمتهجى هو الذي تكلم مالك عليه؛ لما فيه من الإشكال؛ والله أعلم. وقال بعض العلماء: افتتح الله هذه السورة بالياء والسين وفيهما مجمع الخير: ودل المفتتح على أنه قلب، والقلب أمير على الجسد؛ وكذلك "يس" أمير على سائر السور، مشتمل على جميع القرآن. ثم اختلفوا فيه أيضا؛ فقال سعيد بن جبير وعكرمة: هو بلغة الحبشة. وقال الشعبي: هو بلغة طي. الحسن: بلغة كلب. الكلبي: هو بالسريانية فتكلمت به العرب فصار من لغتهم. وقد مضى هذا المعنى في "طه" وفي مقدمة الكتاب مستوفى. وقد سرد القاضي عياض أقوال المفسرين في معنى "يس" فحكى أبو محمد مكي أنه روي عن النبي ﷺ قال: (لي عند ربي عشرة أسماء)[1] ذكر أن منها طه ويس اسمان له.

قلت: وذكر الماوردي عن علي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله تعالى أسماني في القرآن سبعة أسماء محمد وأحمد وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله) قاله القاضي[2]. وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق أنه أراد يا سيد، مخاطبة لنبيه ﷺ. وعن ابن عباس: "يس" يا إنسان أراد محمدا ﷺ. وقال: هو قسم وهو من أسماء الله سبحانه. وقال الزجاج: قيل معناه يا محمد وقيل يا رجل وقيل يا إنسان. وعن ابن الحنفية: "يس" يا محمد. وعن كعب: "يس" قسم أقسم الله به قبل أن يخلق السماء والأرض بألفي عام قال يا محمد: "إنك لمن المرسلين" ثم قال: "والقرآن الحكيم". فإن قدر أنه من أسمائه ﷺ، وصح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم ما تقدم، ويؤكد فيه

(١) لا يصح.
(٢) هو القاضي ابن العربي المالكي في تفسيره: "أحكام القرآن"، (٤/ ١٥١)، وقال: "وهذا حديث لا يصح".

القسم عطف القسم الآخر عليه. وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته. أقسم الله تعالى باسمه وكتابه أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه؛ أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق. قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا لـه، وفيه من تعظيمه وتمجيده على تأويل من قال إنه يا سيد ما فيه، وقد قال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم)[1] انتهى كلامه. وحكى القشيري قال ابن عباس: قالت كفار قريش لست مرسلا وما أرسلك الله إلينا؛ فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين. و"الحكيم" المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض؛ كما قال: ﴿ أحكمت آياته ﴾ (هود: ١). وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل. وقد يكون "الحكيم" في حق الله بمعنى المحكم بكسر الكاف كالأليم بمعنى المؤلم. ﴿ على صراط مستقيم ﴾ أي دين مستقيم وهو الإسلام. وقال الزجاج: على طريق الأنبياء الذين تقدموك؛ وقال: "إنك لمن المرسلين" خبر إن، و"على صراط مستقيم" خبر ثان، أي إنك لمن المرسلين، وإنك على صراط مستقيم. وقيل: المعنى لمن المرسلين على استقامة؛ فيكون قولـه: "على صراط مستقيم" من صلة المرسلين؛ أي إنك لمن المرسلين الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة؛ كقولـه تعالى: "وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم. صراط الله" أي الصراط الذي أمر الله به.

قولـه تعالى: ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ قرأ ابن عامر وحفص والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف: "تنزيل" بنصب اللام على المصدر؛ أي نزل الله ذلك تنزيلا. وأضاف المصدر فصار معرفة كقولـه: ﴿ فضرب الرقاب ﴾ (محمد: ٤) أي فضربا للرقاب. الباقون "تنزيل" بالرفع على خبر ابتداء محذوف أي هو تنزيل، أو الذي أنزل إليك تنزيل العزيز الرحيم. هذا وقرئ: "تنزيل" بالجر على البدل من "القرآن" والتنزيل يرجع إلى القرآن. وقيل: إلى النبي ﷺ؛ أي إنك لمن المرسلين، وإنك "تنزيل العزيز الرحيم". فالتنزيل على هذا بمعنى الإرسال؛ قال الله تعالى: ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكرا * رسولا يتلو عليكم ﴾ (الطلاق: ١١) ويقال: أرسل الله المطر وأنزلـه بمعنى. ومحمد ﷺ رحمة الله أنزلـها من السماء. ومن نصب قال: إنك لمن المرسلين إرسالا من العزيز الرحيم. و"العزيز" المنتقم ممن خالفه "الرحيم" بأهل طاعته.

قوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم ﴾ "ما" لا موضع لـها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير، منهم قتادة؛ لأنها نفي والمعنى: لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير. وقيل: هي بمعنى الذي فالمعنى: لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم؛ قالـه ابن عباس وعكرمة وقتادة أيضا. وقيل: إن "ما"

---

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد تقدم.

والفعل مصدر؛ أي لتنذر قوما إنذار آبائهم. ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء؛ فالمعنى لم ينذروا برسول من أنفسهم. ويجوز أن يكون بلغهم الخبر ولكن غفلوا وأعرضوا ونسوا. ويجوز أن يكون هذا خطابا لقوم لم يبلغهم خبر نبي، وقد قال الله: ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ (سبأ: ٤٤) وقال: ﴿ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلـهم يهتدون ﴾ (السجدة: ٣) أي لم يأتهم نبي. وعلى قول من قال بلغهم خبر الأنبياء، فالمعنى فهم معرضون الآن متغافلون عن ذلك، ويقال للمعرض عن الشيء إنه غافل عنه. وقيل: "فهم غافلون" عن عقاب الله.

قولـه تعالى: ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ أي وجب العـذاب على أكثرهم ﴿ فهـم لا يؤمنـون ﴾ بإنذارك. وهذا فيمن سبق في علم الله أنه يموت على كفره. ثم بين سبب تركهم الإيمان فقال: ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا ﴾. قيل: نزلت في أبي جهل بن هشام وصاحبيه المخزوميين؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمدا يصلي ليرضخن رأسه بحجر؛ فلما رآه ذهب فرفع حجرا ليرميه، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه، والتصق الحجر بيده؛ قالـه ابن عباس وعكرمة وغيرهما؛ فهو على هذا تمثيل أي هو بمنزلة من غلت يده إلى عنقه، فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى، فقال الرجل الثاني وهو الوليد بن المغيرة: أنا أرضخ رأسه. فأتاه وهو يصلي على حالته ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقال: والله ما رأيته ولقد سمعت صوته. فقال الثالث: والله لأشدخن أنا رأسه. ثم أخذ الحجر وانطلق فرجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خر على قفاه مغشيا عليه. فقيل لـه: ما شأنك؟ قال شأني عظيم! رأيت الرجل فلما دنوت منه، وإذا فحل يخطر بذنبه ما رأيت فحلا قط أعظم منه حال بيني وبينه، فواللات والعزى لو دنوت منه لأكلني. فأنزل الله تعالى: ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾. وقرأ ابن عباس: "إنا جعلنا في أيمانهم". وقال الزجاج: وقرئ "إنا جعلنا في أيديهم". قال النحاس: وهذه القراءة تفسير ولا يقرأ بما خالف المصحف. وفي الكلام حذف على قراءة الجماعة؛ التقدير: إنا جعلنا في أعناقهم وفي أيديهم أغلالا فهي إلى الأذقان، فهي كناية عن الأيدي لا عن الأعناق، والعرب تحذف مثل هذا. ونظيره: ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ (النحل: ٨١) وتقديره وسرابيل تقيكم البرد فحذف؛ لأن ما وقى من الحر وقى من البرد؛ لأن الغل إذا كان في العنق فلا بد أن يكون في اليد، ولا سيما وقد قال الله عز وجل: "فهي إلى الأذقان" فقد علم أنه يراد به الأيدي. "فهم مقمحون" أي رافعو رؤوسهم لا يستطيعون الإطراق؛ لأن من غلت يده إلى ذقنه ارتفع رأسه. روى عبد الله بن يحيى: أن علي بن أبي طالب ﷺ أراهم الإقماح، فجعل يديه تحت لحيته وألصقهما ورفع رأسه. قال النحاس: وهذا أجل ما روي فيه وهو مأخوذ مما حكاه الأصمعي. قال: يقال أقمحت الدابة إذا جذبت لجامها لترفع رأسها. قال النحاس: والقاف مبدلة من الكاف لقربها منها. كما يقال: قهرته وكهرته. قال الأصمعي: يقال أكمحت الدابة إذا جذبت عنانها حتى ينتصب رأسها. ومنه قول الشاعر (ذو الرمة):

. . . والرأس مكمح

ويقال: أكمحتها وأكفحتها وكبحتها؛ هذه وحدها بلا ألف عن الأصمعي. وقمح البعير قموحا: إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب، فهو بعير قامح وقمح؛ يقال: شرب فتقمح وانقمح بمعنى إذا رفع رأسه وترك الشرب ريا. وقد قامحت إبلك: إذا وردت ولم تشرب، ورفعت رأسها من داء يكون بها أو برد. وهي إبل مقامحة، وبعير مقامح، وناقة مقامح أيضا، والجمع قماح على غير قياس؛ قال بشر يصف سفينة:

ونحن على جوانبها قعود نغض الطرف كالإبل القماح

والإقماح: رفع الرأس وغض البصر؛ يقال: أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعا من ضيقه. وشهرا قماح: أشد ما يكون من البرد، وهما الكانونان سميا بذلك؛ لأن الإبل إذا وردت آذاها برد الماء فقامحت رؤوسها؛ ومنه قمحت السويق. وقيل: هو مثل ضربه الله تعالى لهم في امتناعهم من الهدى كامتناع المغلول؛ قاله يحيى بن سلام وأبو عبيدة. وكما يقال: فلان حمار؛ أي لا يبصر الهدى. وكما قال:

لهم عن الرشد أغلال وأقياد

وفي الخبر: أن أبا ذؤيب كان يهوى امرأة في الجاهلية، فلما أسلم راودته فأبى وأنشأ يقول:

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى العدل شيئا فاستراح العواذل

أراد منعنا بموانع الإسلام عن تعاطي الزنا والفسق. وقال الفراء أيضا: هذا ضرب مثل؛ أي حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ (الإسراء: ٢٩) وقاله الضحاك. وقيل: إن هؤلاء صاروا في الاستكبار عن الحق كمن جعل في يده غل فجمعت إلى عنقه، فبقي رافعا رأسه لا يخفضه، وغاضا بصره لا يفتحه. والمتكبر يوصف بانتصاب العنق. وقال الأزهري: إن أيديهم لما غُلَّت عند أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صعدا كالإبل ترفع رؤوسها. وهذا المنع بخلق الكفر في قلوب الكفار، وعند قوم بسلبهم التوفيق عقوبة لهم على كفرهم. وقيل: الآية إشارة إلى ما يفعل بأقوام غدا في النار من وضع الأغلال في أعناقهم والسلاسل؛ كما قال تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل﴾ (غافر: ٧١) وأخبر عنه بلفظ الماضي. "فهم مقمحون" تقدم تفسيره. وقال مجاهد: "مقمحون" مغلون عن كل خير.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا﴾ قال مقاتل: لما عاد أبو جهل إلى أصحابه، ولم يصل إلى النبي ﷺ، وسقط الحجر من يده، أخذ الحجر رجل آخر من بني مخزوم

وقال: أنا أقتله بهذا الحجر. فلما دنا من النبي ﷺ طمس الله على بصره فلم ير النبي ﷺ، فرجع إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه، فهذا معنى الآية. وقال محمد بن إسحاق في روايته: جلس عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل وأمية بن خلف، يرصدون النبي ﷺ ليبلغوا من أذاه؛ فخرج عليهم ﷺ وهو يقرأ (يس) وفي يده تراب فرماهم به وقرأ: "وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا" فأطرقوا حتى مر عليهم ﷺ. وقد مضى هذا في سورة (سبحان) ومضى في "الكهف" الكلام في "سدا" بضم السين وفتحها وهما لغتان، ﴿ فأغشيناهم ﴾ أي غطينا أبصارهم؛ وقد مضى في أول "البقرة". وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى بن يعمر "فأعشيناهم" بالعين غير معجمة من العشاء في العين وهو ضعف بصرها حتى لا تبصر بالليل قال:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره

وقال تعالى: ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن ﴾ (الزخرف: ٣٦) الآية. والمعنى متقارب، والمعنى أعميناهم؛ كما قال:

ومـن الحـوادث لا أبـا لـك أنـني ... ضربت علي الأرض بالأسداد
لا أهـتدي فيها لموضـع تلعـة ... بين العذيـب وبين أرض مـراد

﴿ فهم لا يبصرون ﴾ أي الـهدى؛ قالـه قتادة. وقيل: محمدا حين ائتمروا على قتله؛ قالـه السدي. وقال الضحاك: "وجعلنا من بين أيديهم سدا" أي الدنيا "ومن خلفهم سدا" أي الآخرة؛ أي عموا عن البعث وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿ وقيضنا لـهم قرناء فزينوا لـهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ (فصلت: ٢٥) أي زينوا لـهم الدنيا ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة. وقيل: على هذا "من بين أيديهم سدا" أي غرورا بالدنيا "ومن خلفهم سدا" أي تكذيبا بالآخرة. وقيل: "من بين أيديهم" الآخرة "ومن خلفهم" الدنيا. ﴿ وسـواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهـم لا يؤمنـون ﴾ تقدم في "البقرة" والآية رد على القدرية وغيرهم. وعن ابن شهاب: أن عمر بن عبد العزيز أحضر غيلان القدري فقال: يا غيلان بلغني أنك تتكلم بالقدر؛ فقال: يكذبون عليّ يا أمير المؤمنين. ثم قال: يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى: ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ (الإنسان: ٢) قال: اقرأ يا غيلان فقرأ حتى انتهى إلى قولـه: ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ (الإنسان: ٢٩) فقال اقرأ فقال: ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ (الإنسان: ٣٠) فقال: والله يا أمير المؤمنين إن شعرت أن هذا في كتاب الله قط. فقال لـه: يا غيلان اقرأ أول سورة (يس) فقرأ حتى بلغ "وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون" فقال غيلان: والله يا أمير المؤمنين لكأني لم أقرأها قط قبل اليوم؛ اشهد يا أمير المؤمنين أني تائب. قال عمر: اللهم إن كان صادقا فتب عليه وثبته، وإن كان كاذباً فسلط عليه من لا يرحمه واجعلـه آية للمؤمنين؛ فأخذه هشام فقطع يديه ورجليه وصلبه. وقال ابن عون: فأنا رأيته مصلوبا على باب دمشق. فقلنا: ما شأنك يا غيلان؟ فقال: أصابتني دعوة الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز.

قولـه تعالى: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾ يعني القرآن وعمل به. ﴿ وخشي الرحمن بالغيب ﴾ أي ما غاب من عذابه وناره؛ قالـه قتادة. وقيل: أي يخشاه في مغيبه عـن أبصار الناس وانفـراده بنفسه. ﴿ فبشره بمغفرة ﴾ أي لذنبه ﴿ وأجر كريم ﴾ أي الجنة.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ﴾ أخبرنا تعالى بإحيائه الموتى ردا على الكفرة. وقال الضحاك والحسن: أي نحييهم بالإيمان بعد الجهل. والأول أظهر؛ أي نحييهم بالبعث للجزاء. ثم توعدهم بذكره كَتْب الآثار وهي:

الثانية: وإحصاء كل شيء وكل ما يصنعه الإنسان. قال قتادة: معناه من عمل. وقاله مجاهد وابن زيد. ونظيره قوله: ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ (الانفطار: ٥) وقوله: ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ (القيامة: ١٣)، وقال: ﴿ اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ (الحشر: ١٨) فآثار المرء التي تبقى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شر يجازى عليها: من أثر حسن؛ كعلم علموه، أو كتاب صنفوه، أو حبيس احتبسوه، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك. أو سيئ كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين، وسكة أحدثها فيها تخسيرهم، أو شيء أحدثه فيه صد عن ذكر الله من ألحان وملاه، وكذلك كل سنة حسنة، أو سيئة يستن بها. وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد. وعلى هذا المعنى تأول الآية عمر وابن عباس وسعيد بن جبير. وعن ابن عباس أيضا أن معنى: "وآثارهم" خطاهم إلى المساجد. قال النحاس: وهذا أولى ما قيل فيه؛ لأنه قال: إن الآية نزلت في ذلك؛ لأن الأنصار كانت منازلهم بعيدة عن المسجد. وفي الحديث مرفوعا إلى النبي ﷺ قال: (يكتب له برجل حسنة وتحط عنه برجل سيئة ذاهباً وراجعاً إذا خرج إلى المسجد)[1].

قلت: وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية: "إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم" فقال رسول الله ﷺ (إن آثاركم تكتب)[2] فلم ينتقلوا. قال: هذا حديث حسن غريب من حديث الثوري. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد؛ قال: والبقاع خالية؛ قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: (يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم) فقالوا: ما كان يسرنا أنا كنا تحولنا[3]. وقال ثابت البناني: مشيت مع أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعت، فحبسني فلما انقضت الصلاة قال: مشيت مع النبي ﷺ وأسرعت، فحبسني فلما انقضت الصلاة قال: (أما علمت أن الآثار تكتب) فهذا احتجاج بالآية. وقال قتادة ومجاهد أيضا والحسن: الآثار في هذه الآية الخطا. وحكى الثعلبي عن أنس أنه قال: الآثار هي الخطا إلى الجمعة. وواحد الآثار أَثَر ويقال أَثْر.

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم في "المساجد"، (٦٥٤).

(٢) أخرجه الترمذي في "التفسير"، (٣٢٢٦)، وقال: "هذا حديث حسن غريب" وقال البزار بعد أن ساقه بسند مختلف: فيه غرابة من حيث ذكر سبب نزول الآية، والسورة بكاملها مكية والله أعلم.

(٣) أخرجه مسلم (٦٦٥).

الثالثة : في هذه الأحاديث المفسرة لمعنى الآية دليل على أن البعد من المسجد أفضل، فلو كان بجوار مسجد، فهل لـه أن يجاوزه إلى الأبعد؟ اختلف فيه، فروي عن أنس أنه كان يجاوز المحدث إلى القديم. وروي عن غيره : الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجرا. وكره الحسن وغيره هذا؛ وقال : لا يدع مسجدا قربه ويأتي غيره. وهذا مذهب مالك. وفي تخطي مسجده إلى المسجد الأعظم قولان. وخرج ابن ماجه من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : (صلاة الرجل في بيته بصلاة وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمسمائة صلاة)[1].

الرابعة : "دياركم" منصوب على الإغراء أي الزموا، و(تكتب) جزم على جواب ذلك الأمر. (وكل) نصب بفعل مضمر يدل عليه "أحصيناه" كأنه قال : وأحصينا كل شيء أحصيناه. ويجوز رفعه بالابتداء إلا أن نصبه أولى؛ ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل. وهو قول الخليل وسيبويه. والإمام : الكتاب المقتدى به الذي هو حجة. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : أراد اللوح المحفوظ. وقالت فرقة : أراد صحائف الأعمال.

قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قولـه تعالى : ﴿ واضرب لـهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾ خطاب للنبي ﷺ، أمر أن يضرب لقومه مثلا بأصحاب القرية هذه القرية هي أنطاكية في قول جميع المفسرين فيما ذكر الماوردي. نسبت إلى أهل أنطبيس وهو اسم الذي بناها ثم غير لما عرب؛ ذكره السهيلي. ويقال فيها : أنتاكية بالتاء بدل الطاء. وكان بها فرعون يقال لـه أنطيخس بن أنطيخس يعبد الأصنام؛ ذكره المهدوي، وحكاه أبو جعفر النحاس عن كعب ووهب. فأرسل الله إليه ثلاثة : وهم صادق، وصدوق، وشلوم هو الثالث. هذا قول الطبري. وقال غيره : شمعون ويوحنا. وحكى النقاش : سمعان ويحيى، ولم يذكرا صادقا ولا صدوقا. ويجوز أن يكون "مثلا" و"أصحاب القرية" مفعولين لأضرب، أو "أصحاب القرية" بدلا من "مثلا" أي اضرب لـهم مثل أصحاب القرية فحذف المضاف. أمر النبي ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حل بكفار أهل القرية المبعوث إليهم

---

(١) صحيح، أخرجه ابن ماجه بلفظ : "صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاة الرجل وحده خمساً وعشرين درجة" كما في صحيح الجامع (٣٨٢٢).

ثلاثة رسل. قيل: رسل من الله على الابتداء. وقيل: إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله. وهو قوله تعالى: ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين﴾ أضاف الرب ذلك إلى نفسه؛ لأن عيسى أرسلهما بأمر الرب، وكان ذلك حين رفع عيسى إلى السماء. ﴿فكذبوهما﴾ قيل ضربوهما وسجنوهما. ﴿فعززنا بثالث﴾ أي فقوينا وشددنا الرسالة "بثالث". وقرأ أبو بكر عن عاصم: "فعززنا بثالث" بالتخفيف وشدد الباقون. قال الجوهري: وقوله تعالى: "فعززنا بثالث" يخفف ويشدد؛ أي قوينا وشددنا. قال الأصمعي: أنشدني فيه أبو عمرو بن العلاء للمتلمس:

أجُدٌّ إذا رحلت تعزز لحمها وإذا تشد بنسعها لا تنبس

أي لا ترغو؛ فعلى هذا تكون القراءتان بمعنىً. وقيل: التخفيف بمعنى غلبنا وقهرنا؛ ومنه: ﴿وعزني في الخطاب﴾ (ص: ٢٣). والتشديد بمعنى قوينا وكثرنا. وفي القصة: أن عيسى أرسل إليهم رسولين فلقيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب "يس" فدعوه إلى الله وقالا: نحن رسولا عيسى ندعوك إلى عبادة الله. فطالبهما بالمعجزة فقالا: نحن نشفي المرضى وكان له ابن مجنون. وقيل: مريض على الفراش فمسحاه، فقام بإذن الله صحيحا؛ فآمن الرجل بالله. وقيل: هو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، ففشا أمرهما، وشفيا كثيرا من المرضى، فأرسل الملك إليهما - وكان يعبد الأصنام - يستخبرهما فقالا: نحن رسولا عيسى. فقال: وما آيتكما؟ قالا: نبرئ الأكمه والأبرص ونبرئ المريض بإذن الله، وندعوك إلى عبادة الله وحده. فهم الملك بضربهما. وقال وهب: حبسهما الملك وجلدهما مائة جلدة؛ فانتهى الخبر إلى عيسى فأرسل ثالثا. قيل: شمعون الصفا رأس الحواريين لنصرهما، فعاشر حاشية الملك حتى تمكن منهم، واستأنسوا به، ورفعوا حديثه إلى الملك فأنس به، وأظهر موافقته في دينه، فرضي الملك طريقته، ثم قال يوما للملك: بلغني أنك حبست رجلين دعواك إلى الله، فلو سألت عنهما ما وراءهما. فقال: إن الغضب حال بيني وبين سؤالهما. قال: فلو أحضرتهما. فأمر بذلك؛ فقال لهما شمعون: ما برهانكما على ما تدعيان؟ فقالا: نبرئ الأكمه والأبرص. فجيء بغلام ممسوح العينين؛ موضع عينيه كالجبهة، فدعوا ربهما فانشق موضع البصر، فأخذا بندقتين طينا فوضعاهما في خديه، فصارتا مقلتين يبصر بهما؛ فعجب الملك وقال: إن ها هنا غلاما مات منذ سبعة أيام ولم أدفنه حتى يجيء أبوه فهل يحييه ربكما؟ فدعوا الله علانية، ودعاه شمعون سرا، فقام الميت حيا، فقال للناس: إني مت منذ سبعة أيام، فوجدت مشركا، فأدخلت في سبعة أودية من النار، فأحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله، ثم فتحت أبواب السماء، فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون وصاحبيه، حتى أحياني الله، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن عيسى روح الله وكلمته، وأن هؤلاء هم رسل الله. فقالوا له: وهذا شمعون أيضا معهم؟ قال: نعم وهو أفضلهم. فأعلمهم شمعون أنه رسول المسيح إليهم، فأثر قوله في الملك، فدعاه إلى الله، فآمن الملك في قوم كثير وكفر آخرون.

وحكى القشيري أن الملك آمن ولم يؤمن قومه، وصاح جبريل صيحة مات كل من بقي منهم من الكفار. وروي أن عيسى لما أمرهم أن يذهبوا إلى تلك القرية قالوا: يا نبي الله إنا لا نعرف أن نتكلم

بألسنتهم ولغاتهم. فدعا الله لهم فناموا بمكانهم، فهبوا من نومتهم وقد حملتهم الملائكة فألقتهم بأرض أنطاكية، فكلم كل واحد صاحبه بلغة القوم؛ فذلك قوله: ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ (البقرة: ٨٧) فقالوا جميعا: ﴿ إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ تأكلون الطعام وتمشون في الأسواق ﴿ وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ يأمر به ولا من شيء ينهى عنه ﴿ إن أنتم إلا تكذبون ﴾ في دعواكم الرسالة؛ فقالت الرسل: ﴿ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ وإن كذبتمونا ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ في أن الله واحد ﴿ قالوا ﴾ لهم ﴿إنا تطيرنا بكم ﴾ أي تشاءمنا بكم. قال مقاتل: حبس عنهم المطر ثلاث سنين فقالوا هذا بشؤمكم. ويقال: إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين.

﴿ لئن لم تنتهوا ﴾ عن إنذارنا ﴿ لنرجمنكم ﴾ قال الفراء: لنقتلنكم. قال: وعامة ما في القرآن من الرجم معناه القتل. وقال قتادة: هو على بابه من الرجم بالحجارة. وقيل: لنشتمنكم؛ وقد تقدم جميعه. ﴿وليمسنكم منا عذاب أليم﴾ قيل: هو القتل. وقيل: هو التعذيب المؤلم. وقيل: هو التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب. فقالت الرسل: ﴿ طائركم معكم ﴾ أي شؤمكم معكم أي حظكم من الخير والشر معكم ولازم في أعناقكم، وليس هو من شؤمنا؛ قال معناه الضحاك. وقال قتادة: أعمالكم معكم. ابن عباس: معناه الأرزاق والأقدار تتبعكم. الفراء: "طائركم معكم" رزقكم وعملكم؛ والمعنى واحد. وقرأ الحسن: "اطيركم" أي تطيركم. ﴿ أئن ذكرتم ﴾ قال قتادة: إن ذكرتم تطيرتم. وفيه تسعة أوجه من القراءات: قرأ أهل المدينة: "أين ذكرتم" بتخفيف الهمزة الثانية. وقرأ أهل الكوفة: "أإن" بتحقيق الهمزتين. والوجه الثالث: "أاإن ذكرتم" بهمزتين بينهما ألف أدخلت الألف كراهة للجمع بين الهمزتين. والوجه الرابع: "أاين" بهمزة بعدها ألف وبعد الألف همزة مخففة. والقراءة الخامسة "أاأن" بهمزتين مفتوحتين بينهما ألف. والوجه السادس: "أأن" بهمزتين محققتين مفتوحتين. وحكى الفراء: أن هذه القراءة قراءة أبي رزين.

قلت: وحكاه الثعلبي عن زر بن حبيش وابن السميقع. وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصري: "قالوا طائركم معكم أين ذكرتم" بمعنى حيث. وقرأ يزيد بن القعقاع والحسن وطلحة "ذكرتم" بالتخفيف؛ ذكر جميعه النحاس. وذكر المهدوي عن طلحة بن مصرف وعيسى الهمذاني: "آن ذكرتم" بالمد، على أن همزة الاستفهام دخلت على همزة مفتوحة. الماجشون: "أن ذكرتم" بهمزة واحدة مفتوحة. فهذه تسع قراءات. وقرأ ابن هرمز "طيركم معكم". "أئن ذكرتم" أي لإن وعظتم؛ وهو كلام مستأنف، أي إن وعظتم تطيرتم. وقيل: إنما تطيروا لما بلغهم أن كل نبي دعا قومه فلم يجيبوه كان عاقبتهم الهلاك. ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ قال قتادة: مسرفون في تطيركم. يحيى بن سلام: مسرفون في كفركم. وقال ابن بحر: السرف ها هنا الفساد، ومعناه بل أنتم قوم مفسدون. وقيل: مسرفون مشركون، والإسراف مجاوزة الحد، والمشرك يجاوز الحد.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ﴾ هو حبيب بن مري وكان نجارا. وقيل: إسكافا. وقيل: قصارا. وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام، وهو ممن آمن بالنبي ﷺ وبينهما ستمائة سنة، كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما. ولم يؤمن بنبي أحد إلا بعد ظهوره. قال وهب: وكان حبيب مجذوما، ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره فما استجابوا له، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال: هل من آية؟ قالوا: نعم، ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك. فقال: إن هذا لعجب! أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عني فلم تستطع، فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة؟ قالوا: نعم، ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئا ولا تضر. فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به، كأن لم يكن به بأس، فحينئذ أقبل على التكسب، فإذا أمسى تصدق بكسبه، فأطعم عياله نصفا وتصدق بنصف، فلما هم قومه بقتل الرسل جاءهم. فـ ﴿ قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ الآية. وقال قتادة: كان يعبد الله في غار، فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعى، فقال للمرسلين: أتطلبون على ما جئتم به أجرا؟ قالوا: لا ما أجرنا إلا على الله. قال أبو العالية: فاعتقد صدقهم وآمن بهم وأقبل على قومه فـ "قال يا قوم اتبعوا المرسلين".
﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجرا ﴾ أي لو كانوا متهمين لطلبوا منكم المال ﴿ وهم مهتدون ﴾ فاهتدوا بهم. ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾ قال قتادة: قال له قومه أنت على دينهم؟! فقال: ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾ أي خلقني. ﴿ وإليه ترجعون ﴾ وهذا احتجاج منه عليهم. وأضاف الفطرة إلى نفسه؛ لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر، والبعث إليهم؛ لأن ذلك وعيد يقتضي الزجر؛ فكان إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكرا، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثرا.

قوله تعالى: ﴿ أأتخذ من دونه آلهة ﴾ يعني أصناما. ﴿ إن يردني الرحمن بضر ﴾ يعني ما أصابه من السقم. ﴿ لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ﴾ يخلصوني مما أنا فيه من البلاء ﴿ إني إذا ﴾ يعني إن فعلت ذلك ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أي خسران ظاهر. ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ قال ابن مسعود: خاطب الرسل بأنه مؤمن بالله ربهم. ومعنى "فاسمعون" أي فاشهدوا، أي كونوا شهودي بالإيمان. وقال كعب ووهب: إنما قال ذلك لقومه إني آمنت بربكم الذي كفرتم به. وقيل: إنه لما قال لقومه "اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجرا" رفعوه إلى الملك وقالوا: قد تبعت عدونا؛ فطول معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل، إلى أن قال: "إني آمنت بربكم" فوثبوا عليه فقتلوه.
قال ابن مسعود: وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه من دبره، وألقي في بئر وهي الرس وهم أصحاب الرس. وفي رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة. وقال السدي: رموه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي حتى قتلوه. وقال الكلبي: حفروا حفرة وجعلوه فيها، وردموا فوقه التراب فمات ردما. وقال

الحسن: حرقوه حرقا، وعلقوه من سور المدينة وقبره في سور أنطاكية؛ حكاه الثعلبي. وقال القشيري: وقال الحسن لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء، فهو في الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة، فإذا أعاد الله الجنة أدخلها. وقيل: نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه، فوالله ما خرجت روحه إلا إلى الجنة فدخلها؛ فذلك قوله: "قيل ادخل الجنة". فلما شاهدها "قال يا ليت قومي يعلمون، بما غفر لي ربي" أي بغفران ربي لي؛ فـ "ما" مع الفعل بمنزلة المصدر. وقيل: بمعنى الذي والعائد من الصلة محذوف. ويجوز أن تكون استفهاما فيه معنى التعجب، كأنه قال ليت قومي يعلمون بأي شيء غفر لي ربي؛ قاله الفراء. واعترضه الكسائي فقال: لو صح هذا لقال بم من غير ألف. وقال الفراء: يجوز أن يقال بما بالألف وهو استفهام وأنشد فيه أبياتا. الزمخشري: "بم غفر لي" بطرح الألف أجود، وإن كان إثباتها جائزا؛ يقال: قد علمت بما صنعت هذا وبم صنعت. المهدوي: وإثبات الألف في الاستفهام قليل. فيوقف على هذا على "يعلمون". وقال جماعة: معنى قيل "ادخل الجنة" وجبت لك الجنة؛ فهو خبر بأنه قد استحق دخول الجنة؛ لأن دخولها يستحق بعد البعث.

قلت: والظاهر من الآية أنه لما قتل قيل له ادخل الجنة. قال قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق؛ أراد قوله تعالى: ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (آل عمران: ١٦٩) على ما تقدم في "آل عمران" بيانه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون ﴾ وهو مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم الذي هو ﴿ بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ وقرئ "من المكرمين" وفي معنى تمنيه قولان: أحدهما أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته. الثاني تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله. قال ابن عباس: نصح قومه حيا وميتا. رفعه القشيري فقال: وفي الخبر أنه ﷺ قال في هذه الآية (إنه نصح لهم في حياته وبعد موته)[1]. وقال ابن أبي ليلى: سُبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب وهو أفضلهم، ومؤمن آل فرعون، وصاحب يس، فهم الصديقون؛ ذكره الزمخشري مرفوعا عن رسول الله ﷺ. وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل. والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام. فلما قتل حبيب غضب الله له وعجل النقمة على قومه، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم؛ فذلك قوله: ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ﴾ أي ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبي بعد قتله؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن. قال الحسن: الجند الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء. وقيل: الجند العساكر؛ أي لم أحتج في هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر؛ بل أهلكتهم بصيحة واحدة. قال معناه ابن مسعود وغيره. فقوله: "وما كنا منزلين" تصغير لأمرهم؛ أي أهلكناهم بصيحة واحدة من بعد ذلك الرجل، أو من بعد رفعه إلى السماء. وقيل: "وما كنا منزلين" على من كان قبلهم. الزمخشري: فإن قلت فلم أنزل

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٦٨) موقوفاً على ابن عباس بأتم منه.

الجنود من السماء يوم بدر والخندق؟ فقال: ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ﴾ (الأحزاب: ٩)، وقال: ﴿ بثلاثةآلالف من الملائكة منزلين ﴾ (آل عمران: ١٢٤) ﴿ بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ (آل عمران: ١٢٥).

قلت: إنما كان يكفي ملك واحد، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة، ولكن الله فضل محمدا ﷺ بكل شيء على سائر الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلا عن حبيب النجار، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحدا؛ فمن ذلك أنه أنزل له جنودا من السماء، وكأنه أشار بقوله: "وما أنزلنا". "وما كنا منزلين" إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك، وما كنا نفعل لغيرك. ﴿ إن كانت إلا صيحةً واحدة ﴾ قراءة العامة "واحدة" بالنصب على تقدير ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج: "صيحة" بالرفع هنا، وفي قوله: "إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع" جعلوا الكون بمعنى الوقوع والحدوث؛ فكأنه قال: ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة. وأنكر هذه القراءة أبو حاتم وكثير من النحويين بسبب التأنيث فهو ضعيف؛ كما تكون ما قامت إلا هند ضعيفا؛ من حيث كان المعنى ما قام أحد إلا هند. قال أبو حاتم: فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال: إن كان إلا صيحة. قال النحاس: لا يمتنع شيء من هذا، يقال: ما جاءتني إلا جاريتك، بمعنى ما جاءتني امرأة أو جارية إلا جاريتك. والتقدير في القراءة بالرفع ما قاله أبو إسحاق، قال: المعنى إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة، وقدره غيره: ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة. وكان بمعنى وقع كثير في كلام العرب. وقرأ عبد الرحمن بن الأسود ـ ويقال إنه في حرف عبد الله كذلك ـ "إن كانت إلا زقية واحدة". وهذا مخالف للمصحف. وأيضا فإن اللغة المعروفة زقا يزقو إذا صاح، ومنه المثل: أثقل من الزواقي؛ فكان يجب على هذا أن يكون زقوة. ذكره النحاس.

قلت: وقال الجوهري: الزقو والزقي مصدر، وقد زقا الصدى يزقو زقاء: أي صاح، وكل صائح زاق، والزقية الصيحة.

قلت: وعلى هذا يقال: زقوة وزقية لغتان؛ فالقراءة صحيحة لا اعتراض عليها. والله أعلم. ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ أي ميتون هامدون؛ تشبيها بالرماد الخامد. وقال قتادة: هلكى. والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ منصوب؛ لأنه نداء نكرة ولا يجوز فيه غير النصب عند البصريين. وفي حرف أبي "يا حسرة العباد" على الإضافة. وحقيقة الحسرة في اللغة أن يلحق الإنسان

من الندم ما يصير به حسيرا. وزعم الفراء أن الاختيار النصب، وأنه لو رفعت النكرة الموصولة بالصلة كان صوابا. واستشهد بأشياء منها أنه سمع من العرب: يا مهتم بأمرنا لا تهتم. وأنشد:

يا دار غيرها البلى تغييرا

قال النحاس: وفي هذا إبطال باب النداء أو أكثره؛ لأنه يرفع النكرة المحضة، ويرفع ما هو بمنزلة المضاف في طوله، ويحذف التنوين متوسطا، ويرفع ما هو في المعنى مفعول بغير علة أوجبت ذلك. فأما ما حكاه عن العرب فلا يشبه ما أجازه؛ لأن تقدير يا مهتم بأمرنا لا تهتم على التقديم والتأخير، والمعنى: يا أيها المهتم لا تهتم بأمرنا. وتقدير البيت: يا أيتها الدار، ثم حول المخاطبة؛ أي يا هؤلاء غير هذه الدار البلى؛ كما قال الله جل وعز: ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾ (يونس: ٢٢) فـ"حسرة" منصوب على النداء؛ كما تقول يا رجلا أقبل، ومعنى النداء: هذا موضع حضور الحسرة. الطبري: المعنى يا حسرة من العباد على أنفسهم وتندما وتلهفا في استهزائهم برسل الله عليهم السلام. ابن عباس: "يا حسرة على العباد" أي يا ويلا على العباد. وعنه أيضا: حل هؤلاء محل من يتحسر عليهم. وروى الربيع عن أنس عن أبي العالية أن العباد ها هنا الرسل؛ وذلك أن الكفار لما رأوا العذاب قالوا: "يا حسرة على العباد" فتحسروا على قتلهم، وترك الإيمان بهم؛ فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم الإيمان؛ وقاله مجاهد. وقال الضحاك: إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل. وقيل: "يا حسرة على العباد" من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، لما وثب القوم لقتله. وقيل: إن الرسل الثلاثة هم الذين قالوا لما قتل القوم ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وحل بالقوم العذاب: يا حسرة على هؤلاء، كأنهم تمنوا أن يكونوا قد آمنوا. وقيل: هذا من قول القوم قالوا لما قتلوا الرجل وفارقتهم الرسل، أو قتلوا الرجل مع الرسل الثلاثة، على اختلاف الروايات: يا حسرة على هؤلاء الرسل، وعلى هذا الرجل، ليتنا آمنا بهم في الوقت الذي ينفع الإيمان. وتم الكلام على هذا، ثم ابتدأ فقال: ﴿ ما يأتيهم من رسول ﴾. وقرأ ابن هرمز ومسلم بن جندب وعكرمة: "يا حسرة على العباد" بسكون الهاء للحرص على البيان وتقرير المعنى في النفس؛ إذ كان موضع وعظ وتنبيه والعرب تفعل ذلك في مثله، وإن لم يكن موضعا للوقف. ومن ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه كان يقطع قراءته حرفا حرفا؛ حرصا على البيان والإفهام. ويجوز أن يكون "على العباد" متعلقا بالحسرة. ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف لا بالحسرة؛ فكأنه قدر الوقف على الحسرة فأسكن الهاء، ثم قال: "على العباد" أي أتحسر على العباد. وعن ابن عباس والضحاك وغيرهما: "يا حسرة العباد" مضاف بحذف "على". وهو خلاف المصحف. وجاز أن يكون من باب الإضافة إلى الفاعل فيكون العباد فاعلين؛ كأنهم إذا شاهدوا العذاب تحسروا فهو كقولك يا قيام زيد. ويجوز أن تكون من باب الإضافة إلى المفعول، فيكون العباد مفعولين؛ فكأن العباد يتحسر عليهم من يشفق لهم. وقراءة من قرأ: "يا حسرة على العباد" مقوية لهذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ قال سيبويه: "أن" بدل من "كم"، ومعنى كم ها هنا الخبر؛ فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام. والمعنى:

ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون. وقال الفراء: "كم" في موضع نصب من وجهين: أحدهما بـ "يروا" واستشهد على هذا بأنه في قراءة ابن مسعود "ألم يروا من أهلكنا". والوجه الآخر أن يكون "كم" في موضع نصب بـ "أهلكنا". قال النحاس: القول الأول محال؛ لأن "كم" لا يعمل فيها ما قبلها؛ لأنها استفهام، ومحال أن يدخل الاستفهام في خبر ما قبله. وكذا حكمها إذا كانت خبرا، وإن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هذا فجعل "أنهم" بدلا من كم. وقد رد ذلك محمد بن يزيد أشد رد، وقال: "كم" في موضع نصب بـ "أهلكنا" و"أنهم" في موضع نصب، والمعنى عنده بأنهم أي "ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون" بالاستئصال. قال: والدليل على هذا أنها في قراءة عبد الله "من أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون". وقرأ الحسن: "إنهم إليهم لا يرجعون" بكسر الهمزة على الاستئناف. وهذه الآية رد على من زعم أن من الخلق من يرجع قبل القيامة بعد الموت. ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ يريد يوم القيامة للجزاء. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة: "وإن كل لما" بتشديد "لما". وخفف الباقون. فـ "إن" مخففة من الثقيلة وما بعدها مرفوع بالابتداء، وما بعده الخبر. وبطل عملها حين تغير لفظها. ولزمت اللام في الخبر فرقا بينها وبين إن التي بمعنى ما. "وما" عند أبي عبيدة زائدة. والتقدير عنده: وإن كل لجميع. قال الفراء: ومن شدد جعل "لما" بمعنى إلا و"إن" بمعنى ما، أي ما كل إلا لجميع؛ كقوله: ﴿ إن هو إلا رجل به جنة ﴾ (المؤمنون: ٢٥). وحكى سيبويه في قوله: سألتك بالله لما فعلت. وزعم الكسائي أنه لا يعرف هذا. وقد مضى هذا المعنى في "هود". وفي حرف أبي "وإن منهم إلا جميع لدينا محضرون".

قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ نبههم الله تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكرهم توحيده وكمال قدرته، وهي الأرض الميتة أحياها بالنبات وإخراج الحب منها. ﴿ فمنه ﴾ أي من الحب ﴿ يأكلون ﴾ وبه يتغذون. وشدد أهل المدينة "الميتة" وخفف الباقون، وقد تقدم. ﴿ وجعلنا فيها ﴾ أي في الأرض. ﴿ جنات ﴾ أي بساتين. ﴿ من نخيل وأعناب ﴾ وخصصهما بالذكر؛ لأنهما أعلى الثمار. ﴿ وفجرنا فيها من العيون ﴾ أي في البساتين. ﴿ ليأكلوا من ثمره ﴾ الهاء في "ثمره" تعود على ماء العيون؛ لأن الثمر منه اندرج؛ قاله الجرجاني والمهدوي وغيرهما. وقيل: أي ليأكلوا من ثمر ما ذكرنا؛ كما قال: ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه ﴾ (النحل: ٦٦). وقرأ حمزة والكسائي: "من ثمره" بضم الثاء والميم. وفتحهما الباقون. وعن الأعمش ضم الثاء وإسكان الميم. وقد مضى الكلام فيه في "الأنعام". ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ "ما" في موضع خفض على العطف على "من ثمره" أي ومما عملته أيديهم. وقرأ الكوفيون: "وما عملت" بغير هاء. الباقون

"عملته" على الأصل من غير حذف. وحذف الصلة أيضا في الكلام كثير لطول الاسم. ويجوز أن تكون "ما" نافية لا موضع لـها فلا تحتاج إلى صلة ولا راجع. أي ولم تعملـه أيديهم من الزرع الذي أنبته الله لـهم. وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل. وقال غيرهم: المعنى ومن الذي عملته أيديهم أي من الثمار، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة، ومما اتخذوا من الحبوب بعلاج كالخبز والدهن المستخرج من السمسم والزيتون. وقيل: يرجع ذلك إلى ما يغرسه الناس. روي معناه عن ابن عباس أيضا. ﴿ أفلا يشكرون ﴾ نعمه.

قولـه تعالى: ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها ﴾ نزه نفسه سبحانه عن قول الكفار؛ إذ عبدوا غيره مع ما رأوه من نعمه وآثار قدرته. وفيه تقدير الأمر؛ أي سبحوه ونزهوه عما لا يليق به. وقيل: فيه معنى التعجب؛ أي عجبا لـهؤلاء في كفرهم مع ما يشاهدونه من هذه الآيات؛ ومن تعجب من شيء قال: سبحان الله! والأزواج الأنواع والأصناف؛ فكل زوج صنف؛ لأنه مختلف في الألوان والطعوم والأشكال والصغر والكبر، فاختلافها هو ازدواجـها. وقال قتادة: يعني الذكـر والأنثى. ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ يعني من النبات؛ لأنه أصناف. ﴿ ومن أنفسهم ﴾ يعني وخلق منهم أولادا أزواجا ذكورا وإناثا. ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ أي من أصناف خلقه في البر والبحر والسماء والأرض. ثم يجوز أن يكون ما يخلقه لا يعلمه البشر وتعلمه الملائكة. ويجوز ألا يعلمه مخلوق. ووجه الاستدلال في هذه الآية أنه إذا انفرد بالخلق فلا ينبغي أن يشرك به.

قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وآية لـهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ أي وعلامة دالة على توحيد الله وقدرته ووجوب إلاهيته. والسلخ: الكشط والنزع؛ يقال: سلخه الله من دينه، ثم تستعمل بمعنى الإخراج. وقد جعل ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء وظهور المسلوخ فهي استعارة. و﴿ مظلمون ﴾ داخلون في الظلام؛ يقال: أظلمنا أي دخلنا في ظلام الليل، وأظهرنا دخلنا في وقت الظهر، وكذلك أصبحنا وأضحينا وأمسينا. وقيل: "منه" بمعنى عنه، والمعنى نسلخ عنه ضياء النهار. ﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ أي في ظلمة؛ لأن ضوء النهار يتداخل في الـهواء فيضيء فإذا خرج منه أظلم.

قولـه تعالى: ﴿ والشمس تجري لمستقر لـها ﴾ يجوز أن يكون تقديره وآية لـهم الشمس. ويجوز أن يكون "الشمس" مرفوعا بإضمار فعل يفسره الثاني. ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء "تجري" في موضع الخبر أي جارية. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قولـه عز وجل: "والشمس تجري لمستقر لـها" قال: (مستقرها تحت العرش)[1]. وفيه عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال يوما: (أتدرون أين تذهب هذه الشمس)؟ قالوا الله ورسولـه أعلم، قال: (إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لـها ارتفعي ارجعي من حيث

---

(١) أخرجه مسلم في "الإيمان"، (١٥٩).

جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة ولا تزال كذلك حتى يقال لـها ارتفعي ارجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش فيقال لـها ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها) فقال رسول الله ﷺ: (أتدرون متى ذلكم ذاك حين ﴿ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ﴾[1] (الأنعام:١٥٨)). ولفظ البخاري عن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: (تدري أين تذهب) قلت الله ورسولـه أعلم، قال: (فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لـها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لـها يقال لـها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قولـه تعالى: "والشمس تجري لمستقر لـها ذلك تقدير العزيز العليم ")[2]. ولفظ الترمذي عن أبي ذر قال: دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبي ﷺ جالس. فقال النبي ﷺ: (يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه) قال قلت: الله ورسولـه أعلم؛ قال: (فإنها تذهب فتستأذن في السجود فيؤذن لـها وكأنها قد قيل لـها اطلعي من حيث جئت فتطلع من مغربها) قال: ثم قرأ "ذلك مستقر لـها" قال وذلك قراءة عبد الله[3]. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وقال عكرمة: إن الشمس إذا غربت دخلت محرابا تحت العرش تسبح الله حتى تصبح، فإذا أصبحت استعفت ربها من الخروج فيقول لـها الرب: ولم ذاك؟ قالت: إني إذا خرجت عبدت من دونك. فيقول الرب تبارك وتعالى: اخرجي فليس عليك من ذاك شيء، سأبعث إليهم جهنم مع سبعين ألف ملك يقودونها حتى يدخلوهم فيها.

وقال الكلبي وغيره: المعنى تجري إلى أبعد منازلـها في الغروب، ثم ترجع إلى أدنى منازلـها؛ فمستقرها بلوغها الموضع الذي لا تتجاوزه بل ترجع منه؛ كالإنسان يقطع مسافة حتى يبلغ أقصى مقصوده فيقضي وطره، ثم يرجع إلى منزلـه الأول الذي ابتدأ منه سفره. وعلى تبليغ الشمس أقصى منازلـها، وهو مستقرها إذا طلعت الـهنعة، وذلك اليوم أطول الأيام في السنة، وتلك الليلة أقصر الليالي، فالنهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات، ثم يأخذ في النقصان وترجع الشمس، فإذا طلعت الثريا استوى الليل والنهار، وكل واحد ثنتا عشرة ساعة، ثم تبلغ أدنى منازلـها وتطلع النعائم، وذلك اليوم أقصر الأيام، والليل خمس عشرة ساعة، حتى إذا طلع فرغ الدلو المؤخر استوى الليل والنهار، فيأخذ الليل من النهار كل يوم عشر ثلث ساعة، وكل عشرة أيام ثلث ساعة، وكل شهر ساعة تامة، حتى يستويا ويأخذ الليل حتى يبلغ خمس عشرة ساعة، ويأخذ النهار من الليل كذلك. وقال الحسن: إن للشمس في السنة ثلاثمائة وستين مطلعا، تنزل في كل يوم مطلعا، ثم لا تنزلـه إلى الحول؛ فهي تجري في تلك المنازل وهي مستقرها. وهو معنى الذي قبلـه سواء. وقال ابن عباس: إنها إذا غربت وانتهت إلى الموضع الذي لا تتجاوزه استقرت تحت العرش إلى أن تطلع.

قلت: ما قالـه ابن عباس يجمع الأقوال فتأملـه. وقيل: إلى انتهاء أمدها عند انقضاء الدنيا وقرأ ابن مسعود وابن عباس "والشمس تجري لا مستقر لـها" أي إنها تجري في الليل والنهار لا وقوف لـها

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٠٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٢٧)، ونحوه في البخاري (٧٤٢٤).

ولا قرار، إلى أن يكورها الله يوم القيامة. وقد احتج من خالف المصحف فقال: أنا أقرأ بقراءة ابن مسعود وابن عباس. قال أبو بكر الأنباري: وهذا باطل مردود على من نقله؛ لأن أبا عمرو روى عن مجاهد عن ابن عباس؛ وابن كثير روى عن مجاهد عن ابن عباس "والشمس تجري لمستقر لها" فهذان السندان عن ابن عباس اللذان يشهد بصحتهما الإجماع ـ يبطلان ما روي بالسند الضعيف مما يخالف مذهب الجماعة، وما اتفقت عليه الأمة.

قلت: والأحاديث الثابتة التي ذكرناها ترد قوله، فما أجرأه على كتاب الله، قاتله الله. وقوله: "لمستقر لها" أي إلى مستقرها، والمستقر موضع القرار. ﴿ذلك تقدير﴾ أي الذي ذكر من أمر الليل والنهار والشمس تقدير ﴿العزيز العليم﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَـٰدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ والقمر ﴾ يكون تقديره وآية لهم القمر. ويجوز أن يكون "والقمر" مرفوعا بالابتداء. وقرأ الكوفيون "والقمر" بالنصب على إضمار فعل وهو اختيار أبي عبيد. قال: لأن قبله فعلا وبعده فعلا؛ قبله "نسلخ" وبعده "قدرنا". النحاس: وأهل العربية جميعا فيما علمت على خلاف ما قال، منهم الفراء قال: الرفع أعجب إلي، وإنما كان الرفع عندهم أولى؛ لأنه معطوف على ما قبله ومعناه وآية لهم القمر. وقوله: إن قبله "نسلخ" فقبله ما هو أقرب منه وهو "تجري" وقبله "والشمس" بالرفع. والذي ذكره بعده وهو "قدرناه" قد عمل في الهاء. قال أبو حاتم: الرفع أولى؛ لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء. ويقال: القمر ليس هو المنازل فكيف قال: ﴿ قدرناه منازل ﴾ ففي هذا جوابان: أحدهما قدرناه ذا منازل؛ مثل: ﴿ واسأل القرية ﴾ (يوسف: ٨٢). والتقدير الآخر قدرنا له منازل ثم حذفت اللام، وكان حذفها حسنا لتعدي الفعل إلى مفعولين مثل ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا ﴾ (الأعراف: ١٥٥). والمنازل ثمانية وعشرون منزلا، ينزل القمر كل ليلة منها بمنزل؛ وهي: الشرطان. البطين. الثريا. الدبران. الهقعة. الهنعة. الذراع. النثرة. الطرف. الجبهة. الخراتان. الصرفة. العواء. السماك. الغفر. الزبانيان. الإكليل. القلب. الشولة. النعائم. البلدة. سعد الذابح. سعد بلع. سعد السعود. سعد الأخبية. الفرغ المقدم. الفرغ المؤخر. بطن الحوت. فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة. ثم يستسر ثم يطلع هلالا، فيعود في قطع الفلك على المنازل، وهي منقسمة على البروج لكل برج منزلان وثلث. فللحمل الشرطان والبطين وثلث الثريا، وللثور ثلثا الثريا والدبران وثلثا الهقعة، ثم كذلك إلى سائرها. وقد مضى في "الحجر" تسمية البروج والحمد لله. وقيل: إن الله تعالى خلق الشمس والقمر من نار ثم كسيا النور عند الطلوع، فأما نور الشمس فمن نور العرش، وأما نور القمر فمن نور الكرسي، فذلك أصل الخلقة وهذه الكسوة. فأما الشمس فتركت كسوتها على حالها لتشعشع وتشرق، وأما القمر فأمرّ الروح الأمين جناحه على وجهه فمحا ضوءه بسلطان الجناح، وذلك أنه روح والروح سلطانه غالب على الأشياء. فبقي ذلك المحو على ما يراه الخلق، ثم جعل في غلاف من ماء، ثم جعل له مجرى، فكل ليلة يبدو للخلق من ذلك الغلاف قمرا بمقدار ما

يقمر لـهم حتى ينتهي بدؤه، ويراه الخلق بكمالـه واستدارته. ثم لا يزال يعود إلى الغلاف كل ليلة شيء منه فينقص من الرؤية والإقمار بمقدار ما زاد في البدء. ويبتدئ في النقصان من الناحية التي لا تراه الشمس وهي ناحية الغروب حتى يعود كالعرجون القديم، وهو العذق المتقوس ليبسه ودقته. وإنما قيل القمر؛ لأنه يقمر أي يبيض الجو ببياضه إلى أن يستسر.

الثانية : قولـه تعالى: ﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾ قال الزجاج: هو عود العذق الذي عليه الشماريخ، وهو فعلون من الانعراج وهو الانعطاف، أي سار في منازلـه، فإذا كان في آخرها دق واستقوس وضاق حتى صار كالعرجون. وعلى هذا فالنون زائدة. وقال قتادة: هو العذق اليابس المنحني من النخلة. ثعلب: "كالعرجون القديم" قال: "العرجون" الذي يبقى من الكباسة في النخلة إذا قطعت، و"القديم" البالي. الخليل: في باب الرباعي "العرجون" أصل العذق وهو أصفر عريض يشبه به الـهلال إذا انحنى. الجوهري: "العرجون" أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسا؛ وعرجنه: ضربه بالعرجون. فالنون على قول هؤلاء أصلية؛ ومنه شعر أعشى بني قيس:

شـــرق المسك والعبير بها فهي صفراء كعرجون القمر

فالعرجون إذا عتق ويبس وتقوس شبه القمر في دقته وصفرته به. ويقال لـه أيضا الإهان والكباسة والقنو، وأهل مصر يسمونه الإسباطة. وقرئ: "العرجون" بوزن الفرجون وهما لغتان كالبُزيون والبزيون؛ ذكره الزمخشري وقال: هو عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة. واعلم أن الـسنة منقسمة على أربعة فصول، لكل فصل سبعة منازل: فأولـها الربيع، وأولـه خمسة عشر يوما من آذار، وعدد أيامه اثنان وتسعون يوما؛ تقطع فيه الشمـس ثلاثة بروج: الحمل، والثور، والجوزاء، وسبعة منازل: الشرطان والبطين والثريا والدبران والـهقعة والـهنعة والذراع. ثم يدخل فصل الصيف في خمـسة عشر يوما من حزيران، وعدد أيامه اثنان وتسعون يوما؛ تقطع الشمس فيه ثلاثة بروج: السّرطان، والأسد، والسنبلة، وسبعة منازل: وهي النثرة والطرف والجبهة والخراتان والصرفة والعواء والـسماك. ثم يدخل فصل الخريف في خمسة عشر يوما من أيلول، وعدد أيامه أحد وتسعون يوما، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج؛ وهي الميزان، والعقرب، والقوس، وسبعة منازل الغفر والزبانان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة. ثم يدخل فصل الشتاء في خمسة عشر يوما من كانون الأول، وعدد أيامه تسعون يوما وربما كان أحدا وتسعين يوما، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج: وهي الجدي والدلو والحوت، وسبعة منازل سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرغ المقدم، والفرغ المؤخر وبطن الحوت. وهذه قسمة السريانيين لشهورها: تشرين الأول، تشرين الثاني، كانون الأول، كانون الثاني، أشباط، آذار، نيسان، أيار، حزيران، تموز، آب، أيلول، وكلـها أحد وثلاثون إلا تشرين الثاني ونيسان وحزيران وأيلول، فهي ثلاثون، وأشباط ثمانية وعشرون يوما وربع يوم. وإنما أردنا بهذا أن تنظر في قدرة الله تعالى: فذلك قولـه تعالى: "والقمر قدرناه منازل" فإذا كانت الشمس في منزل أهل الـهلال بالمنزل الذي بعده، وكان الفجر بمنزلتين من

قبلـه. فإذا كانت الشمس بالثريا في خمسة وعشرين يوما من نيسان، كان الفجر بالشرطين، وأهل الـهلال بالدبران، ثم يكون لـه في كل ليلة منزلة حتى يقطع في ثمان وعشرين ليلة ثمانيا وعشرين منزلة. وقد قطعت الشمس منزلتين فيقطعهما، ثم يطلع في المنزلة التي بعد منزلة الشمس فـ "ذلك تقدير العزيز العليم".

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ القديم ﴾ قال الزمخشري: القديم المحول وإذا قدم دق وانحنى واصفر فشبه القمر به من ثلاثة أوجه. وقيل: أقل عدة الموصوف بالقديم الحول، فلو أن رجلا قال: كل مملوك لي قديم فهو حر، أو كتب ذلك في وصيته عتق من مضى لـه حول أو أكثر.

قلت: قد مضى في "البقرة" ما يترتب على الأهلة من الأحكام والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ لا الشمس ينبغي لـها أن تدرك القمر ﴾ رفعت "الشمس" بالابتداء، ولا يجوز أن تعمل "لا" في معرفة. وقد تكلم العلماء في معنى هذه الآية، فقال بعضهم: معناها أن الشمس لا تدرك القمر فتبطل معناه. أي لكل واحد منهما سلطان على حيالـه، فلا يدخل أحدهما على الآخر فيذهب سلطانه، إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك، فتطلع الشمس من مغربها على ما تقدم في آخر سورة "الأنعام" بيانه. وقيل: إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء. روي معناه عن ابن عباس والضحاك. وقال مجاهد: أي لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر. وقال قتادة: لكل حد وعلم لا يعدوه ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا. وقال الحسن: إنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الـهلال خاصة. أي لا تبقى الشمس حتى يطلع القمر، ولكن إذا غربت الشمس طلع القمر. يحيى بن سلام: لا تدرك الشمس القمر ليلة البدر خاصة لأنه يبادر بالمغيب قبل طلوعها. وقيل: معناه إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منازل لا يشتركان فيها؛ قالـه ابن عباس أيضا. وقيل: القمر في السماء الدنيا والشمس في السماء الرابعة فهي لا تدركه؛ ذكره النحاس والمهدوي. قال النحاس: وأحسن ما قيل في معناها وأبينه مما لا يدفع: أن سير القمر سير سريع والشمس لا تدركـه في السير. ذكره المهدوي أيضا. فأما قولـه سبحانه: ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ (القيامة: ٩) فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدم بيانه في آخر "الأنعام" ويأتي في سورة (القيامة) أيضا. وجمعهما علامة لانقضاء الدنيا وقيام الساعة. ﴿ وكل ﴾ يعني من الشمس والقمر والنجوم ﴿ في فلك يسبحون ﴾ أي يجرون. وقيل: يدورون. ولم يقل تسبح؛ لأنه وصفها بفعل من يعقل. وقال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض غير ملصقة؛ ولو كانت ملصقة ما جرت؛ ذكره الثعلبي والماوردي. واستدل بعضهم بقولـه تعالى: "ولا الليل سابق النهار" على أن النهار مخلوق قبل الليل، وأن الليل لم يسبقه بخلق. وقيل: كل واحد منهما يجيء وقته ولا يسبق صاحبه إلى أن يجمع بين الشمس والقمر يوم القيامة؛ كما قال: "وجمع الشمس والقمر" وإنما هذا التعاقب الآن لتتم مصالح العباد. ﴿ لتعلموا عدد السنين

والحساب﴾ (يونس: ٥) ويكون الليل للإجمام والاستراحة، والنهار للتصرف؛ كما قال تعالى: ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ (القصص: ٧٣) وقال: "وجعلنا نومكم سباتا" أي راحة لأبدانكم من عمل النهار. فقوله: "ولا الليل سابق النهار" أي غالب النهار؛ يقال: سبق فلان فلانا أي غلبه. وذكر المبرد قال: سمعت عمارة يقرأ: "ولا الليل سابق النهار" فقلت ما هذا؟ قال: أردت سابق النهار فحذفت التنوين؛ لأنه أخف. قال النحاس: يجوز أن يكون "النهار" منصوبا بغير تنوين ويكون التنوين حذف لالتقاء الساكنين.

قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وآية لهم ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أحدها عبرة لهم؛ لأن في الآيات اعتبارا. الثاني نعمة عليهم؛ لأن في الآيات إنعاما. الثالث إنذار لهم؛ لأن في الآيات إنذارا. ﴿ أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ﴾ من أشكل ما في السورة؛ لأنهم هم المحمولون. فقيل: المعنى وآية لأهل مكة أنا حملنا ذرية القرون الماضية "في الفلك المشحون" فالضميران مختلفان؛ ذكره المهدوي. وحكاه النحاس عن علي بن سليمان أنه سمعه يقوله. وقيل: الضميران جميعا لأهل مكة على أن يكون ذرياتهم أولادهم وضعفاءهم؛ فالفلك على القول الأول سفينة نوح. وعلى الثاني يكون اسما للجنس؛ خبّر جل وعز بلطفه وامتنانه أنه خلق السفن يحمل فيها من يصعب عليه المشي والركوب من الذرية والضعفاء، فيكون الضميران على هذا متفقين. وقيل: الذرية الآباء والأجداد، حملهم الله تعالى في سفينة نوح عليه السلام؛ فالآباء ذرية والأبناء ذرية؛ بدليل هذه الآية؛ قاله أبو عثمان. وسمي الآباء ذرية؛ لأن منهم ذرأ الأبناء. وقول رابع: أن الذرية النطف حملها الله تعالى في بطون النساء تشبيها بالفلك المشحون؛ قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ ذكره الماوردي. وقد مضى في "البقرة" اشتقاق الذرية والكلام فيها مستوفى. و"المشحون" المملوء الموقر، و"الفلك" يكون واحدا وجمعا. وقد تقدم في "يونس" القول فيه.

قوله تعالى: ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ والأصل يركبونه فحذفت الهاء لطول الاسم وأنه رأس آية. وفي معناه ثلاثة أقوال: مذهب مجاهد وقتادة وجماعة من أهل التفسير، وروي عن ابن عباس أن معنى "من مثله" للإبل، خلقها لهم للركوب في البر مثل السفن المركوبة في البحر؛ والعرب تشبه الإبل بالسفن. قال طرفة:

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دَدِ

جمع خلية وهي السفينة العظيمة. والقول الثاني أنه للإبل والدواب وكل ما يركب. والقول الثالث أنه للسفن؛ النحاس: وهو أصحها لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس. "وخلقنا لهم من مثله ما يركبون" قال: خلق لهم سفنا أمثالها يركبون فيها. وقال أبو مالك: إنها السفن الصغار خلقها مثل السفن الكبار؛ وروي عن ابن عباس والحسن. وقال الضحاك وغيره: هي السفن المتخذة بعد سفينة

نوح. قال الماوردي: ويجيء على مقتضى تأويل علي ﷺ في أن الذرية في الفلك المشحون هي النطف في بطون النساء. قول خامس في قوله: "وخلقنا لهم من مثله ما يركبون" أن يكون تأويله النساء خلقن لركوب الأزواج لكن لم أره محكيا.

قوله تعالى: ﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ أي في البحر فترجع الكناية إلى أصحاب الذرية، أو إلى الجميع، وهذا يدل على صحة قول ابن عباس ومن قال: إن المراد "من مثله" السفن لا الإبل. ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ أي لا مغيث لهم. رواه سعيد عن قتادة. وروى شيبان عنه: فلا منعة لهم ومعناهما متقاربان. و"صريخ" بمعنى مصرخ فعيل بمعنى فاعل. ويجوز "فلا صريخ لهم"؛ لأن بعده ما لا يجوز فيه إلا الرفع؛ لأنه معرفة وهو ﴿ ولا هم ينقذون ﴾ والنحويون يختارون لا رجل في الدار ولا زيد. ومعنى: "ينقذون" يخلصون من الغرق. وقيل: من العذاب. ﴿ إلا رحمة منا ﴾ قال الكسائي: هو نصب على الاستثناء. وقال الزجاج: نصب مفعول من أجله؛ أي للرحمة ﴿ ومتاعا ﴾ معطوف عليه. ﴿ إلى حين ﴾ إلى الموت؛ قاله قتادة. يحيى بن سلام: إلى القيامة أي إلا أن نرحمهم ونمتعهم إلى آجالهم، وأن الله عجل عذاب الأمم السالفة، وأخر عذاب أمة محمد ﷺ وإن كذبوه إلى الموت والقيامة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم ﴾ قال قتادة: يعني "اتقوا ما بين أيديكم" أي من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم، "وما خلفكم" من الآخرة. ابن عباس وابن جبير ومجاهد: "ما بين أيديكم" ما مضى من الذنوب، "وما خلفكم" ما يأتي من الذنوب. الحسن: "ما بين أيديكم" ما مضى من أجلكم "وما خلفكم" ما بقي منه. وقيل: "ما بين أيديكم" من الدنيا، "وما خلفكم" من عذاب الآخرة؛ قاله سفيان. وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ابن عباس. قال: "ما بين أيديكم" من أمر الآخرة وما عملوا لها، "وما خلفكم" من أمر الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها. وقيل: "ما بين أيديكم" ما ظهر لكم "وما خلفكم" ما خفي عنكم. والجواب محذوف، والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا؛ دليله قوله بعد: ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ فاكتفى بهذا عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴾ أي تصدقوا على الفقراء. قال الحسن: يعني اليهود أمروا بإطعام الفقراء. وقيل: هم المشركون قال لهم فقراء أصحاب النبي ﷺ: أعطونا ما

زعمتم من أموالكم أنها لله؛ وذلك قوله: ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ﴾ (الأنعام: ١٣٦) فحرموهم وقالوا: لو شاء الله أطعمكم - استهزاء - فلا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا. قالوا: ﴿ أنطعم ﴾ أي أنرزق ﴿ من لو يشاء الله أطعمه ﴾ كان بلغهم من قول المسلمين: أن الرازق هو الله. فقالوا هزءا: أنرزق من لو يشاء الله أغناه. وعن ابن عباس: كان بمكة زنادقة، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله! أيفقره الله ونطعمه نحن. وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلانا؛ ولو شاء الله لأعز، ولو شاء الله لكان كذا. فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين، وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى. وقيل: قالوا هذا تعلقا بقول المؤمنين لهم: "أنفقوا مما رزقكم الله" أي فإذا كان الله رزقنا فهو قادر على أن يرزقكم فلم تلتمسون الرزق منا؟. وكان هذا الاحتجاج باطلا؛ لأن الله تعالى إذا ملك عبدا مالا ثم أوجب عليه فيه حقا فكأنه انتزع ذلك القدر منه، فلا معنى للاعتراض. وقد صدقوا في قولهم: لو شاء الله أطعمهم ولكن كذبوا في الاحتجاج. ومثله قوله: ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ﴾ (الأنعام: ١٤٨)، وقوله: ﴿ قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ (المنافقون: ١). ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ قيل: هو من قول الكفار للمؤمنين؛ أي في سؤال المال وفي اتباعكم محمدا. قال معناه مقاتل وغيره. وقيل: هو من قول أصحاب النبي ﷺ لهم. وقيل: من قول الله تعالى للكفار حين ردوا بهذا الجواب. وقيل: إن أبا بكر الصديق ﷺ كان يطعم مساكين المسلمين فلقيه أبو جهل فقال: يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟ قال: نعم. قال: فما باله لم يطعمهم؟ قال: ابتلى قوما بالفقر، وقوما بالغنى، وأمر الفقراء بالصبر، وأمر الأغنياء بالإعطاء. فقال: والله يا أبا بكر ما أنت إلا في ضلال أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت؟ فنزلت هذه الآية، ونزل قوله تعالى: ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ﴾ (الليل: ٥ - ٦) الآيات. وقيل: نزلت الآية في قوم من الزنادقة، وقد كان فيهم أقوام يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع واستهزؤوا بالمسلمين بهذا القول؛ ذكره القشيري والماوردي.

قوله تعالى: ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ لما قيل لهم: "اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم" قالوا: "متى هذا الوعد" وكان هذا استهزاء منهم أيضا أي لا تحقيق لهذا الوعيد، قال الله تعالى: ﴿ ما ينظرون ﴾ أي ما ينتظرون ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ وهي نفخة إسرافيل ﴿ تأخذهم وهم يخصمون ﴾ أي يختصمون في أمور دنياهم فيموتون في مكانهم؛ وهذه نفخة الصعق. وفي "يخصمون" خمس قراءات: قرأ أبو عمرو وابن كثير: "وهم يخصمون" بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد. وكذا روى ورش عن نافع. فأما أصحاب القراءات وأصحاب نافع سوى ورش فرَوُوا عنه "يخصمون" بإسكان الخاء وتشديد الصاد على الجمع بين ساكنين. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة: "وهم يخصمون" بإسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصمه. وقرأ عاصم والكسائي "وهم يخصمون" بكسر الخاء وتشديد الصاد، ومعناه يخصم بعضهم بعضا. وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يختصمون في الحجة أنهم لا يبعثون. وقد روى ابن جبير عن أبي بكر عن عاصم، وحماد عن

عاصم كسر الياء والخاء والتشديد. قال النحاس: القراءة الأولى أبينها، والأصل فيها يختصمون فأدغمت التاء في الصاد فنقلت حركتها إلى الخاء. وفي حرف أبي "وهم يختصمون" ـ وإسكان الخاء لا يجوز، لأنه جمع بين ساكنين وليس أحدهما حرف مد ولين. وقيل: أسكنوا الخاء على أصلها، والمعنى يخصم بعضهم بعضا فحذف المضاف، وجاز أن يكون المعنى يخصمون مجادلهم عند أنفسهم فحذف المفعول. قال الثعلبي: وهي قراءة أبي بن كعب. قال النحاس: فأما "يِخِصّمون" فالأصل فيه أيضا يختصمون، فأدغمت التاء في الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين. وزعم الفراء أن هذه القراءة أجود وأكثر؛ فترك ما هو أولى من إلقاء حركة التاء على الخاء واجتلب لها حركة أخرى وجمع بين ياء وكسرة، وزعم أنه أجود وأكثر. وكيف يكون أكثر وبالفتح قراءة الخلق من أهل مكة وأهل البصرة وأهل المدينة! وما روي عن عاصم من كسر الياء والخاء فللإتباع. وقد مضى هذا في "البقرة" في ﴿ يخطف أبصارهم ﴾ (البقرة: ٢٠) وفي "يونس" في ﴿ يهدي ﴾ (يونس: ٣٥). وقال عكرمة في قوله جل وعز: "إلا صيحة واحدة" قال: هي النفخة الأولى في الصور. وقال أبو هريرة: ينفخ في الصور والناس في أسواقهم: فمن حالب لقحة، ومن ذارع ثوبا، ومن مار في حاجة. وروى نعيم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فلا يطويانه حتى تقوم الساعة، والرجل يليط حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة، والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما يبتلعها حتى تقوم الساعة)[1]. وفي حديث عبد الله بن عمرو: (وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ـ قال ـ فيصعق ويصعق الناس)[2] الحديث. ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ أي لا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضا لما في يده من حق. وقيل: لا يستطيع أن يوصي بعضهم بعضا بالتوبة والإقلاع؛ بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم. "ولا إلى أهلهم يرجعون" إذا ماتوا. وقيل: إن معنى ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ لا يرجعون إليهم قولا. وقال قتادة: "ولا إلى أهلهم يرجعون" أي إلى منازلهم؛ لأنهم قد أعجلوا عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ونفخ في الصور ﴾ هذه النفخة الثانية للنشأة. وقد بينا في سورة (النمل) أنهما نفختان لا ثلاث. وهذه الآية دالة على ذلك. وروى المبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في "الرقاق"، (٦٥٠٦)، وقد رواه المصنف بالمعنى.
(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٩٤٠).

ﷺ : (بين النفختين أربعون سنة: الأولى يميت الله بها كل حي، والأخرى يحيي الله بها كل ميت)[١] .
وقال قتادة: الصور جمع صورة؛ أي نفخ في الصور والأرواح. وصورة وصور مثل سورة البناء وسور؛ قال العجاج:

ورب ذي سرادق محجور سرتُ إليه في أعالي السور

وقد روي عن أبي هريرة أنه قرأ: "ونفخ في الصور". النحاس: والصحيح أن "الصور" بإسكان الواو: القرن؛ جاء بذلك التوقيف عن رسول الله ﷺ ، وذلك معروف في كلام العرب. أنشد أهل اللغة:

نحن نطحناهم غداة الغورين بالضابحات في غبار النقعين
نطحا شديدا لا كنطح الصورين

وقد مضى هذا في "الأنعام" مستوفى. ﴿ فإذا هم من الأجداث ﴾ أي القبور. وقرئ بالفاء "من الأجداف" ذكره الزمخشري. يقال: جدث وجدف. واللغة الفصيحة الجدث (بالثاء) والجمع أجدث وأجداث؛ قال المتنخل الهذلي:

عرفت بأجدث فنعاف عرق علامات كتحبير النماط

واجتدث: أي اتخذ جدثا. ﴿ إلى ربهم ينسلون ﴾ أي يخرجون؛ قاله ابن عباس وقتادة. ومنه قول امرئ القيس:

فسلي ثيابي من ثيابك تنسلي

ومنه قيل للولد نسل؛ لأنه يخرج من بطن أمه. وقيل: يسرعون. والنسلان والعسلان: الإسراع في السير، ومنه مشية الذئب؛ قال:

عسلان الذئب أمسى قاربا برد الليل عليه فنسل

يقال: عسل الذئب ونسل، يعسل وينسل، من باب ضرب يضرب. ويقال: ينسل بالضم أيضا. وهو الإسراع في المشي؛ فالمعنى يخرجون مسرعين. وفي التنزيل: ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ (لقمان: ٢٨)، وقال: ﴿ يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر﴾ (القمر: ٧)، وفي ﴿ سأل سائل﴾ (المعارج: ١)﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ (المعارج: ٤٣) أي يسرعون. وفي الخبر: شكونا إلى النبي ﷺ الضعف فقال: (عليكم بالنسل) أي بالإسراع في المشي فإنه ينشط.

قوله تعالى: ﴿ قالوا يا ويلنا﴾ قال ابن الأنباري: "يا ويلنا" وقف حسن ثم تبتدئ﴿ مَنْ بعثنا﴾ وروي عن بعض القراء "يا ويلنا من بعثنا" بكسر من والثاء من البعث. روي ذلك عن علي ﷺ ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على قوله: "يا ويلنا" حتى يقول: ﴿ من مرقدنا﴾ . وفي قراءة أبي ابن كعب "من هبّنا" بالوصل "من مرقدنا" فهذا دليل على صحة مذهب العامة. قال المهدوي: قرأ ابن أبي ليلى: "قالوا يا ويلتنا" بزيادة تاء وهو تأنيث الوصل، ومثله: ﴿ يا ويلتا أألد وأنا عجوز﴾ (هود: ٧٢). وقرأ علي ﷺ "يا ويلتا من بعثنا" فـ "من" متعلقة بالويل أو حال من

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في "الفتح"، (١١/ ٣٧٠)، وقال بعدما ذكر أنه مرسل: ونحوه عند ابن مردويه من حديث ابن عباس، وهو ضعيف أيضاً.

"ويلتا" فتتعلق بمحذوف؛ كأنه قال: يا ويلتا كائنا من بعثنا؛ وكما يجوز أن يكون خبرا عنه كذلك يجوز أن يكون حالا منه. و"من" من قولـه: "من مرقدنا" متعلقة بنفس البعث. ثم قيل: كيف قالوا هذا وهم من المعذبين في قبورهم؟ فالجواب أن أبي بن كعب قال: ينامون نومة. وفي رواية فيقولون: يا ويلتا من أهبنا من مرقدنا. قال أبو بكر الأنباري: لا يحمل هذا الحديث على أن "أهبنا" من لفظ القرآن كما قالـه من طعن في القرآن، ولكنه تفسير "بعثنا" أو معبر عن بعض معانيه. قال أبو بكر: وكذا حفظته "من هبنا" بغير ألف في أهبنا مع تسكين نون من. والصواب فيه على طريق اللغة "من أهبنا" بفتح النون على أن فتحة همزة أهب ألقيت على نون "من" وأسقطت الـهمزة؛ كما قالت العرب: من أخبرك من أعلمك؟ وهم يريدون من أخبرك. ويقال: أهببت النائم فهب النائم. أنشدنا أحمد بن يحيى النحوي:

وعاذلة هـــبت بليل تلومني ولم يعتمرني قبل ذاك عذول

وقال أبو صالح: إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور وهجعوا هجعة إلى النفخة الثانية وبينهما أربعون سنة؛ فذلك قولـهم: "من بعثنا من مرقدنا" وقالـه ابن عباس وقتادة. وقال أهل المعاني: إن الكفار إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب صار ما عذبوا به في قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم. قال مجاهد: فقال لـهم المؤمنون: ﴿ هذا ما وعد الرحمن ﴾. قال قتادة: فقال لـهم من هدى الله: "هذا ما وعد الرحمن". وقال الفراء: فقالت لـهم الملائكة: "هذا ما وعد الرحمن". النحاس: وهذه الأقوال متفقة؛ لأن الملائكة من المؤمنين وممن هدى الله عز وجل. وعلى هذا يتأول قول الله عز وجل: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ (البينة: ٧) وكذا الحديث: (المؤمن عند الله خير من كل ما خلق). ويجوز أن تكون الملائكة[1] وغيرهم من المؤمنين قالوا لـهم: "هذا ما وعد الرحمن". وقيل: إن الكفار لما قال بعضهم لبعض: "من بعثنا من مرقدنا" صدقوا الرسل لما عاينوا ما أخبروهم به، ثم قالوا: "هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون" فكذبنا به؛ أقروا حين لم ينفعهم الإقرار. وكان حفص يقف على "من مرقدنا" ثم يبتدئ فيقول: "هذا". قال أبو بكر بن الأنباري: "من بعثنا من مرقدنا" وقف حسن؛ ثم تبتدئ: "هذا ما وعد الرحمن" ويجوز أن تقف على "مرقدنا هذا" فتخفض هذا على الإتباع للمرقد، وتبتدئ: "ما وعد الرحمن" على معنى بعثكم ما وعد الرحمن؛ أي بعثكم وعد الرحمن. النحاس: التمام على "من مرقدنا" و"هذا" في موضع رفع بالابتداء وخبره "ما وعد الرحمن". ويجوز أن يكون في موضع خفض على النعت لـ"مرقدنا" فيكون التمام "من مرقدنا هذا". "ما وعد الرحمن" في موضع رفع من ثلاث جهات. ذكر أبو إسحاق منها اثنتين قال: يكون بإضمار هذا. والجهة الثانية أن يكون بمعنى حق ما وعد الرحمن بعثكم. والجهة الثالثة أن يكون بمعنى بعثكم ما وعد الرحمن. ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ يعني إن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة وهي قول إسرافيل: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة والشعور المتمزقة! إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. وهذا معنى قولـه الحق: ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ﴾ (ق: ٤٢). وقال: ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ (القمر: ٨) على ما يأتي. وفي قراءة ابن مسعود إن صح عنه "إن كانت إلا زقية واحدة" والزقية الصيحة؛ وقد تقدم هذا.

---

(١) في نسخة (الملائكة ـ صلى الله عليهم ـ).

﴿ فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ "فإذا هم" مبتدأ وخبره "جميع" نكرة، و"محضرون" من صفته. ومعنى "محضرون" مجموعون أحضروا موقف الحساب؛ وهو كقوله: ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر ﴾ (النحل: ٧٧). قوله تعالى: ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئا ﴾ أي لا تنقص من ثواب عمل. ﴿ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ "ما" في محل نصب من وجهين: الأول أنه مفعول ثان لما لم يسم فاعله. والثاني بنزع حرف الصفة؛ تقديره: إلا بما كنتم تعملون؛ أي تعملونه فحذف.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد: شغلهم افتضاض العذارى. وذكر الترمذي الحكيم في كتاب مشكل القرآن له: حدثنا محمد ابن حميد الرازي، حدثنا يعقوب القمي، عن حفص بن حميد، عن شمر بن عطية، عن شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود في قوله: "إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون" قال: شغلهم افتضاض العذارى. حدثنا محمد بن حميد، حدثنا هارون بن المغيرة، عن نهشل، عن الضحاك، عن ابن عباس بمثله. وقال أبو قلابة: بينما الرجل من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له تحول إلى أهلك فيقول أنا مع أهلي مشغول؛ فيقال تحول أيضا إلى أهلك. وقيل: أصحاب الجنة في شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي ومصيرهم إلى النار، وما هم فيه من أليم العذاب، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم؛ قاله سعيد بن المسيب وغيره. وقال وكيع: يعني في السماع. وقال ابن كيسان: "في شغل" أي في زيارة بعضهم بعضا. وقيل: في ضيافة الله تعالى. وروي أنه إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين عبادي الذين أطاعوني وحفظوا عهدي بالغيب؟ فيقومون كأنما وجوههم البدر والكوكب الدري، ركبانا على نجب من نور أزمتها من الياقوت، تطير بهم على رؤوس الخلائق، حتى يقوموا بين يدي العرش، فيقول الله جل وعز لهم: (السلام على عبادي الذين أطاعوني وحفظوا عهدي بالغيب، أنا اصطفيتكم وأنا اجتبيتكم وأنا اخترتكم، اذهبوا فادخلوا الجنة بغير حساب فـ ﴿ لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ (الزخرف: ٦٨)) فيمرون على الصراط كالبرق الخاطف فتفتح لهم أبوابها. ثم إن الخلق في المحشر موقوفون فيقول بعضهم لبعض: يا قوم أين فلان وفلان!؟ وذلك حين يسأل بعضهم بعضا فينادي مناد "إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون". و"شُغُل" و"شُغْل" لغتان قرئ بهما؛ مثل الرعب والرعب؛ والسحت والسحت؛ وقد تقدم. "فاكهون" قال الحسن: مسرورون. وقال ابن عباس: فرحون. مجاهد والضحاك: معجبون. السدي: ناعمون. والمعنى متقارب. والفكاهة المزاح والكلام الطيب. وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج: "فكهون" بغير ألف وهما لغتان كالفاره والفره، والحاذر والحذر؛ قاله الفراء. وقال الكسائي وأبو عبيدة: الفاكه ذو الفاكهة؛ مثل شاحم ولاحم وتامر ولابن، والفكه: المتفكه والمتنعم.

و"فكهون" بغير ألف في قول قتادة: معجبون. وقال أبو زيد: يقال رجل فكه إذا كان طيب النفس ضحوكا. وقرأ طلحة بن مصرف: "فاكهين" نصبه على الحال. ﴿ هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون ﴾ مبتدأ وخبره. ويجوز أن يكون "هم" توكيدا "وأزواجهم" عطف على المضمر، و"متكئون" نعت لقوله "فاكهون". وقراءة العامة: "في ظلال" بكسر الظاء والألف. وقرأ ابن مسعود وعبيد بن عمير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف: "في ظلل" بضم الظاء من غير ألف؛ فالظلال جمع ظل، وظلل جمع ظلة. ﴿ على الأرائك ﴾ يعني السرر في الحجال واحدها أريكة؛ مثل سفينة وسفائن؛ قال الشاعر:

كأن احمرار الورد فوق غصونه بوقت الضحى في روضه المتضاحك
خدود عذارى قد خجلن من الحيا تهادين بالريحان فوق الأرائك

وفي الخبر عن أبي سعيد الخدري قال النبي ﷺ: (إن أهل الجنة كلما جامعوا نساءهم عدن أبكارا)(١). وقال ابن عباس: إن الرجل من أهل الجنة ليعانق الحوراء سبعين سنة، لا يملها ولا تمله، كلما أتاها وجدها بكرا، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته؛ فيجامعها بقوة سبعين رجلا، لا يكون بينهما مني؛ يأتي من غير مني منه ولا منها. ﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ ابتداء وخبر. ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ الدال الثانية مبدلة من تاء، لأنه يفتعلون من دعا أي من دعا بشيء أعطيه. قاله أبو عبيدة؛ فمعنى "يدعون" يتمنون من الدعاء. وقيل: المعنى أن من ادعى منهم شيئا فهو له؛ لأن الله تعالى قد طبعهم على ألا يدعي منهم أحد إلا ما يجمل ويحسن أن يدعيه. وقال يحيى بن سلام: "يدعون" يشتهون. ابن عباس: يسألون. والمعنى متقارب. قال ابن الأنباري: "ولهم ما يدعون" وقف حسن، ثم تبتدئ: "سلام" على معنى ذلك لهم سلام. ويجوز أن يرفع السلام على معنى ولهم ما يدعون مسلّم خالص. فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على "ما يدعون". وقال الزجاج: "سلام" مرفوع على البدل من "ما" أي ولهم أن يسلم الله عليهم، وهذا مُنَى أهل الجنة. وروي من حديث جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ قال: (بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تعالى قد اطلع عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله: "سلام قولا من رب رحيم". فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركاته عليهم في ديارهم)(٢) ذكره الثعلبي والقشيري. ومعناه ثابت في صحيح مسلم، وقد بيناه في "يونس" عند قوله تعالى: ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ (يونس: ٢٦). ويجوز أن تكون "ما" نكرة؛ و"سلام" نعتا لها؛ أي ولهم ما يدعون مسلّم. ويجوز أن تكون "ما" رفع بالابتداء، و"سلام" خبر عنها. وعلى هذه الوجوه لا يوقف على "ولهم ما يدعون". وفي قراءة ابن مسعود "سلاما" يكون مصدرا، وإن شئت في موضع الحال؛ أي ولهم ما يدعون ذا سلام أو سلامة أو مسلما؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على "يدعون" وقرأ

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (١٨٣٠).
(٢) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٢٣٦٣).

محمد بن كعب القرظي "سلم" على الاستئناف كأنه قال: ذلك سلم لـهم لا يتنازعون فيه. ويكون "ولـهم ما يدعون" تاما. ويجوز أن يكون "سلام" بدلا من قولـه: "ولـهم ما يدعون"، وخبر "ما يدعون" "لـهم". ويجوز أن يكون "سلام" خبرا آخر، ويكون معنى الكلام أنه لـهم خالص من غير منازع فيه. "قولا" مصدر على معنى قال الله ذلك قولا. أو بقولـه قولا، ودل على الفعل المحذوف لفظ مصدره. ويجوز أن يكون المعنى ولـهم ما يدعون قولا؛ أي عدة من الله. فعلى هذا المذهب الثاني لا يحسن الوقف على "يدعون". وقال السجستاني: الوقف على قولـه: "سلام" تام؛ وهذا خطأ لأن القول خارج مما قبلـه.

قولـه تعالى: ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ ويقال تميزوا وامازوا وامتازوا بمعنىً؛ ومزته فانماز وامتاز، وميزته فتميز. أي يقال لـهم هذا عند الوقوف للسؤال حين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة؛ أي اخرجوا من جملتهم. قال قتادة: عزلوا عن كل خير. وقال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض؛ فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبدة الأوثان فرقة. وعنه أيضا: إن لكل فرقة في النار بيتا تدخل فيه ويرد بابه؛ فتكون فيه أبدا لا تَرى ولا تُرى. وقال داود ابن الجراح: فيمتاز المسلمون من المجرمين، إلا أصحاب الأهواء فيكونون مع المجرمين.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ﴾ العهد هنا بمعنى الوصية؛ أي ألم أوصكم وأبلغكم على ألسنة الرسل. ﴿ أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ أي لا تطيعوه في معصيتي. قال الكسائي: لا للنهي. ﴿ وأن اعبدوني ﴾ بكسر النون على الأصل، ومن ضم كره كسرة بعدها ضمة. ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ أي عبادتي دين قويم.

قولـه تعالى: ﴿ ولقد أضل منكم ﴾ أي أغوى ﴿ جبلا كثيرا ﴾ أي خلقا كثيرا؛ قالـه مجاهد. قتادة: جموعا كثيرة. الكلبي: أمما كثيرة؛ والمعنى واحد. وقرأ أهل المدينة وعاصم: "جبلا" بكسر الجيم والباء. وأبو عمرو وابن عامر "جبلا" بضم الجيم وإسكان الباء. الباقون "جبلا" ضم الجيم والباء وتخفيف اللام، وشددها الحسن وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وعبد الله بن عبيد والنضر بن أنس. وقرأ أبو يحيى والأشهب العقيلي "جبلا" بكسر الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللام. فهذه خمس قراءات. قال المهدوي والثعلبي: وكلـها لغات بمعنى الخلق. النحاس: أبينها القراءة الأولى؛ والدليل على ذلك أنهم قد أجمعوا على أن قرؤوا ﴿ والجبلة الأولين ﴾ (الشعراء: ١٨٤) فيكون "جبلا" جمع جبلة والاشتقاق فيه كلـه واحد. وإنما هو من جبل الله عز وجل الخلق أي خلقهم. وقد ذكرت قراءة سادسة وهي: "ولقد أضل منكم جيلا كثيرا" بالياء. وحكي عن الضحاك أن الجيل الواحد عشرة

آلاف، والكثير ما لا يحصيه إلا الله عز وجل؛ ذكره الماوردي. ﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾ عداوته وتعلموا أن الواجب طاعة الله. ﴿ هذه جهنم ﴾ أي تقول لـهم خزنة جهنم هذه جهنم التي وعدتم فكذبتم بها. وروي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إذا كان يوم القيامة جمع الله الإنس والجن والأولين والآخرين في صعيد واحد ثم أشرف عنق من النار على الخلائق فأحاط بهم ثم ينادي مناد "هذه جهنم التي كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون" فحينئذ تجثو الأمم على ركبها وتضع كل ذات حمل حملـها؛ وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)[١].

قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلـهم بما كانوا يكسبون﴾ في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: (هل تدرون مم أضحك؟ ـ قلنا: الله ورسولـه أعلم قال: ـ من مخاطبة العبد ربه، يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال: يقول بلى فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني قال: فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي قال فتنطق بأعمالـه قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل)[٢] خرجه أيضا من حديث أبي هريرة. وفيه: (ثم يقال لـه الآن نبعث شاهدنا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعملـه وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه)[٣]. وخرج الترمذي عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ في حديث ذكره قال: وأشار بيده إلى الشام فقال: (من ها هنا إلى ها هنا تحشرون ركبانا ومشاة وتجرون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفدام توفون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه)[٤] في روايَة أخرى: (فخذه وكفه) الفدام مصفاة الكوز والإبريق؛ قالـه الليث. قال أبو عبيد: يعني أنهم منعوا الكلام حتى تكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفدام الذي يجعل على الإبريق. ثم قيل في سبب الختم أربعة أوجه: أحدها: لأنهم قالوا ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ (الأنعام: ٢٣) فختم الله على أفواههم حتى نطقت جوارحهم؛ قالـه أبو موسى الأشعري. الثاني: ليعرفهم أهل الموقف فيتميزون منهم؛ قالـه ابن زياد. الثالث: لأن إقرار غير الناطق أبلغ في الحجة من

(١) ذكره ابن كثير في "التفسير"، (٣/ ٥٧٦) بأتم من السياق من طريق ابن جريج عن أبي هريرة، وابن جريج مدلس.
(٢) أخرجه مسلم في "الزهد والرقائق"، (٢٩٦٩).
(٣) المصدر السابق (٢٩٦٨).
(٤) أخرجه الترمذي في "صفة القيامة"، (٢٤٢٤).

إقرار الناطق لخروجه مخرج الإعجاز، إن كان يوما لا يحتاج إلى إعجاز. الرابع: ليعلم أن أعضاءه التي كانت أعوانا في حق نفسه صارت عليه شهودا في حق ربه. فإن قيل: لم قال "وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم" فجعل ما كان من اليد كلاما، وما كان من الرجل شهادة؟ قيل: إن اليد مباشرة لعمله والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما قال أو فعل؛ فلذلك عبر عما صدر من الأيدي بالقول، وعما صدر من الأرجل بالشهادة. وقد روي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل اليسرى) ذكره الماوردي والمهدوي. وقال أبو موسى الأشعري: إني لأحسب أن أول ما ينطق منه فخذه اليمنى؛ ذكره المهدوي أيضا. قال الماوردي: فاحتمل أن يكون تقدم الفخذ بالكلام على سائر الأعضاء؛ لأن لذة معاصيه يدركها بحواسه التي هي في الشطر الأسفل منها الفخذ، فجاز لقربه منها أن يتقدم في الشهادة عليها. قال: وتقدمت اليسرى؛ لأن الشهوة في ميامن الأعضاء أقوى منها في مياسرها؛ فلذلك تقدمت اليسرى على اليمنى لقلة شهوتها.

قلت: أو بالعكس لغلبة الشهوة، أو كلاهما معا والكف؛ فإن بمجموع ذلك يكون تمام الشهوة واللذة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ﴾ حكى الكسائي: طمَس يطمِس ويطمُس. والمطموس والطميس عند أهل اللغة الأعمى الذي ليس في عينيه شق. قال ابن عباس: المعنى لأعميناهم عن الهدى، فلا يهتدون أبدا إلى طريق الحق. وقال الحسن والسدي: المعنى لتركناهم عميا يترددون. فالمعنى لأعميناهم فلا يبصرون طريقا إلى تصرفهم في منازلهم ولا غيرها. وهذا اختيار الطبري. وقوله: "فاستبقوا الصراط" أي استبقوا الطريق ليجوزوا "فأنى يبصرون" أي فمن أين يبصرون. وقال عطاء ومقاتل وقتادة وروي عن ابن عباس: ولو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم، وأعميناهم عن غيهم، وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى؛ فاهتدوا وأبصروا رشدهم، وتبادروا إلى طريق الآخرة. ثم قال: "فأنى يبصرون" ولم نفعل ذلك بهم؛ أي فكيف يهتدون وعين الهدى مطموسة، على الضلال باقية. وقد روي عن عبد الله بن سلام في تأويل هذه الآية غير ما تقدم، وتأولها على أنها في يوم القيامة. وقال: إذا كان يوم القيامة ومد الصراط، نادى مناد ليقم محمد ﷺ وأمته؛ فيقومون برهم وفاجرهم يتبعونه ليجوزوا الصراط، فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فجارهم، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه. ثم ينادي مناد ليقم عيسى وأمته؛ فيقوم فيتبعونه برهم وفاجرهم فيكون سبيلهم تلك السبيل، وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام. ذكره النحاس وقد كتبناه في التذكرة بمعناه حسب ما ذكره ابن المبارك في رقائقه. وذكره القشيري. وقال ابن عباس رضي الله عنه: أخذ الأسود بن الأسود حجرا ومعه جماعة من بني مخزوم ليطرحه على النبي ﷺ؛ فطمس الله على بصره، وألصق الحجر بيده، فما أبصره ولا اهتدى، ونزلت الآية فيه. والمطموس هو الذي لا يكون بين جفنيه شق، مأخوذ من طمس الريح الأثر؛ قاله الأخفش والقتبي.

قولـه تعالى: ﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون ﴾ المسخ: تبديل الخلقة وقلبها حجرا أو جمادا أو بهيمة. قال الحسن: أي لأقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم. وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر. وقد يكون المسخ تبديل صورة الإنسان بهيمة، ثم تلك البهيمة لا تعقل موضعا تقصده فتتحير، فلا تقبل ولا تدبر. ابن عباس ﷺ: المعنى لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم. وقيل: المعنى لو نشاء لمسخناهم في المكان الذي اجترؤوا فيه على المعصية. ابن سلام: هذا كلـه يوم القيامة يطمس الله تعالى أعينهم على الصراط. وقرأ الحسن والسلمي وزر بن حبيش وعاصم في رواية أبي بكر: "مكاناتهم" على الجمع، الباقون بالتوحيد. وقرأ أبو حيوة: "فما استطاعوا مضيا" بفتح الميم. والمضي بضم الميم مصدر يمضي مضيا إذا ذهب.

قولـه تعالى: ﴿ ومن نعمره ننكسه في الخلق ﴾ قرأ عاصم وحمزة "ننكسـه" بضم النون الأولى وتشديد الكاف من التنكيس. الباقون "نَنْكُسه" بفتح النون الأولى وضم الكاف من نكست الشيء أنكسه نكسا قلبته على رأسه فانتكس. قال قتادة: المعنى أنه يصير إلى حال الـهرم الذي يشبه حال الصبا. وقال سفيان في قولـه تعالى: "ومن نعمره ننكسه في الخلق" إذا بلغ ثمانين سنة تغير جسمه وضعفت قوته. قال الشاعر:

من عاش أخلقت الأيام جدته وخانه ثقتاه السـمع والبـصر

فطول العمر يصير الشباب هرما، والقوة ضعفا، والزيادة نقصا، وهذا هو الغالب. وقد تعوذ ﷺ من أن يرد إلى أرذل العمر. وقد مضى في "النحل" بيانه. ﴿ أفلا تعقلون﴾ أن من فعل هذا بكم قادر على بعثكم. وقرأ نافع وابن ذكوان: "تعقلون" بالتاء. الباقون بالياء".

قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي لـه ﴾ أخبر تعالى عن حال نبيه ﷺ، ورد قول من قال من الكفار إنه شاعر، وإن القرآن شعر، بقولـه: "وما علمناه الشعر وما ينبغي لـه" وكذلك كان رسول الله ﷺ لا يقول الشعر ولا يزنه، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلا كسر وزنه، وإنما كان يحرز المعاني فقط ﷺ من ذلك أنه أنشد يوما قول طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك من لم تزوده بالأخبار[1]

وأنشد يوما وقد قيل لـه من أشعر الناس فقال الذي يقول:

ألم ترياني كلما جئت طارقا وجدت بها وإن لم تطيب طيبا

وأنشد يوما:

أتجعل نهبي ونهب العبـ ـيد بين الأقرع وعيينة

وقد كان ﷺ ربما أنشد البيت المستقيم في النادر. روي أنه أنشد بيت عبد الله بن رواحة:

---

(١) "صحيح" بنحوه في صحيح الجامع (٤٩٠٥)، أخرجه الترمذي عن عائشة، والطبراني عن ابن عباس.

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وقال الحسن بن أبي الحسن: أنشد النبي ﷺ:

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا

فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله إنما قال الشاعر:

هريرة ودع إن تجهزت غاديا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فقال أبو بكر أو عمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل: "وما علمناه الشعر وما ينبغي له". وعن الخليل بن أحمد: كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام، ولكن لا يتأتى له.

الثانية: إصابته الوزن أحيانا لا يوجب أنه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتي أحيانا من نثر كلامه ما يدخل في وزن، كقوله يوم حنين وغيره:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت[١]

وقوله:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب[٢]

فقد يأتي مثل ذلك في آيات القرآن، وفي كل كلام؛ وليس ذلك شعرا ولا في معناه؛ كقوله تعالى: ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ (آل عمران: ٩٢)، وقوله: ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ (الصف: ١٣)، وقوله: ﴿ وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ (سبأ: ١٣) إلى غير ذلك من الآيات. وقد ذكر ابن العربي منها آيات وتكلم عليها وأخرجها عن الوزن، على أن أبا الحسن الأخفش قال في قوله: (أنا النبي لا كذب) ليس بشعر. وقال الخليل في كتاب العين: إن ما جاء من السجع على جزأين لا يكون شعرا. وروي عنه أنه من منهوك الرجز. وقد قيل: لا يكون من منهوك الرجز إلا بالوقف على الباء من قوله: (لا كذب)، ومن قوله: (عبد المطلب). ولم يعلم كيف قاله النبي ﷺ. قال ابن العربي: والأظهر من حاله أنه قال: (لا كذب) الباء مرفوعة، وبخفض الباء من عبد المطلب على الإضافة. وقال النحاس قال بعضهم: إنما الرواية بالإعراب، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعرا؛ لأنه إذا فتح الباء من البيت الأول أو ضمها أو نونها، وكسر الباء من البيت الثاني خرج عن وزن الشعر. وقال بعضهم: ليس هذا الوزن من الشعر. وهذا مكابرة العيان؛ لأن أشعار العرب على هذا قد رواها الخليل وغيره. وأما قوله: (هل أنت إلا إصبع دميت) فقيل إنه من بحر السريع، وذلك لا يكون إلا إذا كسرت التاء من دميت، فإن سكن لا يكون شعرا بحال؛ لأن هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعول، ولا مدخل لفعول في بحر السريع. ولعل النبي ﷺ قالها ساكنة التاء أو متحركة التاء من غير إشباع. والمعول عليه في الانفصال على تسليم أن هذا شعر، ويسقط الاعتراض، ولا يلزم منه أن يكون النبي ﷺ عالما بالشعر ولا شاعراً ـ أن التمثل بالبيت النزر

(١) أخرجه البخاري في "الأدب"، (٦١٤٦).
(٢) تقدم تخريجه.

وإصابة القافيتين من الرجز وغيره، لا يوجب أن يكون قائلـها عالما بالشعر، ولا يسمى شاعرا باتفاق العلماء، كما أن من خاط خيطا لا يكون خياطا. قال أبو إسحاق الزجاج: معنى: "وما علمناه الشعر" وما علمناه أن يشعر أي ما جعلناه شاعرا، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئا من الشعر. قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في هذا. وقد قيل: إنما خبر الله عز وجل أنه ما علمه الله الشعر ولم يخبر أنه لا ينشد شعرا، وهذا ظاهر الكلام. وقيل فيه قول بين؛ زعم صاحبه أنه إجماع من أهل اللغة، وذلك أنهم قالوا: كل من قال قولا موزونا لا يقصد به إلى شعر فليس بشعر وإنما وافق الشعر. وهذا قول بين. قالوا: وإنما الذي نفاه الله عن نبيّه ﷺ فهو العلم بالشعر وأصنافه، وأعاريضه وقوافيه والاتصاف بقولـه، ولـم يكن موصوفا بذلك بالاتفاق. ألا ترى أن قريشا تراوضت فيما يقولون للعرب فيه إذا قدموا عليهم الموسم، فقال بعضهم: نقول إنه شاعر. فقال أهل الفطنة منهم: والله لتكذبنكم العرب، فإنهم يعرفون أصناف الشعر، فوالله ما يشبه شيئا منها، وما قولـه بشعر. وقال أنيس أخو أبي ذر: لقد وضعت قولـه على أقراء الشعر فلم يلتئم أنه شعر. أخرجه مسلم، وكان أنيس من أشعر العرب. وكذلك عتبة بن أبي ربيعة لما كلمه: والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ على ما يأتي بيانه من خبره في سورة (فصلت) إن شاء الله تعالى. وكذلك قال غيرهما من فصحاء العرب العرباء، واللسن البلغاء. ثم إن ما يجري على اللسان من موزون الكلام لا يعد شعرا، وإنما يعد منه ما يجري على وزن الشعر مع القصد إليه؛ فقد يقول القائل: حدثنا شيخ لنا وينادي يا صاحب الكسائي، ولا يعد هذا شعرا. وقد كان رجل ينادي في مرضه وهو من عرض العامة العقلاء: اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى.

الثالثة : روى ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر فقال: لا تكثرن منه؛ فمن عيبه أن الله يقول: "وما علمناه الشعر وما ينبغي لـه" قال: ولقد بلغني أن عمر بن الخطاب ﷺ كتب إلى أبي موسى الأشعري: أن اجمع الشعراء قبلك؛ وسلـهم عن الشعر، وهل بقي معهم معرفة؛ وأحضر لبيدا ذلك؛ قال: فجمعهم فسألـهم فقالوا إنا لنعرفه ونقولـه. وسأل لبيدا فقال: ما قلت شعرا منذ سمعت الله عز وجل يقول: ﴿ الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ (البقرة: ١) قال ابن العربي: هذه الآية ليست من عيب الشعر؛ كما لـم يكن قولـه: ﴿ وما كنت تتلو من قبلـه من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ (العنكبوت: ٤٨) من عيب الكتابة، فلما لـم تكن الأمية من عيب الخط، كذلك لا يكون نفي النظم عن النبي ﷺ من عيب الشعر. روي أن المأمون قال لأبي علي المنقري: بلغني أنك أمي، وأنك لا تقيم الشعر، وأنك تلحن. فقال: يا أمير المؤمنين، أما اللحن فربما سبق لساني منه بشيء، وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان رسول الله ﷺ لا يكتب ولا يقيم الشعر. فقال لـه: سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعا وهو الجهل، يا جاهل! إن ذلك كان للنبي ﷺ فضيلة، وهو فيك وفي أمثالك نقيصة، وإنما منع النبي ﷺ ذلك لنفي الظنة عنه، لا لعيب في الشعر والكتابة.

الرابعة : قولـه تعالى : ﴿ وما ينبغي لـه ﴾ أي وما ينبغي لـه أن يقولـه. وجعل الله جل وعز ذلك علما من أعلام نبيّه ﷺ لئلا تدخل الشبهة على من أرسل إليه؛ فيظن أنه قوي على القرآن بما في طبعه

من القوة على الشعر. ولا اعتراض للملحد على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول؛ لأن ما وافق وزنه وزن الشعر، ولم يقصد به إلى الشعر ليس بشعر؛ ولو كان شعرا لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعرا؛ على ما تقدم بيانه. وقال الزجاج: معنى "وما ينبغي له" أي ما يتسهل له قول الشعر لا الإنشاء. ﴿ إن هو ﴾ أي هذا الذي يتلوه عليكم ﴿ ذكر وقرآن مبين ﴾

قوله تعالى: ﴿ لينذر من كان حيا ﴾ أي حي القلب؛ قاله قتادة. الضحاك: عاقلا. وقيل: المعنى لتنذر من كان مؤمنا في علم الله. هذا على قراءة التاء خطابا للنبي ﷺ، وهي قراءة نافع وابن عامر. وقرأ الباقون بالياء على معنى لينذر الله عز وجل؛ أو لينذر محمد ﷺ، أو لينذر القرآن. وروي عن ابن السميقع "لينذر" بفتح الياء والذال. ﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ أي وتجب الحجة بالقرآن على الكفرة.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم ﴾ هذه رؤية القلب؛ أي أو لم ينظروا ويعتبروا ويتفكروا. ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ أي مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة. و"ما" بمعنى الذي وحذفت الهاء لطول الاسم. وإن جعلت "ما" مصدرية لم تحتج إلى إضمار الهاء. "أنعاما" جمع نعم والنعم مذكر. ﴿ فهم لها مالكون ﴾ ضابطون قاهرون. ﴿ وذللناها لهم ﴾ أي سخرناها لهم حتى يقود الصبي الجمل العظيم ويضربه ويصرفه كيف شاء لا يخرج من طاعته. ﴿ فمنها ركوبهم ﴾ قراءة العامة بفتح الراء؛ أي مركوبهم، كما يقال: ناقة حلوب أي محلوب. وقرأ الأعمش والحسن وابن السميقع: "فمنها ركوبهم" بضم الراء على المصدر. وروي عن عائشة أنها قرأت: "فمنها ركوبتهم" وكذا في مصحفها. والركوب والركوبة واحد، مثل الحلوب والحلوبة، والحمول والحمولة. وحكى النحويون الكوفيون: أن العرب تقول: امرأة صبور وشكور بغير هاء. ويقولون: شاة حلوبة وناقة ركوبة؛ لأنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان له الفعل وبين ما كان الفعل واقعا عليه، فحذفوا الهاء مما كان فاعلا وأثبتوها فيما كان مفعولا؛ كما قال:

فيها اثنتان وأربعون حلوبة   سودا كخافية الغراب الأسحم

فيجب أن يكون على هذا ركوبتهم. فأما البصريون فيقولون: حذفت الهاء على النسب. والحجة للقول الأول ما رواه الجرمي عن أبي عبيدة قال: الركوبة تكون للواحد والجماعة، والركوب لا يكون إلا للجماعة. فعلى هذا يكون لتذكير الجمع. وزعم أبو حاتم: أنه لا يجوز "فمنها ركوبهم" بضم الراء لأنه مصدر؛ والركوب ما يركب. وأجاز الفراء "فمنها ركوبهم" بضم الراء، كما تقول فمنها أكلهم ومنها شربهم. ﴿ ومنها يأكلون ﴾ من لحمانها ﴿ ولهم فيها منافع ﴾ من أصوافها

وأوبارها وأشعارها وشحومها ولحومها وغير ذلك. ﴿ومشارب﴾ يعني ألبانها؛ ولم ينصرفا لأنهما من الجموع التي لا نظير لـها في الواحد. ﴿أفلا يشكرون﴾ الله على نعمه.

قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلـهة﴾ أي قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا، ثم اتخذوا من دوننا آلـهة لا قدرة لـها على فعل. ﴿لعلـهم ينصرون﴾ أي لما يرجون من نصرتها لـهم إن نزل بهم عذاب. ومن العرب من يقول: لعلـه أن يفعل. ﴿لا يستطيعون نصرهم﴾ يعني الآلـهة. وجمعوا بالواو والنون؛ لأنه أخبر عنهم بخبر الآدميين. ﴿وهم﴾ يعني الكفار ﴿لـهم﴾ أي للآلـهة ﴿جند محضرون﴾ قال الحسن: يمنعون منهم ويدفعون عنهم. وقال قتادة: أي يغضبون لـهم في الدنيا. وقيل: المعنى أنهم يعبدون الآلـهة ويقومون بها؛ فهم لـها بمنزلة الجند وهي لا تستطيع أن تنصرهم. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. وقيل: إن الآلـهة جند للعابدين محضرون معهم في النار. فلا يدفع بعضهم عن بعض. وقيل: معناه وهذه الأصنام لـهؤلاء الكفار جند الله عليهم في جهنم؛ لأنهم يلعنونهم ويتبرؤون من عبادتهم. وقيل: الآلـهة جند لـهم محضرون يوم القيامة لإعانتهم في ظنونهم. وفي الخبر: (إنه يمثل لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله فيتبعونه إلى النار؛ فهم لـهم جند محضرون).

قلت: ومعنى هذا الخبر ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، وفي الترمذي عنه أن النبي ﷺ قال: (يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ثم يطلع عليهم رب العالمين فيقول ألا ليتبع كل إنسان ما كان يعبد فيمثل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التصاوير تصاويره ولصاحب النار ناره فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون...)[1] وذكر الحديث بطولـه.

قولـه تعالى: ﴿فلا يحزنك قولـهم﴾ هذه اللغة الفصيحة. ومن العرب من يقول يُحْزِنك. والمراد تسلية نبيّه ﷺ؛ أي لا يحزنك قولـهم شاعر ساحر. وتم الكلام. ثم استأنف فقال: ﴿إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ من القول والعمل وما يظهرون فنجازيهم بذلك.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿أو لم ير الإنسان﴾ قال ابن عباس: الإنسان هو عبد الله بن أبي. وقال سعيد بن جبير: هو العاص بن وائل السهمي. وقال الحسن: هو أبي بن خلف الجمحي. وقالـه ابن إسحاق، ورواه ابن وهب عن مالك. ﴿أنا خلقناه من نطفة﴾ وهو اليسير من الماء؛ نطف إذا قطر. ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ أي مجادل في الخصومة مبين للحجة. يريد بذلك أنه صار بعد أن لم يكن شيئا مذكورا خصيما مبينا. وذلك أنه أتى النبي ﷺ بعظم حائل فقال: يا محمد أترى أن الله يحيي هذا بعدما رم! فقال النبي ﷺ: (نعم ويبعثك الله ويدخلك النار)[2] فنزلت هذه الآية.

---

(١) أخرجه البخاري في "التوحيد"، (٧٤٣٧)، ومسلم في "الإيمان"، (١٨٢).
(٢) أخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ﴾ أي ونسي أنا أنشأناه من نطفة ميتة فركبنا فيه الحياة. أي جوابه من نفسه حاضر؛ ولـهذا قال ﷺ: (نعم ويبعثك الله ويدخلك النار) ففي هذا دليل على صحة القياس؛ لأن الله جل وعز احتج على منكري البعث بالنشأة الأولى. ﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ أي بالية. رم العظم فهو رميم ورمام. وإنما قال رميم ولم يقل رميمة؛ لأنها معدولة عن فاعلة، وما كان معدولا عن وجهه ووزنه كان مصروفا عن إعرابه؛ كقولـه: ﴿ وما كانت أمك بغيا ﴾ (مريم: ٢٨) أسقط الـهاء؛ لأنها مصروفة عن باغية. وقيـل: إن هذا الكافر قال للنبي ﷺ: أرأيت إن سحقتهـا وأذريتها في الريـح أيعيـدها الله! فنزلت: ﴿ قل يحييها الذي أنشـأها أول مـرة ﴾أي من غير شيء فهو قادر على إعادتها في النشأة الثانية من شيء وهو عجم الذنب. ويقال عجب الذنب بالباء. ﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ أي عليم كيف يبدئ ويعيد.

الثانية : في هذه الآية دليل على أن في العظام حياة وأنها تنجس بالموت. وهو قول أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي. وقال الشافعي ﷺ: لا حياة فيها. وقد تقدم هذا في "النحل". فإن قيل: أراد بقولـه "من يحيي العظام" أصحاب العظام وإقامة المضاف مقام المضاف إليه كثير في اللغة، موجود في الشريعة. قلنا: إنما يكون إذ احتيج لضرورة وليس ها هنا ضرورة تدعو إلى هذا الإضمار، ولا يفتقر إلى هذا التقدير، إذا الباري سبحانه قد أخبر به وهو قادر عليه والحقيقة تشهد لـه؛ فإن الإحساس الذي هو علامة الحياة موجود فيه؛ قالـه ابن العربي.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ﴾ نبه تعالى على وحدانيته، ودل على كمال قدرته في إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرق اليابس من العود الندي الرطب. وذلك أن الكافر قال: النطفة حارة رطبة بطبع الحياة فخرج منها الحياة، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة! فأنزل الله تعالى: "الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا" أي إن الشجر الأخضر من الماء والماء بارد رطب ضد النار وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار؛ فهو القادر على إخراج الضد من الضد، وهو على كل شيء قدير. ويعني بالآية ما في المرخ والعفار، وهي زنادة العرب؛ ومنه قولـهم: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار؛ فالعفار الزند وهو الأعلى، والمرخ الزندة وهي الأسفل؛ يؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء فيحك بعضهما إلى بعض فتخرج منهما

النار. وقال: "من الشجر الأخضر" ولم يقل الخضراء وهو جمع، لأن رده إلى اللفظ. ومن العرب من يقول: الشجر الخضراء؛ كما قال عز وجل: ﴿ من شجر من زقوم فمالئون منها البطون ﴾ (الواقعة: ٥٢). ثم قال تعالى محتجا: ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ أي أمثال المنكرين للبعث. وقرأ سلام أبو المنذر ويعقوب الحضرمي: "يقدر على أن يخلق مثلهم" على أنه فعل. ﴿ بلى ﴾ أي إن خلق السموات والأرض أعظم من خلقهم؛ فالذي خلق السموات والأرض يقدر على أن يبعثهم. ﴿ وهو الخلاق العليم ﴾ وقرأ الحسن باختلاف عنه "الخالق".

قوله تعالى: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ قرأ الكسائي "فيكون" بالنصب عطفا على "يقول" أي إذا أراد خلق شيء لا يحتاج إلى تعب ومعالجة. وقد مضى هذا في غير موضع. ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ نزه نفسه تعالى عن العجز والشرك. وملكوت وملكوتي في كلام العرب بمعنى ملك. والعرب تقول: جبروتي خير من رحموتي. وقال سعيد عن قتادة: "ملكوت كل شيء" مفاتح كل شيء. وقرأ طلحة بن مصرف وإبراهيم التيمي والأعمش "ملكة"، وهو بمعنى ملكوت إلا أنه خلاف المصحف. ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي تردون وتصيرون بعد مماتكم. وقراءة العامة بالتاء على الخطاب. وقرأ السلمي وزر بن حبيش وأصحاب عبد الله "يرجعون" بالياء على الخبر.

سورة الصافات

وهي مكية في قول الجميع.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ والصافات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكرا ﴾ هذه قراءة أكثر القراء. وقرأ حمزة بالإدغام فيهن. وهذه القراءة التي نفر منها أحمد بن حنبل لما سمعها. النحاس: وهي بعيدة في العربية من ثلاث جهات: إحداهن أن التاء ليست من مخرج الصاد، ولا من مخرج الزاي، ولا من مخرج الذال، ولا من أخواتهن، وإنما أختاها الطاء والدال، وأخت الزاي الصاد والسين، وأخت الذال الظاء والثاء. والجهة الثانية أن التاء في كلمة وما بعدها في كلمة أخرى. والجهة الثالثة أنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة؛ نحو دابة وشابة. ومجاز قراءة حمزة أن التاء قريبة المخرج من هذه الحروف. "والصافات" قسم؛ الواو بدل من الباء. والمعنى برب الصافات و"الزاجرات" عطف عليه. ﴿ إن إلـهكم لواحد ﴾ جواب القسم. وأجاز الكسائي فتح إن في القسم. والمراد بـ "الصافات" وما بعدها إلى قولـه: "فالتاليات ذكرا" الملائكة في قول ابن عباس وابن مسعود وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة. تصف في السماء كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة. وقيل: تصف أجنحتها في الـهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله بما يريد. وهذا كما تقوم العبيد بين أيدي ملوكهم صفوفا. وقال الحسن: "صفا" لصفوفهم عند ربهم في صلاتهم. وقيل: هي الطير؛ دليلـه قولـه تعالى: ﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ﴾ (الملك: ١٩). والصف ترتيب الجمع على خط كالصف في الصلاة. "والصافات" جمع الجمع؛ يقال: جماعة صافة ثم يجمع صافات. وقيل: الصافات جماعة الناس المؤمنين إذا قاموا صفا في الصلاة أو في الجهاد؛ ذكره القشيري. "فالزاجرات" الملائكة في قول ابن عباس وابن مسعود ومسروق وغيرهم على ما ذكرناه إما لأنها تزجر السحاب وتسوقه في قول السدي. وإما لأنها تزجر عن المعاصي بالمواعظ والنصائح. وقال قتادة: هي زواجر القرآن. "فالتاليات ذكرا" الملائكة تقرأ كتاب الله تعالى؛ قالـه ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جبير والسدي. وقيل: المراد جبريل وحده فذكر بلفظ الجمع؛ لأنه كبير الملائكة فلا يخلو من جنود وأتباع. وقال قتادة: المراد كل من تلا ذكر الله تعالى وكتبه. وقيل: هي آيات القرآن وصفها بالتلاوة كما قال تعالى: ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل ﴾ (النمل: ٧٦). ويجوز أن يقال لآيات القرآن تاليات؛ لأن بعض الحروف يتبع بعضا؛ ذكره القشيري. وذكر الماوردي: أن المراد بالتاليات الأنبياء يتلون الذكر على أممهم. فإن قيل: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات؟ قيل لـه: إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود؛ كقول "سلمة بن ذهل":

يا لـهف زيابة للحارث الصـ ـــابح فالغانـــم فالآيـــب

كأنه قال: الذي صبح فغنم فآب. وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك: خذ الأفضل فالأكمل، واعمل الأحسن فالأجمل. وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله: (رحم الله المحلقين فالمقصرين). فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات؛ قاله الزمخشري. "إن إلهكم لواحد" جواب القسم. قال مقاتل: وذلك أن الكفار بمكة قالوا أجعل الآلهة إلها واحدا، وكيف يسع هذا الخلق فرد إله! فأقسم الله بهؤلاء تشريفا. ونزلت الآية. قال ابن الأنباري: وهو وقف حسن، ثم تبتدئ ﴿ رب السماوات والأرض ﴾ على معنى هو رب السموات. النحاس: ويجوز أن يكون "رب السموات والأرض" خبرا بعد خبر، ويجوز أن يكون بدلا من "واحد".

قلت: وعلى هذين الوجهين لا يوقف على "لواحد". وحكى الأخفش: "رب السموات ـ ورب المشارق" بالنصب على النعت لاسم إن. بين سبحانه معنى وحدانيته وألوهيته وكمال قدرته بأنه "رب السموات والأرض" أي خالقهما ومالكهما "ورب المشارق" أي مالك مطالع الشمس. ابن عباس: للشمس كل يوم مشرق ومغرب؛ وذلك أن الله تعالى خلق للشمس ثلاثمائة وخمساً وستين كوة في مطلعها، ومثلها في مغربها على عدد أيام السنة الشمسية، تطلع في كل يوم في كوة منها، وتغيب في كوة، لا تطلع في تلك الكوة إلا في ذلك اليوم من العام المقبل. ولا تطلع إلا وهي كارهة فتقول: رب لا تطلعني على عبادك فإني أراهم يعصونك. ذكره أبو عمر في كتاب التمهيد، وابن الأنباري في كتاب الرد عن عكرمة؛ قال: قلت لابن عباس أرأيت ما جاء عن النبي ﷺ في أمية بن أبي الصلت (آمن شعره وكفر قلبه) قال: هو حق فما أنكرتم من ذلك؟ قلت: أنكرنا قوله:

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورد
ليست بطالعة لهم في رسلها إلا معذبة وإلا تجلد

ما بال الشمس تجلد؟ فقال: والذي نفسي بيده ما طلعت شمس قط حتى ينخسها سبعون ألف ملك، فيقولون لها اطلعي اطلعي، فتقول لا أطلع على قوم يعبدونني من دون الله، فيأتيها ملك فيستقل لضياء بني آدم، فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن الطلوع فتطل بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها، فذلك قول رسول الله ﷺ: (ما طلعت إلا بين قرني شيطان ولا غربت إلا بين قرني شيطان وما غربت قط إلا خرت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن السجود فتغرب بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها)[1] لفظ ابن الأنباري. وذكر عن عكرمة عن ابن عباس قال: صدّق رسول الله ﷺ أمية بن أبي الصلت في هذا الشعر:

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد
والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورد
ليست بطالعة لهم في رسلها إلا معذبة وإلا تجلد

---

[1] ذكره العجلوني في "كشف الخفاء"، (١٩) وعزاه لأبي بكر بن الأنباري في كتاب "المصاحف"، والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس، قال المناوي ما حاصله: "وسند الحديث ضعيف".

قال عكرمة: فقلت لابن عباس: يا مولاي أتجلد الشمس؟ فقال: إنما اضطره الروي إلى الجلد لكنها تخاف العقاب. ودل بذكر المطالع على المغارب؛ فلهذا لم يذكر المغارب، وهو كقوله: ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ (النحل: ٨١). وخص المشارق بالذكر؛ لأن الشروق قبل الغروب. وقال في سورة (الرحمن) ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ (الرحمن: ١٧) أراد بالمشرقين أقصى مطلع تطلع منه الشمس في الأيام الطوال، وأقصر يوم في الأيام القصار على ما تقدم في "يس" والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ قال قتادة: خلقت النجوم ثلاثا؛ رجوما للشياطين، ونورا يهتدى بها، وزينة لسماء الدنيا. وقرأ مسروق والأعمش والنخعي وعاصم وحمزة: "بزينة" مخفوض منون "الكواكب" خفض على البدل من "زينة" لأنها هي. وقرأ أبو بكر كذلك إلا أنه نصب "الكواكب" بالمصدر الذي هو زينة. والمعنى بأن زينا الكواكب فيها. ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعني؛ كأنه قال: إنا زيناها "بزينة" أعني "الكواكب". وقيل: هي بدل من زينة على الموضع. ويجوز "بزينة الكواكب" بمعنى أن زينتها الكواكب. أو بمعنى هي الكواكب. الباقون "بزينة الكواكب" على الإضافة. والمعنى زينا السماء الدنيا بتزيين الكواكب؛ أي بحسن الكواكب. ويجوز أن يكون كقراءة من نون إلا أنه حذف التنوين استخفافا. ﴿ وحفظا ﴾ مصدر أي حفظناها حفظا. ﴿ من كل شيطان مارد ﴾ لما أخبر أن الملائكة تنزل بالوحي من السماء، بين أنه حرس السماء عن استراق السمع بعد أن زينها بالكواكب. والمارد: العاتي من الجن والإنس، والعرب تسميه شيطانا.

قوله تعالى: ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ﴾ قال أبو حاتم: أي لئلا يسمعوا ثم حذف "أن" فرفع الفعل. الملأ الأعلى: أهل السماء الدنيا فما فوقها، وسمي الكل منهم أعلى بالإضافة إلى ملأ الأرض. الضمير في "يسمعون" للشياطين. وقرأ جمهور الناس "يسمعون" بسكون السين وتخفيف الميم. وقرأ حمزة وعاصم في رواية حفص "لا يسمعون" بتشديد السين والميم من التسميع. فينتفي على القراءة الأولى سماعهم وإن كانوا يستمعون، وهو المعنى الصحيح، ويعضده قوله تعالى: ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ (الشعراء: ٢١٢). وينتفي على القراءة الأخيرة أن يقع منهم استماع أو سماع. قال مجاهد: كانوا يتسمعون ولكن لا يسمعون. وروي عن ابن عباس "لا يسمعون إلى الملأ" قال: هم لا يسمعون ولا يتسمعون. وأصل "يسمعون" يتسمعون فأدغمت التاء في السين لقربها منها. واختارها أبو عبيد؛ لأن العرب لا تكاد تقول: سمعت إليه وتقول تسمعت إليه. ﴿ ويقذفون من كل جانب ﴾ أي يرمون من كل جانب؛ أي بالشهب. ﴿ دحورا ﴾ مصدر؛ لأن معنى "يقذفون" يدحرون. دحرته دحرا ودحورا أي طردته. وقرأ السلمي ويعقوب الحضرمي "دحورا" بفتح الدال يكون مصدرا على فعول. وأما الفراء فإنه قدره على أنه اسم الفاعل. أي ويقذفون بما يدحرهم أي بدحور ثم حذف الباء؛ والكوفيون يستعملون هذا كثيراً كما أنشدوا:

تمرون الديار ولم تعوجوا

واختلف هل كان هذا القذف قبل المبعث، أو بعده لأجل المبعث؛ على قولين. وجاءت الأحاديث بذلك على ما يأتي من ذكرها في سورة (الجن) عن ابن عباس. وقد يمكن الجمع بينهما أن يقال: إن الذين قالوا لم تكن الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث النبي ﷺ ثم رميت؛ أي لم تكن ترمى رميا يقطعها عن السمع، ولكنها كانت ترمى وقتا ولا ترمى وقتا، وترمى من جانب ولا ترمى من جانب. ولعل الإشارة بقولـه تعالى: "ويقذفون من كل جانب. دحورا ولـهم عذاب واصب" إلى هذا المعنى، وهو أنهم كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب فصاروا يرمون واصبا. وإنما كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس، يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره، ويَسلَم واحد ولا يَسلَم غيره، بل يقبض عليه ويعاقب وينكل. فلما بعث النبي ﷺ زيد في حفظ السماء، وأعدت لـهم شهب لم تكن من قبل؛ ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يقروا في مقعد من المقاعد التي كانت لـهم منها؛ فصاروا لا يقدرون على سماع شيء مما يجري فيها، إلا أن يختطف أحد منهم بخفة حركته خطفة، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقيها إلى إخوانه فيحرقه؛ فبطلت من ذلك الكهانة وحصلت الرسالة والنبوة. فإن قيل: إن هذا القذف إن كان لأجل النبوة فلم دام بعد النبي ﷺ؟ فالجواب: أنه دام بدوام النبوة، فإن النبي ﷺ أخبر ببطلان الكهانة فقال: (ليس منا من تكهن)[1] فلو لم تحرس بعد موته لعادت الجن إلى تسمعها؛ وعادت الكهانة. ولا يجوز ذلك بعد أن بطل، ولأن قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوة فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين، ولم يؤمن أن يظنوا أن الكهانة إنما عادت لتناهي النبوة، فصح أن الحكمة تقضي دوام الحراسة في حياة النبي عليه السلام، وبعد أن توفاه الله إلى كرامته صلى الله عليه وعلى آلـه. ﴿ ولـهم عذاب واصب ﴾ أي دائم، عن مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس: شديد. الكلبي والسدي وأبو صالح: موجع؛ أي الذي يصل وجعه إلى القلب؛ مأخوذ من الوصب وهو المرض.

قولـه تعالى: ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ استثناء من قولـه: "ويقذفون من كل جانب" وقيل: الاستثناء يرجع إلى غير الوحي؛ لقولـه تعالى: ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ (الشعراء: ٢١٢) فيسترق الواحد منهم شيئا مما يتفاوض فيه الملائكة، مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض؛ وهذا لخفة أجسام الشياطين فيرجمون بالشهب حينئذ. وروي في هذا الباب أحاديث صحاح، مضمنها: أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، فتقعد للسمع واحدا فوق واحد، فيتقدم الأجسر نحو السماء ثم الذي يليه ثم الذي يليه، فيقضي الله تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدث به أهل السماء فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذي تحته فربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه على ما بيناه. فتنزل تلك الكلمة إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة، وتصدق تلك الكلمة فيصدق الجاهلون الجميع كما بيناه في "الأنعام". فلما جاء الله بالإسلام حرست السماء بشدة، فلا يفلت شيطان سمع بَتَّةً. والكواكب الراجمة هي التي يراها الناس تنقض. قال النقاش ومكي: وليست بالكواكب الجارية في السماء؛ لأن تلك لا ترى حركتها، وهذه الراجمة ترى حركتها؛ لأنها قريبة منا.

---

(١) صحيح، انظر صحيح الجامع (٥٤٣٥).

وقد مضى في هذا الباب في سورة (الحجر) من البيان ما فيه كفاية. وذكرنا في "سبأ" حديث أبي هريرة. وفيه (والشياطين بعضهم فوق بعض) وقال فيه الترمذي حديث حسن صحيح. وفيه عن ابن عباس: (ويختطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يحرفونه ويزيدون)[1]. قال هذا حديث حسن صحيح. والخطف: أخذ الشيء بسرعة؛ يقال: خَطَفَ وخَطِف وخَطَّف وخِطِّف وخِطَف. والأصل في المشددات اختطف فأدغم التاء في الطاء لأنها أختها، وفتحت الخاء؛ لأن حركة التاء ألقيت عليها. ومن كسرها فلالتقاء الساكنين. ومن كسر الطاء أتبع الكسر الكسر.

قولـه تعالى: ﴿فأتبعه شهاب ثاقب﴾ أي مضيء؛ قالـه الضحاك والحسن وغيرهما. وقيل: المراد كواكب النار تتبعهم حتى تسقطهم في البحر. وقال ابن عباس في الشهب: تحرقهم من غير موت. وليست الشهب التي يرجم الناس بها من الكواكب الثوابت. يدل على ذلك رؤية حركاتها، والثابتة تجري ولا ترى حركاتها لبعدها. وقد مضى هذا. وجمع شهاب شهب، والقياس في القليل أشهبة وإن لم يُسمع من العرب. و"ثاقب" معناه مضيء؛ قالـه الحسن ومجاهد وأبو مجلز. ومنه قولـه:

وزندك أثقب أزنادها

أي أضوأ. وحكى الأخفش في الجمع: شُهُبٌ ثُقُبٌ وثواقب وثقاب. وحكى الكسائي: ثقبت النار تثقب ثقابةً وثقوبا إذا اتقدت، وأثقبتها أنا. وقال زيد بن أسلم في الثاقب: إنه المستوقد؛ من قولـهم: أثقب زندك أي استوقد نارك؛ قالـه الأخفش. وأنشد قول الشاعر:

بينما المرء شـهاب ثاقب ضرب الدهر سناه فخمد

قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿فاستفتهم﴾ أي سلـهم يعني أهل مكة؛ مأخوذ من استفتاء المفتي. ﴿أهم أشد خلقا أم من خلقنا﴾ قال مجاهد: أي من خلقنا من السموات والأرض والجبال والبحار. وقيل: يدخل فيه الملائكة ومن سلف من الأمم الماضية. يدل على ذلك أنه أخبر عنهم "بمن" قال سعيد بن جبير: الملائكة. وقال غيره: "من" الأمم الماضية وقد هلكوا وهم أشد خلقا منهم. نزلت في أبي الأشد بن كلدة، وسمي بأبي الأشد لشدة بطشه وقوته. وسيأتي في "البلد" ذكره. ونظير هذه: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾(غافر: ٥٧) وقولـه: ﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء﴾ (النازعات: ٢٧). ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ أي لاصق؛ قالـه ابن عباس. ومنه قول علي ﷺ:

تعلم فـإن الله زادك بسـطة وأخلاق خير كلـها لك لازب

---

(١) أخرجه الترمذي في "التفسير"، (٣٢٢٤).

وقال قتادة وابن زيد: معنى "لازب" لازق. الماوردي: والفرق بين اللاصق واللازق أن اللاصق: هو الذي قد لصق بعضه ببعض، واللازق: هو الذي يلتزق بما أصابه. وقال عكرمة: "لازب" لزج. سعيد بن جبير: أي جيد حر يلصق باليد. مجاهد: "لازب" لازم. والعرب تقول: طين لازب ولازم، تبدل الباء من الميم. ومثله قولهم: لا تب ولازم. على إبدال الباء بالميم. واللازب الثابت؛ تقول: صار الشيء ضربة لازب، وهو أفصح من لازم. قال النابغة:

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ... ولا يحسبون الشر ضربة لازب

وحكى الفراء عن العرب: طين لاتب بمعنى لازم. واللاتب الثابت؛ تقول منه: لتب يلتب لتبا ولتوبا، مثل لزب يلزب بالضم لزوبا؛ وأنشد أبو الجراح في اللاتب:

فإن يك هذا من نبيذ شربته ... فإني من شرب النبيذ لتائب

صداع وتوصيم العظام وفترة ... وغم مع الإشراق في الجوف لاتب

واللاتب أيضا: اللاصق مثل اللازب، عن الأصمعي حكاه الجوهري. وقال السدي والكلبي في اللازب: إنه الخالص. مجاهد والضحاك: إنه المنتن.

قوله تعالى: ﴿ بل عجبت ﴾ قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم بفتح التاء خطابا للنبي ﷺ؛ أي بل عجبت مما نزل عليك من القرآن وهم يسخرون به. وهي قراءة شريح وأنكر قراءة الضم وقال: إن الله لا يعجب من شيء، وإنما يعجب من لا يعلم. وقيل: المعنى بل عجبت من إنكارهم للبعث. وقرأ الكوفيون إلا عاصما بضم التاء. واختارها أبو عبيد والفراء، وهي مروية عن علي وابن مسعود؛ رواها شعبة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ: "بل عجبت" بضم التاء. ويروى عن ابن عباس. قال الفراء في قوله سبحانه: "بل عجبت ويسخرون" قرأها الناس بنصب التاء ورفعها، والرفع أحب إلي؛ لأنها عن علي وعبد الله وابن عباس. وقال أبو زكريا الفراء: العجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد؛ وكذلك قوله: ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ (البقرة: ١٥) ليس ذلك من الله كمعناه من العباد. وفي هذا بيان الكسر لقول شريح حيث أنكر القراءة بها. روى جرير والأعمش عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: قرأها عبد الله يعني ابن مسعود "بل عجبتُ ويسخرون" قال شريح: إن الله لا يعجب من شيء إنما يعجب من لا يعلم. قال الأعمش فذكرته لإبراهيم فقال: إن شريحا كان يعجبه رأيه، إن عبد الله كان أعلم من شريح وكان يقرؤها عبد الله "بل عجبتُ". قال الهروي: وقال بعض الأئمة: معنى قوله: "بل عجبت" بل جازيتهم على عجبهم؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الحق؛ فقال: ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ (ص: ٤) وقال: "إن هذا لشيء عجاب"، ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾ (يونس: ٢) فقال تعالى: "بل عجبت" بل جازيتهم على التعجب.

قلت: وهذا تمام معنى قول الفراء واختاره البيهقي. وقال علي بن سليمان: معنى القراءتين واحد، التقدير: قيل يا محمد بل عجبت؛ لأن النبي ﷺ مخاطب بالقرآن. النحاس: وهذا قول حسن وإضمار القول كثير. البيهقي: والأول أصح. المهدوي: ويجوز أن يكون إخبار الله عن نفسه بالعجب

محمولا على أنه أظهر من أمره وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين؛ كما يحمل إخباره تعالى عن نفسه بالضحك لمن يرضى عنه ـ على ما جاء في الخبر عن النبي ﷺ ـ على أنه أظهر لـه من رضاه عنه ما يقوم لـه مقام الضحك من المخلوقين مجازا واتساعا. قال الـهروي: ويقال معنى (عجب ربكـم) أي رضي وأثاب؛ فسماه عجبا وليس بعجب في الحقيقة؛ كما قال تعالى: ﴿ ويمكر الله ﴾ (الأنفال: ٣٠) معناه ويجازيهم الله على مكرهم، ومثلـه في الحديث (عجب ربكم من إلِّكُم وقنوطكم). وقد يكون العجب بمعنى وقوع ذلك العمل عند الله عظيما. فيكون معنى قولـه: "بل عجبت" أي بل عظم فعلـهم عندي. قال البيهقي: ويشبه أن يكون هذا معنى حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (عجب ربك من شاب ليست لـه صبوة)[١] وكذلك ما خرجه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل)[٢] قال البيهقي: وقد يكون هذا الحديث وما ورد من أمثالـه أنه يعجب ملائكته من كرمه ورأفته بعباده، حين حملـهم على الإيمان به بالقتال والأسر في السلاسل، حتى إذا آمنوا أدخلـهم الجنة. وقيل: معنى "بل عجبت" بل أنكرت. حكاه النقاش. وقال الحسين بن الفضل: التعجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه، وهو لغة العرب. وقد جاء في الخبر (عجب ربكم من إلِّكُم وقنوطكم).

قولـه تعالى: ﴿ ويسخرون ﴾ قيل: الواو واو الحال؛ أي عجبت منهم في حال سخريتهم. وقيل: تم الكلام عند قولـه: "بل عجبت" ثم استأنف فقال: "ويسخرون" أي مما جئت به إذا تلوته عليهم. وقيل: يسخرون منك إذا دعوتهـم. ﴿ وإذا ذكروا ﴾ أي وعظـوا بالقرآن في قـول قتادة: ﴿ لا يذكرون ﴾ لا ينتفعون به. وقال سعيد بن جبير: أي إذا ذكر لـهم ما حل بالمكذبين من قبلـهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا. ﴿ وإذا رأوا آية ﴾ أي معجزة ﴿ يستسخرون ﴾ أي يسخرون في قول قتادة. ويقولون إنها سحر. واستسخر وسخر بمعنىً مثل استقر وقر، واستعجب، وعجب. وقيل: "يستسخرون" أي يستدعون السخري من غيرهم. وقال مجاهد: يستهزئون. وقيل: أي يظنون أن تلك الآية سخرية. ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي إذا عجزوا عن مقابلة المعجزات بشيء قالوا هذا سحر وتخييل وخداع. ﴿ أئذا متنا ﴾ أي أنبعث إذا متنا؟. فهو استفهام إنكار منهم وسخرية. ﴿ أو آباؤنا الأولون ﴾ أي أو تبعث آباؤنا دخلت ألف الاستفهام على حرف العطف. قرأ نافع: "أو آباؤنا" بسكون الواو. وقد مضى هذا في سورة "الأعراف". في قولـه تعالى: ﴿ أفأمن أهل القرى ﴾ (الأعراف: ٩٨).

قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل نعم ﴾ أي نعم تبعثون. ﴿ وأنتم داخرون ﴾ أي صاغرون أذلاء؛ لأنهم إذا رأوا وقوع ما أنكروه فلا محالة يذلون. وقيل: أي ستقوم القيامة وإن كرهتم، فهذا أمر واقع على رغمكم وإن أنكرتموه اليوم بزعمكم. ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ أي صيحة واحدة، قالـه الحسن

---

(١) ذكره العجلوني في "كشف الخفاء"، (١٧٠٩) وفيه ابن لـهيعة.
(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٠).

وهي النفخة الثانية. وسميت الصيحة زجرة؛ لأن مقصودها الزجر أي يزجر بها كزجر الإبل والخيل عند السوق. ﴿ فإذا هم ﴾ قيام.

قوله تعالى: ﴿ ينظرون ﴾ أي ينظر بعضهم إلى بعض. وقيل: المعنى ينتظرون ما يفعل بهم. وقيل: هي مثل قوله: ﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ (الأنبياء: ٩٧). وقيل: أي ينظرون إلى البعث الذي أنكروه.

قوله تعالى: ﴿ وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ﴾ نادوا على أنفسهم بالويل؛ لأنهم يومئذ يعلمون ما حل بهم. وهو منصوب على أنه مصدر عند البصريين. وزعم الفراء أن تقديره: يا وي لنا، ووي بمعنى حزن. النحاس: ولو كان كما قال لكان منفصلا وهو في المصحف متصل، ولا نعلم أحدا يكتبه إلا متصلا. و"يوم الدين" يوم الحساب. وقيل: يوم الجزاء. ﴿ هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴾ قيل: هو من قول بعضهم لبعض؛ أي هذا اليوم الذي كذبنا به. وقيل: هو قول الله تعالى لهم. وقيل: من قول الملائكة؛ أي هذا يوم الحكم بين الناس فيبين المحق من المبطل. فـ ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ (الشورى: ٧).

قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ هو من قول الله تعالى للملائكة: "احشروا" المشركين "وأزواجهم" أي أشياعهم في الشرك، والشرك الظلم؛ قال الله تعالى: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ (لقمان: ١٣) فيحشر الكافر مع الكافر؛ قاله قتادة وأبو العالية. وقال عمر بن الخطاب في قول الله عز وجل: "احشروا الذين ظلموا وأزواجهم" قال: الزاني مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة. وقال ابن عباس: "وأزواجهم" أي أشباههم. وهذا يرجع إلى قول عمر. وقيل: "وأزواجهم" نساؤهم الموافقات على الكفر؛ قاله مجاهد والحسن، ورواه النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب. وقال الضحاك: "وأزواجهم" قرناءهم من الشياطين. وهذا قول مقاتل أيضا: يحشر كل كافر مع شيطانه في سلسلة. ﴿ وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ أي: من الأصنام والشياطين وإبليس. ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ أي سوقوهم إلى النار. وقيل: "فاهدوهم" أي دلوهم. يقال: هديته إلى الطريق، وهديته الطريق؛ أي دللته عليه. وأهديت الهدية وهديت العروس، ويقال أهديتها؛ أي جعلتها بمنزلة الهدية.

قولـه تعالى: ﴿ وقفوهم ﴾ وحكى عيسى بن عمر "أنهم" بفتح الـهمزة. قال الكسائي: أي لأنهم وبأنهم، يقال: وقفت الدابة أقفها وقفا فوقفت هي وقوفا، يتعدى ولا يتعدى؛ أي احسبوهم. وهذا يكون قبل السوق إلى الجحيم؛ وفيه تقديم وتأخير، أي قفوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار. وقيل: يساقون إلى النار أولا ثم يحشرون للسؤال إذا قربوا من النار. ﴿ إنهم مسؤولون ﴾ عن أعمالـهم وأقوالـهم وأفعالـهم؛ قالـه القرظي والكلبي. الضحاك: عن خطاياهم. ابن عباس: عن لا إلـه إلا الله. وعنه أيضا: عن ظلم الخلق. وفي هذا كلـه دليل على أن الكافر يحاسب. وقد مضى في "الحجر" الكلام فيه. وقيل: سؤالـهم أن يقال لـهم: ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ (الأنعام: ١٣٠) إقامة للحجة. ويقال لـهم: ﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾ على جهة التقريع والتوبيخ؛ أي ينصر بعضكم بعضا فيمنعه من عذاب الله. وقيل: هو إشارة إلى قول أبي جهل يوم بدر: ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ (القمر: ٤٤). وأصلـه تتناصرون فطرحت إحدى التاءين تخفيفا. وشدد البزي التاء في الوصل.

قولـه تعالى: ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ قال قتادة: مستسلمون في عذاب الله عز وجل. ابن عباس: خاضعون ذليلون. الحسن: منقادون. الأخفش: ملقون بأيديهم. والمعنى متقارب. ﴿ وأقبل بعضهم على بعض ﴾ يعني الرؤساء والأتباع ﴿ يتساءلون ﴾ يتخاصمون. ويقال لا يتساءلون فسقطت لا. النحاس: وإنما غلط الجاهل باللغة فتوهم أن هذا من قولـه: ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ (المؤمنون: ١٠١) إنما هو لا يتساءلون بالأرحام، فيقول أحدهم: أسألك بالرحم الذي بيني وبينك لما نفعتني، أو أسقطت لي حقا لك علي، أو وهبت لي حسنة. وهذا بين؛ لأن قبلـه ﴿ فلا أنساب بينهم ﴾ (المؤمنون: ١٠١). أي ليس ينتفعون بالأنساب التي بينهم؛ كما جاء في الحديث: (إن الرجل ليسر بأن يصبح لـه على أبيه أو على ابنه حق فيأخذه منه لأنها الحسنات والسيئات)، وفي حديث آخر: (رحم الله امرأ كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فأتاه فاستحله قبل أن يطالبه به فيأخذ من حسناته فإن لم تكن لـه حسنات زيد عليه من سيئات المطالب)[1]. و"يتساءلون" ها هنا إنما هو أن يسأل بعضهم بعضا ويوبخه في أنه أضلـه أو فتح بابا من المعصية؛ يبين ذلك أن بعده ﴿ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ قال مجاهد: هو قول الكفار للشياطين. قتادة: هو قول الإنس للجن. وقيل: هو من قول الأتباع للمتبوعين؛ دليلـه قولـه تعالى: ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ (سبأ: ٣١) الآية. قال سعيد عن قتادة: أي تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها. وعن ابن عباس نحو منه. وقيل: تأتوننا عن اليمين التي نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النصح. والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح. وقيل: "تأتوننا عن اليمين" تأتوننا مجيء من إذا حلف لنا صدقناه. وقيل: تأتوننا من قبل الدين فتهونون علينا أمر الشريعة وتنفروننا عنها.

قلت: وهذا القول حسن جدا؛ لأن من جهة الدين يكون الخير والشر، واليمين بمعنى الدين؛ أي كنتم تزينون لنا الضلالة. وقيل: اليمين بمعنى القوة؛ أي تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر؛ قال الله تعالى: ﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين ﴾ (الصافات: ٩٣) أي بالقوة وقوة الرجل في يمينه؛ وقال الشاعر:

---

(١) أصلـه في البخاري من حديث أبي هريرة.

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاهـا عرابة باليمين

أي بالقوة والقدرة. وهذا قول ابن عباس. وقال مجاهد: "تأتوننا عن اليمين" أي من قبل الحق أنه معكم؛ وكلـه متقارب المعنى. ﴿ قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ قال قتادة: هذا قول الشياطين لـهم. وقيل: من قول الرؤساء؛ أي لم تكونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم منه إلى الكفر، بل كنتم على الكفر فأقمتم عليه للإلف والعادة. ﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ أي من حجة في ترك الحق ﴿ بل كنتم قوما طاغين ﴾ أي ضالين متجاوزين الحد. ﴿ فحق علينا قول ربنا ﴾ هو أيضا من قول المتبوعين؛ أي وجب علينا وعليكم قول ربنا، فكلنا ذائقو العذاب، كما كتب الله وأخبر على ألسنة الرسل ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (السجدة: ١٣). وهذا موافق للحديث: (إن الله جل وعز كتب للنار أهلا وللجنة أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم)[١]. ﴿ فأغويناكم ﴾ أي زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿ إنا كنا غاوين ﴾ بالوسوسة والاستدعاء. ثم قال مخبرا عنهم: ﴿ فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون ﴾ الضال والمضل. ﴿ إنا كذلك ﴾ أي مثل هذا الفعل ﴿ نفعل بالمجرمين ﴾ أي المشركين. ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لـهم لا إلـه إلا الله يستكبرون ﴾ أي إذا قيل لـهم قولوا فأضمر القول. و"يستكبرون" في موضع نصب على خبر كان. ويجوز أن يكون في موضع رفع على أنه خبر إن، وكان ملغاة. ولما قال النبي ﷺ لأبي طالب عند موته واجتماع قريش (قولوا لا إلـه إلا الله تملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم)[٢] أبوا وأنفوا من ذلك. وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: (أنزل الله تعالى في كتابه فذكر قوما استكبروا فقال: "إنهم كانوا إذا قيل لـهم لا إلـه إلا الله يستكبرون") وقال تعالى: ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسولـه وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلـها ﴾ (الفتح: ٢٦) وهي (لا إلـه إلا الله محمد رسول الله) استكبر عنها المشركون يوم الحديبية يوم كاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة؛ ذكر هذا الخبر البيهقي، والذي قبلـه القشيري.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويقولون أئنا لتاركو آلـهتنا لشاعر مجنون ﴾ أي لقول شاعر مجنون؛ فرد الله جل وعز عليهم فقال: ﴿ بل جاء بالحق ﴾ يعني القرآن والتوحيد ﴿ وصدق المرسلين ﴾ فيما جاؤوا به من التوحيد. ﴿ إنكم لذائقو العذاب الأليم ﴾ الأصل لذائقون فحذفت النون استخفافا وخفضت للإضافة. ويجوز النصب كما أنشد سيبويه:

---

(١) أخرجه مسلم في "القدر"، (٢٦٦٢) بلفظ مقارب من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم بأتم من هذا السياق.

فألفيته غير مستعتب ولا ذاكر الله إلا قليلا

وأجاز سيبويه "والمقيمي الصلاة" على هذا. ﴿ وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أي إلا بما عملتم من الشرك ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ استثناء ممن يذوق العذاب. وقراءة أهل المدينة والكوفة "المخلصين" بفتح اللام؛ يعني الذين أخلصهم الله لطاعته ودينه وولايته. الباقون بكسر اللام؛ أي الذين أخلصوا لله العبادة. وقيل: هو استثناء منقطع، أي إنكم أيها المجرمون ذائقو العذاب لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾ يعني المخلصين؛ أي لهم عطية معلومة لا تنقطع. قال قتادة: يعني الجنة. وقال غيره: يعني رزق الجنة. وقيل: هي الفواكه التي ذكر. قال مقاتل: حين يشتهونه. وقال ابن السائب: إنه بمقدار الغداة والعشي؛ قال الله تعالى: ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ (مريم: ٦٢). "فواكه" جمع فاكهة؛ قال الله تعالى: ﴿ وأمددناهم بفاكهة ﴾ (الطور: ٢٢) وهي الثمار كلها رطبها ويابسها؛ قاله ابن عباس. ﴿ وهم مكرمون ﴾ أي ولهم إكرام من الله جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه. ﴿ في جنات النعيم ﴾ أي في بساتين يتنعمون فيها. وقد تقدم أن الجنان سبع في سورة "يونس" منها النعيم.

قوله تعالى: ﴿ على سرر متقابلين ﴾ قال عكرمة ومجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض تواصلا وتحابيا. وقيل: الأسرة تدور كيف شاؤوا فلا يرى أحد قفا أحد. وقال ابن عباس: على سرر مكللة بالدر والياقوت والزبرجد؛ السرير ما بين صنعاء إلى الجابية، وما بين عدن إلى أيلة. وقيل: تدور بأهل المنزل الواحد. والله أعلم. قوله تعالى: ﴿ يطاف عليهم بكأس من معين ﴾ لما ذكر مطاعمهم ذكر شرابهم. والكأس عند أهل اللغة اسم شامل لكل إناء مع شرابه؛ فإن كان فارغا فليس بكأس. قال الضحاك والسدي: كل كأس في القرآن فهي الخمر، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا إناء وقدح. النحاس: وحكى من يوثق به من أهل اللغة أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر: كأس؛ فإذا لم يكن فيه خمر فهو قدح؛ كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام: مائدة؛ فإذا لم يكن عليه طعام لم تقل له مائدة. قال أبو الحسن بن كيسان: ومنه ظعينة للهودج إذا كان فيه المرأة. وقال الزجاج: "بكأس من معين" أي من خمر تجري كما تجري العيون على وجه الأرض. والمعين: الماء الجاري الظاهر. ﴿ بيضاء ﴾ صفة للكأس. وقيل: للخمر: ﴿ لذة للشاربين ﴾. قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضا من اللبن "لذة". قال الزجاج: أي ذات لذة فحذف المضاف. وقيل: هو مصدر جعل اسما أي بيضاء لذيذة؛ يقال شراب لذ ولذيذ، مثل نبات غض وغضيض. فأما قول القائل:

ولذ كطعم الصرخدي تركته بأرض العدا من خشية الحدثان

فإنه يريد النوم. وقيل: "بيضاء" أي: لم يعتصرها الرجال بأقدامهم. ﴿ لا فيها غول ﴾ أي لا تغتال عقولهم، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع. ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ أي لا تذهب عقولهم بشربها؛ يقال: الخمر غول للحلم، والحرب غول للنفوس؛ أي تذهب بها. ويقال: نزف الرجل ينزف فهو منزوف ونزيف إذا سكر. قال امرؤ القيس:

وإذا هي تمشي كمشي النزيـ ـف يصرعه بالكثيب البهر

وقال أيضا:

نزيف إذا قام لوجه تمايلت تراشي الفؤاد الرخص ألا تخترا

وقال آخر:

فلثمت فاها آخذا بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي؛ من أنزف القوم إذا حان منهم النزف وهو السكر. يقال: أحصد الزرع إذا حان حصاده، وأقطف الكرم إذا حان قطافه، وأركب المهر إذا حان ركوبه. وقيل: المعنى لا ينفدون شرابهم؛ لأنه دأبهم؛ يقال: أنزف الرجل فهو منزوف إذا فنيت خمره. قال الحطيئة:

لعمري لئن أنزفتم أو صحوتم لبئس الندامى كنتم آل أبجرا

النحاس: والقراءة الأولى أبين وأصح في المعنى؛ لأن معنى "ينزفون" عند جلة أهل التفسير منهم مجاهد لا تذهب عقولهم؛ فنفى الله عز وجل عن خمر الجنة الآفات التي تلحق في الدنيا من خمرها من الصداع والسكر. ومعنى "ينزفون" الصحيح فيه أنه يقال: أنزف الرجل إذا نفد شرابه، وهو يبعد أن يوصف به شراب الجنة؛ ولكن مجازه أن يكون بمعنى لا ينفد أبدا. وقيل: "لا ينزفون" بكسر الزاي لا يسكرون؛ ذكره الزجاج وأبو علي على ما ذكره القشيري. المهدوي: ولا يكون معناه يسكرون؛ لأن قبله "لا فيها غول". أي لا تغتال عقولهم فيكون تكرارا؛ ويسوغ ذلك في "الواقعة". ويجوز أن يكون معنى "لا فيها غول" لا يمرضون؛ فيكون معنى "ولا هم عنها ينزفون" لا يسكرون أو لا ينفد شرابهم. قال قتادة: الغول وجع البطن. وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد "لا فيها غول" قال لا فيها وجع بطن. الحسن: صداع. وهو قول ابن عباس: "لا فيها غول" لا فيها صداع. وحكى الضحاك عنه أنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر والصداع والقيء والبول؛ فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال. مجاهد: داء. ابن كيسان: مغص. وهذه الأقوال متقاربة. وقال الكلبي: "لا فيها غول" أي إثم؛ نظيره: ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ (الطور: ٢٣). وقال الشعبي والسدي وأبو عبيدة: لا تغتال عقولهم فتذهب بها. ومنه قول الشاعر:

وما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأول الأول

أي تصرع واحدا واحدا. وإنما صرف الله تعالى السكر عن أهل الجنة لئلا ينقطع الالتذاذ عنهم بنعيمهم. وقال أهل المعاني: الغول فساد يلحق في خفاء. يقال: اغتاله اغتيالا إذا أفسد عليه أمره في خفية. ومنه الغول والغيلة: وهو القتل خفية.

قولـه تعالى: ﴿وعندهم قاصرات الطرف﴾ أي نساء قد قصرن طرفهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم؛ قالـه ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغيرهم. عكرمة: "قاصرات الطرف" أي محبوسات على أزواجهن. والتفسير الأول أبين؛ لأنه ليس في الآية مقصورات ولكن في موضع آخر "مقصورات" يأتي بيانه. و"قاصرات" مأخوذ من قولـهم: قد اقتصر على كذا إذا اقتنع به وعدل عن غيره؛ قال امرؤ القيس:

من القاصرات الطرف لو دب محول   من الذر فوق الإتب منها لأثرا

ويروى: فوق الخد. والأول أبلغ. والإتب القميص، والمحول الصغير من الذر. وقال مجاهد أيضا: معناه لا يغرن. ﴿عين﴾ عظام العيون الواحدة عيناء؛ وقاله السدي. مجاهد: "عين" حسان العيون. الحسن: الشديدات بياض العين، الشديدات سوادها. والأول أشهر في اللغة. يقال: رجل أعين واسع العين بيّن العين، والجمع عين. وأصلـه فعل بالضم فكسرت العين؛ لئلا تنقلب الواو ياء. ومنه قيل لبقر الوحش عين، والثور أعين، والبقرة عيناء. ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ أي مصون. قال الحسن وابن زيد: شبهن ببيض النعام، تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار، فلونها أبيض في صفرة وهو أحسن ألوان النساء. وقال ابن عباس وابن جبير والسدي: شبهن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدي. وقال عطاء: شبهن بالسحاء الذي يكون بين القشرة العليا ولباب البيض. وسحاة كل شيء: قشره والجمع سحا؛ قالـه الجوهري. ونحوه قول الطبري، قال: هو القشر الرقيق، الذي على البيضة بين ذلك. وروي نحوه عن النبي ﷺ. والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها؛ قال امرؤ القيس:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها   تمتعت من لـهو بها غير معجل

وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة: كأنه بيض النعام المغطى بالريش. وقيل: المكنون المصون عن الكسر؛ أي إنهن عذارى. وقيل: المراد بالبيض اللؤلؤ؛ كقولـه تعالى: ﴿وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ (الواقعة: ٢٣) أي في أصدافه؛ قالـه ابن عباس أيضا. ومنه قول الشاعر:

وهي بيضاء مثل لؤلؤة الغـ   ـواص ميزت من جوهر مكنون

وإنما ذكر المكنون والبيض جمع؛ لأنه رد النعت إلى اللفظ.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي يتفاوضون فيما بينهم أحاديثهم في الدنيا. وهو من تمام الأنس في الجنة. وهو معطوف على معنى "يطاف عليهم" المعنى يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشراب. قال بعضهم:

وما بقـيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لـهم وعليهم في الدنيا؛ إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره. قولـه تعالى: ﴿ قال قائل منهم ﴾ أي من أهل الجنة ﴿ إني كان لي قرين ﴾ أي صديق ملازم ﴿ يقول أئنك لمن المصدقين ﴾ أي بالمبعث والجزاء. وقال سعيد بن جبير: قرينه شريكه. وقـد مضـى في "الكـهف" ذكرهما وقصتهما والاختلاف فـي اسميهما مستوفـى عند قولـه تعالـى: ﴿ واضرب لـهم مثلا رجلين ﴾ (الكهف: ٣٢) وفيهما أنزل الله جل وعز: "قال قائل منهم إني كان لي قرين" إلى "من المحضرين" وقيل: أراد بالقرين قرينه من الشيطان كان يوسوس إليه بإنكار البعث. وقرئ: "أئنك لمن المصدقين" بتشديد الصاد. رواه علي بن كيسة عن سليم عن حمزة. قال النحاس: ولا يجوز "أئنك لمن المصدقين" لأنه لا معنى للصدقة ها هنا. وقال القشيري: وفي قراءة عن حمزة "أئنك لمن المصدقين" بتشديد الصاد. واعترض عليه بأن هذا من التصديق لا من التصدق. والاعتراض باطل؛ لأن القراءة إذا ثبتت عن النبي ﷺ فلا مجال للطعن فيها. فالمعنى "أئنك لمن المصدقين" بالمال طلبا في ثواب الآخرة. ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون ﴾ أي مجزيون محاسبون بعد الموت فـ﴿ قال ﴾ الله تعالى لأهل الجنة: ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾. وقيل: هو من قول المؤمن لإخوانه في الجنة هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين. وقيل: هو من قول الملائكة. وليس﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ باستفهام، إنما هو بمعنى الأمر، أي اطلعوا؛ قالـه ابن الأعرابي وغيره. ومنه لما نزلت آية الخمر، قام عمر قائما بين يدي النبي ﷺ، ثم رفع رأسه إلى السماء، ثم قال: يا رب بيانا أشفى من هذا في الخمر. فنزلت: ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ (المائدة: ٩١) قال: فنادى عمر انتهينا يا ربنا. وقرأ ابن عباس: "هل أنتم مطلعون" بإسكان الطاء خفيفة "فأَطْلعَ" بقطع الألف مخففة على معنى هل أنتم مقبلون، فأقبل. قال النحاس: "فأطلع فرآه" فيه قولان: أحدهما أن يكون فعلا مستقبلا معناه فأطلع أنا، ويكون منصوبا على أنه جواب الاستفهام. والقول الثاني أن يكون فعلا ماضيا ويكون اطلع وأطلع واحدا. قال الزجاج: يقال طلع وأطلع واطلع بمعنى واحد. وقد حكى "هل أنتم مطلعون" بكسر النون وأنكره أبو حاتم وغيره. النحاس: وهو لحن لا يجوز؛ لأنه جمع بين النون والإضافة، ولو كان مضافا لكان هل أنتم مطلعي، وإن كان سيبويه والفراء قد حكيا مثلـه، وأنشدا:

هـم القائلـون الخـير والآمـــرونه إذا ما خشوا من مُحْدَثِ الأمر معظما

وأنشد الفراء: والفاعلونه. وأنشد سيبويه وحده:

ولم يرتفق والناس محتضرونه

وهذا شاذ خارج عن كلام العرب، وما كان مثل هذا لم يحتج به في كتاب الله عز وجل، ولا يدخل في الفصيح. وقد قيل في توجيهه: إنه أجرى اسم الفاعل مجرى المضارع لقربه منه، فجرى "مطلعون" مجرى يطلعون. ذكره أبو الفتح عثمان بن جني وأنشد:

أرأيت إن جئت به أملودا مرجلا ويلبس البرودا
أقائلن أحضروا الشهودا

فأجرى أقائلن مجرى أتقولن. وقال ابن عباس في قوله تعالى: "هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه" إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى النار وأهلها. وكذلك قال كعب فيما ذكر ابن المبارك، قال: إن بين الجنة والنار كوى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له في الدنيا اطلع من بعض الكوى، قال الله تعالى: ﴿ فاطلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ أي في وسط النار والحسك حواليه؛ قاله ابن مسعود. ويقال: تعبت حتى انقطع سوائي: أي وسطي. وعن أبي عبيدة: قال لي عيسى بن عمر: كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سوائي. وعن قتادة قال: قال بعض العلماء: لولا أن الله جل وعز عرفه إياه لما عرفه، لقد تغير حبره وسبره. فعند ذلك يقول: ﴿ تالله إن كدت لتردين ﴾ "إن" مخففة من الثقيلة دخلت على كاد كما تدخل على كان. ونحوه ﴿ إن كاد ليضلنا ﴾ (الفرقان: ٤٢) واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. ﴿ ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ﴾ في النار. وقال الكسائي: "لتردين" أي لتهلكني، والردى الهلاك. وقال المبرد: لو قيل: "لتردين" لتوقعني في النار لكان جائزا "ولولا نعمة ربي" أي عصمته وتوفيقه بالاستمساك بعروة الإسلام والبراءة من القرين السوء. وما بعد لولا مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف. "لكنت من المحضرين" قال الفراء: أي لكنت معك في النار محضرا. وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر؛ قاله الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ أفما نحن بميتين ﴾ وقرئ "بمائتين" والهمزة في "أفما" للاستفهام دخلت على فاء العطف، والمعطوف محذوف معناه أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين. ﴿ إلا موتتنا الأولى ﴾ يكون استثناء ليس من الأول ويكون مصدرا؛ لأنه منعوت. وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. وقيل: هو من قول المؤمن على جهة الحديث بنعمة الله في أنهم لا يموتون ولا يعذبون؛ أي هذه حالنا وصفتنا. وقيل: هو من قول المؤمن توبيخا للكافر لما كان ينكره من البعث، وأنه ليس إلا الموت في الدنيا. ثم قال المؤمن مشيرا إلى ما هو فيه: ﴿ إن هذا لهو الفوز العظيم ﴾ يكون "هو" مبتدأ وما بعده خبر عنه والجملة خبر إن. ويجوز أن يكون "هو" فاصلا. ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن لما رأى ما أعد الله له في الجنة وما أعطاه قال: "لمثل هذا" العطاء والفضل "فليعمل العاملون" نظير ما قال له الكافر: ﴿ أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ﴾ (الكهف: ٣٤). ويحتمل أن يكون من قول الملائكة. وقيل: هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا؛ أي قد سمعتم ما في الجنة من الخيرات والجزاء، و"لمثل هذا" الجزاء "فليعمل العاملون". النحاس: وتقدير الكلام ـ والله أعلم ـ فليعمل العاملون لمثل هذا. فإن قال قائل: الفاء في العربية تدل على أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم؟ فالجواب أن التقديم كمثل التأخير؛ لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة.

قوله تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أذلك خير ﴾ مبتدأ وخبر، وهو من قول الله جل وعز. ﴿ نزلا ﴾ على البيان؛ والمعنى أنعيم الجنة خير نزلا. ﴿ أم شجرة الزقوم ﴾ خير نزلاً. والنزل في اللغة الرزق الذي لـه سعة ـ النحاس ـ وكذا النزل إلا أنه يجوز أن يكون النزل بإسكان الزاي لغة، ويجوز أن يكون أصلـه النزل؛ ومنه أقيم للقوم نزلـهم، واشتقاقه أنه الغذاء الذي يصلح أن ينزلوا معه ويقيموا فيه. وقد مضى هذا في آخر سورة "آل عمران" وشجرة الزقوم مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراهتها ونتنها.
قال المفسرون: وهي في الباب السادس، وأنها تحيا بلـهب النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء؛ فلا بد لأهل النار من أن ينحدر إليها من كان فوقها فيأكلون منها، وكذلك يصعد إليها من كان أسفل.
واختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا على قولين: أحدهما أنها معروفة من شجر الدنيا. ومن قال بهذا اختلفوا فيها؛ فقال قطرب: إنها شجرة مرة تكون بتهامة من أخبث الشجر. وقال غيره: بل هو كل نبات قاتل. القول الثاني: إنها لا تعرف في شجر الدنيا. فلما نزلت هذه الآية في شجرة الزقوم قالت كفار قريش: ما نعرف هذه الشجرة. فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه فقال: هو عندنا الزُبد والتمر. فقال ابن الزبعري: أكثر الله في بيوتنا الزقوم. فقال أبو جهل لجاريته: زقمينا؛ فأتته بزبد وتمر. ثم قال لأصحابه: تزقموا؛ هذا الذي يخوفنا به محمد؛ يزعم أن النار تنبت الشجر، والنار تحرق الشجر.

قولـه تعالى: ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ أي المشركين، وذلك أنهم قالوا: كيف تكون في النار شجرة وهي تحرق الشجر؟ وقد مضى هذا المعنى في "سبحان" واستخفافهم في هذا كقولـهم في قولـه تعالى: ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ (المدثر: ٣٠). ما الذي يخصص هذا العدد؟ حتى قال بعضهم: أنا أكفيكم منهم كذا فاكفوني الباقين. فقال الله تعالى: ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ (المدثر: ٣١) والفتنة الاختبار، وكان هذا القول منهم جهلا، إذ لا يستحيل في العقل أن يخلق الله في النار شجرا من جنسها لا تأكلـه النار، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب وخزنة النار. وقيل: هذا الاستبعاد الذي وقع للكفار هو الذي وقع الآن للملحدة، حتى حملوا الجنة والنار على نعيم أو عقاب تتخلله الأرواح، وحملوا وزن الأعمال والصراط واللوح والقلم على معاني زوروها في أنفسهم، دون ما فهمه المسلمون من موارد الشرع، وإذا ورد خبر الصادق بشيء موهوم في العقل، فالواجب تصديقه وإن جاز أن يكون لـه تأويل، ثم التأويل في موضع إجماع المسلمين على أنه تأويل باطل لا يجوز، والمسلمون مجمعون على الأخذ بهذه الأشياء من غير مصير إلى علم الباطن.
وقيل إنها فتنة أي عقوبة للظالمين؛ كما قال: ﴿ ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ (الذاريات: ١٤).

قولـه تعالى: ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ أي قعر النار ومنها منشؤها ثم هي متفرعة في جهنم. ﴿ طلعها ﴾ أي ثمرها؛ سمي طلعا لطلوعه. ﴿ كأنه رؤوس الشياطين ﴾ قيل: يعني الشياطين بأعيانهم شبهها برؤوسهم لقبحهم، ورؤوس الشياطين متصور في النفوس وإن كان غير مرئي. ومن ذلك قولـهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان، ولكل صورة حسنة هي كصورة ملك. ومنه قولـه تعالى مخبرا عن صواحب يوسف: ﴿ ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ (يوسف: ٣١) وهذا تشبيه تخييلي؛ روي معناه عن ابن عباس والقرظي. ومنه قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشـرفي مضاجعي   ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وإن كانت الغول لا تعرف؛ ولكن لما تصور من قبحها في النفوس. وقد قال الله تعالى: ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ (الأنعام: ١١٢) فمردة الإنس شياطين مرئية. وفي الحديث الصحيح (ولكأن نخلـها رؤوس الشياطين)[1] وقد ادعى كثير من العرب رؤية الشياطين والغيلان. وقال الزجاج والفراء: الشياطين حيات لـها رؤوس وأعراف، وهي من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسما. قال الراجز وقد شبه المرأة بحية لـها عرف:

عنجرد تحلف حين أحلـف   كمثل شيطان الحماط أعرف

الواحدة حماطة. والأعرف الذي لـه عرف. وقال الشاعر يصف زمام ناقته:

تلاعـب مثنى حضرمي كأنه   تعمج شيطان بذي خروع قفر

التعمج: الاعوجاج في السير. وسهم عموج: يتلوى في ذهابه. وتعمجت الحية: إذا تلوت في سيرها.

وقيل: إنما شبه ذلك بنبت قبيح في اليمن يقال لـه الأستن والشيطان. قال النحاس: وليس ذلك معروفا عند العرب. الزمخشري: هو شجر خشن منتن مر منكر الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين. النحاس: وقيل: الشياطين ضرب من الحيات قباح. ﴿ فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ﴾ فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة. وقال في "الغاشية": ﴿ ليس لـهم طعام إلا من ضريع ﴾ (الغاشية: ٦) وسيأتي. ﴿ ثم إن لـهم عليها ﴾ أي بعد الأكل من الشجرة ﴿ لشوبا من حميم ﴾ الشوب الخلط، والشوْب والشُّوب لغتان كالفَقر والفُقر والفتح أشهر. قال الفراء: شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوبا وشيابة. فأخبر أنه يشاب لـهم. والحميم: الماء الحار ليكون أشنع؛ قال الله تعالى: ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ (محمد: ١٥). السدي: يشاب لـهم الحميم بغساق أعينهم وصديد من قيحهم ودمائهم. وقيل: يمزج لـهم الزقوم بالحميم ليجمع لـهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم؛ تغليظا لعذابهم وتجديدا لبلائهم. ﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ قيل: إن هذا يدل على أنهم كانوا حين أكلوا الزقوم في عذاب غير النار ثم يردون إليها. وقال مقاتل: الحميم خارج الجحيم فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردون إلى الجحيم؛ لقولـه تعالى: ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ (الرحمن: ٤٤). وقرأ ابن مسعود: "ثم إن

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٢٦٨).

منقلبهم لإلى الجحيم" قال أبو عبيدة: يجوز أن تكون "ثم" بمعنى الواو. القشيري: ولعل الحميم في موضع من جهنم على طرف منها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ﴾ أي صادفوهم كذلك فاقتدوا بهم. ﴿ فهم على آثارهم يهرعون ﴾ أي يسرعون؛ عن قتادة. وقال مجاهد: كهيئة الـهرولة. قال الفراء: الإهراع الإسراع برعدة. وقال أبو عبيدة: "يهرعون" يستحثون من خلفهم. ونحوه قول المبرد. قال: المهرع المستحث؛ يقال: جاء فلان يهرع إلى النار إذا استحثه البرد إليها. وقيل: يزعجون من شدة الإسراع؛ قاله الفضل. الزجاج: يقال هرع وأهرع إذا استحث وأزعج.

قولـه تعالى: ﴿ولقد ضل قبلـهم أكثر الأولين﴾ أي من الأمم الماضية. ﴿ ولقد أرسلنا فيهم منذرين ﴾ أي رسلا أنذروهم العذاب فكفروا. ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أي آخر أمرهم. ﴿ إلا عباد الله المخلصين﴾ أي الذين استخلصهم الله من الكفر. وقد تقدم. ثم قيل: هو استثناء من "المنذَرين". وقيل هو من قولـه تعالى: "ولقد ضل قبلـهم أكثر الأولين".

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولقد نادانا نوح ﴾ من النداء الذي هو الاستغاثة؛ ودعا قيل بمسألة هلاك قومه فقال: ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ (نوح: ٢٦). ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ قال الكسائي: أي "فلنعم المجيبون" لـه كنا. ﴿ ونجيناه وأهلـه ﴾ يعني أهل دينه، وهم من آمن معه وكانوا ثمانين على ما تقدم. ﴿ من الكرب العظيم ﴾ وهو الغرق. ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال ابن عباس: لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه؛ فذلك قولـه: "وجعلنا ذريته هم الباقين". وقال سعيد بن المسيب: كان ولد نوح ثلاثة والناس كلـهم من ولد نوح: فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى. وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السند والـهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم. ويافث أبو الصقالبة والترك واللان والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك. وقال قوم: كان لغير ولد نوح أيضا نسل؛ بدليل قولـه: ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ (الإسراء: ٣). وقولـه: ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ (هود: ٤٨) فعلى هذا معنى الآية: "وجعلنا ذريته هم الباقين" دون ذرية من كفر فإنا أغرقنا أولئك.

قولـه تعالى: ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي تركنا عليه ثناء حسنا في كل أمة، فإنه محبب إلى الجميع؛ حتى إن في المجوس من يقول إنه أفريدون. روي معناه عن مجاهد وغيره. وزعم الكسائي أن فيه تقديرين: أحدهما "وتركنا عليه في الآخرين" يقال: ﴿ سلام على نوح ﴾ أي تركنا عليه هذا الثناء الحسن. وهذا مذهب أبي العباس المبرد. أي تركنا عليه هذه الكلمة باقية؛ يعني يسلمون لـه تسليما ويدعون لـه؛ وهو من الكلام المحكي؛ كقولـه تعالى: ﴿ سورة أنزلناها ﴾ (النور: ١). والقول الآخر أن يكون المعنى وأبقينا عليه. وتم الكلام ثم ابتدأ فقال: "سلام على نوح" أي سلامة لـه من أن يذكر بسوء "في الآخرين". قال الكسائي: وفي قراءة ابن مسعود "سلاما" منصوب بـ "تركنا" أي تركنا عليه ثناء حسنا سلاما. وقيل: "في الآخرين" أي في أمة محمد ﷺ. وقيل: في الأنبياء إذ لم يبعث بعده نبي إلا أمر بالاقتداء به؛ قال الله تعالى: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ﴾ (الشورى: ١٣) وقال سعيد بن المسيب: وبلغني أنه من قال حين يسمي ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ لم تلدغه عقرب. ذكره أبو عمر في التمهيد. وفي الموطأ عن خولة بنت حكيم أن رسول الله ﷺ قال: (من نزل منزلا فليقل أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق فإنه لن يضره شيء حتى يرتحل)[1]. وفيه عن أبي هريرة أن رجلا من أسلم قال: ما نمت هذه الليلة؛ فقال رسول الله ﷺ: (من أي شيء) فقال: لدغتني عقرب؛ فقال رسول الله ﷺ: (أما إنك لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك)[2].

قولـه تعالى: ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي نبقي عليهم الثناء الحسن. والكاف في موضع نصب؛ أي جزاء كذلك. ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ هذا بيان إحسانه. قولـه تعالى: ﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ أي من كفر. وجمعه أخر. والأصل فيه أن يكون معه "من" إلا أنها حذفت؛ لأن المعنى معروف، ولا يكون آخرا إلا وقبلـه شيء من جنسه. و"ثم" ليس للتراخي ها هنا بل هو لتعديد النعم؛ كقولـه: ﴿ أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا ﴾ (البلد: ١٦) أي ثم أخبركم أني قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ قال ابن عباس: أي من أهل دينه. وقال مجاهد: أي على منهاجه وسنته. قال الأصمعي: الشيعة الأعوان، وهو مأخوذ من الشياع، وهو الحطب الصغار

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).
(٢) نفس المصدر (٢٧٠٩).

الذي يوقد مع الكبار حتى يستوقد. وقال الكلبي والفراء: المعنى وإن من شيعة محمد لإبراهيم. فالـهاء في "شيعته" على هذا لمحمد ﷺ. وعلى الأول لنوح وهو أظهر، لأنه هو المذكور أولا، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة؛ حكاه الزمخشري.

قولـه تعالى: ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ أي مخلص من الشرك والشك. وقال عوف الأعرابي: سألت محمد بن سيرين ما القلب السليم؟ فقال: الناصح لله عز وجل في خلقه. وذكر الطبري عن غالب القطان وعوف وغيرهما عن محمد بن سيرين أنه كان يقول للحجاج: مسكين أبو محمد! إن عذبه الله فبذنبه، وإن غفر لـه فهنيئا لـه، وإن كان قلبه سليما فقد أصاب الذنوب من هو خير منه. قال عوف: فقلت لمحمد ما القلب السليم؟ قال: أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور. وقال هشام بن عروة: كان أبي يقول لنا: يا بني لا تكونوا لعانين، ألم تروا إلى إبراهيم لم يلعن شيئا قط، فقال تعالى: "إذ جاء ربه بقلب سليم". ويحتمل مجيئه إلى ربه وجهين: أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته؛ الثاني عند إلقائه في النار.

﴿ إذ قال لأبيه ﴾ وهو آزر، وقد مضى الكلام فيه. ﴿ وقومه ماذا تعبدون ﴾ تكون "ما" في موضع رفع بالابتداء و"ذا" خبره. ويجوز أن تكون "ما" و"ذا" في موضع نصب بـ "تعبدون". ﴿ أئفكا ﴾ نصب على المفعول به؛ بمعنى أتريدون إفكا. قال المبرد: والإفك أسوأ الكذب، وهو الذي لا يثبت ويضطرب، ومنه ائتفكت بهم الأرض. ﴿ آلـهة ﴾ بدل من إفك ﴿ دون الله تريدون ﴾ أي تعبدون. ويجوز أن يكون حالا بمعنى أتريدون آلـهة من دون الله آفكين. ﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ أي ما ظنكـم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ فهو تحذير، مثل قولـه: ﴿ ما غرك بربك الكريـم ﴾ (الانفطار: ٦) وقيل: أي شيء أوهمتموه حتى أشركتم به غيره.

قولـه تعالى: ﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ قال ابن زيد عن أبيه: أرسل إليه ملكهم إن غدا عيدنا فاخرج معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال: إن هذا يطلع مع سقمي. وكان علم النجوم مستعملا عندهم منظورا فيه، فأوهمهم هو من تلك الجهة، وأراهم من معتقدهم عذرا لنفسه؛ وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر في النجوم. وقال ابن عباس: كان علم النجوم من النبوة، فلما حبس الله تعالى الشمس على يوشع بن نون أبطل ذلك، فكان نظر إبراهيم فيها علما نبويا. وحكى جويبر عن الضحاك. كان علم النجوم باقيا إلى زمن عيسى ﷺ، حتى دخلوا عليه في موضع لا يطلع عليه منه، فقالت لـهم مريم: من أين علمتم بموضعه؟ قالوا: من النجوم. فدعا ربه عند ذلك فقال: اللهم لا تفهمهم في علمها، فلا يعلم علم النجوم أحد؛ فصار حكمها في الشرع محظورا، وعلمها في الناس مجهولا. قال الكلبي: وكانوا في قرية بين البصرة والكوفة يقال لـهم هرمز جرد، وكانوا ينظرون في النجوم. فهذا قول. وقال الحسن: المعنى أنهم لما كلفوه الخروج معهم تفكر فيما يعمل. فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم لـه من الرأي؛ أي فيما طلع لـه منه، فعلم أن كل حي يسقم ﴿ فقال إني سقيم ﴾. الخليل والمبرد: يقال للرجل إذا فكر في الشيء يدبره: نظر في النجوم.

وقيل: كانت الساعة التي دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعة تغشاه فيها الحمى. وقيل: المعنى فنظر فيما نجم من الأشياء فعلم أن لها خالقا ومدبرا، وأنه يتغير كتغيرها. فقال: "إني سقيم". وقال الضحاك: معنى "سقيم" سأسقم سقم الموت؛ لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت، وهذا تورية وتعريض؛ كما قال للملك لما سأل عن سارة هي أختي؛ يعني أخوة الدين. وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك أيضا: أشار لهم إلى مرض وسقم يعدي كالطاعون، وكانوا يهربون من الطاعون، ﴿ فـ ﴾ لذلك ﴿ تولوا عنه مدبرين ﴾ أي فارين منه خوفا من العدوى. وروى الترمذي الحكيم قال: حدثنا أبي قال حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط عن السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس، وعن سمرة عن الهمداني عن ابن مسعود قال: قال أبو إبراهيم: إن لنا عيدا لو خرجت معنا لأعجبك ديننا. فلما كان يوم العيد خرجوا إليه وخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه، وقال إني سقيم أشتكي رجلي، فوطئوا رجله وهو صريع، فلما مضوا نادى في آخرهم ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم﴾ (الأنبياء: ٥٧). قال أبو عبد الله: وهذا ليس بمعارض لما قال ابن عباس وابن جبير؛ لأنه يحتمل أن يكون قد اجتمع له أمران.

قلت: وفي الصحيح عن النبي ﷺ: (لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام إلا ثلاث كذبات...)[١] الحديث. وقد مضى في سورة "الأنبياء" وهو يدل على أنه لم يكن سقيما وإنما عرض لهم. وقد قال جل وعز: ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (الزمر: ٣٠). فالمعنى إني سقيم فيما أستقبل فتوهموا هم أنه سقيم الساعة. وهذا من معاريض الكلام على ما ذكرنا، ومنه المثل السائر (كفى بالسلامة داء)[٢] وقول لبيد:

فدعوت ربي بالسلامة جاهدا ليصحني فإذا السلامة داء

وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس فقالوا: مات وهو صحيح! فقال أعرابي: أصحيح من الموت في عنقه! فإبراهيم صادق، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم واصطفائهم عد هذا ذنبا؛ ولهذا قال: ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ (الشعراء: ٨٢) وقد مضى هذا كله مبينا والحمد لله. وقيل: أراد سقيم النفس لكفرهم. والنجوم يكون جمع نجم ويكون واحدا مصدرا.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ فراغ إلى آلهتهم ﴾ قال السدي: ذهب إليهم. وقال أبو مالك: جاء إليهم. وقال قتادة: مال إليهم. وقال الكلبي: أقبل عليهم. وقيل: عدل. والمعنى متقارب. فراغ يروغ روغا وروغانا إذا مال. وطريق رائغ أي مائل. وقال الشاعر:

---

(١) أخرجه البخاري وقد تقدم.

(٢) يروى على أنه حديث أخرجه الديلمي في "مسند الفردوس"، وسنده ضعيف، وانظر ضعيف الجامع (٤١٧٣).

ويريك من طرف اللسان حلاوة ويروغ عنك كما يروغ الثعلب

فقال: ﴿ ألا تأكلون ﴾ فخاطبها كما يخاطب من يعقل؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة. وكذا قيل: كان بين يدي الأصنام طعام تركوه ليأكلوه إذا رجعوا من العيد، وإنما تركوه لتصيبه بركة أصنامهم بزعمهم. وقيل: تركوه للسدنة. وقيل: قرب هو إليها طعاما على جهة الاستهزاء؛ فقال: ﴿ ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون ﴾ ﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين ﴾ خص الضرب باليمين لأنها أقوى والضرب بها أشد؛ قاله الضحاك والربيع بن أنس. وقيل: المراد باليمين اليمين التي حلفها حين قال: ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ (الأنبياء: ٥٧). وقال الفراء وثعلب: ضربا بالقوة واليمين القوة. وقيل: بالعدل واليمين ها هنا العدل. ومنه قوله تعالى: ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين ﴾ (الحاقة: ٤٤) أي بالعدل، فالعدل لليمين والجور للشمال. ألا ترى أن العدو عن الشمال والمعاصي عن الشمال والطاعة عن اليمين؛ ولذلك قال: ﴿ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ (الصافات: ٢٨) أي من قبل الطاعة. فاليمين هو موضع العدل من المسلم، والشمال موضع الجور. ألا ترى أنه بايع الله بيمينه يوم الميثاق، فالبيعة باليمين؛ فلذلك يعطى كتابه غدا بيمينه؛ لأنه وفى بالبيعة، ويعطى الناكث للبيعة الهارب برقبته من الله بشماله؛ لأن الجور هناك. فقوله: "فراغ عليهم ضربا باليمين" أي بذلك العدل الذي كان بايع الله عليه يوم الميثاق ثم وفى له ها هنا. فجعل تلك الأوثان جذاذا، أي فتاتا كالجذيذة وهي السويق وليس من قبيل القوة؛ قاله الترمذي الحكيم. ﴿ فأقبلوا إليه يزفون ﴾ قرأ حمزة "يزفون" بضم الياء. الباقون بفتحها. أي يسرعون؛ قاله ابن زيد. قتادة والسدي: يمشون. وقيل: المعنى يمشون بجمعهم على مهل آمنين أن يصيب أحد آلهتهم بسوء. وقيل: المعنى يتسللون تسللا بين المشي والعدو؛ ومنه زفيف النعامة. وقال الضحاك: يسعون وحكى يحيى بن سلام: يرعدون غضبا. وقيل: يختالون وهو مشي الخيلاء؛ قاله مجاهد. ومنه أخذَ زفاف العروس إلى زوجها. وقال الفرزدق:

وجاء قريع الشول قبل إفالها يزف وجاءت خلفه وهي زفف

ومن قرأ: "يزفون" فمعناه يزفون غيرهم أي يحملونهم على التزفيف. وعلى هذا فالمفعول محذوف. قال الأصمعي: أزففت الإبل أي حملتها على أن تزف. وقيل: هما لغتان يقال: زف القوم وأزفوا، وزففت العروس وأزففتها وازدففتها بمعنى، والمزفة: المحفة التي تزف فيها العروس؛ حكي ذلك عن الخليل. النحاس: "ويزفون" بضم الياء. زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء وشبهها بقولهم: أطردت الرجل أي صيرته إلى ذلك. وطردته نحيته؛ وأنشد (للمخبل السعدي) هو وغيره:

تمنى حصين أن يسود جذاعة فأمسى حصين قد أذل وأقهرا

أي صير إلى ذلك؛ فكذلك "يزفون" يصيرون إلى الزفيف. قال محمد بن يزيد: الزفيف الإسراع. وقال أبو إسحاق: الزفيف أول عدو النعام. وقال أبو حاتم: وزعم الكسائي أن قوما قرؤوا "فأقبلوا إليه يزفون" خفيفة؛ من وزف يزف، مثل وزن يزن. قال النحاس: فهذه حكاية أبي حاتم وأبو حاتم

لم يسمع من الكسائي شيئا. وروى الفراء وهو صاحب الكسائي عن الكسائي أنه لا يعرف "يزفون" مخففة. قال الفراء: وأنا لا أعرفها. قال أبو إسحاق: وقد عرفها غيرهما أنه يقال وزف يزف إذا أسرع. قال النحاس: ولا نعلم أحدا قرأ "يزفون".

قلت: هي قراءة عبد الله بن يزيد فيما ذكر المهدوي. الزمخشري: و"يزفون" على البناء للمفعول. و"يزفون" من زفاه إذا حداه؛ كأن بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم إليه. وذكر الثعلبي عن الحسن ومجاهد وابن السميقع "يرفون" بالراء من رفيف النعام، وهو ركض بين المشي والطيران.

قولـه تعالى: ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ﴾ فيه حذف؛ أي قالوا من فعل هذا بآلـهتنا، فقال محتجا: "أتعبدون ما تنحتون" أي أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها بأيديكم تنجرونها. والنحت النجر والبري نحته ينحته بالكسر نحتا أي براه. والنحاتة البراية والمنحت ما ينحت به. ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ "ما" في موضع نصب أي وخلق ما تعملونه من الأصنام، يعني الخشب والحجارة وغيرهما؛ كقولـه: ﴿ بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ﴾ (الأنبياء: ٥٦) وقيل: إن "ما" استفهام ومعناه التحقير لعملـهم. وقيل: هي نفي، والمعنى وما تعملون ذلك لكن الله خالقه. والأحسن أن تكون "ما" مع الفعل مصدرا، والتقدير والله خلقكم وعملكم. وهذا مذهب أهل السنة: أن الأفعال خلق لله عز وجل واكتساب للعباد. وفي هذا إبطال مذاهب القدرية والجبرية. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: (إن الله خالق كل صانع وصنعته)[1] ذكره الثعلبي. وخرجه البيهقي من حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله عز وجل صنع كل صانع وصنعته فهو الخالق وهو الصانع سبحانه)[2] وقد بيناهما في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قالوا ابنوا لـه بنيانا ﴾ أي تشاوروا في أمره لما غلبهم بالحجة حسب ما تقدم في "الأنبياء" بيانه فـ "قالوا ابنوا لـه بنيانا" تملؤونه حطبا فتضرمونه، ثم ألقوه فيه وهو الجحيم. قال ابن عباس: بنوا حائطا من حجارة طولـه في السمـاء ثلاثون ذراعا، ومـلأوه نارا وطرحـوه فيها. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: فلما صار في البنيان قال: حسبي الله ونعم الوكيل. والألف واللام في "الجحيم" تدل على الكناية؛ أي في جحيمه؛ أي في جحيم ذلك البنيان. وذكر الطبري: أن قائل ذلك اسمه الـهيزن رجل من أعراب فارس وهم الترك، وهو الذي جاء فيه الحديث: (بينما رجل يمشي في حلة لـه يتبختر فيها فخسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة)[3] والله أعلم. ﴿ فأرادوا به كيدا ﴾ أي بإبراهيم. والكيد المكر؛ أي احتالوا لإهلاكه. ﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ المقهورين المغلوبين إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها، ولـم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم.

---

(١) أخرجه الحاكم في "مستدركه"، وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي.
(٢) أخرجه البخاري في "خلق أفعال العباد" وغيره كما في صحيح الجامع (١٧٧٧).
(٣) أخرجاه في الصحيحين.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة. وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام، وذلك حين خلصه الله من النار "قال إني ذاهب إلى ربي" أي مهاجر من بلد قومي ومولدي إلى حيث أتمكن من عبادة ربي فإنه "سيهدين" فيما نويت إلى الصواب. قال مقاتل: هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارة، إلى الأرض المقدسة وهي أرض الشام. وقيل: ذاهب بعملي وعبادتي، وقلبي ونيتي. فعلى هذا ذهابه بالعمل لا بالبدن. وقد مضى بيان هذا في "الكهف" مستوفى. وعلى الأول بالمهاجرة إلى الشام وبيت المقدس. وقيل: خرج إلى حران فأقام بها مدة. ثم قيل: قال ذلك لمن فارقه من قومه؛ فيكون ذلك توبيخا لهم. وقيل: قاله لمن هاجر معه من أهله؛ فيكون ذلك منه ترغيبا. وقيل: قال هذا قبل إلقائه في النار. وفيه على هذا القول تأويلان: أحدهما: إني ذاهب إلى ما قضاه علي ربي. الثاني: إني ميت؛ كما يقال لمن مات: قد ذهب إلى الله تعالى؛ لأنه عليه السلام تصور أنه يموت بإلقائه في النار، على المعهود من حالها في تلف ما يلقى فيها، إلى أن قيل لها: "كوني بردا وسلاما" فحينئذ سلم إبراهيم منها. وفي قوله: "سيهدين" على هذا القول تأويلان: أحدهما "سيهدين" إلى الخلاص منها. الثاني: إلى الجنة. وقال سليمان بن صرد وهو ممن أدرك النبي ﷺ: لما أرادوا إلقاء إبراهيم في النار جعلوا يجمعون له الحطب؛ فجعلت المرأة العجوز تحمل على ظهرها وتقول: أذهب به إلى هذا الذي يذكر آلهتنا؛ فلما ذهب به ليطرح في النار "قال إني ذاهب إلى ربي". فلما طرح في النار قال: (حسبي الله ونعم الوكيل) فقال الله تعالى: ﴿ يا نار كوني بردا وسلاما ﴾ (الأنبياء: ٦٩) فقال أبو لوط وكان ابن عمه: إن النار لم تحرقه من أجل قرابته مني. فأرسل الله عنقا من النار فأحرقه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ لما عرفه الله أنه مخلصه دعا الله ليعضده بولد يأنس به في غربته. وقد مضى في "آل عمران" القول في هذا. وفي الكلام حذف؛ أي هب لي ولدا صالحا من الصالحين، وحذف مثل هذا كثير. قال الله تعالى: ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ أي أنه يكون حليما في كبره فكأنه بشر ببقاء ذلك الولد؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك، فكانت البشرى على ألسنة الملائكة كما تقدم في "هود". ويأتي أيضا في "الذاريات".

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

﴿١١٠﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ فيه سبع عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ أي فوهبنا له الغلام؛ فلما بلغ معه المبلغ الذي يسعى مع أبيه في أمور دنياه معينا له على أعماله ﴿قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك﴾. وقال مجاهد: "فلما بلغ معه السعي" أي شب وأدرك سعيه سعي إبراهيم. وقال الفراء: كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة. وقال ابن عباس: هو الاحتلام. قتادة: مشى مع أبيه. الحسن ومقاتل: هو سعي العقل الذي تقوم به الحجة. ابن زيد: هو السعي في العبادة. ابن عباس: صام وصلى، ألم تسمع الله عز وجل يقول: ﴿وسعى لها سعيها﴾(الإسراء: ١٩).

واختلف العلماء في المأمور بذبحه. فقال أكثرهم: الذبيح إسحاق. وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وهو الصحيح عنه[١]. روى الثوري وابن جريج يرفعانه إلى ابن عباس قال: الذبيح إسحاق. وهو الصحيح عن عبد الله بن مسعود أن رجلا قال له: يا ابن الأشياخ الكرام. فقال عبد الله: ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله ﷺ. وقد روى حماد بن زيد يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: (إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلى الله عليهم وسلم)[٢]. وروى أبو الزبير عن جابر قال: الذبيح إسحاق. وذلك مروي أيضا عن علي بن أبي طالب ﷺ. وعن عبد الله بن عمر: أن الذبيح إسحاق. وهو قول عمر ﷺ. فهؤلاء سبعة من الصحابة. وقال به من التابعين وغيرهم علقمة والشعبي ومجاهد وسعيد ابن جبير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعكرمة والقاسم بن أبي بزة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط والزهري والسدي وعبد الله بن أبي الهذيل ومالك بن أنس، كلهم قالوا: الذبيح إسحاق. وعليه أهل الكتابين اليهود والنصارى، واختاره غير واحد منهم النحاس والطبري وغيرهما. قال سعيد بن جبير: أرى إبراهيم ذبح إسحاق في المنام، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة، حتى أتى به المنحر من منى؛ فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن يذبح الكبش فذبحه، وسار به مسيرة شهر في روحة واحدة طويت له الأودية والجبال. وهذا القول أقوى في النقل عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين. وقال آخرون: هو إسماعيل. وممن قال ذلك أبو هريرة وأبو الطفيل عامر بن واثلة. وروي ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضا، ومن التابعين سعيد بن المسيب والشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وعلقمة. وسئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فأنشد:

---

(١) بل هو موضوع. أخرجه الدارقطني في الأفراد عن ابن مسعود، والبزار وابن مردويه عن العباس بن عبد المطلب، وابن مردويه أيضاً عن أبي هريرة، كما في ضعيف الجامع (٣٠٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٨٢).

إن الذبـيح هديـت إسماعـيل نطق الكتاب بذاك والتنزيل
شـرف بـه خـص الإلـه نبيـنا وأتـى بـه التفسـير والتأويل
إن كـنت أمتـه فلا تنـكر لـه شرفا به قد خصه التفضـيل

وعن الأصمعي قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي أين عزب عنك عقلك! ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة. وروي عن النبي ﷺ: (أن الذبيح إسماعيل) والأول أكثر عن النبي ﷺ وعن أصحابه وعن التابعين. واحتجوا بأن الله عز وجل قد أخبر عن إبراهيم حين فارق قومه، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارة وابن أخيه لوط فقال: "إني ذاهب إلى ربي سيهدين" أنه دعا فقال: "رب هب لي من الصالحين" فقال تعالى: ﴿ فلما اعتزلـهم وما يعبدون من دون الله وهبنا لـه إسحاق ويعقوب ﴾ (مريم: ٤٩)؛ ولأن الله قال: "وفديناه بذبح عظيم" فذكر أن الفداء في الغلام الحليم الذي بُشر به إبراهيم وإنما بشر بإسحاق؛ لأنه قال: "وبشرناه بإسحاق"، وقال هنا: "بغلام حليم" وذلك قبل أن يتزوج هاجر وقبل أن يولد لـه إسماعيل، وليس في القرآن أنه بشر بولد إلا إسحاق. احتج من قال إنه إسماعيل: بأن الله تعالى وصفه بالصبر دون إسحاق في قولـه تعالى: ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ﴾ (الأنبياء: ٨٥) وهو صبره على الذبح، ووصفه بصدق الوعد في قولـه: ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ (مريم: ٥٤)؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به؛ ولأن الله تعالى قال: "وبشرناه بإسحاق نبيا" فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيا، وأيضا فإن الله تعالى قال: ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ (هود: ٧١) فكيف يؤمر بذبح إسحاق قبل إنجاز الوعد في يعقوب. وأيضا ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة، فدل على أن الذبيح إسماعيل، ولو كان إسحاق لكان الذبح يقع ببيت المقدس. وهذا الاستدلال كلـه ليس بقاطع؛ أما قولـهم: كيف يأمره بذبحه وقد وعده بأنه يكون نبيا، فإنه يحتمل أن يكون المعنى: وبشرناه بنبوته بعد أن كان من أمره ما كان؛ قالـه ابن عباس وسيأتي. ولعلـه أمر بذبح إسحاق بعد أن ولد لإسحاق يعقوب. ويقال: لم يرد في القرآن أن يعقوب يولد من إسحاق. وأما قولـهم: ولو كان الذبيح إسحاق لكان الذبح يقع ببيت المقدس، فالجواب عنه ما قالـه سعيد بن جبير على ما تقدم. وقال الزجاج: الله أعلم أيهما الذبيح. وهذا مذهب ثالث.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات. وقال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظا ورقودا؛ فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم. وهذا ثابت في الخبر المرفوع، قال ﷺ: (إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا)[1]. وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي؛ واستدل بهذه الآية. وقال السدي: لما بشر إبراهيم بإسحاق قبل أن يولد لـه قال هو إذاً لله ذبيح. فقيل لـه في منامه: قد نذرت فف بنذرك. ويقال: إن إبراهيم رأى في ليلة التروية كأن قائلا يقول: إن الله يأمرك بذبح ابنك؛ فلما

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٢٢٨٧).

أصبح روى في نفسه أي فكر أهذا الحلم من الله أم من الشيطان؟ فسمي يوم التروية. فلما كانت الليلة الثانية رأى ذلك أيضا وقيل لـه الوعد، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فسمي يوم عرفة. ثم رأى مثلـه في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر. وروي أنه لما ذبحه قال جبريل: الله أكبر الله أكبر. فقال الذبيح: لا إلـه إلا الله والله أكبر. فقال إبراهيم: الله أكبر والحمد لله؛ فبقي سنة. وقد اختلف الناس في وقوع هذا الأمر وهي:

الثالثة : فقال أهل السُنّة: إن نفس الذبح لم يقع، وإنما وقع الأمر بالذبح قبل أن يقع الذبح، ولو وقع لم يتصور رفعه، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل؛ لأنه لو حصل الفراغ من امتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفداء. وقولـه تعالى: ﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾ : أي حققت ما نبهناك عليه، وفعلت ما أمكنك ثم امتنعت لما منعناك. هذا أصح ما قيل به في هذا الباب. وقالت طائفة: ليس هذا مما ينسخ بوجه؛ لأن معنى ذبحت الشيء قطعته. واستدل على هذا بقول مجاهد: قال إسحاق لإبراهيم لا تنظر إلي فترحمني، ولكن اجعل وجهي إلى الأرض؛ فأخذ إبراهيم السكين فأمرها على حلقه فانقلبت. فقال لـه ما لك؟ قال: انقلبت السكين. قال اطعني بها طعنا. وقال بعضهم: كان كلما قطع جزءا التأم. وقالت طائفة: وجد حلقه نحاسا أو مغشى بنحاس، وكان كلما أراد قطعا وجد منعا. وهذا كلـه جائز في القدرة الإلـهية. لكنه يفتقر إلى نقل صحيح، فإنه أمر لا يدرك بالنظر وإنما طريقه الخبر. ولو كان قد جرى ذلك لبينه الله تعالى تعظيما لرتبة إسماعيل وإبراهيم صلوات الله عليهما، وكان أولى بالبيان من الفداء. وقال بعضهم: إن إبراهيم ما أمر بالذبح الحقيقي الذي هو فري الأوداج وإنهار الدم، وإنما رأى أنه أضجعه للذبح فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقي، فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل لـه: "قد صدقت الرؤيا" وهذا كلـه خارج عن المفهوم. ولا يظن بالخليل والذبيح أن يفهما من هذا الأمر ما ليس لـه حقيقة حتى يكون منهما التوهم. وأيضا لو صحت هذه الأشياء لما احتيج إلى الفداء.

الرابعة : قولـه تعالى: ﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ قرأ أهل الكوفة غير عاصم "ماذا ترى" بضم التاء وكسر الراء من أري يُري. قال الفراء: أي فانظر ماذا ترى من صبرك وجزعك. قال الزجاج: لم يقل هذا أحد غيره، وإنما قال العلماء ماذا تشير؛ أي ما تريك نفسك من الرأي. وأنكر أبو عبيد "تُرى" وقال: إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة. وكذلك قال أبو حاتم. النحاس: وهذا غلط، وهذا يكون من رؤية العين وغيرها وهو مشهور، يقال: أريت فلانا الصواب، وأريته رشده، وهذا ليس من رؤية العين. الباقون "ترى" مضارع رأيت. وقد روي عن الضحاك والأعمش "ترى" غير مسمى الفاعل. ولم يقل لـه ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله، وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله؛ أو لتقر عينه إذا رأى من ابنه طاعة في أمر الله فـ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ أي ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قولـه:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

فوصل الفعل إلى الضمير فصار تؤمره ثم حذفت الـهاء؛ كقوله: ﴿ وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ (النمل: ٥٩) أي اصطفاهم على ما تقدم. و"ما" بمعنى الذي. ﴿ ستجدني إن شاء الله

من الصابرين﴾ قال بعض أهل الإشارة: لما استثنى وفقه الله للصبر. وقد مضى الكلام في﴿ يا أبت﴾ (يوسف: ٤) وكذلك في﴿ يا بني﴾ (يوسف: ٥) في "يوسف" وغيرها.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ فلما أسلما﴾ أي انقادا لأمر الله. وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعلي رضوان الله عليهم "فلما سلما" أي فوضا أمرهما إلى الله. وقال ابن عباس: استسلما. وقال قتادة: أسلم أحدهما نفسه لله عز وجل وأسلم الآخر ابنه. ﴿ وتله للجبين﴾ قال قتادة: كبه وحول وجهه إلى القبلة. وجواب "لما" محذوف عند البصريين تقديره "فلما أسلما وتله للجبين" فديناه بكبش. وقال الكوفيون: الجواب "وناديناه" والواو زائدة مقحمة؛ كقوله: ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا﴾ (يوسف: ١٥) أي أوحينا. وقوله: ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ (الأنبياء: ٩٦). "واقترب" أي اقترب. وقوله: ﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال﴾ (الزمر: ٧٣) أي قال لهم. وقال امرؤ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى

أي انتحى، والواو زائدة. وقال أيضا:

حتى إذا حملت بطونكم ورأيتم أبناءكم شبوا

وقلبتم ظهر المجن لنا إن اللئيم الفاجر الخب

أراد قلبتم. النحاس: والواو من حروف المعاني لا يجوز أن تزاد. وفي الخبر: إن الذبيح قال لإبراهيم عليه السلام حين أراد ذبحه: يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب؛ واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن، وأسرع مر السكين على حلقي ليكون الموت أهون علي واقذفني للوجه؛ لئلا تنظر إلى وجهي فترحمني، ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع، وإذا أتيت إلى أمي فأقرئها مني السلام. فلما حز إبراهيم عليه السلام السكين ضرب الله عليه صفيحة من نحاس، فلم تعمل السكين شيئا، ثم ضرب به على جبينه وحز في قفاه فلم تعمل السكين شيئا؛ فذلك قوله تعالى: "وتله للجبين" كذلك قال ابن عباس: معناه كبه على وجهه فنودي "يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا" فالتفت فإذا بكبش؛ ذكره المهدوي. وقد تقدمت الإشارة إلى عدم صحته، وأن المعنى لما اعتقد الوجوب وتهيأ للعمل؛ هذا بهيئة الذبح، وهذا بصورة المذبوح، أعطيا محلا للذبح فداء ولم يكن هناك مر سكين. وعلى هذا يتصور النسخ قبل الفعل على ما تقدم. والله أعلم. قال الجوهري: "وتله للجبين" أي صرعه؛ كما تقول: كبه لوجهه. الهروي: والتل الدفع والصرع؛ ومنه حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: (وتركوك لمتلك) أي لمصرعك. وفي حديث آخر: (فجاء بناقة كوماء فتلها) أي أناخها. وفي الحديث: (بينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فتلت في يدي)[1] قال ابن الأنباري: أي فألقيت في يدي؛ يقال: تللت الرجل إذا ألقيته. قال ابن الأعرابي: فصبت في يدي؛ والتل الصب؛ يقال: تل يتل إذا صب، وتل يتل بالكسر إذا سقط.

قلت: وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ؛ فقال للغلام: (أتأذن لي أن أعطي هؤلاء) فقال الغلام: لا والله،

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

لا أوثر بنصيبي منك أحدا. قال: فتلـه رسول الله ﷺ في يده؛ يريد جعلـه في يده[١]. وقال بعض أهل الإشارة: إن إبراهيم ادعى محبة الله، ثم نظر إلى الولد بالمحبة، فلم يرض حبيبه محبة مشتركة؛ فقيل لـه: يا إبراهيم اذبح ولدك في مرضاتي، فشمر وأخذ السكين وأضجع ولده، ثم قال: اللهم تقبلـه مني في مرضاتك. فأوحى الله إليه: يا إبراهيم لم يكن المراد ذبح الولد، وإنما المراد أن ترد قلبك إلينا، فلما رددت قلبك بكليته إلينا رددنا ولدك إليك. وقال كعب وغيره: لما أري إبراهيم ذبح ولده في منامه، قال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدا أبدا. فتمثل الشيطان لـهم في صورة الرجل، ثم أتى أم الغلام وقال: أتدرين أين يذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: لا. قال: إنه يذهب به ليذبحه. قالت: كلا هو أرأف به من ذلك. فقال: إنه يزعم أن ربه أمره بذلك. قالت: فإن كان ربه قد أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه. ثم أتى الغلام فقال: أتدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: لا. قال: فإنه يذهب بك ليذبحك. قال: ولم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قال: فليفعل ما أمره الله به، سمعا وطاعة لأمر الله. ثم جاء إبراهيم فقال: أين تريد؟ والله إني لأظن أن الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك. فعرفه إبراهيم فقال: إليك عني يا عدو الله، فوالله لأمضين لأمر ربي. فلم يصب الملعون منهم شيئا. وقال ابن عباس: لما أمر إبراهيم بذبح ابنه عرض لـه الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض لـه عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض لـه عند الجمرة الأخرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى.

واختلف في الموضع الذي أراد ذبحه فيه فقيل: بمكة في المقام. وقيل: في المنحر بمنى عند الجمار التي رمى بها إبليس لعنه الله؛ قالـه ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب وسعيد بن المسيب. وحكي عن سعيد بن جبير: أنه ذبحه على الصخرة التي بأصل ثبير بمنى. وقال ابن جريج: ذبحه بالشام وهو من بيت المقدس على ميلين. والأول أكثر؛ فإنه ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة، فدل على أنه ذبحه بمكة. وقال ابن عباس: فوالذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه من ميزاب الكعبة وقد يبس. أجاب من قال بأن الذبح وقع بالشام: لعل الرأس حمل من الشام إلى مكة. والله أعلم.

السادسة: قولـه تعالى: ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي نجزيهم بالخلاص من الشدائد في الدنيا والآخرة. ﴿ إن هذا لـهو البلاء المبين ﴾ أي النعمة الظاهرة؛ يقال: أبلاه الله إبلاء وبلاء إذا أنعم عليه. وقد يقال بلاه. قال زهير:

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فزعم قوم أنه جاء باللغتين. وقال آخرون: بل الثاني من بلاه يبلوه إذا اختبره، ولا يقال من الاختبار إلا بلاه يبلوه، ولا يقال من الابتلاء يبلوه. وأصل هذا كلـه من الاختبار أن يكون بالخير والشر؛ قال الله عز وجل: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ (الأنبياء: ٣٥). وقال أبو زيد: هذا من البلاء الذي نزل به في أن يذبح ابنه؛ قال: وهذا من البلاء المكروه.

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

السابعة : قولـه تعالى: ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ الذبح اسم المذبوح وجمعه ذبوح؛ كالطحن اسم المطحون. والذبح بالفتح المصدر. "عظيم" أي عظيم القدر ولم يرد عظيم الجثة. وإنما عظم قدره لأنه فدى به الذبيح؛ أو لأنه متقبل. قال النحاس: عظيم في اللغة يكون للكبير وللشريف. وأهل التفسير على أنه ههنا للشريف، أو المتقبل. وقال ابن عباس: هو الكبش الذي تقرب به هابيل، وكان في الجنة يرعى حتى فدى الله به إسماعيل. وعنه أيضا: إنه كبش أرسلـه الله من الجنة كان قد رعى في الجنة أربعين خريفا. وقال الحسن: ما فدي إسماعيل إلا بتيس من الأروى هبط عليه من ثبير، فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه، وهذا قول علي ﷺ. فلما رآه إبراهيم أخذه فذبحه وأعتق ابنه. وقال: يا بني اليوم وهبت لي. وقال أبو إسحاق الزجاج: قد قيل أنه فدي بوعل، والوعل: التيس الجبلي. وأهل التفسير على أنه فدي بكبش.

الثامنة: في هذه الآية دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر. وهذا مذهب مالك وأصحابه. قالوا: أفضل الضحايا الفحول من الضأن، وإناث الضأن أفضل من فحل المعز، وفحول المعز خير من إناثها، وإناث المعز خير من الإبل والبقر. وحجتهم قولـه سبحانه وتعالى: "وفديناه بذبح عظيم" أي ضخم الجثة سمين، وذلك كبش لا جمل ولا بقرة. وروى مجاهد وغيره عن ابن عباس أنه سأله رجل: إني نذرت أن أنحر ابني؟ فقال: يجزيك كبش سمين، ثم قرأ: "وفديناه بذبح عظيم". وقال بعضهم: لو علم الله حيوانا أفضل من الكبش لفدى به إسحاق. وضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين. وأكثر ما ضحي به الكباش. وذكر ابن أبي شيبة عن ابن علية عن الليث عن مجاهد قال: الذبح العظيم الشاة.

التاسعة : واختلفوا أيهما أفضل: الأضحية أو الصدقة بثمنها. فقال مالك وأصحابه: الضحية أفضل إلا بمنى؛ لأنه ليس موضع الأضحية؛ حكاه أبو عمر. وقال ابن المنذر: روينا عن بلال أنه قال: ما أبالي ألا أضحي إلا بديك ولأن أضعه في يتيم قد ترب فيه ـ هكذا قال المحدث ـ أحب إلي من أن أضحي به. وهذا قول الشعبي إن الصدقة أفضل. وبه قال مالك وأبو ثور. وفيه قول ثان: إن الضحية أفضل؛ هذا قول ربيعة وأبي الزناد. وبه قال أصحاب الرأي. زاد أبو عمر وأحمد بن حنبل قالوا: الضحية أفضل من الصدقة؛ لأن الضحية سنة مؤكدة كصلاة العيد. ومعلوم أن صلاة العيد أفضل من سائر النوافل. وكذلك صلوات السنن أفضل من التطوع كلـه. قال أبو عمر: وقد روي في فضل الضحايا آثار حسان؛ فمنها ما رواه سعيد بن داود بن أبي زنبر عن مالك عن ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسـول الله ﷺ: (ما مـن نفقة بعد صلة الرحم أفضل عند الله من إهراق الدم)[١] قال أبو عمر: وهو حديث غريب من حديث مالك. وعن عائشة قالت: يا أيها الناس ضحوا وطيبوا أنفسا؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من عبد توجه بأضحيته إلى القبلة إلا كان دمها وقرنها وصوفها حسنات محضرات في ميزانه يوم القيامة فإن الدم إن وقع في التراب فإنما يقع في حرز الله حتى يوفيه صاحبه يوم القيامة) ذكره أبو عمر في كتاب التمهيد. وخرجه الترمذي أيضا عنها أن رسول

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخه (٣/ ٥٩) بسند ضعيف.

الله ﷺ قال: (ما عمل آدمي من عمل يوم النحر أحب إلى الله من إهراق الدم إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع إلى الأرض فطيبوا بها نفسا)[١] قال: وفي الباب عن عمران بن حصين وزيد بن أرقم. وهذا حديث حسن.

العاشرة: الضحية ليست بواجبة ولكنها سنة ومعروف. وقال عكرمة: كان ابن عباس يبعثني يوم الأضحى بدرهمين أشتري لـه لحماً، ويقول: من لقيت فقل هذه أضحية ابن عباس. قال أبو عمر: ومحمل هذا، وما روي عن أبي بكر وعمر أنهما لا يضحيان عند أهل العلم؛ لئلا يعتقد في المواظبة عليها أنها واجبة فرض، وكانوا أئمة يقتدي بهم من بعدهم ممن ينظر في دينه إليهم؛ لأنهم الواسطة بين النبي ﷺ وبين أمته، فساغ لـهم من الاجتهاد في ذلك ما لا يسوغ اليوم لغيرهم. وقد حكى الطحاوي في مختصره: وقال أبو حنيفة: الأضحية واجبة على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار، ولا تجب على المسافر. قال: ويجب على الرجل من الأضحية على ولده الصغير مثل الذي يجب عليه من نفسه. وخالفه أبو يوسف ومحمد فقالا: ليست بواجبة ولكنها سنة غير مرخص لمن وجد السبيل إليها في تركها. قال: وبه نأخذ. قال أبو عمر: وهذا قول مالك؛ قال: لا ينبغي لأحد تركها مسافرا كان أو مقيما، فإن تركها فبئس ما صنع إلا أن يكون لـه عذر إلا الحاج بمنى. وقال الإمام الشافعي: هي سنة على جميع الناس وعلى الحاج بمنى وليست بواجبة. وقد احتج من أوجبها بأن النبي ﷺ أمر أبا بردة بن نيار أن يعيد ضحية أخرى؛ لأن ما لم يكن فرضا لا يؤمر فيه بالإعادة. احتج آخرون بحديث أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا دخل العشر وأراد أحدكم أن يضحي)[٢] قالوا: فلو كان ذلك واجبا لم يجعل ذلك إلى إرادة المضي. وهو قول أبي بكر وعمر وأبي مسعود البدري وبلال.

الحادية عشرة: والذي يضحى به بإجماع المسلمين الأزواج الثمانية: وهي الضأن والمعز والإبل والبقر. قال ابن المنذر: وقد حكي عن الحسن بن صالح أنه قال: يضحى ببقرة الوحش عن سبعة، وبالظبي عن رجل. وقال الإمام الشافعي: لو نزا ثور وحشي على بقرة إنسية، أو ثور إنسي على بقرة وحشية لا يجوز شيء من هذا أضحية. وقال أصحاب الرأي: جائز؛ لأن ولدها بمنزلة أمه. وقال أبو ثور: يجوز إذا كان منسوبا إلى الأنعام.

الثانية عشرة: وقد مضى في سورة "الحج" الكلام في وقت الذبح والأكل من الأضحية مستوفى. وفي صحيح مسلم عن أنس قال: (ضحى النبي ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما)[٣] في رواية قال: (ويقول باسم الله والله أكبر)[٤] وقد مضى في آخر "الأنعام" حديث عمران بن حصين، ومضى في "المائدة" القول في التذكية وبيانها وما يذكى به، وأن ذكاة الجنين ذكاة أمه مستوفى. وفي صحيح مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ (أمر بكبش أقرن يطأ في سواد ويبرك في سواد وينظر في سواد فأتي به ليضحي به) فقال لـها: (يا عائشة هلمي المدية) ثم قال:

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٥١١٢).

(٢) أخرجه مسلم وغيره، وراجع الإرواء (١١٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٦٥)، ومسلم (١٩٦٦).

(٤) مسلم الموضع السابق.

(اشحذيها بحجر ففعلت، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه)، ثم قال: (باسم الله اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد) ثم ضحى به[١]. وقد اختلف العلماء في هذا فكان الحسن البصري يقول في الأضحية: باسم الله والله أكبر هذا منك ولك تقبل من فلان. وقال مالك: إن فعل ذلك فحسن، وإن لم يفعل وسمى الله أجزأه. وقال الشافعي: والتسمية على الذبيحة باسم الله، فإن زاد بعد ذلك شيئا من ذكر الله، أو صلى على محمدﷺ لم أكرهه، أو قال اللهم تقبل مني، أو قال تقبل من فلان فلا بأس. وقال النعمان: يكره أن يذكر مع اسم الله غيره؛ يكره أن يقول: اللهم تقبل من فلان عند الذبح. وقال: لا بأس إذا كان قبل التسمية وقبل أن يضجع للذبح. وحديث عائشة يرد هذا القول. وقد تقدم أن إبراهيمعليه السلام قال لما أراد ذبح ابنه: الله أكبر والحمد لله. فبقي سنة.

الثالثة عشرة: روى البراء بن عازب أن رسول اللهﷺ سئل: ماذا يتقى من الضحايا؟ فأشار بيده وقال: (أربعا ـ وكان البراء يشير بيده ويقول يدي أقصر من يد رسول اللهﷺ ـ العرجاء البين ظلعها والعوراء البين عورها والمريضة البين مرضها والعجفاء التي لا تنقي)[٢] لفظ مالك ولا خلاف فيه. واختلف في اليسير من ذلك. وفي الترمذي عن عليرضي الله عنه قال: أمرنا رسول اللهﷺ أن نستشرف العين والأذن وألا نضحي بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء. قال: والمقابلة ما قطع طرف أذنها، والمدابرة ما قطع من جانب الأذن، والشرقاء المشقوقة، والخرقاء المثقوبة؛ قال هذا حديث حسن صحيح. وفي الموطأ عن نافع: أن عبد الله بن عمر كان يتقي من الضحايا والبدن التي لم تسنن والتي نقص من خلقها. قال مالك: وهذا أحب ما سمعت إلي. قال القتبي: لم تسنن أي لم تنبت أسنانها كأنها لم تعط أسنانا. وهذا كما يقال: فلان لم يلبن أي لم يعط لبنا، ولم يسمن أي لم يعط سمنا، ولم يعسل أي لم يعط عسلا. وهذا مثل النهي في الأضاحي عن الهتماء. قال أبو عمر: ولا بأس أن يضحى عند مالك بالشاة الهتماء إذا كان سقوط أسنانها من الكبر والهرم وكانت سمينة؛ فإن كانت ساقطة الأسنان وهي فتية لم يجز أن يضحى بها؛ لأنه عيب غير خفيف. والنقصان كله مكروه، وشرحه وتفصيله في كتب الفقه. وفي الخبر عن النبيﷺ: (استشرقوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم) ذكره الزمخشري.

الرابعة عشرة: ودلت الآية على أن من نذر نحر ابنه أو ذبحه أنه يفديه بكبش كما فدى به إبراهيم ابنه؛ قاله ابن عباس. وعنه رواية أخرى: ينحر مائة من الإبل كما فدى بها عبد المطلب ابنه؛ روى الروايتين عنه الشعبي. وروى عنه القاسم بن محمد: يجزيه كفارة يمين. وقال مسروق: لا شيء عليه. وقال الشافعي: هو معصية يستغفر الله منها. وقال أبو حنيفة: هي كلمة يلزمه بها في ولده ذبح شاة ولا يلزمه في غير ولده شيء. قال محمد: عليه في الحلف بنحر عبده مثل الذي عليه في الحلف بنحر ولده إذا حنث. وذكر ابن عبد الحكم عن مالك فيمن قال: أنا أنحر ولدي عند مقام إبراهيم في يمين ثم حنث فعليه هدي. قال: ومن نذر أن ينحر ابنه ولم يقل عند مقام إبراهيم ولا أراد فلا شيء عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٦٧).
(٢) أخرجه مالك (١٠٤١).

قال: ومن جعل ابنه هديا أهدى عنه؛ قال القاضي ابن العربي: يلزمه شاة كما قال أبو حنيفة؛ لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعا، فألزم الله إبراهيم ذبح الولد، وأخرجه عنه بذبح شاة. وكذلك إذا نذر العبد ذبح ولده يلزمه أن يذبح شاة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ (الحج: ٧٨) والإيمان التزام أصلي، والنذر التزام فرعي؛ فيجب أن يكون محمولا عليه. فإن قيل: كيف يؤمر إبراهيم بذبح الولد وهو معصية والأمر بالمعصية لا يجوز. قلنا: هذا اعتراض على كتاب الله، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلام، فكيف بمن يفتي في الحلال والحرام، وقد قال الله تعالى: ﴿ افعل ما تؤمر ﴾ والذي يجلو الإلباس عن قلوب الناس في ذلك: أن المعاصي والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان، وإنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال، والمعصية عبارة عما تعلق به النهي من الأفعال، فلما تعلق الأمر بذبح الولد إسماعيل من إبراهيم صار طاعة وابتلاء، ولهذا قال الله تعالى: "إن هذا لهو البلاء المبين" في الصبر على ذبح الولد والنفس، ولما تعلق النهي بنا في ذبح أبنائنا صار معصية. فإن قيل: كيف يصير نذرا وهو معصية. قلنا: إنما يكون معصية لو كان يقصد ذبح الولد بنذره ولا ينوي الفداء؟ فإن قيل: فلو وقع ذلك وقصد المعصية ولم ينو الفداء؟ قلنا: لو قصد ذلك لم يضره في قصده ولا أثر في نذره؛ لأن نذر الولد صار عبارة عن ذبح الشاة شرعا.

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي على إبراهيم ثناء جميلا في الأمم بعده؛ فما من أمة إلا تصلي عليه وتحبه. وقيل: هو دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ (الشعراء. ٨٤). وقال عكرمة: هو السلام على إبراهيم أي سلاما منا. وقيل: سلامة له من الآفات مثل: ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ (الصافات: ٧٩) حسب ما تقدم. ﴿ كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ أي من الذين أعطوا العبودية حقها حتى استحقوا الإضافة إلى الله تعالى.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ قال ابن عباس: بشر بنبوته وذهب إلى أن البشارة كانت مرتين؛ فعلى هذا الذبيح هو إسحاق بشر بنبوته جزاء على صبره ورضاه بأمر ربه واستسلامه له. ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ أي ثنينا عليهما النعمة وقيل كثرة ولدهما؛ أي باركنا على إبراهيم وعلى أولاده، وعلى إسحاق حين أخرج أنبياء بني إسرائيل من صلبه. وقد قيل: إن الكناية في "عليه" تعود على إسماعيل وأنه هو الذبيح. قال المفضل: الصحيح الذي يدل عليه القرآن أنه إسماعيل، وذلك أنه قص قصة الذبيح، فلما قال في آخر القصة: "وفديناه بذبح عظيم" ثم قال: "سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين" قال: "وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين. وباركنا عليه" أي على إسماعيل "وعلى إسحاق" كنى عنه؛ لأنه قد تقدم ذكره. ثم قال: "ومن ذريتهما" فدل على أنها ذرية إسماعيل وإسحاق، وليس تختلف الرواة في أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة.

قلت: قد ذكرنا أولا ما يدل على أن إسحاق أكبر من إسماعيل، وأن المبشر به هو إسحاق بنص التنزيل؛ فإذا كانت البشارة بإسحاق نصا فالذبيح لا شك هو إسحاق، وبشر به إبراهيم مرتين؛ الأولى

بولادته والثانية بنبوته؛ كما قال ابن عباس. ولا تكون النبوة إلا في حال الكبر و"نبيا" نصب على الحال والهاء في "عليه" عائدة إلى إبراهيم وليس لإسماعيل في الآية ذكر حتى ترجع الكناية إليه. وأما ما روي من طريق معاوية قال: سمعت رجلا يقول للنبي ﷺ: يا ابن الذبيحين؛ فضحك النبي ﷺ. ثم قال معاوية: إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم، نذر لله إن سهل عليه أمرها ليذبحن أحد ولده لله، فسهل الله عليه أمرها، فوقع السهم على عبد الله، فمنعه أخواله بنو مخزوم؛ وقالوا: افد ابنك؛ ففداه بمائة من الإبل وهو الذبيح، وإسماعيل هو الذبيح الثاني فلا حجة فيه؛ لأن سنده لا يثبت على ما ذكرناه في كتاب الأعلام في معرفة مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام؛ ولأن العرب تجعل العم أبا؛ قال الله تعالى: ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ (البقرة: ١٣٣) وقال تعالى: ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ (يوسف: ١٠٠) وهما أبوه وخالته. وكذلك ما روي عن الشاعر الفرزدق عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ لو صح إسناده فكيف وفي الفرزدق نفسه مقال.

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم ﴾ لما ذكر البركة في الذرية والكثرة قال: منهم محسن ومنهم مسيء، وإن المسيء لا تنفعه بنوة النبوة؛ فاليهود والنصارى وإن كانوا من ولد إسحاق، والعرب وإن كانوا من ولد إسماعيل، فلا بد من الفرق بين المحسن والمسيء والمؤمن والكافر، وفي التنزيل: ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ (المائدة: ١٨) الآية؛ أي أبناء رسل الله فرأوا لأنفسهم فضلا. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد مننا على موسى وهارون ﴾ لما ذكر إنجاء إسحاق من الذبح، وما من به عليه بعد النبوة، ذكر ما من به أيضا على موسى وهارون من ذلك. وقوله: ﴿ من الكرب العظيم ﴾ قيل: من الرق الذي لحق بني إسرائيل. وقيل من الغرق الذي لحق فرعون. ﴿ ونصرناهم ﴾ قال الفراء: الضمير لموسى وهارون وحدهما؛ وهذا على أن الاثنين جمع؛ دليله قوله: ﴿ وآتيناهما ﴾ ﴿ وهديناهما ﴾. وقيل: الضمير لموسى وهارون وقومهما وهذا هو الصواب؛ لأن قبله ﴿ ونجيناهما وقومهما ﴾. و﴿ الكتاب المستبين ﴾ التوراة؛ يقال استبان كذا أي صار بينا؛ واستبانه فلان مثل تبين الشيء بنفسه وتبينه فلان. و﴿الصراط المستقيم﴾ الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه وهو دين الإسلام. ﴿ وتركنا عليهما في الآخرين ﴾ يريد الثناء الجميل. ﴿ سلام على موسى وهارون * إنا كذلك نجزي المحسنين * إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ (١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٢٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾

قولـه تعالى: ﴿وإن إلياس لمن المرسلين ﴾قال المفسرون: إلياس نبي من بني إسرائيل. وروي عن ابن مسعود قال: إسرائيل هو يعقوب وإلياس هو إدريس. وقرأ: "وإن إدريس" وقالـه عكرمة. وقال: هو في مصحف عبد الله: "وإن إدريس لمن المرسلين" وانفرد بهذا القول. وقال ابن عباس: هو عم اليسع. وقال ابن إسحاق وغيره: كان القيم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوقنا ثم حزقيل، ثم لما قبض الله حزقيل النبي عظمت الأحداث في بني إسرائيل، ونسوا عهد الله وعبدوا الأوثان من دونه، فبعث الله إليهم إلياس نبيا وتبعه اليسع وآمن به، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعا ربه أن يريحه منهم فقيل لـه: اخرج يوم كذا وكذا إلى موضع كذا وكذا فما استقبلك من شيء فاركبه ولا تهبه. فخرج ومعه اليسع فقال: يا إلياس ما تأمرني. فقذف إليه بكسائه من الجو الأعلى، فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل، وكان ذلك آخر العهد به. وقطع الله على إلياس لذة المطعم والمشرب، وكساه الريش وألبسه النور، فطار مع الملائكة، فكان إنسيا ملكيا سماويا أرضيا. قال ابن قتيبة: وذلك أن الله تعالى قال لإلياس: "سلني أعطك". قال: ترفعني إليك وتؤخر عني مذاقة الموت. فصار يطير مع الملائكة. وقال بعضهم: كان قد مرض وأحس الموت فبكى، فأوحى الله إليه: لم تبك؟ حرصا على الدنيا، أو جزعا من الموت، أو خوفا من النار؟ قال: لا، ولا شيء من هذا وعزتك، إنما جزعي كيف يحمدك الحامدون بعدي ولا أحمدك! ويذكرك الذاكرون بعدي ولا أذكرك! ويصوم الصائمون بعدي ولا أصوم! ويصلي المصلون ولا أصلي!! فقيل لـه: "يا إلياس وعزتي لأؤخرنك إلى وقت لا يذكرني فيه ذاكر". يعني يوم القيامة. وقال عبد العزيز بن أبي رواد: إن إلياس والخضر عليهما السلام يصومان شهر رمضان في كل عام ببيت المقدس يوافيان الموسم في كل عام. وذكر ابن أبي الدنيا؛ إنهما يقولان عند افتراقهما عن الموسم: ما شاء الله ما شاء الله، لا يسوق الخير إلا الله، ما شاء الله ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله؛ ما شاء الله ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله؛ ما شاء الله ما شاء الله؛ توكلت على الله حسبنا الله ونعم الوكيل. وقد مضى في "الكهف". وذكر من طريق مكحول عن أنس قال: غزونا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بفج الناقة عند الحجر، إذا نحن بصوت يقول: اللهم اجعلني من أمة محمد المرحومة، المغفور لـها، المتوب عليها، المستجاب لـها. فقال رسول الله ﷺ: (يا أنس، انظر ما هذا الصوت). فدخلت الجبل، فإذا أنا برجل أبيض اللحية والرأس، عليه ثياب بيض، طولـه أكثر من ثلاثمائة ذراع، فلما نظر إلي قال: أنت رسول النبي؟ قلت: نعم؛ قال: ارجع إليه فأقرئه مني السلام وقل لـه: هذا أخوك إلياس يريد لقاءك. فجاء النبي ﷺ وأنا معه، حتى إذا كنا قريبا منه، تقدم النبي ﷺ وتأخرت، فتحدثا طويلا، فنزل عليهما

شيء من السماء شبه السفرة فدعواني فأكلت معهما، فإذا فيها كمأة ورمان وكرفس، فلما أكلت قمت فتنحيت، وجاءت سحابة فاحتملته فإذا أنا أنظر إلى بياض ثيابه فيها تهوي؛ فقلت للنبي ﷺ: بأبي أنت وأمي! هذا الطعام الذي أكلنا أمن السماء نزل عليه؟ فقال النبي ﷺ: (سألته عنه فقال يأتيني به جبريل في كل أربعين يوما أكلة، وفي كل حول شربة من ماء زمزم، وربما رأيته على الجب يملأ بالدلو فيشرب وربما سقاني)[١].

قوله تعالى: ﴿ إذ قال لقومه ﴾ يعني لبني إسرائيل ﴿ ألا تتقون ﴾ يعني الله عز وجل وتخافون عقابه. ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ اسم صنم لهم كانوا يعبدونه وبذلك سُمّيت مدينتهم بعلبك.

قال ثعلب: اختلف الناس في قوله عز وجل ها هنا "بعلا" فقالت طائفة: البعل ها هنا الصنم. وقالت طائفة: البعل ها هنا ملك. وقال ابن إسحاق: امرأة كانوا يعبدونها. والأول أكثر. وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: "أتدعون بعلا" قال: صنما. وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس: "أتدعون بعلا" قال: ربا. النحاس: والقولان صحيحان؛ أي أتدعون صنما عملتموه ربا. يقال: هذا بعل الدار أي ربها. فالمعنى أتدعون ربا اختلقتموه، و"أتدعون" بمعنى أتسمون. حكى ذلك سيبويه. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي: البعل الرب بلغة اليمن. وسمع ابن عباس رجلا من أهل اليمن يسوم ناقة بمنى فقال: من بعل هذه؟. أي من ربها؛ ومنه سمي الزوج بعلا. قال أبو دؤاد:

ورأيت بعلك في الوغى   متقلـدا سـيفا ورمحا

مقاتل: صنم كسره إلياس وهرب منهم. وقيل: كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعا، وله أربعة أوجه، فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه، فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام. وبه سميت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا. ﴿ وتذرون أحسن الخالقين ﴾ أي أحسن من يقال له خالق. وقيل: المعنى أحسن الصانعين؛ لأن الناس يصنعون ولا يخلقون. ﴿ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ بالنصب في الأسماء الثلاثة قرأ الربيع بن خيثم والحسن وابن أبي إسحاق وابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي. وإليها يذهب أبو عبيد وأبو حاتم. وحكى أبو عبيد أنها على النعت. النحاس: وهو غلط وإنما هو على البدل ولا يجوز النعت ها هنا؛ لأنه ليس بتحلية. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع بالرفع. قال أبو حاتم: بمعنى هو الله ربكم. قال النحاس: وأولى مما قال ـ أنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف. ورأيت علي بن سليمان يذهب إلى أن الرفع أولى وأحسن؛ لأن قبله رأس آية فالاستئناف أولى. ابن الأنباري: من نصب أو رفع لم يقف على "أحسن الخالقين" على جهة التمام؛ لأن الله عز وجل مترجم عن "أحسن الخالقين" من الوجهين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿ فكذبوه ﴾ أخبر عن قوم إلياس أنهم كذبوه. ﴿ فإنهم لمحضرون ﴾ أي في العذاب. ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أي من قومه فإنهم نجوا من العذاب. وقرئ "المخلصين" بكسر اللام وقد تقدم. ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ تقدم. ﴿ سلام على إلياسين ﴾ قراءة الأعرج وشيبة

---

(١) "موضوع" ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، (١/ ٢٠٠)، وقال: موضوع لا أصل له.

ونافع. وقرأ عكرمة وأبو عمرو وابن كثير وحمزة والكسائي: "سلام على إلياسين". وقرأ الحسن: "سلام على الياسين" بوصل الألف كأنها ياسين دخلت عليها الألف واللام التي للتعريف. والمراد إلياس عليه السلام، وعليه وقع التسليم ولكنه اسم أعجمي. والعرب تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية ويكثر تغييرهم لها. قال ابن جني: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعبا؛ فياسين وإلياس والياسين شيء واحد. الزمخشري: وكان حمزة إذا وصل نصب وإذا وقف رفع. وقرئ: "على إلياسين" و "إدريسين وإدرسين وإدراسين" على أنها لغات في إلياس وإدريس. ولعل لزيادة الياء والنون في السريانية معنى. النحاس: ومن قرأ: "سلام على آل ياسين" فكأنه والله أعلم جعل اسمه إلياس وياسين ثم سلم على آله؛ أي أهل دينه ومن كان على مذهبه، وعلم أنه إذا سلم على آله من أجله فهو داخل في السلام؛ كما قال النبي ﷺ: (اللهم صل على آل أبي أوفى)[1] وقال الله تعالى: ﴿أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ (غافر: ٤٦). ومن قرأ "إلياسين" فللعلماء فيه غير قول. فروى هارون عن ابن أبي إسحاق قال: إلياسين مثل إبراهيم يذهب إلى أنه اسم له. وأبو عبيدة يذهب إلى أنه جمع جمع التسليم على أنه وأهل بيته سلم عليهم؛ وأنشد (من أرجوزة لحميد الأرقط):

قدني من نصر الخبيبين قدي ليس الإمام بالشحيح الملحد

يقال: قدني وقدي لغتان بمعنى حسب. وإنما يريد أبا خبيب عبد الله بن الزبير فجمعه على أن من كان على مذهبه داخل معه. وغير أبي عبيدة يرويه: الخبيبين على التثنية، يريد عبد الله ومصعباً. ورأيت علي بن سليمان يشرحه بأكثر من هذا؛ قال: فإن العرب تسمي قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم، فيقولون: المهالبة على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلب. قال: فعلى هذا "سلام على إلياسين" سمي كل رجل منهم بإلياس. وقد ذكر سيبويه فى كتابه شيئا من هذا، إلا أنه ذكر أن العرب تفعل هذا على جهة النسبة؛ فيقولون: الأشعرون يريدون به النسب. المهدوي: ومن قرأ "إلياسين" فهو جمع يدخل فيه إلياس فهو جمع إلياسي فحذفت ياء النسبة؛ كما حذفت ياء النسبة في جميع المكسر في نحو المهالبة في جمع مهلبي، كذلك حذفت في المسلم فقيل المهلبون. وقد حكى سيبويه: الأشعرون والنميرون يريدون الأشعريين والنميريين. السهيلي: وهذا لا يصح بل هي لغة في إلياس، ولو أراد ما قالوه لأدخل الألف واللام كما تدخل في المهالبة والأشعريين؛ فكان يقول: "سلام على الإلياسين" لأن العلم إذا جمع ينكر حتى يعرف بالألف واللام؛ لا تقول: سلام على زيدين، بل على الزيدين بالألف واللام. فإلياس عليه السلام فيه ثلاث لغات. النحاس: واحتج أبو عبيد في قراءته "سلام على إلياسين" وأنه اسمه كما أن اسمه إلياس؛ لأنه ليس في السورة سلام على "آل" لغيره من الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، فكما سمي الأنبياء كذا سمي هو. وهذا الاحتجاج أصله لأبي عمرو وهو غير لازم؛ لأنا بينا قول أهل اللغة أنه إذا سلم على آله من أجله فهو سلام عليه. والقول بأن اسمه "إلياسين" يحتاج إلى دليل ورواية؛ فقد وقع في الأمر إشكال. قال الماوردي: وقرأ الحسن "سلام على ياسين" بإسقاط الألف واللام وفيه وجهان: أحدهما أنهم آل محمد ﷺ؛ قاله ابن عباس. والثاني

---

(١) أخرجه البخاري وغيره، وقد تقدم.

أنهم آل ياسين؛ فعلى هذا في دخول الزيادة في ياسين وجهان: أحدهما: أنها زيدت لتساوي الآي، كما قال في موضع: ﴿طور سيناء﴾ (المؤمنون: ٢٠) وفي موضع آخر ﴿طور سينين﴾ (التين: ٢) فعلى هذا يكون السلام على أهله دونه، وتكون الإضافة إليه تشريفا له. الثاني: أنها دخلت للجمع فيكون داخلا في جملتهم فيكون السلام عليه وعليهم. قال السهيلي: قال بعض المتكلمين في معاني القرآن: آل ياسين آل محمد ﷺ، ونزع إلى قول من قال في تفسير "يس" يا محمد. وهذا القول يبطل من وجوه كثيرة: أحدها: أن سياقة الكلام في قصة إلياسين يلزم أن تكون كما هي في قصة إبراهيم ونوح وموسى وهارون وأن التسليم راجع عليهم، ولا معنى للخروج عن مقصود الكلام لقول قيل في تلك الآية الأخرى مع ضعف ذلك القول أيضا؛ فإن "يس" و"حم" و"الم" ونحو ذلك القول فيها واحد، إنما هي حروف مقطعة، إما مأخوذة من أسماء الله تعالى كما قال ابن عباس، وإما من صفات القرآن، وإما كما قال الشعبي: لله في كل كتاب سر، وسره في القرآن فواتح القرآن. وأيضا فإن رسول الله ﷺ قال: (لي خمسة أسماء)[1] ولم يذكر فيها "يس". وأيضا فإن "يس" جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف، ولو كان اسما للنبي ﷺ لقال: "يسن" بالضم؛ كما قال تعالى: ﴿يوسف أيها الصديق﴾ (يوسف: ٤٦) وإذا بطل هذا القول لما ذكرناه؛ فـ "إلياسين" هو إلياس المذكور وعليه وقع التسليم. وقال أبو عمرو بن العلاء: هو مثل إدريس وإدراسين، كذلك هو في مصحف ابن مسعود. "وإن إدريس لمن المرسلين" ثم قال: "سلام على إدراسين". ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإن لوطا لمن المرسلين، إذ نجيناه وأهله أجمعين، إلا عجوزا في الغابرين﴾ تقدم قصة لوط. ﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ أي بالعقوبة. ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين﴾ خاطب العرب: أي تمرون على منازلهم وآثارهم "مصبحين" وقت الصباح ﴿وبالليل﴾ تمرون عليهم أيضا. وتم الكلام. ثم قال: ﴿أفلا تعقلون﴾ أي تعتبرون وتتدبرون.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ فيه ثمان مسائل:

---

(١) تقدم.

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ يونس هو ذو النون، وهو ابن متى، وهو ابن العجوز التي نزل عليها إلياس، فاستخفى عندها من قومه ستة أشهر ويونس صبي يرضع، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتؤانسه، ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها. ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت فلحق بالجبال، ومات ابن المرأة يونس، فخرجت في إثر إلياس تطوف وراءه في الجبال حتى وجدته، فسألته أن يدعو الله لـها لعلـه يحيي لـها ولدها؛ فجاء إلياس إلى الصبي بعد أربعة عشر يوما من موته، فتوضأ وصلى ودعا الله فأحيا الله يونس بن متى بدعوة إلياس عليه السلام. وأرسل الله يونس إلى أهل نينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا، حسبما تقدم بيانه في سورة "يونس" ومضى في "الأنبياء" قصة يونس في خروجه مغاضبا. واختلف في رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إياه أو بعده. قال الطبري عن شهر بن حوشب: إن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال: انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم. قال: ألتمس دابة. قال: الأمر أعجل من ذلك. قال: ألتمس حذاء. قال: الأمر أعجل من ذلك. قال: فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينة احتبست السفينة لا تتقدم ولا تتأخر. قال: فتساهموا، قال: فسهم، فجاء الحوت يبصبص بذنبه؛ فنودي الحوت: أيا حوت! إنا لم نجعل لك يونس رزقا؛ إنما جعلناك لـه حرزا ومسجدا. قال: فالتقمه الحوت من ذلك المكان حتى مر به إلى الأبلة، ثم انطلق به حتى مر به على دجلة، ثم انطلق حتى ألقاه في نينوى. حدثنا الحارث قال حدثنا الحسن قال حدثنا أبو هلال قال حدثنا شهر بن حوشب عن ابن عباس قال: إنما كانت رسالة يونس بعدما نبذه الحوت؛ واستدل هؤلاء بأن الرسول لا يخرج مغاضبا لربه، فكان ما جرى منه قبل النبوة. وقال آخرون: كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل إليهم إلى ما أمره الله بدعائهم إليه، وتبليغه إياهم رسالة ربه، ولكنه وعدهم نزول ما كان حذرهم من بأس الله في وقت وقته لـهم ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله، فلما أظل القوم العذاب وغشيهم ـ كما قال الله تعالى في تنزيلـه ـ تابوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم، وبلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذي كان وعدهموه فغضب من ذلك وقال: وعدتهم وعدا فكذب وعدي. فذهب مغاضبا ربه وكره الرجوع إليهم، وقد جربوا عليه الكذب؛ رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقد مضى هذا في "الأنبياء" وهو الصحيح على ما يأتي عند قولـه تعالى: ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ (الصافات: ١٤٧). ولم ينصرف يونس؛ لأنه اسم أعجمي ولو كان عربيا لانصرف وإن كانت في أوله الياء؛ لأنه ليس في الأفعال يفعل كما أنك إذا سميت بيُعفر صرفته؛ وإن سميت بيَعفر لم تصرفه.

الثانية : قولـه تعالى: ﴿ إذ أبق ﴾ قال المبرد: أصل أبق تباعد؛ ومنه غلام آبق. وقال غيره: إنما قيل ليونس أبق؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل مستترا من الناس. ﴿ إلى الفلك المشحون ﴾ أي المملوءة "والفلك" يذكر ويؤنث ويكون واحدا وجمعا وقد تقدم. قال الترمذي الحكيم: سماه آبقا لأنه أبق عن العبودية، وإنما العبودية ترك الـهوى وبذل النفس عند أمور الله؛ فلما لم يبذل النفس عندما اشتدت عليه العزمة من الملك حسبما تقدم بيانه في "الأنبياء"، وآثر هواه لزمه اسم الآبق، وكانت عزمة الملك في أمر الله لا في أمر نفسه، وبحظ حق الله لا بحظ نفسه؛ فتحرى يونس فلم يصب الصواب الذي عند الله فسماه آبقا ومليما.

الثالثة : قولـه تعالى: "فساهم" قال المبرد: فقارع، قال: وأصلـه من السهام التي تجال.

﴿ فكان من المدحضين ﴾ قال: من المغلوبين. قال الفراء: دحضت حجته وأدحضها الله. وأصله من الزلق؛ قال الشاعر:

قتلنا المدحضين بكل فج   فقد قرت بقتلهم العيون

أي المغلوبين.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾ أي أتى بما يلام عليه. فأما الملوم فهو الذي يلام، استحق ذلك أو لم يستحق. وقيل: المليم المعيب. يقال: لام الرجل إذا عمل شيئا فصار معيبا بذلك العمل. ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ قال الكسائي: لم تكسر "أن" لدخول اللام؛ لأن اللام ليست لها. النحاس: والأمر كما قال؛ إنما اللام في جواب لولا. "فلولا أنه كان من المسبحين" أي من المصلين ﴿ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ أي عقوبة له؛ أي يكون بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة. واختلف كم أقام في بطن الحوت. فقال السدي والكلبي ومقاتل بن سليمان: أربعين يوما. الضحاك: عشرين يوما. عطاء: سبعة أيام. مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام. وقيل: ساعة واحدة. والله أعلم.

الخامسة: روى الطبري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لما أراد الله ـ تعالى ذكره ـ حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحما ولا تكسر عظما فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر؛ فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال في نفسه ما هذا؟) فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو في بطن الحوت: (إن هذا تسبيح دواب البحر) قال: (فسبح وهو في بطن الحوت) قال: (فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة) قال: (ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر) قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال نعم. فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت بقذفه في الساحل كما قال تعالى: "وهو سقيم"[1]. وكان سقمه الذي وصفه به الله ـ تعالى ذكره ـ أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبي المنفوس قد نشر اللحم والعظم. وقد روي: أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح، ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر، فلفظه سالما لم يتغير منه شيء فأسلموا؛ ذكره الزمخشري في تفسيره. وقال ابن العربي: أخبرني غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني: أنه سئل عن الباري في جهة؟ فقال: لا، هو يتعالى عن ذلك. قيل له: ما الدليل عليه؟ قال: الدليل عليه قول النبي ﷺ: (لا تفضلوني على يونس بن متى)[2] فقيل له: ما وجه الدليل في هذا الخبر؟ فقال: لا أقوله حتى يأخذ ضيفي هذا ألف دينار يقضي بها دينا. فقام رجلان فقالا: هي علينا. فقال لا يتبع بها اثنين؛ لأنه يشق عليه. فقال واحد: هي علي. فقال: إن يونس بن متى رمى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت، فصار في قعر البحر في ظلمات ثلاث، ونادى ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ (الأنبياء: ٨٧) كما أخبر الله عنه، ولم يكن محمد ﷺ حين جلس على الرفرف الأخضر وارتقى به صعدا، حتى انتهى به إلى

---

(١) هذا الخبر من الإسرائيليات.

(٢) أخرجه البخاري وغيره، وقد تقدم.

موضع يسمع فيه صريف الأقلام، وناجاه ربه بما ناجاه به، وأوحى إليه ما أوحى بأقرب إلى الله تعالى من يونس في بطن الحوت في ظلمة البحر.

السادسة : ذكر الطبري: أن يونس عليه السلام لما ركب في السفينة أصاب أهلها عاصفة من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدكم. فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب: هذه خطيئتي فألقوني في البحر، وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم. "فساهم فكان من المدحضين" فقال لهم: قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبي. وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية فكان من المدحضين، وأنهم أبوا أن يلقوه في البحر حتى أعادوا سهامهم الثالثة فكان من المدحضين. فلما رأى ذلك ألقى نفسه في البحر، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت. وروي أنه لما ركب في السفينة تقنع ورقد فساروا غير بعيد إذ جاءتهم ريح كادت السفينة أن تغرق، فاجتمع أهل السفينة فدعوا فقالوا: أيقظوا الرجل النائم يدعو معنا؛ فدعا الله معهم فرفع الله عنهم تلك الريح. ثم انطلق يونس إلى مكانه فرقد، فجاءت ريح كادت السفينة أن تغرق، فأيقظوه ودعوا فارتفعت الريح. قال: فبينما هم كذلك إذ رفع حوت عظيم رأسه إليهم أراد أن يبتلع السفينة، فقال لهم يونس: يا قوم هذا من أجلي فلو طرحتموني في البحر لسرتم ولذهب الريح عنكم والروع. قالوا: لا نطرحك حتى نتساهم، فمن وقعت عليه رميناه في البحر. قال: فتساهموا فوقع على يونس؛ فقال لهم: يا قوم اطرحوني فمن أجلي أوتيتم؛ فقالوا: لا نفعل حتى نتساهم مرة أخرى. ففعلوا فوقع على يونس. فقال لهم: يا قوم اطرحوني فمن أجلي أوتيتم؛ فذلك قول الله عز وجل: "فساهم فكان من المدحضين" أي وقع السهم عليه؛ فانطلقوا به إلى صدر السفينة ليلقوه في البحر، فإذا الحوت فاتح فاه، ثم جاؤوا به إلى جانب السفينة، فإذا بالحوت، ثم رجعوا به إلى الجانب الآخر، فإذا بالحوت فاتح فاه؛ فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فالتقمه الحوت؛ فأوحى الله تعالى إلى الحوت: إني لم أجعله لك رزقا ولكن جعلت بطنك له وعاء. فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة فنادى في الظلمات: ﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ (الأنبياء: ٨٧) وقد تقدم ويأتي.

ففي هذا من الفقه أن القرعة كانت معمولا بها في شرع من قبلنا، وجاءت في شرعنا على ما تقدم في "آل عمران" قال ابن العربي: وقد وردت القرعة في الشرع في ثلاثة مواطن. الأول: كان النبي ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه[1]. الثاني: أن النبي ﷺ رفع إليه أن رجلا أعتق ستة أعبد لا مال له غيرهم، فأقرع بينهم؛ فأعتق اثنين وأرق أربعة[2]. الثالث: أن رجلين اختصما إليه في مواريث قد درست فقال: (اذهبا وتوخيا الحق واستهما وليحلل كل واحد منكما صاحبه)[3]. فهذه ثلاثة مواطن، وهي القسم في النكاح، والعتق، والقسمة، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال وحسم داء التشهي. واختلف علماؤنا في القرعة بين الزوجات في الغزو على قولين؛ الصحيح منهما الإقراع؛ وبه قال فقهاء الأمصار. وذلك أن السفر بجميعهن لا يمكن، واختيار واحدة منهن إيثار فلم يبق إلا القرعة. وكذلك في مسألة الأعبد الستة؛ فإن كل اثنين منهما ثلث، وهو القدر

(١) أخرجاه في الصحيحين، وهو حديث الإفك.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٦٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٥٨٤)، وسنده ضعيف.

الذي يجوز لـه فيه العتق في مرض الموت، وتعيينهما بالتشهي لا يجوز شرعاً فلم يبق إلا القرعة. وكذلك التشاجر إذا وقع في أعيان المواريث لم يميز الحق إلا القرعة، فصارت أصلا في تعيين المستحق إذا أشكل. قال: والحق عندي أن تجري في كل مشكل، فذلك أبين لـها، وأقوى لفصل الحكم فيها، وأجلى لرفع الإشكال عنها؛ ولذلك قلنا: إن القرعة بين الزوجات في الطلاق كالقرعة بين الإماء في العتق.

السابعة: الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز. وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه، وزيادة في إيمانه؛ فإنه لا يجوز لمن كان عاصيا أن يقتل ولا يرمى به في النار أو البحر، وإنما تجرى عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته. وقد ظن بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم، فيطرح بعضهم تخفيفا؛ وهذا فاسد؛ فإنها لا تخف برمي بعض الرجال وإنما ذلك في الأموال، ولكنهم يصبرون على قضاء الله عز وجل.

الثامنة: أخبر الله عز وجل أن يونس كان من المسبحين، وأن تسبيحه كان سبب نجاته؛ ولذلك قيل: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر. قال ابن عباس: "من المسبحين" من المصلين. قال قتادة: كان يصلي قبل ذلك لحفظ الله عز وجل لـه فنجاه. وقال الربيع بن أنس: لولا أنه كان لـه قبل ذلك عمل صالح "للبث في بطنه إلى يوم يبعثون" قال: ومكتوب في الحكمة ـ إن العمل الصالح يرفع ربه إذا عثر. وقال مقاتل: "من المسبحين" من المصلين المطيعين قبل المعصية. وقال وهب: من العابدين. وقال الحسن: ما كان لـه صلاة في بطن الحوت؛ ولكنه قدم عملا صالحا في حال الرخاء فذكره الله به في حال البلاء، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه، وإذا عثر وجد متكأ.

قلت: ومن هذا المعنى قولـه ﷺ: (من استطاع منكم أن تكون لـه خبيئة من عمل صالح فليفعل)[1] فيجتهد العبد، ويحرص على خصلة من صالح عملـه، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويدخرها ليوم فاقته وفقره، ويخبؤها بجهده، ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه. وقد خرج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: (بينما ثلاثة نفر ـ في رواية ممن كان قبلكم ـ يتماشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل فانحطت على فم الغار صخرة من الجبل فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله بها لعلـه يفرجها عنكم...)[2] الحديث بكمالـه وهو مشهور، شهرته أغنت عن تمامه. وقال سعيد بن جبير: لما قال في بطن الحوت: ﴿ لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ (الأنبياء: ٨٧) قذفه الحوت. وقيل: "من المسبحين" من المصلين في بطن الحوت.

قلت: والأظهر أنه تسبيح اللسان الموافق للجنان، وعليه يدل حديث أبي هريرة المذكور قبل الذي ذكره الطبري. قال: فسبح في بطن الحوت. قال: فسمعت الملائكة تسبيحه؛ فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة. وتكون "كان" على هذا القول زائدة؛ أي فلولا أنه من المسبحين. وفي كتاب أبي داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: (دعاء ذي النون في بطن الحوت ﴿ لا إلـه

(١) ذكره ابن الجوزي في "العلل المتناهية"، (٢/ ٣٣٧).
(٢) أخرجاه في الصحيحين، وقد تقدم.

إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب لـه)[1] وقد مضى هذا في سورة (الأنبياء) فيونس عليه السلام كان قبل مصلياً مسبحاً، وفي بطن الحوت كذلك. وفي الخبر: فنودي الحوت: إنا لم نجعل يونس لك رزقا؛ إنما جعلناك لـه حرزا ومسجدا. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ روي أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل. وقال ابن قسيط عن أبي هريرة: طرح يونس بالعراء وأنبت الله عليه يقطينة؛ فقلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة؟ قال: شجرة الدباء؛ هيأ الله لـه أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض ـ أو هشاش الأرض ـ فتفشج عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: خرج به ـ يعني الحوت ـ حتى لفظه في ساحل البحر، فطرحه مثل الصبي المنفوس لم ينقص من خلقه شيء. وقيل: إن يونس لما ألقاه الحوت على ساحل البحر أنبت الله عليه شجرة من يقطين، وهي فيما ذكر شجرة القرع تتقطر عليه من اللبن حتى رجعت إليه قوته. ثم رجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدها يبست، فحزن وبكى عليها فعوتب؛ فقيل لـه: أحزنت على شجرة وبكيت عليها، ولم تحزن على مائة ألف وزيادة من بني إسرائيل، من أولاد إبراهيم خليلي، أسرى في أيدي العدو، وأردت إهلاكهم جميعا. وقيل: هي شجرة التين. وقيل: شجرة الموز تغطى بورقها، واستظل بأغصانها، وأفطر على ثمارها. والأكثر على أنها شجرة اليقطين على ما يأتي. ثم إن الله تبارك وتعالى اجتباه فجعلـه من الصالحين. ثم أمره أن يأتي قومه ويخبرهم أن الله تعالى قد تاب عليهم، فعمد إليهم حتى لقي راعيا فسألـه عن قوم يونس وعن حالـهم وكيف هم، فأخبره أنهم بخير، وأنهم على رجاء أن يرجع إليهم رسولـهم. فقال لـه: فأخبرهم أني قد لقيت يونس، فقال: لا أستطيع إلا بشاهد. فسمى لـه عنزاً من غنمه فقال: هذه تشهد لك أنك لقيت يونس. قال: وماذا؟ قال: وهذه البقعة التي أنت فيها تشهد لك أنك لقيت يونس، قال: وماذا؟ قال: وهذه الشجرة تشهد لك أنك لقيت يونس. وأنه رجع الراعي إلى قومه فأخبرهم أنه لقي يونس فكذبوه وهموا به شرا فقال: لا تعجلوا علي حتى أصبح، فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التي لقي فيها يونس، فاستنطقها فأخبرتهم أنه لقي يونس؛ واستنطق الشاة والشجرة فأخبرتاهم أنه لقي يونس، ثم إن يونس أتاهم بعد ذلك. ذكر هذا الخبر وما قبلـه الطبري رحمه الله. "فنبذناه" طرحناه. وقيل: تركناه. "بالعراء" بالصحراء؛ قالـه ابن الأعرابي. الأخفش: بالفضاء. أبو عبيدة: الواسع من الأرض. الفراء: العراء المكان الخالي. قال: وقال أبو عبيدة: العراء وجه الأرض؛ وأنشد لرجل من خزاعة:

ورفعت رجلا لا أخاف عثارها ونبـذت بالبلـد العـراء ثيابي

وحكى الأخفش في قولـه: "وهو سقيم" جمع سقيم سقمى وسقامى وسقام. وقال في هذه السورة: "فنبذناه بالعراء" وقال في ﴿ ن والقلم ﴾ (القلم: ١): ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٣٣٨٣).

بالعراء وهو مذموم ﴾(القلم: ٤٩) والجواب: أن الله عز وجل خبر ها هنا أنه نبذه بالعراء وهو غير مذموم ولولا رحمة الله عز وجل لنبذ بالعراء وهو مذموم؛ قاله النحاس. وقوله: "وأنبتنا عليه شجرة من يقطين" يعني "عليه" أي عنده؛ كقوله تعالى: ﴿ولهم علي ذنب ﴾(الشعراء: ١٤) أي عندي. وقيل: "عليه" بمعنى له. "شجرة من يقطين" اليقطين: شجر الدباء: وقيل غيرها؛ ذكره ابن الأعرابي. وفي الخبر: (الدباء والبطيخ من الجنة)[1] وقد ذكرناه في كتاب التذكرة. وقال المبرد: يقال لكل شجرة ليس لها ساق يفترش ورقها على الأرض يقطينة نحو الدباء والبطيخ والحنظل، فإن كان لها ساق يقلها فهي شجرة فقط، وإن كانت قائمة أي بعروق تفترش فهي نجمة وجمعها نجم. قال الله تعالى: ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ (الرحمن: ٦) وروي نحوه عن ابن عباس والحسن ومقاتل. قالوا: كل نبت يمتد ويبسط على الأرض ولا يبقى على استواء وليس له ساق نحو القثاء والبطيخ والقرع والحنظل فهو يقطين. وقال سعيد بن جبير: هو كل شيء ينبت ثم يموت من عامه فيدخل في هذا الموز.

قلت: وهو مما له ساق. الجوهري: واليقطين ما لا ساق له كشجر القرع ونحوه. الزجاج: اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان إذا أقام به فهو يفعيل. وقيل: هو اسم أعجمي. وقيل: إنما خص اليقطين بالذكر، لأنه لا ينزل عليه ذباب. وقيل: ما كان ثم يقطين فأنبته الله في الحال. القشيري: وفي الآية ما يدل على أنه كان مفروشا ليكون له ظل. الثعلبي: كانت تظله فرأى خضرتها فأعجبته، فيبست فجعل يتحزن عليها؛ فقيل له: يا يونس أنت الذي لم تخلق ولم تسق ولم تنبت تحزن على شجيرة، فأنا الذي خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون تريد مني أن أستأصلهم في ساعة واحدة، وقد تابوا وتبت عليهم فأين رحمتي يا يونس أنا أرحم الراحمين. وروي عن النبي ﷺ أنه كان يأكل الثريد باللحم والقرع وكان يحب القرع ويقول: (إنها شجرة أخي يونس) وقال أنس: قدم للنبي ﷺ مرق فيه دباء وقديد فجعل يتبع الدباء حوالي القصعة. قال أنس: فلم أزل أحب الدباء من يومئذ. أخرجه الأئمة.

قوله تعالى: ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ وقد تقدم عن ابن عباس أن رسالة يونس عليه السلام إنما كانت بعدما نبذه الحوت. وليس له طريق إلا عن شهر بن حوشب. النحاس: وأجود منه إسنادا وأصح ما حدثناه عن علي بن الحسين قال: حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا عمرو بن العنقزي قال حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون قال حدثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال عن يونس النبي ﷺ قال: إن يونس وعد قومه العذاب وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرقوا بين كل والدة وولدها، وخرجوا فجأروا إلى الله عز وجل واستغفروا، فكف الله عز وجل عنهم العذاب، وغدا يونس عليه السلام ينتظر العذاب فلم ير شيئا ـ وكان من كذب ولم تكن له بينة قتل ـ فخرج يونس مغاضبا، فأتى قوما في سفينة فحملوه وعرفوه، فلما دخل السفينة ركدت السفينة والسفن تسير يمينا وشمالا؛ فقالوا: ما لسفينتكم؟ فقالوا: لا ندري. فقال يونس عليه السلام: إن فيها عبدا آبقا من ربه جل

---

(١)موضوع.

وعز وإنها لن تسير حتى تلقوه. قالوا أما أنت يا نبي الله فإنا لا نلقيك. قال: فأقرعوا فمن قرع فليقع، فاقترعوا فقرعهم يونس فأبوا أن يدعوه، فال: فاقترعوا ثلاثا فمن قرع فليقع. فاقترعوا فقرعهم يونس ثلاث مرات أو قال ثلاثا فوقع. وقد وكل الله به جل وعز حوتا فابتلعه وهو يهوي به إلى قرار الأرض، فسمع يونس عليه السلام تسبيح الحصى ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ (الأنبياء: ٨٧) قال: ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت. قال: "فنبذناه بالعراء وهو سقيم" قال: كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش. قال: وأنبت الله عليه شجرة من يقطين فنبتت، فكان يستظل بها ويصيب منها، فيبست فبكى عليها؛ فأوحى الله جل وعز إليه: أتبكي على شجرة يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم قال: وخرج رسول الله يونس فإذا هو بغلام يرعى؛ قال: يا غلام من أنت؟ قال: من قوم يونس. قال: فإذا جئت إليهم فأخبرهم أنك قد لقيت يونـس. قال: إن كنت يونس فقد علمت أنه من كذب قتل إذا لم تكن لـه بينة فمن يشهد لي؟ قال: هذه الشجرة وهذه البقعة. قال: فمرهما؛ فقال لـهما يونس: إذا جاءكما هذا الغلام فأشهدا لـه. قالتا: نعم. قال: فرجع الغلام إلى قومه وكان في منعة وكان لـه إخوة، فأتى الملك فقال: إني قد لقيت يونس وهو يقرأ عليك السلام. قال: فأمر به أن يقتل؛ فقالوا: إن لـه بينة فأرسلوا معه. فأتى الشجرة والبقعة فقال لـهما: نشدتكما بالله جل وعز أتشهدان أني لقيت يونس؟ قالتا: نعم. قال: فرجع القوم مذعورين يقولون لـه: شهدت لـه الشجرة والأرض فأتوا الملك فأخبروه بما رأوا. قال عبد الله: فتناول الملك يد الغلام فأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحق بهذا المكان مني. قال عبد الله: فأقام لـهم ذلك الغلام أمرهم أربعين سنة. قال أبو جعفر النحاس: فقد تبين في هذا الحديث أن يونس كان قد أرسل قبل أن يلتقمه الحوت بهذا الإسناد الذي لا يؤخذ بالقياس. وفيه أيضا من الفائدة أن قوم يونس آمنوا وندموا قبل أن يروا العذاب؛ لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذاب إلى ثلاثة أيام، ففرقوا بين كل والدة وولدها، وضجوا ضجة واحدة إلى الله عز وجل.

وهذا هو الصحيح في الباب، وأنه لم يكن حكم الله عز وجل فيهم كحكمه في غيرهم في قولـه عز وجل: ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ (غافر: ٨٥) وقولـه عز وجل: ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت ﴾ (النساء: ١٨) الآية. وقال بعض العلماء: إنهم رأوا مخائل العذاب فتابوا. وهذا لا يمنع، وقد تقدم ما للعلماء في هذا في سورة "يونس" فلينظر هناك.

قولـه تعالى: ﴿ أو يزيدون ﴾ قد مضى في "البقرة" محامل "أو" فـي قولـه تعالـى: ﴿ أو أشد قسوة ﴾ (البقرة: ٧٤). وقال الفراء: "أو" بمعنى بل. وقال غيره: إنها بمعنى الواو، ومنه قول الشاعر:

فلما اشتد أمر الحرب فينا تأمـلنا رياحـا أو رزاما

أي ورزاما. وهذا كقولـه تعالى: ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ (النحل: ٧٧). وقرأ جعفر بن محمد "إلى مائة ألف ويزيدون" بغير همز؛ فـ "يزيدون" في موضع رفع بأنه خبر مبتدأ

محذوف أي وهم يزيدون. النحاس: ولا يصح هذان القولان عند البصريين، وأنكروا كون "أو" بمعنى بل وبمعنى الواو؛ لأن بل للإضراب عن الأول والإيجاب لما بعده، وتعالى الله عز وجل عن ذلك، أو خروج من شيء إلى شيء وليس هذا موضع ذلك؛ والواو معناه خلاف معنى "أو" فلو كان أحدهما بمعنى الآخر لبطلت المعاني؛ ولو جاز ذلك لكان وأرسلناه إلى أكثر من مائتي ألف أخصر. وقال المبرد: المعنى وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لقلتم هم مائة ألف أو أكثر، وإنما خوطب العباد على ما يعرفون. وقيل: هو كما تقول: جاءني زيد أو عمرو وأنت تعرف من جاءك منهما إلا أنك أبهمت على المخاطب. وقال الأخفش والزجاج: أي أو يزيدون في تقديركم. قال ابن عباس: زادوا على مائة ألف عشرين ألفا. ورواه أبي بن كعب مرفوعا. وعن ابن عباس أيضا: ثلاثين ألفا. الحسن والربيع: بضعا وثلاثين ألفا. وقال مقاتل بن حيان: سبعين ألفا. ﴿ فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ أي إلى منتهى آجالـهم.

قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولـهم البنون ﴾ لما ذكر أخبار الماضين تسلية للنبي ﷺ احتج على كفار قريش في قولـهم: إن الملائكة بنات الله؛ فقال: "فاستفتهم". وهو معطوف على مثله في أول السورة وإن تباعدت بينهم المسافة؛ أي فسل يا محمد أهل مكة "ألربك البنات" وذلك أن جهينة وخزاعة وبني مليح وبني سلمة وعبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله. وهذا سؤال توبيخ.

﴿ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ﴾ أي حاضرون لخلقنا إياهم إناثا؛ وهذا كما قال الله عز وجل: ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ﴾ (الزخرف: ١٩). ثم قال: ﴿ ألا إنهم من إفكهم ﴾ وهو أسوأ الكذب ﴿ ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾ في قولـهم إن لله ولدا وهو الذي لا يلد ولا يولد. و"إن" بعد "ألا" مكسورة؛ لأنها مبتدأة. وحكى سيبويه أنها تكون بعد أما مفتوحة أو مكسورة؛ فالفتح على أن تكون أما بمعنى حقا، والكسر على أن تكون أما بمعنى ألا. النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول يجوز فتحها بعد ألا تشبيها بأما، وأما في الآية فلا يجوز إلا كسرها؛ لأن بعدها الرفع. وتمام الكلام "لكاذبون". ثم يبتدئ ﴿ أصطفى ﴾ على معنى التقريع والتوبيخ كأنه قال: ويحكم "أصطفى البنات" أي اختار البنات وترك البنين. وقراءة العامة "أصطفى" بقطع الألف؛ لأنها ألف استفهام دخلت على ألف الوصل، فحذفت ألف الوصل وبقيت ألف الاستفهام مفتوحة مقطوعة على حالـها مثل: "أطلع الغيب" على ما تقدم. وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وحمزة "اصطفى" بوصل الألف على الخبر بغير استفهام. وإذا ابتدأ كسر الـهمزة. وزعم أبو حاتم أنه لا وجه لـها؛ لأن بعدها ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ فالكلام جار على التوبيخ من

جهتين: إحداهما أن يكون تبيينا وتفسيراً لما قالوه من الكذب ويكون "ما لكم كيف تحكمون" منقطعا مما قبله. والجهة الثانية أنه قد حكى النحويون ـ منهم الفراء ـ أن التوبيخ يكون باستفهام وبغير استفهام كما قال جل وعز: ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ (الأحقاف: ٢٠). وقيل: هو على إضمار القول؛ أي ويقولون "اصطفى البنات". أو يكون بدلا من قوله: "ولد الله" لأن ولادة البنات واتخاذهن اصطفاء لهن، فأبدل مثال الماضي من مثال الماضي فلا يوقف على هذا على "لكاذبون". ﴿أفلا تذكرون﴾ في أنه لا يجوز أن يكون له ولد. ﴿أم لكم سلطان مبين﴾ حجة وبرهان. ﴿فأتوا بكتابكم﴾ أي بحججكم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في قولكم.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ﴾ أكثر أهل التفسير أن الجنة ها هنا الملائكة. روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: قالوا ـ يعني كفار قريش ـ الملائكة بنات الله؛ جل وتعالى. فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: فمن أمهاتهن. قالوا: مخدرات الجن. وقال أهل الاشتقاق: قيل لهم جنة لأنهم لا يرون. وقال مجاهد: إنهم بطن من بطون الملائكة يقال لهم الجنة. وروي عن ابن عباس. وروى إسرائيل عن السدي عن أبي مالك قال: إنما قيل لهم جنة لأنهم خزان على الجنان والملائكة كلهم جنة. "نسبا" مصاهرة. قال قتادة والكلبي ومقاتل: قالت اليهود لعنهم الله إن الله صاهر الجن فكانت الملائكة من بينهم. وقال مجاهد والسدي ومقاتل أيضا: القائل ذلك كنانة وخزاعة؛ قالوا: إن الله خطب إلى سادات الجن فزوجوه من سروات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن. وقال الحسن: أشركوا الشيطان في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه.

قلت: قول الحسن في هذا أحسن؛ دليله قوله تعالى: ﴿ إذ نسويكم برب العالمين ﴾ (الشعراء: ٩٨) أي في العبادة. وقال ابن عباس والضحاك والحسن أيضا: هو قولهم إن الله تعالى وإبليس أخوان؛ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

قوله تعالى: ﴿ ولقد علمت الجنة ﴾ أي الملائكة ﴿ إنهم ﴾ يعني قائل هذا القول ﴿ لمحضرون ﴾ في النار؛ قاله قتادة. وقال مجاهد: للحساب. الثعلبي: الأول أولى؛ لأن الإحضار تكرر في هذه السورة ولم يرد الله به غير العذاب. ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ أي تنزيها لله عما يصفون. ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ فإنهم ناجون من النار.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فإنكم وما تعبدون ﴾ "ما" بمعنى الذي. وقيل: بمعنى المصدر، أي فإنكم وعبادتكم لهذه الأصنام. وقيل: أي فإنكم مع ما تعبدون من دون الله؛ يقال: جاء فلان وفلان. وجاء فلان مع فلان. ﴿ ما أنتم عليه ﴾ أي على الله ﴿ بفاتنين ﴾ بمضلين. النحاس. أهل التفسير مجمعون فيما علمت على أن المعنى: ما أنتم بمضلين أحدا إلا من قدّر الله عز وجل عليه أن يضل. وقال الشاعر:

فــرد بنعمته كيده عليه وكان لنا فاتنا

أي مضلا.

الثانية : في هذه الآية رد على القدرية. قال عمرو بن ذر: قدمنا على عمر بن عبد العزيز فذكر عنده القدر، فقال عمر: لو أراد الله ألا يعصى ما خلق إبليس وهو رأس الخطيئة، وإن في ذلك لعلما في كتاب الله عز وجل، عرفه من عرفه، وجهلـه من جهلـه؛ ثم قرأ: "فإنكم وما تعبدون. ما أنتم عليه بفاتنين" إلا من كتب الله عز وجل عليه أن يصلى الجحيم. وقال: فصلت هذه الآية بين الناس، وفيها من المعاني أن الشياطين لا يصلون إلى إضلال أحد إلا من كتب الله عليه أنه لا يهتدي، ولو علم الله جل وعز أنه يهتدي لحال بينه وبينهم؛ وعلى هذا قولـه تعالى: ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ (الإسراء: ٦٤) أي لست تصل منهم إلى شيء إلا إلى ما في علمي. وقال لبيد بن ربيعة في تثبيت القدر فأحسن:

إن تقــوى ربــنا خــير نفــل وبــإذن الله ريــثي وعجــل
أحمــد الله فــلا نــد لــه بــيديه الخــير مــا شــاء فعــل
مــن هــداه سـبل الخـير اهــتدى ناعــم البال ومــن شــاء أضل

قال الفراء: أهل الحجاز يقولون فتنت الرجل، وأهل نجد يقولون أفتنته.

الثالثة : روي عن الحسن أنه قرأ: "إلا من هو صالُ الجحيم" بضم اللام. النحاس: وجماعة أهل التفسير يقولون إنه لحن؛ لأنه لا يجوز هذا قاض المدينة. ومن أحسن ما قيل فيه ما سمعت علي بن سليمان يقولـه؛ قال: هو محمول على المعنى؛ لأن معنى. "من" جماعة؛ فالتقدير صالون، فحذفت النون للإضافة، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين. وقيل: أصلـه فاعل إلا أنه قلب من صال إلى صايل وحذفت الياء وبقيت اللام مضمومة فهو مثل ﴿ شفا جرف هار ﴾ (التوبة: ١٠٩). ووجه ثالث أن تحذف لام "صال" تخفيفا وتجري الإعراب على عينه، كما حذف من قولـهم: ما باليت به بالة. وأصلـها بالية من بالي كعافية من عافي؛ ونظيره قراءة من قرأ، ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ (الرحمن: ٥٤) ﴿ ولـه الجوار المنشآت ﴾ (الرحمن: ٢٤) أجرى الإعراب على العين. والأصل في قراءة الجماعة صالي بالياء فحذفها الكاتب من الخط لسقوطها في اللفظ.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

هذا من قول الملائكة تعظيما لله عز وجل، وإنكارا منهم عبادة من عبدهم. ﴿ وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون ﴾ قال مقاتل: هذه الثلاث الآيات نزلت ورسول الله ﷺ عند سدرة المنتهى، فتأخر جبريل، فقال النبي ﷺ: (أهنا تفارقني) فقال ما أستطيع أن أتقدم عن مكاني. وأنزل الله تعالى حكاية عن قول الملائكة: "وما منا إلا لـه مقام معلوم" الآيات. والتقدير عند الكوفيين: وما منا إلا من لـه مقام معلوم. فحذف الموصول. وتقديره عند البصريين: وما منا ملك إلا لـه مقام

معلوم؛ أي مكان معلوم في العبادة؛ قالـه ابن مسعود وابن جبير. وقال ابن عباس: ما في السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلي ويسبح. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: (ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم). وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: (إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لـها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله لوددت أني كنت شجرة تعضد)[1] خرجه أبو عيسى الترمذي وقال فيه حديث حسن غريب. ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال: لوددت أني كنت شجرة تعضد. ويروى عن أبي ذر موقوفا. وقال قتادة: كان يصلي الرجال والنساء جميعا حتى نزلت هذه الآية: "وما منا إلا لـه مقام معلوم". قال: فتقدم الرجال وتأخر النساء. "وإنا لنحن الصافون" قال الكلبي: صفوفهم كصفوف أهل الدنيا في الأرض. وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد؛ فقال: (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها) فقلنا يا رسول الله كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال؟ (يتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف)[2] وكان عمر يقول إذا قام للصلاة: أقيموا صفوفكم واستووا إنما يريد الله بكم هدي الملائكة عند ربها ويقرأ: "وإنا لنحن الصافون" تأخر يا فلان تقدم يا فلان؛ ثم يتقدم فيكبر. وقد مضى في سورة (الحجر) بيانه. وقال أبو مالك: كان الناس يصلون متبددين فأنزل الله تعالى: "وإنا لنحن الصافون" فأمرهم النبي ﷺ أن يصطفوا. وقال الشعبي: جاء جبريل أو ملك إلى النبي ﷺ فقال: تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه؛ إن الملائكة لتصلي وتسبح ما في السماء ملك فارغ. وقيل: أي لنحن الصافون أجنحتنا في الـهواء وقوفا ننتظر ما نؤمر به. وقيل: أي نحن الصافون حول العرش. "وإنا لنحن المسبحون" أي المصلون؛ قاله قتادة. وقيل: أي المنزهون الله عما أضافه إليه المشركون. والمراد أنهم يخبرون أنهم يعبدون الله بالتسبيح والصلاة وليسوا معبودين ولا بنات الله. وقيل: "وما منا إلا لـه مقام معلوم" من قول الرسول ﷺ والمؤمنين للمشركين؛ أي لكل واحد منا ومنكم في الآخرة مقام معلوم وهو مقام الحساب. وقيل: أي منا من لـه مقام الخوف، ومنا من لـه مقام الرجاء، ومنا من لـه مقام الإخلاص، ومنا من لـه مقام الشكر. إلى غيرها من المقامات.

قلت: والأظهر أن ذلك راجع إلى قول الملائكة: "وما منا إلا لـه مقام معلوم" والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

عاد إلى الإخبار عن قول المشركين، أي كانوا قبل بعثة محمد ﷺ إذا عيروا بالجهل قالوا: ﴿ لو أن عندنا ذكرا من الأولين ﴾ أي لو بعث إلينا نبي ببيان الشرائع لاتبعناه. ولما خففت "إن" دخلت على الفعل ولزمتها اللام فرقا بين النفي والإيجاب. والكوفيون يقولون: "إن" بمعنى ما واللام بمعنى إلا.

(١) "حسن" انظر صحيح الجامع (٢٤٤٩).
(٢) أخرجه مسلم (٤٣٠).

وقيل: معنى "لو أن عندنا ذكرا" أي كتابا من كتب الأنبياء. ﴿ لكنا عباد الله المخلصين ﴾ أي لو جاءنا ذكر كما جاء الأولين لأخلصنا العبادة لله. ﴿ فكفروا به ﴾ أي بالذكر. والفراء يقدره على حذف، أي فجاءهم محمد ﷺ بالذكر فكفروا به. وهذا تعجيب منهم، أي فقد جاءهم نبي وأنزل عليهم كتاب فيه بيان ما يحتاجون إليه فكفروا وما وفوا بما قالوا. ﴿ فسوف يعلمون ﴾ قال الزجاج: يعلمون مغبة كفرهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ قال الفراء: أي بالسعادة. وقيل: أراد بالكلمة قوله عز وجل: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ (المجادلة: ٢١) قال الحسن: لم يقتل من أصحاب الشرائع قط أحد ﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ أي سبق الوعد بنصرهم بالحجة والغلبة. ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ على المعنى ولو كان على اللفظ لكان هو الغالب مثل ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ (ص: ١١). وقال الشيباني: جاء ها هنا على الجمع من أجل أنه رأس آية.

قوله تعالى: ﴿ فتول عنهم ﴾ أي أعرض عنهم. ﴿ حتى حين ﴾ قال قتادة: إلى الموت. وقال الزجاج: إلى الوقت الذي أمهلوا إليه. وقال ابن عباس: يعني القتل ببدر. وقيل: يعني فتح مكة. وقيل: الآية منسوخة بآية السيف. ﴿ وأبصرهم فسوف يبصرون ﴾ قال قتادة: سوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار. وعسى من الله للوجوب وعبر بالإبصار عن تقريب الأمر؛ أي عن قريب يبصرون. وقيل: المعنى فسوف يبصرون العذاب يوم القيامة. ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم متى هذا العذاب؛ أي لا تستعجلوه فإنه واقع بكم.

قوله تعالى: ﴿ فإذا نزل بساحتهم ﴾ أي العذاب. قال الزجاج: وكان عذاب هؤلاء بالقتل. ومعنى "بساحتهم" أي بدارهم؛ عن السدي وغيره. والساحة والسحسة في اللغة فناء الدار الواسع. الفراء: ﴿ نزل بساحتهم ﴾ ونزل بهم سواء. ﴿ فساء صباح المنذرين ﴾ أي بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب. وفيه إضمار أي فساء الصباح صباحهم. وخص الصباح بالذكر؛ لأن العذاب كان يأتيهم فيه. ومنه الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه قال: لما أتى رسول الله ﷺ خيبر، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي، فقالوا: محمد والخميس، ورجعوا إلى حصنهم؛ فقال ﷺ: (الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)[1] وهو يبين معنى: ﴿ فإذا نزل بساحتهم ﴾ يريد: النبي ﷺ ﴿ وتول عنهم حتى حين ﴾ كرر تأكيدا. وكذا ﴿ وأبصر فسوف يبصرون ﴾ تأكيداً أيضاً.

---

(١) أخرجه البخاري في "المغازي"، (٤١٩٧).

قوله تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٨٢ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ سبحان ربك ﴾ نزه سبحانه نفسه عما أضاف إليه المشركون. ﴿ رب العزة ﴾ على البدل. ويجوز النصب على المدح، والرفع بمعنى هو رب العزة. ﴿ عما يصفون ﴾ أي من الصاحبة والولد. وسئل رسول الله ﷺ عن معنى "سبحان الله" فقال: (هو تنزيه الله عن كل سوء)[١] وقد مضى في "البقرة" مستوفى.

الثانية: سئل محمد بن سحنون عن معنى "رب العزة" لم جاز ذلك والعزة من صفات الذات، ولا يقال رب القدرة ونحوها من صفات ذاته جل وعز؟ فقال: العزة تكون صفة ذات وصفة فعل، فصفة الذات نحو قوله: "فلله العزة جميعا" وصفه الفعل نحو قوله: "رب العزة" والمعنى رب العزة التي يتعاز بها الخلق فيما بينهم فهي من خلق الله عز وجل. قال: وقد جاء في التفسير إن العزة ها هنا يراد بها الملائكة. قال: وقال بعض علمائنا: من حلف بعزة الله فإن أراد عزته التي هي صفته فحنث فعليه الكفارة، وإن أراد التي جعلها الله بين عباده فلا كفارة عليه. الماوردي: "رب العزة" يحتمل وجهين: أحدهما مالك العزة، والثاني رب كل شيء متعزز من ملك أو متجبر.

قلت: وعلى الوجهين فلا كفارة إذا نواها الحالف.

الثالثة: روي من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ كان يقول قبل أن يسلم: "سبحان ربك رب العزة" إلى آخر السورة؛ ذكره الثعلبي.

قلت: قرأت على الشيخ الإمام المحدث الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد بن محمد بن عمروك البكري بالجزيرة قبالة المنصورة من الديار المصرية، قال أخبرتنا الحرة أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشعري بنيسابور في المرة الأولى، أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن أبي بكر القارئ، قال حدثنا أبو الحسن عبد القادر بن محمد الفارسي، قال حدثنا أبو سهل بشر بن أحمد الإسفرايني، قال حدثنا أبو سليمان داود بن الحسين البيهقي، قال حدثنا أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري، قال حدثنا هشيم عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين ﴾[٢]. قال الماوردي: روى الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: (من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: "سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين")[٣]. ذكره الثعلبي من حديث علي ﷺ مرفوعاً.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه، ورده الذهبي بقوله: بل لم يصح، فإن طلحة منكر الحديث. قاله البخاري وحفص: واهي الحديث، وعبد الرحمن قال أبو حاتم: منكر الحديث.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٥) وضعف إسناده.

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٥) بسند منقطع.

الرابعة : قولـه تعالى: "وسلام على المرسلين" أى الذين بلغوا عن الله تعالى التوحيد والرسالة. وقال أنس قال النبي ﷺ : (إذا سلمتم علي فسلموا على المرسلين فإنما أنا رسول من المرسلين) وقيل: معنى "وسلام على المرسلين" أي أمن لـهم من الله جل وعز يوم الفزع الأكبر. "والحمد لله رب العالمين" أي على إرسال المرسلين مبشرين ومنذرين. وقيل: أي على جميع ما أنعم الله به على الخلق أجمعين. وقيل: أي على هلاك المشركين؛ دليلـه: ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ (الأنعام: ٤٥).

قلت: والكل مراد والحمد يعم. ومعنى "يصفون" يكذبون، والتقدير عما يصفون من الكذب.

تم تفسير سورة الصافات.

سورة ص

مقدمة السورة:

مكية وآياتها ٨٨ نزلت بعد القمر وهي مكية في قول الجميع، وهي ست وثمانون آية. وقيل ثمان وثمانون آية.

قوله تعالى: ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ص ﴾ قراءة العامة "ص" بجزم الدال على الوقف؛ لأنه حرف من حروف الـهجاء مثل: "الم" و"المر". وقرأ أبي بن كعب والحسن وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم "صاد" بكسر الدال بغير تنوين. ولقراءته مذهبان: أحدهما أنه من صادى يصادي إذا عارض، ومنه ﴿ فأنت لـه تصدى ﴾ (عبس: ٦) أي تعرض. والمصاداة المعارضة، ومنه الصدى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية. فالمعنى صاد القرآن بعملك؛ أي عارضه بعملك وقابلـه به، فاعمل بأوامره، وانته عن نواهيه. النحاس: وهذا المذهب يروى عن الحسن أنه فسر به قراءته رواية صحيحة. وعنه أن المعنى اتلـه وتعرض لقراءته. والمذهب الآخر أن تكون الدال مكسورة لالتقاء الساكنين. وقرأ عيسى ابن عمر "صاد" بفتح الدال مثلـه: "قاف" و"نون" بفتح آخرها. ولـه في ذلك ثلاثة مذاهب: أحدهن أن يكون بمعنى اتل. والثاني أن يكون فتح لالتقاء الساكنين واختار الفتح للإتباع؛ ولأنه أخف الحركات. والثالث أن يكون منصوبا على القسم بغير حرف؛ كقولك: الله لأفعلن، وقيل: نصب على الإغراء. وقيل: معناه صاد محمد قلوب الخلق واستمالـها حتى آمنوا به. وقرأ ابن أبي إسحاق أيضا "صاد" بكسر الدال والتنوين على أن يكون مخفوضا على حذف حرف القسم، وهذا بعيد وإن كان سيبويه قد أجاز مثلـه. ويجوز أن يكون مشبها بما لا يتمكن من الأصوات وغيرها. وقرأ هارون الأعور ومحمد بن السميقع: "صاد" و"قاف" و"نون" بضم آخرهن؛ لأنه المعروف بالبناء في غالب الحال، نحو منذ وقط وقبل وبعد. و"ص" إذا جعلته اسما للسورة لم ينصرف؛ كما أنك إذا سميت مؤنثا بمذكر لا ينصرف وإن قلت حروفه. وقال ابن عباس وجابر بن عبد الله وقد سئلا عن "ص" فقالا: لا ندري ما هي. وقال عكرمة: سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن "ص" فقال: "ص" كان بحرا بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار. وقال سعيد بن جبير: "ص" بحر يحيي الله به الموتى بين النفختين. وقال الضحاك: معناه صدق الله. وعنه أن "ص" قسم أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى. وقالـه السدي، وروي عن ابن عباس. وقال محمد بن كعب: هو مفتاح أسماء الله تعالى صمد وصانع المصنوعات وصادق الوعد. وقال قتادة: هو اسم من أسماء الرحمن. وعنه أنه اسم من أسماء القرآن. وقال مجاهد: هو فاتحة السورة. وقيل: هو مما استأثر الله تعالى بعلمه وهو معنى القول الأول. وقد تقدم جميع هذا في "البقرة".

قولـه تعالى: ﴿ والقرآن ﴾ خفض بواو القسم والواو بدل من الباء؛ أقسم بالقرآن تنبيها على جلالة قدره؛ فإن فيه بيان كل شيء، وشفاء لما في الصدور، ومعجزة للنبي ﷺ. ﴿ ذي الذكر ﴾ خفض على النعت وعلامة خفضه الياء، وهو اسم معتل والأصل فيه ذوى على فعل. قال ابن عباس: ومقاتل معنى "ذي الذكر" ذي البيان. الضحاك: ذي الشرف أي من آمن به كان شرفا لـه في الدارين؛ كما قال تعالى: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ﴾ (الأنبياء: ١٠) أي شرفكم. وأيضا القرآن شريف في نفسه لإعجازه واشتمالـه على ما لا يشتمل عليه غيره. وقيل: "ذي الذكر" أي فيه ذكر ما يحتاج إليه من أمر الدين. وقيل: "ذي الذكر" أي فيه ذكر أسماء الله وتمجيده. وقيل: أي ذي الموعظة والذكر. وجواب القسم محذوف. واختلف فيه على أوجه: فقيل جواب القسم "ص"؛ لأن معناه حق فهي جواب لقولـه: "والقرآن" كما تقول: حقا والله، نزل والله، وجب والله؛ فيكون الوقف من هذا الوجه على قولـه: "والقرآن ذي الذكر" حسنا، وعلى "في عزة وشقاق" تماما. قالـه ابن الأنباري. وحكى معناه الثعلبي عن الفراء. وقيل: الجواب "بل الذين كفروا في عزة وشقاق" لأن "بل" نفي لأمر سبق وإثبات لغيره؛ قالـه القتبي؛ فكأنه قال: "والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق" عن قبول الحق وعداوة لمحمد ﷺ. أو "والقرآن ذي الذكر" ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب؛ لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة بل هم في تكبر عن قبول الحق. وهـو كقولـه: ﴿ ق والقرآن المجيد. بل عجبوا ﴾ (ق: ١-٢). وقيل: الجواب ﴿ وكم أهلكنا ﴾ (ق: ٣٦) كأنه قال: والقرآن لكم أهلكنا؛ فلما تأخرت "كم" حذفت اللام منها؛ كقولـه تعالى: ﴿ والشمس وضحاها ﴾ (الشمس: ١) ثم قال: ﴿ قد أفلح ﴾ (الشمس: ٩) أي لقد أفلح. قال المهدوي: وهذا مذهب الفراء. ابن الأنباري: فمن هذا الوجه لا يتم الوقف على قولـه: "في عزة وشقاق". وقال الأخفش: جواب القسم "إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب" ونحو منه قولـه تعالى: ﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين ﴾ (الشعراء: ٩٧) وقولـه: ﴿ والسماء والطارق ﴾ إلى قولـه ﴿ إن كل نفس ﴾ (الطارق: ١ ـ ٤). ابن الأنباري: وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما وكثرت الآيات والقصص. وقال الكسائي: جواب القسم قولـه: ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ (ص: ٦٤). ابن الأنباري: وهذا أقبح من الأول؛ لأن الكلام أشد طولا فيما بين القسم وجوابه. وقيل الجواب قولـه: ﴿ إن هذا لرزقنا ما لـه من نفاد ﴾ (ص: ٥٤). وقال قتادة: الجواب محذوف تقديره "والقرآن ذي الذكر" لتبعثن ونحوه.

قولـه تعالى: ﴿ بل الذين كفروا في عزة ﴾ أي تكـبر وامتناع من قبول الحق؛ كما قال جل وعز: ﴿ وإذا قيل لـه اتق الله أخذته العزة بالإثم ﴾ (البقرة: ٢٠٦) والعزة عند العرب: الغلبة والقهر. يقال: من عز بز؛ يعني من غلب سلب. ومنه: ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ (ص: ٢٣) أراد غلبني. وقال جرير:

يعـز علـى الـطريق بمنـكبيه كما ابترك الخليع على القداح

أراد يغلب. ﴿ وشقاق ﴾ أي في إظهار خلاف ومباينة. وهو من الشق كأن هذا في شق وذلك في شق. وقد مضى في "البقرة" مستوفى.

قولـه تعالى: ﴿ كم أهلكنا من قبلـهم من قرن ﴾ أي قوم كانوا أمنع من هؤلاء. و"كم" لفظة التكثير "فنادوا" أي بالاستغاثة والتوبة. والنداء رفع الصوت؛ ومنه الخبر: (ألقه على بلال فإنه أندى منك صوتا)[1] أي أرفع. ﴿ ولات حين مناص ﴾ قال الحسن: نادوا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل. النحاس: وهذا تفسير منه لقولـه عز وجل: "ولات حين مناص" فأما إسرائيل فروى عن أبي إسحاق عن التميمي عن ابن عباس: "ولات حين مناص" قال: ليس بحين نزو ولا فرار؛ قال: ضبط القوم جميعا. قال الكلبي: كانوا إذا قاتلوا فاضطروا قال بعضهم لبعض مناص؛ أي عليكم بالفرار والـهزيمة، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص؛ فقال الله عز وجل: "ولات حين مناص" قال القشيري: وعلى هذا فالتقدير: فنادوا مناص فحذف لدلالة بقية الكلام عليه؛ أي ليس الوقت وقت ما تنادون به. وفي هذا نوع تحكم؛ إذ يبعد أن يقال: كل من هلك من القرون كانوا يقولون مناص عند الاضطرار. وقيل: المعنى "ولات حين مناص" أي لا خلاص وهو نصب بوقوع لا عليه. قال القشيري: وفيه نظر لأنه لا معنى على هذا للواو في "ولات حين مناص" وقال الجرجاني: أي فنادوا حين لا مناص؛ أي ساعة لا منجى ولا فوت. فلما قدم "لا" وأخر "حين" اقتضى ذلك الواو، كما يقتضي الحال إذا جعل ابتداء وخبرا؛ مثل قولك: جاء زيد راكبا؛ فإذا جعلته مبتدأ وخبر اقتضى الواو مثل جاءني زيد وهو راكب، فحين ظرف لقولـه: "فنادوا". والمناص بمعنى التأخر والفرار والخلاص؛ أي نادوا لطلب الخلاص في وقت لا يكون لـهم فيه خلاص. قال الفراء:

أمن ذكر ليلى إذ نأتك تنوص

يقال: ناص عن قرنه ينوص نوصا ومناصا أي فر وزاغ. النحاس: ويقال: ناص ينوص إذا تقدم.

قلت: فعلى هذا يكون من الأضداد، والنوص الحمار الوحشي. واستناص أي تأخر؛ قالـه الجوهري. وتكلم النحويون في "ولات حين" وفي الوقف عليه، وكثر فيه أبو عبيدة القاسم بن سلام في كتاب القراءات وكل ما جاء به إلا يسيرا مردود. فقال سيبويه: "لات" مشبهة بليس والاسم فيها مضمر؛ أي ليست أحياننا حين مناص. وحكي أن من العرب من يرفع بها فيقول: ولات حين مناص. وحكي أن الرفع قليل ويكون الخبر محذوفا كما كان الاسم محذوفا في النصب؛ أي ولات حين مناص لنا. والوقف عليها عند سيبويه والفراء "ولات" بالتاء ثم تبتدئ "حين مناص" هو قول ابن كيسان والزجاج. قال أبو الحسن بن كيسان: والقول كما قال سيبويه؛ لأنه شبهها بليس فكما يقال ليست يقال لات. والوقوف عليها عند الكسائي بالـهاء ولاه. وهو قول المبرد محمد بن يزيد. وحكى عنه علي بن سليمان أن الحجة في ذلك أنها دخلت عليها الـهاء لتأنيث الكلمة، كما يقال ثُمه وربُه. وقال القشيري: وقد يقال ثُمت بمعنى ثُم، وربت بمعنى رب؛ فكأنهم زادوا في لا هاء فقالوا لاه، كما قالوا في ثم ثمه ثم عند الوصل صارت تاء. وقال الثعلبي: وقال أهل اللغة: و"لات حين" مفتوحتان كأنهما كلمة واحدة، وإنما هي "لا" زيدت فيها التاء نحو رب وربت، وثم وثمت. قال أبو زبيد الطائي:

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن ليس حين بقاء

---

(١) صحيح، أخرجه أبو داود (٤٩٩)، والترمذي (١٨٩)، وقال: "حسن صحيح".

وقال آخر :

تذكـــر حب ليلى لات حينا وأمسى الشيب قد قطع القرينا

ومن العرب من يخفض بها ؛ وأنشد الفراء :

فلتعرفــن خلائقا مشمولة ولتندمن ولات ساعة مندم

وكان الكسائي والفراء والخليل وسيبويه والأخفش يذهبون إلى أن "ولات حين" التاء منقطعة من حين، ويقولون معناها وليست. وكذلك هو في المصاحف الجدد والعتق بقطع التاء من حين. وإلى هذا كان يذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: الوقف عندي على هذا الحرف "ولا" والابتداء "تحين مناص" فتكون التاء مع حين. وقال بعضهم: "لات" ثم يبتدئ فيقول: "حين مناص". قال المهدوي: وذكر أبو عبيد أن التاء في المصحف متصلة بحين وهو غلط عند النحويين، وهو خلاف قول المفسرين. ومن حجة أبي عبيد أن قال: إنا لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان والآن؛ وأنشد لأبي وجزة السعدي :

العاطفون تحين ما من عاطف والمطعمون زمان ابن المطعم

وأنشد لأبي زبيد الطائي :

طلبوا صلحنا ولا تأوان فأجبنا أن ليس حين بقاء

فأدخل التاء في أوان. قال أبو عبيد: ومن إدخالـهم التاء في الآن، حديث ابن عمر وسألـه رجل عن عثمان بن عفان ﷺ، فذكر مناقبه ثم قال: اذهب بها تلان معك. وكذلك قول الشاعر :

نولي قبل نأي داري جمانا وصلينا كما زعمت تلانا

قال أبو عبيد: ثم مع هذا كلـه إني تعمدت النظر في الذي يقال لـه الإمام ـ مصحف عثمان ـ فوجدت التاء متصلة مع حين قد كتبت تحين. قال أبو جعفر النحاس: أما البيت الأول الذي أنشده لأبي وجزة فرواه العلماء باللغة على أربعة أوجه، كلـها على خلاف ما أنشده؛ وفي أحدها تقديران؛ رواه أبو العباس محمد بن يزيد :

العاطفون ولات ما من عاطف

والرواية الثانية :

العاطفون ولات حين تعاطف

والرواية الثالثة رواها ابن كيسان :

العاطفونةَ حين ما من عاطف

جعلها هاء في الوقف وتاء في الإدراج، وزعم أنها لبيان الحركة شبهت بهاء التأنيث. والرواية الرابعة :

العاطفونهُ حين ما من عاطف

وفي هذه الرواية تقديران؛ أحدهما وهو مذهب إسماعيل بن إسحاق أن الـهاء في موضع نصب؛ كما تقول: الضاربون زيدا فإذا كنيت قلت الضاربوه. وأجاز سيبويه في الشعر الضاربونه، فجاء إسماعيل بالتأنيث على مذهب سيبويه في إجازته مثلـه. والتقدير الآخر العاطفون على أن الـهاء لبيان الحركة،

كما تقول: مر بنا المسلمونه في الوقف، ثم أجريت في الوصل مجراها في الوقف؛ كما قرأ أهل المدينة: ﴿ ما أغنى عني ماليه. هلك عني سلطانيه ﴾ (الحاقة: ٢٨-٢٩) وأما البيت الثاني فلا حجة لـه فيه؛ لأنه يوقف عليه: ولات أوان، غير أن فيه شيئا مشكلا؛ لأنه يروى: ولات أوان بالخفض، وإنما يقع ما بعد لات مرفوعا أو منصوبا. وإن كان قد روي عن عيسى بن عمر أنه قرأ "ولات حين مناص" بكسر التاء من لات والنون من حين فإن الثبت عنه أنه قرأ "ولات حين مناص" فبنى "لات" على الكسر ونصب "حين". فأما: ولات أوان ففيه تقديران؛ قال الأخفش: فيه مضمر أي ولات حين أوان. قال النحاس: وهذا القول بين الخطأ. والتقدير الآخر عن أبي إسحاق قال: تقديره ولات أواننا فحذف المضاف إليه فوجب ألا يعرب، وكسره لالتقاء الساكنين. وأنشده محمد بن يزيد ولات أوان بالرفع. وأما البيت الثالث فبيت مولد لا يعرف قائله ولا تصح به حجة. على أن محمد بن يزيد رواه كما زعمت الآن. وقال غيره: المعنى كما زعمت أنت الآن. فأسقط الهمزة من أنت والنون. وأما احتجاجه بحديث ابن عمر، لما ذكر للرجل مناقب عثمان فقال لـه: اذهب بها تلان إلى أصحابك فلا حجة فيه؛ لأن المحدث إنما يروي هذا على المعنى. والدليل على هذا أن مجاهدا يروي عن ابن عمر هذا الحديث وقال فيه: اذهب فاجهد جهدك. ورواه آخر: اذهب بها الآن معك. وأما احتجاجه بأنه وجدها في الإمام "تحين". فلا حجة فيه؛ لأن معنى الإمام أنه إمام المصاحف فإن كان مخالفا لـها فليس بإمام لـها، وفي المصاحف كلـها "ولات" فلو لم يكنَ في هذا إلا هذا الاحتجاج لكان مقنعا. وجمع مناص مناوص.

قوله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ "أن" في موضع نصب والمعنى من أن جاءهم. قيل: هو متصل بقولـه: "في عزة وشقاق" أي في عزة وشقاق وعجبوا، وقولـه: "كم أهلكنا" معترض. وقيل: لا بل هذا ابتداء كلام؛ أي ومن جهلـهم أنهم أظهروا التعجب من أن جاءهم منذر منهم. ﴿ فقال الكافرون هذا ساحر ﴾ أي يجيء بالكلام المموه الذي يخدع به الناس؛ وقيل: يفرق بسحره بين الوالد وولده والرجل وزوجته ﴿ كذاب ﴾ أي في دعوى النبوة.

قولـه تعالى: ﴿ أجعل الآلـهة إلـها واحدا ﴾ مفعولان أي صير الآلـهة إلـها واحدا. ﴿ إن هذا لشيء عجاب ﴾ أي عجيب. وقرأ السلمي: "عجاب" بالتشديد. والعجاب والعجّاب والعجب سواء. وقد فرق الخليل بين عجيب وعجاب فقال: العجيب العجب، والعجاب الذي قد تجاوز حد العجب، والطويل الذي فيه طول، والطوال، الذي قد تجاوز حد الطول. وقال الجوهري: العجيب الأمر الذي يتعجب منه، وكذلك العجاب بالضم، والعجاب بالتشديد أكثر منه، وكذلك الأعجوبة. وقال مقاتل: "عجاب" لغة أزد شنوءة. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه، وجاء النبي ﷺ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعه،

قال: وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا بن أخي ما تريد من قومك؟ فقال: (يا عم إنما أريد منهم كلمة تذل لـهم بها العرب وتؤدي إليهم بها الجزية العجم) فقال: وما هي؟ قال: (لا إلـه إلا الله) قال: فقالوا "أجعل الآلـهة إلـها واحدا" قال: فنزل فيهم القرآن: "ص والقرآن ذي الذكر. بل الذين كفروا في عزة وشقاق" حتى بلغ "إن هذا إلا اختلاق" خرجه الترمذي أيضا بمعناه[1]. وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقيل: لما أسلم عمر بن الخطاب ﷺ شق على قريش إسلامه فاجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا: اقض بيننا وبين ابن أخيك. فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فقال: يا بن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء، فلا تمل كل الميل على قومك. قال: (وماذا يسألونني) قالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلـهتنا وندعك وإلـهك. فقال النبي ﷺ: (أتعطونني كلمة واحدة وتملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم) فقال أبو جهل: لله أبوك لنعطينكها وعشر أمثالـها. فقال النبي ﷺ: (قولوا لا إلـه إلا الله) فنفروا من ذلك وقاموا؛ فقالوا: "أجعل الآلـهة إلـها واحدا" فكيف يسع الخلق كلـهم إلـه واحد. فأنزل الله فيهم هذه الآيات إلى قولـه: ﴿ كذبت قبلـهم قوم نوح ﴾[2](ص: ١٢).

قوله تعالى: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا ﴾ "الملأ" الأشراف، والانطلاق الذهاب بسرعة؛ أي انطلق هؤلاء الكافرون من عند الرسول ﷺ يقول بعضهم لبعض: "أن امشوا" أي امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه. ﴿ واصبروا على آلـهتكم ﴾ وقيل: هو إشارة إلى مشيهم إلى أبي طالب في مرضه كما سبق. وفي رواية محمد بن إسحاق أنهم: أبو جهل بن هشام، وشيبة وعتبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وأبو معيط؛ وجاءوا إلى أبي طالب فقالوا: أنت سيدنا وأنصفنا في أنفسنا، فاكفنا أمر ابن أخيك وسفهاء معه، فقد تركوا آلـهتنا وطعنوا في ديننا؛ فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فقال لـه: إن قومك يدعونك إلى السواء والنصفة. فقال النبي ﷺ: (إنما أدعوهم إلى كلمة واحدة) فقال أبو جهل وعشرا. قال: (تقولون لا إلـه إلا الله) فقاموا وقالوا: "أجعل الآلـهة إلـها واحد" الآيات. "أن امشوا" "أن" في موضع نصب والمعنى بأن امشوا. وقيل: "أن" بمعنى أي؛ أي "وانطلق الملأ منهم" أي امشوا؛ وهذا تفسير انطلاقهم لا أنهم تكلموا بهذا اللفظ. وقيل: المعنى انطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام: ﴿ امشوا واصبروا على آلـهتكم ﴾ أي على عبادة آلـهتكم. ﴿ إن هذا ﴾ أي هذا الذي جاء به محمد ﷺ ﴿ لشيء يراد ﴾ أي يراد بأهل الأرض من

(١) أخرجه الترمذي في "التفسير" (٣٢٣٢)، وأصلـه عند مسلم.
(٢) أخرجه الحاكم في "المستدرك"، وصححه وأقره الذهبي. وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٢٤٦، ٢٤٧).

زوال نعم قوم وغيَر تنزل بهم. وقيل: "إن هذا لشيء يراد" كلمة تحذير؛ أي إنما يريد محمد بما يقول الانقياد لـه ليعلو َعلينا، ونكون لـه أتباعا فيتحكم فينا بما يريد، فاحذروا أن تطيعوه. وقال مقاتل: إن عمر لما أسلم وقوي به الإسلام شق ذلك على قريش فقالوا: إن إسلام عمر في قوة الإسلام لشيء يراد.

قولـه تعالى: ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ قال ابن عباس والقرظي وقتادة ومقاتل والكلبي والسدي: يعنون ملة عيسى النصرانية وهي آخر الملل. والنصارى يجعلون مع الله إلـها. وقال مجاهد وقتادة أيضا: يعنون ملة قريش. وقال الحسن: ما سمعنا أن هذا يكون في آخر الزمان. وقيل: أي ما سمعنا من أهل الكتاب أن محمدا رسول حق. ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ أي كذب وتخرص؛ عن ابن عباس وغيره. يقال: خلق واختلق أي ابتدع. وخلق الله عز وجل الخلق من هذا؛ أي ابتدعهم على غير مثال.

قولـه تعالى: ﴿ أأنْزِلَ عليه الذكر من بيننا ﴾ هو استفهام إنكار، والذكر ها هنا القرآن. أنكروا اختصاصه بالوحي من بَينهم. فقال الله تعالى: ﴿ بل هم في شك من ذكري ﴾ أي من وحيي وهو القرآن. أي قد علموا أنك لم تزل صدوقا فيما بينهم، وإنما شكوا فيما أنزلته عليك هل هو من عندي أم لا. ﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ أي إنما اغتروا بطول الإمهال، ولو ذاقوا عذابي على الشرك لزال عنهم الشـك، ولما قالوا ذلك؛ ولكن لا ينفع الإيمان حينئذ. و"لما" بمعنى لم وما زائدة كقولـه: ﴿عما قليل﴾ (المؤمنون: ٤٠) وقولـه ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم ﴾ (النساء: ١٥٥).

قولـه تعالى: ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ﴾ قيل: أم لـهم هذا فيمنعوا محمدا ﷺ مما أنعم الله عز وجل به عليه من النبوة. و"أم" قد ترد بمعنى التقريع إذا كان الكلام متصلا بكلام قبلـه؛ كقولـه تعالى: ﴿ الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه ﴾ (السجدة: ١-٢) وقـد قيل إن قولـه: "أم عندهم خزائن رحمة ربك" متصل بقوله: ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ (ص: ٤) فالمعنى أن الله عز وجل يرسل من يشاء؛ لأن خزائن السموات والأرض لـه: ﴿ أم لـهم ملك السماوات والأرض وما بينهما ﴾ أي فإن ادعوا ذلك: ﴿ فليرتقوا في الأسباب ﴾.

قولـه تعالى: ﴿ فليرتقوا في الأسباب ﴾ أي فليصعدوا إلى السموات، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحي على محمد. يقال: رقي يرقى وارتقى إذا صعد. ورقى يرقي رقيا مثل رمى يرمي رميا من الرقية. قال الربيع بن أنس: الأسباب أرق من الشعر وأشد من الحديد ولكن لا ترى. والسبب في اللغة كل ما يوصل به إلى المطلوب من حبل أو غيره. وقيل: الأسباب أبواب السموات التي تنزل الملائكة منها؛ قالـه مجاهد وقتادة. قال زهير:

ولو رام أسباب السماء بسلم

وقيل: الأسباب السموات نفسها؛ أي فليصعدوا سماء سماء. وقال السدي: "في الأسباب" في الفضل والدين. وقيل: أي فليعلوا في أسباب القوة إن ظنوا أنها مانعة. وهو معنى قول أبي عبيدة. وقيل: الأسباب الحبال؛ يعني إن وجدوا حبلا أو سببا يصعدون فيه إلى السماء فليرتقوا؛ وهذا أمر توبيخ وتعجيز. ثم وعد نبيّه ﷺ النصر عليهم فقال: "جند ما هنالك" "ما" صلة وتقديره هم جند،

فـ "جند" خبر ابتداء محذوف. ﴿ مهزوم ﴾ أي مقموع ذليل قد انقطعت حجتهم؛ لأنهم لا يصلون إلى أن يقولوا هذا لنا. ويقال: تهزمت القربة إذا انكسرت، وهزمت الجيش كسرته. والكلام مرتبط بما قبل؛ أي: "بل الذين كفروا في عزة وشقاق" وهم جند من الأحزاب مهزومون، فلا تغمك عزتهم وشقاقهم، فإني أهزم جمعهم وأسلب عزهم. وهذا تأنيس للنبي ﷺ؛ وقد فعل بهم هذا في يوم بدر. قال قتادة: وعد الله أنه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلها يوم بدر. و"هنالك" إشارة لبدر وهو موضع تحزبهم لقتال محمد ﷺ. وقيل: المراد بالأحزاب الذين أتوا المدينة وتحزبوا على النبي ﷺ. وقد مضى ذلك في "الأحزاب". والأحزاب الجند، كما يقال: جند من قبائل شتى. وقيل: أراد بالأحزاب القرون الماضية من الكفار. أي هؤلاء جند على طريقة أولئك كقوله تعالى: ﴿ فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني ﴾ (البقرة: ٢٤٩) أي على ديني ومذهبي. وقال الفراء: المعنى هم جند مغلوب؛ أي ممنوع عن أن يصعد إلى السماء. وقال القتبي: يعني أنهم جند لهذه الآلهة مهزوم، فهم لا يقدرون على أن يدعوا لشيء من آلهتهم، ولا لأنفسهم شيئا من خزائن رحمة الله، ولا من ملك السموات والأرض.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ ذكرها تعزية للنبي ﷺ وتسلية له؛ أي هؤلاء من قومك يا محمد جند من الأحزاب المتقدمين الذين تحزبوا على أنبيائهم، وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأهلكوا. وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث، واختلف أهل العربية في ذلك على قولين: أحدهما: أنه قد يجوز فيه التذكير والتأنيث. الثاني: أنه مذكر اللفظ لا يجوز تأنيثه، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة، فيغلب في اللفظ حكم المعنى المضمر تنبيها عليه؛ كقوله تعالى: ﴿ كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره ﴾ (المدثر: ٥٥) ولم يقل ذكرها؛ لأنه لما كان المضمر فيه مذكرا ذكره؛ وإن كان اللفظ مقتضيا للتأنيث. ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد. وقد اختلف في تأويل ذلك؛ فقال ابن عباس: المعنى ذو البناء المحكم. وقال الضحاك: كان كثير البنيان، والبنيان يسمى أوتادا. وعن ابن عباس أيضا وقتادة وعطاء: أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يلعب له عليها. وعن الضحاك أيضا: ذو القوة والبطش. وقال الكلبي ومقاتل: كان يعذب الناس بالأوتاد، وكان إذا غضب على أحد مده مستلقيا بين أربعة أوتاد في الأرض، ويرسل عليه العقارب والحيات حتى يموت. وقيل: كان يشبح المعذب بين أربع سوار؛ كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد ويتركه حتى يموت. وقيل: ذو الأوتاد أي ذو الجنود الكثيرة فسميت الجنود أوتادا؛ لأنهم يقوون أمره كما يقوي الوتد البيت. وقال ابن قتيبة: العرب تقول هم في عز ثابت الأوتاد، يريدون دائما شديدا. وأصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد. وقال الأسود بن يعفر:

ولقد غَنَوا فيها بأنعم عيشةٍ ... في ظل ملك ثابت الأوتاد

وواحد الأوتاد وتد بالكسر، وبالفتح لغة. وقال الأصمعي: يقال وتد واتد كما يقال: شغل شاغل. وأنشد (الشاعر أبو محمد الفقعسي):

لاقت على الماء جذيلا واتدا ولم يكن يخلفها المواعدا

قال: شبه الرجل بالجذل. ﴿ وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة ﴾ أي الغيضة. وقد مضى ذكرها في (الشعراء) وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر: "ليكة" بفتح اللام والتاء من غير همز. وهمز الباقون وكسروا التاء. وقد تقدم هذا. ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ أي هم الموصوفون بالقوة والكثرة؛ كقولك فلان هو الرجل. ﴿ إن كل ﴾ بمعنى ما كل. ﴿ إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ أي فنزل بهم العذاب لذلك التكذيب. وأثبت يعقوب الياء في "عذابي" و"عقابي" في الحالين وحذفها الباقون في الحالين. ونظير هذه الآية قوله عز وجل: ﴿ قال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود ﴾ (غافر: ٣١) فسمى هذه الأمم أحزابا.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ﴾ "ينظر" بمعنى ينتظر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ (الحديد: ١٣) "هؤلاء" يعني كفار مكة. "إلا صيحة واحدة" أي نفخة القيامة. أي ما ينتظرون بعدما أصيبوا ببدر إلا صيحة القيامة. وقيل: ما ينتظر أحياؤهم الآن إلا الصيحة التي هي النفخة في الصور، كما قال تعالى: ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون. فلا يستطيعون توصية ﴾ (يس: ٤٩-٥٠) وهذا إخبار عن قرب القيامة والموت. وقيل: أي ما ينتظر كفار آخر هذه الأمة المتدينين بدين أولئك إلا صيحة واحدة وهي النفخة. وقال عبد الله بن عمرو: لم تكن صيحة في السماء إلا بغضب من الله عز وجل على أهل الأرض. ﴿ ما لها من فواق ﴾ أي من ترداد؛ عن ابن عباس. مجاهد: ما لها رجوع. قتادة: ما لها من مثنوية. السدي: ما لها من إفاقة. وقرأ حمزة والكسائي: "ما لها من فواق" بضم الفاء. الباقون بالفتح. الجوهري: والفَواق والفُواق ما بين الحلبتين من الوقت؛ لأنها تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدر ثم تحلب. يقال: ما أقام عنده إلا فواقا؛ وفي الحديث: (العيادة قدر فواق الناقة)[1]. وقوله تعالى: "ما لها من فواق" يقرأ بالفتح والضم أي ما لها من نظرة وراحة وإفاقة. والفيقة بالكسر اسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين: صارت الواو ياء لكسر ما قبلها؛ قال الأعشى يصف بقرة:

حتى إذا فيقة في ضرعها اجتمعت جاءت لترضع شق النفس لو رضعا

والجمع فيق ثم أفواق مثل شبر وأشبار ثم أفاويق. قال ابن همام السلولي:

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ما يدر لها ثعل

والأفاويق أيضا ما اجتمع في السحاب من ماء، فهو يمطر ساعة بعد ساعة. وأفاقت الناقة إفاقة أي اجتمعت الفيقة في ضرعها؛ فهي مفيق ومفيقة ـ عن أبي عمرو ـ والجمع مفاويق. وقال الفراء وأبو

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٣٨٩٩).

عبيدة وغيرهما: "من فواق" بفتح الفاء أي راحة لا يفيقون فيها، كما يفيق المريض والمغشي عليه. و"من فواق" بضم الفاء من انتظار. وقد تقدم أنهما بمعنى وهو ما بين الحلبتين.

قلت: والمعنى المراد أنها ممتدة لا تقطيع فيها. وروى أبو هريرة قال: حدثنا رسول الله ﷺ ونحن في طائفة من أصحابه... الحديث. وفيه: (يأمر الله عز وجل إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول انفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ويأمره فيمدها ويديمها ويطولها يقول الله عز وجل: "ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) وذكر الحديث، خرجه علي بن معبد وغيره كما ذكرناه في كتاب التذكرة.

قوله تعالى: ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا ﴾ قال مجاهد: عذابنا. وكذا قال قتادة: نصيبنا من العذاب. الحسن: نصيبنا من الجنة لنتنعم به في الدنيا. وقاله سعيد بن جبير. ومعروف في اللغة أن يقال للنصيب قط وللكتاب المكتوب بالجائزة قط. قال الفراء: القط في كلام العرب الحظ والنصيب. ومنه قيل للصك قط. وقال أبو عبيدة والكسائي: القط الكتاب بالجوائز والجمع القطوط؛ قال الأعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته بغبطته يعطي القطوط ويأفق

يعني كتب الجوائز. ويروى: بأمته بدل بغبطته، أي بنعمته وحاله الجليلة، ويأفق يصلح. ويقال: في جمع قط أيضا قططة وفي القليل أقط وأقطاط. ذكره النحاس. وقال السدي: سألوا أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به. وقال إسماعيل بن أبي خالد: المعنى عجل لنا أرزاقنا. وقيل: معناه عجل لنا ما يكفينا؛ من قولهم: قطني؛ أي يكفيني. وقيل: إنهم قالوا ذلك استعجالا لكتبهم التي يعطونها بأيمانهم وشمائلهم حين تلي عليهم بذلك القرآن. وهو قوله تعالى: ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴾ (الحاقة: ١٩). ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ (الانشقاق: ١٠). وأصل القط القط وهو القطع، ومنه قط القلم؛ فالقط اسم للقطعة من الشيء كالقسم والقسم فأطلق على النصيب والكتاب والرزق لقطعه عن غيره، إلا أنه في الكتاب أكثر استعمالا وأقوى حقيقة. قال أمية بن أبي الصلت:

قوم لهم ساحة العراق وما يجبى إليه والقط والقلم

﴿ قبل يوم الحساب ﴾ أي قبل يوم القيامة في الدنيا إن كان الأمر كما يقول محمد. وكل هذا استهزاء منهم.

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ أمر نبيه ﷺ بالصبر لما استهزؤوا به. وهذه منسوخة بآية السيف. قوله تعالى: ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ لما ذكر من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذاهم، وسلاه بكل ما تقدم ذكره. ثم أخذ في ذكر داود وقصص الأنبياء؛ ليتسلى بصبر من صبر منهم؛ وليعلم أن له في الآخرة أضعاف ما أعطيه داود وغيره من الأنبياء. وقيل: المعنى اصبر على قولهم، واذكر لهم أقاصيص

الأنبياء؛ لتكون برهانا على صحة نبوتك. وقوله: "عبدنا" إظهارا لشرفه بهذه الإضافة "ذا الأيد" ذا القوة في العبادة. وكان يصوم يوما ويفطر يوما وذلك أشد الصوم وأفضله؛ وكان يصلي نصف الليل، وكان لا يفر إذا لاقى العدو، وكان قويا في الدعاء إلى الله تعالى. ويقال: الأيد والآد كما تقول العيب والعاب. قال العجاج:

لم يك ينآد فأمسى أنآدا

ومنه رجل أيد أي قوي. وتأيد الشيء تقوى، قال الشاعر:

إذا القوس وترها أيد رمى فأصاب الكُلى والذُّرا

يقول: إذا الله وتر القوس التي في السحاب رمى كلى الإبل وأسنمتها بالشحم. يعني من النبات الذي يكون من المطر. ﴿إنه أواب﴾ قال الضحاك: أي تواب. وعن غيره: أنه كلما ذكر ذنبه أو خطر على باله استغفر منه؛ كما قال النبي ﷺ: (إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة)[1]. ويقال آب يؤوب إذا رجع؛ كما قال:

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

فكان داود رجاعا إلى طاعة الله ورضاه في كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن﴾ "يسبحن" في موضع نصب على الحال. ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة وهو تسبيح الجبال معه. قال مقاتل: كان داود إذا ذكر الله جل وعز ذكرت الجبال معه، وكان يفقه تسبيح الجبال. وقال ابن عباس: "يسبحن" يصلين. وإنما يكون هذا معجزة إذا رآه الناس وعرفوه. وقال محمد بن إسحاق: أوتي داود من حسن الصوت ما يكون له في الجبال دوي حسن، وما تصغي لحسنه الطير وتصوت معه، فهذا تسبيح الجبال والطير. وقيل: سخرها الله عز وجل لتسير معه فذلك تسبيحها؛ لأنها دالة على تنزيه الله عن شبه المخلوقين. وقد مضى القول في هذا في "سبأ" وفي "سبحان" عند قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (الإسراء: ٤٤) وأن ذلك تسبيح مقال على الصحيح من الأقوال. والله أعلم. ﴿بالعشي والإشراق﴾ الإشراق أيضا ابيضاض الشمس بعد طلوعها. يقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت. فكان داود يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها.

الثانية: روي عن ابن عباس أنه قال: كنت أمر بهذه الآية: "بالعشي والإشراق" ولا أدري ما هي، حتى حدثتني أم هانئ أن رسول الله ﷺ دخل عليها، فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلى صلاة الضحى، وقال: (يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق)[2]. وقال عكرمة قال ابن عباس: كان في نفسي شيء من صلاة الضحى حتى وجدتها في القرآن "يسبحن بالعشي والإشراق". قال عكرمة: وكان ابن عباس لا يصلي صلاة الضحى ثم صلاها بعد. وروي أن كعب الأحبار قال لابن عباس: إني أجد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني.

(٢) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٢/ ٢٣٨).

في كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس هي صلاة الأوابين. فقال ابن عباس: وأنا أوجدك في القرآن؛ ذلك في قصة داود: "يسبحن بالعشي والإشراق".

الثالثة : صلاة الضحى نافلة مستحبة، وهي في الغداة بإزاء العصر في العشي، لا ينبغي أن تصلى حتى تبيض الشمس طالعة؛ ويرتفع كدرها؛ وتشرق بنورها؛ كما لا تصلى العصر إذا اصفرت الشمس. وفي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: (صلاة الأوابين حين ترمض الفصال)[1] الفصال والفصلان جمع فصيل، وهو الذي يفطم من الرضاعة من الإبل. والرمضاء شدة الحر في الأرض. وخص الفصال هنا بالذكر؛ لأنها هي التي ترمض قبل انتهاء شدة الحر التي ترمض بها أمهاتها لقلة جلدها، وذلك يكون في الضحى أو بعده بقليل وهو الوقت المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي. ومن الناس من يبادر بها قبل ذلك استعجالا، لأجل شغله فيخسر عمله؛ لأنه يصليها في الوقت المنهي عنه ويأتي بعمل هو عليه لا له.

الرابعة : روى الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : (من صلى الضحى اثنتي عشرة ركعة بنى الله له قصرا من ذهب في الجنة)[2] قال حديث غريب. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: (يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى)[3]. وفي الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : (من حافظ على شفعة الضحى غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر)[4]. وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: (أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر) لفظ البخاري. وقال مسلم: (وركعتي الضحى) وخرجه من حديث أبي الدرداء كما خرجه البخاري من حديث أبي هريرة. وهذا كله يدل على أن أقل الضحى ركعتان وأكثره ثنتا عشرة. والله أعلم. وأصل السلامى (بضم السين) عظام الأصابع والأكف والأرجل، ثم استعمل في سائر عظام الجسد ومفاصله. وروي من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله واستغفر الله وعزل حجرا عن طريق الناس، أو شوكة أو عظما عن طريق الناس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة سلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار) قال أبو توبة: وربما قال: (يمسي) كذا خرجه مسلم. وقوله: (ويجزي من ذلك ركعتان) أي يكفي من هذه الصدقات عن هذه الأعضاء ركعتان. وذلك أن الصلاة عمل بجميع أعضاء الجسد؛ فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته التي عليه في الأصل. والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٨).
(٢) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٥٦٥٨).
(٣) أخرجه مسلم (٧٢٠).
(٤) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٥٥٤٩).

قوله تعالى: ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿والطير محشورة ﴾معطوف على الجبال. قال الفراء: ولو قرئ "والطير محشورة" لجاز؛ لأنه لم يظهر الفعل. قال ابن عباس: كان داود عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبحت معه. فاجتماعها إليه حشرها. فالمعنى وسخرنا الطير مجموعة إليه لتسبح الله معه. وقيل: أي وسخرنا الريح لتحشر الطيور إليه لتسبح معه. أو أمرنا الملائكة تحشر الطيور. ﴿كل له ﴾ أي لداود ﴿أواب ﴾أي مطيع؛ أي تأتيه وتسبح معه. وقيل: الهاء لله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿ وشددنا ملكه ﴾ أي قويناه حتى ثبت. قيل: بالهيبة وإلقاء الرعب منه في القلوب. وقيل: بكثرة الجنود. وقيل: بالتأييد والنصر. وهذا اختيار ابن العربي. فلا ينفع الجيش الكثير التفافه على غير منصور وغير معان. وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان داود أشد ملوك الأرض سلطانا. كان يحرس محرابه كل ليلة نيف وثلاثون ألف رجل فإذا أصبح قيل: ارجعوا فقد رضي عنكم نبي الله. والملك عبارة عن كثرة الملك، فقد يكون للرجل ملك ولكن لا يكون ملكا حتى يكثر ذلك؛ فلو ملك الرجل دارا وامرأة لم يكن ملكا حتى يكون له خادم يكفيه مؤنة التصرف في المنافع التي يفتقر إليها لضرورته الآدمية. وقد مضى هذا المعنى في "براءة" وحقيقة الملك في "النمل" مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وآتيناه الحكمة ﴾أي النبوة؛ قاله السدي. مجاهد: العدل. أبو العالية: العلم بكتاب الله تعالى. قتادة: السنة. شريح: العلم والفقه. ﴿ وفصل الخطاب ﴾ قال أبو عبد الرحمن السلمي وقتادة: يعني الفصل في القضاء. وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل. وقال ابن عباس: بيان الكلام. علي بن أبي طالب: هو البينة على المدعي واليمين على من أنكر. وقاله شريح والشعبي وقتادة أيضا. وقال أبو موسى الأشعري والشعبي أيضا: هو قوله أما بعد، وهو أول من تكلم بها. وقيل: "فصل الخطاب" البيان الفاصل بين الحق والباطل. وقيل: هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل. والمعنى في هذه الأقوال متقارب. وقول علي رضي الله عنه يجمعه؛ لأن مدار الحكم عليه في القضاء ما عدا قول أبي موسى.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربي: فأما علم القضاء فلعمر إلهك إنه لنوع من العلم مجرد، وفصل منه مؤكد، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام؛ ففي الحديث: (أقضاكم علي وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل)[1]. وقد يكون الرجل بصيرا بأحكام الأفعال، عارفا بالحلال والحرام، ولا يقوم بفصل القضاء. يروى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن حفر قوم زبية للأسد؛ فوقع فيها الأسد؛ وازدحم الناس على الزبية فوقع فيها رجل وتعلق بآخر، وتعلق الآخر بآخر، حتى صاروا أربعة، فجرحهم الأسد فيها فهلكوا، وحمل القوم السلاح

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨١) من قول عمر موقوفاً عليه، وفيه: "أقضانا علي..".

وكاد يكون بينهم قتال؛ قال فأتيتهم فقلت: أتقتلون مائتي رجل من أجل أربعة أناس! تعالوا أقض بينكم بقضاء؛ فإن رضيتموه فهو قضاء بينكم، وإن أبيتم رفعتم ذلك إلى رسول الله ﷺ فهو أحق بالقضاء. فجعل للأول ربع الدية، وجعل للثاني ثلث الدية، وجعل للثالث نصف الدية، وجعل للرابع الدية، وجعل الديات على من حفر الزبية على قبائل الأربعة؛ فسخط بعضهم ورضي بعضهم، ثم قدموا على رسول الله ﷺ فقصوا عليه القصة؛ فقال: (أنا أقضي بينكم) فقال قائل: إن عليا قد قضى بيننا. فأخبروه بما قضى علي؛ فقال رسول الله ﷺ: (القضاء كما قضى علي) في رواية: فأمضى رسول الله ﷺ قضاء علي.

وكذلك يروى في المعرفة بالقضاء أن أبا حنيفة جاء إليه رجل فقال: إن ابن أبي ليلى ـ وكان قاضيا بالكوفة ـ جلد امرأة مجنونة قالت لرجل يا ابن الزانيين حدين في المسجد وهي قائمة. فقال: أخطأ من ستة أوجه. قال ابن العربي: وهذا الذي قاله أبو حنيفة بالبديهة لا يدركه أحد بالرؤية إلا العلماء. فأما قضية علي فلا يدركها الشادي، ولا يلحقها بعد التمرن في الأحكام إلا العاكف المتمادي. وتحقيقها أن هؤلاء الأربعة المقتولين خطأ بالتدافع على الحفرة من الحاضرين عليها، فلهم الديات على من حضر على وجه الخطأ، بيد أن الأول مقتول بالمدافعة قاتل ثلاثة بالمجاذبة، فله الدية بما قتل، وعليه ثلاثة أرباع الدية بالثلاثة الذين قتلهم. وأما الثاني فله ثلث الدية وعليه الثلثان بالاثنين اللذين قتلهما بالمجاذبة. وأما الثالث فله نصف الدية وعليه النصف؛ لأنه قتل واحدا بالمجاذبة فوقعت المحاصة وغرمت العواقل هذا التقدير بعد القصاص الجاري فيه. وهذا من بديع الاستنباط. وأما أبو حنيفة فإنه نظر إلى المعاني المتعلقة فرآها ستة: الأول أن المجنون لا حد عليه؛ لأن الجنون يسقط التكليف. وهذا إذا كان القذف في حالة الجنون، وأما إذا كان يجن مرة ويفيق أخرى فإنه يحد بالقذف في حالة إفاقته. والثاني قولها يا ابن الزانيين فجلدها حدين لكل أب حد، فإنما خطأه أبو حنيفة على مذهبه في أن حد القذف يتداخل، لأنه عنده حق لله تعالى كحد الخمر والزنى، وأما الشافعي ومالك فإنهما يريان أن الحد بالقذف حق للآدمي، فيتعدد بتعدد المقذوف. الثالث أنه جلد بغير مطالبة المقذوف، ولا تجوز إقامة حد القذف بإجماع من الأمة إلا بعد المطالبة بإقامته ممن يقول إنه حق لله تعالى، ومن يقول إنه حق الآدمي. وبهذا المعنى وقع الاحتجاج لمن يرى أنه حق للآدمي؛ إذ لو كان حقا لله لما توقف على المطالبة كحد الزنى. الرابع أنه والى بين الحدين، ومن وجب عليه حدان لم يوال بينهما، بل يحد لأحدهما ثم يترك حتى يندمل الضرب، أو يستبل المضروب ثم يقام عليه الحد الآخر. الخامس أنه حدها قائمة، ولا تحد المرأة إلا جالسة مستورة، قال بعض الناس: في زنبيل. السادس أنه أقام الحد في المسجد ولا تقام الحدود فيه إجماعا. وفي القضاء في المسجد والتعزير فيه خلاف. قال القاضي: فهذا هو فصل الخطاب وعلم القضاء، الذي وقعت الإشارة إليه على أحد التأويلات في الحديث المروي (أقضاكم علي). وأما من قال: إنه الإيجاز فذلك للعرب دون العجم، ولمحمد ﷺ دون العرب؛ وقد بين هذا بقوله: (وأوتيت جوامع الكلم)[1]. وأما من قال: إنه قوله أما بعد؛ فكان النبي ﷺ يقول في

(١) أخرجه البخاري وقد تقدم.

خطبته: (أما بعد). ويروى أن أول من قالها في الجاهلية سحبان بن وائل، وهو أول من آمن بالبعث، وأول من توكأ على عصا، وعمر مائة وثمانين سنة. ولو صح أن داود عليه السلام قالها، لم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النظم، وإنما كان بلسانه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ فيه أربع وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ﴾ "الخصم" يقع على الواحد والاثنين والجماعة؛ لأن أصله المصدر. قال الشاعر:

وخصم غضاب ينفضون لحاهم   كنفض البراذين العراب المخاليا

النحاس: ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به ها هنا ملكان. وقيل: "تسوروا" وإن كان اثنين حملا على الخصم، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعا له، مثل الركب والصحب. وتقديره للاثنين ذوا خصم وللجماعة ذوو خصم. ومعنى: "تسوروا المحراب" أتوه من أعلى سوره. يقال: تسور الحائط تسلقه، والسور حائط المدينة وهو بغير همز، وكذلك السور جمع سورة مثل بسرة وبسر وهي كل منزلة من البناء. ومنه سورة القرآن؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى. وقد مضى في مقدمة الكتاب بيان هذا. وقول النابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سـورة   ترى كل ملك دونها يتذبذب

يريد شرفا ومنزلة. فأما السؤر بالهمز فهو بقية الطعام في الإناء. ابن العربي: والسؤر الوليمة بالفارسي. وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: (إن جابرا قد صنع لكم سؤرا فحيهلا بكم)[1]. والمحراب هنا الغرفة؛ لأنهم تسوروا عليه فيها؛ قاله يحيى بن سلام. وقال أبو عبيدة: إنه صدر المجلس، ومنه محراب المسجد. وقد مضى القول فيه في غير موضع. ﴿ إذ دخلوا على داود ﴾ جاءت "إذ" مرتين؛ لأنهما فعلان. وزعم الفراء: أن إحداهما بمعنى لما. وقول آخر أن تكون الثانية مع ما بعدها تبيينا لما قبلها. قيل: إنهما كانا إنسيين؛ قاله النقاش. وقيل: ملكين؛ قاله جماعة. وعينهما جماعة فقالوا: إنهما جبريل وميكائيل. وقيل: ملكين في صورة إنسيين بعثهما الله إليه في يوم عبادته. فمنعهما الحرس الدخول، فتسوروا المحراب عليه، فما شعر وهو في الصلاة إلا وهما بين

(١) أخرجه البخاري (٤١٠١)، ومسلم (٣٠٣٩).

يديه جالسين؛ وهو قوله تعالى: "وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب" أي علوا ونزلوا عليه من فوق المحراب؛ قاله سفيان الثوري وغيره. وسبب ذلك ما حكاه ابن عباس أن داود عليه السلام حدث نفسه إن ابتلي أن يعتصم. فقيل له: إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذي تبتلى فيه فخذ حذرك. فأخذ الزبور ودخل المحراب ومنع من الدخول عليه، فبينا هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر كأحسن ما يكون من الطير، فجعل يدرج بين يديه. فهم أن يتناوله بيده، فاستدرج حتى وقع في كوة المحراب، فدنا منه ليأخذه فطار، فاطلع ليبصره فأشرف على امرأة تغتسل، فلما رأته غطت جسدها بشعرها. قال السدي: فوقعت في قلبه. قال ابن عباس: وكان زوجها غازيا في سبيل الله وهو أوريا بن حنان، فكتب داود إلى أمير الغزاة أن يجعل زوجها في حملة التابوت، وكان حملة التابوت إما أن يفتح الله عليهم أو يقتلوا، فقدمه فيهم فقتل، فلما انقضت عدتها خطبها داود، واشترطت عليه إن ولدت غلاما أن يكون الخليفة بعده، وكتبت عليه بذلك كتابا، وأشهدت عليه خمسين رجلا من بني إسرائيل، فلم تستقر نفسه حتى ولدت سليمان وشب، وتسور الملكان وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه. ذكره الماوردي وغيره. ولا يصح[(١)]. قال ابن العربي: وهو أمثل ما روي في ذلك.

قلت: ورواه مرفوعا بمعناه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول عن يزيد الرقاشي، سمع أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن داود النبي عليه السلام حين نظر إلى المرأة فهم بها قطع على بني إسرائيل بعثا وأوصى صاحب البعث فقال: إذا حضر العدو قرب فلانا وسماه، قال فقربه بين يدي التابوت - قال - وكان ذلك التابوت في ذلك الزمان يستنصر به فمن قدم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش الذي يقاتله فقدم فقتل زوج المرأة ونزل الملكان على داود فقصا عليه القصة)[(٢)]. وقال سعيد عن قتادة: كتب إلى زوجها وذلك في حصار عمان مدينة بلقاء أن يأخذوا بحلقة الباب، وفيه الموت الأحمر، فتقدم فقتل. وقال الثعلبي قال قوم من العلماء: إنما امتحن الله داود بالخطيئة؛ لأنه تمنى يوما على ربه منزلة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وسأله أن يمتحنه نحو ما امتحنهم، ويعطيه نحو ما أعطاهم. وكان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام، يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يخلو فيه بعبادة ربه، ويوم يخلو فيه بنسائه وأشغاله. وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فقال: يا رب إن الخير كله قد ذهب به آبائي، فأوحى الله تعالى إليه: إنهم ابتلوا ببلايا لم يبتل بها غيرهم فصبروا عليها؛ ابتلي إبراهيم بنمروذ وبالنار وبذبح ابنه، وابتلي إسحاق بالذبح، وابتلي يعقوب بالحزن على يوسف وذهاب بصره، ولم تبتل أنت بشيء من ذلك. فقال داود عليه السلام: فابتلني بمثل ما ابتليتهم، وأعطني مثل ما أعطيتهم، فأوحى الله تعالى إليه: إنك مبتلى في شهر كذا في يوم الجمعة. فلما كان ذلك اليوم دخل محرابه وأغلق بابه، وجعل يصلي ويقرأ الزبور. فبينا هو كذلك إذ مثل له الشيطان في صورة حمامة من ذهب، فيها من كل لون حسن، فوقف بين رجليه، فمد يده ليأخذها فيدفعها لابن له صغير، فطارت غير بعيد ولم تؤيسه من نفسها، فامتد إليها ليأخذها فتنحت، فتبعها فطارت حتى وقعت في كوة، فذهب ليأخذها فطارت ونظر داود يرتفع في إثرها

---

(١) كذب قبح الله من وضعه، وما كان ينبغي للقرطبي - رحمه الله - أن يورد مثل هذا الكذب الذي يطعن في نبي الله داود عليه السلام، وهو المعصوم المبرأ. فنسأل الله العافية!!

(٢) لا يصح، وفي سنده يزيد بن أبان الرقاشي وحاله لا يخفى.

ليبعث إليها من يأخذها، فنظر امرأة في بستان على شط بركة تغتسل؛ قاله الكلبي. وقال السدي: تغتسل عريانة على سطح لها؛ فرأى أجمل النساء خلقا، فأبصرت ظله فنفضت شعرها فغطى بدنها، فزاده إعجابا بها. وكان زوجها أوريا بن حنان، في غزوة مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود، فكتب داود إلى أيوب أن ابعث بأوريا إلى مكان كذا وكذا، وقدمه قبل التابوت، وكان من قدم قبل التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله عليه أو يستشهد. فقدمه ففتح له فكتب إلى داود يخبره بذلك. قال الكلبي: وكان أوريا سيف الله في أرضه في زمان داود، وكان إذا ضرب ضربة وكبر كبر جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله، وكبرت ملائكة السماء بتكبيره حتى ينتهي ذلك إلى العرش، فتكبر ملائكة العرش بتكبيره. قال: وكان سيوف الله ثلاثة؛ كالب بن يوفنا في زمن موسى، وأوريا في زمن داود، وحمزة بن عبد المطلب في زمن رسول الله ﷺ. فلما كتب أيوب إلى داود يخبره أن الله قد فتح على أوريا كتب داود إليه: أن ابعثه في بعث كذا وقدمه قبل التابوت؛ ففتح الله عليه، فقتل في الثالثة شهيدا. فتزوج داود[1] تلك المرأة حين انقضت عدتها. فهي أم سليمان بن داود. وقيل: سبب امتحان داود عليه السلام أن نفسه حدثته أنه يطيق قطع يوم بغير مقارفة شيء. قال الحسن: إن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء؛ جزءاً لنسائه، وجزءا للعبادة، وجزءا لبني إسرائيل يذاكرونه ويذاكرهم ويبكونه ويبكيهم، ويوما للقضاء. فتذاكروا هل يمر على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبا؟ فأضمر داود أنه يطيق ذلك؛ فأغلق الباب على نفسه يوم عبادته، وأمر ألا يدخل عليه أحد، وأكب على قراءة الزبور، فوقعت حمامة من ذهب بين يديه. وذكر نحو ما تقدم.

قال علماؤنا: وفي هذا دليل وهي:

الثانية : على أنه ليس على الحاكم أن ينتصب للناس كل يوم، وأنه ليس للإنسان أن يترك وطء نسائه وإن كان مشغولا بالعبادة. وقد مضى هذا المعنى في "النساء". وحكم كعب بذلك في زمن عمر بمحضره رضي الله عنهما. وقد قال ﷺ لعبد الله بن عمر: (إن لزوجك عليك حقا...)[2] الحديث. وقال الحسن أيضا ومجاهد: إن داود عليه السلام قال لبني إسرائيل حين استخلف: والله لأعدلن بينكم، ولم يستثن فابتلي بهذا. وقال أبو بكر الوراق: كان داود كثير العبادة فأعجب بعمله وقال: هل في الأرض أحد يعمل كعملي. فأرسل الله إليه جبريل؛ فقال: إن الله تعالى يقول لك: أعجبت بعبادتك، والعجب يأكل العبادة كما تأكل النار الحطب، فإن أعجبت ثانية وكلتك إلى نفسك. قال: يا رب كلني إلى نفسي سنة. قال: إن ذلك لكثير. قال: فشهرا. قال: إن ذلك لكثير. قال: فيوما. قال: إن ذلك لكثير. قال: يا رب فكلني إلى نفسي ساعة. قال: فشأنك بها. فوكل الأحراس، ولبس الصوف، ودخل المحراب، ووضع الزبور بين يديه؛ فبينما هو في عبادته إذ وقع الطائر بين يديه، فكان من أمر المرأة ما كان. وقال سفيان الثوري: قال داود ذات يوم: يا رب ما من يوم إلا ومن آل داود لك فيه صائم، وما من ليلة إلا ومن آل داود لك فيها قائم. فأوحى الله إليه: يا داود منك ذلك

(١) هذا من قبيل الكذب الذي نبهنا عليه آنفا، فرحم الله القرطبي.

(٢) جزء من حديث أخرجاه في الصحيحين.

أو مني؟ وعزتي لأكلنك إلى نفسك. قال: يا رب اعف عني. قال: أكلك إلى نفسك سنة. قال: لا بعزتك. قال: فشهرا. قال: لا بعزتك. قال: فأسبوعا. قال: لا بعزتك. قال: فيوما. قال: لا بعزتك. قال: فساعة. قال: لا بعزتك. قال: فلحظة. فقال لـه الشيطان: وما قدر لحظة. قال: كلني إلى نفسي لحظة. فوكلـه الله إلى نفسه لحظة. وقيل لـه: هي في يوم كذا في وقت كذا. فلما جاء ذلك اليوم جعلـه للعبادة، ووكل الأحراس حول مكانه. قيل: أربعة آلاف. وقيل: ثلاثين ألفا أو ثلاثة وثلاثين ألفا. وخلا بعبادة ربه، ونشر الزبور بين يديه، فجاءت الحمامة فوقعت لـه، فكان من أمره في لحظته مع المرأة ما كان. وأرسل الله عز وجل إليه الملكين بعد ولادة سليمان، وضربا لـه المثل بالنعاج؛ فلما سمع المثل ذكر خطيئته فخر ساجدا أربعين ليلة على ما يأتي.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ ففزع منهم ﴾ لأنهما أتياه ليلا في غير وقت دخول الخصوم. وقيل: كان لدخولـهم عليه بغير إذنه. وقيل: لأنهم تسوروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب. قال ابن العربي: وكان محراب داود عليه السلام من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يرتقي إليه آدمي بحيلة إلا أن يقيم إليه أياما أو أشهرا بحسب طاقته، مع أعوان يكثر عددهم، وآلات جمة مختلفة الأنواع. ولو قلنا: إنه يوصل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مخبرا عن ذلك: "تسوروا المحراب" إذ لا يقال تسور المحراب والغرفة لمن طلع إليها من درجها، وجاءها من أسفلـها إلا أن يكون ذلك مجازا؛ وإذا شاهدت الكوة التي يقال إنه دخل منها الخصمان علمت قطعا أنهما ملكان؛ لأنها من العلو بحيث لا ينالـها إلا علوي. قال الثعلبي: وقد قيل: كان المتسوران أخوين من بني إسرائيل لأب وأم. فلما قضى داود بينهما بقضية قال لـه ملك من الملائكة: فهلا قضيت بذلك على نفسك يا داود. قال الثعلبي: والأول أحسن أنهما كانا ملكين نبها داود على ما فعل.

قلت: وعلى هذا أكثر أهل التأويل. فإن قيل: كيف يجوز أن يقول الملكان "خصمان بغى بعضنا على بعض" وذلك كذب والملائكة عن مثلـه منزهون. فالجواب عنه أنه لا بد في الكلام من تقدير؛ فكأنهما قالا: قدرنا كأننا خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق، وعلى ذلك يحمل قولـهما: "إن هذا أخي لـه تسع وتسعون نعجة" لأن ذلك وإن كان بصورة الخبر فالمراد إيراده على طريق التقدير لينبه داود على ما فعل؛ والله أعلم.

الرابعة: إن قيل: لم فزع داود وهو نبي، وقد قويت نفسه بالنبوة، واطمأنت بالوحي، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة، وأظهر على يديه من الآيات، وكان من الشجاعة في غاية المكانة؟ قيل لـه: ذلك سبيل الأنبياء قبلـه، لم يأمنوا القتل والأذية ومنهما كان يخاف. ألا ترى إلى موسى وهارون عليهما السلام كيف قالا: ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ (طه: ٤٥) فقال الله عز وجل: "لا تخافا". وقالت الرسل للوط: لا تخف ﴿ إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ (هود: ٨١) وكذا قال الملكان هنا: "لا تخف". قال محمد بن إسحاق: بعث الله إليه ملكين يختصمان إليه وهو في محرابه ـ مثلا ضربه الله له ولأوريا ـ فرآهما واقفين على رأسه؛ فقال: ما أدخلكما علي؟ قالا: "لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض" فجئناك لتقضي بيننا.

الخامسة : قال ابن العربي : فإن قيل كيف لم يأمر بإخراجهما إذ قد علم مطلبهما، وهلا أدبهما وقد دخلا عليه بغير إذن؟ فالجواب عليه من أربعة أوجه : الأول : أنا لم نعلم كيفية شرعه في الحجاب والإذن، فيكون الجواب بحسب تلك الأحكام وقد كان ذلك في ابتداء شرعنا مهملا في هذه الأحكام، حتى أوضحها الله تعالى بالبيان . الثاني : أنا لو نزلنا الجواب على أحكام الحجاب، لاحتمل أن يكون الفزع الطارئ عليه أذهله عما كان يجب في ذلك له . الثالث : أنه أراد أن يستوفي كلامهما الذي دخلا له حتى يعلم آخر الأمر منه، ويرى هل يحتمل التقحم فيه بغير إذن أم لا؟ وهل يقترن بذلك عذر لهما أم لا يكون لهما عذر فيه؟ فكان من آخر الحال ما انكشف أنه بلاء ومحنة، ومثل ضربه الله في القصة، وأدب وقع على دعوى العصمة . الرابع : أنه يحتمل أن يكون في مسجد ولا إذن في المسجد لأحد إذ لا حجر فيه على أحد .

قلت : وقول خامس ذكره القشيري؛ وهو أنهما قالا : لما لم يأذن لنا الموكلون بالحجاب، توصلنا إلى الدخول بالتسور، وخفنا أن يتفاقم الأمر بيننا . فقبل داود عذرهم، وأصغى إلى قولهم .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ خصمان ﴾ إن قيل : كيف قال : "خصمان" وقبل هذا : "إذ تسوروا المحراب" فقيل : لأن الاثنين جمع؛ قال الخليل : كما تقول نحن فعلنا إذا كنتما اثنين . وقال الكسائي : جمع لما كان خبرا، فلما انقضى الخبر وجاءت المخاطبة، خبر الاثنان عن أنفسهما فقالا خصمان . وقال الزجاج : المعنى نحن خصمان . وقال غيره : القول محذوف؛ أي يقول : "خصمان بغى بعضنا على بعض" قال الكسائي : ولو كان بغى بعضهما على بعض لجاز . الماوردي : وكانا ملكين، ولم يكونا خصمين ولا باغين، ولا يتأتى منهما كذب؛ وتقدير كلامهما ما تقول : إن أتاك خصمان قالا بغى بعضنا على بعض . وقيل : أي نحن فريقان من الخصوم بغى بعضنا على بعض . وعلى هذا يحتمل أن تكون الخصومة بين اثنين ومع كل واحد جمع . ويحتمل أن يكون لكل واحد من هذا الفريق خصومة مع كل واحد من الفريق الآخر، فحضروا الخصومات ولكن ابتدأ منهم اثنان، فعرف داود بذكر النكاح القصة . وأغنى ذلك عن التعرض للخصومات الأخر . والبغي التعدي والخروج عن الواجب . يقال : بغى الجرح إذا أفرط وجعه وترامى إلى ما يفحش، ومنه بغت المرأة إذا أتت الفاحشة .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ﴾ أي لا تجُر؛ قاله السدي . وحكى أبو عبيد : شططت عليه وأشططت أي جرت . وفي حديث تميم الداري : (إنك لشاطي) أي جائر علي في الحكم . وقال قتادة : لا تمل . الأخفش : لا تسرف . وقيل : لا تفرط . والمعنى متقارب . والأصل فيه البعد من شطت الدار أي بعدت؛ شطت الدار تشط وتشط شطا وشطوطا بعدت . وأشط في القضية أي جار، وأشط في السوم واشتط أي أبعد، وأشطوا في طلبي أي أمعنوا . قال أبو عمرو : الشطط مجاوزة القدر في كل شيء . وفي الحديث : (لها مهر مثلها لا وكس ولا شطط)[1] أي لا نقصان ولا زيادة . وفي التنزيل : ﴿ لقد قلنا إذاً شططا ﴾ (الكهف : ١٤) أي جورا من القول وبعدا عن الحق .
﴿ واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ أي أرشدنا إلى قصد السبيل .

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١١٤)، والترمذي (١١٤٥) وغيرهما بسند صحيح .

الثامنة : قولـه تعالى: ﴿ إن هذا أخي لـه تسع وتسعون نعجة ﴾ أي قال الملك الذي تكلم عن أوريا "إن هذا أخي" أي على ديني، وأشار إلى المدعى عليه. وقيل: أخي أي صاحبي. "لـه تسع وتسعون نعجة" وقرأ الحسن: "تسع وتسعون نعجة" بفتح التاء فيهما وهي لغة شاذة، وهي الصحيحة من قراءة الحسن؛ قالـه النحاس. والعرب تكني عن المرأة بالنعجة والشاة؛ لما هي عليه من السكون والمعجزة وضعف الجانب. وقد يكنى عنها بالبقرة والحجرة والناقة، لأن الكل مركوب. قال ابن عون:

أنـا أبوهـن ثـلاث هـنَّه رابعـة في البيـت صـغراهنه
ونعجـتي خمسـا توفيهـنه ألا فـتى سمـح يغذيهـنه
طـي النقا فـي الجـوع يطـويهنه ويـل الرغـيف ويلـه منهـنه

وقال عنترة:

يـا شـاة مـا قـنص لمـن حلـت لـه حرمـت علـي وليـتها لم تحـرم
فبعثـت جـاريتي فقلـت لـهـا اذهـبي فتجسسـي أخـبارها لـي واعـلمي
قالـت رأيـت مـن الأعـادي غـرة والشـاة ممكـنة لمـن هـو مـرتم
فكأنمـا التفـتت بجـيد جدايـة رشـإ مـن الغـزلان حـر أرثم

وقال آخر:

فرمـيت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالـها

وهذا من أحسن التعريض حيث كنى بالنعاج عن النساء. قال الحسين بن الفضل: هذا من الملكين تعريض وتنبيه كقولـهم ضرب زيد عمرا، وما كان ضرب ولا نعاج على التحقيق، كأنه قال: نحن خصمان هذه حالنا. قال أبو جعفر النحاس: وأحسن ما قيل في هذا أن المعنى يقول: خصمان بغى بعضنا على بعض على جهة المسألة؛ كما تقول: رجل يقول لامرأته كذا، ما يجب عليه؟

قلت: وقد تأول المزني صاحب الشافعي هذه الآية، وقولـه ﷺ في حديث ابن شهاب الذي خرجه الموطأ وغيره: (هو لك يا عبد بن زمعة)[1] على نحو هذا؛ قال المزني: يحتمل هذا الحديث عندي ـ والله أعلم ـ أن يكون النبي ﷺ أجاب عن المسألة فأعلمهم بالحكم أن هذا يكون إذا ادعى صاحب فراش وصاحب زنى، لا أنه قبل على عتبة قول أخيه سعد، ولا على زمعة قول ابنه إنه ولد زنى، لأن كل واحد منهما أخبر عن غيره. وقد أجمع المسلمون أنه لا يقبل إقرار أحد على غيره. وقد ذكر الله سبحانه في كتابه مثل ذلك في قصة داود والملائكة؛ إذ دخلوا عليه ففزع منهم، قالوا: لا تخف خصمان ولم يكونوا خصمين، ولا كان لواحد منهم تسع وتسعون نعجة، ولكنهم كلموه على المسألة ليعرف بها ما أرادوا تعريفه. فيحتمل أن يكون النبي ﷺ حكم في هذه القصة على المسألة، وإن لم يكن أحد يؤنسني على هذا التأويل في الحديث؛ فإنه عندي صحيح. والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٨) وفي غير موضع، ومسلم (١٤٥٧).

التاسعة : قال النحاس: وفي قراءة ابن مسعود "إن هذا أخي كان لـه تسع وتسعون نعجة أنثى" و"كان" هنا مثل قولـه عز وجل: ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ (النساء: ٩٦) فأما قولـه: "أنثى" فهو تأكيد، كما يقال: هو رجل ذكر وهو تأكيد. وقيل: لما كان يقال هذه مائة نعجة، وإن كان فيها من الذكور شيء يسير، جاز أن يقال: أنثى ليعلم أنه لا ذكر فيها. وفي التفسير: لـه تسع وتسعون امرأة. قال ابن العربي: إن كان جميعهن أحرارا فذلك شرعه، وإن كن إماء فذلك شرعنا. والظاهر أن شرع من تقدم قبلنا لم يكن محصورا بعدد، وإنما الحصر في شريعة محمد ﷺ، لضعف الأبدان وقلة الأعمار. وقال القشيري: ويجوز أن يقال: لم يكن لـه هذا العدد بعينه، ولكن المقصود ضرب مثل، كما تقول: لو جئتني مائة مرة لم أقض حاجتك، أي مرارا كثيرة. قال ابن العربي: قال بعض المفسرين: لم يكن لداود مائة امرأة، وإنما ذكر التسعة والتسعين مثلا؛ المعنى: هذا غني عن الزوجة وأنا مفتقر إليها. وهذا فاسد من وجهين: أحدهما: أن العدول عن الظاهر بغير دليل لا معنى لـه، ولا دليل يدل على أن شرع من قبلنا كان مقصورا من النساء على ما في شرعنا. الثاني: أنه روى البخاري وغيره أن سليمان قال: (لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل امرأة غلاما يقاتل في سبيل الله ونسي أن يقول إن شاء الله)[1] وهذا نص.

العاشرة : قولـه تعالى: ﴿ ولي نعجة واحدة ﴾ أي امرأة واحدة: ﴿ فقال أكفلنيها ﴾ أي أنزل لي عنها حتى أكفلـها. وقال ابن عباس: أعطنيها. وعنه: تحول لي عنها. وقالـه ابن مسعود. وقال أبو العالية: ضمها إلي حتى أكفلـها. وقال ابن كيسان: اجعلـها كفلي ونصيبي. ﴿ وعزني في الخطاب﴾ أي غلبني. قال الضحاك: إن تكلم كان أفصح مني، وإن حارب كان أبطش مني. يقال: عزه يعزه بضم العين في المستقبل عزا غلبه. وفي المثل: من عزّ بزّ؛ أي من غلب سلب. والاسم العزة وهي القوة والغلبة. قال الشاعر:

قطاة عزها شرك فباتت   تجاذبه وقد علق الجناح

وقرأ عبد الله بن مسعود وعبيد بن عمير: "وعازني في الخطاب" أي غالبني؛ من المعازة وهي المغالبة؛ عازه أي غالبه. قال ابن العربي: واختلف في سبب الغلبة؛ فقيل: معناه غلبني ببيانه. وقيل: غلبني بسلطانه؛ لأنه لما سألـه لم يستطع خلافه. كان ببلادنا أمير يقال لـه: سير بن أبي بكر فكلمته في أن يسأل لي رجلا حاجة، فقال لي: أما علمت أن طلب السلطان للحاجة غصب لـها. فقلت: أما إذا كان عدلا فلا. فعجبت من عجمته وحفظه لما تمثل به وفطنته، كما عجب من جوابي لـه واستغربه.

الحادية عشرة : قولـه تعالى: ﴿ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ قال النحاس: فيقال إن هذه كانت خطيئة داود ؛ لأنه قال: لقد ظلمك من غير تثبت ببينة، ولا إقرار من الخصم؛ هل كان هذا كذا أو لم يكن. فهذا قول.

وسيأتي بيانه في المسألة بعد هذا، وهو حسن إن شاء الله تعالى. وقال أبو جعفر النحاس: فأما قول العلماء الذين لا يدفع قولـهم؛ منهم عبد الله بن مسعود وابن عباس، فإنهم قالوا: ما زاد داود ـ صلى

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨١٩) وفي غير موضع.

الله على نبينا وعليه ـ على أن قال للرجل انزل لي عن امرأتك. قال أبو جعفر: فعاتبه الله عز وجل على ذلك ونبهه عليه، وليس هذا بكبير من المعاصي، ومن تخطى إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصح عن عالم، ويلحقه فيه إثم عظيم. كذا قال في كتاب إعراب القرآن. وقال: في كتاب معاني القرآن لـه بمثلـه. قال ﷺ: قد جاءت أخبار وقصص في أمر داود عليه السلام وأوريا، وأكثرها لا يصح ولا يتصل إسناده، ولا ينبغي أن يجترأ على مثلـها إلا بعد المعرفة بصحتها. وأصح ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: ما زاد داود عليه السلام على أن قال: "أكفلنيها" أي انزل لي عنها. وروى المنهال عن سعيد بن جبير قال: ما زاد داود عليه السلام على أن قال: "أكفلنيها" أي تحول لي عنها وضمها إلي. قال أبو جعفر: فهذا أجل ما روي في هذا[1]، والمعنى عليه أن داود عليه السلام سأل أوريا أن يطلق امرأته، كما يسأل الرجل الرجل أن يبيعه جاريته، فنبهه الله عز وجل على ذلك، وعاتبه لما كان نبيا وكان لـه تسع وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزيد منها، فأما غير هذا فلا ينبغي الاجتراء عليه. قال ابن العربي: وأما قولـهم إنها لما أعجبته أمر بتقديم زوجها للقتل في سبيل الله فهذا باطل قطعا؛ فإن داود ﷺ لم يكن ليريق دمه في غرض نفسه، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه: انزل لي عن أهلك وعزم عليه في ذلك، كما يطلب الرجل من الرجل الحاجة برغبة صادقة؛ كانت في الأهل أو في المال. وقد قال سعيد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسول الله ﷺ بينهما: إن لي زوجتين أنزل لك عن أحسنهما؛ فقال لـه: بارك الله لك في أهلك[2]. وما يجوز فعلـه ابتداء يجوز طلبه، وليس في القرآن أن ذلك كان، ولا أنه تزوجها بعد زوال عصمة الرجل عنها، ولا ولادتها لسليمان، فعمن يروى هذا ويسند؟! وعلى من في نقلـه يعتمد، وليس يأثره عن الثقات الأثبات أحد. أما أن في سورة "الأحزاب" نكتة تدل على أن داود قد صارت لـه المرأة زوجة، وذلك قولـه: ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله لـه سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ (الأحزاب: ٣٨) يعني في أحد الأقوال: تزويج داود المرأة التي نظر إليها، كما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش؛ إلا أن تزويج زينب كان من غير سؤال للزوج في فراق، بل أمره بالتمسك بزوجته، وكان تزويج داود للمرأة بسؤال زوجها فراقها. فكانت هذه المنقبة لمحمد ﷺ على داود مضافة إلى مناقبه العلية ﷺ. ولكن قد قيل: إن معنى "سنة الله في الذين خلوا من قبل" تزويج الأنبياء بغير صداق من وهبت نفسها لـهم من النساء بغير صداق. وقيل: أراد بقولـه: ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ (الأحزاب: ٣٨) أن الأنبياء صلوات الله عليهم فرض لـهم ما يمتثلونه في النكاح وغيره. وهذا أصح الأقوال. وقد روى المفسرون أن داود عليه السلام نكح مائة امرأة؛ وهذا نص القرآن. وروي أن سليمان كانت لـه ثلاثمائة امرأة وسبعمائة جارية؛ وربك أعلم.

وذكر الكيا الطبري في أحكامه في قول الله عز وجل: "وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب" الآية: ذكر المحققون الذين يرون تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن الكبائر، أن داود عليه السلام كان قد أقدم

---

(١) وهذا لا يصح أيضاً إذ إنه لا يليق بنبي معصوم كداود عليه السلام، وسيأتي.

(٢) أخرجه البخاري وغيره.

على خطبة امرأة قد خطبها غيره، يقال: هو أوريا؛ فمال القوم إلى تزويجها من داود راغبين فيه، وزاهدين في الخاطب الأول، ولم يكن بذلك داود عارفا، وقد كان يمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة، وعن الخطبة بها فلم يفعل ذلك، من حيث أعجب بها إما وصفا أو مشاهدة على غير تعمد؛ وقد كان لداود عليه السلام من النساء العدد الكثير، وذلك الخاطب لا امرأة لـه، فنبه الله تعالى على ما فعل بما كان من تسور الملكين، وما أورداه من التمثيل على وجه التعريض؛ لكي يفهم من ذلك موقع العتب فيعدل عن هذه الطريقة، ويستغفر ربه من هذه الصغيرة.

الثانية عشرة: قولـه تعالى: ﴿ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ فيه الفتوى في النازلة بعد السماع من أحد الخصمين، وقبل أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول. قال ابن العربي: وهذا مما لا يجوز عند أحد، ولا في ملة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر. وإنما تقدير الكلام أن أحد الخصمين ادعى والآخر سلم في الدعوى، فوقعت بعد ذلك الفتوى. وقد قال النبي ﷺ: (إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر)[1] وقيل: إن داود لم يقض للآخر حتى اعترف صاحبه بذلك. وقيل: تقديره لقد ظلمك إن كان كذلك. والله أعلم بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه.

قلت: ذكر هذين الوجهين القشيري والماوردي وغيرهما. قال القشيري: وقولـه: "لقد ظلمك بسؤال نعجتك" من غير أن يسمع كلام الخصم مشكل؛ فيمكن أن يقال: إنما قال هذا بعد مراجعة الخصم الآخر وبعد اعترافه. وقد روي هذا وإن لم تثبت روايته، فهذا معلوم من قرائن الحال، أو أراد لقد ظلمك إن كان الأمر على ما تقول، فسكته بهذا وصبره إلى أن يسأل خصمه. قال ويحتمل أن يقال: كان من شرعهم التعويل على قول المدعي عند سكوت المدعى عليه، إذا لم يظهر منه إنكار بالقول. وقال الحليمي أبو عبد الله في كتاب منهاج الدين لـه: ومما جاء في شكر النعمة المنتظرة إذا حضرت، أو كانت خافية فظهرت: السجود لله عز وجل. قال والأصل في ذلك قولـه عز وجل: "وهل أتاك نبأ الخصم" إلى قولـه: "وحسن مآب". أخبر الله عز وجل عن داود عليه السلام: أنه سمع قول المتظلم من الخصمين، ولم يخبر عنه أنه سأل الآخر، إنما حكى أنه ظلمه، فكان ظاهر ذلك أنه رأى في المتكلم مخائل الضعف والـهضيمة، فحمل أمره على أنه مظلوم كما يقول، ودعاه ذلك إلى ألا يسأل الخصم؛ فقال لـه مستعجلا: "لقد ظلمك" مع إمكان أنه لو سألـه لكان يقول: كانت لي مائة نعجة ولا شيء لـهذا، فسرق مني هذه النعجة، فلما وجدتها عنده قلت لـهارددها، وما قلت لـه أكفلنيها، وعلم أني مرافعه إليك، فجرني قبل أن أجره، وجاءك متظلما من قبل أن أحضره، لتظن أنه هو المحق وأني أنا الظالم. ولما تكلم داود بما حملته العجلة عليه، علم أن الله عز وجل خلاه ونفسه في ذلك الوقت، وهو الفتنة التي ذكرناها، وأن ذلك لم يكن إلا عن تقصير منه، فاستغفر ربه وخر راكعا لله تعالى شكرا على أن عصمه، بأن اقتصر على تظليم المشكو، ولم يزده على ذلك شيئا من انتهار أو ضـرب أو غـيرهما، مما يليـق بمن تصـور فـي القلب أنه ظالم، فغفر الله لـه ثم أقبل عليه يعاتبه؛ فقال: ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الـهوى فيضلك عن

(١) "حسن" انظر صحيح الجامع (٤٧٨)، وراجع الصحيحة (١٣٠٠).

سبيل الله ﴾ (ص: ٢٦) فبان بما قصه الله تعالى من هذه الموعظة، التي توخاه بها بعد المغفرة، أن خطيئته إنما كانت التقصير في الحكم، والمبادرة إلى تظليم من لم يثبت عنده ظلمه. ثم جاء عن ابن عباس أنه قال: سجدها داود شكرا، وسجدها النبي ﷺ اتباعا، فثبت أن السجود للشكر سنة متواترة عن الأنبياء صلوات الله عليهم. ﴿ بسؤال نعجتك ﴾أي بسؤالـه نعجتك؛ فأضاف المصدر إلى المفعول، وألقى الـهاء من السؤال؛ وهو كقولـه تعالى: ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ﴾ (فصلت: ٤٩) أي من دعائه الخير.

الثالثة عشرة : قولـه تعالى: ﴿ وإن كثيرا من الخلطاء ﴾ يقال: خليط وخلطاء، ولا يقال طويل وطولاء؛ لثقل الحركة في الواو. وفيه وجهان: أحدهما أنهما الأصحاب. الثاني أنهما الشركاء.

قلت: إطلاق الخلطاء على الشركاء فيه بعد، وقد اختلف العلماء في صفة الخلطاء، فقال أكثر العلماء: هو أن يأتي كل واحد بغنمه فيجمعها راع واحد والدلو والمراح. وقال طاوس وعطاء: لا يكون الخلطاء إلا الشركاء. وهذا خلاف الخبر؛ وهو قولـه ﷺ: (لا يجمع بين مفترق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية)[1] وروي (فإنهما يترادان الفضل) ولا موضع لتراد الفضل بين الشركاء؛ فاعلمه. وأحكام الخلطة مذكورة في كتب الفقه. ومالك وأصحابه وجمع من العلماء لا يرون الصدقة على من ليس في حصته ما تجب فيه الزكاة. وقال الربيع والليث وجمع من العلماء منهم الشافعي: إذا كان في جميعها ما تجب فيه الزكاة أخذت منهم الزكاة. قال مالك: وإن أخذ المصدق بهذا ترادوا بينهم للاختلاف في ذلك، وتكون كحكم حاكم اختلف فيه.

الرابعة عشرة : قولـه تعالى: ﴿ ليبغي بعضهم على بعض ﴾ أي يتعدى ويظلم. ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فإنهم لا يظلمون أحدا. ﴿ وقليل ما هم ﴾ يعني الصالحين، أي وقليل هم فـ "ما" زائدة. وقيل: بمعنى الذين وتقديره وقليل الذين هم. وسمع عمر ﷺ رجلا يقول في دعائه: اللهم اجعلني من عبادك القليل. فقال لـه عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال أردت قول الله عز وجل: "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم" فقال عمر: كل الناس أفقه منك يا عمر!

الخامسة عشرة : قولـه تعالى: ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ أي ابتليناه. "وظن" معناه أيقن. قال أبو عمرو والفراء: ظن بمعنى أيقن، إلا أن الفراء شرحه بأنه لا يجوز في المعاين أن يكون الظن إلا بمعنى اليقين. والقراءة "فتناه" بتشديد النون دون التاء. وقرأ عمر بن الخطاب ﷺ "فتناه" بتشديد التاء والنون على المبالغة. وقرأ قتادة وعبيد بن عمير وابن السميقع "فتناه" بتخفيفهما. ورواه علي بن نصر عن أبي عمرو، والمراد به الملكان اللذان دخلا على داود عليه السلام.

السادسة عشرة : قيل: لما قضى داود بينهما في المسجد، نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك فلم يفطن داود؛ فأحبا أن يعرفهما، فصعدا إلى السماء حيال وجهه، فعلم داود عليه السلام أن الله تعالى ابتلاه بذلك، ونبهه على ما ابتلاه.

---

(١) أخرجه البخاري في "الزكاة"، (١٤٥٠) وغيره.

قلت: وليس في القرآن ما يدل على القضاء في المسجد إلا هذه الآية، وبها استدل من قال بجواز القضاء في المسجد، ولو كان ذلك لا يجوز كما قال الشافعي لما أقرهم داود على ذلك. ويقول: انصرفا إلى موضع القضاء. وكان النبي ﷺ والخلفاء يقضون في المسجد، وقد قال مالك: القضاء في المسجد من الأمر القديم. يعني في أكثر الأمور. ولا بأس أن يجلس في رحبته؛ ليصل إليه الضعيف والمشرك والحائض، ولا يقيم فيه الحدود؛ ولا بأس بخفيف الأدب. وقد قال أشهب: يقضي في منزله وأين أحب.

السابعة عشرة: قال مالك رحمه الله: وكان الخلفاء يقضون بأنفسهم، وأول من استقضى معاوية. قال مالك: وينبغي للقضاة مشاورة العلماء. وقال عمر بن عبد العزيز: لا يستقضي حتى يكون عالما بآثار من مضى، مستشيرا لذوي الرأي، حليما نزها. قال: ويكون ورعا. قال مالك: وينبغي أن يكون متيقظا كثير التحذر من الحيل، وأن يكون عالما بالشروط، عارفا بما لا بد له منه من العربية؛ فإن الأحكام تختلف باختلاف العبارات والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التي تتضمن حقوق المحكوم له. وينبغي له أن يقول قبل إنجاز الحكم للمطلوب: أبقيت لك حجة؟ فإن قال لا حكم عليه، ولا يقبل منه حجة بعد إنفاذ حكمه إلا أن يأتي بما له وجه أو بينة. وأحكام القضاء والقضاة فيما لهم وعليهم مذكورة في غير هذا الموضع.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿ فاستغفر ربه ﴾ اختلف المفسرون في الذنب الذي استغفر منه على أقوال ستة: الأول: أنه نظر إلى المرأة حتى شبع منها. قال سعيد بن جبير: إنما كانت فتنته النظرة. قال أبو إسحاق: ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها، فصارت الأولى له والثانية عليه. الثاني: أنه أغزى زوجها في حملة التابوت. الثالث: أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها. الرابع: أن أوريا كان خطب تلك المرأة، فلما غاب خطبها داود فزوجت منه لجلالته، فاغتم لذلك أوريا. فعتب الله على داود إذ لم يتركها لخاطبها. وقد كان عنده تسع وتسعون امرأة. الخامس: أنه لم يجزع على قتل أوريا، كما كان يجزع على من هلك من الجند، ثم تزوج امرأته، فعاتبه الله تعالى على ذلك؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله[1]. السادس: أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر. قال القاضي ابن العربي: أما قول من قال: إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز على الأنبياء، وكذلك تعريض زوجها للقتل. وأما من قال: إنه نظر إليها حتى شبع فلا يجوز ذلك عندي بحال؛ لأن طموح النظر لا يليق بالأولياء المتجردين للعبادة، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائط الله المكاشفون بالغيب! وحكى السدي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: لو سمعت رجلا يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرما لجلدته ستين ومائة؛ لأن حد قاذف الناس ثمانون وحد قاذف الأنبياء ستون ومائة. ذكره الماوردي والثعلبي أيضا. قال الثعلبي: وقال الحارث الأعور عن علي: من حدث بحديث داود على ما ترويه القصاص معتقدا جلدته حدين؛ لعظم ما ارتكب برمي من قد رفع الله محله، وارتضاه من خلقه رحمة للعالمين، وحجة للمجتهدين. قال ابن

---

(١) كل هذه أقوال فاسدة وتأويلات باطلة، فحاشا داود ـ ﷺ ـ أن يكون كذلك.

العربي: وهذا مما لم يصح عن علي. فإن قيل: فما حكمه عندكم؟ قلنا: أما من قال إن نبيا زنى فإنه يقتل، وأما من نسب إليه ما دون ذلك من النظر والملامسة، فقد اختلف نقل الناس في ذلك؛ فإن صمم أحد على ذلك فيه ونسبه إليه قتلته[١]، فإنه يناقض التعزير المأمور به، فأما قولهم: إنه وقع بصره على امرأة تغتسل عريانة، فلما رأته أسبلت شعرها فسترت جسدها، فهذا لا حرج عليه فيه بإجماع من الأمة؛ لأن النظرة الأولى تكشف المنظور إليه ولا يأثم الناظر بها، فأما النظرة الثانية فلا أصل لها. وأما قولهم: إنه نوى إن مات زوجها تزوجها فلا شيء فيه إذ لم يعرضه للموت.

وأما قولهم: إنه خطب على خطبة أوريا فباطل يرده القرآن والآثار التفسيرية كلها. وقد روى أشهب عن مالك قال: بلغني أن تلك الحمامة أتت فوقعت قريبا من داود ﷺ وهي من ذهب، فلما رآها أعجبته فقام ليأخذها فكانت قرب يده، ثم صنع مثل ذلك مرتين، ثم طارت واتبعها ببصره فوقعت عينه على تلك المرأة وهي تغتسل ولها شعر طويل؛ فبلغني أنه أقام أربعين ليلة ساجدا حتى نبت العشب من دموع عينه. قال ابن العربي: وأما قول المفسرين إن الطائر درج عنده فهم بأخذه واتبعه فهذا لا يناقض العبادة؛ لأنه مباح فعله، لا سيما وهو حلال وطلب الحلال فريضة، وإنما اتبع الطير لذاته لا لجماله فإنه لا منفعة له فيه، وإنما ذكرهم لحسن الطائر خرق في الجهالة. أما أنه روي أنه كان طائرا من ذهب فاتبعه ليأخذه؛ لأنه من فضل الله سبحانه وتعالى كما روي في الصحيح: (إن أيوب ﷺ كان يغتسل عريانا فخر عليه رجل من جراد من ذهب فجعل يحثي منه ويجعل في ثوبه، فقال الله تعالى له: "يا أيوب ألم أكن أغنيتك") قال: (بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك)[٢]. وقال القشيري: فهم داود بأن يأخذه ليدفعه إلى ابن له صغير فطار ووقع على كوة البيت؛ وقاله الثعلبي أيضا وقد تقدم.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿ وخر راكعا وأناب ﴾ أي خر ساجدا، وقد يعبر عن السجود بالركوع. قال الشاعر:

فخـــر على وجهه راكعا وتاب إلى الله من كل ذنب

قال ابن العربي: لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع ها هنا السجود؛ فإن السجود هو الميل، والركوع هو الانحناء، وأحدهما يدخل على الآخر، ولكنه قد يختص كل واحد بهيئته، ثم جاء هذا على تسمية أحدهما بالآخر، فسمي السجود ركوعا. وقال المهدوي: وكان ركوعهم سجودا. وقيل: بل كان سجودهم ركوعا. وقال مقاتل: فوقع من ركوعه ساجدا لله عز وجل. أي لما أحس بالأمر قام إلى الصلاة، ثم وقع من الركوع إلى السجود؛ لاشتمالهما جميعا على الانحناء. "وأناب" أي تاب من خطيئته ورجع إلى الله. وقال الحسين بن الفضل: سألني عبد الله بن طاهر وهو الوالي عن قول الله عز وجل: "وخر راكعا" فهل يقال للراكع خر؟. قلت: لا. قال: فما معنى الآية؟ قلت: معناها فخر بعد أن كان راكعا أي سجد.

---

(١) استعمل ابن العربي ـ رحمه الله ـ تاء المتكلم في قوله "قتلته"؛ لعمله بالقضاء حينئذ.
(٢) أخرجه البخاري في "الغسل"، (٢٧٩)، وفي غير موضع.

الموفية عشرين : واختلف في سجدة داود هل هي من عزائم السجود المأمور به في القرآن أم لا؟ فروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قرأ على المنبر : "ص والقرآن ذي الذكر" فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأ بها فتشزن[١] الناس للسجود، فقال رسول الله ﷺ : (إنها توبة نبي ولكني رأيتكم تشزنتم للسجود) ونزل وسجد. وهذا لفظ أبي داود[٢]. وفي البخاري وغيره عن ابن عباس أنه قال: "ص" ليست من عزائم القرآن، وقد رأيت النبي ﷺ يسجد فيها. وقد روي من طريق عن ابن مسعود أنه قال: "ص" توبة نبي ولا يسجد فيها؛ وعن ابن عباس أنها توبة نبي ونبيكم ممن أمر أن يقتدى به. قال ابن العربي: والذي عندي أنها ليست موضع سجود، ولكن النبي ﷺ سجد فيها فسجدنا بالاقتداء به. ومعنى السجود أن داود سجد خاضعا لربه، معترفا بذنبه. تائبا من خطيئته؛ فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود الذي اتبعه، وسواء قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا؟ فإن هذا أمر مشروع في كل أمة لكل أحد. والله أعلم.

الحادية والعشرون : قال ابن خُوَيزمَنداد: قوله: "وخر راكعا وأناب" فيه دلالة على أن السجود للشكر مفردا لا يجوز؛ لأنه ذكر معه الركوع؛ وإنما الذي يجوز أن يأتي بركعتين شكرا فأما سجدة مفردة فلا؛ وذلك أن البشارات كانت تأتي رسول الله ﷺ والأئمة بعده، فلم ينقل عن أحد منهم أنه سجد شكرا، ولو كان ذلك مفعولا لهم لنقل نقلا متظاهرا لحاجة العامة إلى جوازه وكونه قربة.

قلت: وفي سنن ابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ صلى يوم بشر برأس أبي جهل ركعتين. وخرج من حديث أبي بكرة أن النبي ﷺ كان إذا أتاه أمر يسره ـ أو يسر به ـ خر ساجدا شكرا لله[٣]. وهذا قول الشافعي وغيره.

الثانية والعشرون : روى الترمذي وغيره واللفظ للغير: أن رجلا من الأنصار على عهد رسول الله ﷺ كان يصلي من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ: "ص والقرآن ذي الذكر" فلما بلغ السجدة سجد وسجدت معه الشجرة، فسمعها وهي تقول: اللهم أعظم لي بهذه السجدة أجرا، وارزقني بها شكرا[٤].

قلت: خرج ابن ماجه في سننه عن ابن عباس قال: كنت عند النبي ﷺ، فأتاه رجل فقال: إني رأيت البارحة فيما يرى النائم، كأني أصلي إلى أصل شجرة، فقرأت السجدة فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها تقول: اللهم أحطط بها عني وزرا، واكتب لي بها أجرا، واجعلها لي عندك ذخرا. قال ابن عباس فرأيت رسول الله ﷺ قرأ "السجدة" فسجد، فسمعته يقول في سجوده مثل الذي أخبره الرجل عن قول الشجرة[٥]. ذكره الثعلبي عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قلت يا

---

(١) تشزن: تهيأ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٠٩)، والترمذي (٥٧٧) وهو صحيح.

(٣) هو في صحيح الجامع بغير هذا اللفظ (٤٦٤٠).

(٤) أخرجه الترمذي في "الصلاة"، (٥٧٩)، وهو صحيح.

(٥) أخرجه ابن ماجه في "الصلاة"، (١٠٥٣)، وابن خزيمة (٥٦٢)، والحاكم (١/ ٢١٩)، وفي سنده ضعف.

رسول الله رأيتني في النوم كأني تحت شجرة والشجرة تقرأ "ص" فلما بلغت السجدة سجدت فيها، فسمعتها تقول في سجودها: اللهم اكتب لي بها أجرا، وحط عني بها وزرا، وارزقني بها شكرا، وتقبلـها مني كما تقبلت من عبدك داود سجدته. فقال لي النبي ﷺ: (أفسجدت أنت يا أبا سعيد) فقلت: لا والله يا رسول الله. فقال: (لقد كنت أحق بالسجود من الشجرة) ثم قرأ النبي ﷺ "ص" حتى بلغ السجدة فسجد، ثم قال مثل ما قالت الشجرة[١].

الثالثة والعشرون: قولـه تعالى: ﴿ فغفرنا لـه ذلك ﴾ أي فغفرنا لـه ذنبه. قال ابن الأنباري: "فغفرنا لـه ذلك" تام، ثم تبتدئ "وإن لـه" وقال القشيري: ويجوز الوقف على "فغفرنا لـه" ثم تبتدئ "ذلك وإن لـه" كقولـه: ﴿ هذا وإن للطاغين ﴾ (ص: ٥٥) أي الأمر ذلك. وقال عطاء الخراساني وغيره: إن داود سجد أربعين يوما حتى نبت المرعى من حر جوفه وغمر رأسه، فنودي: أجائع فتطعم وأعار فتكسى؛ فنحب نحبة هاج المرعى من حر جوفه، فغفر لـه وستر بها. فقال: يا رب هذا ذنبي فيما بيني وبينك قد غفرته، وكيف بفلان وكذا وكذا رجلا من بني إسرائيل، تركت أولادهم أيتاما، ونساءهم أرامل؟ قال: يا داود لا يجاوزني يوم القيامة ظلم أمكنه منك ثم أستوهبك منه بثواب الجنة. قال: يا رب هكذا تكون المغفرة الـهينة. ثم قيل: يا داود ارفع رأسك. فذهب ليرفع رأسه فإذا به قد نشب في الأرض، فأتاه جبريل فاقتلعه عن وجه الأرض كما يقتلع من الشجرة صمغها. رواه الوليد بن مسلم عن ابن جابر عن عطاء. قال الوليد: وأخبرني منير بن الزبير، قال: فلزق مواضع مساجده على الأرض من فروة وجهه ما شاء الله. قال الوليد قال ابن لـهيعة: فكان يقول في سجوده سبحانك هذا شرابي دموعي وهذا طعامي في رماد بين يدي. في رواية: إنه سجد أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة، فبكى حتى نبت العشب من دموعه. وروي مرفوعا من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: (إن داود مكث أربعين ليلة ساجدا حتى نبت العشب من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول في سجوده: يا رب داود زل زلة بعد بها ما بين المشرق والمغرب رب إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثا في الخلق من بعده فقال لـه جبريل بعد أربعين سنة يا داود إن الله قد غفر لك الـهم الذي هممت به)[٢] وقال وهب: إن داود عليه السلام نودي أني قد غفرت لك. فلم يرفع رأسه حتى جاءه جبريل فقال: لم لا ترفع رأسك وربك قد غفر لك؟ قال يا رب كيف وأنت لا تظلم أحدا. فقال الله لجبريل: اذهب إلى داود فقل لـه يذهب إلى قبر أوريا فيتحلل منه، فأنا أسمعه نداءه. فلبس داود المسوح وجلس عند قبر أوريا ونادى يا أوريا فقال: لبيك ! من هذا الذي قطع علي لذتي وأيقظني؟ فقال: أنا أخوك داود أسألك أن تجعلني في حل فإني عرضتك للقتل قال: عرضتني للجنة فأنت في حل. وقال الحسن وغيره: كان داود عليه السلام بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين، ويقول: تعالوا إلى داود الخطاء، ولا يشرب شرابا إلا مزجه بدموع عينيه. وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قصعة فلا يزال يبكي حتى يبتل بدموعه، وكان يذر عليه الرماد والملح فيأكل

---

(١) ضعيف.

(٢) موضوع.

ويقول: هذا أكل الخاطئين. وكان قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر. ثم صام بعده الدهر كلـه وقام الليل كلـه. وقال: يا رب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته منقوشة في كفه. فكان لا يبسطها لطعام ولا شراب ولا شيء إلا رآها فأبكته، وإن كان ليؤتى بالقدح ثلثاه ماء، فإذا تناولـه أبصر خطيئته فما يضعه عن شفته حتى يفيض من دموعه. وروى الوليد بن مسلم: حدثني أبو عمرو الأوزاعي أن رسول الله ﷺ قال: (إنما مثل عيني داود مثل القربتين تنطفان ولقد خدد الدموع في وجه داود خديد الماء في الأرض)[1].

قال الوليد: وحدثنا عثمان بن أبي العاتكة أنه كان في قول داود إذ هو خلو من الخطيئة شدة قولـه في الخاطئين أن كان يقول: اللهم لا تغفر للخاطئين. ثم صار إلى أن يقول: اللهم رب اغفر للخاطئين لكي تغفر لداود معهم؛ سبحان خالق النور. إلـهي خرجت أسأل أطباء عبادك أن يداووا خطيئتي فكلـهم عليك يدلني. إلـهي! أخطأت خطيئة قد خفت أن تجعل حصادها عذابك يوم القيامة إن لم تغفرها؛ سبحان خالق النور. إلـهي! إذا ذكرت خطيئتي ضاقت الأرض برحبها علي، وإذا ذكرت رحمتك ارتد إلي روحي. وفي الخبر: أن داود عليه السلام كان إذا علا المنبر رفع يمينه فاستقبل بها الناس ليريهم نقش خطيئته؛ فكان ينادي: إلـهي! إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك ارتد إلي روحي؛ رب! اغفر للخاطئين كي تغفر لداود معهم. وكان يقعد على سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد، فكانت تستنقع دموعه تحت رجليه حتى تنفذ من الأفرشة كلـها. وكان إذا كان يوم نوحه نادى مناديه في الطرق والأسواق والأودية والشعاب وعلى رؤوس الجبال وأفواه الغيران: ألا إن هذا يوم نوح داود، فمن أراد أن يبكي على ذنبه فليأت داود فيسعده؛ فيهبط السياح من الغيران والأودية، وترتج الأصوات حول منبره والوحوش والسباع والطير عكف؛ وبنو إسرائيل حول منبره؛ فإذا أخذ في العويل والنوح، وأثارت الحرقات منابع دموعه، صارت الجماعة ضجة واحدة نوحا وبكاء، حتى يموت حول منبره بشر كثير في مثل ذلك اليوم. ومات داود عليه السلام فيما قيل يوم السبت فجأة؛ أتاه ملك الموت وهو يصعد في محرابه وينزل؛ فقال: جئت لأقبض روحك. فقال: دعني حتى أنزل أو أرتقي. فقال: ما لي إلى ذلك سبيل؛ نفدت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق، فما أنت بمؤثر بعدها أثرا. قال: فسجد داود على مرقاة من الدرج فقبض نفسه على تلك الحال. وكان بينه وبين موسى عليهما السلام خمسمائة وتسع وتسعون سنة. وقيل: تسع وسبعون، وعاش مائة سنة، وأوصى إلى ابنه سليمان بالخلافة.

الرابعة والعشرون: قولـه تعالى: ﴿ وإن لـه عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ قال محمد بن كعب ومحمد بن قيس: "وإن لـه عندنا لزلفى" قربة بعد المغفرة. "وحسن مآب" قالا: والله إن أول من يشرب الكأس يوم القيامة داود. وقال مجاهد عن عبد الله بن عمر: الزلفى الدنو من الله عز وجل يوم القيامة. وعن مجاهد: يبعث داود يوم القيامة وخطيئته منقوشة في يده: فإذا رأى أهاويل يوم القيامة لم يجد منها محرزا إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى. قال: ثم يرى خطيئته فيقلق فيقال لـه ها هنا؛ ثم يرى

(١) ضعيف منقطع.

فيقلق فيقال لـه هاهنا، ثم يرى فيقلق فيقال لـه هاهنا؛ حتى يقرب فيسكن فذلك قولـه عز وجل: "وإن لـه عندنا لزلفى وحسن مآب" ذكره الترمذي الحكيم. قال: حدثنا الفضل بن محمد، قال حدثنا عبد الملك بن الأصبغ قال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري عن عبد الملك ابن أبي سليمان عن مجاهد فذكره. قال الترمذي: ولقد كنت أمر زمانا طويلا بهذه الآيات فلا ينكشف لي المراد والمعنى من قولـه: "ربنا عجل لنا قطنا" والقط الصحيفة في اللغة؛ وذلك أن رسول الله ﷺ تلا عليهم: ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴾ (الحاقة: ١٩): وقال لـهم: (إنكم ستجدون هذا كله في صحائفكم تعطونها بشمائلكم) قالوا: "ربنا عجل لنا قطنا" أي صحيفتنا "قبل يوم الحساب" قال الله تعالى: "اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد" فقص قصة خطيئته إلى منتهاها، فكنت أقول: أمره بالصبر على ما قالوا، وأمره بذكر داود فأي شيء أريد من هذا الذكر؟ وكيف اتصل هذا بذاك؟ فلا أقف على شيء يسكن قلبي عليه، حتى هداني الله لـه يوما فألـهمته أن هؤلاء أنكروا قول أنهم يعطون كتبهم بشمائلـهم، فيها ذنوبهم وخطاياهم استهزاء بأمر الله؛ وقالوا: "ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب" فأوجعه ذلك من استهزائهم، فأمره بالصبر على مقالتهم، وأن يذكر عبده داود؛ سأل تعجيل خطيئته أن يراها منقوشة في كفه، فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها اضطرب وامتلأ القدح من دموعه، وكان إذا رآها بكى حتى تنفذ سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد، فإنما سألـها بعد المغفرة وبعد ضمان تبعة الخصم، وأن الله تبارك وتعالى اسمه يستوهبه منه، وهو حبيبه ووليه وصفيه؛ فرؤية نقش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صنعت به هكذا، فكيف كان يحل بأعداء الله وبعصاته من خلقه وأهل خزيه، لو عجلت لـهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك الخطايا التي عملوها على الكفر والجحود، وماذا يحل بهم إذا نظروا إليها في تلك الصحائف، وقد أخبر الله عنهم فقال: ﴿ فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ (الكهف: ٤٩) فداود صلوات الله عليه مع المغفرة والبشرى والعطف لم يقم لرؤية صورتها. وقد روينا في الحديث: إذا رآها يوم القيامة منقوشة في كفه قلق حتى يقال لـه ها هنا، ثم يرى فيقلق ثم يقال ها هنا، ثم يرى فيقلق حتى يقرب فيسكن.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ أي ملكناك لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلف من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين وقد مضى في "البقرة" القول في الخليفة وأحكامه مستوفى والحمد لله.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ﴾ أي بالعدل وهو أمر على الوجوب وقد ارتبط هذا بما قبلـه، وذلك أن الذي عوتب عليه داود طلبه المرأة من زوجها وليس ذلك بعدل. فقيل لـه بعد

هذا؛ فاحكم بين الناس بالعدل ﴿ ولا تتبع الـهوى ﴾ أي لا تقتد بهواك المخالف لأمر الله. ﴿ فيضلك عن سبيل الله ﴾ أي عن طريق الجنة. ﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله ﴾ أي يحيدون عنها ويتركونها ﴿لـهم عذاب شديد﴾ في النار ﴿ بما نسوا يوم الحساب ﴾ أي بما تركوا من سلوك طريق الله؛ فقولـه: "نسوا" أي تركوا الإيمان به، أو تركوا العمل به فصاروا كالناسين. ثم قيل: هذا لداود لما أكرمه الله بالنبوة. وقيل: بعد أن تاب عليه وغفر خطيئته.

الثالثة : الأصل في الأقضية قولـه تعالى: ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ﴾ وقولـه: ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ﴾ (المائدة: ٤٩) وقولـه تعالى: ﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ (النساء: ١٠٥) وقولـه تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ﴾ (المائدة: ٨) الآية. وقد تقدم الكلام فيه.

الرابعة : قال ابن عباس في قولـه تعالى: ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الـهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ قال: إن ارتفع لك الخصمان فكان لك في أحدهما هوى، فلا تشته في نفسك الحق لـه ليفلح على صاحبه، فإن فعلت محوت اسمك من نبوتي، ثم لا تكون خليفتي ولا أهل كرامتي. فدل هذا على بيان وجوب الحكم بالحق، وألا يميل إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء نفع، أو سبب يقتضي الميل من صحبة أو صداقة، أو غيرهما. وقال ابن عباس: إنما ابتلي سليمان بن داود عليه السلام، لأنه تقدم إليه خصمان فهوى أن يكون الحق لأحدهما. وقال عبد العزيز ابن أبي رواد: بلغني أن قاضيا كان في زمن بني إسرائيل، بلغ من اجتهاده أن طلب إلى ربه أن يجعل بينه وبينه علما، إذا هو قضى بالحق عرف ذلك؛ وإذا هو قصر عرف ذلك، فقيل لـه: ادخل منزلك، ثم مد يدك في جدارك، ثم انظر حيث تبلغ أصابعك من الجدار فاخطط عندها خطا؛ فإذا أنت قمت من مجلس القضاء، فارجع إلى ذلك الخط فامدد يدك إليه، فإنك متى ما كنت على الحق فإنك ستبلغه، وإن قصرت عن الحق قصر بك، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد فكان لا يقضي إلا بحق، وإذا قام من مجلسه وفرغ لم يذق طعاما ولا شرابا، ولم يفض إلى أهلـه بشيء من الأمور حتى يأتي ذلك الخط، فإذا بلغه حمد الله وأفضى إلى كل ما أحل الله لـه من أهل أو مطعم أو مشرب. فلما كان ذات يوم وهو في مجلس القضاء، أقبل إليه رجلان يريدانه: فوقع في نفسه أنهما يريدان أن يختصما إليه، وكان أحدهما لـه صديقا وخدنا، فتحرك قلبه عليه محبة أن يكون الحق لـه فيقضي لـه، فلما أن تكلما دار الحق على صاحبه فقضى عليه، فلما قام من مجلسه ذهب إلى خطه كما كان يذهب كل يوم، فمد يده إلى الخط فإذا الخط قد ذهب وتشمر إلى السقف، وإذا هو لا يبلغه فخر ساجدا وهو يقول: يا رب شيئا لم أتعمده ولم أرده فبينه لي. فقيل لـه: أتحسبن أن الله تعالى لم يطلع على خيانة قلبك، حيث أحببت أن يكون الحق لصديقك لتقضي لـه به، قد أردته وأحببته ولكن الله قد رد الحق إلى أهلـه وأنت كاره.

وعن ليث قال: تقدم إلى عمر بن الخطاب خصمان فأقامهما، ثم عادا فأقامهما، ثم عادا ففصل بينهما، فقيل لـه في ذلك، فقال: تقدما إلي فوجدت لأحدهما ما لم أجد لصاحبه، فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك، ثم عادا فوجدت بعض ذلك لـه، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما.

وقال الشعبي: كان بين عمر وأبيّ خصومة، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته، فقال عمر: هذا أول جورك؛ أجلسني وإياه مجلسا واحدا؛ فجلسا بين يديه.

الخامسة: هذه الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه؛ لأن الحكام لو مكنوا أن يحكموا بعلمهم لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليه ويهلك عدوه إلا ادعى علمه فيما حكم به. ونحو ذلك روي عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر؛ قال: لو رأيت رجلا على حد من حدود الله، ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيري. وروي أن امرأة جاءت إلى عمر فقالت له: احكم لي على فلان بكذا فإنك تعلم ما لي عنده. فقال لها: إن أردت أن أشهد لك فنعم وأما الحكم فلا. وفي صحيح مسلم عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قضى بيمين وشاهد[١]؛ وروي عن النبي ﷺ أنه اشترى فرسا فجحده البائع، فلم يحكم عليه بعلمه وقال: (من يشهد لي) فقام خزيمة فشهد فحكم. خرج الحديث أبو داود وغيره وقد مضى في "البقرة"[٢].

قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ (٢٨) كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٢٩) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ﴾ أي هزلا ولعبا. أي ما خلقناهما إلا لأمر صحيح وهو الدلالة على قدرتنا. ﴿ ذلك ظن الذين كفروا ﴾ أي حسبان الذين كفروا أن الله خلقهما باطلا. ﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾ ثم وبخهم فقال: ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ والميم صلة تقديره: أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ كالمفسدين في الأرض ﴾ فكان في هذا رد على المرجئة؛ لأنهم يقولون: يجوز أن يكون المفسد كالصالح أو أرفع درجة منه. وبعده أيضا: ﴿ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ أي أنجعل أصحاب محمد عليه السلام كالكفار؛ قاله ابن عباس. وقيل هو عام في المسلمين المتقين والفجار الكافرين وهو أحسن، وهو رد على منكري البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد.

قوله تعالى: ﴿ كتاب ﴾ أي هذا كتاب ﴿ أنزلناه إليك مبارك ﴾ أي "أنزلناه إليك مبارك" يا محمد ﴿ ليدبروا ﴾ أي ليتدبروا فأدغمت التاء في الدال. وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهذ[٣]؛ إذ لا يصح التدبر مع الهذ على ما بيناه في كتاب التذكار. وقال الحسن: تدبر آيات الله اتباعها. وقراءة العامة "ليدبروا". وقرأ أبو حنيفة وشيبة: "لتدبروا" بتاء وتخفيف الدال، وهي قراءة علي رضي الله عنه، والأصل لتتدبروا فحذف إحدى التاءين تخفيفا ﴿ وليتذكر

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٢).

(٢) صحيح وقد تقدم في سورة البقرة عند تفسير الآية (٢٨٢).

(٣) الهذ: سرعة القراءة.

أولو الألباب﴾ أي أصحاب العقول واحدها لب، وقد جمع على ألب، كما جمع بؤس على أبؤس، ونعم على أنعم؛ قال أبو طالب:

قلبي إليه مشرف الألب

وربما أظهروا التضعيف في ضرورة الشعر؛ قال الكميت:

إليكم ذوي آل النبي تطلعت   نوازع من قلبي ظماء وألبب

قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ﴾ لما ذكر داود ذكر سليمان و "أواب" معناه مطيع. ﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ يعني الخيل جمع جواد للفرس إذا كان شديد الحضر[1]؛ كما يقال للإنسان جواد إذا كان كثير العطية غزيرها؛ يقال: قوم أجواد وخيل جياد، جاد الرجل بماله يجود جودا فهو جواد، وقوم جود مثال قذال وقذل، وإنما سكنت الواو لأنها حرف علة، وأجواد وأجاود وجوداء، وكذلك امرأة جواد ونسوة جود مثل نوار ونور، قال الشاعر أبو شهاب الهذبي:

صناع بإشفاها حصان بشكرها   جواد بقوت البطن والعرق زاخر

وتقول: سرنا عقبة جوادا، وعقبتين جوادين، وعقبا جيادا. وجاد الفرس أي صار رائعا يجود جودة بالضم فهو جواد للذكر والأنثى، من خيل جياد وأجياد وأجاويد. وقيل: إنها الطوال الأعناق مأخوذ من الجيد وهو العنق؛ لأن طول الأعناق في الخيل من صفات فراهتها. وفي الصافنات أيضا وجهان: أحدهما أن صفونها قيامها. قال القتبي والفراء: الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها. ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: (من سره أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوأ مقعده من النار)[2] أي يديمون له القيام؛ حكاه قطرب أيضا وأنشد قول النابغة:

لنا قبة مضروبة بفنائها   عتاق المهارى والجياد الصوافن

وهذا قول قتادة. الثاني أن صفونها رفع إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقوم على ثلاث كما قال الشاعر:

ألف الصفون فما يزال كأنه   مما يقوم على الثلاث كسيرا

وقال عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه   مُقلَّدة أعنتها صفونا

وهذا قول مجاهد. قال الكلبي: غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين فأصاب منهم ألف فرس. وقال مقاتل: ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس، وكان أبوه أصابها من العمالقة. وقال الحسن: بلغني

---

(١) الحُضْر: ارتفاع الفرس في عدوه.

(٢) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٥٩٥٧) بلفظ: "من أحب . . ." .

أنها كانت خيلا خرجت من البحر لـها أجنحة. وقالـه الضحاك. وأنها كانت خيلا أخرجت لسليمان من البحر منقوشة ذات أجنحة. ابن زيد: أخرج الشيطان لسليمان الخيل من البحر من مروج البحر، وكانت لـها أجنحة. وكذلك قال علي ﷺ: كانت عشرين فرسا ذوات أجنحة. وقيل: كانت مائة فرس. وفي الخبر عن إبراهيم التيمي: أنها كانت عشرين ألفا، فالله أعلم. فقال: ﴿ إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾ يعني بالخير الخيل، والعرب تسميها كذلك، وتعاقب بين الراء واللام؛ فتقول: انهملت العين وانهمرت، وختلت وخترت إذا خدعت. قال الفراء: الخير في كلام العرب والخيل واحد. النحاس: في الحديث: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)[1] فكأنها سميت خيرا لـهذا. وفي الحديث: لما وفد زيد الخيل على النبي ﷺ، قال لـه: (أنت زيد الخير) وهو زيد بن مهلـهل الشاعر. وقيل: إنما سميت خيرا لما فيها من المنافع. وفي الخبر: إن الله تعالى عرض على آدم جميع الدواب، وقيل لـه: اختر منها واحدا فاختار الفرس؛ فقيل لـه: اخترت عزك؛ فصار اسمه الخير من هذا الوجه. وسمي خيلا؛ لأنها موسومة بالعز. وسمي فرسا لأنه يفترس مسافات الجو افتراس الأسد وثبانا، ويقطعها كالالتهام بيديه على كل شيء خبطا وتناولا. وسمي عربيا لأنه جيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاء عن رفع قواعد البيت، وإسماعيل عربي فصارت لـه نحلة من الله؛ فسمي عربيا. و"حب" مفعول في قول الفراء. والمعنى إني آثرت حب الخير. وغيره يقدره مصدرا أضيف إلى المفعول؛ أي أحببت الخير حبا فألـهاني عن ذكر ربي. وقيل: إن معنى "أحببت" قعدت وتأخرت من قولـهم: أحب البعير إذا برك وتأخر. وأحب فلان أي طأطأ رأسه. قال أبو زيد: يقال: بعير محب، وقد أحب إحبابا وهو أن يصيبه مرض أو كسر فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت. وقال ثعلب: يقال أيضا للبعير الحسير محب؛ فالمعنى قعدت عن ذكر ربي. و"حب" على هذا مفعول لـه. وذكر أبو الفتح الـهمداني في كتاب التبيان: أحببت بمعنى لزمت؛ من قولـه:

مثل بعير السَّوء إذ أحبَّا

قولـه تعالى: ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ يعني الشَمس كناية عن غير مذكور؛ مثل قولـه تعالى: ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ (فاطر: ٤٥) أي على ظهر الأرض؛ وتقول العرب: هاجت باردة أي هاجت الريح باردة. وقال الله تعالى: ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ (الواقعة: ٨٣) أي بلغت النفس الحلقوم. وقال تعالى: ﴿ إنها ترمي بشرر كالقصر ﴾ (المرسلات: ٣٢) ولم يتقدم للنار ذكر. وقال الزجاج: إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء أو دليل الذكر، وقد جرى ها هنا الدليل وهو قولـه: "بالعشي". والعشي ما بعد الزوال، والتواري الاستتار عن الأبصار، والحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق؛ قالـه قتادة وكعب. وقيل: هو جبل قاف. وقيل: جبل دون قاف. والحجاب الليل سمي حجابا لأنه يستر ما فيه. وقيل: "حتى توارت" أي الخيل في المسابقة. وذلك أن سليمان كان لـه ميدان مستدير يسابق فيه بين الخيل، حتى توارت عنه وتغيب عن عينه في المسابقة؛ لأن الشمس لم يجر

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

لـها ذكر. وذكر النحاس أن سليمان عليه السلام كان في صلاة فجيء إليه بخيل لتعرض عليه قد غنمت فأشار بيده لأنه كان يصلي حتى توارت الخيل وسترتها جدر الاصطبلات فلما فرغ من صلاته قال: "ردوها علي فطفق مسحا" أي فأقبل يمسحها مسحا. وفي معناه قولان: أحدهما أنه أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراما منه لـها، وليرى أن الجليل لا يقبح أن يفعل مثل هذا بخيلـه. وقال قائل هذا القول: كيف يقتلـها؟ وفي ذلك إفساد المال ومعاقبة من لا ذنب لـه. وقيل: المسح ها هنا هو القطع أذن لـه في قتلـها. قال الحسن والكلبي ومقاتل: صلى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه، وكانت ألف فرس؛ فعرض عليه منها تسعمائة فتنبه لصلاة العصر، فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة، ولم يعلم بذلك هيبة لـه فاغتم؛ فقال: "ردوها علي" فردت فعقرها بالسيف؛ قربة لله وبقي منها مائة، فما في أيدي الناس من الخيل العتاق اليوم فهي من نسل تلك الخيل. قال القشيري: وقيل: ما كان في ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر، بل كانت تلك الصلاة نافلة فشغل عنها. وكان سليمان عليه السلام رجلا مهيبا، فلم يذكره أحد ما نسي من الفرض أو النفل وظنوا التأخر مباحا، فتذكر سليمان تلك الصلاة الفائتة، وقال على سبيل التلـهف: "إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي" أي عن الصلاة، وأمر برد الأفراس إليه، وأمر بضرب عراقيبها وأعناقها، ولم يكن ذلك معاقبة للأفراس؛ إذ ذبح البهائم جائز إذا كانت مأكولة، بل عاقب نفسه حتى لا تشغلـه الخيل بعد ذلك عن الصلاة. ولعلـه عرقبها ليذبحها فحبسها بالعرقبة عن النفار، ثم ذبحها في الحال، ليتصدق بلحمها؛ أو لأن ذلك كان مباحا في شرعه فأتلفها لما شغلته عن ذكر الله، حتى يقطع عن نفسه ما يشغلـه عن الله، فأثنى الله عليه بهذا، وبين أنه أثابه بأن سخر لـه الريح، فكان يقطع عليها من المسافة في يوم ما يقطع مثلـه على الخيل في شهرين غدوا ورواحا. وقد قيل: إن الـهاء في قولـه: "ردوها علي" للشمس لا للخيل.

قال ابن عباس: سألت عليا عن هذه الآية فقال: ما بلغك فيها؟ فقلت سمعت كعبا يقول: إن سليمان لما اشتغل بعرض الأفراس حتى توارت الشمس بالحجاب وفاتته الصلاة، قال: "إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي" أي آثرت "حب الخير عن ذكر ربي" الآية "ردوها علي" يعني الأفراس وكانت أربع عشرة؛ فضرب سوقها وأعناقها بالسيف، وأن الله سلبه ملكه أربعة عشر يوما؛ لأنه ظلم الخيل. فقال علي بن أبي طالب: كذب كعب لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت أي غربت الشمس بالحجاب؛ فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس: "ردوها" يعني الشمس فردوها حتى صلى العصر في وقتها، وأن أنبياء الله لا يظلمون لأنهم معصومون.

قلت: الأكثر في التفسير أن التي توارت بالحجاب هي الشمس، وتركها لدلالة السامع عليها بما ذكر مما يرتبط بها ويتعلق بذكرها، حسب ما تقدم بيانه. وكثيرا ما يضمرون الشمس؛ قال لبيد:

حتى إذا ألـقت يدا فـي كافر وأجن عورات الثغور ظلامها

والـهاء في "ردوها" للخيل، ومسحها قال الزهري وابن كيسان: كان يمسح سوقها وأعناقها، ويكشف الغبار عنها حبا لـها. وقاله الحسن وقتادة وابن عباس. وفي الحديث أن النبي ﷺ رئي وهو

يمسح فرسه بردائه. وقال: (إني عوتبت الليلة في الخيل)[1] خرجه الموطأ عن يحيى بن سعيد مرسلا. وهو في غير الموطأ مسند متصل عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أنس. وقد مضى في "الأنفال" قوله ﷺ: (وامسحوا بنواصيها وأكفالها)[2] وروى ابن وهب عن مالك أنه مسح أعناقها وسوقها بالسيوف.

قلت: وقد استدل الشبلي وغيره من الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا. وهو استدلال فاسد؛ لأنه لا يجوز أن ينسب إلى نبي معصوم أنه فعل الفساد. والمفسرون اختلفوا في معنى الآية؛ فمنهم من قال: مسح على أعناقها وسوقها إكراما لها وقال: أنت في سبيل الله؛ فهذا إصلاح. ومنهم من قال: عرقبها ثم ذبحها، وذبح الخيل وأكل لحمها جائز. وقد مضى في "النحل" بيانه. وعلى هذا فما فعل شيئا عليه فيه جناح. فأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض صحيح فإنه لا يجوز. ومن الجائز أن يكون في شريعة سليمان جواز ما فعل، ولا يكون في شرعنا. وقد قيل: إنما فعل بالخيل ما فعل بإباحة الله جل وعز له ذلك. وقد قيل: إن مسحه إياها وسمها بالكي وجعلها في سبيل الله؛ فالله أعلم. وقد ضعف هذا القول من حيث أن السوق ليست بمحل للوسم بحال. وقد يقال: الكي على الساق علاط، وعلى العنق وثاق. والذي في الصحاح للجوهري: علط البعير علطا كواه في عنقه بسمة العلاط. والعلاطان جانبا العنق.

قلت: ومن قال إن الهاء في "ردوها" ترجع للشمس فذلك من معجزاته. وقد اتفق مثل ذلك لنبينا ﷺ. خرج الطحاوي في مشكل الحديث عن أسماء بنت عميس من طريقين أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس؛ فقال رسول الله ﷺ: (أصليت يا علي) قال: لا. فقال رسول الله ﷺ: (اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس) قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها بعدما غربت طلعت على الجبال والأرض، وذلك بالصهباء في خيبر[3]. قال الطحاوي: وهذان الحديثان ثابتان، ورواتهما ثقات.

قلت: وضعف أبو الفرج بن الجوزي هذا الحديث فقال: وغلو الرافضة في حب علي رضي الله عنه حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة في فضائله؛ منها أن الشمس غابت ففاتت عليا رضي الله عنه العصر فردت له الشمس، وهذا من حيث النقل محال، ومن حيث المعنى فإن الوقت قد فات وعودها طلوع متجدد لا يرد الوقت. ومن قال: إن الهاء ترجع إلى الخيل، وأنها كانت تبعد عن عين سليمان في السباق، ففيه دليل على المسابقة بالخيل وهو أمر مشروع. وقد مضى القول فيه في "يوسف".

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾

(١) ضعيف.
(٢) تقدم.
(٣) "موضوع" ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات" (١/ ٣٥٥).

فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولقد فتنا سليمان ﴾ قيل: فتن سليمان بعدما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة؛ ذكره الزمخشري. و "فتنا" أي ابتلينا وعاقبنا. وسبب ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: اختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان أحدهما من أهل جرادة امرأة سليمان؛ وكان يحبها فهوى أن يقع القضاء لـهم، ثم قضى بينهما بالحق، فأصابه الذي أصابه عقوبة لذلك الـهوى. وقال سعيد بن المسيب: إن سليمان عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد، ولا ينصف مظلوما من ظالم، فأوحى الله تعالى إليه: "إني لم أستخلفك لتحتجب عن عبادي ولكن لتقضي بينهم وتنصف مظلومهم". وقال شهر بن حوشب ووهب بن منبه: إن سليمان عليه السلام سبى بنت ملك غزاه في البحر، في جزيرة من جزائر البحر يقال لـها صيدون. فألقيت عليه محبتها وهي تعرض عنه، لا تنظر إليه إلا شزرا، ولا تكلمه إلا نزرا، وكان لا يرقأ لـها دمع حزنا على أبيها، وكانت في غاية من الجمال، ثم إنها سألته أن يصنع لـها تمثالا على صورة أبيها حتى تنظر إليه، فأمر فصنع لـها فعظمته وسجدت لـه، وسجدت معها جواريها، وصار صنما معبودا في داره وهو لا يعلم، حتى مضت أربعون ليلة، وفشا خبره في بني إسرائيل وعلم به سليمان فكسره، وحرقه ثم ذراه في البحر. وقيل: إن سليمان لما أصاب ابنة ملك صيدون واسمها جرادة ـ فيما ذكر الزمخشري ـ أعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبت، فخوفها فقالت: اقتلني ولا أسلم، فتزوجها وهي مشركة فكانت تعبد صنما لـها من ياقوت أربعين يوما في خفية من سليمان إلى أن أسلمت فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوما. وقال كعب الأحبار: إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه. وقال الحسن: إنه قارب بعض نسائه في شيء من حيض أو غيره. وقيل: إنه أمر ألا يتزوج امرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوج امرأة من غيرهم، فعوقب على ذلك[1]؛ والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ وألقينا على كرسيه جسدا ﴾ قيل: شيطان في قول أكثر أهل التفسير؛ ألقى الله شبه سليمان عليه السلام عليه، واسمه صخر بن عمير صاحب البحر، وهو الذي دل سليمان على الماس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس، فصوتت الحجارة لما صنعت بالحديد، فأخذوا الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوت. قال ابن عباس: كان ماردا لا يقوى عليه جميع الشياطين، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان بن داود، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه، فجاء صخر في صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان أم ولد لـه يقال لـها الأمينة؛ قاله شهر ووهب. وقال ابن عباس وابن جبير: اسمها جرادة. فقام أربعين يوما على ملك سليمان وسليمان هارب، حتى رد الله عليه الخاتم والملك. وقال سعيد بن المسيب: كان سليمان قد وضع خاتمه تحت

---

(١) كل هذه الأقوال فاسدة من وضع الزنادقة الذين يرومون القدح في أنبياء الله.

فراشه، فأخذه الشيطان من تحته. وقال مجاهد: أخذه الشيطان من يد سليمان؛ لأن سليمان سأل الشيطان وكان اسمه آصف: كيف تضلون الناس؟ فقال لـه الشيطان: أعطني خاتمك حتى أخبرك. فأعطاه خاتمه، فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسي سليمان، متشبها بصورته، داخلا على نسائه، يقضي بغير الحق، ويأمر بغير الصواب.

واختلف في إصابته لنساء سليمان، فحكي عن ابن عباس ووهب بن منبه: أنه كان يأتيهن في حيضهن[١]. وقال مجاهد: منع من إتيانهن وزال عن سليمان ملكه فخرج هاربا إلى ساحل البحر يتضيف الناس؛ ويحمل سموك الصيادين بالأجر، وإذا أخبر الناس أنه سليمان أكذبوه. قال قتادة: ثم إن سليمان بعد أن استنكر بنو إسرائيل حكم الشيطان أخذ حوته من صياد. قيل: إنه استطعمها. وقال ابن عباس: أخذها أجرة في حمل حوت. وقيل: إن سليمان صادها فلما شق بطنها وجد خاتمه فيها، وذلك بعد أربعين يوما من زوال ملكه، وهي عدد الأيام التي عبد فيها الصنم في داره، وإنما وجد الخاتم في بطن الحوت؛ لأن الشيطان الذي أخذه ألقاه في البحر. وقال علي بن أبي طالب ﷺ: بينما سليمان على شاطئ البحر وهو يعبث بخاتمه، إذ سقط منه في البحر وكان ملكه في خاتمه. وقال جابر بن عبد الله: قال النبي ﷺ: (كان نقش خاتم سليمان بن داود لا إله إلا الله محمد رسول الله)[٢]. وحكى يحيى بن أبي عمرو الشيباني أن سليمان وجد خاتمه بعسقلان، فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعا لله تعالى. قال ابن عباس وغيره: ثم إن سليمان لما رد الله عليه ملكه، أخذ صخرا الذي أخذ خاتمه، ونقر لـه صخرة وأدخله فيها، وسد عليه بأخرى وأوثقها بالحديد والرصاص، وختم عليها بخاتمه وألقاها في البحر، وقال: هذا محبسك إلى يوم القيامة.

وقال علي ﷺ: لما أخذ سليمان الخاتم، أقبلت إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحش والريح، وهرب الشيطان الذي خلف في أهله، فأتى جزيرة في البحر، فبعث إليه الشياطين فقالوا: لا نقدر عليه، ولكنه يرد عينا في الجزيرة في كل سبعة أيام يوما، ولا نقدر عليه حتى يسكر! قال: فنزح سليمان ماءها وجعل فيها خمرا، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر، فقال: والله إنك لشراب طيب إلا أنك تطيشين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا. ثم عطش عطشا شديدا ثم أتاه فقال مثل مقالته، ثم شربها فغلبت على عقله؛ فأروه الخاتم فقال: سمعا وطاعة. فأتوا به سليمان فأوثقه وبعث به إلى جبل، فذكروا أنه جبل الدخان فقالوا: إن الدخان الذي ترون من نفسه، والماء الذي يخرج من الجبل من بوله. وقال مجاهد: اسم ذلك الشيطان آصف. وقال السدي اسمه حبقيق؛ فالله أعلم. وقد ضعف هذا القول من حيث إن الشيطان لا يتصور بصورة الأنبياء، ثم من المحال أن يلتبس على أهل

---

(١) هـذا من أقبح ما قيل في حق الأنبياء، فرحم الله القرطبي كيف يجرؤ على إيراد مثل هذا ولا يستنكره لو ينوه على بطلانه، قال ابن كثير (٤/ ٣٦): "... ولهذا كان في هذا السياق منكرات من أشدها ذكر النساء. وقال أبو حيان في "البحر المحيط": نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم وهي مما لا يحل نقلها، وهي إما من أوضاع اليهود أو الزنادقة ... وقال الألوسي: ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطئهن وهن حيض. الله أكبر سبحانك هذا بهتان عظيم.

(٢) موضوع، ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، (١/ ٢٠١).

مملكة سليمان الشيطان بسليمان حتى يظنوا أنهم مع نبيهم في حق، وهم مع الشيطان في باطل. وقيل: إن الجسد وَلَدٌ وُلِدَ لسليمان، وأنه لما ولد اجتمعت الشياطين؛ وقال بعضهم لبعض: إن عاش لـه ابن لم ننفك مما نحن فيه من البلاء والسخرة، فتعالوا نقتل ولده أو نخبله. فعلم سليمان بذلك فأمر الريح حتى حملته إلى السحاب، وغدا ابنه في السحاب خوفا من مضرة الشياطين، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتا. قال معناه الشعبي. فهو الجسد الذي قال الله تعالى: "وألقينا على كرسيه جسدا".

وحكى النقاش وغيره: إن أكثر ما وطئ سليمان جواريه طلبا للولد، فولد لـه نصف إنسان، فهو كان الجسد الملقى على كرسيه جاءت به القابلة فألقته هناك. وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلـهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله فقال لـه صاحبه قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهن جميعا فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيم الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون)[1] وقيل: إن الجسد هو آصف بن برخيا الصديق كاتب سليمان، وذلك أن سليمان لما فتن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه، فأعاده إلى يده فسقط فأيقن بالفتنة؛ فقال لـه آصف: إنك مفتون ولذلك لا يتماسك في يدك، ففر إلى الله تعالى تائبا من ذلك، وأنا أقوم مقامك في عالمك إلى أن يتوب الله عليك، ولك من حين فتنت أربعة عشر يوما. ففر سليمان هاربا إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم فوضعه في يده فثبت، وكان عنده علم من الكتاب. وقام آصف في ملك سليمان وعيالـه، يسير بسيره ويعمل بعملـه، إلى أن رجع سليمان إلى منزلـه تائبا إلى الله تعالى، ورد الله عليه ملكه؛ فأقام آصف في مجلسه، وجلس على كرسيه وأخذ الخاتم. وقيل: إن الجسد كان سليمان نفسه؛ وذلك أنه مرض مرضا شديدا حتى صار جسدا. وقد يوصف به المريض المضني فيقال: كالجسد الملقى.

صفة كرسي سليمان وملكه:

روي عن ابن عباس قال: كان سليمان يوضع لـه ستمائة كرسي، ثم يجيء أشراف الناس فيجلسون مما يليه، ثم يأتي أشراف الجن فيجلسون مما يلي الإنس، ثم يدعو الطير فتظلـهم، ثم يدعو الريح فتقلـهم، وتسير بالغداة الواحدة مسيرة شهر. وقال وهب وكعب وغيرهما: إن سليمان عليه السلام لما ملك بعد أبيه، أمر باتخاذ كرسي ليجلس عليه للقضاء، وأمر أن يعمل بديعا مهولا بحيث إذا رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وتهيب؛ فأمر أن يعمل من أنياب الفيلة مفصصة بالدر والياقوت والزبرجد، وأن يحف بنخيل الذهب؛ فحف بأربع نخلات من ذهب، شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر، على رأس نخلتين منهما طاووسان من ذهب، وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابل لبعض، وجعلوا من جنبي الكرسي أسدين من ذهب، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر. وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر، واتخذوا عناقيدها من

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٣٩)، ومسلم (١٦٠٤).

الياقوت الأحمر، بحيث أظل عريش الكروم النخل والكرسي. وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى، فيستدير الكرسي كله بما فيه دوران الرحى المسرعة، وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها، ويبسط الأسدان أيديهما، ويضربان الأرض بأذنابهما. وكذلك يفعل في كل درجة يصعدها سليمان، فإذا استوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأسه، ثم يستدير الكرسي بما فيه، ويدور معه النسران والطاووسان والأسدان مائلان برؤوسهما إلى سليمان، وينضحن عليه من أجوافهن المسك والعنبر، ثم تناوله حمامة من ذهب قائمة على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسي التوراة، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء. قالوا: ويجلس عظماء بني إسرائيل على كراسي الذهب المفصصة بالجواهر، وهي ألف كرسي عن يمينه، ويجلس عظماء الجن على كراسي الفضة عن يساره وهي ألف كرسي، ثم تحف بهم الطير تظلهم، ويتقدم الناس لفصل القضاء. فإذا تقدمت الشهود للشهادات، دار الكرسي بما فيه وعليه دوران الرحى المسرعة، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما، وينشر النسران والطاووسان أجنحتهما، فتفزع الشهود فلا يشهدون إلا بالحق.

وقيل: إن الذي كان يدور بذلك الكرسي تنين من ذهب ذلك الكرسي عليه، وهو عظيم مما عمله له صخر الجني؛ فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأسد والطواويس التي في أسفل الكرسي إلى أعلاه درن معه، فإذا وقفن وقفن كلهن على رأس سليمان وهو جالس، ثم ينضحن جميعا على رأسه ما في أجوافهن من المسك والعنبر. فلما توفي سليمان بعث بختنصر فأخذ الكرسي فحمله إلى أنطاكية، فأراد أن يصعد إليه ولم يكن له علم كيف يصعد إليه؛ فلما وضع رجله ضرب الأسد رجله فكسرها، وكان سليمان إذا صعد وضع قدميه جميعا. ومات بختنصر وحمل الكرسي إلى بيت المقدس، فلم يستطع قط ملك أن يجلس عليه، ولكن لم يدر أحد عاقبة أمره ولعله رفع.

قوله تعالى: ﴿ ثم أناب ﴾ أي رجع إلى الله وتاب. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ قال رب اغفر لي ﴾ أي اغفر لي ذنبي ﴿ وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ يقال: كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا، مع ذمها من الله تعالى، وبغضه لها، وحقارتها لديه؟. فالجواب أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسة ملكه، وترتيب منازل خلقه، وإقامة حدوده، والمحافظة على رسومه[(١)]، وتعظيم شعائره، وظهور عبادته، ولزوم طاعته، ونظم قانون الحكم النافذ عليهم منه، وتحقيق الوعود في أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ما صرح بذلك لملائكته فقال: ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ (البقرة: ٣٠) وحوشي سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلبا لنفس الدنيا؛ لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها، وإنما سأل مملكتها لله، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله؛ فكانا محمودين مجابين إلى ذلك، فأجيب نوح فأهلك من عليها، وأعطي سليمان المملكة. وقد قيل: إن ذلك كان بأمر من الله جل وعز على الصفة التي علم الله أنه لا يضبطه إلا هو وحده دون سائر عباده، أو أراد أن يقول ملكا عظيما فقال: "لا

---

(١) في نسخة رسوله.

ينبغي لأحد من بعدي" وهذا فيه نظر. والأول أصح. ثم قال لـه: ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ قال الحسن: ما من أحد إلا ولله عليه تبعة في نعمه غير سليمان بن داود عليه السلام فإنه قال: "هذا عطاؤنا" الآية.

قلت: وهذا يرد ما روي في الخبر: إن آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليه السلام لمكان ملكه في الدنيا. وفي بعض الأخبار: يدخل الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريفا؛ ذكره صاحب القوت وهو حديث لا أصل لـه؛ لأنه سبحانه إذا كان عطاؤه لا تبعة فيه، لأنه من طريق المنة، فكيف يكون آخر الأنبياء دخولا الجنة، وهو سبحانه يقول: "وإن لـه عندنا لزلفى وحسن مآب". وفي الصحيح: (لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته...)[1] الحديث. وقد تقدم فجعل لـه من قبل السؤال حاجة مقضية، فلذلك لم تكن عليه تبعة. ومعنى قولـه: "لا ينبغي لأحد من بعدي" أي أن يسألـه. فكأنه سأل منع السؤال بعده، حتى لا يتعلق به أمل أحد، ولم يسأل منع الإجابة. وقيل: إن سؤالـه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده؛ ليكون محلـه وكرامته من الله ظاهرا في خلق السموات والأرض؛ فإن الأنبياء عليهم السلام لـهم تنافس في المحل عنده، فكل يحب أن تكون لـه خصوصية يستدل بها على محلـه عنده، ولـهذا لما أخذ النبي ﷺ العفريت الذي أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه، أراد ربطه ثم تذكر قول أخيه سليمان: "رب اغفر لي وهب لى ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي" فرده خاسئا[2]. فلو أعطي أحد بعده مثلـه ذهبت الخصوصية، فكأنه كره ﷺ أن يزاحمه في تلك الخصوصية، بعد أن علم أنه شيء هو الذي خص به من سخرة الشياطين، وأنه أجيب إلى ألا يكون لأحد بعده. والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ فسخرنا لـه الريح تجري بأمره رخاء ﴾ أي لينة مع قوتها وشدتها حتى لا تضر بأحد، وتحملـه بعسكره وجنوده وموكبه. وكان موكبه فيما روي فرسخا في فرسخ، مائة درجة بعضها فوق بعض، كل درجة صنف من الناس، وهو في أعلى درجة مع جواريه وحشمه وخدمه؛ صلوات الله وسلامه عليه. وذكر أبو نعيم الحافظ قال: حدثنا أحمد بن جعفر، قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدثنا أحمد بن محمد بن أيوب، قال حدثنا أبو بكر بن عياش عن إدريس بن وهب ابن منبه، قال حدثني أبي قال: كان لسليمان بن داود عليه السلام ألف بيت أعلاه قوارير وأسفلـه حديد، فركب الريح يوما فمر بحرات فنظر إليه الحراث فقال: لقد أوتي آل داود ملكا عظيما فحملت الريح كلامه فألقته في أذن سليمان، قال فنزل حتى أتى الحراث فقال: إني سمعت قولك، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه؛ لتسبيحة واحدة يقبلـها الله منك لخير مما أوتي آل داود. فقال الحراث: أذهب الله همك كما أذهبت همي.

قولـه تعالى: ﴿ حيث أصاب ﴾ أي أراد؛ قالـه مجاهد. والعرب تقول: أصاب الصواب وأخطأ الجواب. أي أراد الصواب وأخطأ الجواب؛ قاله ابن الأعرابي. وقال الشاعر:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦١) وفي مواضع أخر من صحيحه، ومسلم (٥٤١).

أصاب الكلام فلم يستطع فأخطأ الجواب لدى المفصل

وقيل: أصاب: أراد بلغة حمير. وقال قتادة: هو بلسان هجر. وقيل: "حيث أصاب" حيثما قصد، وهو مأخوذ من إصابة السهم الغرض المقصود. ﴿والشياطين﴾ أي وسخرنا لـه الشياطين وما سخرت لأحد قبلـه. ﴿كل بناء﴾ بدل من الشياطين أي كل بناء منهم، فهم يبنون لـه ما يشاء. قال النابغة الذبياني:

إلا سليمان إذ قال الإلـه لـه قُم في البرية فاحددها عن الفنَد
وخيس الجنّ إني قد أذنت لهم يبنون تدمُرَ بالصُّفاح والعمدَ

﴿وغواص﴾ يعني في البحر يستخرجون لـه الدر. فسليمان أول من استخرج لـه اللؤلؤ من البحر. ﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ أي وسخرنا لـه مردة الشياطين حتى قرنهم في سلاسل الحديد وقيود الحديد؛ قاله قتادة. السدي: الأغلال. ابن عباس: في وثاق. ومنه قول الشاعر عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

قال يحيى بن سلام: ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخرهم.

قولـه تعالى: ﴿هذا عطاؤنا﴾ الإشارة بهذا إلى الملك، أي هذا الملك عطاؤنا فأعط من شئت أو امنع من شئت لا حساب عليك؛ عن الحسن والضحاك وغيرهما. قال الحسن: ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان عليه السلام؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾. وقال قتادة: الإشارة في قولـه تعالى: "هذا عطاؤنا" إلى ما أعطيه من القوة على الجماع، وكانت لـه ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية، وكان في ظهره ماء مائة رجل، رواه عكرمة عن ابن عباس. ومعناه في البخاري. وعلى هذا "فامنن" من المني؛ يقال: أمنى يمني ومنى يمني لغتان، فإذا أمرت من أمنى قلت أمن؛ ويقال: من منى يمني في الأمر امن، فإذا جئت بنون الفعل نون الخفيفة قلت امنن. ومن ذهب به إلى المنة قال: من عليه؛ فإذا أخرجه مخرج الأمر أبرز النونين؛ لأنه كان مضاعفا فقال امنن. فيروى في الخبر أنه سخر لـه الشياطين، فمن شاء من عليه بالعتق والتخلية، ومن شاء أمسكه؛ قاله قتادة والسدي. وعلى ما روى عكرمة عن ابن عباس: أي جامع من شئت من نسائك، واترك جماع من شئت منهن لا حساب عليك. ﴿وإن لـه عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ أي إن أنعمنا عليه في الدنيا فلـه عندنا في الآخرة قربة وحسن مرجع.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾ أمر للنبي ﷺ بالاقتداء بهم في الصبر على المكاره. "أيوب" بدل. ﴿إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ وقرأ عيسى بن عمر "إني" بكسر الهمزة أي قال. قال الفراء: وأجمعت القراء على أن قرؤوا "بنصب" بضم النون والتخفيف. النحاس:

وهذا غلط وبعده مناقضة وغلط أيضا؛ لأنه قال: أجمعت القراء على هذا، وحكى بعده أنهم ذكروا عن يزيد بن القعقاع أنه قرأ: "بنصب" بفتح النون والصاد فغلط على أبي جعفر، وإنما قرأ أبو جعفر: "بنصب" بضم النون والصاد؛ كذا حكاه أبو عبيد وغيره وهو مروي عن الحسن. فأما "بنصب" فقراءة عاصم الجحدري ويعقوب الحضرمي. وقد رويت هذه القراءة عن الحسن وقد حكي "بنصب" بفتح النون وسكون الصاد عن أبي جعفر. وهذا كله عند أكثر النحويين بمعنى النصب فنصب ونصب كحزن وحزن. وقد يجوز أن يكون نصب جمع نصب كوُثُن ووَثَن. ويجوز أن يكون نصب بمعنى نصب حذفت منه الضمة، فأما ﴿وما ذبح على النصب﴾(المائدة: ٣) فقيل: إنه جمع نصاب. وقال أبو عبيدة وغيره: النصب الشر والبلاء. والنصب التعب والإعياء. وقد قيل في معنى: "أني مسني الشيطان بنصب وعذاب" أي ما يلحقه من وسوسته لا غير. والله أعلم. ذكره النحاس. وقيل: إن النصب ما أصابه في بدنه، والعذاب ما أصابه في ماله؛ وفيه بعد. وقال المفسرون: إن أيوب كان روميا من البثنية وكنيته أبو عبد الله في قول الواقدي؛ اصطفاه الله بالنبوة، وأتاه جملة عظيمة من الثروة في أنواع الأموال والأولاد. وكان شاكرا لأنعم الله؛ مواسيا لعباد الله، برا رحيما. ولم يؤمن به إلا ثلاثة نفر. وكان لإبليس موقف من السماء السابعة في يوم من العام، فوقف به إبليس على عادته؛ فقال الله له أو قيل له عنه: أقدرت من عبدي أيوب على شيء؟ فقال: يا رب وكيف أقدر منه على شيء، وقد ابتليته بالمال والعافية، فلو ابتليته بالبلاء والفقر ونزعت منه ما أعطيته لحال عن حاله، ولخرج عن طاعتك، قال الله: قد سلطتك على أهله وماله. فانحط عدو الله فجمع عفاريت الجن فأعلمهم، وقال قائل منهم: أكون إعصارا فيه نار أهلك ماله فكان؛ فجاء أيوب في صورة قيم ماله فأعلمه بما جرى؛ فقال: الحمد لله هو أعطاه وهو منعه. ثم جاء قصره بأهله وولده، فاحتمل القصر من نواحيه حتى ألقاه على أهله وولده، ثم جاء إليه وأعلمه فألقى التراب على رأسه، وصعد إبليس إلى السماء فسبقته توبة أيوب. قال: يا رب سلطني على بدنه. قال: قد سلطتك على بدنه إلا على لسانه وقلبه وبصره، فنفخ في جسده نفخة اشتعل منها فصار في جسده ثآليل فحكها بأظفاره حتى دميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه. وقال عند ذلك: "مسني الشيطان". ولم يخلص إلى شيء من حشوة البطن؛ لأنه لا بقاء للنفس إلا بها فهو يأكل ويشرب، فمكث كذلك ثلاث سنين. فلما غلبه أيوب اعترض لامرأته في هيئة أعظم من هيئة بني آدم في القدر والجمال، وقال لها: أنا إله الأرض، وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت، ولو سجدت لي سجدة واحدة لرددت عليه أهله وماله وهم عندي. وعرض لها في بطن الوادي ذلك كله في صورته؛ أي أظهره لها، فأخبرت أيوب فأقسم أن يضربها إن عافاه الله.

وذكروا كلاما طويلا في سبب بلائه ومراجعته لربه وتبرمه من البلاء الذي نزل به، وأن النفر الثلاثة الذين آمنوا به نهوه عن ذلك واعترضوا عليه، وقيل: استعان به مظلوم فلم ينصره فابتلي بسبب ذلك. وقيل: استضاف يوما الناس فمنع فقيرا الدخول فابتلي بذلك. وقيل: كان أيوب يغزو ملكا وكان له غنم في ولايته، فداهنه لأجلها بترك غزوه فابتلي. وقيل: كان الناس يتعدون امرأته

ويقولون نخشى العدوى وكانوا يستقذرونها؛ فلهذا قال: "مسني الشيطان". وامرأته ليا بنت يعقوب. وكان أيوب في زمن يعقوب وكانت أمه ابنة لوط. وقيل: كانت زوجة أيوب رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام. ذكر القولين الطبري رحمه الله. قال ابن العربي: ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان لـه مكان في السماء السابعة يوما من العام فقول باطل؛ لأنه أهبط منها بلعنة وسخط إلى الأرض، فكيف يرقى إلى محل الرضا، ويجول في مقامات الأنبياء، ويخترق السموات العلى، ويعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء، فيقف موقف الخليل؟! إن هذا لخطب من الجهالة عظيم. وأما قولـهم: إن الله تعالى قال لـه هل قدرت من عبدي أيوب على شيء فباطل قطعا؛ لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون؛ فكيف يكلم من تولى إضلالـهم؟! وأما قولـهم: إن الله قال قد سلطتك على مالـه وولده فذلك ممكن في القدرة، ولكنه بعيد في هذه القصة. وكذلك قولـهم: إنه نفخ في جسده حين سلطه عليه فهو أبعد، والباري سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان فيه كسب حتى تقر لـه ـ لعنة الله عليه ـ عين بالتمكن من الأنبياء في أموالـهم وأهليهم وأنفسهم. وأما قولـهم: إنه قال لزوجته أنا إلـه الأرض، ولو تركت ذكر الله وسجدت أنت لي لعافيته، فاعلموا وإنكم لتعلمون أنه لو عرض لأحدكم وبه ألم وقال هذا الكلام ما جاز عنده أن يكون إلـها في الأرض، وأنه يسجد لـه، وأنه يعافي من البلاء، فكيف أن تستريب زوجة نبي؟! ولو كانت زوجة سوادي أو فدم بربري ما ساغ ذلك عندها. وأما تصويره الأموال والأهل في واد للمرأة فذلك ما لا يقدر عليه إبليس بحال، ولا هو في طريق السحر فيقال إنه من جنسه. ولو تصور لعلمت المرأة أنه سحر كما نعلمه نحن وهي فوقنا في المعرفة بذلك؛ فإنه لم يخل زمان قط من السحر وحديثه وجريه بين الناس وتصويره.

قال القاضي: والذي جرأهم على ذلك وتذرعوا به إلى ذكر هذا قولـه تعالى: "إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب" فلما رأوه قد شكا مس الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير في هذه الأقوال. وليس الأمر كما زعموا والأفعال كلـها خيرها وشرها. في إيمانها وكفرها، طاعتها وعصيانها، خالقها هو الله لا شريك لـه في خلقه، ولا في خلق شيء غيرها، ولكن الشر لا ينسب إليه ذكرا، وإن كان موجودا منه خلقا؛ أدبا أدبنا به، وتحميدا علمناه. وكان من ذكر محمد ﷺ لربه به قوله من جملته: (والخير في يديك والشر ليس إليك)[1] على هذا المعنى. ومنه قول إبراهيم: ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ (الشعراء: ٨٠) وقال الفتى للكليم: ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان ﴾ (الكهف: ٦٣) وأما قولـهم: إنه استعان به مظلوم فلم ينصره، فمن لنا بصحة هذا القول. ولا يخلو أن يكون قادرا على نصره، فلا يحل لأحد تركه فيلام على أنه عصى وهو منزه عن ذلك، أو كان عاجزا فلا شيء عليه في ذلك، وكذلك قولـهم: إنه منع فقيرا من الدخول؛ إن كان علم به فهو باطل عليه وإن لـم يعلم به فلا شيء عليه فيه. وأما قولـهم: إنه داهن على غنمه الملك الكافر فلا تقل داهن ولكن قل دارى. ودفع الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز؛ نعم ويحسن الكلام. قال ابن العربي القاضي أبو بكر ﷺ: ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين؛

---

(١) أخرجه مسلم وغيره.

الأولى قولـه تعالى: ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر ﴾ (الأنبياء: ٨٣) والثانية في: (ص) "أني مسني الشيطان بنصب وعذاب". وأما النبي ﷺ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قولـه: (بينا أيوب يغتسل إذ خر عليه رجل من جراد من ذهب...)(١) الحديث. وإذ لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أي لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات؛ فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالا، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا. وفي الصحيح واللفظ للبخاري أن ابن عباس قال: يا معشر المسلمين تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه محضا لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب؛ فقالوا: ﴿ هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ﴾ (البقرة: ٧٩) ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم، وقد أنكر النبي ﷺ في حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة.

قولـه تعالى: ﴿ اركض برجلك ﴾ الركض الدفع بالرجل. يقال: ركض الدابة وركض ثوبه برجلـه. وقال المبرد: الركض التحريك؛ ولـهذا قال الأصمعي: يقال ركضت الدابة ولا يقال ركضت هي؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لـها في ذلك. وحكى سيبويه: ركضت الدابة فركضت مثل جبرت العظم فجبر وحزنته فحزن؛ وفي الكلام إضمار أي قلنا لـه: "اركض" قاله الكسائي. وهذا لما عافاه الله. ﴿ هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ أي فركض فنبعت عين ماء فاغتسل به، فذهب الداء من ظاهره، ثم شرب منه فذهب الداء من باطنه. وقال قتادة: هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لـها الجابية، فاغتسل من إحداهما فأذهب الله تعالى ظاهر دائه، وشرب من الأخرى فأذهب الله تعالى باطن دائه. ونحوه عن الحسن ومقاتل؛ قال مقاتل: نبعت عين حارة واغتسل فيها فخرج صحيحا، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذبا. وقيل: أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء في جسده. والمغتسل الماء الذي يغتسل به؛ قاله القتبي. وقيل: إنه الموضع الذي يغتسل فيه؛ قاله مقاتل. الجوهري: واغتسلت بالماء، والغسول الماء الذي يغتسل به، وكذلك المغتسل، قال الله تعالى: "هذا مغتسل بارد وشراب" والمغتسل أيضا الذي يغتسل فيه، والمغسل والمغسل بكسر السين وفتحها مغسل الموتى والجمع المغاسل. واختلف كم بقي أيوب في البلاء؛ فقال ابن عباس: سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات. وقال وهب بن منبه: أصاب أيوب البلاء سبع سنين، وترك يوسف في السجن سبع سنين، وعذب بختنصر وحول في السباع سبع سنين. ذكره أبو نعيم. وقيل: عشر سنين. وقيل: ثمان عشرة سنة. رواه أنس مرفوعا فيما ذكر الماوردي.

قلت: وذكره ابن المبارك؛ أخبرنا يونس بن يزيد، عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ ذكر يوما أيوب، وما أصابه من البلاء، وذكر أن البلاء الذي أصابه كان به ثمان عشرة سنة. وذكر الحديث القشيري. وقيل: أربعين سنة.

استدل بعض جهال المتزهدة؛ وطغام المتصوفة بقولـه تعالى لأيوب: "اركض برجلك" على جواز الرقص. قال أبو الفرج الجوزي: وهذا احتجاج بارد؛ لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحا كان لـهم

---

(١) أخرجه البخاري وغيره، وقد تقدم.

فيه شبهة، وإنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء. قال ابن عقيل: أين الدلالة في مبتلى أمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازا من الرقص ولئن جاز قوله سبحانه لموسى: ﴿ اضرب بعصاك الحجر ﴾ (البقرة: ٦٠) دلالة على ضرب المحاد بالقضبان نعوذ بالله من التلاعب بالشرع. وقد احتج بعض قاصريهم بأن رسول الله ﷺ قال لعلي: (أنت مني وأنا منك)(١) فحجل، وقال لجعفر: (أشبهت خلقي وخلقي) فحجل. وقال لزيد: (أنت أخونا ومولانا)(٢) فحجل. ومنهم من احتج بأن الحبشة زفنت والنبي ﷺ ينظر إليهم. والجواب: أما الحجل فهو نوع من المشي يفعل عند الفرح فأين هو والرقص، وكذلك زفن الحبشة نوع من المشي يفعل عند اللقاء للحرب.

قوله تعالى: ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم ﴾ تقدم في "الأنبياء" الكلام فيه. ﴿ رحمة منا ﴾ أي نعمة منا. ﴿ وذكرى لأولي الألباب ﴾ أي عبرة لذوي العقول.

قوله تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى: كان أيوب حلف في مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة؛ وفي سبب ذلك أربعة أقوال: أحدها: ما حكاه ابن عباس أن إبليس لقيها في صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب، فقال أداويه على أنه إذا برئ قال أنت شفيتني، لا أريد جزاء سواه. قالت: نعم فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنها. وقال: ويحك ذلك الشيطان. الثاني: ما حكاه سعيد بن المسيب، أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز، فخاف خيانتها فحلف ليضربنها. الثالث: ما حكاه يحيى بن سلام وغيره: أن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقربا إليه وأنه يبرأ، فذكرت ذلك له فحلف ليضربنها إن عوفي مائة. الرابع: قيل: باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئا تحمله إلى أيوب، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام، فلهذا حلف ليضربنها، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثا فيضرب به، فأخذ شماريخ قدر مائة فضربها ضربة واحدة. وقيل: الضغث قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس. وقال ابن عباس: إنه إثكال النخل الجامع بشماريخه.

الثانية: تضمنت هذه الآية جواز ضرب الرجل امرأته تأديبا. وذلك أن امرأة أيوب أخطأت فحلف ليضربنها مائة، فأمره الله تعالى أن يضربها بعثكول من عثاكيل النخل، وهذا لا يجوز في الحدود. إنما أمره الله بذلك لئلا يضرب امرأته فوق حد الأدب. وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب امرأته فوق حد الأدب؛ ولهذا قال ﷺ: (واضربوهن ضربا غير مبرح) على ما تقدم في "النساء" بيانه.

الثالثة: واختلف العلماء في هذا الحكم هل هو عام أو خاص بأيوب وحده، فروي عن مجاهد أنه عام للناس. ذكره ابن العربي. وحكي عن القشيري أن ذلك خاص بأيوب. وحكى المهدوي عن

---

(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث البراء، دون قوله: "فحجل".
(٢) أخرجاه في الصحيحين من حديث البراء، دون قوله: "فحجل".

عطاء بن أبي رباح أنه ذهب إلى أن ذلك حكم باق، وأنه إذا ضرب بمائة قضيب ونحوه ضربة واحدة بر. وروى نحوه الشافعي. وروى نحوه عن النبي ﷺ في المقعد الذي حملت منه الوليدة، وأمر أن يضرب بعثكول فيه مائة شمراخ ضربة واحدة. وقال القشيري: وقيل لعطاء هل يعمل بهذا اليوم؟ فقال: ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ويتبع. ابن العربي: وروي عن عطاء أنها لأيوب خاصة. وكذلك روى أبو زيد عن ابن القاسم عن مالك: من حلف ليضربن عبده مائة فجمعها فضربه بها ضربة واحدة لم يبر. قال بعض علمائنا: يريد مالك قوله تعالى: ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ (المائدة: ٤٨) أي إن ذلك منسوخ بشريعتنا. قال ابن المنذر: وقد روينا عن علي أنه جلد الوليد بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة. وأنكر مالك هذا وتلا قول الله عز وجل: ﴿ فاجلدوا كل واحد منهما مائة جَلدة ﴾ (النور: ٢) وهذا مذهب أصحاب الرأي. وقد احتج الشافعي لقوله بحديث، وقد تكلم في إسناده؛ والله أعلم.

قلت: الحديث الذي احتج به الشافعي خرجه أبو داود في سننه قال: حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني، قال حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس عن ابن شهاب، قال: أخبرني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره بعض أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنه اشتكى رجل منهم حتى أضنى، فعاد جلدة على عظم، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهش لها فوقع عليها، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال: استفتوا لي رسول الله ﷺ؛ فإني قد وقعت على جارية دخلت علي. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذي هو به؛ لو حملناه إليك لتفسخت عظامه، ما هو إلا جلد على عظم؛ فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة[1]. قال الشافعي: إذا حلف ليضربن فلانا مائة جلدة، أو ضربا ولم يقل ضربا شديدا ولم ينو ذلك بقلبه يكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية ولا يحنث. قال ابن المنذر: وإذا حلف الرجل ليضربن عبده مائة فضربه ضربا خفيفا فهو بار عند الشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي. وقال مالك: ليس الضرب إلا الضرب الذي يؤلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ ولا تحنث ﴾ دليل على أن الاستثناء في اليمين لا يرفع حكما إذا كان متراخيا. وقد مضى القول فيه في "المائدة" يقال: حنث في يمينه يحنث إذا لم يبر بها. وعند الكوفيين الواو مقحمة أي فاضرب لا تحنث.

الخامسة: قال ابن العربي: قوله تعالى: ﴿ فاضرب به ولا تحنث ﴾ يدل على أحد وجهين: إما أن يكون أنه لم يكن في شرعهم كفارة، وإنما كان البر والحنث. والثاني أن يكون صدر منه نذر لا يمين وإذا كان النذر معينا فلا كفارة فيه عند مالك وأبي حنيفة. وقال الشافعي: في كل نذر كفارة.

السادسة: قلت: قوله إنه لم يكن في شرعهم كفارة ليس بصحيح؛ فإن أيوب عليه السلام لما بقي في البلاء ثمان عشرة سنة، كما في حديث ابن شهاب، قال له صاحباه: لقد أذنبت ذنبا ما أظن أحدا بلغه. فقال أيوب عليه السلام: ما أدري ما تقولان، غير أن ربي عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين

---

(١) "صحيح" أخرجه أبو داود (٤٤٧٢)، وابن ماجه (٢٥٧٤).

يتزاعمان فكل يحلف بالله، أو على النفر يتزاعمون فأنقلب إلى أهلي، فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يأثم أحد يذكره ولا يذكره إلا بحق فنادى ربه ﴿ أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ (الأنبياء: ٨٣) وذكر الحديث. فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب، وأن من كفر عن غيره بغير إذنه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة.

السابعة: قولـه تعالى: ﴿ إنا وجدناه صابرا ﴾ أي على البلاء. ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ أي تواب رجاع مطيع. وسئل سفيان عن عبدين ابتلي أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر؛ فقال: كلاهما سواء؛ لأن الله تعالى أثنى على عبدين؛ أحدهما صابر والآخر شاكر ثناء واحدا؛ فقال في وصف أيوب: "نعم العبد إنه أواب" وقال في وصف سليمان: "نعم العبد إنه أواب".

قلت: وقد رد هذا الكلام صاحب (القوت) واستدل بقصة أيوب في تفضيل الفقير على الغني وذكر كلاما كثيرا شيد به كلامه، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع من كتاب (منهج العباد ومحجة السالكين والزهاد). وخفي عليه أن أيوب عليه السلام كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده، وإنما ابتلي بذهاب مالـه وولده وعظيم الداء في جسده. وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به امتحنوا وفتنوا. فأيوب عليه السلام دخل في البلاء على صفة، فخرج منه كما دخل فيه، وما تغير منه حال ولا مقال، فقد اجتمع مع أيوب في المعنى المقصود، وهو عدم التغير الذي يفضل فيه بعض الناس بعضا. وبهذا الاعتبار يكون الغني الشاكر والفقير الصابر سواء. وهو كما قال سفيان. والله أعلم. وفي حديث ابن شهاب عن النبي ﷺ: (إن أيوب خرج لما كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه: "اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب" فاغتسل فأعاد الله لحمه وشعره وبشره على أحسن ما كان ثم شرب فأذهب الله كل ما كان في جوفه من ألم أو ضعف وأنزل الله عليه ثوبين من السماء أبيضين فائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ثم أقبل يمشي إلى منزلـه وراث على امرأته فأقبلت حتى لقيته وهي لا تعرفه فسلمت عليه وقالت أي يرحمك الله هل رأيت هذا الرجل المبتلى؟ قال من هو؟ قالت نبي الله أيوب، أما والله ما رأيت أحدا قط أشبه به منك إذ كان صحيحا. قال فإني أيوب وأخذ ضغثا فضربها به)[1] فزعم ابن شهاب أن ذلك الضغث كان ثماما. ورد الله إليه أهلـه ومثلـهم معهم، فأقبلت سحابة حتى سجلت في أندر قمحه ذهبا حتى امتلأ، وأقبلت سحابة أخرى إلى أندر شعيره وقطانيه فسجلت فيه ورقا حتى امتلأ.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ وقرأ ابن عباس: "عبدنا" بإسناد صحيح؛ رواه ابن عيينة عن عمرو عن عطاء عنه، وهي قراءة مجاهد وحميد وابن محيصن وابن كثير؛ فعلى هذه القراءة يكون "إبراهيم" بدلا من "عبدنا" و"إسحاق ويعقوب" عطف. والقراءة بالجمع

---

(١) ضعيف لإرسالـه.

أبين، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم، ويكون "إبراهيم" وما بعده على البدل. النحاس: وشرح هذا من العربية أنك إذا قلت: رأيت أصحابنا زيدا وعمرا وخالدا، فزيد وعمرو وخالد بدل وهم الأصحاب، وإذا قلت رأيت صاحبنا زيدا وعمرا وخالدا فزيد وحده بدل وهو صاحبنا، وزيد وعمرو عطف على صاحبنا وليسا بداخلين في المصاحبة إلا بدليل غير هذا، غير أنه قد علم أن قولـه: "وإسحاق ويعقوب" داخل في العبودية. وقد استدل بهذه الآية من قال: إن الذبيح إسحاق لا إسماعيل، وهو الصحيح على ما ذكرناه في كتاب (الإعلام بمولد النبي عليه السلام). ﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ قال النحاس: أما "الأبصار" فمتفق على تأويلـها أنها البصائر في الدين والعلم. وأما "الأيدي" فمختلف في تأويلـها؛ فأهل التفسير يقولون: إنها القوة في الدين. وقوم يقولون: "الأيدي" جمع يد وهي النعمة؛ أي هم أصحاب النعم؛ أي الذين أنعم الله عز وجل عليهم. وقيل: هم أصحاب النعم والإحسان؛ لأنهم قد أحسنوا وقدموا خيرا. وهذا اختيار الطبري. ﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ أي الذين اصطفاهم من الأدناس واختارهم لرسالته ومصطفين جمع مصطفى والأصل مصتفى وقد مضى في "البقرة" عند قولـه: ﴿ إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ (البقرة: ١٣٢) "والأخيار" جمع خير. وقرأ الأعمش وعبد الوارث والحسن وعيسى الثقفي "أولي الأيد" بغير ياء في الوصل والوقف على معنى أولي القوة في طاعة الله. ويجوز أن يكون كمعنى قراءة الجماعة وحذفت الياء تخفيفا.

قولـه تعالى: ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ قراءة العامة "بخالصة" منونة وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر "بخالصة ذكرى الدار" بالإضافة فمن نون خالصة فـ "ذكرى الدار" بدل منها؛ التقدير إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهبوا لـها ويرغبوا فيها ويرغبوا الناس فيها. ويجوز أن يكون "خالصة" مصدراً لخلص و"ذكرى" في موضع رفع بأنها فاعلـه، والمعنى أخلصناهم بأن خلصت لـهم ذكرى الدار؛ أي تذكير الدار الآخرة. ويجوز أن يكون "خالصة" مصدرا لأخلصت فحذفت الزيادة، فيكون "ذكرى" على هذا في موضع نصب، التقدير: بأن أخلصوا ذكرى الدار. والدار يجوز أن يراد بها الدنيا؛ أي ليتذكروا الدنيا ويزهدوا فيها، ولتخلص لـهم بالثناء الحسن عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وجعلنا لـهم لسان صدق عليا ﴾ (مريم: ٥٠) ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها. ومن أضاف خالصة إلى الدار فهي مصدر بمعنى الإخلاص، والذكرى مفعول به أضيف إليه المصدر؛ أي بإخلاصهم ذكرى الدار. ويجوز أن يكون المصدر مضافا إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص؛ أي بأن خلصت لـهم ذكرى الدار، وهي الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدم. وقال ابن زيد: معنى أخلصناهم أي بذكر الآخرة؛ أي يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون في الدنيا. وقال مجاهد: المعنى إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لـهم.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل ﴾ مضى ذكر اليسع في (الأنعام) وذكر ذي الكفل في (الأنبياء). ﴿ وكل من الأخيار ﴾ أي ممن اختير للنبوة. ﴿ هذا ذكر ﴾ بمعنى هذا ذكر جميل في الدنيا وشرف يذكرون به في الدنيا أبدا. ﴿ وإن للمتقين لحسن مآب ﴾ أي لهم مع هذا الذكر الجميل في الدنيا حسن المرجع في القيامة. ثم بين ذلك بقوله تعالى: ﴿ جنات عدن ﴾ والعدن في اللغة الإقامة؛ يقال: عدن بالمكان إذا أقام. وقال عبد الله بن عمر: إن في الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد. ﴿ مفتحة ﴾ حال ﴿ لهم الأبواب ﴾ رفعت الأبواب لأنه اسم ما لم يسم فاعله. قال الزجاج: أي مفتحة لهم الأبواب منها. وقال الفراء: مفتحة لهم أبوابها. وأجاز الفراء: "مفتحة لهم الأبواب" بالنصب. قال الفراء: أي مفتحة الأبواب ثم جئت بالتنوين فنصبت. وأنشد هو وسيبويه: (للنابغة الذبياني).

ونأخذ بعده بذناب عَيش أجبُّ الظهر ليس له سنام

وإنما قال: "مفتحة" ولم يقل مفتوحة؛ لأنها تفتح لهم بالأمر لا بالمس. قال الحسن: تُكلم: انفتحي فتنفتح انغلقي فتنغلق. وقيل: تفتح لهم الملائكة الأبواب.

قوله تعالى: ﴿ متكئين فيها ﴾ هو حال قدمت على العامل فيها وهو قوله: ﴿ يدعون فيها ﴾ أي يدعون في الجنات متكئين فيها. ﴿ بفاكهة كثيرة ﴾ أي بألوان الفواكه. قوله تعالى: ﴿ وشراب ﴾ أي وشراب كثير فحذف لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أي على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم وقد مضى في (الصافات). ﴿ أتراب ﴾ أي على سن واحد. وميلاد امرأة واحدة، وقد تساوين في الحسن والشباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة. قال ابن عباس: يريد الآدميات. و"أتراب" جمع ترْب وهو نعت لقاصرات؛ لأن "قاصرات" نكرة وإن كان مضافا إلى المعرفة. والدليل على ذلك أنَ الألف واللام يدخلانه كما قال (امرؤ القيس):

من القاصرات الطَّرف لو دبَّ مُحوِّل من الذَّر فوق الإتب منها لأثرا

قوله تعالى: ﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ أي هذا الجزاء الذي وعدتم به. وقراءة العامة بالتاء أي ما توعدون أيها المؤمنون. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب بالياء على الخبر، وهي قراءة السلمي واختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لقوله تعالى: "وإن للمتقين لحسن مآب" فهو خبر. "ليوم الحساب" أي في يوم الحساب، قال الأعشى:

المهينين ما لـهم لزمان السـ ـــوء حتى إذا أفاق أفاقوا

أي في زمان السوء.

قولـه تعالى: ﴿ إن هذا لرزقنا ما لـه من نفاد﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع؛ كما قال: ﴿ عطاء غير مجذوذ﴾ (هود: ١٠٨) وقال: ﴿ لـهم أجر غير ممنون﴾ (التين: ٦).

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾ لما ذكر ما للمتقين ذكر ما للطاغين. قال الزجاج: "هذا" خبر ابتداء محذوف أي الأمر هذا فيوقف على "هذا" قال ابن الأنباري: "هذا" وقف حسن. ثم تبتدئ "وإن للطاغين" وهم الذين كذبوا الرسل. ﴿ لشر مآب﴾ أي منقلب يصيرون إليه. ثم بين ذلك بقولـه: ﴿ جهنم يصلونها فبئس المهاد﴾ أي بئس ما مهدوا لأنفسهم، أو بئس الفراش لـهم. ومنه مهد الصبي. وقيل: فيه حذف أي بئس موضع المهاد. وقيل: أي هذا الذي وصفت لـهؤلاء المتقين، ثم قال: وإن للطاغين لشر مرجع فيوقف على "هذا" أيضا.

قولـه تعالى: ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾ "هذا" في موضع رفع بالابتداء وخبره "حميم" على التقديم والتأخير؛ أي هذا حميم وغساق فليذوقوه. ولا يوقف على "فليذوقوه" ويجوز أن يكون "هذا" في موضع رفع بالابتداء و"فليذوقوه" في موضع الخبر، ودخلت الفاء للتنبيه الذي في "هذا" فيوقف على "فليذوقوه" ويرتفع "حميم" على تقدير هذا حميم. قال النحاس: ويجوز أن يكون المعنى: الأمر هذا، وحميم وغساق إذا لم تجعلـهما خبرا فرفعهما على معنى هو حميم وغساق. والفراء يرفعهما بمعنى منه حميم ومنه غساق وأنشد:

حتى إذا ما أضاء الصبح في غَلس وغُـودِر البَـقْل ملوي ومحصـــود

وقال آخر:

لـها متــاع وأعـــوان غدون به قتب وغرب إذا ما أفرغ انسحقا

ويجوز أن يكون "هذا" في موضع نصب بإضمار فعل يفسره "فليذوقوه" كما تقول زيدا أضربه. والنصب في هذا أولى فيوقف على "فليذوقوه" وتبتدئ "حميم وغساق" على تقدير الأمر حميم وغساق. وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين في "وغساق". وقرأ يحيى ابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي "وغساق" بالتشديد، وهما لغتان بمعنى واحد في قول الأخفش. وقيل: معناهما مختلف؛ فمن خفف فهو اسم مثل عذاب وجواب وصواب، ومن شدد قال: هو اسم فاعل نقل إلى فعال للمبالغة، نحو ضراب وقتال وهو فعال من غسق يغسق فهو غساق

وغاسق. قال ابن عباس: هو الزمهرير يخوفهم ببرده. وقال مجاهد ومقاتل: هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده. وقال غيرهما: إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحرّه. وقال عبد الله بن عمرو: هو قيح غليظ لو وقع منه شيء بالمشرق لأنتن من في المغرب، ولو وقَع منه شيء في المغرب لأنتن من في المشرق. وقال قتادة: هو ما يسيل من فروج الزناة ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنتن. وقال محمد بن كعب: هو عصارة أهل النار. وهذا القول أشبه باللغة؛ يقال: غسق الجرح يغسق غسقا إذا خرج منه ماء أصفر؛ قال الشاعر:

إذا ما تذكرت الحياة وطيبها ... إلي جرى دمع من الليل غاسق

أي بارد. ويقال: ليل غاسق؛ لأنه أبرد من النهار. وقال السدي: الغساق الذي يسيل من أعينهم ودموعهم يسقونه مع الحميم. وقال ابن زيد: الحميم دموع أعينهم، يجمع في حياض النار فيسقونه، والصديد الذي يخرج من جلودهم. والاختيار على هذا "وغساق" حتى يكون مثل سيال. وقال كعب: الغساق عين في جهنم يسيل إليها سم كل ذي حمة من عقرب وحية. وقيل: هو مأخوذ من الظلمة والسواد. والغسق أول ظلمة الليل، وقد غسق الليل يغسق إذا أظلم. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: قال (لو أن دلوا من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا)[1].

قلت: وهذا أشبه على الاشتقاق الأول كما بينا، إلا أنه يحتمل أن يكون الغساق مع سيلانه أسود مظلما فيصح الاشتقاقان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ قرأ أبو عمرو: "وأخر" جمع أخرى مثل الكبرى والكبر. الباقون: "وآخر" مفرد مذكر. وأنكر أبو عمرو "وآخر" لقوله تعالى: "أزواج" أي لا يخبر بواحد عن جماعة. وأنكر عاصم الجحدري "وأخر" قال: ولو كانت "وأخر" لكان من شكلها. وكلا الردين لا يلزم والقراءتان صحيحتان. "وآخر" أي وعذاب آخر سوى الحميم والغساق. "من شكله" قال قتادة: من نحوه. قال ابن مسعود: هو الزمهرير. وارتفع "وآخر" بالابتداء و"أزواج" مبتدأ ثان و"من شكله" خبره والجملة خبر "آخر". ويجوز أن يكون "وآخر" مبتدأ والخبر مضمر دل عليه "هذا فليذوقوه حميم وغساق" لأن فيه دليلا على أنه لهم، فكأنه قال: ولهم آخر ويكون "من شكله أزواج" صفة لآخر فالمبتدأ متخصص بالصفة و"أزواج" مرفوع بالظرف. ومن قرأ "وأخر" أراد وأنواع من العذاب أخَر، ومن جمع وهو يريد الزمهرير فعلى أنه جعل الزمهرير أجناسا فجمع لاختلاف الأجناس. أو على أنه جعل لكل جزء منه زمهريرا ثم جمع كما قالوا: شابت مفارقه. أو على أنه جمع لما في الكلام من الدلالة على جواز الجمع؛ لأنه جعل الزمهرير الذي هو نهاية البرد بإزاء الجمع في قوله: "هذا فليذوقوه حميم وغساق" والضمير في "شكله" يجوز أن يعود على الحميم أو الغساق. أو على معنى "وآخر من شكله" ما ذكرنا، ورفع "أخَرُ" على قراءة الجمع بالابتداء و"من شكله" صفة له وفيه ذكر يعود على المبتدأ و"أزواج" خبر المبتدأ. ولا يجوز أن يحمل على تقدير ولهم أخر و"من شكله" صفة لأخر و"أزواج" مرتفعة بالظرف كما جاز في الإفراد؛ لأن الصفة لا

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٤٨٠٣).

ضمير فيها من حيث ارتفع "أزواج" بالظرف ولا ضمير في الظرف، والهاء في "شكله" لا تعود على "أخَرُ" لأنه جمع والضمير مفرد، ؛ قالـه أبو علي. و"أزواج" أي أصناف وألوان من العذاب. وقال يعقوب: الشكل بالفتح المثل وبالكسر الدل.

قولـه تعالى: ﴿ هذا فوج مقتحم معكم ﴾ قال ابن عباس: هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع، قالت الخزنة للقادة: "هذا فوج" يعني الأتباع والفوج الجماعة "مقتحم معكم" أي داخل النار معكم؛ فقالت السادة: ﴿ لا مرحبا بهم ﴾.

قولـه تعالى: ﴿لا مرحبا بهم﴾.

أي لا اتسعت منازلـهم في النار. والرحب السعة، ومنه رحبة المسجد وغيره. وهو في مذهب الدعاء فلذلك نصب؛ قال النابغة:

لا مرحبا بغد ولا أهـــلا به إن كان تفريق الأحبة في غد

قال أبو عبيدة العرب تقول: لا مرحبا بك؛ أي لا رحبت عليك الأرض ولا اتسعت. ﴿ إنهم صالو النار ﴾ قيل: هو من قول القادة، أي إنهم صالو النار كما صليناها. وقيل: هو من قول الملائكة متصل بقولـهم: "هذا فوج مقتحم معكم" و"قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم" هو من قول الأتباع وحكى النقاش: إن الفوج الأول قادة المشركين ومطعموهم يوم بدر، والفوج الثاني أتباعهم ببدر. والظاهر من الآية أنها عامة في كل تابع ومتبوع. ﴿ أنتم قدمتموه لنا ﴾ أي دعوتـمونا إلى العصيـان ﴿ فبئس القرار ﴾ لنا ولكم ﴿ قالوا ﴾ يعني الأتباع ﴿ ربنا من قدم لنا هذا ﴾ قال الفراء: من سوغ لنا هذا وسنَّه. وقال غيره من قدم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى المعاصي ﴿ فزده عذابا ضعفا في النار ﴾ وعذابا بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفا. وقال ابن مسعود: معنى عذابا ضعفا في النار الحيات والأفاعي. ونظير هذه الآية قولـه تعالى: ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ﴾ (الأعراف: ٣٨).

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقالوا ﴾ يعني أكابر المشركين ﴿ ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ﴾ قال ابن عباس: يريدون أصحاب محمد ﷺ؛ يقول أبو جهل: أين بلال أين صهيب أين عمار؟ أولئك في الفردوس! وا عجبا لأبي جهل! مسكين؛ أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه، وكفر هو؛ قال:

ونورا أضاء الأرض شرقا ومغربا وموضع رجلي منه أسود مظلم

﴿ أتخذناهم سخريا ﴾ قال مجاهد: أتخذناهم سخريا في الدنيا فأخطأنا ﴿ أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ فلم نعلم مكانهم. قال الحسن: كل ذلك قد فعلوا؛ اتخذوهم سخريا، وزاغت عنهم أبصارهم في الدنيا محقرة لـهم. وقيل: معنى "أم زاغت عنهم الأبصار" أي أهم معنا في النار فلا نراهم. وكان ابن كثير والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي يقرؤون "من الأشرار اتخذناهم" بحذف الألف في الوصل. وكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابن عامر يقرؤون "أتخذناهم" بقطع الألف على

الاستفهام وسقطت ألف الوصل؛ لأنه قد استغنى عنها؛ فمن قرأ بحذف الألف لم يقف على "الأشرار" لأن "اتخذناهم" حال. وقال النحاس والسجستاني: هو نعت لرجال. قال ابن الأنباري: وهذا خطأ؛ لأن النعت لا يكون ماضيا ولا مستقبلا. ومن قرأ: "أتخذناهم" بقطع الألف وقف على "الأشرار" قال الفراء: والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب. "أم زاغت عنهم الأبصار" إذا قرأت بالاستفهام كانت أم للتسوية، وإذا قرأت بغير الاستفهام فهي بمعنى بل. وقر أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضل وهبيرة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي: "سخريا" بضم السين. الباقون بالكسر. قال أبو عبيدة: من كسر جعله من الهزء ومن ضم جعله من التسخير. وقد تقدم. ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ "لحق" خبر إن و"تخاصم" خبر مبتدأ محذوف بمعنى هو تخاصم. ويجوز أن يكون بدلا من حق. ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر. ويجوز أن يكون بدلا من ذلك على الموضع. أي إن تخاصم أهل النار في النار لحق. يعني قولهم: "لا مرحبا بكم" الآية وشبهه من قول أهل النار.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل إنما أنا منذر ﴾ أي مخوف عقاب الله لمن عصاه وقد تقدم. ﴿ وما من إله ﴾ أي معبود ﴿ إلا الله الواحد القهار ﴾ الذي لا شريك له ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ﴾ بالرفع على النعت وإن نصبت الأول نصبته. ويجوز رفع الأول ونصب ما بعده على المدح. و"العزيز" معناه المنيع الذي لا مثل له. "الغفار" الستار لذنوب خلقه.

قوله تعالى: ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ أي وقل لهم يا محمد "هو نبأ عظيم" أي ما أنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبر عظيم القدر فلا ينبغي أن يستخف به. قال معناه قتادة. نظيره قوله تعالى: ﴿ عم يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ (النبأ: ١ ، ٢). وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني القرآن الذي أنبأكم به خبر جليل. وقيل: عظيم المنفعة ﴿ أنتم عنه معرضون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾ الملأ الأعلى هم الملائكة في قول ابن عباس والسدي اختصموا في أمر آدم حين خلق فـ ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ (البقرة: ٣٠) وقال إبليس: ﴿ أنا خير منه ﴾ (الأعراف: ١٢) وفي هذا بيان أن محمدا ﷺ أخبر عن قصة آدم وغيره، وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهي؛ فقد قامت المعجزة على صدقه، فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا صدقه؛ ولهذا وصل قوله بقوله: "قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون". وقول ثان رواه أبو الأشهب عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: (سألني ربي فقال يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى قلت في الكفارات والدرجات قال وما الكفارات قلت المشي على الأقدام إلى الجماعات وإسباغ الوضوء في السبرات والتعقيب في المساجد بانتظار الصلاة بعد الصلاة قال وما الدرجات قلت إفشاء

السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام) خرجه الترمذي بمعناه عن ابن عباس، وقال فيه حديث غريب[1]. وعن معاذ بن جبل أيضا وقال حديث حسن صحيح. وقد كتبناه بكماله في كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، وأوضحنا إشكاله والحمد لله. وقد مضى في "يس" القول في المشي إلى المساجد، وأن الخطا تكفر السيئات، وترفع الدرجات. وقيل: الملأ الأعلى الملائكة والضمير في "يختصمون" لفرقتين. يعني قول من قال منهم الملائكة بنات الله، ومن قال آلهة تعبد. وقيل: الملأ الأعلى ها هنا قريش؛ يعني اختصامهم فيما بينهم سرا، فأطلع الله نبيّه على ذلك. ﴿ إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين ﴾ أي إن يوحى إلي إلا الإنذار. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع "إلا إنما" بكسر الهمزة؛ لأن الوحي قول، كأنه قال: يقال لي إنما أنت نذير مبين، ومن فتحها جعلها في موضع رفع؛ لأنها اسم ما لم يسم فاعله. قال الفراء: كأنك قلت ما يوحى إلي إلا الإنذار. النحاس: ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى إلا لأنما. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إذ قال ربك للملائكة ﴾ "إذ" من صلة "يختصمون" المعنى: ما كان لي من علم بالملأ الأعلى حين يختصمون حين ﴿ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ﴾. وقيل: "إذ قال" بدل من "إذ يختصمون" و"يختصمون" يتعلق بمحذوف؛ لأن المعنى ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقت اختصامهم. ﴿ فإذا سويته ﴾ "إذا" ترد الماضي إلى المستقبل؛ لأنها تشبه حروف الشرط وجوابها كجوابه؛ أي خلقته. ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ أي من الروح الذي أملكه ولا يملكه غيري. فهذا معنى الإضافة، وقد مضى هذا المعنى مجودا في "النساء" في قوله في عيسى ﴿ وروح منه ﴾ (النساء: ١٧١). ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ نصب على الحال. وهذا سجود تحية لا سجود عبادة. وقد مضى في "البقرة". ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ أي امتثلوا الأمر وسجدوا له خضوعا له وتعظيما لله بتعظيمه ﴿ إلا إبليس ﴾ أنف من السجود له جهلا بأن السجود له طاعة لله؛ والأنفة من طاعة الله استكبارا كفر، ولذلك كان من الكافرين باستكباره عن أمر الله تعالى. وقد مضى الكلام في هذا في "البقرة" مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾

(١) "صحيح" أخرجه الترمذي في "التفسير"، (٣٢٣٣).

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قال يا إبليس ما منعك ﴾ أي صرفك وصـدك ﴿ أن تسجد ﴾ أي عـن أن تسجـد ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ أضاف خلقه إلى نفسه تكريما لـه، وإن كان خالق كل شيء وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد. فخاطب الناس بما يعرفونه في تعاملـهم، فإن الرئيس من المخلوقين لا يباشر شيئا بيده إلا على سبيل الإعظام والتكرم، فذكر اليد هنا بمعنى هذا. قال مجاهد: اليد ها هنا بمعنى التأكد والصلة؛ مجازه لما خلقت أنا كقولـه: ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ (الرحمن: ٢٧) أي يبقى ربك. وقيل: التشبيه في اليد في خلق الله تعالى دليل على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة؛ وإنما هما صفتان من صفات ذاته تعالى. وقيل: أراد باليد القدرة؛ يقال: ما لي بهذا الأمر يد. وما لي بالحمل الثقيل يدان. ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع. وقال الشاعر (عروة بن حزام):

تحملت من عفراءَ ما ليس لي به ولا للجبـــال الراسيات يدان

وقيل: "لما خلقت بيدي" لما خلقت بغير واسطة. ﴿ أستكبرت ﴾ أي عن السجود ﴿ أم كنت من العالين ﴾ أي المتكبرين على ربك. وقرأ محمد بن صالح عن شبل عن ابن كثير وأهل مكة "بيدي استكبرت" موصولة الألف على الخبر وتكون أم منقطعة بمعنى بل مثل: ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ (السجدة: ٣) وشبهه. ومن استفهم فـ "أم" معادلة لـهمزة الاستفهام وهو تقرير وتوبيخ. أي استكبرت بنفسك حين أبيت السجود لآدم، أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لـهذا.

قولـه تعالى: ﴿ قال أنا خير منه ﴾ قال الفراء: من العرب من يقول أنا أخير منه وأشر منه؛ وهذا هو الأصل إلا أنه حذف لكثرة الاستعمال. ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ فضل النار على الطين وهذا جهل منه؛ لأن الجواهر متجانسة فقاس فأخطأ القياس. وقد مضى في "الأعراف" بيانه. ﴿ قال فاخرج منها ﴾ يعني من الجنة ﴿ فإنك رجيم ﴾ أي مرجوم بالكواكب والشهب ﴿ وإن عليك لعنتي ﴾ أي طردي وإبعادي من رحمتي ﴿ إلى يوم الدين ﴾ تعريف بإصراره على الكفر لأن اللعن منقطع حينئذ، ثم بدخولـه النار يظهر تحقيق اللعن ﴿ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴾ أراد الملعون ألا يموت فلم يجب إلى ذلك، وأخر إلى وقت معلـوم، وهـو يـوم يموت الخلق فيه، فأخـر إليه تهاونا به. ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ لما طرده بسبب آدم حلف بعزة الله أنه يضل بني آدم بتزيين الشهوات وإدخال الشبهة عليهم، فمعنى: "لأغوينهم" لأستدعينهم إلى المعاصي وقد علم أنه لا يصل إلا إلى الوسوسة، ولا يفسد إلا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه؛ ولـهذا قال: ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ أي الذين أخلصتهم لعبادتك، وعصمتهم مني. وقد مضى في "الحجر" بيانه.

﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قال فالحق والحق أقول ﴾ هذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة والكسائي. وقرأ ابن عباس ومجاهد وعاصم والأعمش وحمزة برفع الأول. وأجاز الفراء فيه الخفض. ولا اختلاف في الثاني في أنه منصوب بـ "أقول" ونصب الأول على الإغراء أي فاتبعوا الحق واستمعوا الحق، والثاني بإيقاع القول عليه. وقيل: هو بمعنى أحق الحق أي أفعلـه. قال أبو علي: الحق الأول منصوب بفعل مضمر أي يحق الله الحق، أو على القسم وحذف حرف الجر؛ كما تقول: الله لأفعلن؛ ومجازه: قال فبالحق وهو الله تعالى أقسم بنفسه. "والحق أقول" جملة اعترضت بين القسم والمقسم عليه، وهو توكيد القصة، وإذا جعل الحق منصوبا بإضمار فعل كان "لأملأن" على إرادة القسم. وقد أجاز الفراء وأبو عبيدة أن يكون الحق منصوبا بمعنى حقا "لأملأن جهنم" وذلك عند جماعة من النحويين خطأ؛ لا يجوز زيدا لأضربن؛ لأن ما بعد اللام مقطوع مما قبلـها فلا يعمل فيه. والتقدير على قولـهما لأملأن جهنم حقا. ومن رفع "الحق" رفعه بالابتداء؛ أي فأنا الحق أو الحق مني. رويا جميعا عن مجاهد. ويجوز أن يكون التقدير هذا الحق. وقول ثالث على مذهب سيبويه والفراء أن معنى فالحق لأملأن جهنم بمعنى فالحق أن أملأ جهنم. وفي الخفض قولان وهي قراءة ابن السميقع وطلحة بن مصرف: أحدهما أنه على حذف حرف القسم. هذا قول الفراء قال كما يقول الله عز وجل لأفعلن. وقد أجاز مثل هذا سيبويه وغلطه فيه أبو العباس ولم يجز الخفض؛ لأن حروف الخفض لا تضمر، والقول الآخر أن تكون الفاء بدلا من واو القسم؛ كما أنشدوا:

فمثلك حُبلى قد طرقت ومرضع

قولـه تعالى: ﴿ لأملأن جهنم منك ﴾ أي من نفسك وذريتك ﴿ وممن تبعك ﴾ من بني آدم ﴿ أجمعين ﴾. قولـه تعالى: ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر ﴾ أي من جعل على تبليغ الوحي وكنى به عن غير مذكور. وقيل هو راجع إلى قولـه: ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ (ص: ٨). ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أي لا أتكلف ولا أتخرص ما لم أومر به. وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: من سئل عما لم يعلم فليقل لا أعلـم ولا يتكلف؛ فإن قولـه لا أعلم علـم، وقد قال الله عز وجل لنبيّه ﷺ: "قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين". وعن رسول الله ﷺ: (للمتكلف ثلاث علامات ينازع من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم). وروى الدارقطني من حديث نافع عن ابن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فسار ليلا فمروا على رجل جالس عند مقراة لـه، فقال لـه عمر: يا صاحب المقراة أولغت السباع الليلة في مقراتك؟ فقال لـه النبي ﷺ: (يا صاحب المقراة لا تخبره هذا متكلف لـها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور). وفي الموطأ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: أن عمر بن الخطاب خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضا، فقال عمرو بن العاص: يا صاحب الحوض هل ترد حوضك السباع؟ فقال عمر: يا صاحب الحوض لا تخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا. وقد مضى القول في المياه في سورة "الفرقان". ﴿ إن هو إلا ذكر ﴾ يعني القرآن ﴿ للعالمين ﴾ من الجن والإنس. ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ أي نبأ الذكر وهو القرآن أنه حق "بعد حين" قال قتادة: بعد الموت. وقالـه الزجاج. وقال

ابن عباس وعكرمة وابن زيد: يعني يوم القيامة. وقال الفراء: بعد الموت وقبله. أي لتظهر لكم حقيقة ما أقول: "بعد حين" أي في المستأنف أي إذا أخذتكم سيوف المسلمين. قال السدي: وذلك يوم بدر. وكان الحسن يقول: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين. وسئل عكرمة عمن حلف ليصنعن كذا إلى حين. قال: إن من الحين ما لا تدركه كقوله تعالى: ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ ومنه ما تدركه؛ كقوله تعالى: ﴿ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ (إبراهيم: ٢٥) من صرام النخل إلى طلوعه ستة أشهر. وقد مضى القول في هذا في "البقرة" و"إبراهيم" والحمد لله.

سورة الزمر

مقدمة السورة:

ويقال سورة الغرف. قال وهب بن منبه: من أحب أن يعرف قضاء الله عز وجل في خلقه فليقرأ سورة الغرف. وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد. وقال ابن عباس: إلا آيتين نزلتا بالمدينة إحداهما ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ (الزمر: ٢٣) والأخرى ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ (الزمر: ٥٣) الآية. وقال آخرون: إلا سبع آيات من قوله تعالى: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ (الزمر: ٥٣) إلى آخر سبع آيات نزلت في وحشي وأصحابه على ما يأتي. روى الترمذي عن عائشة قالت: "كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل"[١]. وهي خمس وسبعون آية. وقيل: اثنتان وسبعون آية.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿ من الله العزيز الحكيم ﴾. ويجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هذا تنزيل؛ قاله الفراء. وأجاز الكسائي والفراء أيضا "تنزيل" بالنصب على أنه مفعول به. قال الكسائي: أي اتبعوا واقرؤوا "تنزيل الكتاب". وقال الفراء: هو على الإغراء مثل قوله: ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ (النساء: ٢٤) أي الزموا. والكتاب القرآن. سمي بذلك لأنه مكتوب.

قوله تعالى: ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ أي هذا تنزيل الكتاب من الله وقد أنزلناه بالحق؛ أي بالصدق وليس بباطل وهزل. ﴿ فاعبد الله مخلصا ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: "مخلصا" نصب على الحال أي موحدا لا تشرك به شيئا ﴿ له الدين ﴾ أي الطاعة. وقيل: العبادة وهو مفعول به. ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ أي الذي لا يشوبه شيء. وفي حديث الحسن عن أبي هريرة أن رجلا قال: يا رسول الله إني أتصدق بالشيء وأصنع الشيء أريد به وجه الله وثناء الناس. فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفس محمد بيده لا يقبل الله شيئا شورك فيه) ثم تلا رسول الله ﷺ "ألا لله الدين الخالص"[٢] وقد مضى هذا المعنى في "البقرة"[٣] و"النساء"[٤] و"الكهف"[٥] مستوفى.

---

(١) أخرجه احمد والترمذي والحاكم وغيرهم، وجوَّد إسناده الشيخ الألباني كما في الصحيحة (٦٤١).

(٢) ضعيف، للخلاف المشهور في سماع الحسن من أبي هريرة، وذكره بنحوه السيوطي في "الدر المنثور"، (٥/ ٦٠٢) وعزاه إلى ابن مردويه عن يزيد الرقاشي مرفوعاً. وهو أشد ضعفاً.

(٣) عند تفسير الآية (٢٦٢).

(٤) عند تفسير الآية (١٤٤).

الثانية: قال ابن العربي: هذه الآية دليل على وجوب النية في كل عمل، وأعظمه الوضوء الذي هو شطر الإيمان، خلافا لأبي حنيفة والوليد بن مسلم عن مالك اللذين يقولان إن الوضوء يكفي من غير نية، وما كان ليكون من الإيمان شطرا ولا ليخرج الخطايا من بين الأظفار والشعر بغير نية.

قوله تعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ يعني الأصنام والخبر محذوف. أي قالوا: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم من ربكم وخالقكم؟ ومن خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء؟ قالوا الله، فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأصنام؟ قالوا ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده. قال الكلبي: جواب هذا الكلام في الأحقاف ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة﴾ (الأحقاف: ٢٨) والزلفى القربة؛ أي ليقربونا إليه تقريبا، فوضع "زلفى" في موضع المصدر. وفي قراءة ابن عباس ومجاهد "والذين اتخذوا من دونه أولياء قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" وفي حرف أبيّ "والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدكم إلا لتقربونا إلى الله زلفى" ذكره النحاس. قال: والحكاية في هذا بينة. ﴿إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون﴾ أي بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازي كلا بما يستحق. ﴿إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ أي من سبق له القضاء بالكفر لم يهتد؛ أي للدين الذي ارتضاه وهو دين الإسلام؛ كما قال الله تعالى: "ورضيت لكم الإسلام دينا" وفي هذا رد على القدرية وغيرهم على ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء﴾ أي لو أراد أن يسمي أحدا من خلقه بهذا ما جعله عز وجل إليهم. ﴿سبحانه﴾ أي تنزيها له عن الولد ﴿هو الله الواحد القهار﴾.

قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خلق السماوات والأرض بالحق﴾ أي هو القادر على الكمال المستغني عن الصاحبة والولد، ومن كان هكذا فحقه أن يفرد بالعبادة لا أنه يشرك به. ونبه بهذا على أن له أن يتعبد العباد بما شاء وقد فعل. قوله تعالى: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ قال الضحاك: أي يلقي هذا على هذا وهذا على هذا. وهذا على معنى التكوير في اللغة وهو طرح الشيء بعضه على بعض؛ يقال كور المتاع أي ألقى بعضه على بعض؛ ومنه كور العمامة. وقد روي عن ابن عباس هذا في معنى الآية. قال: ما نقص من الليل دخل في النهار وما نقص من النهار دخل في الليل. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ (فاطر: ١٣) وقيل: تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه، ويغشى النهار على الليل فيذهب ظلمته، وهذا قول

(٥) عند تفسير الآية (١١٠).

قتادة. وهو معنى قوله تعالى: ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا ﴾ (الأعراف: ٥٤). ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ أي بالطلوع والغروب لمنافع العباد. ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾ أي في فلكه إلى أن تنصرم الدنيا وهو يوم القيامة حين تنفطر السماء وتنتثر الكواكب. وقيل: الأجل المسمى هو الوقت الذي ينتهي فيه سير الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لغروبها وطلوعها. قال الكلبي: يسيران إلى أقصى منازلهما، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما لا يجاوزانه. وقد تقدم بيان هذا في سورة (يس). ﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾ "ألا" تنبيه أي تنبهوا فإني أنا "العزيز" الغالب "الغفار" الساتر لذنوب خلقه برحمته.

قوله تعالى: ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ يعني ليحصل التناسل وقد مضى هذا في "الأعراف" وغيرها. ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ أخبر عن الأزواج بالنزول، لأنها تكونت بالنبات والنبات بالماء المنزل. وهذا يسمى التدريج؛ ومثله قوله تعالى: ﴿ قد أنزلنا عليكم لباسا ﴾ (الأعراف: ٢٦) الآية. وقيل: أنزل: أنشأ وجعل. وقال سعيد بن جبير: خلق. وقيل: إن الله تعالى خلق هذه الأنعام في الجنة ثم أنزلها إلى الأرض؛ كما قيل في قوله تعالى: ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ (الحديد: ٢٥) فإن آدم لما هبط إلى الأرض أنزل معه الحديد. وقيل: "وأنزل لكم من الأنعام" أي أعطاكم. وقيل: جعل الخلق إنزالا؛ لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء. فالمعنى: خلق لكم كذا بأمره النازل. قال قتادة: من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين كل واحد زوج. وقد تقدم هذا. ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ﴾ قال قتادة والسدي: نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم لحما. ابن زيد: "خلقا من بعد خلق" خلقا في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم. وقيل: في ظهر الأب ثم خلقا في بطن الأم ثم خلقا بعد الوضع. ذكره الماوردي. ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة. قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك. وقال ابن جبير: ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة الليل. والقول الأول أصح. وقيل: ظلمة صلب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرحم. وهذا مذهب أبي عبيدة. أي لا تمنعه الظلمة كما تمنع المخلوقين. ﴿ ذلكم الله ﴾ أي الذي خلق هذه الأشياء ﴿ ربكم له الملك لا إله إلا هو ﴾. ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أي كيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره. وقرأ حمزة: "إمهاتكم" بكسر الهمزة والميم. والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم. الباقون بضم الهمزة وفتح الميم.

قوله تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ شرط وجوابه. ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ أي أن يكفروا أي لا يحب ذلك منهم. وقال ابن عباس والسدي: معناه لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر،

وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ (الإسراء: ٦٥). وكقوله: ﴿ عينا يشرب بها عباد الله ﴾ (الإنسان: ٦) أي المؤمنون. وهذا على قول من لا يفرق بين الرضا والإرادة. وقيل: لا يرضى الكفر وإن أراده؛ فالله تعالى يريد الكفر من الكافر وبإرادته كفر لا يرضاه ولا يحبه، فهو يريد كون ما لا يرضاه، وقد أراد الله عز وجل خلق إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادة غير الرضا. وهذا مذهب أهل السنة.

قوله تعالى: ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ أي يرضى الشكر لكم؛ لأن "تشكروا" يدل عليه. وقد مضى القول في الشكر في "البقرة" وغيرها. ويرضى بمعنى يثيب ويثني، فالرضا على هذا إما ثوابه فيكون صفة فعل ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ (إبراهيم: ٧) وإما ثناؤه فهو صفة ذات. و"يرضه" بالإسكان في الهاء قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وشيبة وهبيرة عن عاصم. وأشبع الضمة ابن ذكوانٍ وابن كثير وابن محيصن والكسائي وورش عن نافع. واختلس الباقون. ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور ﴾ قد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذا مس الإنسان ﴾ يعني الكافر ﴿ ضر ﴾ أي شدة من الفقر والبلاء ﴿ دعا ربه منيبا إليه ﴾ أي راجعا إليه مخبتا مطيعا له مستغيثا به في إزالة تلك الشدة عنه. ﴿ ثم إذا خوله نعمة منه ﴾ أي أعطاه وملكه. يقال: خولك الله الشيء أي ملكك إياه، وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد:

هنالك إن يستخولوا المال يخولوا وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا

وخول الرجل: حشمه، الواحد خائل. قال أبو النجم:

أعطى فلم يبخل ولم يُبخَّل كُوم الذرى من خَوَل المُخوَّل

قوله تعالى: ﴿ نسي ما كان يدعو إليه من قبل ﴾ أي نسي ربه الذي كان يدعوه من قبل في كشف الضر عنه. فـ "ما" على هذا الوجه لله عز وجل وهي بمعنى الذي. وقيل: بمعنى من كقوله: ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ (الكافرون: ٣) والمعنى واحد. وقيل: نسي الدعاء الذي كان يتضرع به إلى الله عز وجل. أي ترك كون الدعاء منه إلى الله، فما والفعل على هذا القول مصدر. ﴿ وجعل لله أندادا ﴾ أي أوثانا وأصناما. وقال السدي: يعني أندادا من الرجال يعتمدون عليهم في جميع أمورهم. ﴿ ليضل عن سبيله ﴾ أي ليقتدي به الجهال. ﴿ قل تمتع بكفرك قليلا ﴾ أي قل لهذا الإنسان "تمتع" وهو أمر تهديد فمتاع الدنيا قليل. ﴿ إنك من أصحاب النار ﴾ أي مصيرك إلى النار.

قولـه تعالى: ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ﴾ بين تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى ذكره. وقرأ الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائي "أمن" بالتشديد. وقرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة: "أمن هو" بالتخفيف على معنى النداء؛ كأنه قال يا من هو قانت. قال الفراء: الألف بمنزلة يا، تقول يا زيد أقبل وأزيد أقبل. وحكي ذلك عن سيبويه وجميع النحويين؛ كما قال أوس بن حجر:

أبني لبينى لسـتم بيـد إلا يدا ليست لـها عضد

وقال آخر هو ذو الرمة:

أدارا بحزوى هجت للعين عبرة فماء الـهوى يرفض أو يترقرق

فالتقدير على هذا ﴿ قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾ يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة؛ كما يقال في الكلام: فلان لا يصلي ولا يصوم، فيا من يصلي ويصوم أبشر؛ فحذف لدلالة الكلام عليه. وقيل: إن الألف في "أمن" ألف استفهام أي "أمن هو قانت آناء الليل" أفضل؟ أم من جعل لله أندادا؟ والتقدير الذي هو قانت خير. ومن شدد "أمن" فالمعنى العاصون المتقدم ذكرهم خير "أمن هو قانت" فالجملة التي عادلت أم محذوفة، والأصل أم من فأدغمت في الميم. النحاس: وأم بمعنى بل، ومن بمعنى الذي؛ والتقدير: أم الذي هو قانت أفضل ممن ذكر. وفي قانت أربعة أوجه: أحدها أنه المطيع؛ قالـه ابن مسعود. الثاني أنه الخاشع في صلاته؛ قالـه ابن شهاب. الثالث أنه القائم في صلاته؛ قالـه يحيى بن سلام. الرابع أنه الداعي لربه. وقول ابن مسعود يجمع ذلك. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: (كل قنوت في القرآن فهو طاعة لله عز وجل) وروي عن جابر عن النبي ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل؟ فقال: (طول القنوت)[1] وتأولـه جماعة من أهل العلم على أنه طول القيام. وروى عبد الله عن نافع عن ابن عمر سئل عن القنوت فقال: ما أعرف القنوت إلا طول القيام، وقراءة القرآن. وقال مجاهد: من القنوت طول الركوع وغض البصر. وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غضوا أبصارهم، وخضعوا ولم يلتفتوا في صلاتهم، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئا من أمر الدنيا إلا ناسين. قال النحاس: أصل هذا أن القنوت الطاعة، فكل ما قيل فيه فهو طاعة لله عز وجل، فهذه الأشياء كلـها داخلة في الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع: قال لي ابن عمر قم فصل فقمت أصلي وكان علي ثوب خلق، فدعاني فقال لي: أرأيت لو وجهتك في حاجة أكنت تمضي هكذا؟ فقلت: كنت أتزين قال: فالله أحق أن تتزين لـه. واختلف في تعيين القانت ها هنا، فذكر يحيى ابن سلام أنه رسول الله ﷺ. وقال ابن عباس في رواية الضحاك عنه: هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن عمر: هو عثمان رضي الله عنه.[2] وقال مقاتل: إنه عمار بن ياسر. الكلبي: صهيب وأبو ذر وابن مسعود. وعن الكلبي أيضا أنه مرسل فيمن كان على هذه الحال. ﴿ آناء الليل ﴾ قال الحسن: ساعاته؛ أولـه وأوسطه وآخره. وعن ابن عباس: "آناء الليل" جوف الليل. قال ابن عباس: من

---

(١) أخرجه مسلم في "صلاة المسافرين"، (٧٥٦).

(٢) أخرج ذلك عنه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في "الحلية"، وابن عساكر، كما في "الدر المنثور"، (٥/٦٠٤).

أحب أن يهون الله عليه الوقوف يوم القيامة، فليره الله في ظلمة الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه. وقيل: ما بين المغرب والعشاء. وقول الحسن عام. ﴿ يحذر الآخرة ﴾ قال سعيد بن جبير: أي عذاب الآخرة. ﴿ ويرجو رحمة ربه ﴾ أي نعيم الجنة. وروي عن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو فقال: هذا متمن. ولا يقف على قوله: "رحمة ربه" من خفف "أمن هو قانت" على معنى النداء؛ لأن قوله: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ متصل إلا أن يقدر في الكلام حذف وهو أيسر، على ما تقدم بيانه.

قوله تعالى: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ قال الزجاج: أي كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوي المطيع والعاصي. وقال غيره: الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم. ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أي أصحاب العقول من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل يا عباد الذين آمنوا ﴾ أي قل يا محمد لعبادي المؤمنين ﴿ اتقوا ربكم ﴾ أي اتقوا معاصيه والتاء مبدلة من واو وقد تقدم. وقال ابن عباس: يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة. ثم قال: ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ يعني بالحسنة الأولى الطاعة وبالثانية الثواب في الجنة. وقيل: المعنى للذين أحسنوا في الدنيا حسنة في الدنيا، يكون ذلك زيادة على ثواب الآخرة، والحسنة الزائدة في الدنيا الصحة والعافية والظفر والغنيمة. قال القشيري: والأول أصح؛ لأن الكافر قد نال نعم الدنيا.

قلت: وينالها معه المؤمن ويزاد الجنة إذا شكر تلك النعم. وقد تكون الحسنة في الدنيا الثناء الحسن، وفي الآخرة الجزاء.

قوله تعالى: ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل بالمعاصي. وقد مضى القول في هذا مستوفى في "النساء" وقيل: المراد أرض الجنة؛ رغبهم في سعتها وسعة نعيمها؛ كما قال: ﴿ وجنة عرضها السماوات والأرض ﴾ (آل عمران: ١٣٣) والجنة قد تسمى أرضا؛ قال الله تعالى: ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ (الزمر: ٧٤) والأول أظهر فهو أمر بالهجرة. أي ارحلوا من مكة إلى حيث تأمنوا. الماوردي: يحتمل أن يريد بسعة الأرض سعة الرزق؛ لأنه يرزقهم من الأرض فيكون معناه ورزق الله واسع وهو أشبه؛ لأنه أخرج سعتها مخرج الامتنان.

قلت: فتكون الآية دليلا على الانتقال من الأرض الغالية، إلى الأرض الراخية، كما قال سفيان الثوري: كن في موضع تملأ فيه جرابك خبزا بدرهم.

قوله تعالى: ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ أي بغير تقدير. وقيل: يزاد على الثواب؛ لأنه لو أعطي بقدر ما عمل لكان بحساب. وقيل: "بغير حساب" أي بغير متابعة ولا مطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا. و"الصابرون" هنا الصائمون؛ دليله قوله عليه الصلاة والسلام مخبرا عن الله عز وجل: (الصوم لي وأنا أجزي به)[1] قال أهل العلم: كل أجر يكال كيلا ويوزن وزنا إلا الصوم فإنه يحثى حثوا ويغرف غرفا؛ وحكي عن علي ﷺ. وقال مالك بن أنس في قوله: "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب" قال: هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها. ولا شك أن كل من سلم فيما أصابه، وترك ما نهي عنه، فلا مقدار لأجره. وقال قتادة: لا والله ما هناك مكيال ولا ميزان، حدثني أنس أن رسول الله ﷺ قال: (تنصب الموازين فيؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين وكذلك الصلاة والحج ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر بغير حساب قال الله تعالى: "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب" حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل)[2]. وعن الحسين ابن علي رضي الله عنهما قال سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: (أد الفرائض تكن من أعبد الناس وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس، يا بني إن في الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الأجر صبا) ثم تلا النبي ﷺ "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب"[3]. ولفظ صابر يمدح به وإنما هو لمن صبر عن المعاصي، وإذا أردت أنه صبر على المصيبة قلت صابر على كذا؛ قاله النحاس. وقد مضى في "البقرة" مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ﴾ تقدم. ﴿ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ من هذه الأمة، وكذلك كان؛ فإنه كان أول من خالف دين آبائه؛ وخلع الأصنام وحطمها، وأسلم لله وآمن به، ودعا إليه ﷺ. واللام في قوله: "لأن أكون" صلة زائدة؛ قاله الجرجاني وغيره. وقيل: لام أجل. وفي الكلام حذف أي أمرت بالعبادة "لأن أكون أول المسلمين".

قوله تعالى: ﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ يريد عذاب يوم القيامة. وقاله حين دعاه قومه إلى دين آبائه؛ قاله أكثر أهل التفسير. وقال أبو حمزة الثمالي وابن المسيب: هذه الآية

---

(١) جزء من حديث قدسي أخرجاه في الصحيحين. وقد سبق مراراً.

(٢) ضعيف، وهو جزء من حديث طويل، أخرجه ابن مردويه كما في "الدر المنثور"، (٥/ ٦٠٥، ٦٠٦).

(٣) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٢/ ٣٠٥) من قوله: "إن في الجنة شجرة... إلخ" وقال: "رواه الطبراني في الكبير وفيه سعد بن طريف وهو ضعيف جداً". ولقوله: "أد الفرائض تكن من أعبد الناس، وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس" شاهد عند أحمد والترمذي والبيهقي بنحوه من حديث أبي هريرة بسند حسن كما في الصحيحة (٩٣٠).

منسوخة بقوله تعالى: ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ (الفتح: ٢) فكانت هذه الآية من قبل أن يغفر ذنب النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ قل الله أعبد ﴾ "الله" نصب بـ "أعبد"، ﴿ مخلصا له ديني ﴾ طاعتي وعبادتي.

﴿ فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ أمر تهديد ووعيد وتوبيخ؛ كقوله تعالى: ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ (فصلت: ٤٠). وقيل: منسوخة بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ قال ميمون بن مهران عن ابن عباس: ليس من أحد إلا وقد خلق الله له زوجة في الجنة، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله. في رواية عن ابن عباس: فمن عمل بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبل ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ (المؤمنون: ١٠).

﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ سمى ما تحتهم ظللا؛ لأنها تظل من تحتهم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ (الأعراف: ٤١) وقوله: ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ (العنكبوت: ٥٥). ﴿ ذلك يخوف الله به عباده ﴾ قال ابن عباس: أولياءه. ﴿ يا عباد فاتقون ﴾ أي يا أوليائي فخافون. وقيل: هو عام في المؤمن والكافر. وقيل: خاص بالكفار.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ﴾ قال الأخفش: الطاغوت جمع ويجوز أن تكون واحدة مؤنثة. وقد تقدم. أي تباعدوا من الطاغوت وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها. قال مجاهد وابن زيد: هو الشيطان. وقال الضحاك والسدي: هو الأوثان. وقيل: إنه الكاهن. وقيل إنه اسم أعجمي مثل طالوت وجالوت وهاروت وماروت. وقيل: إنه اسم عربي مشتق من الطغيان، و"أن" في موضع نصب بدلا من الطاغوت، تقديره: والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت. ﴿ وأنابوا إلى الله ﴾ أي رجعوا إلى عبادته وطاعته. ﴿ لهم البشرى ﴾ لهم البشرى في الحياة الدنيا بالجنة في العقبى.

روي أنها نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير ﷺ؛ سألوا أبا بكر ﷺ فأخبرهم بإيمانه فآمنوا. وقيل: نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر وغيرهما ممن وحد الله تعالى قبل مبعث النبي ﷺ. وقوله: ﴿ فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ قال ابن عباس: هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به. وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل: يستمعون القرآن وأقوال الرسول فيتبعون أحسنه أي محكمه فيعملون به. وقيل: يستمعون عزما وترخيصا فيأخذون بالعزم دون الترخيص. وقيل:

يستمعون العقوبة الواجبة لـهم والعفو فيأخذون بالعفو. وقيل: إن أحسن القول على من جعل الآية فيمن وحد الله قبل الإسلام "لا إلـه إلا الله". وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي، اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها في جاهليتهم، واتبعوا أحسن ما صار من القول إليهم. ﴿أولئك الذين هداهم الله﴾ لما يرضاه. ﴿وأولئك هم أولو الألباب﴾ أي أصحاب العقول من المؤمنين الذين انتفعوا بعقولـهم.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار﴾ كان النبي ﷺ يحرص على إيمان قوم وقد سبقت لـهم من الله الشقاوة فنزلت هذه الآية. قال ابن عباس: يريد أبا لـهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان. وكرر الاستفهام في قولـه: "أفأنت" تأكيدا لطول الكلام، وكـذا قال سيبويه فـي قولـه تعالى: ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون﴾ (المؤمنون: ٣٥) على ما تقدم. والمعنى: "أفمن حق عليه كلمة العذاب" أفأنت تنقذه. والكلام شرط وجوابه. وجيء بالاستفهام؛ ليدل على التوقيف والتقرير. وقال الفراء: المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب. والمعنى واحد. وقيل: إن في الكلام حذفا والتقدير: أفمن حق عليه كلمـة العـذاب ينجو منه، وما بعده مستأنف. وقال: "أفمن حق عليه" وقال في موضع آخر: ﴿حقت كلمة العذاب﴾ (الزمر: ٧١) لأن الفعل إذا تقدم ووقع بينه وبين الموصوف به حائل جاز التذكير والتأنيث، على أن التأنيث هنا ليس بحقيقي بل الكلمة في معنى الكلام والقول؛ أي أفمن حق عليه قول العذاب.

قوله تعالى: ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم﴾ لما بين أن للكفار ظلل من النار من فوقهم ومن تحتهم بين أن للمتقين غرفا فوقها غرف؛ لأن الجنة درجات يعلو بعضها بعضا و"لكن" ليس للاستدراك؛ لأنه لم يأت نفي كقولـه: ما رأيت زيدا لكن عمرا؛ بل هو لترك قصة إلى قصة مخالفة للأولى كقولك: جاءني زيد لكن عمرو لم يأت. ﴿غرف مبنية﴾ قال ابن عباس: من زبرجد وياقوت ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي هي جامعة لأسباب النزهة. ﴿وعد الله﴾ نصب على المصدر؛ لأن معنى "لـهم غرف" وعدهم الله ذلك وعدا. ويجوز الرفع بمعنى ذلك وعد الله. ﴿لا يخلف الله الميعاد﴾ أي ما وعد الفريقين.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ أي إنه لا يخلف الميعاد في إحياء الخلق، والتميز بين المؤمن والكافر، وهو قادر على ذلك كما أنه قادر على إنزال الماء من السماء. "أنزل من السماء" أي من السحاب "ماء" أي المطر ﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ أي فأدخلـه في الأرض وأسكنه فيها؛ كما قال: ﴿ فأسكناه في الأرض ﴾ (المؤمنون: ١٨). "ينابيع" جمع ينبوع وهو يفعول من نَبَع ينبُع وينبَع وينبِع بالرفع والنصب والخفض. النحاس: وحكى لنا ابن كيسان في قول الشاعر:

ينباع من ذفرى غضوب جسرة

أن معناه ينبع فأشبع الفتحة فصارت ألفا، نبوعا خرج. والينبوع عين الماء والجمع الينابيع. وقد مضى في "سبحان". ﴿ ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ﴾ "ثم يخرج به" أي بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض "زرعا" هو للجنس أي زروعا شتى لـها ألوان مختلفة، حمرة وصفرة وزرقة وخضرة ونورا. قال الشعبي والضحاك: كل ماء في الأرض فمن السماء نزل، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة، ثم تقسم منها العيون والركايا. ﴿ ثم يهيج ﴾ أي ييبس. ﴿ فتراه ﴾ أي بعد خضرته ﴿ مصفرا ﴾ قال المبرد قال الأصمعي: يقال هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتها وولى. قال: وكذلك هاج النبت. قال: وكذلك قال غير الأصمعي. وقال الجوهري: هاج النبت هياجا أي يبس. وأرض هائجة يبس بقلـها أو اصفر، وأهاجت الريح النبت أيبسته، وأهيجنا الأرض أي وجدناها هائجة النبات، وهاج هائجه أي ثار غضبه، وهدأ هائجه أي سكنت فورته. ﴿ ثم يجعلـه حطاما ﴾ أي فتاتا مكسرا من تحطم العود إذا تفتت من اليبس. والمعنى أن من قدر على هذا قدر على الإعادة. وقيل: هو مثل ضربه الله للقرآن ولصدور من في الأرض، أي أنزل من السماء قرآنا فسلكه في قلوب المؤمنين "ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه" أي دينا مختلفا بعضه أفضل من بعض، فأما المؤمن فيزداد إيمانا ويقينا، وأما الذي في قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع. وقيل: هو مثل ضربه الله للدنيا؛ أي كما يتغير النبت الأخضر فيصفر كذلك الدنيا بعد بهجتها. ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ شرح فتح ووسع. قال ابن عباس: وسع صدره للإسلام حتى ثبت فيه. وقال السدي: وسع صدره بالإسلام للفرح به والطمأنينة إليه؛ فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام؛ وعلى الوجه الأول يجوز أن يكـون الشرح قبل الإسلام. ﴿ فهو على نور من ربه ﴾ أي على هدى من ربه كمن طبع على قلبه وأقساه. ودل على هذا المحذوف

قولـه: ﴿فويل للقاسية قلوبهم﴾. قال المبرد: يقال قسا القلب إذا صلب، وكذلك عتا وعسا مقاربة لـها. وقلب قاس أي صلب لا يرق ولا يلين. والمراد بمن شرح الله صدره ها هنا فيما ذكر المفسرون علي وحمزة رضي الله عنهما. وحكى النقاش أنه عمر بن الخطاب ﷺ. وقال مقاتل: عمار بن ياسر. وعنه أيضا والكلبي رسول الله ﷺ. والآية عامة فيمن شرح الله صدره بخلق الإيمان فيه. وروى مرة عن ابن مسعود قال: قلنا يا رسول الله قولـه تعالى: "أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه" كيف انشرح صدره؟ قال: (إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح) قلنا: يا رسول الله وما علامة ذلك؟. قال: (الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزولـه)[1] وخرجه الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) من حديث ابن عمر: أن رجلا قال يا رسول الله أي المؤمنين أكيس؟ قال: (أكثرهم للموت ذكرا وأحسنهم لـه استعدادا وإذا دخل النور في القلب انفسح واستوسع) قالوا: فما آية ذلك يا نبي الله؟ قال: (الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت)[2] فذكر ﷺ خصالا ثلاثة، ولا شك أن من كانت فيه هذه الخصال فهو الكامل الإيمان، فإن الإنابة إنما هي أعمال البر؛ لأن دار الخلود إنما وضعت جزاء لأعمال البر، ألا ترى كيف ذكره الله في مواضع في تنزيلـه ثم قال بعقب ذلك: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ (الواقعة: ٢٤) فالجنة جزاء الأعمال؛ فإذا انكمش العبد في أعمال البر فهو إنابته إلى دار الخلود، وإذا خمد حرصه عن الدنيا، ولـها عن طلبها، وأقبل على ما يغنيه منها فاكتفى به وقنع، فقد تجافى عن دار الغرور. وإذا أحكم أموره بالتقوى فكان ناظرا في كل أمر، واقفا متأدبا متثبتا حذرا يتورع عما يريبه إلى ما لا يريبه، فقد استعد للموت. فهذه علامتهم في الظاهر. وإنما صار هكذا لرؤية الموت، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا، ورؤية الدنيا أنها دار الغرور، وإنما صارت لـه هذه الرؤية بالنور الذي ولج القلب. وقولـه تعالى: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ قيل: المراد أبو لـهب وولده؛ ومعنى: "من ذكر الله" أن قلوبهم تزداد قسوة من سماع ذكره. وقيل: إن "من" بمعنى عن، والمعنى قست عن قبول ذكر الله. وهذا اختيار الطبري. وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (قال الله تعالى اطلبوا الحوائج من السمحاء فإني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإني جعلت فيهم سخطي)[3]. وقال مالك بن دينار: ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم.

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣١١) من طريق عدي بن الفضل عن عبد الرحمن بن عبد الله السعودي عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود مرفوعاً. وسكت عنه، وتعقبه الذهبي بقولـه: "عدي ساقط". وللحديث عن ابن مسعود طريقان آخران ضعيفان، وقال ابن كثير في "التفسير"، (٢/ ١٧٥) بعدما أورد طرقه: "فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً، وتعقبه الشيخ الألباني في الضعيفة (٢/ ٣٨٧) بقوله: "إن هذا الحديث ضعيف لا يطمئن القلب لثبوته عن رسول الله ﷺ لشدة الضعف الذي في جميع طرقه، وبعضها أشد ضعفاً من بعض، فليس فيها ما ضعفه يسير يمكن أن ينجبر، خلافاً لما ذهب إليه ابن كثير، وإن قلده في ذلك جماعة ممن ألفوا في التفسير، كالشوكاني في "فتح القدير"، (٢/ ١٥٤)، وصديق حسن خان في "فتح البيان" (٢/ ٢١٧)، وجزم الألوسي في "روح المعاني" بنسبته إلى النبي ﷺ، ومن قبله ابن القيم في الفوائد (ص٢٧ـ طبع دار مصر)، وعزاه إلى الترمذي فجاء بوهم آخر. والعصمة لله وحده".

(٢) ضعيف. وانظر التخريج السابق.

(٣) ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، (٢/ ١٥٨) وقال: "هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ. فيه عبد الرحمن السدي مجهول. وقال العقيلي: لا يتابع على هذا الحديث، ولا يعرف من وجه يصح.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ يعني القرآن لما قال: ﴿ فيتبعون أحسنه ﴾ (الزمر: ١٨) بين أن أحسن ما يسمع ما أنزله الله وهو القرآن. قال سعد بن أبي وقاص قال أصحاب رسول الله ﷺ: لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل: "الله نزل أحسن الحديث" فقالوا: لو قصصت علينا فنزل: ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ (يوسف: ٣) فقالوا: لو ذكرتنا فنزل: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ (الحديد: ١٦) الآية. وعن ابن مسعود ﷺ أن أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا له: حدثنا فنزلت. والحديث ما يحدث به المحدث. وسمي القرآن حديثا؛ لأن رسول الله ﷺ كان يحدث به أصحابه وقومه، وهو كقوله: ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ (المرسلات: ٥٠) وقوله: ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴾ (النجم: ٥٩) وقوله: ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ (الكهف: ٦) وقوله: ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ (النساء: ٨٧) وقوله: ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ (القلم: ٤٤) قال القشيري: وتوهم قوم أن الحديث من الحدوث فيدل على أن كلامه محدث وهو وهم؛ لأنه لا يريد لفظ الحديث على ما في قوله: "ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث" وقد قالوا: إن الحدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو، وهو كالذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسماء الرب تعالى. ﴿ كتابا ﴾ نصب على البدل من "أحسن الحديث" ويحتمل أن يكون حالا منه. ﴿ متشابهاً ﴾ يشبه بعضه بعضا في الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف. وقال قتادة: يشبه بعضه بعضا في الآي والحروف. وقيل: يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه؛ لما يتضمنه من أمر ونهي وترغيب وترهيب وإن كان أعم وأعجز. ثم وصفه فقال: "مثاني" تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام وثنى للتلاوة فلا يمل. ﴿تقشعر﴾ تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد. ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ أي عند آية الرحمة. وقيل: إلى العمل بكتاب الله والتصديق به. وقيل: "إلى ذكر الله" يعني الإسلام.

الثانية: عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: كان أصحاب النبي ﷺ، إذا قرئ عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم. قيل لها: فإن أناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه. فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[١]. وقال سعيد بن عبد الرحمن الجمحي: مر ابن عمر برجل من أهل القرآن ساقط فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط. فقال ابن عمر: إنا لنخشى الله وما نسقط. ثم قال: إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم؛ ما كان هذا صنيع أصحاب محمد ﷺ. وقال عمر بن عبد العزيز: ذكر عند ابن

---

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٥/ ٦١٠) وعزاه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عبد الله بن عروة بن الزبير عن جدته أسماء.

سيرين الذين يصرعون إذا قرئ عليهم القرآن، فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجليه، ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق. وقال أبو عمران الجوني: وعظ موسى عليه السلام بني إسرائيل ذات يوم فشق رجل قميصه، فأوحى الله إلى موسى: قل لصاحب القميص لا يشق قميصه فإني لا أحب المبذرين؛ يشرح لي عن قلبه.

الثالثة: قال زيد بن أسلم: قرأ أبي بن كعب عند النبي ﷺ ومعه أصحابه فرقوا فقال النبي ﷺ: (اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة)[١]. وعن العباس أن رسول الله ﷺ قال: (إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة البالية ورقها)[٢]. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (ما اقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرمه الله على النار)[٣]. وعن شهر بن حوشب عن أم الدرداء قالت: إنما الوجل في قلب الرجل كاحتراق السعفة، أما تجد إلا قشعريرة؟ قلت: بلى؛ قالت: فادع الله فإن الدعاء عند ذلك مستجاب. وعن ثابت البناني قال: قال فلان: إني لأعلم متى يستجاب لي. قالوا: ومن أين تعلم ذلك؟ قال: إذا اقشعر جلدي، ووجل قلبي، وفاضت عيناي، فذلك حين يستجاب لي. يقال: اقشعر جلد الرجل اقشعرارا فهو مقشعر والجمع قشاعر فتحذف الميم، لأنها زائدة؛ يقال أخذته قشعريرة. قال امرؤ القيس:

فبت أكابد ليل التمام والقلب من خشية مقشعر

وقيل: إن القرآن لما كان في غاية الجزالة والبلاغة، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته، اقشعرت الجلود منه إعظاما له، وتعجبا من حسن ترصيعه وتهيبا لما فيه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ﴾ (الحشر: ٢١) فالتصدع قريب من الاقشعرار، والخشوع قريب من قوله: "ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله" ومعنى لين القلب رقته وطمأنينته وسكونه. ﴿ ذلك هدى الله ﴾ أي القرآن هدى الله. وقيل: أي الذي وهبه الله لهؤلاء من خشية عقابه ورجاء ثوابه هدى الله. ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ أي من خذله فلا مرشد له. وهو يرد على القدرية وغيرهم. وقد مضى معنى هذا كله مستوفى في غير موضع والحمد لله. ووقف ابن كثير وابن محيصن على قوله: "هاد" في الموضعين بالياء، الباقون بغير ياء.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾

قوله تعالى: ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب ﴾ قال عطاء وابن زيد: يرمى به مكتوفا في النار فأول شيء تمس منه النار وجهه. وقال مجاهد: يجر على وجهه في النار. وقال مقاتل: هو أن الكافر

---

(١) "ضعيف" أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي مرفوعاً. وانظر ضعيف الجامع (١٠٧٨).
(٢) "ضعيف" أخرجه سمويه والطبراني عن العباس مرفوعاً. وانظر الجامع (٤٩٠).
(٣) حاله كسابقه.

يُرمى به في النار مغلولة يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت، فتشتعل النار في الحجر وهو معلق في عنقه، فحرها ووهجها على وجهه؛ لا يطيق دفعها عن وجهه من أجل الأغلال. والخبر محذوف. قال الأخفش: أي "أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب" أفضل أم من سعد، مثل: ﴿ أفمن يلقى في النار خير أمن يأتي آمنا يوم القيامة ﴾ (فصلت: ٤٠). ﴿ وقيل للظالمين ﴾ أي وتقول الخزنة للكافرين ﴿ ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ أي جزاء كسبكم من المعاصي. ومثله ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ (التوبة: ٣٥).

قوله تعالى: ﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ أي كذب قبلهم أقوام كانوا أشد من هؤلاء بطشا وأكثر أموالا وأولادا وأوسع عيشا، فأهلكتهم كثمود وعاد. ﴿ فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون. فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ﴾ تقدم معناه. وقال المبرد: يقال لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته، أي وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما. قال: والخزي من المكروه والخزاية من الاستحياء ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾ أي مما أصابهم في الدنيا ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي من كل مثل يحتاجون إليه؛ مثل قوله تعالى: ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ (الأنعام: ٣٨) وقيل: أي ما ذكرناه من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء. ﴿لعلهم يتذكرون﴾ يتعظون. ﴿ قرآنا عربيا ﴾ نصب على الحال. قال الأخفش: لأن قوله جل وعز: "في هذا القرآن" معرفة. وقال علي بن سليمان: "عربيا" نصب على الحال و"قرآنا" توطئة للحال كما تقول مررت بزيد رجلا صالحا فقولك صالحا هو المنصوب على الحال. وقال الزجاج: "عربيا" منصوب على الحال و"قرآنا" توكيد. ﴿ غير ذي عوج ﴾ النحاس: أحسن ما قيل فيه قول الضحاك، قال: غير مختلف. وهو قول ابن عباس، ذكره الثعلبي. وعن ابن عباس أيضا غير مخلوق، ذكره المهدوي وقاله السدي فيما ذكره الثعلبي. وقال عثمان بن عفان: غير متضاد. وقال مجاهد: غير ذي لبس. وقال بكر بن عبد الله المزني: غير ذي لحن. وقيل: غير ذي شك. قاله السدي فيما ذكره الماوردي. قال:

وقد أتاك يقين غير ذي عوج   من الإله وقول غير مكذوب

﴿ لعلهم يتقون ﴾ الكفر والكذب.

قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾

قوله تعالى: ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ﴾ قال الكسائي: نصب "رجلا" لأنه ترجمة للمثل وتفسير له، وإن شئت نصبته بنزع الخافض، مجازه: ضرب الله مثلا برجل "فيه شركاء متشاكسون" قال الفراء: أي مختلفون. وقال المبرد: أي متعاسرون من شكس يشكس شكسا بوزن

قفل فهو شكس مثل عسر يعسر عسرا فهو عسر، يقال: رجل شكس وشرس وضرس وضبس. ويقال: رجل ضبس وضبيس أي شرس عسر شكس؛ قاله الجوهري. الزمخشري: والتشاكس والتشاخس الاختلاف. يقال: تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه. ويقال: شاكسني فلان أي ماكسني وشاحني في حقي. قال الجوهري: رجل شكس بالتسكين أي صعب الخلق. قال الراجز:

شكس عبوس عنبس عذور

وقوم شكس مثال رجل صدق وقوم صدق. وقد شكس بالكسر شكاسة. وحكى الفراء: رجل شكس. وهو القياس، وهذا مثل من عبد آلهة كثيرة. ﴿ ورجلا سلما لرجل ﴾ أي خالصا لسيد واحد، وهو مثل من يعبد الله وحده. ﴿ هل يستويان مثلا ﴾ هذا الذي يخدم جماعة شركاء، أخلاقهم مختلفة، ونياتهم متباينة، لا يلقاه رجل إلا جره واستخدمه؛ فهو يلقى منهم العناء والنصب والتعب العظيم، وهو مع ذلك كله لا يرضي واحدا منهم بخدمته لكثرة الحقوق في رقبته، والذي يخدم واحدا لا ينازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحده عرف ذلك له، وإن أخطأ صفح عن خطئه، فأيهما أقل تعبا أو على هدى مستقيم. وقرأ أهل الكوفة وأهل المدينة: "ورجلا سلمًا" وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجحدري وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب: "ورجلا سالما" واختاره أبو عبيد لصحة التفسير فيه. قال: لأن السالم الخالص ضد المشترك، والسلم ضد الحرب ولا موضع للحرب هنا. النحاس: وهذا الاحتجاج لا يلزم؛ لأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما، فهذا وإن كان السلم ضد الحرب فله موضع آخر؛ كما يقال لك في هذا المنزل شركاء فصار سلما لك. ويلزمه أيضا في سالم ما ألزم غيره؛ لأنه يقال شيء سالم أي لا عاهة به. والقراءتان حسنتان قرأ بهما الأئمة. واختار أبو حاتم قراءة أهل المدينة "سلما" قال وهذا الذي لا تنازع فيه. وقرأ سعيد بن جبير وعكرمة وأبو العالية ونصر "سلما" بكسر السين وسكون اللام. وسلما وسلما مصدران؛ والتقدير: ورجلا ذا سلم فحذف المضاف و"مثلا" صفة على التمييز، والمعنى هل تستوي صفتاهما وحالاهما. وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. ﴿ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي لا يعلمون الحق فيتبعونه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ قرأ ابن محيصن وابن أبي عبلة وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق "إنك مائت وإنهم مائتون" وهي قراءة حسنة وبها قرأ عبد الله بن الزبير. النحاس: ومثل هذه الألف تحذف في الشواذ و"مائت" في المستقبل كثير في كلام العرب؛ ومثله ما كان مريضا وإنه لمارض من هذا الطعام. وقال الحسن والفراء والكسائي: الميت بالتشديد من لم يمت وسيموت، والميت بالتخفيف من فارقته الروح؛ فلذلك لم تخفف هنا. قال قتادة: نعيت إلى النبي ﷺ نفسه، ونعيت إليكم أنفسكم. وقال ثابت البناني: نعى رجل إلى صلة بن أشيم أخا له فوافقه يأكل، فقال: ادن فكل فقد نعي إلي أخي منذ حين؛ قال: وكيف وأنا أول من أتاك بالخبر. قال: إن الله تعالى نعاه إلي فقال: "إنك ميت وإنهم ميتون". وهو خطاب للنبي ﷺ أخبره بموته وموتهم؛ فاحتمل خمسة

أوجه: أحدها: أن يكون ذلك تحذيرا من الآخرة. الثاني: أن يذكره حثا على العمل. الثالث: أن يذكره توطئة للموت. الرابع: لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره، حتى أن عمر ﷺ لما أنكر موته احتج أبو بكر ﷺ بهذه الآية فأمسك. الخامس: ليعلمه أن الله تعالى قد سوى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره؛ لتكثر فيه السلوة وتقل فيه الحسرة.

قوله تعالى: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ يعني تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم؛ قاله ابن عباس وغيره. وفي خبر فيه طول: إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحاج الروح الجسد. وقال الزبير: لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: (نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه) فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد[1]. وقال ابن عمر: لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين: "ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون" فقلنا: وكيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف؛ فعرفت أنها فينا نزلت[2]. وقال أبو سعيد الخدري: (كنا نقول ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا). وقال إبراهيم النخعي: لما نزلت هذه الآية جعل أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: ما خصومتنا بيننا؟ فلما قتل عثمان ﷺ قالوا: هذه خصومتنا بيننا. وقيل تخاصمهم هو تحاكمهم إلى الله تعالى، فيستوفي من حسنات الظالم بقدر مظلمته، ويردها في حسنات من وجبت له. وهذا عام في جميع المظالم كما في حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (أتدرون من المفلس) قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: (إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار) خرجه مسلم[3]. وقد مضى المعنى مجودا في "آل عمران" وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)[4] وفي الحديث المسند (أول ما تقع الخصومات في الدنيا) وقد ذكرنا هذا الباب كله في التذكرة مستوفى.

قوله تعالى: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) "إسناده حسن"، انظر صحيح الترمذي (٢٥٨٣)، والمسند (١٤٣٤ـ ط الشيخ شاكر).

(٢) رواه الطبراني ورجاله ثقات، كما في "المجمع"، (٧/ ١٠٠).

(٣) أخرجه مسلم في "البر والصلة"، (٢٥٨١).

(٤) أخرجه البخاري في "المظالم"، (٢٤٤٩).

ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ فمن أظلم ﴾ أي لا أحد أظلم ﴿ ممن كذب على الله ﴾ فزعم أن لـه ولدا وشريكا ﴿ وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ يعني القرآن ﴿ أليس في جهنم ﴾ استفهام تقرير ﴿ مثوى للكافرين ﴾ أي مقام للجاحدين، وهو مشتق من ثوى بالمكان إذا أقام به يثوي ثواء وثويا مثل مضى مضاء ومضيا، ولو كان من أثوى لكان مثوى. وهذا يدل على أن ثوى هي اللغة الفصيحة. وحكى أبو عبيد أثوى، وأنشد قول الأعشى:

أثـوى وقــصر ليلـــة ليزودا ومضى وأخلف من قتيلة موعدا

والأصمعي لا يعرف إلا ثوى، ويروى البيت أثوى على الاستفهام. وأثويت غيري يتعدى ولا يتعدى.

قولـه تعالى: ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ في موضع رفع بالابتداء وخبره ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ واختلف في الذي جاء بالصدق وصدق به؛ فقال علي ﷺ: "الذي جاء بالصدق" النبي ﷺ "وصدق به" أبو بكر ﷺ. وقال مجاهد: النبي ﷺ وعلي ﷺ. السدي: الذي جاء بالصدق جبريل عليه السلام والذي صدق به محمد ﷺ. وقال ابن زيد ومقاتل وقتادة: "الذي جاء بالصدق" النبي ﷺ: "وصدق به" المؤمنون. واستدلوا على ذلك بقولـه: ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ كما قال: ﴿ هدى للمتقين﴾ (البقرة: ٢). وقال النخعي ومجاهد: "الذي جاء بالصدق وصدق به" المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة فيقولون: هذا الذي أعطيتمونا قد اتبعنا ما فيه؛ فيكون "الذي" على هذا بمعنى جمع كما تكون من بمعنى جمع. وقيل: بل حذفت منه النون لطول الاسم، وتأول الشعبي على أنه واحد. وقال: "الذي جاء بالصدق" محمد ﷺ فيكون على هذا خبره جماعة؛ كما يقال لمن يعظم هو فعلوا، وزيد فعلوا كذا وكذا. وقيل: إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله عز وجل؛ قالـه ابن عباس وغيره، واختاره الطبري. وفي قراءة ابن مسعود "والذي جاؤوا بالصدق وصدقوا به" وهي قراءة على التفسير. وفي قراءة أبي صالح الكوفي "والذي جاء بالصدق وصدق به" مخففا على معنى وصدق بمجيئه به، أي صدق في طاعة الله عز وجل، وقد مضى في "البقرة" الكلام في "الذي" وأنه يكون واحدا ويكون جمعا. ﴿ لـهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾ أي من النعيم في الجنة، كما يقال: لك إكرام عندي؛ أي ينالك مني ذلك. ﴿ ذلك جزاء المحسنين ﴾ الثناء في الدنيا والثواب في الآخرة.

قولـه تعالى: ﴿ ليكفر الله عنهم ﴾ أي صدّقوا "ليكفر الله عنهم". ﴿ أسوأ الذي عملوا ﴾ أي يكرمهم ولا يؤاخذهم بما عملوا قبل الإسلام. ﴿ ويجزيهم أجرهم ﴾ أي يثيبهم على الطاعات في الدنيا ﴿ بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ وهي الجنة.

قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ حذفت الياء من "كاف" لسكونها وسكون التنوين بعدها؛ وكان الأصل ألا تحذف في الوقف لزوال التنوين، إلا أنها حذفت ليعلم أنها كذلك في الوصل. ومن العرب من يثبتها في الوقف على الأصل فيقول: كافي. وقراءة العامة "عبده" بالتوحيد يعني محمدا ﷺ يكفيه الله وعيد المشركين وكيدهم. وقرأ حمزة والكسائي "عباده" وهم الأنبياء أو

الأنبياء والمؤمنون بهم. واختار أبو عبيدة قراءة الجماعة لقولـه عقيبه: "ويخوفونك بالذين من دونه". ويحتمل أن يكون العبد لفظ الجنس؛ كقولـه عز من قائل: ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ (العصر: ٢) وعلى هذا تكون القراءة الأولى راجعة إلى الثانية. والكفاية شر الأصنام، فإنهم كانوا يخوفون المؤمنين بالأصنام، حتى قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ﴾ (الأنعام: ٨١). وقال الجرجاني: إن الله كاف عبده المؤمن وعبده الكافر، هذا بالثواب وهذا بالعقاب.

قولـه تعالى: ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبي ﷺ مضرة الأوثان، فقالوا: أتسب آلـهتنا؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنك أو تصيبنك بسوء[1]. وقال قتادة: مشى خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها بالفأس. فقال لـه سادنها: أحذركها يا خالد فإن لـها شدة لا يقوم لـها شيء، فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس. وتخويفهم لخالد تخويف للنبي ﷺ؛ لأنه الذي وجه خالدا. ويدخل في الآية تخويفهم النبي ﷺ بكثرة جمعهم وقوتهم؛ كما قال: ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ (القمر: ٤٤) ﴿ ومن يضلل الله فما لـه من هاد ﴾ تقدم. ﴿ ومن يهد الله فما لـه من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴾ أي ممن عاداه أو عادى رسلـه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولئن سألتهم ﴾ أي ولئن سألتهم يا محمد ﴿ من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ بين أنهم مع عبادتهم الأوثان مقرون بأن الخالق هو الله، وإذا كان الله هو الخالق فكيف يخوفونك بآلـهتهم التي هي مخلوقة لله تعالى، وأنت رسول الله الذي خلقها وخلق السماوات والأرض. ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾ أي قل لـهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا "أفرأيتم ما تدعون من دون الله" ﴿ إن أرادني الله بضر ﴾ بشدة وبلاء ﴿ هل هن كاشفات ضره ﴾ يعني هذه الأصنام ﴿ أو أرادني برحمة ﴾ نعمة ورخاء ﴿ هل هن ممسكات رحمته ﴾ قال مقاتل: فسألـهم النبي ﷺ فسكتوا. وقال غيره: قالوا لا تدفع شيئا قدره الله ولكنها تشفع. فنزلت: ﴿ قل حسبي الله ﴾ وترك الجواب لدلالة الكلام عليه؛ يعني فسيقولون لا، أي: لا تكشف ولا تمسك فـ "قل" أنت "حسبي الله" أي عليه توكلت أي اعتمدت و﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾ يعتمد المعتمدون. وقد تقدم الكلام في التوكل.

---

(١) ضعيف، رواه قتادة عن رجل مرفوعاً. كما في "الدر المنثور"، (٥/ ٦١٥).

وقرأ نافع وابن كثير والكوفيون ما عدا عاصما "كاشفات ضره" بغير تنوين. وقرأ أبو عمرو وشيبة وهي المعروفة من قراءة الحسن وعاصم "هل هن كاشفات ضره". "ممسكات رحمته" بالتنوين على الأصل وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لأنه اسم فاعل في معنى الاستقبال، وإذا كان كذلك كان التنوين أجود. قال الشاعر:

الضاربون عميرا عن بيوتهم   بالليل يوم عمير ظالم عادي

ولو كان ماضيا لم يجز فيه التنوين، وحذف التنوين على التحقيق، فإذا حذفت التنوين لم يبق بين الاسمين حاجز فخفضت الثاني بالإضافة. وحذف التنوين كثير في كلام العرب موجود حسن؛ قال الله تعالى: ﴿ هديا بالغ الكعبة ﴾ (المائدة: ٩٥) وقال: ﴿ إنا مرسلو الناقة ﴾ (القمر: ٢٧) قال سيبويه: ومثل ذلك ﴿ غير محلي الصيد ﴾ (المائدة: ١) وأنشد سيبويه:

هـل أنت باعث دينار لحاجتنا   أو عبد رب أخا عون بن مخراق

وقال النابغة:

احكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت   إلـى حمـام شـراع وارد الثـمد

معناه وارد الثمد فحذف التنوين؛ مثل "كاشفات ضره".

قولـه تعالى: ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل ﴾ أي على مكانتي أي على جهتي التي تمكنت عندي ﴿ فسوف تعلمون ﴾. وقرأ أبو بكر بالجمع "مكاناتكم". وقد مضى في "الأنعام". ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي يهينه ويذله أي في الدنيا وذلك بالجوع والسيف. ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ أي في الآخرة. ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ أي يقبضها عند فناء آجالـها ﴿ والتي لم تمت في منامها ﴾ اختلف فيه. فقيل: يقبضها عن التصرف مع بقاء أرواحها في أجسادها ﴿ فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ وهي النائمة فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها؛ قاله ابن عيسى. وقال الفراء: المعنى ويقبض التي لم تمت في منامها عند انقضاء أجلـها. قال: وقد يكون توفيها نومها؛ فيكون التقدير على هذا والتي لم تمت وفاتها نومها. وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها[1]. وقال سعيد بن جبير: إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح. كما في "المجمع"، (٧/ ١٠٠).

الله أن تتعارف "فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى" أي يعيدها. قال علي ﷺ: فما رأته نفس النائم وهي في السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهي الرؤيا الصادقة، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها في جسدها تلقيها الشياطين، وتخيل إليها الأباطيل فهي الرؤيا الكاذبة. وقال ابن زيد: النوم وفاة والموت وفاة. وعن النبي ﷺ قال: (كما تنامون فكذلك تموتون وكما توقظون فكذلك تبعثون). وقال عمر: النوم أخو الموت. وروي مرفوعا من حديث جابر بن عبد الله قيل: يا رسول الله أينام أهل الجنة؟ قال: (لا النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها)[٢] خرجه الدارقطني. وقال ابن عباس: (في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النفس والتحريك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه). وهذا قول ابن الأنباري والزجاج. قال القشيري أبو نصر: وفي هذا بعد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة في الحال شيء واحد؛ ولهذا قال: "فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى" فإذاً يقبض الله الروح في حالين في حالة النوم وحالة الموت، فما قبضه في حال النوم فمعناه أنه يغمره بما يحبسه عن التصرف فكأنه شيء مقبوض، وما قبضه في حال الموت فهو يمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة. وقوله: "ويرسل الأخرى" أي يزيل الحابس عنه فيعود كما كان. فتوفي الأنفس في حال النوم بإزالة الحس وخلق الغفلة والآفة في محل الإدراك. وتوفيها في حالة الموت بخلق الموت وإزالة الحس بالكلية. "فيمسك التي قضى عليها الموت" بألا يخلق فيها الإدراك كيف وقد خلق فيها الموت؟ "ويرسل الأخرى" بأن يعيد إليها الإحساس.

وقد اختلف الناس من هذه الآية في النفس والروح؛ هل هما شيء واحد أو شيئان على ما ذكرنا. والأظهر أنهما شيء واحد، وهو الذي تدل عليه الآثار الصحاح على ما نذكره في هذا الباب. من ذلك حديث أم سلمة قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه، ثم قال: (إن الروح إذا قبض تبعه البصر)[٣] وحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره) قال: (فذلك حين يتبع بصره نفسه)[٤] خرجهما مسلم. وعنه عن النبي ﷺ قال: (تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحا قالوا اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب راض غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء. . .) وذكر الحديث وإسناده صحيح خرجه ابن ماجه[٥]؛ وقد ذكرناه في التذكرة. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: (إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها. . .)[٦].

---

(٢) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٦٨٠٨)، وراجع الصحيحة (١٠٨٦).
(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩٢٠).
(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩٢١).
(٥) "صحيح" انظر صحيح ابن ماجه (٣٤٣٧) وقد سبق.
(٦) جزء من حديث أخرجه مسلم في "صفة الجنة"، (٢٨٧٢).

وذكر الحديث. وقال بلال في حديث الوادي: أخذ بنفسي يا رسول الله الذي أخذ بنفسك[١]. وقال رسول الله ﷺ مقابلا له في حديث زيد بن أسلم في حديث الوادي: (يا أيها الناس إن الله قبض أرواحنا و لو شاء ردها إلينا في حين غير هذا)[٢].

والصحيح فيه أنه جسم لطيف مشابك للأجسام المحسوسة، يجذب ويخرج وفي أكفانه يلف ويدرج، وبه إلى السماء يعرج، لا يموت ولا يفنى، وهو مما له أول وليس له آخر، وهو بعينين ويدين، وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة؛ كما في حديث أبي هريرة. وهذه صفة الأجسام لا صفة الأعراض؛ وقد ذكرنا الأخبار بهذا كله في كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة. وقال تعالى: ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ (الواقعة: ٨٣) يعني النفس إلى خروجها من الجسد؛ وهذه صفة الجسم. والله أعلم.

خرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلة إزاره فلينفض بها فراشه وليُسم الله فإنه لا يعلم ما خلفه بعد على فراشه فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقه الأيمن وليقل سبحانك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فاغفر لها)[٣]. وقال البخاري وابن ماجه والترمذي: (فارحمها) بدل (فاغفر لها) (وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين) زاد الترمذي (وإذا استيقظ فليقل الحمد لله الذي عافاني في جسدي ورد علي روحي وأذن لي بذكره)[٤]. وخرج البخاري عن حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده؛ ثم يقول: (اللهم باسمك أموت وأحيا) وإذا استيقظ قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور)[٥].

قوله تعالى: ﴿ فيمسك التي قضى عليها الموت ﴾ هذه قراءة العامة على أنه مسمى الفاعل "الموت" نصبا؛ أي قضى الله عليها وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد؛ لقوله في أول الآية: "الله يتوفى الأنفس" فهو يقضي عليها. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي "قضي عليها الموت" على ما لم يسم فاعله. النحاس: والمعنى واحد غير أن القراءة الأولى أبين وأشبه بنسق الكلام؛ لأنهم قد أجمعوا على "ويُرسلُ" ولم يقرؤوا "ويُرسَلُ". وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته وانفراده بالألوهية، وأنه يفعل ما يشاءَ، ويحيي ويميت، لا يقدر على ذلك سواه. ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ يعني في قبض الله نفس الميت والنائم، وإرساله نفس النائم وحبسه نفس الميت. وقال الأصمعي سمعت معتمرا يقول: روح الإنسان مثل كبة الغزل، فترسل الروح، فتمضي ثم تمضي ثم تطوى فتجيء فتدخل؛ فمعنى الآية أنه يرسل من الروح شيء في حال النوم ومعظمها في البدن متصل بما يخرج منها اتصالا خفيا، فإذا استيقظ المرء جذب معظم روحه ما انبسط منها فعاد.

---

(١) جزء من حديث أخرجاه في الصحيحين، وقد سبق.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥)، وفي غير موضع من صحيحه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، وفي مواضع أخر، ومسلم (٢٧١٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٤٦١ـ أحوذي) وحسنه.

(٥) أخرجه البخاري (٦٣١٢)، وفي مواضع أخر من صحيحه.

وقيل غير هذا؛ وفي التنزيل: ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ (الإسراء: ٨٥) أي لا يعلم حقيقته إلا الله. وقد تقدم في "سبحان".

قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء ﴾ أي بل اتخذوا يعني الأصنام وفي الكلام ما يتضمن لم؛ أي "إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" لم يتفكروا ولكنهم اتخذوا آلـهتهم شفعاء. ﴿ قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ﴾ أي قل لـهم يا محمد أتتخذونهم شفعاء وإن كانوا لا يملكون شيئا من الشفاعة ﴿ ولا يعقلون ﴾ لأنها جمادات. وهذا استفهام إنكار. ﴿ قل لله الشفاعة جميعا ﴾ نص في أن الشفاعة لله وحده كما قال: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ (البقرة: ٢٥٥) فلا شافع إلا من شفاعته ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ (الأنبياء: ٢٨). "جميعا" نصب على الحال. فإن قيل: "جميعا" إنما يكون للاثنين فصاعدا والشفاعة واحدة. فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدي عن الاثنين والجميع: ﴿ لـه ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾.

قولـه تعالى: ﴿ وإذا ذكر الله وحده ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه، وعلى الحال عند يونس. ﴿ اشمأزت ﴾ قال المبرد: انقبضت. وهو قول ابن عباس ومجاهد. وقال قتادة: نفرت واستكبرت وكفرت وتعصت. وقال المؤرج: أنكرت. وأصل الاشمئزاز النفور والازورار. قال عمرو ابن كلثوم:

إذا عض الثقاف بها اشمأزت ولتهم عشوزنة زبونا

وقال أبو زيد: اشمأز الرجل ذعر من الفزع وهو المذعور. وكان المشركون إذا قيل لـهم "لا إلـه إلا الله" نفروا وكفروا. ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ يعني الأوثان حين ألقى الشيطان في أمنية النبي ﷺ عند قراءته سورة "النجم" تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم ترتجى[1]. قالـه جماعة المفسرين. ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أي يظهر في وجوههم البشر والسرور.

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا

---

(١) سبق أن أشرنا إلى بطلان خبر الغرانيق وفساده، وذلك عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الحج، ويكفي فيه قول عياض: هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواة ثقة بسند سليم متصل مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته وانقطاع إسناده، وكذا قوله: ومن حملت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم في ذلك ضعيفة واهية. الفتح (٨/ ٢٩٣).

وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ قل اللهم فاطر السماوات والأرض ﴾ نصب لأنه نداء مضاف وكذا ﴿ عالم الغيب ﴾ ولا يجوز عند سيبويه أن يكون نعتا. ﴿ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان النبي ﷺ يستفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل "فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون" اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)[1] ولما بلغ الربيع بن خيثم قتل الحسين بن علي ﷺ قرأ: "قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون". وقال سعيد بن جبير: إني لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه، قوله تعالى: ﴿ قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ولو أن للذين ظلموا ﴾ أي كذبوا وأشركوا ﴿ ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ﴾ أي من سوء عذاب ذلك اليوم. وقد مضى هذا في سورة "آل عمران" و"الرعد". ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ من أجل ما روي فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال: عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات. وقاله السدي. وقيل: عملوا أعمالا توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا، وقد كانوا ظنوا أنهم ينجون بالتوبة. ويجوز أن يكونوا توهموا أنه يغفر لهم من غير توبة فـ "بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون" من دخول النار. وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء هذه آيتهم وقصتهم. وقال عكرمة بن عمار: جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديدا، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب الله "وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون" فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب. ﴿ وبدا لهم ﴾ أي ظهر لهم ﴿ سيئات ما كسبوا ﴾ أي عقاب ما كسبوا من الكفر والمعاصي. ﴿ وحاق بهم ﴾ أي أحاط بهم ونزل ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ

---

(١) أخرجه مسلم في "صلاة المسافرين"، (٧٧٠).

سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ فإذا مس الإنسان ضر دعانا ﴾ قيل: إنها نزلت في حذيفة بن المغيرة. ﴿ ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ﴾ قال قتادة: "على علم" عندي بوجوه المكاسب، وعنه أيضا "على علم" على خير عندي. وقيل: "على علم" أي على علم من الله بفضلي. وقال الحسن: "على علم" أي بعلم علمني الله إياه. وقيل: المعنى أنه قال قد علمت أني إذا أوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلة؛ فقال الله: ﴿ بل هي فتنة ﴾ أي بل النعم التي أوتيتها فتنة تختبر بها. قال الفراء: أنث "هي" لتأنيث الفتنة، ولو كان بل هو فتنة لجاز. النحاس: التقدير بل أعطيته فتنة. ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي لا يعلمون أن إعطاءهم المال اختبار.

قولـه تعالى: ﴿ قد قالـها ﴾ أنث على تأنيث الكلمة. ﴿ الذين من قبلـهم ﴾ يعني الكفار قبلـهم كقارون وغيره حيث قال: "إنما أوتيته على علم عندي". ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ "ما" للجحد أي لم تغن عنهم أموالـهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا. وقيل: أي فما الذي أغنى أموالـهم؟ فـ "ما" استفهام. ﴿ فأصابهم سيئات ما كسبوا ﴾ أي جزاء سيئات أعمالـهم. وقد يسمى جزاء السيئة سيئة. ﴿ والذين ظلموا ﴾ أي أشركوا ﴿ من هؤلاء ﴾ الأمة ﴿ سيصيبهم سيئات ما كسبوا ﴾ أي بالجوع والسيف. ﴿ وما هم بمعجزين ﴾ أي فائتين الله ولا سابقيه. وقد تقدم.

قولـه تعالى: ﴿ أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ خص المؤمن بالذكر؛ لأنه هو الذي يتدبر الآيات وينتفع بها. ويعلم أن سعة الرزق قد يكون مكرا واستدراجا، وتقتيره رفعة وإعظاما.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ وإن شئت حذفت الياء؛ لأن النداء موضع حذف. النحاس: ومن أجل ما روي فيه ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال: لما اجتمعنا على الـهجرة، اتعدت أنا وهشام بن العاصي بن وائل السهمي، وعياش بن أبي ربيعة بن عتبة، فقلنا: الموعد أضاة بني غفار، وقلنا: من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحبه. فأصبحت أنا وعياش بن عتبة وحبس عنا هشام، وإذا به قد فتن فافتتن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسولـه ﷺ، ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لـهم توبة، وكانوا هم أيضا يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله عز وجل في كتابه: "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله" إلى قولـه تعالى: "أليس في جهنم مثوى للمتكبرين" قال عمر: فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى هشام. قال هشام: فلما قدمت علي خرجت بها إلى ذي طوى فقلـت: اللهـم فهـمنيها فعرفت أنها نزلت فينا، فرجعت فجلست على بعيري فلحقت برسول الله ﷺ.[1] وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان قوم من المشركين قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فقالوا للنبي ﷺ أو بعثوا إليه: إن ما تدعو إليه لحسن أو تخبرنا أن لنا توبة؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية: "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم" ذكره البخاري بمعناه[2]. وقد مضى في آخر "الفرقان".

وعن ابن عباس أيضا نزلت في أهل مكة قالوا: يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر لـه، وكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلـها آخر وقتلنا النفس التي حرم الله فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إنها نزلت في قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم في العبادة، وخافوا ألا يتقبل منهم لذنوب سبقت لـهم في الجاهلية. وقال ابن عباس أيضا وعطاء نزلت في وحشي قاتل حمزة؛ لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه: وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: أتى وحشي إلى النبي ﷺ؛ فقال: يا محمد أتيتك مستجيرا فأجرني حتى أسمع كلام الله. فقال رسول الله ﷺ: (قد كنت أحب أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتني مستجيرا فأنت في جواري حتى تسمع كلام الله) قال: فإني أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله وزنيت، هل يقبل الله مني توبة؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلـها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ (الفرقان: ٦٨) إلى آخر الآية فتلاها عليه؛ فقال أرى شرطا فلعلي لا أعمل صالحا، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله. فنزلت: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (النساء: ٤٨) فدعا به فتلا عليه؛ قال: فلعلي ممن لا يشاء أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله. فنزلت: "يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله" فقال: نعم الآن لا أرى شرطا. فأسلم[3]. وروى

---

(١) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٦/ ٦١) مطولا، وقال: "رواه البزار ورجاله ثقات"، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور"، (٥/ ٦٢٠) إلى ابن مردويه والبيهقي في السنن الكبرى.

(٢) في التفسير (٤٨١٠).

(٣) ذكره الهيثمي بنحوه في "المجمع"، (٧/ ١٠١) وقال: "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه أبين بن سفين ضعفه الذهبي". ولين إسناده السيوطي في "الدر المنثور"، (٥/ ٦٢٠) ونسبه إلى الطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب.

حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء أنها سمعت النبي ﷺ يقرأ: "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم"[١]. وفي مصحف ابن مسعود "إن الله يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء". قال أبو جعفر النحاس: وهاتان القراءتان على التفسير، أي يغفر الله لمن يشاء. وقد عرف الله عز وجل من شاء أن يغفر لـه، وهو التائب أو من عمل صغيرة ولم تكن لـه كبيرة، ودل على أنه يريد التائب ما بعده "وأنيبوا إلى ربكم" فالتائب مغفور لـه ذنوبه جميعا يدل على ذلك ﴿ وإني لغفار لمن تاب ﴾ (طه: ٨٢) فهذا لا إشكال فيه. وقال علي بن أبي طالب: ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية: "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله" وقد مضى هذا في "سبحان". وقال عبد الله بن عمر: وهذه أرجى آية في القرآن فرد عليهم ابن عباس وقال أرجى آية في القرآن قولـه تعالى: ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ (الرعد: ٦) وقد مضى في "الرعد". وقرئ "ولا تقنطوا" بكسر النون وفتحها. وقد مضى في "الحجر" بيانه.

قولـه تعالى: ﴿ وأنيبوا إلى ربكم ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة. لما بين أن من تاب من الشرك يغفر لـه أمر بالتوبة والرجوع إليه، والإنابة الرجوع إلى الله بالإخلاص. "وأسلموا لـه" أي اخضعوا لـه وأطيعوا ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب ﴾ في الدنيا ﴿ثم لا تنصرون﴾ أي لا تمنعون من عذابه. وروي من حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال: (من السعادة أن يطيل الله عمر المرء في الطاعة ويرزقه الإنابة، وإن من الشقاوة أن يعمل المرء ويعجب بعملـه)[٢].

قولـه تعالى: ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ "أحسن ما أنزل" هو القرآن وكلـه حسن، والمعنى ما قال الحسن: التزموا طاعته، واجتنبوا معصيته. وقال السدي: الأحسن ما أمر الله به في كتابه. وقال ابن زيد: يعني المحكمات، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه. وقال: أنزل الله كتب التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز. وقيل: هذا أحسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب وجميع الكتب منسوخة. وقيل: يعني العفو؛ لأن الله تعالى خيّر نبيّه ﷺ بين العفو والقصاص. وقيل: ما علم الله النبي ﷺ وليس بقرآن فهو حسن؛ وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن. وقيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية. ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا ﴾ "أن" في موضع نصب أي كراهة "أن تقول" وعند الكوفيين لئلا تقول وعند البصريين حذر "أن تقول". وقيل: أي من قبل "أن تقول نفس" لأنه قال قبل هذا: "من قبل أن يأتيكم العذاب". الزمخشري: فإن قلت لم نكرت؟ قلت: لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر. ويجوز أن يريد نفسا متميزة من الأنفس، إما بلجاج في الكفر شديد، أو بعقاب عظيم. ويجوز أن يراد التكثير كما قال الأعشى:

---

(١) "ضعيف" أخرجه الترمذي (٣٢٩٠). أحوذي، وقال: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ثابت عن شهر ابن حوشب". وكذا أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وعبد بن حميد وغيرهم كما في "الدر المنثور" (٥/ ٦٢١).

(٢) أخرجه أحمد في "المسند"، (٣/ ٣٣٢) دون شطره الثاني عن الحارث بن يزيد (وفي رواية: الحارث بن أبي يزيد) قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: . . . فذكره مرفوعاً. وقال المنذري في "الترغيب" (٤/ ١٣٦): "رواه أحمد بإسناد حسن، والبيهقي، لكن ضعفه الشيخ الألباني كما في الضعيفة (٨٨٥)؛ لأن الحارث هذا لم يوثقه غير ابن حبان، وقد اضطرب في اسمه على الوجهين المذكورين.

ورب بقيــع لـو هتفــت بجوه أتاني كريم ينفض الرأس مغضبا

وهو يريد أفواجا من الكرام ينصرونه لا كريما واحدا، ونظيره: رب بلد قطعت، ورب بطل قارعت، ولا يقصد إلا التكثير. "يا حسرتا" والأصل "يا حسرتي" فأبدل من الياء ألف؛ لأنها أخف وأمكن في الاستغاثة بمد الصوت، وربما ألحقوا بها الـهاء؛ أنشد الفراء:

يا مرحباه بحمار ناجيه إذا أتى قربتـه للسانيه

وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف؛ لتدل على الإضافة. وكذلك قرأها أبو جعفر: "يا حسرتاي" والحسرة الندامة ﴿ على ما فرطت في جنب الله ﴾ قال الحسن: في طاعة الله. وقال الضحاك: أي في ذكر الله عز وجل. قال: يعني القرآن والعمل به. وقال أبو عبيدة: "في جنب الله" أي في ثواب الله. وقال الفراء: الجنب القرب والجوار؛ يقال فلان يعيش في جنب فلان أي في جواره؛ ومنه ﴿والصاحب بالجنب ﴾ (النساء: ٣٦) أي ما فرطت في طلب جواره وقربه وهو الجنة. وقال الزجاج: أي على ما فرطت في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه. والعرب تسمي السبب والطريق إلى الشيء جنبا؛ تقول: تجرعت في جنبك غصصا؛ أي لأجلك وسببك ولأجل مرضاتك. وقيل: "في جنب الله" أي في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله عز وجل وثوابه، والعرب تسمي الجانب جنبا، قال الشاعر:

قســم مجهودا لذاك القلب الناس جنب والأمير جنب

يعني الناس من جانب والأمير من جانب. وقال ابن عرفة: أي تركت من أمر الله؛ يقال ما فعلت ذلك في جنب حاجتي؛ قال كثير:

ألا تتقين الله في جنب عاشق لـه كبد حرى عليك تقطـع

وكذا قال مجاهد؛ أي ضيعت من أمر الله. ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: (ما جلس رجل مجلسا ولا مشى ممشى ولا اضطجع مضطجعا لم يذكر الله عز وجل فيه إلا كان عليه ترة يوم القيامة) أي حسرة؛ خرجه أبو داود بمعناه[1]. وقال إبراهيم التيمي: من الحسرات يوم القيامة أن يرى الرجل مالـه الذي آتاه الله في الدنيا يوم القيامة في ميزان غيره، قد ورثه وعمل فيه بالحق، كان لـه أجره وعلى الآخر وزره، ومن الحسرات أن يرى الرجل عبده الذي خولـه الله إياه في الدنيا أقرب منزلة من الله عز وجل، أو يرى رجلا يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يوم القيامة وعمي هو. ﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ أي وما كنت إلا من المستهزئين بالقرآن وبالرسول في الدنيا وبأولياء الله تعالى. قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلـها. ومحل "إن كنت" النصب على الحال؛ كأنه قال: فرطت وأنا ساخر؛ أي فرطت في حال سخريتي. وقيل: وما كنت إلا في سخرية ولعب وباطل؛ أي ما كان سعيي إلا في عبادة غير الله تعالى.

قولـه تعالى: ﴿ أو تقول ﴾ هذه النفس ﴿ لو أن الله هداني ﴾ أي أرشدني إلى دينه. وهذا القول لو أن الله هداني لاهتديت قول صدق. وهو قريب من احتجاج المشركين فيما أخبر الرب جل وعز عنهم

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٦٤٧٧)، وراجع الصحيحة (٧٨).

في قولـه: ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ﴾ (الأنعام: ١٤٨) فهي كلمة حق أريد بها باطل؛ كما قال علي ﷺ لما قال قائل من الخوارج لا حكم إلا لله. ﴿ لكنت من المتقين ﴾ أي الشرك والمعاصي. ﴿ أو تقول حين ترى العذاب ﴾ يعني أن هذه النفس تقول حين ترى العذاب ﴿ لو أن لي كرة ﴾ أي تتمنى الرجعة. ﴿ فأكون من المحسنين ﴾ نصب على جواب التمني، وإن شئت كان معطوفا على "كرة" لأن معناه أن أكر؛ كما قال الشاعر:

للبـــــس عباءة وتقر عيني   أحب إلي من لبس الشفوف

وأنشد الفراء:

فما لك منها غير ذكرى وخشية   وتســـأل عن ركبانها أين يمموا

فنصب وتسأل على موضع الذكرى؛ لأن معنى الكلام فما لك منها إلا أن تذكر. ومنه للبس عباءة وتقر؛ أي لأن ألبس عباءة وتقر. وقال أبو صالح: كان رجل عالم في بني إسرائيل وجد رقعة: إن العبد ليعمل الزمان الطويل بطاعة الله فيختم لـه عمله بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بمعصية الله ثم يختم لـه عملـه بعمل رجل من أهل الجنة فيدخل الجنة؛ فقال: ولأي شيء أتعب نفسي فترك عملـه وأخذ في الفسوق والمعصية، وقال لـه إبليس: لك عمر طويل فتمتع في الدنيا ثم تتوب، فأخذ في الفسوق وأنفق مالـه في الفجور، فأتاه ملك الموت في ألذ ما كان، فقال: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله؛ ذهب عمري في طاعة الشيطان، فندم حين لا ينفعه الندم؛ فأنزل الله خبره في القرآن. وقال قتادة: هؤلاء أصناف؛ صنف منهم قال: "يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله". وصنف منهم قال: "لو أن الله هداني لكنت من المتقين". وقال آخر: "لو أن لي كرة فأكون من المحسنين" فقال الله تعالى ردا لكلامهم: ﴿ بلى قد جاءتك آياتي ﴾ قال الزجاج: "بلى" جواب النفي وليس في الكلام لفظ النفي، ولكن معنى "لو أن الله هداني" ما هداني، وكأن هذا القائل قال ما هديت؛ فقيل: بل قد بين لك طريق الـهدى فكنت بحيث لو أردت أن تؤمن أمكنك أن تؤمن. "آياتي" أي القرآن. وقيل: عنى بالآيات المعجزات؛ أي وضـح الدليل فأنكرته وكذبته. ﴿ واستكبرت ﴾ أي تكبرت عن الإيمان ﴿ وكنت من الكافرين ﴾. وقال: "استكبرت وكنت" وهو خطاب الذكر؛ لأن النفس تقع على الذكر والأنثى. يقال: ثلاثة أنفس. وقال المبرد: تقول العرب نفس واحد أي إنسان واحد. وروى الربيع بن أنس عن أم سلمة عن النبي ﷺ قرأ: "قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين"[1]. وقرأ الأعمش: "بلى قد جاءته آياتي" وهذا يدل على التذكير. والربيع بن أنس لم يلحق أم سلمة إلا أن القراءة جائزة؛ لأن النفس تقع للمذكر والمؤنث. وقد أنكر هذه القراءة بعضهم وقال: يجب إذا كسر التاء أن تقول وكنت من الكوافر أو من الكافرات. قال النحاس: وهذا لا يلزم؛ ألا ترى أن قبلـه "أن تقول نفس" ثم قال: "وإن كنت لمن الساخرين" ولم يقل من السواخر ولا من الساخرات. والتقدير في العربية على كسر التاء "واستكبرت وكنت" من الجمع الساخرين أو من الناس الساخرين أو من القوم الساخرين.

---

(١) أي قرأها على الجر، ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٧/ ١٠١) وقال: "رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه".

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ﴾ أي مما حاط بهم من غضب الله ونقمته. وقال الأخفش: "ترى" غير عامل في قوله: "وجوههم مسودة" إنما هو ابتداء وخبر. الزمخشري: جملة في موضع الحال إن كان "ترى" من رؤية البصر، ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب. ﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ بيّن رسول الله ﷺ معنى الكبر فقال ﷺ: (سفه الحق وغمص الناس)[1] أي احتقارهم. وقد مضى في "البقرة" وغيرها. وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: (يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذر يلحقهم الصغار حتى يؤتى بهم إلى سجن جهنم)[2]

قوله تعالى: ﴿ وينجي الله الذين اتقوا ﴾ وقرئ: "وينْجي" أي من الشرك والمعاصي. ﴿ بمفازتهم ﴾ على التوحيد قراءة العامة لأنها مصدر. وقرأ الكوفيون: "بمفازاتهم" وهو جائز كما تقول بسعاداتهم. وعن النبي ﷺ تفسير هذه الآية من حديث أبي هريرة، قال: (يحشر الله مع كل امرئ عمله فيكون عمل المؤمن معه في أحسن صورة وأطيب ريح فكلما كان رعب أو خوف قال له لا ترع فما أنت بالمراد به ولا أنت بالمعني به فإذا كثر ذلك عليه قال فما أحسنك فمن أنت فيقول أما تعرفني أنا عملك الصالح حملتني على ثقلي فوالله لأحملنك ولأدفعن عنك فهي التي قال الله: "وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون")[3].

﴿ الله خالق كل شيء هو على كل شيء وكيل ﴾ أي حافظ وقائم به. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ له مقاليد السماوات والأرض ﴾ واحدها مقليد. وقيل: مقلاد وأكثر ما يستعمل فيه إقليد. والمقاليد المفاتيح عن ابن عباس وغيره. وقال السدي: خزائن السماوات والأرض. وقال غيره: خزائن السماوات المطر، وخزائن الأرض النبات. وفيه لغة أخرى أقاليد وعليها يكون واحدها إقليد. قال الجوهري: والإقليد المفتاح، والمقلد مفتاح كالمنجل ربما يقلد به الكلأ كما يقلد القت إذا جعل حبالا؛ أي يفتل والجمع المقاليد. وأقلد البحر على خلق كثير أي غرقهم كأنه أغلق عليهم. وخرج البيهقي عن ابن عمر أن عثمان بن عفان ﷺ سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: "له مقاليد السماوات والأرض" فقال رسول الله ﷺ: (ما سألني عنها أحد لا إله إلا الله والله أكبر

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في "الإيمان"، (٩١).
(٢) "حسن" أخرجه أحمد والترمذي، وانظر صحيح الجامع (٨٠٤٠).
(٣) ضعيف.

وسبحان الله وبحمده أستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير) ذكره الثعلبي في تفسيره، وزاد من قالها إذا أصبح أو أمسى عشر مرات أعطاه الله ست خصال: أولها يحرس من إبليس، والثانية يحضره اثنا عشر ألف ملك، والثالثة يعطى قنطارا من الأجر، والرابعة ترفع له درجة، والخامسة يزوجه الله من الحور العين، والسادسة يكون له من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وله أيضا من الأجر كمن حج واعتمر فقبلت حجته وعمرته، فإن مات من ليلته مات شهيدا[١]. وروى الحارث عن علي قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير المقاليد فقال: (يا علي لقد سألت عن عظيم المقاليد هو أن تقول عشرا إذا أصبحت وعشرا إذا أمسيت لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله وأستغفر الله ولا قوة إلا بالله الأول والآخر والظاهر والباطن له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير من قالها عشرا إذا أصبح، وعشرا إذا أمسى أعطاه الله خصالا ستا: أولها يحرسه من الشيطان وجنوده فلا يكون لهم عليه سلطان، والثانية يعطى قنطارا في الجنة هو أثقل في ميزانه من جبل أحد، والثالثة ترفع له درجة لا ينالها إلا الأبرار، والرابعة يزوجه الله من الحور العين، والخامسة يشهده اثنا عشر ألف ملك يكتبونها له في رق منشور ويشهدون له بها يوم القيامة، والسادسة يكون له من الأجر كأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكمن حج واعتمر فقبل الله حجته وعمرته، وإن مات من يومه أو ليلته أو شهره طبع بطابع الشهداء[٢]. وقيل: المقاليد الطاعة يقال ألقى إلى فلان بالمقاليد أي أطاعه فيما يأمره؛ فمعنى الآية له طاعة من في السماوات والأرض.

قوله تعالى: ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ أي بالقرآن والحجج والدلالات. ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد ﴾ ذلك حين دعوا النبي ﷺ إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام وقالوا هو دين آبائك. و"غير" نصب بـ "أعبد" على تقدير أعبد غير الله فيما تأمروني. ويجوز أن ينتصب بـ "تأمروني" على حذف حرف الجر؛ التقدير: أتأمروني بغير الله أن أعبده، لأن أن مقدرة وأن والفعل مصدر، وهي بدل من غير؛ التقدير: أتأمروني بعبادة غير الله. وقرأ نافع: "تأمروني" بنون واحدة مخففة وفتح الياء. وقرأ ابن عامر: "تأمرونني" بنونين مخففتين على الأصل. الباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنها وقعت في مصحف عثمان بنون واحدة. وقرأ نافع على حذف النون الثانية وإنما كانت المحذوفة الثانية؛ لأن التكرير والتثقيل يقع بها، وأيضا حذف الأولى لا يجوز؛ لأنها دلالة الرفع. وقد مضى في "الأنعام" بيانه عند قوله تعالى: "أتحاجوني". "أعبد" أي أن أعبد فلما حذف "أن" رفع؛ قاله الكسائي. ومنه قول الشاعر:

---

(١) ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، (١/ ١٤٥).

(٢) ذكره ابن كثير في "تفسيره"، (٤/ ٦١) عن رواية ابن أبي حاتم، وقال: "غريب جداً وفي صحته نظر، وفيه نكارة شديدة".

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ "أعبد" بالنصب.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ﴾ قيل: إن في الكلام تقديما وتأخيرا؛ والتقدير: لقد أوحي إليك لئن أشركت وأوحي إلى الذين من قبلك كذلك. وقيل: هو على بابه؛ قال مقاتل: أي أوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد والتوحيد محذوف. ثم قال: "لئن أشركت" يا محمد: ﴿ ليحبطن عملك ﴾ وهو خطاب للنبي ﷺ خاصة. وقيل: الخطاب له والمراد أمته؛ إذ قد علم الله أنه لا يشرك ولا يقع منه إشراك. والإحباط الإبطال والفساد؛ قال القشيري: فمن ارتد لم تنفعه طاعاته السابقة ولكن إحباط الردة العمل مشروط بالوفاة على الكفر؛ ولهذا قال: ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم ﴾ (البقرة: ٢١٧) فالمطلق ها هنا محمول على المقيد؛ ولهذا قلنا: من حج ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحج.

قلت: هذا مذهب الشافعي. وعند مالك تجب عليه الإعادة وقد مضى في "البقرة" بيان هذا مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ بل الله فاعبد ﴾ النحاس: في كتابي عن أبي إسحاق لفظ اسم الله عز وجل منصوب بـ "اعبد" قال: ولا اختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين. قال النحاس: وقال الفراء يكون منصوبا بإضمار فعل. وحكاه المهدوي عن الكسائي. فأما الفاء فقال الزجاج: إنها للمجازاة. وقال الأخفش: هي زائدة. وقال ابن عباس: "فاعبد" أي فوحد. وقال غيره: "بل الله" فأطع ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ لنعمه بخلاف المشركين.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ قال المبرد: ما عظموه حق عظمته من قولك فلان عظيم القدر. قال النحاس: والمعنى على هذا وما عظموه حق عظمته إذ عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها. ثم أخبر عن قدرته وعظمته فقال: ﴿ والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ﴾. ثم نزه نفسه عن أن يكون ذلك بجارحة فقال: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾.

وفي الترمذي عن عبد الله قال: جاء يهودي إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد إن الله يمسك السماوات على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: "وما قدروا الله حق قدره"[١]. قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض)[٢]. وفي الترمذي عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله: "والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه" قالت: قلت فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: (على جسر جهنم)[٣] في رواية (على الصراط يا عائشة)[٤] قال: حديث حسن صحيح. وقوله: "والأرض جميعا قبضته" (ويقبض الله الأرض) عبارة عن قدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته؛ يقال: ما فلان إلا في قبضتي، بمعنى ما فلان إلا في قدرتي، والناس يقولون الأشياء في قبضته يريدون في ملكه وقدرته. وقد يكون معنى القبض والطي إفناء الشيء وإذهابه فقوله جل وعز: "والأرض جميعا قبضته" يحتمل أن يكون المراد به والأرض جميعا ذاهبة فانية يوم القيامة، والمراد بالأرض الأرضون السبع؛ يشهد لذلك شاهدان: قوله: "والأرض جميعا" ولأن الموضع موضع تفخيم وهو مقتض للمبالغة. وقوله: "والسماوات مطويات بيمينه" ليس يريد به طيا بعلاج وانتصاب، وإنما المراد بذلك الفناء والذهاب؛ يقال: قد انطوى عنا ما كنا فيه وجاءنا غيره. وانطوى عنا دهر بمعنى المضي والذهاب. واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة والملك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ أو ما ملكت أيمانكم ﴾ (النساء: ٣) يريد به الملك؛ وقال: ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ (الحاقة: ٤٥) أي بالقوة والقدرة أي لأخذنا قوته وقدرته. قال الفراء والمبرد: اليمين القوة والقدرة. وأنشدا:

إذا ما راية رفعت لمجد   تلقاها عرابة باليمين

وقال آخر:

ولما رأيت الشمس أشرق نورها   تناولت منها حاجتي بيمين
قتلت شنيفا ثم فاران بعده   وكان على الآيات غير أمين

وإنما خص يوم القيامة بالذكر وإن كانت قدرته شاملة لكل شيء أيضا؛ لأن الدعاوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال: ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ (الانفطار: ١٩) وقال: ﴿ مالك يوم الدين ﴾ (الفاتحة: ٣) حسب ما تقدم في "الفاتحة" ولذلك قال في الحديث: (ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض) وقد زدنا هذا الباب في التذكرة بيانا، وتكلمنا على ذكر الشمال في حديث ابن عمر؛ قوله: (ثم يطوي الأرض بشماله)[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٨) أحوذي، وهو في البخاري أيضا (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٨١٢)، وفي مواضع أخر من صحيحه، ومسلم (٢٧٨٧).
(٣) "صحيح"، انظر صحيح الترمذي (٢٥٨٩).
(٤) "صحيح" انظر صحيح الترمذي (٢٤٩٦).
(٥) هذه الرواية التي تفردت بذكر الشمال رواها مسلم في صحيحه (٥/ ٦٥٦) وقال البيهقي في "الأسماء والصفات"، (ص٣٢٤): "وذكر الشمال فيه تفرد به عمر بن حمزة عن سالم. وقد روى هذا الحديث نافع وعبيد الله بن مقسم عن

قولـه تعالى: ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى ﴾ بين ما يكون بعد قبض الأرض وطي السماء وهو النفخ في الصور، وإنما هما نفختان؛ يموت الخلق في الأولى منهما ويحيون في الثانية وقد مضى الكلام في هذا في "النمل" و"الأنعام" أيضا. والذي ينفخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام. وقد قيل: إنه يكون معه جبريل لحديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (إن صاحبي الصور بأيديهما ـ أو في أيديهما ـ قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران) خرجه ابن ماجه في السنن[1]. وفي كتاب أبي داود عن أبي سعيد الخدري قال: ذكر رسول الله صاحب الصور، وقال: (عن يمينه جبرائيل وعن يساره ميكائيل)[2]. واختلف في المستثنى من هم؟ فقيل: هم الشهداء متقلدين أسيافهم حول العرش. روي مرفوعا من حديث أبي هريرة فيما ذكر القشيري[3]، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبي. وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام. وروي من حديث أنس أن النبي ﷺ تلا: "ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله" فقالوا: يا نبي الله من هم الذين استثنى الله تعالى؟ قال: (هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت فيقول الله تعالى لملك الموت يا ملك الموت من بقي من خلقي وهو أعلم فيقول يا رب بقي جبريل وميكائيل وإسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت فيقول الله تعالى خذ نفس إسرافيل وميكائيل فيخران ميتين كالطودين العظيمين فيقول مت يا ملك الموت فيموت فيقول الله تعالى لجبريل يا جبريل من بقي فيقول تباركت وتعاليت ذا الجلال والإكرام وجهك الباقي الدائم وجبريل الميت الفاني فيقول الله تعالى يا جبريل لا بد من موتك فيقع ساجدا يخفق بجناحيه يقول سبحانك ربي تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام) قال النبي ﷺ: (إن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطود العظيم على الظرب من الظراب)[4] ذكره الثعلبي. وذكره النحاس أيضا من حديث محمد بن إسحاق، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ في قولـه جل وعز: "فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله" قال: (جبريل وميكائيل وحملة العرش وملك الموت وإسرافيل) وفي هذا الحديث: (إن آخرهم موتا جبريل عليه وعليهم السلام)[5] وحديث أبي هريرة في الشهداء أصح على ما تقدم في "النمل". وقال الضحاك: هو رضوان والحور ومالك والزبانية. وقيل: عقارب أهل النار وحياتها. وقال الحسن: هو الله الواحد القهار وما يدع أحدا من أهل السماء

ابن عمر، لم يذكرا فيه الشمال، ورواه أبو هريرة رضي الله عنه وغيره عن النبي ﷺ فلم يذكر فيه أحد منهم الشمال، وروي ذكر الشمال في حديث آخر في غير هذه القصة، إلا أنه ضعيف بمرة تفرد بأحدهما جعفر بن الزبير، وبالآخر يزيد الرقاشي، وهما متروكان، وكيف يصح ذلك؟ وصحيح عن النبي ﷺ أنه سمى كلتي يديه يمينا، وكأن من قال ذلك أرسله من لفظه على ما وقع له، أو على عادة العرب في ذكر الشمال في مقابلة اليمين". وعمر بن حمزة الذي تفرد بذكر رواية الشمال دون غيره ضعيف كما في التقريب (٢/ ٥٣).

(١) "منكر" وانظر ضعيف سنن ابن ماجه (٩٣١).

(٢) "ضعيف" أخرجه أحمد (٣/ ١٠)، وأبو داود (٣٩٩٩).

(٣) أخرجه أبو يعلى والدارقطني في الأفراد وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب، كما في "الدر المنثور" (٥/ ٦٣٠).

(٤) "ضعيف" أخرجه الفرياني وعبد بن حميد وأبو نصري السجزي في الإبانة وابن مردويه عن أنس مرفوعاً كما في "الدر المنثور" (٥/ ٦٣٠).

(٥) ضعيف. فيه محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد عنعنه، ويزيد هو ابن أبان الرقاشي وهو ضعيف أيضاً.

والأرض إلا أذاقه الموت. وقال قتادة: الله أعلم بثنياه. وقيل: الاستثناء في قولـه: "إلا من شاء الله" يرجع إلى من مات قبل النفخة الأولى؛ أي فيموت من في السماوات والأرض إلا من سبق موته لأنهم كانوا قد ماتوا.

وفي الصحيحين وابن ماجه واللفظ لـه عن أبي هريرة قال: قال رجل من اليهود بسوق المدينة، والذي اصطفى موسى على البشر فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه؛ قال: تقول هذا وفينا رسول الله ﷺ. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (قال الله عز وجل: "ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون" فأكون أول من رفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب) وخرجه الترمذي أيضا وقال فيه: حديث حسن صحيح. قال القشيري: ومن حمل الاستثناء على موسى والشهداء فهؤلاء قد ماتوا غير أنهم أحياء عند الله. فيجوز أن تكون الصعقة بزوال العقل دون زوال الحياة، ويجوز أن تكون بالموت، ولا يبعد أن يكون الموت والحياة فكل ذلك مما يجوزه العقل، والأمر في وقوعه موقوف على خبر صدق.

قلت: جاء في بعض طرق أبي هريرة أنه ﷺ قال: (لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله) خرجه مسلم. ونحوه عن أبي سعيد الخدري؛ والإفاقة إنما تكون عن غشية وزوال عقل لا عن موت برد الحياة. والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ أي فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بعثوا من قبورهم، وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم، فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون. وقيل: قيام على أرجلـهم ينظرون إلى البعث الذي وعدوا به. وقيل: هذا النظر بمعنى الانتظار؛ أي ينتظرون ما يفعل بهم. وأجاز الكسائي قياما بالنصب؛ كما تقول: خرجت فإذا زيد جالسا.

قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ إشراقها إضاءتها؛ يقال: أشرقت الشمس إذا أضاءت وشرقت إذا طلعت. ومعنى: "بنور ربها" بعدل ربها؛ قالـه الحسن وغيره. وقال الضحاك: بحكم ربها؛ والمعنى واحد؛ أي أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده. والظلم ظلمات والعدل نور. وقيل: إن الله يخلق نورا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به. وقال ابن عباس: النور المذكور ها هنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض. وروي أن الأرض يومئذ من فضة تشرق بنور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء. والمعنى أنها أشرقت بنور خلقه الله تعالى، فأضاف النور إليه على حد إضافة الملك إلى المالك. وقيل: إنه اليوم الذي يقضي فيه بين خلقه؛ لأنه نهار لا ليل معه. وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير: "وأشرقت الأرض" على ما لم

يسم فاعله وهي قراءة على التفسير. وقد ضل قوم ها هنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس، وهو متعال عن مشابهة المحسوسات، بل هو منور السماوات والأرض، فمنه كل نور خلقا وإنشاء. وقال أبو جعفر النحاس: وقوله عز وجل: "وأشرقت الأرض بنور ربها" يبين هذا الحديث المرفوع من طرق كثيرة صحاح (تنظرون إلى الله عز وجل لا تضامون في رؤيته)[١] وهو يروى على أربعة أوجه: لا تضامون ولا تضارون ولا تضامون ولا تضارون؛ فمعنى (لا تضامُون) لا يلحقكم ضيم كما يلحقكم في الدنيا في النظر إلى الملوك. و(لا تضارُون) لا يلحقكم ضير. و(لا تضامُّون) لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يريه. و(لا تضارُّون) لا يخالف بعضكم بعضا. يقال: ضاره مضارة وضرارا أي خالفه.

قوله تعالى: ﴿ ووضع الكتاب ﴾ قال ابن عباس: يريد اللوح المحفوظ. وقال قتادة: يريد الكتاب والصحف التي فيها أعمال بني آدم، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله. ﴿ وجيء بالنبيين ﴾ أي جيء بهم فسألهم عما أجابتهم به أممهم. ﴿ والشهداء ﴾ الذين شهدوا على الأمم من أمة محمد ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ (البقرة: ١٤٣). وقيل: المراد بالشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يوم القيامة لمن ذب عن دين الله؛ قاله السدي. قال ابن زيد: هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم. قال الله تعالى: ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ (ق: ٢١) فالسائق يسوقها إلى الحساب والشهيد يشهد عليها، وهو الملك الموكل بالإنسان على ما يأتي بيانه في "ق". ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ أي بالصدق والعدل. ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ قال سعيد بن جبير: لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم. ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ من خير أو شر. ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ في الدنيا ولا حاجة به عز وجل إلى كتاب ولا إلى شاهد، ومع ذلك فتشهد الكتب، والشهود إلزاما للحجة.

قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ﴾ هذا بيان توفية كل نفس عملها، فيساق الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة. والزمر: الجماعات واحدتها زمرة كظلمة وغرفة. وقال الأخفش وأبو عبيدة: "زمرا" جماعات متفرقة بعضها إثر بعض. قال الشاعر:

وترى الناس إلى منزله زمرا تنتابه بعد زمر

وقال آخر:

حتى احزألت زمر بعد زمر

---

(١) جزء من حديث الرؤية أخرجاه في الصحيحين.

وقيل: دفعا وزجرا بصوت كصوت المزمار. ﴿ حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها ﴾ جواب إذا، وهي سبعة أبواب. وقد مضى في "الحجر". ﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ واحدهم خازن نحو سدنة وسادن، يقولون لهم تقريعا وتوبيخا. ﴿ ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ أي الكتب المنزلة على الأنبياء. ﴿ وينذرونكم ﴾ أي يخوفونكم ﴿ لقاء يومكم هذا قالوا بلى ﴾ أي قد جاءتنا، وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ وهي قوله تعالى: ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (السجدة: ١٣). ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ أي يقال لهم ادخلوا جهنم. وقد مضى الكلام في أبوابها. قال وهب: تستقبلهم الزبانية بمقامع من نار فيدفعونهم بمقامعهم، فإنه ليقع في الدفعة الواحدة إلى النار بعدد ربيعة ومضر. ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ تقدم بيانه.

قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ﴾ يعني من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم، ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته. وقال في حق الفريقين: "وسيق" بلفظ واحد، فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين. ﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ قيل: الواو هنا للعطف عطف على جملة والجواب محذوف. قال المبرد: أي سعدوا وفتحت، وحذف الجواب بليغ في كلام العرب. وأنشد:

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا

فحذف جواب لو والتقدير لكان أروح. وقال الزجاج: "حتى إذا جاؤوها" دخلوها وهو قريب من الأول. وقيل: الواو زائدة. قاله الكوفيون وهو خطأ عند البصريين. وقد قيل: إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير حتى إذا جاؤوها وأبوابها مفتحة، بدليل قوله: ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴾ (ص: ٥٠) وحذف الواو في قصة أهل النار؛ لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالا وترويعا لهم. ذكره المهدوي وحكى معناه النحاس قبله. قال النحاس: فأما الحكمة في إثبات الواو في الثاني وحذفها من الأول، فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أعلم أنه سبقه إليه أحد، وهو أنه لما قال الله عز وجل في أهل النار: "حتى إذا

جاؤوها فتحت أبوابها" دل بهذا على أنها كانت مغلقة ولما قال في أهل الجنة: "حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها" دل بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيئوها؛ والله أعلم. وقيل: إنها واو الثمانية. وذلك من عادة قريش أنهم يعدون من الواحد فيقولون خمسة ستة سبعة وثمانية، فإذا بلغوا السبعة قالوا وثمانية. قاله أبو بكر بن عياش. قال الله تعالى: ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام ﴾ (الحاقة: ٧) وقال: ﴿ التائبون العابدون ﴾ (التوبة: ١١٢) ثم قال في الثامن: ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ (التوبة: ١١٢) وقال: ﴿ ويقولون سبعة وثامنهم ﴾ (الكهف: ٢٢) وقال ﴿ ثيبات وأبكارا ﴾ (التحريم: ٥) وقد مضى القول في هذا في "براءة" مستوفى وفي "الكهف" أيضا.

قلت: وقد استدل بهذا من قال إن أبواب الجنة ثمانية؛ وذكروا حديث عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ الوضوء - ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء) خرَّجه مسلم وغيره. وقد خرج الترمذي حديث عمر هذا وقال فيه: (فتح له من أبواب الجنة ثمانية أبواب يوم القيامة) بزيادة من، وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية. وقد ذكرنا ذلك في كتاب "التذكرة" وانتهى عددها إلى ثلاثة عشر بابا، وذكرنا هناك عظم أبوابها وسعتها حسب ما ورد في الحديث من ذلك، فمن أراده وقف عليه هناك.

قوله تعالى: ﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ قيل: الواو ملغاة تقديره حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها "قال لهم خزنتها": ﴿ سلام عليكم طبتم ﴾ أي في الدنيا. قال مجاهد: بطاعة الله. وقيل: بالعمل الصالح. حكاه النقاش والمعنى واحد. وقال مقاتل: إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان وأصحابه: "سلام عليكم" بمعنى التحية ﴿ طبتم فادخلوها خالدين ﴾.

قلت: خرج البخاري حديث القنطرة هذا في جامعه من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا) وحكى النقاش: إن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان يشرب المؤمنون من إحداهما فتطهر أجوافهم وذلك قوله تعالى: ﴿ وسقاهم ربهم شرابا طهورا ﴾ (الإنسان: ٢١) ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أبشارهم فعندها يقول لهم خزنتها: "سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين" وهذا يروى معناه عن علي رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ أي إذا دخلوا الجنة قالوا هذا. ﴿ وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ أي أرض الجنة قيل: إنهم ورثوا الأرض التي كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وأكثر المفسرين وقيل: إنها أرض الدنيا على التقديم والتأخير. ﴿ فنعم أجر العاملين ﴾ قيل: هو من قولهم أي نعم الثواب هذا. وقيل: هو من قول الله تعالى؛ أي نعم ثواب المحسنين هذا الذي أعطيتهم.

قولـه تعالى: ﴿ وترى الملائكة ﴾ يا محمد ﴿ حافين ﴾ أي محدقين ﴿ من حول العرش ﴾ في ذلك اليوم ﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ متلذذين بذلك لا متعبدين به؛ أي يصلون حول العرش شكرا لربهم. والحافون أخذ من حافات الشيء ونواحيه. قال الأخفش: واحدهم حاف. وقال الفراء: لا واحد لـه إذ لا يقع لـهم الاسم إلا مجتمعين. ودخلت "من" على "حول" لأنه ظرف والفعل يتعدى إلى الظرف بحرف وبغير حرف. وقال الأخفش: "من" زائدة أي حافين حول العرش. وهو كقولك: ما جاءني من أحد، فمن توكيد. الثعلبي: والعرب تدخل الباء أحيانا في التسبيح وتحذفها أحيانا، فيقولون: سبح بحمد ربك، وسبح حمدا لله؛ قال الله تعالى: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ (الأعلى: ١) وقال: ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ (الواقعة: ٧٤). ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ بين أهل الجنة والنار. وقيل: قضي بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء وبين أممهم بالحق والعدل. ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ أي يقول المؤمنون الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا. وقال قتادة في هذه الآية: افتتح الله أول الخلق بالحمد لله، فقال: ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ (الأنعام: ١) وختم بالحمد فقال: "وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين" فلزم الاقتداء به، والأخذ في ابتداء كل أمر بحمده وخاتمته بحمده. وقيل: إن قول "الحمد لله رب العالمين" من قول الملائكة فعلى هذا يكون حمدهم لله تعالى على عدلـه وقضائه. وروي من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر آخر سورة "الزمر" فتحرك المنبر مرتين.

تم تفسير سورة "الزمر".

سورة غافر

مقدمة السورة:

سورة غافر، وهي سورة المؤمن، وتسمى سورة الطول وهي مكية في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. وعن الحسن إلا قوله: ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ (غافر: ٥٥) لأن الصلوات نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة وهما ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله ﴾ (غافر: ٥٦) والتي بعدها. وهي خمس وثمانون آية. وقيل ثنتان وثمانون آية.

وفي مسند الدارمي قال: حدثنا جعفر بن عون عن مسعر عن سعد بن إبراهيم قال: كن الحواميم يسمين العرائس. وروي من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: (الحواميم ديباج القرآن)[١] وروي عن ابن مسعود مثله. وقال الجوهري وأبو عبيدة: وآل حم سور في القرآن. قال ابن مسعود: آل حم ديباج القرآن. قال الفراء: إنما هو كقولك آل فلان وآل فلان كأنه نسب السورة كلها إلى حم؛ قال الكميت:

وجدنا لكم في آل حاميم آية   تأولها منا تقي ومعزب

قال أبو عبيد: هكذا رواها الأموي بالزاي، وكان أبو عمرو يرويها بالراء. فأما قول العامة الحواميم فليس من كلام العرب. وقال أبو عبيدة: الحواميم سور في القرآن على غير قياس؛ وأنشد قائلا:

وبالحواميم التي قد سُبِّعَتْ

قال: والأولى أن تجمع بذوات حم. وروي أن النبي ﷺ قال: (لكل شيء ثمرة وإن ثمرة القرآن ذوات حم هن روضات حسان مخصبات متجاورات فمن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم)[٢]. وقال النبي ﷺ: (مثل الحواميم في القرآن كمثل الحبرات في الثياب)[٣] ذكرهما الثعلبي. وقال أبو عبيد: وحدثني حجاج بن محمد عن أبي معشر عن محمد بن قيس قال: رأى رجل سبع جوار حسان مزينات في النوم فقال لمن أنتن بارك الله فيكن فقلن نحن لمن قرأنا نحن الحواميم.

قوله تعالى: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ حم ﴾ اختلف في معناه؛ فقال عكرمة: قال النبي ﷺ: ("حم" اسم من أسماء الله تعالى وهي مفاتيح خزائن ربك)[٤] قال ابن عباس: "حم" اسم الله الأعظم. وعنه: "الر" و"حم"

(١) موضوع، انظر ضعيف الجامع (٢٨٠٠).
(٢) موضوع.
(٣) "موضوع" ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، (١/ ٢٤٠).
(٤) لا يصح.

و "ن" حروف الرحمن مقطعة. وعنه أيضا: اسم من أسماء الله تعالى أقسم به. وقال قتادة: إنه اسم من أسماء القرآن. مجاهد: فواتح السور. وقال عطاء الخراساني: الحاء افتتاح اسمه حميد وحنان وحليم وحكيم، والميم افتتاح اسمه ملك ومجيد ومنان ومتكبر ومصور؛ يدل عليه ما روى أنس أن أعرابيا سأل النبي ﷺ: ما "حم" فإنا لا نعرفها في لساننا؟ فقال النبي ﷺ: (بدء أسماء وفواتح سور)[١] وقال الضحاك والكسائي: معناه قضي ما هو كائن. كأنه أراد الإشارة إلى تهجي "حم"؛ لأنها تصير حم بضم الحاء وتشديد الميم؛ أي قضي ووقع. وقال كعب بن مالك:

فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى وليس لأمر حمه الله مدفع

وعنه أيضا: إن المعنى حم أمر الله أي قرب؛ كما قال الشاعر:

قد حم يومي فسر قوم قوم بهم غفلة ونوم

ومنه سميت الحمى؛ لأنها تقرب من المنية. والمعنى المراد قرب نصره لأوليائه، وانتقامه من أعدائه كيوم بدر. وقيل: حروف هجاء؛ قال الجرمي: ولهذا تقرأ ساكنة الحروف فخرجت مخرج التهجي وإذا سميت سورة بشيء من هذه الحروف أعربت؛ فتقول: قرأت "حم" فتنصب؛ ومنه:

يذكرني حاميم والرمح شاجر فهلا تلا حاميم قبل التقدم

وقرأ عيسى بن عمر الثقفي: "حم" بفتح الميم على معنى اقرأ حم أو لالتقاء الساكنين. ابن أبي إسحاق وأبو السمال بكسرها. والإمالة والكسر لالتقاء الساكنين، أو على وجه القسم. وقرأ أبو جعفر بقطع الحاء من الميم. الباقون بالوصل. وكذلك في "حم. عسق". وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان بالإمالة في الحاء. وروي عن أبي عمرو بين اللفظين وهي قراءة نافع وأبي جعفر وشيبة. الباقون بالفتح مشبعا.

قوله تعالى: ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ ابتداء والخبر ﴿ من الله العزيز العليم ﴾. ويجوز أن يكون "تنزيل" خبرا لمبتدأ محذوف؛ أي هذا "تنزيل الكتاب". ويجوز أن يكون "حم" مبتدأ و"تنزيل" خبره والمعنى: أن القرآن أنزله الله وليس منقولا ولا مما يجوز أن يكذب به.

قوله تعالى: ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ قال الفراء: جعلها كالنعت للمعرفة وهي نكرة. وقال الزجاج: هي خفض على البدل. النحاس: وتحقيق الكلام في هذا وتلخيصه أن "غافر الذنب وقابل التوب" يجوز أن يكونا معرفتين على أنهما لما مضى فيكونا نعتين، ويجوز أن يكونا للمستقبل والحال فيكونا نكرتين ولا يجوز أن يكونا نعتين على هذا ولكن يكون خفضهما على البدل، ويجوز النصب على الحال، فأما "شديد العقاب" فهو نكرة ويكون خفضه على البدل. قال ابن عباس: "غافر الذنب" لمن قال: "لا إله إلا الله" "وقابل التوب" ممن قال: "لا إله إلا الله" "شديد العقاب" لمن لم يقل: "لا إله إلا الله". وقال ثابت البناني: كنت إلى سرادق مصعب بن الزبير في مكان لا تمر فيه الدواب، قال: فاستفتحت "حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم" فمر علي رجل على دابة فلما قلت "غافر الذنب" قال: قل يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي، فلما قلت:

---

(١) لا يصح.

"قابل التوب" قال: قل يا قابل التوب تقبل توبتي، فلما قلت: "شديد العقاب" قال: قل يا شديد العقاب اعف عني، فلما قلت: "ذي الطول" قال: قل يا ذا الطول طل علي بخير؛ فقمت إليه فأخذ ببصري، فالتفت يمينا وشمالا فلم أر شيئا. وقال أهل الإشارة: "غافر الذنب" فضلا "وقابل التوب" وعدا "شديد العقاب" عدلا "لا إلـه إلا هو إليه المصير" فردا. وروي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام؛ فقيل لـه: تتابع في هذا الشراب؛ فقال عمر لكاتبه: اكتب من عمر إلى فلان، سلام عليك، وأنا أحمد الله إليك الذي لا إلـه إلا هو "بسم الله الرحمن الرحيم. حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إلـه إلا هو إليه المصير" ثم ختم الكتاب وقال لرسولـه: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا، ثم أمر من عنده بالدعاء لـه بالتوبة، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذرني عقابه، فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزع وحسنت توبته. فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم قد زل زلة فسددوه وادعوا الله لـه أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليه. و"التوب" يجوز أن يكون مصدر تاب يتوب توبا، ويحتمل أن يكون جمع توبة نحو دومة ودوم وعزمة وعزم؛ ومنه قولـه:

فيخبو ساعة ويهب ساعا

ويجوز أن يكون التوب بمعنى التوبة. قال أبو العباس: والذي يسبق إلى قلبي أن يكون مصدرا؛ أي يقبل هذا الفعل، كما تقول قالا قولا، وإذا كان جمعا فمعناه يقبل التوبات. ﴿ ذي الطول ﴾ على البدل وعلى النعت؛ لأنه معرفة. وأصل الطول الإنعام والفضل يقال منه: اللهم طل علينا أي أنعم وتفضل. قال ابن عباس: "ذي الطول" ذي النعم. وقال مجاهد: ذي الغنى والسعة؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا ﴾ (النساء: ٢٥) أي غنى وسعة. وعن ابن عباس أيضا: "ذي الطول" ذي الغنى عمن لا يقول لا إلـه إلا الله. وقال عكرمة: "ذي الطول" ذي المن. قال الجوهري: والطول بالفتح المن؛ يقال منه طال عليه وتطول عليه إذا امتن عليه. وقال محمد بن كعب: "ذي الطول" ذي التفضل؛ قال الماوردي: والفرق بين المن والتفضل أن المن عفو عن ذنب. والتفضل إحسان غير مستحق. والطول مأخوذ من الطول كأنه طال بإنعامه على غيره. وقيل: لأنه طالت مدة إنعامه. ﴿ لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ أي المرجع.

قولـه تعالى: ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ سجل سبحانه على المجادلين في آيات الله بالكفر، والمراد الجدال بالباطل، من الطعن فيها، والقصد إلى إدحاض الحق، وإطفاء نور الله تعالى. وقد دل على ذلك في قولـه تعالى: ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ (غافر: ٥). فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها، وحل مشكلـها، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها، ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله. وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" عند قولـه تعالى: ﴿ ألم تر إلى الـذي حـاج إبراهيـم في ربـه ﴾ (البقـرة: ٢٥٨) مستوفـى. "فلا يغـررك" وقـرئ: "فـلا يغـرك" ﴿ تقلبهم ﴾ أي تصرفهم ﴿ في البلاد ﴾ فإني وإن أمهلتهم لا أهملـهم بل أعاقبهم. قال ابن عباس: يريد تجارتهم من مكة إلى الشام وإلى اليمن. وقيل: "لا يغررك" ما هم فيه من الخير والسعة في الرزق

فإنه متاع قليل في الدنيا. وقال الزجاج: "لا يغررك" سلامتهم بعد كفرهم فإن عاقبتهم الهلاك. وقال أبو العالية: آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن: قوله: ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾، وقوله: ﴿ وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾ (البقرة: ١٧٦).

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ على تأنيث الجماعة أي كذبت الرسل. ﴿ والأحزاب من بعدهم ﴾ أي والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب نحو عاد وثمود فمن بعدهم. ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ أي ليحبسوه ويعذبوه. وقال قتادة والسدي: ليقتلوه. والأخذ يرد بمعنى الإهلاك؛ كقوله: ﴿ ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾ (الحج: ٤٤). والعرب تسمي الأسير الأخيذ؛ لأنه مأسور للقتل؛ وأنشد قطرب قول الشاعر:

فإما تأخذوني تقتلوني فكم من آخذ يهوى خلودي

وفي وقت أخذهم لرسولهم قولان: أحدهما عند دعائه لهم. الثاني عند نزول العذاب بهم. ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ أي ليزيلوا. ومنه مكان دحض أي مزلقة، والباطل داحض؛ لأنه يزلق ويزل فلا يستقر. قال يحيى بن سلام: جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان. ﴿ فأخذتهم ﴾ أي بالعذاب. ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ أي عاقبة الأمم المكذبة. أي أليس وجدوه حقا.

قوله تعالى: ﴿ وكذلك حقت ﴾ أي وجبت ولزمت؛ مأخوذ من الحق لأنه اللازم. ﴿ كلمة ربك ﴾ هذه قراءة العامة على التوحيد. وقرأ نافع وابن عامر: "كلمات" جمعا. ﴿ على الذين كفروا أنهم ﴾ قال الأخفش: أي لأنهم وبأنهم. قال الزجاج: ويجوز إنهم بكسر الهمزة. ﴿ أصحاب النار ﴾ أي المعذبون بها وتم الكلام.

ثم ابتدأ فقال: ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ ويروى: أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، وهم أشراف الملائكة وأفضلهم. ففي الحديث: (أن الله تبارك وتعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة).

ويقال: خلق الله العرش من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام. وقيل: حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم، ورافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صف، وقد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر. وقرأ ابن عباس: "العرش" بضم العين؛ ذكر جميعه الزمخشري رحمه الله.

وقيل: اتصل هذا بذكر الكفار؛ لأن المعنى - والله أعلم - "الذين يحملون العرش ومن حوله" ينزهون الله عز وجل عما يقوله الكفار "ويستغفرون للذين آمنوا" أى يسألون لهم المغفرة من الله تعالى.

وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مجسم خلقه الله عز وجل، وأمر ملائكة بحمله، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق في الأرض بيتا وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة. وروى ابن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: (أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسير سبعمائة عام)[1] ذكره البيهقي وقد مضى في "البقرة" في آية الكرسي عظم العرش وأنه أعظم المخلوقات. وروى ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن كعب الأحبار أنه قال: لما خلق الله تعالى العرش قال: لن يخلق الله خلقا أعظم مني؛ فاهتز فطوقه الله بحية، للحية سبعون ألف جناح، في الجناح سبعون ألف ريشة، في كل ريشة سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف فم، في كل فم سبعون ألف لسان يخرج من أفواهها في كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر، وعدد ورق الشجر، وعدد الحصى والثرى، وعدد أيام الدنيا وعدد الملائكة أجمعين، فالتوت الحية بالعرش، فالعرش إلى نصف الحية وهي ملتوية به. وقال مجاهد: بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، حجاب نور وحجاب ظلمة، وحجاب نور وحجاب ظلمة. ﴿ ربنا ﴾ أي يقولون ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ﴾ أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، فلما نقل الفعل عن الرحمة والعلم نصب على التفسير. ﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾ أي من الشرك والمعاصي ﴿ واتبعوا سبيلك ﴾ أي دين الإسلام. ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أي اصرفه عنهم حتى لا يصل إليهم. قال إبراهيم النخعي: كان أصحاب عبد الله يقولون الملائكة خير من ابن الكواء؛ هم يستغفرون لمن في الأرض وابن الكواء يشهد عليهم بالكفر، قال إبراهيم: وكانوا يقولون لا يحجبون الاستغفار عن أحد من أهل القبلة.

وقال مطرف بن عبد الله: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان، وتلا هذه الآية. وقال يحيى بن معاذ الرازي لأصحابه في هذه الآية: افهموها فما في العالم جنة أرجى منها؛ إن ملكا واحدا لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم، كيف وجميع الملائكة وحملة العرش يستغفرون للمؤمنين. وقال خلف بن هشام البزار القارئ: كنت أقرأ على سليم ابن عيسى فلما بلغت: "ويستغفرون للذين آمنوا" بكى ثم قال: يا خلف! ما أكرم المؤمن على الله نائما على فراشه والملائكة يستغفرون له.

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٨٥٣)، وراجع الصحيحة (١٥٠).

قولـه تعالى: ﴿ ربنا وأدخلـهم جنات عدن ﴾ يروى أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار: ما جنات عدن. قال: قصور من ذهب في الجنة يدخلـها النبيون والصديقـون والشهـداء وأئمة العدل.

﴿ التي وعدتهم ﴾ "التي" في محل نصب نعتا للجنات. ﴿ ومن صلح ﴾ "من" في محل نصب عطفا على الـهاء والميم في قولـه: "وأدخلـهم". "ومن صلـح" بالإيمان ﴿ من آبائهـم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ وقد مضى في "الرعد" نظير هذه الآية. قال سعيد بن جبير: يدخل الرجل الجنة، فيقول: يا رب أين أبي وجدي وأمي؟ وأين ولدي وولد ولدي؟ وأين زوجاتي؟ فيقال إنهم لم يعملوا كعملك؛ فيقول: يا رب كنت أعمل لي ولـهم؛ فيقال أدخلوهم الجنة. ثم تلا: "الذين يحملون العرش ومن حولـه" إلى قولـه: "ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم". ويقرب من هذه الآية قولـه: ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ (الطور: ٢١).

قولـه تعالى: ﴿ وقهم السيئات ﴾ قال قتادة: أي وقهم ما يسوءهم، وقيل: التقدير وقهم عذاب السيئات وهو أمر من وقاه الله يقيه وقاية بالكسر؛ أي حفظه. ﴿ ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ﴾ أي بدخول الجنة ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ أي النجاة الكبيرة.

قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ قال الأخفش: "لمقت" هذه لام الابتداء وقعت بعد "ينادون" لأن معناه يقال لـهم والنداء قول. وقال غيره: المعنى يقال لـهم: "لمقت الله" إياكم في الدنيا ﴿ إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ﴾ "أكبر" من مقت بعضكم بعضا يوم القيامة؛ لأن بعضهم عادى بعضا ومقته يوم القيامة، فأذعنوا عند ذلك، وخضعوا وطلبوا الخروج من النار. وقال الكلبي: يقول كل إنسان من أهل النار لنفسه مقتك يا نفس؛ فتقول الملائكة لـهم وهم في النار: لمقت الله إياكم إذ أنتم في الدنيا وقد بعث إليكم الرسـل فلم تؤمنوا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم. وقال الحسن: يعطون كتابهم فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم فينادون "لمقت الله" إياكم في الدنيا "إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون" "أكبر من مقتكم أنفسكم" اليوم. وقال معناه مجاهد. وقال قتادة: المعنى "لمقت الله" لكم "إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون" "أكبر من مقتكم أنفسكم" إذ عاينتم النار. فإن قيل: كيف يصح أن يمقتوا أنفسهم؟ ففيه وجهان: أحدهما أنهم أحلوها بالذنوب محل الممقوت. الثاني أنهم لما صاروا إلى حال زال عنهم الـهوى، وعلموا أن نفوسهم هي التي أبقتهم في المعاصي مقتوها. وقال محمد بن كعب القرظي: إن أهل النار لما يئسوا مما عند الخزنة وقال لـهم مالك: "إنكم ماكثون" على ما يأتي. قال بعضهم لبعض: يا هؤلاء إنه قد نزل بكم من العذاب والبلاء ما قد ترون، فهلم فلنصبر فلعل الصبر ينفعنا، كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم

الصبر إذ صبروا، فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا فطال صبرهم، ثم جزعوا فنادوا ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ (إبراهيم: ٢١) أي من ملجأ؛ فقال إبليس عند ذلك: ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان ﴾ (إبراهيم: ٢٢) إلى قوله: ﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ﴾ (إبراهيم: ٢٢) يقول: بمغن عنكم شيئا ﴿ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ (إبراهيم: ٢٢) فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم. قال: فنودوا "لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون" إلى قوله: "فهل إلى خروج من سبيل" قال فرد عليهم: "ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير" ذكره ابن المبارك.

قوله تعالى: ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى قولهم: "أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين" فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك: كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم، ثم أحياهم ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها في الدنيا، ثم أحياهم للبعث والقيامة، فهاتان حياتان وموتتان، وهو قوله تعالى: ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ (البقرة: ٢٨). وقال السدي: أميتوا في الدنيا ثم أحياهم في القبور للمسألة، ثم أميتوا ثم أحيوا في الآخرة. وإنما صار إلى هذا؛ لأن لفظ الميت لا ينطلق في العرف على النطفة. واستدل العلماء من هذا في إثبات سؤال القبر، ولو كان الثواب والعقاب للروح دون الجسد فما معنى الإحياء والإماتة؟ والروح عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح لا تموت ولا تتغير ولا تفسد، وهو حي لنفسه لا يتطرق إليه موت ولا غشية ولا فناء. وقال ابن زيد في قوله: "ربنا أمتنا اثنتين..." الآية قال: خلقهم في ظهر آدم وأخرجهم وأحياهم وأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم ثم أحياهم في الدنيا ثم أماتهم. وقد مضى هذا في "البقرة". ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ اعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف وندموا حيث لا ينفعهم الندم. ﴿ فهل إلى خروج من سبيل ﴾ أي هل نرد إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؛ نظيره: ﴿هل إلى مرد من سبيل﴾ (الشورى: ٤٤) وقوله: ﴿ فارجعنا نعمل صالحا ﴾ (السجدة: ١٢) وقوله: ﴿ يا ليتنا نرد ﴾ (الأنعام: ٢٧) الآية.

قوله تعالى: ﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم ﴾ "ذلكم" في موضع رفع أي الأمر "ذلكم" أو "ذلكم" العذاب الذي أنتم فيه بكفركم. وفي الكلام متروك تقديره فأجيبوا بأن لا سبيل إلى الرد. وذلك لأنكم "إذا دعي الله" أي وحد الله "وحده كفرتم" وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة، وإن أشرك به مشرك صدقتموه وآمنتم بقوله. قال الثعلبي: وسمعت بعض العلماء يقول: ﴿ وإن يشرك به ﴾ بعد الرد إلى الدنيا لو كان ﴿ تؤمنوا ﴾ تصدقوا المشرك؛ نظيره: "ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه". ﴿ فالحكم لله العلي الكبير ﴾ عن أن تكون له صاحبة أو ولد.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا

يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ (١٦) ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (١٧)﴾

قوله تعالى: ﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ أي دلائل توحيده وقدرته ﴿ وينزل لكم من السماء رزقا ﴾ جمع بين إظهار الآيات وإنزال الرزق؛ لأن بالآيات قوام الأديان، وبالرزق قوام الأبدان. وهذه الآيات هي السموات والأرضون وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبخار والأنهار والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هلكوا. ﴿ وما يتذكر ﴾ أي ما يتعظ بهذه الآيات فيوحد الله ﴿ إلا من ينيب ﴾ أي يرجع إلى طاعة الله. ﴿ فادعوا الله ﴾ أي اعبدوه ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي العبادة. وقيل: الطاعة. ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ عبادة الله فلا تعبدوا أنتم غيره.

قوله تعالى: ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ﴾ "ذو العرش" على إضمار مبتدأ. قال الأخفش: ويجوز نصبه على المدح. ومعنى "رفيع الدرجات" أي رفيع الصفات. وقال ابن عباس والكلبي وسعيد بن جبير: رفيع السموات السبع. وقال يحيى بن سلام: هو رفعة درجة أوليائه في الجنة فـ "رفيع" على هذا بمعنى رافع فعيل بمعنى فاعل. وهو على القول الأول من صفات الذات، ومعناه الذي لا أرفع قدرا منه، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء، وهي أصنافها وأبوابها لا مستحق لها غيره؛ قاله الحليمي. وقد ذكرناه في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) والحمد لله. "ذو العرش" أي خالقه ومالكه لا أنه محتاج إليه. وقيل: هو من قولهم: ثل عرش فلان أي زال ملكه وعزه، فهو سبحانه "ذو العرش" بمعنى ثبوت ملكه وسلطانه وقد بيناه في (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى). ﴿ يلقي الروح ﴾ أي الوحي والنبوة "على من يشاء من عباده" وسمي ذلك روحا لأن الناس يحيون به؛ أي يحيون من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح. وقال ابن زيد: الروح القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ (الشورى: ٥٢). وقيل: الروح جبريل؛ قال الله تعالى: ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾ (الشعراء: ١٩٣) وقال: ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ (النحل: ١٠٢). ﴿ من أمره ﴾ أي من قوله. وقيل: من قضائه. وقيل: "من" بمعنى الباء أي بأمره. ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ وهم الأنبياء يشاء هو أن يكونوا أنبياء وليس لأحد فيهم مشيئة. ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ أي إنما يبعث الرسول لإنذار يوم البعث. فقوله: "لينذر" يرجع إلى الرسول. وقيل: أي لينذر الله ببعثه الرسل إلى الخلائق "يوم التلاق". وقرأ ابن عباس والحسن وابن السميقع "لتنذر" بالتاء خطابا للنبي عليه السلام. "يوم التلاق" قال ابن عباس وقتادة: يوم تلتقي أهل السماء وأهل الأرض. وقال قتادة أيضا وأبو العالية ومقاتل: يلتقي فيه الخلق والخالق. وقيل: العابدون والمعبودون. وقيل: الظالم والمظلوم. وقيل: يلقى كل إنسان جزاء عمله. وقيل: يلتقي الأولون والآخرون على صعيد واحد؛ روي معناه عن ابن عباس. وكله صحيح المعنى.

قوله تعالى: ﴿ يوم هم بارزون ﴾ يكون بدلا من يوم الأول. وقيل: "هم" في موضع رفع بالابتداء و"بارزون" خبره والجملة في موضع خفض بالإضافة؛ فلذلك حذف التنوين من "يوم" وإنما يكون هذا عند سيبويه إذا كان الظرف بمعنى إذ؛ تقول لقيتك يوم زيد أمير. فإن كان بمعنى إذا لم

يجز نحو أنا ألقاك يوم زيد أمير. ومعنى: "بارزون" خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء؛ لأن الأرض يومئذ قاع صفصف لا عوج فيها ولا أمتا على ما تقدم في "طه" بيانه. ﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ قيل: إن هذا هو العامل في "يوم هم بارزون" أي لا يخفى عليه شيء منهم ومن أعمالهم "يوم هم بارزون". ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ وذلك عند فناء الخلق. وقال الحسن: هو السائل تعالى وهو المجيب؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه سبحانه فيقول: ﴿ لله الواحد القهار ﴾. النحاس: وأصح ما قيل فيه ما رواه أبو وائل عن ابن مسعود قال: (يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله جل وعز عليها، فيؤمر مناد ينادي "لمن الملك اليوم" فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم "لله الواحد القهار" فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا، ويقوله الكافرون غما وانقيادا وخضوعا. فأما أن يكون هذا والخلق غير موجودين فبعيد؛ لأنه لا فائدة فيه)، والقول صحيح عن ابن مسعود وليس هو مما يؤخذ بالقياس ولا بالتأويل.

قلت: والقول الأول ظاهر جدا؛ لأن المقصود إظهار انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعاوي المدعين وانتساب المنتسبين؛ إذ قد ذهب كل ملك وملكه ومتكبر وملكه وانقطعت نسبهم ودعاويهم، ودل على هذا قوله الحق عند قبض الأرض والأرواح وطي السماء: "أنا الملك أين ملوك الأرض" كما تقدم في حديث أبي هريرة وفي حديث ابن عمر، ثم يطوي الأرض بشماله والسموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون[1]. وعنه قوله سبحانه: "لمن الملك اليوم" هو انقطاع زمن الدنيا وبعده يكون البعث والنشر. قال محمد بن كعب قوله سبحانه: "لمن الملك اليوم" يكون بين النفختين حين فني الخلائق وبقي الخالق فلا يرى غير نفسه مالكا ولا مملوكا فيقول: "لمن الملك اليوم" فلا يجيبه أحد؛ لأن الخلق أموات فيجيب نفسه فيقول: "لله الواحد القهار" لأنه بقي وحده وقهر خلقه. وقيل: إنه ينادي مناد فيقول: "لمن الملك اليوم" فيجيبه أهل الجنة: "لله الواحد القهار" فالله أعلم. ذكره الزمخشري.

قوله تعالى: ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ أي يقال لهم إذا أقروا بالملك يومئذ لله وحده "اليوم تجزى كل نفس بما كسبت" من خير أو شر. ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ أي لا ينقص أحد شيئا مما عمله. ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أي لا يحتاج إلى تفكر وعقد يد كما يفعله الحساب؛ لأنه العالم الذي لا يعزب عن علمه شيء فلا يؤخر جزاء أحد للاشتغال بغيره؛ وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة. وقد مضى هذا المعنى في "البقرة". وفي الخبر: ولا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ

---

(١) أخرجه مسلم في "صفات المنافقين"، (٢٧٨٨).

يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

قولـه تعالى: "وأنذرهم يوم الآزفة" أي يوم القيامة. سميت بذلك لأنها قريبة؛ إذ كل ما هو آت قريب. وأزف فلان أي قرب يأزف أزفا؛ قال النابغة:

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تـزل برحـالنا وكأن قد

أي قرب. ونظير هذه الآية: ﴿ أزفت الآزفة ﴾ (النجم: ٥٧) أي قربت الساعة. وكان بعضهم يتمثل ويقول:

أزف الرحيل وليس لي من زاد غـير الذنوب لشقوتي ونكادي

﴿ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ على الحال وهو محمول على المعنى. قال الزجاج: المعنى إذ قلوب الناس "لدى الحناجر" في حال كظمهم. وأجاز الفراء أن يكون التقدير "وأنذرهم" كاظمين. وأجاز رفع "كاظمين" على أنه خبر للقلوب. وقال: المعنى إذ هم كاظمون. وقال الكسائي: يجوز رفع "كاظمين" على الابتداء. وقد قيل: إن المراد بـ "يوم الآزفة" يوم حضور المنية؛ قالـه قطرب. وكذا "إذ القلوب لدى الحناجر" عند حضور المنية. والأول أظهر. وقال قتادة: وقعت في الحناجر المخافة فهي لا تخرج ولا تعود في أمكنتها، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة كما قال: "وأفئدتهم هواء". وقيل: هذا إخبار عن نهاية الجزع؛ كما قال: "وبلغت القلوب الحناجر" وأضيف اليوم إلى "الآزفة" على تقدير يوم القيامة "الآزفة" أو يوم المجادلة "الآزفة". وعند الكوفيين هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه مثل مسجد الجامع وصلاة الأولى. ﴿ ما للظالمين من حميم ﴾ أي من قريب ينفع ﴿ ولا شفيع يطاع ﴾ فيشفع فيهم.

قولـه تعالى: ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ قال المؤرج: فيه تقديم وتأخير أي يعلم الأعين الخائنة وقال ابن عباس: هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها. وعنه: هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، فإذا رأى منهم غفلة تدسس بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، وقد علم الله عز وجل منه أنه يود لو نظر إلى عورتها. وقال مجاهد هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. وقال قتادة: هي الـهمزة بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى. وقال الضحاك: هي قول الإنسان ما رأيت وقد رأى أو رأيت وما رأى. وقال السدي: إنها الرمز بالعين. وقال سفيان: هي النظرة بعد النظرة. وقال الفراء: "خائنة الأعين" النظرة الثانية ﴿ وما تخفـي الصدور ﴾ النظرة الأولى. وقال ابن عباس: "وما تخفي الصدور" أي هل يزني بها لو خلا بها أو لا. وقيل: "وما تخفي الصدور" تكنه وتضمره. ولما جيء بعبد الله بن أبي سرح إلى رسول الله ﷺ، بعدما اطمأن أهل مكة وطلب لـه الأمان عثمان ﷺ، صمت رسول الله ﷺ طويلا ثم قال: "نعم" فلما

انصرف قال رسول الله ﷺ لمن حوله: (ما صمتٌ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه) فقال رجل من الأنصار فهلا أومأت إلي يا رسول الله، فقال: (إن النبي لا تكون له خائنة أعين) [١].

قوله تعالى: ﴿والله يقضي بالحق﴾ أي يجازي من غض بصره عن المحارم، ومن نظر إليها، ومن عزم على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها. ﴿والذين يدعون من دونه﴾ يعني الأوثان ﴿لا يقضون بشيء﴾ لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر عليه ولا تملك. وقراءة العامة بالياء على الخبر عن الظالمين وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وهشام: "تدعون" بالتاء. ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ "هو" زائدة فاصلة. ويجوز أن تكون في موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبر والجملة خبر إن.

قوله تعالى: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ في موضع جزم عطف على "يسيروا" ويجوز أن يكون في موضع نصب على أنه جواب، والجزم والنصب في التثنية والجمع واحد. ﴿كيف كان عاقبة﴾ اسم كان والخبر في "كيف". و﴿واق﴾ في موضع خفض معطوف على اللفظ. ويجوز أن يكون في موضع رفع على الموضع فرفعه وخفضه واحد؛ لأن الياء تحذف وتبقى الكسرة دالة عليها. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في غير موضع فأغنى عن الإعادة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ وهي التسع الآيات المذكورة في قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ (الإسراء: ١٠١) وقد مضى تعيينها. ﴿وسلطان مبين﴾ أي بحجة واضحة بينة، وهو يذكر ويؤنث. وقيل: أراد بالسلطان التوراة. ﴿إلى فرعون وهامان وقارون﴾ خصهم بالذكر لأن مدار التدبير في عداوة موسى كان عليهم؛ ففرعون الملك وهامان الوزير وقارون صاحب الأموال والكنوز فجمعه الله معهما؛ لأن عمله في الكفر والتكذيب كأعمالهما. ﴿فقالوا ساحر كذاب﴾ لما عجزوا عن معارضته حملوا المعجزات على السحر.

قوله تعالى: ﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا﴾ وهي المعجزة الظاهرة ﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه﴾ قال قتادة: هذا قتل غير القتل الأول؛ لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بني إسرائيل عقوبة لهم فيمتنع الإنسان من الإيمان؛ ولئلا يكثر جمعهم فيعتضدوا بالذكور من أولادهم، فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من

---

(١) صحيح، أخرجه النسائي (٣/ ١٠٦)، وأبو داود (٢٦٨٣).

أنواع العذاب، كالضفادع والقمل والدم والطوفان إلى أن خرجوا من مصر، فأغرقهم الله. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي في خسران وهلاك، وإن الناس لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا فكيده يذهب باطلا.

قوله تعالى: ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه ﴾ "أقتل" جزم؛ لأنه جواب الأمر "وليدع" جزم؛ لأنه أمر و"ذروني" ليس بمجزوم وإن كان أمرا ولكن لفظه لفظ المجزوم وهو مبني. وقيل: هذا يدل على أنه قيل لفرعون: إنا نخاف أن يدعو عليك فيجاب؛ فقال: "وليدع ربه" أي لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى. ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم ﴾ أي عبادتكم لي إلى عبادة ربه ﴿ أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ إن لم يبدل دينكم فإنه يظهر في الأرض الفساد. أي يقع بين الناس بسببه الخلاف. وقراءة المدنيين وأبي عبد الرحمن السلمي وابن عامر وأبي عمرو: "وأن يظهر في الأرض الفساد" وقراءة الكوفيين "أو أن يظهر" بفتح الياء "الفساد" بالرفع وكذلك هي في مصاحف الكوفيين: "أو" بألف وإليه يذهب أبو عبيد؛ قال: لأن فيه زيادة حرف وفيه فصل؛ ولأن "أو" تكون بمعنى الواو. النحاس: وهذا عند حذاق النحويين لا يجوز أن تكون بمعنى الواو؛ لأن في ذلك بطلان المعاني؛ ولو جاز أن تكون بمعنى الواو لما احتيج إلى هذا ها هنا؛ لأن معنى الواو "إني أخاف" الأمرين جميعا ومعنى "أو" لأحد الأمرين أي "إني أخاف أن يبدل دينكم" فإن أعوزه ذلك أظهر في الأرض الفساد.

قوله تعالى: ﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم ﴾ لما هدده فرعون بالقتل استعاذ موسى بالله ﴿ من كل متكبر ﴾ أي متعظم عن الإيمان بالله، وصفته أنه ﴿ لا يؤمن بيوم الحساب ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وقال رجل مؤمن ﴾ ذكر بعض المفسرين: أن اسم هذا الرجل حبيب. وقيل: شمعان بالشين المعجمة. قال السهيلي: وهو أصح ما قيل فيه. وفي تاريخ الطبري رحمه الله: اسمه خبرك. وقيل: حزقيل. ذكره الثعلبي عن ابن عباس وأكثر العلماء. الزمخشري: واسمه سمعان أو حبيب. وقيل: خربيل أو حزبيل. واختلف هل كان إسرائيليا أو قبطيا فقال الحسن وغيره: كان قبطيا. ويقال: إنه كان ابن عم فرعون؛ قاله السدي. قال: وهو الذي نجا مع موسى عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿ من آل فرعون ﴾ وهذا الرجل هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى ﴾ (القصص: ٢٠) الآية. وهذا قول مقاتل. وقال ابن عباس: لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذي أنذر موسى فقال: ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ (القصص: ٢٠).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (الصديقون حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذي قال أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله والثالث أبو بكر الصديق وهو أفضلهم)[١] وفي هذا تسلية للنبي ﷺ أي لا تعجب من مشركي قومك. وكان هذا الرجل له وجاهة عند فرعون؛ فلهذا لم يتعرض له بسوء. وقيل: كان هذا الرجل من بني إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون؛ عن السدي أيضا. ففي الكلام على هذا تقديم وتأخير، والتقدير: وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون. فمن جعل الرجل قبطيا فـ "من" عنده متعلقة بمحذوف صفة الرجل؛ التقدير: وقال رجل مؤمن منسوب من آل فرعون؛ أي من أهله وأقاربه. ومن جعله إسرائيليا فـ "من" متعلقة بـ "يكتم" في موضع المفعول الثاني لـ "يكتم". القشيري: ومن جعله إسرائيليا ففيه بعد؛ لأنه يقال كتمه أمر كذا ولا يقال كتم منه. قال الله تعالى: ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ (النساء: ٤٢) وأيضا ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ﴾ أي لأن يقول ومن أجل "أن يقول ربي الله" فـ "أن" في موضع نصب بنزع الخافض. ﴿ وقد جاءكم بالبينات ﴾ يعني الآيات التسع ﴿ من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه ﴾ ولم يكن ذلك لشك منه في رسالته وصدقه، ولكن تلطفا في الاستكفاف واستنزالا عن الأذى. ولو كان و"إن يكن" بالنون جاز ولكن حذفت النون لكثرة الاستعمال على قول سيبويه؛ ولأنها نون الإعراب على قول أبي العباس. ﴿ وإن يكن صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ أي إن لم يصبكم إلا بعض الذي يعدكم به هلكتم. ومذهب أبي عبيدة أن معنى "بعض الذي يعدكم" كل الذي يعدكم، وأنشد قول لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها   أو يرتبط بعض النفوس حمامها

فبعض بمعنى كل؛ لأن البعض إذا أصابهم أصابهم الكل لا محالة لدخوله في الوعيد، وهذا ترقيق الكلام في الوعظ. وذكر الماوردي: أن البعض قد يستعمل في موضع الكل تلطفا في الخطاب وتوسعا في الكلام؛ كما قال الشاعر (عمر القطامي):

قد يدرك المتأني بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقيل أيضا: قال ذلك لأنه حذرهم أنواعا من العذاب كل نوع منها مهلك؛ فكأنه حذرهم أن يصيبهم بعض تلك الأنواع. وقيل: وعدهم موسى بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة إن كفروا؛ فالمعنى يصبكم أحد العذابين. وقيل: أي يصبكم هذا العذاب الذي يقوله في الدنيا وهو بعض الوعيد، ثم يترادف العذاب في الآخرة أيضا. وقيل: وعدهم العذاب إن كفروا والثواب إن آمنوا، فإذا كفروا يصيبهم بعض ما وعدوا. ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف ﴾ على نفسه ﴿ كذاب ﴾ على ربه إشارة إلى موسى ويكون هذا من قول المؤمن. وقيل: "مسرف" في عناده "كذاب" في ادعائه إشارة إلى فرعون ويكون هذا من قول الله تعالى.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ يكتم إيمانه ﴾ قال القاضي أبو بكر بن العربي: ظن بعضهم أن المكلف إذا كتم إيمانه ولم يتلفظ به بلسانه لا يكون مؤمنا باعتقاده، وقد قال مالك: إن الرجل إذا نوى بقلبه طلاق زوجته أنه يلزمه، كما يكون مؤمنا بقلبه وكافرا بقلبه. فجعل مدار الإيمان على القلب وأنه كذلك،

---

(١) "موضوع" انظر ضعيف الجامع (٣٥٤٩).

لكن ليس على الإطلاق وقد بيناه في أصول الفقه؛ بما لبابه أن المكلف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافرا وإن لم يتلفظ بلسانه، وأما إذا نوى الإيمان بقلبه فلا يكون مؤمنا بحال حتى يتلفظ بلسانه، ولا تمنعه التقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى، إنما تمنعه التقية من أن يسمعه غيره، وليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير في صحته من التكليف، وإنما يشترط سماع الغير لـه ليكف عن نفسه ومالـه.

الرابعة : روى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ؛ قال: بينا رسول الله ﷺ بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة ابن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه فخنقه به خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ، وقال: "أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم" لفظ البخاري. خرجه الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال: اجتمعت قريش بعد وفاة أبي طالب بثلاث فأرادوا قتل رسول الله ﷺ، فأقبل هذا يجؤه وهذا يتلتلـه، فاستغاث النبي ﷺ يومئذ فلم يغثه أحد إلا أبو بكر ولـه ضفيرتان، فأقبل يجأ ذا ويتلتل ذا ويقول بأعلى صوته: ويلكم: "أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله" والله إنه لرسول الله؛ فقطعت إحدى ضفيرتي أبي بكر يومئذ. فقال علي: والله ليوم أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون؛ إن ذلك رجل كتم إيمانه، فأثنى الله عليه في كتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمه لله عز وجل.

قلت: قول علي رضي الله عنه إن ذلك رجل كتم إيمانه يريد في أول أمره بخلاف الصديق فإنه أظهر إيمانه ولم يكتمه؛ وإلا فالقرآن مصرح بأن مؤمن آل فرعون أظهر إيمانه لما أرادوا قتل موسى عليه السلام على ما يأتي بيانه. في (نوادر الأصول) أيضا عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالوا لـها: ما أشد شيء رأيت المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قعودا في المسجد، ويتذاكرون رسول الله ﷺ ما يقول في آلـهتهم، فبينا هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ، فقاموا إليه بأجمعهم وكانوا إذا سألوه عن شيء صدقهم، فقالوا: ألست تقول كذا في آلـهتنا قال: (بلى) فتشبثوا فيه بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال لـه: أدرك صاحبك. فخرج من عندنا وإن لـه غدائر، فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم "أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم" فلـهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمس شيئا من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام؛ إكرام إكرام.

قوله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿يا قوم لكم الملك اليوم ﴾ هذا من قول مؤمن آل فرعون، وفي قولـه "يا قوم" دليل على أنه قبطي، ولذلك أضافهم إلى نفسه فقال: "يا قوم" ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه "لكم الملك" فاشكروا الله على ذلك. ﴿ ظاهرين في الأرض ﴾ أي غالبين وهو نصب على الحال أي في حال ظهوركم. والمراد بالأرض أرض مصر في قول السدي وغيره، كقولـه: ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾(يوسف: ٢١) أي في أرض مصر. ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ أي من عذاب الله تحذيرا لـهم من نقمه إن كان موسى صادقا، فذكر وحذر ﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ﴾ فعلم فرعون ظهور حجته فقال: "ما أريكم إلا ما أرى". قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما أشير عليكم إلا ما أرى لنفسي. ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ في تكذيب موسى والإيمان بي.

قولـه تعالى: ﴿ وقال الذي آمن يا قوم ﴾ زادهـم في الوعظ ﴿ إني أخـاف عليكم مثـل يوم الأحزاب ﴾ يعني أيام العذاب التي عذب فيها المتحزبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد.

قولـه تعالى: ﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ زاد في الوعظ والتخويف وأفصح عن إيمانه، إما مستسلما موطنا نفسه على القتل، أو واثقا بأنهم لا يقصدونه بسوء، وقد وقاه الله شرهم بقولـه الحق "فوقاه الله سيئات ما مكروا". وقراءة العامة "التناد" بتخفيف الدال وهو يوم القيامة؛ قال أمية بن أبي الصلت:

وبث الخلق فيها إذ دحاها فهـم سكانها حتى التناد

سمي بذلك لمناداة الناس بعضهم بعضا؛ فينادي أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار: "أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا" وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة: "أن أفيضوا علينا من الماء" وينادي المنادي أيضا بالشقوة والسعادة: ألا إن فلان بن فلان قد شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدا، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا. وهـذا عند وزن الأعمال. وتنادي الملائكة أصحاب الجنة: ﴿ أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾(الأعراف: ٤٣) وينادى حين يذبح الموت: يا أهل الجنة خلود لا موت ويا أهل النار خلود لا موت[١]. وينادى كل قوم بإمامهم إلى غير ذلك من النداء. وقرأ الحسن وابن السميقع ويعقوب وابن كثير ومجاهد: "التناد" بإثبات الياء في الوصل والوقف على الأصل. وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة "يوم التناد" بتشديد الدال. قال بعض أهل العربية: هذا لحن؛ لأنه من ند يند إذا مر على وجهه هاربا؛ كما قال الشاعر:

وبرك هجود قد أثارت مخافتي نواديهـا أسـعى بعضب مجرد

قال: فلا معنى لـهذا في القيامة. قال أبو جعفر النحاس: وهذا غلط والقراءة بها حسنة على معنى يوم التنافر. قال الضحاك: ذلك إذا سمعوا زفير جهنم ندوا هربا، فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفا من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه؛ فذلك قولـه: "يوم التناد".

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٤٤).

وقولـه: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض﴾ (الرحمن: ٣٣) الآية. وقولـه: ﴿والملك على أرجائها﴾ (الحاقة: ١٧) ذكره ابن المبارك بمعناه. قال: وأخبرنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: حدثنا عبد الجبار بن عبيد الله بن سلمان في قولـه تعالى: "إني أخاف عليكم يوم التناد. يوم تولون مدبرين" ثم تستجيب لـهم أعينهم بالدمع فيكون حتى ينفد الدمع، ثم تستجيب لـهم أعينهم بالدم فيكون حتى ينفد الدم، ثم تستجيب لـهم أعينهم بالقيح. قال: يرسل عليهم من الله أمر فيولون مدبرين، ثم تستجيب لـهم أعينهم بالقيح، فيكون حتى ينفد القيح فتغور أعينهم كالخرق في الطين. وقيل: إن هذا يكون عند نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور نفخة الفزع. ذكره علي بن معبد والطبري وغيرهما من حديث أبي هريرة، وفيه فتكون الأرض كالسفينة في البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهرها وتذهل المراضع وتضع الحوامل ما في بطونها وتشيب الولدان وتطاير الشياطين هاربة فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضا وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يوم التناد. يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما لـه من هاد﴾[1] الحديث بكمالـه. وقد ذكرناه في كتاب التذكرة وتكلمنا عليه هناك. وروي عن علي بن نصر عن أبي عمرو إسكان الدال من "التناد" في الوصل خاصة. وروى أبو معمر عن عبد الوارث زيادة الياء في الوصل خاصة وهو مذهب ورش. والمشهور عن أبي عمرو حذفها في الحالين. وكذلك قرأ سائر السبعة سوى ورش على ما ذكرنا عنه وسوى ابن كثير على ما تقدم. وقيل: سمي يوم القيامة يوم التناد؛ لأن الكافر ينادي فيه بالويل والثبور والحسرة. قالـه ابن جريج. وقيل: فيه إضمار أي إني أخاف عليكم عذاب يوم التناد؛ فالله أعلم. ﴿يوم تولون مدبرين﴾ على البدل من "يوم التناد" ﴿ومن يضلل الله فما لـه من هاد﴾ أي من خلق الله في قلبه الضلال فلا هادي لـه. وفي قائلـه قولان: أحدهما موسى. الثاني مؤمن آل فرعون وهو الأظهر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾ قيل: إن هذا من قول موسى. وقيل: هو من تمام وعظ مؤمن آل فرعون؛ ذكرهم قديم عتوهم على الأنبياء؛ وأراد يوسف بن يعقوب جاءهم بالبينات ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ (يوسف: ٣٩) قال ابن جريج: هو يوسف ابن يعقوب بعثه الله تعالى رسولا إلى القبط بعد موت الملك من قبل موسى بالبينات وهي الرؤيا. وقال ابن عباس: هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبيا عشرين سنة. وحكى النقاش عن الضحاك: أن الله تعالى بعث إليهم رسولا من الجن يقال لـه يوسف. وقال وهب بن منبه: إن

(١) ضعيف.

فرعون موسى هو فرعون يوسف عُمِّر. وغيره يقول: هو آخر. النحاس: وليس في الآية ما يدل على أنه هو؛ لأنه إذا أتى بالبينات نبي لمن معه ولمن بعده فقد جاءهم جميعا بها وعليهم أن يصدقوه بها.
﴿ فما زلتم في شك مما جاءكم به ﴾ أي أسلافكم كانوا في شك. ﴿ حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ أي من يدعي الرسالة ﴿ كذلك يضل الله ﴾ أي مثل ذلك الضلال ﴿ يضل الله من هو مسرف ﴾ مشرك ﴿ مرتاب ﴾ شاك في وحدانية الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾ أي في حججه الظاهرة ﴿ بغير سلطان ﴾ أي بغير حجة وبرهان و"الذين" في موضع نصب على البدل من "من" وقال الزجاج: أي كذلك يضل الله الذين يجادلون في آيات الله فـ"الذين" نصب. قال: ويجوز أن يكون رفعا على معنى هم الذين أو على الابتداء والخبر ﴿ كبر مقتا ﴾. ثم قيل: هذا من كلام مؤمن آل فرعون. وقيل: ابتداء خطاب من الله تعالى. "مقتا" على البيان أي "كبر" جدالهم "مقتا"؛ كقوله: ﴿ كبرت كلمة ﴾ (الكهف: ٥) ومقت الله تعالى ذمه لهم ولعنه إياهم وإحلال العذاب بهم. ﴿ كذلك ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك ﴿ يطبع الله ﴾ أي يختم ﴿ على كل قلب متكبر جبار ﴾ حتى لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق. وقراءة العامة "على كل قلب متكبر" بإضافة قلب إلى المتكبر واختاره أبو حاتم وأبو عبيد. وفي الكلام حذف والمعنى: "كذلك يطبع الله على كل قلب" على كل "متكبر جبار" فحذف "كل" الثانية لتقدم ما يدل عليها. وإذا لم يقدر حذف "كل" لم يستقم المعنى؛ لأنه يصير معناه أنه يطبع على جميع قلبه وليس المعنى عليه. وإنما المعنى أنه يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلبا قلبا.
ومما يدل على حذف "كل" قول أبي دؤاد:

أكل امرئ تحسبين امرأ ونار توقد بالليل نارا

يريد وكل نار. وفي قراءة ابن مسعود "على قلب كل متكبر" فهذه قراءة على التفسير والإضافة. وقرأ أبو عمرو وابن محيصن وابن ذكوان عن أهل الشام "قلب" منون على أن "متكبر" نعت للقلب فكني بالقلب عن الجملة؛ لأن القلب هو الذي يتكبر وسائر الأعضاء تبع له؛ ولهذا قال النبي ﷺ: (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[1] ويجوز أن يكون على حذف المضاف؛ أي على كل ذي قلب متكبر؛ تجعل الصفة لصاحب القلب.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا ﴾ لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن في قلوب القوم، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فإن بان له صوابه لم يخفه عنهم، وإن لم يصح ثبتهم على دينهم؛ فأمر وزيره هامان ببناء الصرح. وقد مضى في "القصص" ذكره. ﴿ لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السماوات ﴾ "أسباب السموات" بدل

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد تقدم.

من الأول. وأسباب السماء أبوابها في قول قتادة والزهري والسدي والأخفش؛ وأنشد (زهير بن أبي سلمى):

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

وقال أبو صالح: أسباب السموات طرقها. وقيل: الأمور التي تستمسك بها السموات. وكرر أسباب تفخيما؛ لأن الشيء إذا أبهم ثم أوضح كان تفخيما لشأنه. والله أعلم. ﴿ فأطلع إلى إلـه موسى ﴾ فأنظر إليه نظر مشرف عليه. توهم أنه جسم تحويه الأماكن. وكان فرعون يدعي الألوهية ويرى تحقيقها بالجلوس في مكان مشرف. وقراءة العامة "فأطلع" بالرفع نسقا على قولـه: "أبلغ" وقرأ الأعرج والسلمي وعيسى وحفص "فأطلع" بالنصب؛ قال أبو عبيدة: على جواب "لعل" بالفاء. النحاس: ومعنى النصب خلاف معنى الرفع؛ لأن معنى النصب متى بلغت الأسباب اطلعت. ومعنى الرفع "لعلي أبلغ الأسباب" ثم لعلي أطلع بعد ذلك؛ إلا أن ثم أشد تراخيا من الفاء. ﴿ وإني لأظنه كاذبا ﴾ أي وإني لأظن موسى كاذبا في ادعائه إلـها دوني، وإنما أفعل ما أفعل لإزاحة العلة. وهذا يوجب شك فرعون في أمر الله. وقيل: إن الظن بمعنى اليقين أي وأنا أتيقن أنه كاذب وإنما أقول ما أقول لإزالة الشبهة عمن لا أتيقن ما أتيقنه.

قولـه تعالى: ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عملـه ﴾ أي كما قال هذه المقالة وارتاب زين لـه الشيطان أو زين الله سوء عملـه أي الشرك والتكذيب. ﴿ وصد عن السبيل ﴾ قراءة الكوفيين "وصد" على ما لم يسم فاعلـه وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ ويجوز على هذه القراءة "وصد" بكسر الصاد نقلت كسرة الدال على الصاد؛ وهي قراءة ليحيى بن وثاب وعلقمة. وقرأ ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن بن بكرة "وصد عن السبيل" بالرفع والتنوين. الباقون "وصد" بفتح الصاد والدال. أي صد فرعون الناس عن السبيل. ﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ أي في خسران وضلال، ومنه: ﴿ تبت يدا أبي لـهب ﴾ (المسد: ١) وقولـه: ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ (هود: ١٠١) وفي موضع ﴿ غير تخسير ﴾ (هود: ٦٣) فهد الله صرحه وغرقه هو وقومه على ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقال الذي آمن يا قوم اتبعون ﴾ هذا من تمام ما قالـه مؤمن آل فرعون؛ أي اقتدوا بي في الدين. ﴿ أهدكم سبيل الرشاد ﴾ أي طريق الـهدى وهو الجنة. وقيل: من قول موسى. وقرأ معاذ بن جبل "الرشّاد" بتشديد الشين وهو لحن عند أكثر أهل العربية؛ لأنه إنما يقال أرشد يرشد ولا يكون فعال من أفعل إنما يكون من الثلاثي، فإن أردت التكثير من الرباعي قلت: مفعال. قال النحاس: يجوز أن يكون رشاد بمعنى يرشد لا على أنه مشتق منه، ولكن كما يقال لأآل من اللؤلؤ فهو بمعناه وليس جاريا عليه. ويجوز أن يكون رشاد من رشد يرشد أي صاحب رشاد؛ كما قال (النابغة):

كليني لـهم يا أميمة ناصب

الزمخشري: وقرئ "الرشّاد" فعال من رشد بالكسر كعلام أو من رشد بالفتح كعباد. وقيل: من أرشد كجبار من أجبر وليس بذاك؛ لأن فعالا من أفعل لم يجئ إلا في عدة أحرف؛ نحو دراك وسأّر وقصار وجبار. ولا يصح القياس على هذا القليل. ويجوز أن يكون نسبته إلى الرشد كعواج وبتات غير منظور فيه إلى فعل. ووقع في المصحف "اتبعون" بغير ياء. وقرأها يعقوب وابن كثير بالإثبات في الوصل والوقف. وحذفها أبو عمرو ونافع في الوقف وأثبتوها في الوصل، إلا ورشا حذفها في الحالين، وكذلك الباقون؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء ومن أثبتها فعلى الأصل.

قولـه تعالى: ﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ أي يتمتع بها قليلا ثم تنقطع وتزول. ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ أي الاستقرار والخلود. ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأنهما لا يفنيان. بين ذلك بقولـه: ﴿ من عمل سيئة ﴾ يعني الشرك ﴿ فلا يجزى إلا مثلـها ﴾ وهو العذاب. ﴿ ومن عمل صالحا ﴾ قال ابـن عباس: يعني لا إلـه إلا الله. ﴿ وهو مؤمـن ﴾ مصدق بقلبـه لله وللأنبياء. ﴿ فأولئك يدخلون الجنة ﴾ بضم الياء على ما لم يسم فاعلـه. وهي قراءة ابن كثير وابن محيصن وأبي عمرو ويعقوب وأبي بكر عن عاصم؛ يدل عليه ﴿ يرزقون فيها بغير حساب الباقون ﴾ يدخلون بفتح الياء.

قولـه تعالى: ﴿ ويا قـوم مـا لي أدعوكـم إلى النجاة ﴾ أي إلى طريـق الإيمان الموصـل إلى الجنـان ﴿ وتدعونني إلى النار ﴾ بـين أن ما قال فرعون من قولـه: ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ (غافر: ٢٩) سبيل الغي عاقبته النار وكانوا دعوه إلى اتباعه؛ ولـهذا قال: ﴿ تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ﴾ وهو فرعون ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾. ﴿ لا جرم ﴾ تقدم الكلام فيه، ومعناه حقا. ﴿ أنما تدعونني إليه ﴾ "ما" بمعنى الذي ﴿ ليس لـه دعوة ﴾ قال الزجاج: ليس لـه استجابة دعوة تنفع؛ وقال غيره: ليس لـه دعوة توجب لـه الألوهية ﴿ في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ وقال الكلبي: ليس لـه شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة. وكان فرعون أولا يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ثم دعاهم إلى عبادة البقر، فكانت تعبد ما كانت شابة، فإذا هرمت أمر بذبحها، ثم دعا بأخرى لتعبد، ثم لما طال عليه الزمان قال أنا ربكم الأعلى. ﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ قال قتادة وابن سيرين: يعني المشركين. وقال مجاهد والشعبي: هم السفهاء والسفاكون للدماء بغير حقها. وقال عكرمة: الجبارون والمتكبرون. وقيل: هم الذين تعدوا حدود الله. وهذا جامع لما ذكر. و"أن" في المواضع في موضع نصب بإسقاط حرف الجر. وعلى ما حكاه سيبويه عن الخليل من أن "لا جرم" رد

لكلام يجوز أن يكون موضع "أن" رفعا على تقدير وجب أن ما تدعونني إليه، كأنه قال: وجب بطلان ما تدعونني إليه، والمرد إلى الله، وكون المسرفين هم أصحاب النار.

قوله تعالى: ﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾ تهديد ووعيد. و"ما" يجوز أن تكون بمعنى الذي أي الذي أقوله لكم. ويجوز أن تكون مصدرية أي فستذكرون قولي لكم إذا حل بكم العذاب. ﴿ وأفوض أمري إلى الله ﴾ أي أتوكل عليه وأسلم أمري إليه. وقيل: هذا يدل على أنهم أرادوا قتله. وقال مقاتل: هرب هذا المؤمن إلى الجبل فلم يقدروا عليه. وقد قيل: القائل موسى. والأظهر أنه مؤمن آل فرعون؛ وهو قول ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ (٤٥) ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ (٤٦) ﴾

قوله تعالى: ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ أي من إلحاق أنواع العذاب به فطلبوه فما وجدوه؛ لأنه فوض أمره إلى الله. قال قتادة: كان قبطيا فنجاه الله مع بني إسرائيل. فالهاء على هذا لمؤمن آل فرعون. وقيل: إنها لموسى على ما تقدم من الخلاف. ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ قال الكسائي: يقال حاق يحيق حيقا وحيوقا إذا نزل ولزم. ثم بين العذاب فقال: ﴿ النار يعرضون عليها ﴾ وفيه ستة أوجه: يكون رفعا على البدل من "سوء". ويجوز أن يكون بمعنى هو النار. ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء. وقال الفراء: يكون مرفوعا بالعائد على معنى النار عليها يعرضون، فهذه أربعة أوجه في الرفع، وأجاز الفراء النصب؛ لأن بعدها عائدا وقبلها ما يتصل به، وأجاز الأخفش الخفض على البدل من "العذاب". والجمهور على أن هذا العرض في البرزخ. واحتج بعض أهل العلم في تثبيت عذاب القبر بقوله: "النار يعرضون عليها غدوا وعشيا" ما دامت الدنيا. كذلك قال مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال: هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة: ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾. وفي الحديث عن ابن مسعود: أن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تعرض على النار بالغداة والعشي فيقال هذه داركم. وعنه أيضا: إن أرواحهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين فذلك عرضها. وروى شعبة عن يعلى بن عطاء قال: سمعت ميمون بن مهران يقول: كان أبو هريرة إذا أصبح ينادي: أصبحنا والحمد لله وعرض آل فرعون على النار. فإذا أمسى نادى: أمسينا والحمد لله وعرض آل فرعون على النار؛ فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوذ بالله من النار. وفي حديث صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الكافر إذا مات عرض على النار بالغداة والعشي ثم تلا "النار يعرضون عليها غدوا وعشيا" وإن المؤمن إذا مات عرض روحه على الجنة بالغداة والعشي) وخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار

فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة)[١]. قال الفراء: في الغداة والعشي بمقادير ذلك في الدنيا. وهو قول مجاهد. قال: "غدوا وعشيا" قال: من أيام الدنيا. وقال حماد بن محمد الفزاري: قال رجل للأوزاعي رأينا طيورا تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب، بيضا صغارا فوجا فوجا لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشاء رجعت مثلها سودا. قال: تلك الطيور في حواصلها أرواح آل فرعون، يعرضون على النار غدوا وعشيا، فترجع إلى أوكارها وقد احترقت رياشها وصارت سودا، فينبت عليها من الليل رياشها بيضا وتتناثر السود، ثم تغدو فتعرض على النار غدوا وعشيا، ثم ترجع إلى وكرها فذلك دأبها ما كانت في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ وهو الهاوية. قال الأوزاعي: فبلغنا أنهم ألفا ألف وستمائة ألف. و"غدوا" مصدر جعل ظرفا على السعة. "وعشيا" عطف عليه وتم الكلام. ثم تبتدئ "ويوم تقوم الساعة" على أن تنصب يوما بقوله: "أدخلوا" ويجوز أن يكون منصوبا بـ"يعرضون" على معنى "يعرضون" على النار في الدنيا "ويوم تقوم الساعة" فلا يوقف عليه. وقرأ نافع وأهل المدينة وحمزة والكسائي: "أدخلوا" بقطع الألف وكسر الخاء من أدخل وهي اختيار أبي عبيد؛ أي يأمر الملائكة أن يدخلوهم، ودليله "النار يعرضون عليها". الباقون "ادخلوا" بوصل الألف وضم الخاء من دخل أي يقال لهم: "أدخلوا" يا "آل فرعون أشد العذاب" وهو اختيار أبي حاتم. قال: في القراءة الأولى: "آل" مفعول أول و"أشد" مفعول ثان بحذف الجر، وفي القراءة الثانية منصوب؛ لأنه نداء مضاف. وآل فرعون: من كان على دينه وعلى مذهبه، وإذا كان من كان على دينه ومذهبه في أشد العذاب كان هو أقرب إلى ذلك. وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ: (إن العبد يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا منهم يحيى بن زكريا ولد مؤمنا وحيي مؤمنا ومات مؤمنا وإن العبد يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا منهم فرعون ولد كافرا وحيي كافرا ومات كافرا)[٢] ذكره النحاس. وجعل الفراء في الآية تقديما وتأخيرا مجازه: "أدخلوا آل فرعون أشد العذاب". "النار يعرضون عليها غدوا وعشيا" فجعل العرض في الآخرة؛ وهو خلاف ما ذهب إليه الجمهور من انتظام الكلام على سياقه على ما تقدم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري في "الجنائز"، (١٣٧٩)، وفي غير موضع، ومسلم (٢٨٦٦).

(٢) ذكره بنحوه الهيثمي في "المجمع"، وقال: "رواه الطبراني في الأوسط والكبير باختصار وفيه عمر بن إبراهيم العبدي، وثقه غير واحد وقال ابن عدي: حديثه عن قتادة مضطرب، قلت: وهذا منها".

قولـه تعالى: ﴿ وإذ يتحاجون في النار ﴾ أي يختصمون فيها ﴿ فيقول الضعفاء للذين استكبروا ﴾ عن الانقياد للأنبياء ﴿ إنا كنا لكم تبعا ﴾ فيما دعوتمونا إليه من الشرك في الدنيا ﴿ فهل أنتم مغنون ﴾ أي متحملون ﴿ عنا نصيبا من النار ﴾ أي جزءا من العذاب. والتبع يكون واحدا ويكون جمعا في قول البصريين واحده تابع. وقال أهل الكوفة: هو جمع لا واحد لـه كالمصدر فلذلك لم يجمع ولو جمع لقيل أتباع. ﴿ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ﴾ أي في جهنم. قال الأخفش: "كل" مرفوع بالابتداء. وأجاز الكسائي والفراء "إنا كلا فيها" بالنصب على النعت والتأكيد للمضمر في "إنا" وكذلك قرأ ابن السميقع وعيسى بن عمر. والكوفيون يسمون التأكيد نعتا. ومنع ذلك سيبويه؛ قال: لأن "كلا" لا تنعت ولا ينعت بها. ولا يجوز البدل فيه لأن المخبر عن نفسه لا يبدل منه غيره، وقال معناه المبرد قال: لا يجوز أن يبدل من المضمر هنا؛ لأنه مخاطب ولا يبدل من المخاطَب ولا من المخاطب؛ لأنهما لا يشكلان فيبدل منهما؛ هذا نص كلامه. ﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ أي لا يؤاخذ أحداً بذنب غيره؛ فكل منا كافر.

قولـه تعالى: ﴿ وقال الذين في النار ﴾ من الأمم الكافرة. ومن العرب من يقول اللذون على أنه جمع مسلم معرب، ومن قال: "الذين" في الرفع بناه كما كان في الواحد مبنيا. وقال الأخفش: ضمت النون إلى الذي فأشبه خمسة عشر فبني على الفتح. ﴿ لخزنة جهنم ﴾ خزنة جمع خازن ويقال: خزان وخزن. ﴿ ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ﴾ "يخفف" جواب مجزوم وإن كان بالفاء كان منصوبا، إلا أن الأكثر في كلام العرب في جواب الأمر وما أشبهه أن يكون بغير فاء وعلى هذا جاء القرآن بأفصح اللغات كما قال (امرؤ القيس):

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

قال محمد بن كعب القرظي: بلغني أو ذكر لي أن أهل النار استغاثوا بالخزنة؛ فقال الله تعالى: ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ﴾ فسألوا يوما واحدا يخفف عنهم فيه العذاب فردت عليهم ﴿ أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ الخبر بطولـه. وفي الحديث عن أبي الدرداء خرجه الترمذي[1] وغيره قال: يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون منه فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، فيأكلونه لا يغني عنهم شيئاً، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة فيغصون به، فيذكرون أنهم كانوا في الدنيا يجيزون الغصص بالماء، فيستغيثون بالشراب فيرفع لـهم الحميم بالكلاليب، فإذا دنا من وجوههم شواها، فإذا وقع في بطونهم قطع أمعاءهم وما في بطونهم، فيستغيثون بالملائكة يقولون: "ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب" فيجيبوهم "أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال" أي خسار وتبار.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾

---

(١) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٦٤٤٤).

قوله تعالى: ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ ويجوز حذف الضمة لثقلها فيقال: "رسْلنا" والمراد موسى عليه السلام. ﴿ والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴾ في موضع نصب عطف على الرسل، والمراد المؤمن الذي وعظ. وقيل: هو عام في الرسل والمؤمنين، ونصرهم بإعلاء الحجج وإفلاحها في قول أبي العالية. وقيل: بالانتقام من أعدائهم. قال السدي: ما قتل قوم قط نبيا أو قوما من دعاة الحق من المؤمنين إلا بعث الله عز وجل من ينتقم لهم، فصاروا منصورين فيها وإن قتلوا.

قوله تعالى: ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ يعني يوم القيامة. قال زيد بن أسلم: "الأشهاد" أربعة: الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد. وقال مجاهد والسدي: "الأشهاد" الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأمم بالتكذيب. وقال قتادة: الملائكة والأنبياء. ثم قيل: "الأشهاد" جمع شهيد مثل شريف وأشراف. وقال الزجاج: "الأشهاد" جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب. النحاس: ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال ولا يقاس عليه ولكن ما جاء منه مسموعا أدي كما سمع، وكان على حذف الزائد. وأجاز الأخفش والفراء: "ويوم تقوم الأشهاد" بالتاء على تأنيث الجماعة. وفي الحديث عن أبي الدرداء وبعض المحدثين يقول عن النبي ﷺ قال: (من رد عن عرض أخيه المسلم كان حقا على الله عز وجل أن يرد عنه نار جهنم)[1] ثم تلا: "إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا". وعنه ﷺ أنه قال: (من حمى مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله عز وجل يوم القيامة ملكا يحميه من النار ومن ذكر مسلما بشيء يشينه به وقفه الله عز وجل على جسر من جهنم حتى يخرج مما قال)[2]. ﴿ يوم ﴾ بدل من يوم الأول. ﴿ لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ قرأ نافع والكوفيون "ينفع" بالياء. الباقون بالتاء. ﴿ ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ "اللعنة" البعد من رحمة الله و"سوء الدار" جهنم.

قوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الهدى ﴾ هذا دخل في نصرة الرسل في الدنيا والآخرة أي آتيناه التوراة والنبوة. وسميت التوراة هدى بما فيها من الهدى والنور؛ وفي التنزيل: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ (المائدة: ٤٤). ﴿ وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ﴾ يعني التوراة جعلناها لهم ميراثا. ﴿ هدى ﴾ بدل من الكتاب ويجوز بمعنى هو هدى؛ يعني ذلك الكتاب. ﴿ وذكرى لأولي الألباب ﴾ أي موعظة لأصحاب العقول.

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

---

(١) صحيح، بلفظ: "من رد عن عرض أخيه، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة"، وانظر صحيح الجامع (٦٢٦٢).
(٢) ضعيف.

قولـه تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين، كما صبر من قبلك "إن وعد الله حق" بنصرك وإظهارك، كما نصرت موسى وبني إسرائيل. وقال الكلبي: نسخ هذا بآية السيف. "واستغفر لذنبك" قيل: لذنب أمتك حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: لذنب نفسك على من يجوز الصغائر على الأنبياء. ومن قال لا تجوز قال: هذا تعبد للنبي ﷺ بالدعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وآتنا ما وعدتنا ﴾ (آل عمران: ١٩٤) والفائدة زيادة الدرجات وأن يصير الدعاء سنة لمن بعده. وقيل: فاستغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة. ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ﴾ يعني صلاة الفجر وصلاة العصر؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: هي صلاة كانت بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ركعتان غدوة وركعتان عشية. عن الحسن أيضا ذكره الماوردي. فيكون هذا مما نسخ والله أعلم. وقولـه: "بحمد ربك" بالشكر لـه والثناء عليه. وقيل: "وسبح بحمد ربك" أي استدم التسبيح في الصلاة وخارجا منها لتشتغل بذلك عن استعجال النصر.

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين يجادلون ﴾ يخاصمون ﴿ في آيات الله بغير سلطان ﴾ أي حجة ﴿أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ قال الزجاج: المعنى ما في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغي إرادتهم فيه. قدره على الحذف. وقال غيره: المعنى ما هم ببالغي الكبر على غير حذف؛ لأن هؤلاء قوم رأوا أنهم إن اتبعوا النبي ﷺ قل ارتفاعهم، ونقصت أحوالـهم، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تبعا، فأعلم الله عز وجل أنهم لا يبلغون الارتفاع الذي أملوه بالتكذيب. والمراد المشركون. وقيل: اليهود؛ فالآية مدنية على هذا كما تقدم أول السورة. والمعنى: إن تعظموا عن اتباع محمد ﷺ وقالوا إن الدجال سيخرج عن قريب فيرد الملك إلينا، وتسير معه الأنهار، وهو آية من آيات الله فذلك كبر لا يبلغونه فنزلت الآية فيهم. قاله أبو العالية وغيره. وقد تقدم في "آل عمران" أنه يخرج ويطأ البلاد كلـها إلا مكة والمدينة. وقد ذكرنا خبره مستوفى في كتاب التذكرة. وهو يهودي واسمه صاف ويكنى أبا يوسف. وقيل: كل من كفر بالنبي ﷺ. وهذا أحسن؛ لأنه يعم. وقال مجاهد: معناه في صدورهم عظمة ما هم ببالغيها والمعنى واحد. وقيل: المراد بالكبر الأمر الكبير أي يطلبون النبوة أو أمرا كبيرا يصلون به إليك من القتل ونحوه، ولا يبلغون ذلك. أو يتمنون موتك قبل أن يتم دينك ولا يبلغونه.

قولـه تعالى: ﴿ فاستعذ بالله ﴾ قيل: من فتنة الدجال على قول من قال إن الآية نزلت في اليهود. وعلى القول الآخر من شر الكفار. قيل: من مثل ما ابتلوا به من الكفر والكبر. ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ "هو" يكون فاصلا ويكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر إن على ما تقدم.

قولـه تعالى : ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ مبتدأ وخبره. قال أبو العالية: أي أعظم من خلق الدجال حين عظمته اليهود. وقال يحيى بن سلام: هو احتجاج على منكري البعث؛ أي هما أكبر من إعادة خلق الناس فلم اعتقدوا عجزي عنها؟. ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي لا يعلمون ذلك.

قولـه تعالى: ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ أي المؤمن والكافر والضال والمهتدي. ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي ولا يستوي العامل للصالحات ﴿ولا المسيء ﴾ الذي يعمل السيئات.

﴿قليلا ما تتذكرون﴾ قراءة العامة بياء على الخبر واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأجل ما قبله من الخبر وما بعده. وقرأ الكوفيون بالتاء على الخطاب.

قوله تعالى: ﴿ إن الساعة لآتية ﴾ هذه لام التأكيد دخلت في خبر إن وسبيلها أن تكون في أول الكلام؛ لأنها توكيد الجملة إلا أنها تزحلق عن موضعها؛ كذا قال سيبويه. تقول: إن عمرا لخارج؛ وإنما أخرت عن موضعها لئلا يجمع بينها وبين إن؛ لأنهما يؤديان عن معنى واحد، وكذا لا يجمع بين إن وأن عند البصريين. وأجاز هشام إن أن زيدا منطلق حق؛ فإن حذفت حقا لم يجز عند أحد من النحويين علمته؛ قاله النحاس. ﴿ لا ريب فيها ﴾ لا شك ولا مرية. ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ أي لا يصدقون بها وعندها يبين فرق ما بين الطائع والعاصي.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ الآية، روى النعمان بن بشير قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (الدعاء هو العبادة)[1] ثم قرأ: ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. فدل هذا على أن الدعاء هو العبادة. وكذا قال أكثر المفسرين وأن المعنى: وحدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم وأغفر لكم. وقيل: هو الذكر والدعاء والسؤال. قال أنس: قال النبي ﷺ: (ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع)[2] ويقال الدعاء: هو ترك الذنوب. وحكى قتادة أن كعب الأحبار قال: أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تعطهن أمة قبلهم إلا نبي: كان إذا أرسل نبي قيل له أنت شاهد على أمتك، وقال تعالى لهذه الأمة: ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ (البقرة: ١٤٣) وكان يقال للنبي: ليس عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ (الحج: ٧٨) وكان يقال للنبي ادعني أستجب لك، وقال لهذه الأمة: "ادعوني أستجب لكم".

---

(١) صحيح، انظر صحيح الجامع (٣٤٠٧).
(٢) ضعيف، بنحوه في ضعيف الجامع (٤٩٤٦).

قلت: مثل هذا لا يقال من جهة الرأي. وقد جاء مرفوعا؛ رواه ليث عن شهر بن حوشب عن عبادة بن الصامت، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أعطيت أمتي ثلاثا لم تعط إلا للأنبياء كان الله تعالى إذا بعث النبي قال ادعني أستجب لك وقال لهذه الأمة: "ادعوني أستجب لكم" وكان الله إذا بعث النبي قال: ما جعل عليك في الدين من حرج وقال لهذه الأمة: ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ (الحج: ٧٨) وكان الله إذا بعث النبي جعله شهيدا على قومه وجعل هذه الأمة شهداء على الناس)[1] ذكره الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول). وكان خالد الربعي يقول: عجيب لهذه الأمة! قيل لها: "ادعوني أستجب لكم" أمرهم بالدعاء ووعدهم الاستجابة وليس بينهما شرط. قال له قائل: مثل ماذا؟ قال: مثل قوله تعالى: ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ (البقرة: ٢٥) فها هنا شرط، وقوله: ﴿ وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق ﴾ (يونس: ٢)، فليس فيه شرط العمل؛ ومثل قوله: ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾ (غافر: ١٤) فها هنا شرط، وقوله تعالى: "ادعوني أستجب لكم" ليس فيه شرط. وكانت الأمة تفزع إلى أنبيائها في حوائجها حتى تسأل الأنبياء لهم ذلك. وقد قيل: إن هذا من باب المطلق والمقيد على ما تقدم في "البقرة" بيانه. أي "أستجب لكم" إن شئت؛ كقوله: ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ (الأنعام: ٤١). وقد تكون الاستجابة في غير عين المطلوب على حديث أبي سعيد الخدري على ما تقدم في "البقرة" بيانه فتأمله هناك. وقرأ ابن كثير وابن محيصن ورويس عن يعقوب وعياش عن أبي عمرو وأبو بكر والمفضل عن عاصم "سيدخلون" بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله. الباقون "يدخلون" بفتح الياء وضم الخاء. ومعنى ﴿ داخرين ﴾ صاغرين أذلاء وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ "جعل" هنا بمعنى خلق؛ والعرب تفرق بين جعل إذا كانت بمعنى خلق وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خلق؛ فإذا كانت بمعنى خلق فلا تعديها إلا إلى مفعول واحد، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدتها إلى مفعولين؛ نحو قوله: "إنا جعلناه قرآنا عربيا" وقد مضى هذا المعنى في غير موضع. ﴿ والنهار مبصرا ﴾ أي مضيئاً لتبصروا فيه حوائجكم وتتصرفوا في طلب معايشكم. ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ فضله وإنعامه عليهم.

قوله تعالى: ﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء ﴾ بين الدلالة على وحدانيته وقدرته. ﴿ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ أي كيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان بعد أن تبينت لكم دلائله كذلك؛ أي كما صرفتم عن الحق مع قيام الدليل عليه فـ ﴿ كذلك يؤفك ﴾ يصرف عن الحق ﴿ الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قرارا ﴾ زاد في تأكيد التعريف والدليل؛ أي جعل لكم الأرض مستقرا لكم في حياتكم وبعد الموت. ﴿ والسماء بناء ﴾ تقدم. ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ أي خلقكم في أحسن صورة. وقرأ أبو رزين والأشهب العقيلي "صوركم" بكسر الصاد؛

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٤٣) وضعف إسناده.

قال الجوهري: والصور بكسر الصاد لغة في الصُّور جمع صورة، وينشد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجواري قائلا:

أشبهن من بقر الخلصاء أعينها وهن أحسن من صيرانها صورا

والصيران جمع صوار وهو القطيع من البقر والصوار أيضا وعاء المسك وقد جمعهما الشاعر بقوله:

إذا لاح الصوار ذكرت ليلى وأذكرها إذا نفخ الصوار

والصيار لغة فيه. ﴿ ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ تقدم. ﴿ هو الحي ﴾ أي الباقي الذي لا يموت ﴿ لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ﴾ أي الطاعة والعبادة. ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الفراء: هو خبر وفيه إضمار أمر أي ادعوه واحمدوه. وقد مضى هذا كله مستوفى في "البقرة" وغيرها. وقال ابن عباس: من قال: "لا إله إلا الله" فليقل "الحمد لله رب العالمين".

قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٦٦) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٦٨) ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل إني نهيت ﴾ أي قل يا محمد: نهاني الله الذي هو الحي القيوم ولا إله غيره ﴿ أن أعبد ﴾ غيره. ﴿ لما جاءني البينات من ربي ﴾ أي دلائل توحيده ﴿ وأمرت أن أسلم ﴾ أذل وأخضع ﴿ لرب العالمين ﴾ وكانوا دعوه إلى دين آبائه، فأمر أن يقول هذا.

قوله تعالى: ﴿ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ﴾ أي أطفالا. وقد تقدم هذا. ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ وهي حالة اجتماع القوة وتمام العقل. وقد مضى في "الأنعام" بيانه. ﴿ ثم لتكونوا شيوخا ﴾ بضم الشين قراءة نافع وابن محيصن وحفص وهشام ويعقوب وأبو عمرو على الأصل؛ لأنه جمع فعل، نحو: قلب وقلوب ورأس ورؤوس. وقرأ الباقون بكسر الشين لمراعاة الياء وكلاهما جمع كثرة، وفي العدد القليل أشياخ والأصل أشيخ؛ مثل فلس وأفلس إلا أن الحركة في الياء ثقيلة. وقرئ "شيخا" على التوحيد؛ كقوله: "طفلا" والمعنى كل واحد منكم؛ واقتصر على الواحد لأن الغرض بيان الجنس. وفي الصحاح: جمع الشيخ شيوخ وأشياخ وشيخة وشيخان ومشيخة ومشايخ ومشيوخاء، والمرأة شيخة. قال عبيد (ابن الأبرص):

كأنها شيخة رقوب

وقد شاخ الرجل يشيخ شيخا بالتحريك على أصله وشيخوخة، وأصل الياء متحركة فسكنت؛ لأنه ليس في الكلام فعلول. وشيخ تشييخا أي شاخ. وشيخته دعوته شيخا للتبجيل. وتصغير الشيخ شييخ وشييخ أيضا بكسر الشين ولا تقل شويخ. النحاس: وإن اضطر شاعر جاز أن يقول أشيخ مثل

عين وأعين إلا أنه حسن في عين؛ لأنها مؤنثة. والشيخ من جاوز أربعين سنة. ﴿ومنكم من يتوفى من قبل﴾ قال مجاهد: أي من قبل أن يكون شيخا، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطا. ﴿ولتبلغوا أجلا مسمى﴾ قال مجاهد: الموت للكل. واللام لام العاقبة. ﴿ولعلكم تعقلون﴾ ذلك فتعلموا أن لا إلـه غيره.

قولـه تعالى: ﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ زاد في التنبيه أي هو الذي يقدر على الإحياء والإماتة. ﴿فإذا قضى أمرا﴾ أي أراد فعلـه ﴿فإنما يقول لـه كن فيكون﴾ ونصب "فيكون" ابن عامر على جواب الأمر. وقد مضى في "البقرة" القول فيه.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون﴾ قال ابن زيد: هم المشركون بدليل قولـه: ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا﴾. وقال أكثر المفسرين: نزلت في القدرية. قال ابن سيرين: إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية فلا أدري فيمن نزلت. قال أبو قبيل: لا أحسب المكذبين بالقدر إلا الذين يجادلون الذين آمنوا. وقال عقبة بن عامر: قال النبي ﷺ: (نزلت هذه الآية في القدرية) ذكره المهدوي.

قولـه تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم﴾ أي عن قريب يعلمون بطلان ما هم فيه إذا دخلوا النار وغلت أيديهم إلى أعناقهم. قال التيمي: لو أن غلا من أغلال جهنم وضع على جبل لوهصه حتى يبلغ المـاء الأسـود. ﴿والسلاسل﴾ بالرفـع قـراءة العامـة عطفـا على الأغلال. قـال أبـو حاتـم: ﴿يسحبون﴾ مستأنف على هذه القراءة. وقال غيره: هو في موضع نصب على الحال، والتقدير: "إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل" مسحوبين. وقرأ ابن عباس وأبو الجوزاء وعكرمة وابن مسعود "والسلاسل" بالنصب "يسحبون" بفتح الياء والتقدير في هذه القراءة ويسحبون السلاسل. قال ابن عباس: إذا كانوا يجرونها فهو أشد عليهم. وحكي عن بعضهم "والسلاسل" بالجر ووجهه أنه محمول على المعنى؛ لأن المعنى أعناقهم في الأغلال والسلاسل؛ قاله الفراء. وقال الزجاج: ومن قرأ

"والسلاسل يسحبون" بالخفض فالمعنى عنده وفي "السلاسل يسحبون". قال ابن الأنباري: والخفض على هذا المعنى غير جائز؛ لأنك إذا قلت زيد في الدار لم يحسن أن تضمر "في" فتقول زيد الدار، ولكن الخفض جائز. على معنى إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل، فتخفض السلاسل على النسق على تأويل الأغلال؛ لأن الأغلال في تأويل الخفض؛ كما تقول: خاصم عبد الله زيدا العاقلين فتنصب العاقلين. ويجوز رفعهما؛ لأن أحدهما إذا خاصم صاحبه فقد خاصمه صاحبه؛ أنشد الفراء:

قد سالم الحيات منه القدما الأفعوان والشجاع الشجعما

فنصب الأفعوان على الإتباع للحيات إذا سالمت القدم فقد سالمتها القدم. فمن نصب السلاسل أو خفضها لم يقف عليها. ﴿ في الحميم ﴾ المتناهي في الحر. وقيل: الصديد المغلي. ﴿ ثم في النار يسجرون ﴾ أي يطرحون فيها فيكونون وقودا لها؛ قاله مجاهد. يقال: سجرت التنور أي أوقدته، وسجرته ملأته؛ ومنه ﴿ والبحر المسجور ﴾ (الطور: ٦) أي المملوء. فالمعنى على هذا تملأ بهم النار وقال الشاعر يصف وعلا:

إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النبع والسمسما

أي عينا مملوءة. ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله ﴾ وهذا تقريع وتوبيخ. ﴿ قالوا ضلوا عنا ﴾ أي هلكوا وذهبوا عنا وتركونا في العذاب؛ من ضل الماء في اللبن أي خفي. وقيل: أي صاروا بحيث لا نجدهم. ﴿ بل لم نكن ندعو من قبل شيئا ﴾ أي شيئا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع. وليس هذا إنكارا لعبادة الأصنام، بل هو اعتراف بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلة؛ قال الله تعالى: ﴿ كذلك يضل الله الكافرين ﴾ أي كما فعل بهؤلاء من الإضلال يفعل بكل كافر.

قوله تعالى: ﴿ ذلكم ﴾ أي ذلكم العذاب ﴿ بما كنتم تفرحون ﴾ بالمعاصي يقال لهم ذلك توبيخا. أي إنما نالكم هذا بما كنتم تظهرون في الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال والأتباع والصحة. وقيل إن فرحهم بها عندهم أنهم قالوا للرسل: نحن نعلم أنا لا نبعث ولا نعذب. وكذا قال مجاهد في قوله جل وعز: ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ (غافر: ٨٣). ﴿ وبما كنتم تمرحون ﴾ قال مجاهد وغيره: أي تبطرون وتأشرون. وقد مضى في "سبحان" بيانه. وقال الضحاك: الفرح السرور، والمرح العدوان. وروى خالد عن ثور عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يبغض البذخين الفرحين ويحب كل قلب حزين ويبغض أهل بيت لحمين ويبغض كل حبر سمين)[1] فأما أهل بيت لحمين: فالذين يأكلون لحوم الناس بالغيبة. وأما الحبر السمين: فالمتحبر بعلمه ولا يخبر بعلمه الناس؛ يعني المستكثر من علمه ولا ينتفع به الناس. ذكره الماوردي. وقد قيل في اللحمين: أنهم الذين يكثرون أكل اللحم؛ ومنه قول عمر: اتقوا هذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر؛ ذكره المهدوي. والأول قول سفيان الثوري. ﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ أي يقال لهم ذلك اليوم، وقد قال الله تعالى: ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ (الحجر: ٤٤). ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ تقدم جميعه.

---

(١) "موضوع" أخرجه الديلمي في "مسند الفردوس" مختصراً كما في ضعيف الجامع (١٦٨٧).

قولـه تعالى: ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ﴾ هذا تسلية للنبي ﷺ، أي إنا لننتقم لك منهم إما في حياتك أو في الآخرة. ﴿ فإما نرينك ﴾ في موضع جزم بالشرط وما زائدة للتوكيد وكذا النون وزال الجزم وبني الفعل على الفتح. ﴿ أو نتوفينك ﴾ عطف عليه ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ الجواب.

قولـه تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ﴾ عزاه أيضا بما لقيت الرسل من قبل. ﴿ منهم من قصصنا عليك ﴾ أي أنبأناك بأخبارهم وما لقوا من قومهم. ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية ﴾ أي من قبل نفسه ﴿ إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله ﴾ أي إذا جاء الوقت المسمى لعذابهم أهلكهم الله، وإنما التأخير لإسلام من علم الله إسلامه منهم، ولمن في أصلابهم من المؤمنين. وقيل: أشار بهذا إلى القتلى ببدر. ﴿ قضي بينهم بالحق وخسر هنالك المبطلون ﴾ أي الذين يتبعون الباطل والشرك.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

قولــه تعالى: ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام ﴾ قال أبو إسحاق الزجاج: الأنعام هـا هنا الإبـل. ﴿ لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾ فاحتج من منع أكل الخيل وأباح أكل الجمال بأن الله عز وجل قال في الأنعام: ﴿ ومنها تأكلون ﴾ وقال في الخيل: ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها ﴾ (النحل: ٨) ولم يذكر إباحة أكلـها. وقد مضى هذا في "النحل" مستوفى.

قولـه تعالى: ﴿ ولكم فيها منافع ﴾ في الوبر والصوف والشعر واللبن والزبد والسمن والجبن وغير ذلك. ﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ أي تحمل الأثقال والأسفار. وقد مضى في "النحل" بيان هذا كلـه فلا معنى لإعادته. ثم قال: ﴿ وعليها ﴾ يعني الأنعام في البر﴿ وعلى الفلك ﴾ في البحر ﴿ تحملون * ويريكم آياته ﴾ أي آياته الدالة على وحدانيته وقدرته فيما ذكر. ﴿فأي آيات الله تنكرون﴾ نصب "أيا" بـ "تنكرون"، لأن الاستفهام لـه صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبلـه، ولو كان مع الفعل هاء لكان الاختيار في "أي" الرفع، ولو كان الاستفهام بألف أو هل وكان بعدهما اسم بعده فعل معه هاء لكان الاختيار النصب، أي إذا كنتم لا تنكرون أن هذه الأشياء من الله فلم تنكرون قدرته على البعث والنشر.

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا

بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلـهم ﴾ حتى يشاهدوا آثار الأمم السالفة ﴿ كانوا أكثر منهم ﴾ عددا ﴿ وأشد قوة وآثارًا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ من الأبنية والأموال وما أدالوا به من الأولاد والأتباع؛ يقال: دلوت بفلان إليك أي استشفعت به إليك. وعلى هذا "ما" للجحد أي فلم يغن عنهم ذلك شيئا. وقيل: "ما" للاستفهام أي أي شيء أغنى عنهم كسبهم حين هلكوا ولم ينصرف "أكثر"؛ لأنه على وزن أفعل. وزعم الكوفيون أن كل ما لا ينصرف فإنه يجوز أن ينصرف إلا أفعل من كذا فإنه لا يجوز صرفه بوجه في شعر ولا غيره إذا كانت معه من. قال أبو العباس: ولو كانت من المانعة من صرفه لوجب ألا يقال: مررت بخير منك وشر منك ومن عمرو.

قولـه تعالى: ﴿ فلما جاءتهم رسلـهم بالبينات ﴾ أي بالآيات الواضحات. ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ في معناه ثلاثة أقوال. قال مجاهد: إن الكفار الذين فرحوا بما عندهم من العلم قالوا: نحن أعلم منهم لن نعذب ولن نبعث. وقيل: فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا نحو ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾ (الروم: ٧). وقيل: الذين فرحوا الرسل لما كذبهم قومهم أعلمهم الله عز وجل أنه مهلك الكافرين ومنجيهم والمؤمنين فـ " فرحوا بما عندهم من العلم" بنجاة المؤمنين ﴿ وحاق بهم ﴾ أي بالكفار ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي عقاب استهزائهم بما جاء به الرسل صلوات الله عليهم.

قولـه تعالى: ﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ أي عاينوا العذاب. ﴿ قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ أي آمنا بالله وكفرنا بالأوثان التي أشركناهم في العبادة ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ فلم ينفعهم إيمانهم بالله عند معاينة العذاب وحين رأوا البأس. ﴿ سنة الله التي قد خلت في عباده ﴾ "سنة الله" مصدر؛ لأن العرب تقول: سن يسن سنا وسنة؛ أي سن الله عز وجل في الكفار أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب. وقد مضى هذا مبينا في "النساء" و"يونس" وأن التوبة لا تقبل بعد رؤية العذاب وحصول العلم الضروري. وقيل: أي احذروا يا أهل مكة سنة الله في إهلاك الكفرة فـ "سنة الله" منصوب على التحذير والإغراء. ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ قال الزجاج: وقد كانوا خاسرين من قبل ذلك إلا أنه بين لنا الخسران لما رأوا العذاب. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي "لم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا" "وخسر هنالك الكافرون" كسنتنا في جميع الكافرين فـ "سنة" نصب بنزع الخافض أي كسنة الله في الأمم كلـها. والله أعلم.

تم تفسير سورة غافر والحمد لله.

سورة فصلت

مكية في قول الجميع، وهي أربع وخمسون، وقيل: ثلاث وخمسون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿ حم، تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ قال الزجاج: "تنزيل" رفع بالابتداء وخبره ﴿ كتاب فصلت آياته ﴾ وهذا قول البصريين. وقال الفراء: يجوز أن يكون رفعه على إضمار هذا. ويجوز أن يقال: "كتاب" بدل من قوله: "تنزيل". وقيل: نعت لقوله: "تنزيل". وقيل: "حم" أي هذه "حم" كما تقول باب كذا، أي هو باب كذا فـ "حم" خبر ابتداء مضمر أي هو "حم"، وقوله: "تنزيل" مبتدأ آخر، وقوله: "كتاب" خبره. "فصلت آياته" أي بينت وفسرت. قال قتادة: ببيان حلاله من حرامه، وطاعته من معصيته. الحسن: بالوعد والوعيد. سفيان: بالثواب والعقاب. وقرئ "فصلت" أي فرقت بين الحق والباطل، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها؛ من قولك فصل أي تباعد من البلد. ﴿ قرآنا عربيا ﴾ في نصبه وجوه؛ قال الأخفش: هو نصب على المدح. وقيل: على إضمار فعل؛ أي اذكر "قرآنا عربيا". وقيل: على إعادة الفعل؛ أي فصلنا "قرآنا عربيا". وقيل: على الحال أي "فصلت آياته" في حال كونه "قرآنا عربيا". وقيل: لما شغل "فصلت" بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل انتصب "قرآنا" لوقوع البيان عليه. وقيل: على القطع. ﴿ لقوم يعلمون ﴾ قال الضحاك: أي إن القرآن منزل من عند الله. وقال مجاهد: أي يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل. وقيل: يعلمون العربية فيعجزون عن مثله ولو كان غير عربي لما علموه.

قلت: هذا أصح، والسورة نزلت تقريعا وتوبيخا لقريش في إعجاز القرآن.

قوله تعالى: ﴿ بشيرا ونذيرا ﴾ حالان من الآيات والعامل فيه "فصلت". وقيل: هما نعتان للقرآن "بشيرا" لأولياء الله "نذيرا" لأعدائه. وقرئ "بشير ونذير" صفة للكتاب. أو خبر مبتدأ محذوف ﴿ فأعرض أكثرهم ﴾ يعني أهل مكة ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ سماعاً ينتفعون به. وروي أن الريان ابن حرملة قال: قال الملأ من قريش وأبو جهل قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره؛ فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر، وعلمت من ذلك علما لا يخفى علي إن كان كذلك. فقالوا: إيته فحدثه.

فأتى النبي ﷺ فقال لـه: يا محمد! أنت خير أم قصي بن كلاب؟ أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشتم آلـهتنا، وتضلل آباءنا، وتسفه أحلامنا، وتذم ديننا؟ فإن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أي بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك. والنبي ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: (قد فرغت يا أبا الوليد)؟ قال: نعم. فقال: (يا ابن أخي اسمع) قال: أسمع. قال: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ﴾ إلى قولـه: ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ (فصلت: ١٣) فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي ﷺ، وناشده الله والرحم ليسكتن، ورجع إلى أهلـه ولم يخرج إلى قريش فجاءه أبو جهل؛ فقال: أصبوت إلى محمد؟ أم أعجبك طعامه؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمدا أبدا، ثم قال: والله لقد تعلمون أني من أكثر قريش مالا، ولكني لما قصصت عليه القصة أجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قولـه: ﴿ مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ (فصلت: ١٣) وأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب؛ يعني الصاعقة. وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد لـه عن محمد بن كعب القرظي، وأن النبي ﷺ قرأ "حم. فصلت" حتى انتهى إلى السجدة فسجد وعتبة مصغ يستمع، قد اعتمد على يديه من وراء ظهره. فلما قطع رسول الله ﷺ القراءة قال لـه: (يا أبا الوليد قد سمعت الذي قرأت عليك فأنت وذاك) فانصرف عتبة إلى قريش في ناديها فقالوا: والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي مضى به من عندكم. ثم قالوا: ما وراءك أبا الوليد؟ قال: والله لقد سمعت كلاما من محمد ما سمعت مثلـه قط، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة، فأطيعوني في هذه وأنزلوها بي؛ خلوا محمدا وشأنه واعتزلوه، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ، فإن أصابته العرب كفيتموه بأيدي غيركم، وإن كان ملكا أو نبيا كنتم أسعد الناس به؛ لأن ملكه ملككم وشرفه شرفكم. فقالوا: هيهات سحرك محمد يا أبا الوليد. وقال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما شئتم.

قولـه تعالى: ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ الأكنة جمع كنان وهو الغطاء. وقد مضى في "البقرة". قال مجاهد: الكنان للقلب كالجنة للنبل. ﴿ وفي آذاننا وقر ﴾ أي صمم؛ فكلامك لا يدخل أسماعنا، وقلوبنا مستورة عن فهمه. ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ أي خلاف في الدين، لأنهم يعبدون الأصنام وهو يعبد الله عز وجل. قال معناه الفراء وغيره. وقيل: ستر مانع عن الإجابة. وقيل: إن أبا جهل استغشى على رأسه ثوبا وقال: يا محمد بيننا وبينك حجاب. استهزاء منه. حكاه النقاش وذكره القشيري. فالحجاب هنا الثوب. ﴿ فاعمل إننا عاملون ﴾ أي اعمل في هلاكنا فإنا عاملون في هلاكك؛ قالـه الكلبي. وقال مقاتل: اعمل لإلـهك الذي أرسلك، فإنا نعمل لآلـهتنا التي نعبدها. وقيل: اعمل بما يقتضيه دينك، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا. ويحتمل خامسا: فاعمل لآخرتك فإنا نعمل لدنيانا؛ ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾ أي لست بملك بل أنا من بني آدم. قال الحسن: علمه الله تعالى التواضع. ﴿ يوحى إلي ﴾ أي من السماء على أيدي الملائكة ﴿ أنما إلهكم إله واحد ﴾ ﴿فـ﴾ آمنوا به و﴿ استقيموا إليه ﴾ أي وجهوا وجوهكم بالدعاء له والمسألة إليه، كما يقول الرجل: استقم إلى منزلك؛ أي لا تعرج على شيء غير القصد إلى منزلك. ﴿ واستغفروه ﴾ أي من شرككم. ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ قال ابن عباس: الذين لا يشهدون "أن لا إله إلا الله" وهي زكاة الأنفس. وقال قتادة: لا يقرون بالزكاة أنها واجبة. وقال الضحاك ومقاتل: لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة. قرعهم بالشح الذي يأنف منه الفضلاء، وفيه دلالة على أن الكافر يعذب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه. وقال الفراء وغيره: كان المشركون ينفقون النفقات، ويسقون الحجيج ويطعمونهم، فحرموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ، فنزلت فيهم هذه الآية. ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ فلهذا لا ينفقون في الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون. الزمخشري: فإن قلت لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة؟ قلت: لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم ﴾ (البقرة: ٢٦٥) أي يثبتون أنفسهم، ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا، فقويت عصبيتهم ولانت شكيمتهم؛ وأهل الردة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة، فنصبت لهم الحروب وجوهدوا. وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويف شديد من منعها، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقرن بالكفر بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ قال ابن عباس: غير مقطوع؛ مأخوذ من مننت الحبل إذا قطعته؛ ومنه قول ذي الإصبع:

إني لعمرك ما بابي بذي غلق   على الصديق ولا خيري بممنون

وقال آخر:

فترى خلفها من الرجع والوقـ   ـع منينا كأنه أهباء

يعني بالمنين الغبار المنقطع الضعيف. وعن ابن عباس أيضا ومقاتل: غير منقوص. ومنه المنون؛ لأنها تنقص منة الإنسان أي قوته؛ وقاله قطرب؛ وأنشد قول زهير:

فضل الجياد على الخيل البطاء فلا   يعطي بذلك ممنونا ولا نزقا

قال الجوهري: والمن القطع، ويقال النقص؛ ومنه قوله تعالى: "لهم أجر غير ممنون". وقال لبيد:

غُبْس كواسب لا يمن طعامها

وقال مجاهد: "غير ممنون" غير محسوب. وقيل: "غير ممنون" عليهم به. قال السدي: نزلت في الزمنى والمرضى والهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض ﴾ "أئنكم" بهمزتين الثانية بين بين و"أائنكم" بألف بين همزتين وهو استفهام معناه التوبيخ. أمره بتوبيخهم والتعجب من فعلهم، أي لمَ تكفرون بالله وهو خالقَ السموات والأرض؟! "في يومين" الأحد والاثنين ﴿ وتجعلون له أندادا ﴾ أي أضدادا وشركاء ﴿ ذلك رب العالمين ﴾. ﴿ وجعل فيها ﴾ أي في الأرض ﴿ رواسي من فوقها ﴾ يعني الجبال. وقال وهب: لما خلق الله الأرض مادت على وجه الماء؛ فقال لجبريل ثبتها يا جبريل. فنزل فأمسكها فغلبته الرياح، قال: يا رب أنت أعلم لقد غلبت فيها فثبتها بالجبال وأرساها ﴿ وبارك فيها ﴾ بما خلق فيها من المنافع. قال السدي: أنبت فيها شجرها. ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ قال السدي والحسن: أرزاق أهلها ومصالحهم. وقال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها في يوم الثلاثاء والأربعاء. وقال عكرمة والضحاك: معنى "قدر فيها أقواتها" أي أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد. قال عكرمة: حتى إنه في بعض البلاد ليتبايعون الذهب بالملح مثلا بمثل. وقال مجاهد والضحاك: السابري من سابور، والطيالسة من الري، والحبر اليمانية من اليمن. ﴿ في أربعة أيام ﴾ يعني في تتمة أربعة أيام. ومثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوما؛ أي في تتمة خمسة عشر يوما. قال معناه ابن الأنباري وغيره. ﴿ سواء للسائلين ﴾ قال الحسن: المعنى في أربعة أيام مستوية تامة. الفراء: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين. واختاره الطبري. وقرأ الحسن البصري ويعقوب الحضرمي "سواء للسائلين" بالجر وعن ابن القعقاع "سواء" بالرفع؛ فالنصب على المصدر و"سواء" بمعنى استواء أي استوت استواء. وقيل: على الحال والقطع؛ والجر على النعت لأيام أو لأربعة أي "في أربعة أيام" مستوية تامة. والرفع على الابتداء والخبر "للسائلين" أو على تقدير هذه "سواء للسائلين". وقال أهل المعاني: معنى "سواء للسائلين" ولغير السائلين؛ أي خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل، ويعطي من سأل ومن لا يسأل.

قولـه تعالى: ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ أي عمد إلى خلقها وقصد لتسويتها. والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال؛ يدل عليه قولـه تعالى: ﴿ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ﴾ (البقرة: ٢٩) وقد مضى القول هناك. وروى أبو صالح عن ابن عباس في قولـه: "ثم استوى إلى السماء" يعني صعد أمره إلى السماء؛ وقاله الحسن. ومن قال: إنه صفة ذاتية زائدة قال: استوى في الأزل بصفاته. و"ثم" ترجع إلى نقل السماء من صفة الدخان إلى حالة الكثافة. وكان ذلـك الدخان مـن تنفس الماء حين تنفس؛ علـى ما مضى في "البقرة" عن ابن مسعـود وغيره. ﴿ فقال لـها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ﴾ أي جيئا بما خلقت فيكما من المنافع والمصالح وأخرجاها لخلقي. قال ابن عباس: قال الله تعالى للسماء: أطلعي شمسك وقمرك وكواكبك، وأجري رياحك وسحابك، وقال للأرض: شقي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين "قالتا أتينا طائعين" في الكلام حذف أي أتينا أمرك "طائعين". وقيل: معنى هذا الأمر التسخير؛ أي كونا فكانتا كما قال تعالى: ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول لـه كن فيكون ﴾ (النحل: ٤٠) فعلى هذا قال ذلك قبل خلقهما. وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما. وهو قول الجمهور. وفي قولـه تعالى لـهما وجهان: أحدهما أنه قول تكلم به. الثاني أنها قدرة منه ظهرت لـهما فقام مقام الكلام في بلوغ المراد؛ ذكره الماوردي. ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ فيه أيضا وجهان: أحدهما أنه ظهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولـهما، ومنه قول الراجز:

امتـلأ الحوض وقال قطني مهلا رويدا قد ملأت بطني

يعني ظهر ذلك فيه. وقال أكثر أهل العلم: بل خلق الله فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد تعالى: قال أبو نصر السكسكي: فنطق من الأرض موضع الكعبة، ونطق من السماء ما بحيالـها، فوضع الله تعالى فيه حرمه. وقال: "طائعين" ولم يقل طائعتين على اللفظ ولا طائعات على المعنى؛ لأنهما سموات وأرضون، لأنه أخبر عنهما وعمن فيهما، وقيل: لما وصفهن بالقول والإجابة وذلك من صفات من يعقل أجراهما في الكناية مجرى من يعقل، ومثلـه: ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ (يوسف: ٤) وقد تقدم. وفي حديث: إن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا رب لو أن السموات والأرض حين قلت لـهما "ائتيا طوعا أو كرها" عصياك ما كنت صانعا بهما؟ قال كنت آمر دابة من دوابي فتبتلعهما. قال: يا رب وأين تلك الدابة؟ قال: في مرج من مروجي. قال: يا رب وأين ذلك المرج؟ قال علم من علمي. ذكره الثعلبي. وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة "آتيا" بالمد والفتح. وكذلك قولـه: "آتينا طائعين" على معنى أعطيا الطاعة من أنفسكما "قالتا" أعطينا "طائعين" فحذف المفعولين جميعا. ويجوز وهو أحسن أن يكون "آتينا" فاعلنا فحذف مفعول واحد. ومن قرأ "آتينا" فالمعنى جئنا بما فينا؛ على ما تقدم بيانه في غير موضع والحمد لله.

قولـه تعالى: ﴿ فقضاهن سبع سماوات في يومين ﴾ أي أكملـهن وفرغ منهن. وقيل. أحكمهن كما قال (أبو ذؤيب الهذلي):

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع

﴿ في يومين ﴾ سوى الأربعة الأيام التي خلق فيها الأرض، فوقع خلق السموات والأرض في ستة أيام؛ كما قال تعالى: ﴿ خلق السمآوات والأرض في ستة أيام ﴾ (الأعراف: ٥٤) على ما تقدم في "الأعراف" بيانه. قال مجاهد: ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون. وعن عبد الله بن سلام قال: خلق الله الأرض في يومين، وقدر فيها أقواتها في يومين، وخلق السموات في يومين؛ خلق الأرض في يوم الأحد والاثنين، وقدر فيها أقواتها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وخلق السموات في يوم الخميس ويوم الجمعة، وآخر ساعة في يوم الجمعة خلق الله آدم في عجل، وهي التي تقوم فيها الساعة، وما خلق الله من دابة إلا وهي تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن. على هذا أهل التفسير؛ إلا ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: (خلق الله التربة يوم السبت. . .)[1] الحديث، وقد تكلمنا على إسناده في أول سورة (الأنعام). ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ قال قتادة والسدي: خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها، وخلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد والثلوج. وهو قول ابن عباس؛ قال: ولله في كل سماء بيت تحج إليه وتطوف به الملائكة بحذاء الكعبة، والذي في السماء الدنيا هو البيت المعمور. وقيل: أوحى الله في كل سماء؛ أي أوحى فيها ما أراده وما أمر به فيها. والإيحاء قد يكون أمرا؛ لقوله: ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ (الزلزلة: ٥) وقوله: ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ (المائدة: ١١١) أي أمرتهم وهو أمر تكوين.

قوله تعالى: ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ أي بكواكب تضيء وقيل: إن في كل سماء كواكب تضيء. وقيل: بل الكواكب مختصة بالسماء الدنيا. ﴿ وحفظا ﴾ أي وحفظناها حفظا؛ أي من الشياطين الذين يسترقون السمع. وهذا الحفظ بالكواكب التي ترجم بها الشياطين على ما تقدم في "الحجر" بيانه. وظاهر هذه الآية يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء. وقال في آية أخرى: ﴿ أم السماء بناها ﴾ (النازعات: ٢٧) ثم قال: ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ (النازعات: ٣٠) وهذا يدل على خلق السماء أولا. وقال قوم: خلقت الأرض قبل السماء؛ فأما قوله: ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ (النازعات: ٣٠) فالدحو غير الخلق، فالله خلق الأرض ثم خلق السموات، ثم دحا الأرض أي مدها وبسطها؛ قاله ابن عباس. وقد مضى هذا المعنى مجودا في "البقرة" والحمد لله. ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ

---

(١) أخرجه مسلم في "صفات المنافقين"، (٢٧٨٩).

أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ فإن أعرضوا ﴾ يعني كفار قريش عما تدعوهم إليه يا محمد من الإيمان. ﴿ فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ أي خوفتكم هلاكا مثل هلاك عاد وثمود. ﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ يعني من أرسل إليهم وإلى من قبلـهم ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ موضع "أن" نصب بإسقاط الخافض أي بـ "ألا تعبدوا" و﴿ قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾ بدل الرسل ﴿ فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ من الإنذار والتبشير. قيل: هذا استهزاء منهم. وقيل: إقرار منهم بإرسالـهم ثم بعده جحود وعناد.

قولـه تعالى: ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض ﴾ على عباد الله هود ومن آمن معه ﴿ بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ﴾ اغتروا بأجسامهم حين تهددهم بالعذاب، وقالوا: نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا. وذلك أنهم كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم. وقد مضى في "الأعراف" عن ابن عباس: أن أطولـهم كان مائة ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعا. فقال الله تعالى ردا عليهم: ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ وقدرة، وإنما يقدر العبد بإقدار الله؛ فالله أقدر إذا. ﴿ وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾ أي بمعجزاتنا يكفرون.

قولـه تعالى: ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا ﴾ هذا تفسير الصاعقة التي أرسلـها عليهم، أي ريحا باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والـهبوب. ويقال: أصلـها صرر من الصر وهو البرد فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل؛ كقولـهم كبكبوا أصلـه كببوا، وتجفجف الثوب أصلـه تجفف. أبو عبيدة: معنى صرصر: شديدة عاصفة. عكرمة وسعيد بن جبير: شديدة البرد. وأنشد قطرب قول الحطيئة:

المطعمـــون إذا هـــبت بصرصرة ... والحاملون إذا استودوا على الناس

استودوا: إذا سئلوا الدية. مجاهد: الشديدة السموم. وروى معمر عن قتادة قال: باردة. وقاله عطاء؛ لأن "صرصرا" مأخوذ من صر والصر في كلام العرب البرد كما قال (امرؤ القيس):

لـها عذر كقرون النســـا ... ء ركبن في يوم ريح وصر

وقال السدي: الشديدة الصوت. ومنه صر القلم والباب يصر صريرا أي صوت. ويقال: درهم صَرِّيٌّ وصرِّيٌّ للذي لـه صوت إذا نقد. قال ابن السكيت: صرصر يجوز أن يكون من الصر وهو البرد، ويجوز أن يكون من صرير الباب، ومن الصرة وهي الصيحة. ومنه ﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ (الذاريات: ٢٩). وصرصر اسم نهر بالعراق. ﴿ في أيام نحسات ﴾ أي مشؤومات؛ قاله مجاهد وقتادة. كن آخر شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء وذلك ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾ (الحاقة: ٧) قال ابن عباس: ما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء. وقيل: "نحسات" باردات؛ حكاه النقاش. وقيل: متتابعات؛ عن ابن عباس وعطية. الضحاك: شداد. وقيل: ذات غبار؛ حكاه ابن عيسى. ومنه قول الراجز:

قد اغتدى قبل طلوع الشمس للصيد في يوم قليل النحس

قال الضحاك وغيره: أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين، ودرت الرياح عليهم في غير مطر، وخرج منهم قوم إلى مكة يستسقون بها للعباد، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه، وكانت طلبتهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام مكة مسلمهم وكافرهم، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى، مختلفة أديانهم، وكلهم معظم لمكة، عارف حرمتها ومكانها من الله تعالى. وقال جابر بن عبد الله والتيمي: إذا أراد الله بقوم خيرا أرسل عليهم المطر وحبس عنهم كثرة الرياح، وإذا أراد الله بقوم شرا حبس عنهم المطر وسلط عليهم كثرة الرياح. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو "نحسات" بإسكان الحاء على أنه جمع نحس الذي هو مصدر وصف به. الباقون: "نحسات" بكسر الحاء أي ذوات نحس. ومما يدل على أن النحس مصدر قوله: ﴿ في يوم نحس مستمر ﴾ (القمر: ١٩) ولو كان صفة لم يضف اليوم إليه؛ وبهذا كان يحتج أبو عمرو على قراءته؛ واختاره أبو حاتم. واختار أبو عبيد القراءة الثانية وقال: لا تصح حجة أبي عمرو؛ لأنه أضاف اليوم إلى النحس فأسكن، وإنما كان يكون حجة لو نون اليوم ونعت وأسكن؛ فقال: ﴿ في يوم نحس ﴾ (القمر: ١٩) وهذا لم يقرأ به أحد نعلمه. وقال المهدوي: ولم يسمع في "نحس" إلا الإسكان. قال الجوهري: وقرئ في قوله: ﴿ في يوم نحس ﴾ (القمر: ١٩) على الصفة، والإضافة أكثر وأجود. وقد نحس الشيء بالكسر فهو نحس أيضا؛ قال الشاعر:

أبلغ جذاما ولخما أن إخوتهم طيا وبهراء قوم نصرهم نحس

ومنه قيل: أيام نحسات. ﴿ لنذيقهم ﴾ أي لكي نذيقهم ﴿ عذاب الخزي في الحياة الدنيا ﴾ بالريح العقيم. ﴿ ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ أي أعظم وأشد ﴿ وهم لا ينصرون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ أي بينا لهم الهدى والضلال؛ عن ابن عباس وغيره. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وغيرهما "وأما ثمود" بالنصب وقد مضى الكلام فيه في "الأعراف". ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان. وقال أبو العالية: اختاروا العمى على البيان. السدي: اختاروا المعصية على الطاعة. ﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ "الهون" بالضم الهوان. وهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر أخو كنانة وأسد. وأهانه: استخف به. والاسم الهوان والمهانة. وأضيف الصاعقة إلى العذاب، لأن الصاعقة اسم للمبيد المهلك، فكأنه قال مهلك العذاب؛ أي العذاب المهلك. والهون وإن كان مصدرا فمعناه الإهانة والإهانة عذاب، فجاز أن يجعل أحدهما وصفا للآخر؛ فكأنه قال: صاعقة الهون. وهو كقولك: عندي علم اليقين، وعندي العلم اليقين. ويجوز أن يكون الهون اسما مثل الدون؛ يقال: عذاب هون أي مهين؛ كما قال: ﴿ ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ (سبأ: ١٤). وقيل: أي صاعقة العذاب ذي الهون. ﴿ بما كانوا

يكسبون ﴾ من تكذيبهم صالحا وعقرهم الناقة، على ما تقدم. ﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ يعني صالحا ومن آمن به؛ أي ميزناهم عن الكفار، فلم يحل بهم ما حل بالكفار، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمني قومك وكفارهم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ قرأ نافع "نحشر" بالنون "أعداء" بالنصب. الباقون "يحشر" بياء مضمومة "أعداء" بالرفع ومعناهما بين. وأعداء الله: الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره. "فهم يوزعون" يساقون ويدفعون إلى جهنم. قال قتادة والسدي: يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا؛ قال أبو الأحوص: فإذا تكاملت العدة بدئ بالأكابر فالأكابر جرما. وقد مضى في "النمل" الكلام في ﴿ يوزعون ﴾ (النمل: ١٧) مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ حتى إذا ما جاءوها ﴾ "ما" زائدة ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ الجلود يعني بها الجلود بأعيانها في قول أكثر المفسرين. وقال السدي وعبيد الله بن أبي جعفر والفراء: أراد بالجلود الفروج؛ وأنشد بعض الأدباء لعامر بن جوَيَّة:

المـــرء يســـعى للســـلا ـــة والســلامة حســـبه
أو ســـالم مـــن قـد تـثـــ ـــنى جلده وابيض رأسه

وقال: جلده كناية عن فرجه. ﴿ وقالوا ﴾ يعني الكفار ﴿ لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ وإنما كنا نجادل عنكم ﴿ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ لما خاطبت وخوطبت أجريت مجرى من يعقل. ﴿ وهو خلقكم أول مرة ﴾ أي ركب الحياة فيكم بعد أن كنتم نطفا، فمن قدر عليه قدر على أن ينطق الجلود وغيرها من الأعضاء. وقيل: "وهو خلقكم أول مرة" ابتداء كلام من الله. ﴿ وإليه ترجعون ﴾ وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: (هل تدرون مم أضحك) قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال: يقول بلى قال فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني قال يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي فتنطق بأعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام قال فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل)[1] وفي حديث أبي هريرة ثم يقال: (الآن نبعث شاهدنا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي سخط الله عليه) خرَّجه أيضا مسلم[2].

---

(١) أخرجه مسلم في "الزهد"، (٢٩٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في "الزهد"، (٢٩٦٨).

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ (٢٤) ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ (٢٥) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لـهم ويجوز أن يكون من قول الله عز وجل أو الملائكة. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر؛ قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي؛ قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا؛ وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ﴾[1] الآية؛ خرجه الترمذي فقال: اختصم عند البيت ثلاثة نفر. ثم ذكره بلفظه حرفا حرفا وقال: حديث حسن صحيح؛ حدثنا هناد قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم، قرشي وختناه ثقفيان، أو ثقفي وختناه قرشيان، فتكلموا بكلام لم أفهمه؛ فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا، فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفع أصواتنا لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئا سمعه كلـه فقال عبد الله: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ إلى قولـه: ﴿ فأصبحتم من الخاسرين ﴾ قال: هذا حديث حسن صحيح. قال الثعلبي: والثقفي عبد ياليل، وختناه ربيعة وصفوان بن أمية. ومعنى "تستترون" تستخفون في قول أكثر العلماء؛ أي ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذرا من شهادة الجوارح عليكم؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يخفي من نفسه عملـه، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية. وقيل: الاستتار بمعنى الاتقاء؛ أي ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة فتتركوا المعاصي خوفا من هذه الشهادة. وقال معناه مجاهد. وقال قتادة: "وما كنتم تستترون" أي تظنون "أن يشهد عليكم سمعكم" بأن يقول سمعت الحق وما وعيت وسمعت ما لا يجوز من المعاصي "ولا أبصاركم" فتقول رأيت آيات الله وما اعتبرت ونظرت فيما لا يجوز "ولا جلودكم" تقدم. ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ﴾ من أعمالكم فجادلتم على ذلك حتى شهدت عليكم جوارحكم بأعمالكم. روى بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ في قولـه: ﴿ أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ قال: (إنكم تدعون يوم

---

(١) أخرجه البخاري في "التفسير"، (٤٨١٧)، ومسلم (٢٧٧٥).

القيامة مفدمة أفواهكم بفدام فأول ما يبين عن الإنسان فخذه وكفه) قال عبد الله بن عبد الأعلى الشامي فأحسن.

العمـــر يـــنقص والذنـــوب تـــزيد   وتقـــال عـــثرات الفـــتى فـــيعود
هـــل يســـتطيع جحـــود ذنـــب واحـــد   رجـــل جوارحـــه علـــيه شـــهود
والمـــــرء يســـــأل عـــن ســـنيه فيشتهي   تقليلـــــــها وعـــــن الممات يحيد

وعن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: (ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادي فيه يا ابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل غدا عليك شهيد فاعمل في خيرا أشهد لك به غدا فإني لو قد مضيت لم ترني أبدا ويقول الليل مثل ذلك)[1] ذكره أبو نعيم الحافظ وقد ذكرناه في كتاب التذكرة في باب شهادة الأرض والليالي والأيام والمال. وقال محمد بن بشير فأحسن:

مضـى أمسـك الأدنـى شـهيدا معـدلا   ويومـك هـذا بالفعـال شـهيد
فـإن تـك بـالأمس اقترفـت إسـاءة   فـثن بإحسـان وأنـت حميـد
ولا تـرج فعـل الخـير منـك إلى غد   لعـل غـدا يأتـي وأنـت فقيد

قوله تعالى: ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ أي أهلككم فأوردكم النار. قال قتادة: الظن هنا بمعنى العلم. وقال النبي ﷺ: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله فإن قوما أساؤوا الظن بربهم فأهلكهم)[2] فذلك قوله: "وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم". وقال الحسن البصري: إن قوما ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة، ويقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي وكذب، ولو أحسن الظن لأحسن العمل، وتلا قول الله تعالى: ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾. وقال قتادة: من استطاع منكم أن يموت وهو حسن الظن بربه فليفعل، فإن الظن اثنان ظن ينجي وظن يردي. وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية: هؤلاء قوم كانوا يدمنون المعاصي ولا يتوبون منها ويتكلمون على المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس، ثم قرأ: "وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين".

قوله تعالى: ﴿ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ﴾ أي فإن يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوى لهم. نظيره: ﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ (البقرة: ١٧٥) على ما تقدم. ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ في الدنيا وهم مقيمون على كفرهم "فما هم من المعتبين". وقيل: المعنى "فإن يصبروا" في النار أو يجزعوا "فالنار مثوى لهم" أي لا محيص لهم عنها، ودل على الجزع قوله: "وإن يستعتبوا" لأن المستعتب جزع والمعتب المقبول عتابه؛ قال النابغة:

فـإن أك مظلومـــا فعبد ظلمته   وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب

أي مثلك من قبل الصلح والمراجعة إذا سئل. قال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة. تقول: عاتبته معاتبة، وبينهم أعتوبة يتعاتبون بها. يقال: إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب. وأعتبني

---

(١) "ضعيف".

(٢) "صحيح" أخرجه مسلم وأحمد وغيرهما دون قوله: فإن قوماً... إلخ.

فلان: إذا عاد إلى مسرتي راجعا عن الإساءة، والاسم منه العتبى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب. واستعتب وأعتب بمعنى، واستعتب أيضا طلب أن يعتب؛ تقول: استعتبته فأعتبني أي استرضيته فأرضاني. فمعنى "وإن يستعتبوا" أي طلبوا الرضا لم ينفعهم ذلك بل لا بد لـهم من النار. وفي التفاسير: وإن يستقيلوا ربهم فما هم من المقالين. وقرأ عبيد بن عمير وأبو العالية "وإن يستعتبوا" بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول "فما هم من المعتبين" بكسر التاء أي إن أقالـهم الله وردهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لما سبق لـهم في علم الله من الشقاء، قال الله تعالى: ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ (الأنعام: ٢٨) ذكره الـهروي. وقال ثعلب: يقال أعتب إذا غضب وأعتب إذا رضي.

قولـه تعالى: ﴿ وقيضنا لـهم قرناء ﴾ قال النقاش: أي هيأنا لـهم شياطين. وقيل: سلطنا عليهم قرناء يزينون عندهم المعاصي، وهؤلاء القرناء من الجن والشياطين ومن الإنس أيضا؛ أي سببنا لـهم قرناء؛ يقال: قيض الله فلانا لفلان أي جاءه به وأتاحه لـه، ومنه قولـه تعالى: ﴿وقيضنا لـهم قرناء ﴾. القشيري: ويقال قيض الله لي رزقا أي أتاحه كما كنت أطلبه، والتقييض الإبدال ومنه المقايضة، قايضت الرجل مقايضة أي عاوضته بمتاع، وهما قيضان كما تقول بيعان. ﴿ فزينوا لـهم ما بين أيديهم ﴾ من أمر الدنيا فحسنوه لـهم حتى آثروه على الآخرة ﴿وما خلفهم﴾ حسنوا لـهم ما بعد مماتهم ودعوهم إلى التكذيب بأمور الآخرة؛ عن مجاهد. وقيل: المعنى "قيضنا لـهم قرناء" في النار "فزينوا لـهم" أعمالـهم في الدنيا؛ والمعنى قدرنا عليهم أن ذلك سيكون وحكمنا به عليهم. وقيل: المعنى أحوجناهم إلى الأقران؛ اي أحوجنا الفقير إلى الغني لينال منه، والغني إلى الفقير ليستعين به فزين بعضهم لبعض المعاصي. وليس قولـه: "وما خلفهم" عطفا على "ما بين أيديهم" بل المعنى وأنسوهم ما خلفهم ففيه هذا الإضمار. قال ابن عباس: "ما بين أيديهم" تكذيبهم بأمور الآخرة "وما خلفهم" التسويف والترغيب في الدنيا. الزجاج: "ما بين أيديهم" ما عملوه "وما خلفهم" ما عزموا على أن يعملوه. وقد تقدم قول مجاهد. وقيل: المعنى لـهم مثل ما تقدم من المعاصي "وما خلفهم" ما يعمل بعدهم. ﴿ وحق عليهم القول في أمم ﴾ أي وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأمم الذين من قبلـهم الذين كفروا ككفرهم. وقيل: "في" بمعنى مع؛ فالمعنى هم داخلون مع الأمم الكافرة قبلـهم فيما دخلوا فيه. وقيل: "في أمم" في جملة أمم، ومثلـه قول الشاعر (عمرو بن أذينة):

إن تك عن أحسن الصنيعة مأ فـوكا ففـي آخـرين قد أفكوا

يريد فأنت في جملة آخرين لست في ذلك بأوحد. ومحل "في أمم" النصب على الحال من الضمير في "عليهم" أي حق عليهم القول كائنين في جملة أمم. ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ أعمالـهم في الدنيا وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ

أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لـهذا القرآن والغوا فيه ﴾ لما أخبر تعالى عن كفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مشركي قريش وأنهم كذبوا القرآن فقالوا: "لا تسمعوا". وقيل: معنى "لا تسمعوا" لا تطيعوا؛ يقال: سمعت لك أي أطعتك. "والغوا فيه" قال ابن عباس: قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول. وقيل: إنهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرآن. وقال مجاهد: المعنى "والغوا فيه" بالمكاء والتصفيق والتخليط في المنطق حتى يصير لغوا. وقال الضحاك: أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول. وقال أبو العالية وابن عباس أيضا: قعوا فيه وعيبوه. ﴿ لعلكم تغلبون ﴾ محمدا على قراءته فلا يظهر ولا يستميل القلوب. وقرأ عيسى بن عمر والجحدري وابن أبي إسحاق وأبو حيوة وبكر بن حبيب السهمي "والغوا" بضم الغين وهي لغة من لغا يلغو. وقراءة الجماعة من لغي يلغى. قال الـهروي: وقولـه: "والغوا فيه" قيل: عارضوه بكلام لا يفهم. يقال: لغوت ألغو وألغى، ولغي يلغى ثلاث لغات. وقد مضى معنى اللغو في "البقرة" وهو ما لا يعلم لـه حقيقة ولا تحصيل.

قولـه تعالى: ﴿ فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ﴾ قد تقدم أن الذوق يكون محسوسا، ومعنى العذاب الشديد: ما يتوالى فلا ينقطع. وقيل: هو العذاب في جميع أجزائهم. ﴿ ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون ﴾ أي ولنجزينهم في الآخرة جزاء قبح أعمالـهم التي عملوها في الدنيا. وأسوأ الأعمال الشرك. قولـه تعالى: ﴿ ذلك جزاء أعداء الله النار ﴾ أي ذلك العذاب الشديد، ثم بينه بقولـه "النار" وقرأ ابن عباس "ذلك جزاء أعداء الله النار دار الخلد" فترجم بالدار عن النار وهو مجاز الآية. و"ذلك" ابتداء و"جزاء" الخبر و"النار" بدل من "جزاء" أو خبر مبتدأ مضمر، والجملة في موضع بيان للجملة الأولى.

قولـه تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ يعني في النار فذكره بلفظ الماضي والمراد المستقبل ﴿ ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس ﴾ يعني إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه. عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما؛ ويشهد لـهذا القول الحديث المرفوع: (ما من مسلم يقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من ذنبه لأنه أول من سن القتل) خرّجه الترمذي[١]، وقيل: هو بمعنى الجنس وبني على التثنية لاختلاف الجنسين. ﴿ نجعلـهما تحت أقدامنا ﴾ سألوا ذلك حتى يشتفوا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامهم ﴿ليكونا من الأسفلين﴾ في النار وهو الدرك الأسفل. سألوا أن يضعف الله عذاب من كان سبب ضلالتهم من الجن والإنس. وقرأ ابن محيصن والسوسي عن أبي عمرو وابن عامر وأبو بكر

(١) أخرجه البخاري في "أحاديث الأنبياء"، (٣٣٣٥)، وفي غير موضع، ومسلم في "القسامة"، (١٦٧٧)، والترمذي (٢٦٧٣) واللفظ له.

والمفضل "أرنا" بإسكان الراء، وعن أبي عمرو أيضا باختلاسها. وأشبع الباقون كسرتها وقد تقدم في "الأعراف".

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ قال عطاء عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق ﷺ؛ وذلك أن المشركين قالوا ربنا الله والملائكة بناته وهؤلاء شفعاؤنا عند الله؛ فلم يستقيموا. وقال أبو بكر: ربنا الله وحده لا شريك لـه ومحمد ﷺ عبده ورسولـه؛ فاستقام. وفي الترمذي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قرأ "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا" قال: (قد قال الناس ثم كفر أكثرهم فمن مات عليها فهو ممن استقام)[1] قال: حديث غريب. ويروى في هذه الآية عن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي معنى "استقاموا"؛ ففي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ـ وفي رواية ـ غيرك. قال: (قل آمنت بالله ثم استقم)[2] زاد الترمذي قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه وقال: (هذا). وروي عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: "ثم استقاموا" لم يشركوا بالله شيئا. وروى عنه الأسود بن هلال أنه قال لأصحابه: ما تقولون في هاتين الآيتين "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا" و"الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم" فقالوا: استقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بخطيئة؛ فقال أبو بكر: لقد حملتموها على غير المحمل "قالوا ربنا الله ثم استقاموا" فلم يلتفتوا إلى إلـه غيره "ولم يلبسوا إيمانهم" بشرك "أولئك لـهم الأمن وهم مهتدون". وروي عن عمر ﷺ أنه قال على المنبر وهو يخطب: "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا" فقال: استقاموا والله على الطريقـه لطاعته ثم لم يروغوا روغان الثعالب. وقال عثمان ﷺ: ثم أخلصوا العمل لله. وقال علي ﷺ: ثم أدوا الفرائض. وأقوال التابعين بمعناها. قال ابن زيد وقتادة: استقاموا على الطاعة لله. الحسن: استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته. وقال مجاهد وعكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إلـه إلا الله حتى ماتوا. وقال سفيان الثوري: عملوا على وفاق ما قالوا. وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله. وقال الفضيل بن عياض: زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية. وقيل: استقاموا إسرارا كما استقاموا إقرارا. وقيل: استقاموا فعلا كما استقاموا قولا. وقال أنس: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: (هم أمتي ورب الكعبة). وقال الإمام ابن فورك: السين سين الطلب مثل استسقى أي سألوا من الله أن يثبتهم على الدين. وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥٠)، وسنده ضعيف.

(٢) أخرجه مسلم (٣٨).

قلت: وهذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها: اعتدلوا على طاعة الله عقدا وقولا وفعلا، وداموا على ذلك. ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ قال ابن زيد ومجاهد: عند الموت. وقال مقاتل وقتادة: إذا قاموا من قبورهم للبعث. وقال ابن عباس: هي بشرى تكون لـهم من الملائكة في الآخرة. وقال وكيع وابن زيد: البشرى في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث. ﴿ ألا تخافوا ﴾ أي بـ "ألا تخافوا" فحذف الجار. وقال مجاهد: لا تخافوا الموت ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على أولادكم فإن الله خليفتكم عليهم. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول، ﴿ ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم ﴾. وقال عكرمة: ولا تخافوا أمامكم، ولا تحزنوا على ذنوبكم. ﴿ وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾.

قولـه تعالى: ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ أي تقول لـهم الملائكة الذين تتنزل عليهم بالبشارة "نحن أولياؤكم" قال مجاهد: أي نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قالوا لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة. وقال السدي: أي نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة. ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى؛ والله ولي المؤمنين ومولاهم. ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ أي من الملاذ. ﴿ ولكم فيها ما تدعون ﴾ تسألون وتتمنون. ﴿ نزلا ﴾ أي رزقا وضيافة من الله الغفور الرحيم. وقد تقدم في "آل عمران" وهو منصوب على المصدر أي أنزلناه نزلا. وقيل: على الحال. وقيل: هو جمع نازل، أي لكم ما تدعون نازلين، فيكون حالا من الضمير المرفوع في "تدعون" أو من المجرور في "لكم".

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ﴾ هذا توبيخ للذين تواصوا باللغو في القرآن. والمعنى: أي كلام أحسن من القرآن، ومن أحسن قولا من الداعي إلى الله وطاعته وهو محمد ﷺ. قال ابن سيرين والسدي وابن زيد والحسن: هو رسول الله ﷺ. وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله؛ أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه. وقالت عائشة رضي الله عنها وعكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد: نزلت في المؤذنين. قال فضيل بن رفيدة: كنت مؤذنا لأصحاب عبد الله بن مسعود، فقال لي عاصم بن هبيرة: إذا أذنت فقلت: الله أكبر الله أكبر لا إلـه إلا الله، فقل وأنا من المسلمين؛ ثم قرأ هذه الآية؛ قال ابن العربي: الأول أصح؛ لأن الآية مكية والأذان مدني؛ وإنما يدخل فيها بالمعنى؛ لا أنه كان المقصود وقت القول، ويدخل فيها أبو بكر الصديق حين قال في النبي ﷺ وقد خنقه الملعون: ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ﴾ (غافر: ٢٨) وتتضمن كل كلام حسن فيه ذكر التوحيد والإيمان.

قلت: وقول ثالث وهو أحسنها؛ قال الحسن: هذه الآية عامة في كل من دعا إلى الله. وكذا قال قيس بن أبي حازم قال: نزلت في كل مؤمن. قال: ومعنى "وعمل صالحا" الصلاة بين الأذان والإقامة. وقاله أبو أمامة؛ قال: صلى ركعتين بين الأذآن والإقامة. وقال عكرمة: "وعمل صالحا" صلى وصام. وقال الكلبي: أدى الفرائض.

قلت: وهذا أحسنها مع اجتناب المحارم وكثرة المندوب. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وقال إنني من المسلمين ﴾ قال ابن العربي: وما تقدم يدل على الإسلام، لكن لما كان الدعاء بالقول والسيف يكون للاعتقاد ويكون للحجة، وكان العمل يكون للرياء والإخلاص، دل على أنه لا بد من التصريح بالاعتقاد لله في ذلك كله، وأن العمل لوجهه.

مسألة: لما قال الله تعالى: ﴿ وقال إنني من المسلمين ﴾ ولم يقل له اشترط إن شاء الله، كان في ذلك رد على من يقول أنا مسلم إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ قال الفراء: "لا" صلة أي "ولا تستوي الحسنة" والسيئة وأنشد:

ما كان يرضى رسول الله فعلهم والطيبان أبو بكر ولا عمر

أراد أبو بكر وعمر؛ أي لا يستوي ما أنت عليه من التوحيد، وما المشركون عليه من الشرك. قال ابن عباس: الحسنة لا إله إلا الله، والسيئة الشرك. وقيل: الحسنة الطاعة، والسيئة الشرك. وهو الأول بعينه. وقيل: الحسنة المداراة، والسيئة الغلظة. وقيل: الحسنة العفو، والسيئة الانتصار. وقال الضحاك: الحسنة العلم، والسيئة الفحش. وقال علي بن أبي طالب ﷺ: الحسنة حب آل الرسول، والسيئة بغضهم.

قوله تعالى: ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ نسخت بآية السيف، وبقي المستحب من ذلك: حسن العشرة والاحتمال والإغضاء. قال ابن عباس: أي ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك. وعنه أيضا: هو الرجل يسب الرجل فيقول الآخر إن كنت صادقا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك. وكذلك يروى في الأثر: أن أبا بكر الصديق ﷺ قال ذلك لرجل نال منه. وقال مجاهد: "بالتي هي أحسن" يعني السلام إذا لقي من يعاديه؛ وقاله عطاء. وقول ثالث ذكره القاضي أبو بكر بن العربي في الأحكام وهو المصافحة. وفي الأثر: (تصافحوا يذهب الغل)[1]. ولم ير مالك المصافحة، وقد اجتمع مع سفيان فتكلما فيها فقال سفيان: قد صافح رسول الله ﷺ جعفرا حين قدم من أرض الحبشة؛ فقال له مالك: ذلك خاص. فقال له سفيان: ما خص رسول الله ﷺ يخصنا، وما عمه يعمنا، والمصافحة ثابتة فلا وجه لإنكارها. وقد روى قتادة قال قلت لأنس: هل كانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وهو حديث صحيح. وفي الأثر: (من تمام المحبة الأخذ

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٢٤٣٨).

باليد)[1]. ومن حديث محمد بن إسحاق وهو إمام مقدم، عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله ﷺ في بيتي، فقرع الباب فقام إليه رسول الله ﷺ عريانا يجر ثوبه ـ والله ما رأيته عريانا قبله ولا بعده ـ فاعتنقه وقبله[2].

قلت: قد روي عن مالك جواز المصافحة وعليها جماعة من العلماء. وقد مضى ذلك في "يوسف" وذكرنا هناك حديث البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودة بينهما ونصيحة إلا ألقيت ذنوبهما بينهما)[3].

قوله تعالى: ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ أي قريب صديق. قال مقاتل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان مؤذيا للنبي ﷺ، فصار له وليا بعد أن كان عدوا بالمصاهرة التي وقعت بينه وبين النبي ﷺ، ثم أسلم فصار وليا في الإسلام حميما بالقرابة. وقيل: هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام، كان يؤذي النبي ﷺ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصفح عنه؛ ذكره الماوردي. والأول ذكره الثعلبي والقشيري وهو أظهر؛ لقوله تعالى: "فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم". وقيل: كان هذا قبل الأمر بالقتال. قال ابن عباس: أمره الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم. وروي أن رجلا شتم قنبرا مولى علي بن أبي طالب فناداه علي يا قنبر دع شاتمك، واله عنه ترضي الرحمن وتسخط الشيطان، وتعاقب شاتمك، فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه. وأنشدوا:

وللكف عن شتم اللئيم تكرما ... أضر له من شتمه حين يشتم

وقال آخر:

وما شيء أحب إلى سفيه ... إذا سب الكريم من الجواب

متاركة السفيه بلا جواب ... أشد على السفيه من السباب

وقال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه لدي الجرائم

فما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم

فأما الذي فوقي فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم

وأما الذي دوني فإن قال صنت عن ... إجابته عرضي وإن لام لائم

وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا ... تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

﴿ وما يلقاها ﴾ يعني هذه الفعلة الكريمة والخصلة الشريفة ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ بكظم الغيظ واحتمال الأذى. وقيل: الكناية في "يلقاها" عن الجنة؛ أي ما يلقاها إلا الصابرون؛ والمعنى متقارب. ﴿ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ أي نصيب وافر من الخير؛ قاله ابن عباس. وقال قتادة ومجاهد:

---

(١) "ضعيف" أخرجه الترمذي (٢٧٣٠)، وضعفه الحافظ في "الفتح"، (١١/ ٥٦).

(٢) ضعيف.

(٣) "حسن" بنحوه في صحيح الجامع (٥٧٧٧، ٥٧٧٨).

الحظ العظيم الجنة. قال الحسن: والله ما عظم حظ قط دون الجنة. قوله تعالى: ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾ تقدم في آخر "الأعراف" مستوفى. ﴿ فاستعذ بالله ﴾ من كيده وشره ﴿ إنه هو السميع ﴾ لاستعاذتك ﴿ العليم ﴾ بأفعالك وأقوالك.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ومن آياته ﴾ علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿ الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ وقد مضى في غير موضع. ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ﴾ نهى عن السجود لهما؛ لأنهما وإن كانا خلقين فليس ذلك لفضيلة لهما في أنفسهما فيستحقان بها العبادة مع الله؛ لأن خالقهما هو الله ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورهما. ﴿ واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ وصورهن وسخرهن؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار. وقيل: للشمس والقمر خاصة؛ لأن الاثنين جمع. وقيل: الضمير عائد على معنى الآيات ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾وإنما أنث على جمع التكثير ولم يجر على طريق التغليب للمذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل. ﴿ فإن استكبروا ﴾ يعني الكفار عن السجود لله ﴿ فالذين عند ربك ﴾ من الملائكة ﴿ يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ أي لا يملون عبادته. قال زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

مسألة: هذه الآية آية سجدة بلا خلاف؛ واختلفوا في موضع السجود منها. فقال مالك: موضعه "إن كنتم إياه تعبدون"؛ لأنه متصل بالأمر. وكان علي وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله: "تعبدون". وقال ابن وهب والشافعي: موضعه "وهم لا يسأمون" لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال. وبه قال أبو حنيفة. وكان ابن عباس يسجد عند قوله: "يسأمون". وقال ابن عمر: اسجدوا بالآخرة منهما. وكذلك يروى عن مسروق وأبي عبد الرحمن السلمي وإبراهيم النخعي وأبي صالح ويحيى بن وثاب وطلحة وزبيد اليامين والحسن وابن سيرين. وكان أبو وائل وقتادة وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله: "يسأمون". قال ابن العربي: والأمر قريب.

مسألة: ذكر ابن خويز منداد: أن هذه الآية تضمنت صلاة كسوف القمر والشمس؛ وذلك أن العرب كانت تقول: إن الشمس والقمر لا يكسفان إلا لموت عظيم، فصلى النبي ﷺ صلاة الكسوف.

قلت: صلاة الكسوف ثابتة في الصحاح البخاري ومسلم وغيرهما. واختلفوا في كيفيتها اختلافا كثيرا، لاختلاف الآثار، وحسبك ما في صحيح مسلم من ذلك، وهو العمدة في الباب. والله الموفق للصواب.

قولـه تعالى: ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ﴾ الخطاب لكل عاقل أي ومن آياته الدالة على أنه يحيي الموتى "أنك ترى الأرض خاشعة" أي يابسة جدبة؛ هذا وصف الأرض بالخشوع؛ قال النابغة:

رمـاد ككـحل العـين لأيا أبينـــه ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

والأرض الخاشعة؛ الغبراء التي تنبت. وبلدة خاشعة: أي مغبرة لا منزل بها. ومكان خاشع. ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ﴾ أي بالنبات؛ قاله مجاهد. يقال: اهتز الإنسان أي تحرك؛ ومنه:

تراه كنصـل الســـيف يهتز للندى إذا لم تجد عند امرئ السوء مطمعا

﴿ وربت ﴾ أي انتفخت وعلت قبل أن تنبت؛ قاله مجاهد. أي تصعدت عن النبات بعد موتها. وعلى هذا التقدير يكون في الكلام تقديم وتأخير وتقديره: ربت واهتزت. والاهتزاز والربو قد يكونان قبل الخروج من الأرض؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض؛ فربوها ارتفاعها. ويقال للموضع المرتفع: ربوة ورابية؛ فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد في جسمه بالكبر طولا وعرضا. وقرأ أبو جعفر وخالد "وربأت" ومعناه عظمت؛ من الربيئة. وقيل: "اهتزت" أي استبشرت بالمطر "وربت" أي انتفخت بالنبات. والأرض إذا انشقت بالنبات: وصفت بالضحك، فيجوز وصفها بالاستبشار أيضا. ويجوز أن يقال الربو والاهتزاز واحد؛ وهي حالة خروج النبات. وقد مضى هذا المعنى في "الحج" ﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ تقدم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا ﴾ أي يميلون عن الحق في أدلتنا. والإلحاد: الميل والعدول. ومنه اللحد في القبر؛ لأنه أميل إلى ناحية منه. يقال: ألحد في دين الله أي حاد عنه وعدل. ولحد لغة فيه. وهذا يرجع إلى الذين قالوا: "لا تسمعوا لـهذا القرآن والغوا فيه" وهم الذين ألحدوا في آياته ومالوا عن الحق فقالوا: ليس القرآن من عند الله، أو هو شعر أو سحر؛ فالآيات آيات القرآن. قال مجاهد: "يلحدون في آياتنا" أي عند تلاوة القرآن بالمكاء والتصدية واللغو والغناء. وقال ابن عباس: هو تبديل الكلام ووضعه في غير موضعه. وقال قتادة: "يلحدون في

آياتنا" يكذبون في آياتنا. وقال السدي: يعاندون ويشاقون. وقال ابن زيد: يشركون ويكذبون. والمعنى متقارب. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل. وقيل: الآيات المعجزات، وهو يرجع إلى الأول فإن القرآن معجز. ﴿أفمن يلقى في النار﴾ على وجهه وهو أبو جهل في قول ابن عباس وغيره. ﴿خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة﴾ قيل: النبي ﷺ؛ قاله مقاتل. وقيل: عمار بن ياسر. وقيل: حمزة. وقيل: عمر بن الخطاب. وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي. وقيل: المؤمنون. وقيل: إنها على العموم؛ فالذي يلقى في النار الكافر، والذي يأتي آمنا يوم القيامة المؤمن؛ قاله ابن بحر. ﴿اعملوا ما شئتم﴾ أمر تهديد؛ أي بعدما علمتم أنهما لا يستويان فلا بد لكم من الجزاء. ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ وعيد بتهديد وتوعد.

قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ الذكر ها هنا القرآن في قول الجميع؛ لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام. والخبر محذوف تقديره هالكون أو معذبون. وقيل: الخبر ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ (فصلت: ٤٤) واعترض قوله: "ما يقال لك" ثم رجع إلى الذكر فقال: ﴿ولو جعلناه قرآنا أعجميا﴾ ثم قال: ﴿أولئك ينادون﴾ (فصلت: ٤٤) والأول الاختيار؛ قال النحاس: عند النحويين جميعا فيما علمت. ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ أي عزيز على الله؛ قاله ابن عباس؛ وعنه: عزيز من عند الله. وقيل: كريم على الله. وقيل: "عزيز" أي أعزه الله فلا يتطرق إليه باطل. وقيل: ينبغي أن يعز ويجل وألا يلغى فيه. وقيل: "عزيز" من الشيطان أن يبدله؛ قاله السدي. مقاتل: منع من الشيطان والباطل. السدي: غير مخلوق فلا مثل له. وقال ابن عباس أيضا: "عزيز" أي ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله. ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أي لا يكذبه شيء مما أنزل الله من قبل ولا ينزل من بعده كتاب يبطله وينسخه؛ قاله الكلبي. وقال السدي وقتادة: "لا يأتيه الباطل" يعني الشيطان "من بين يديه ولا من خلفه" لا يستطيع أن يغير ولا يزيد ولا ينقص. وقال سعيد بن جبير: لا يأتيه التكذيب "من بين يديه ولا من خلفه". ابن جريج: "لا يأتيه الباطل" فيما أخبر عما مضى ولا فيما أخبر عما يكون. وعن ابن عباس: "من بين يديه" من الله تعالى "ولا من خلفه" يريد من جبريل ﷺ، ولا من محمد ﷺ. ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ ابن عباس: "حكيم" في خلقه "حميد" إليهم. قتادة: "حكيم" في أمره "حميد" إلى خلقه.

قوله تعالى: ﴿ما يقال لك﴾ أي من الأذى والتكذيب ﴿إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ يعزي نبيه ويسليه ﴿إن ربك لذو مغفرة﴾ لك ولأصحابك ﴿وذو عقاب أليم﴾ يريد لأعدائك وجيعا. وقيل: أي ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلا ما قد أوحي إلى من قبلك، ولا خلاف بين الشرائع فيما يتعلق بالتوحيد، وهو كقوله: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ (الزمر: ٦٥) أي لم تدعهم إلا إلى ما تدعو إليه جميع الأنبياء، فلا معنى لإنكارهم عليك. وقيل: هو استفهام، أي: أي شيء يقال لك "إلا ما قد قيل للرسل من قبلك". وقيل: "إن ربك" كلام مبتدأ وما قبله كلام تام إذا كان الخبر مضمرا. وقيل: هو متصل بـ "ما يقال لك". "إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم" أي إنما أمرت بالإنذار والتبشير.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ (٤٤) ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجميا ﴾ أي بلغة غير العرب ﴿ لقالوا لولا فصلت آياته ﴾ أي بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم الأعجمية. فبين أنه أنزله بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز؛ إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظما ونثرا. وإذا عجزوا عن معارضته كان من أدل الدليل على أنه من عند الله، ولو كان بلسان العجم لقالوا لا علم لنا بهذا اللسان.

الثانية: وإذا ثبت هذا ففيه دليل على أن القرآن عربي، وأنه نزل بلغة العرب، وأنه ليس أعجميا، وأنه إذا نقل عنها إلى غيرها لم يكن قرآنا.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ أأعجمي وعربي ﴾ وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي "آأعجمي وعربي" بهمزتين مخففتين، والعجمي الذي ليس من العرب كان فصيحا أو غير فصيح، والأعجمي الذي لا يفصح كان من العرب أو من العجم، فالأعجم ضد الفصيح وهو الذي لا يبين كلامه. ويقال للحيوان غير الناطق أعجم، ومنه (صلاة النهار عجماء) أي لا يجهر فيها بالقراءة فكانت النسبة إلى الأعجم آكد، لأن الرجل العجمي الذي ليس من العرب قد يكون فصيحا بالعربية، والعربي قد يكون غير فصيح؛ فالنسبة إلى الأعجمي آكد في البيان. والمعنى أقرآن أعجمي، ونبي عربي؟ وهو استفهام إنكار. وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وهشام عن ابن عامر "أعجمي" بهمزة واحدة على الخبر. والمعنى "لولا فصلت آياته" فكان منها عربي يفهمه العرب، وأعجمي يفهمه العجم. وروى سعيد بن جبير قال: قالت قريش: لولا أنزل القرآن أعجميا وعربيا فيكون بعض آياته عجميا وبعض آياته عربيا فنزلت الآية. وأنزل في القرآن من كل لغة فمنه "السجيل" وهي فارسية وأصلها سنك كيل؛ أي طين وحجر، ومنه "الفردوس" رومية وكذلك "القسطاس" وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وابن ذكوان وحفص على الاستفهام، إلا أنهم لينوا الهمزة على أصولهم. والقراءة الصحيحة قراءة الاستفهام. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ أعلم الله أن القرآن هدى وشفاء لكل من آمن به من الشك والريب والأوجاع. ﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ﴾ أي صمم عن سماع القرآن. ولهذا تواصوا باللغو فيه. ونظير هذه الآية: ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ (الإسراء: ٨٢) وقد مضى مستوفى. وقراءة العامة ﴿ عمى ﴾ على المصدر. وقرأ ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو بن العاص ومعاوية وسليمان بن قتة "وهو عليهم عم"

بكسر الميم أي لا يتبين لـهم. واختار أبو عبيد القراءة الأولى؛ لإجماع الناس فيها؛ ولقوله أولا: "هدى وشفاء" ولو كان هاد وشاف لكان الكسر في "عمى" أجود؛ ليكون نعتا مثلـهما؛ تقديره: "والذين لا يؤمنون" في ترك قبوله بمنزلة من في آذانهم "وقر وهو" . يعني القرآن "عليهم" ذو عمى، لأنهم لا يفقهون فحذف المضاف. وقيل: المعنى والوقر عليهم عمى. ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل. وحكى أهل اللغة أنه يقال للذي يفهم: أنت تسمع من قريب. ويقال للذي لا يفهم: أنت تنادى من بعيد. أي كأنه ينادى من موضع بعيد منه فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه. وقال الضحاك: "ينادون" يوم القيامة بأقبح أسمائهم "من مكان بعيد" فيكون ذلك أشد لتوبيخهم وفضيحتهم. وقيل: أي من لم يتدبر القرآن صار كالأعمى الأصم، فهو ينادى من مكان بعيد فينقطع صوت المنادي عنه وهو لم يسمع. وقال علي ﷺ ومجاهد: أي بعيد من قلوبهم. وفي التفسير: كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون. وحكى معناه النقاش.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة ﴿ فاختلف فيه ﴾ أي آمن به قوم وكذب به قوم. والكناية ترجع إلى الكتاب، وهو تسلية للنبي ﷺ؛ أي لا يحزنك اختلاف قومك في كتابك، فقد اختلف من قبلـهم في كتابهم. وقيل: الكناية ترجع إلى موسى. ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ أي في إمهالـهم. ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي بتعجيل العذاب. ﴿ وإنهم لفي شك منه ﴾ من القرآن ﴿ مريب ﴾ أي شديد الريبة. وقد تقدم. وقال الكلبي في هذه الآية: لولا أن الله أخر عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذاب كما فعل بغيرهم من الأمم. وقيل: تأخير العذاب لما يخرج من أصلابهم من المؤمنين.

قولـه تعالى: ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ﴾ شرط وجوابه. وكذا ﴿ ومن أساء فعليها ﴾. والله جل وعز مستغن عن طاعة العباد، فمن أطاع فالثواب لـه، ومن أساء فالعقاب عليه. ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ نفى الظلم عن نفسه جل وعز قليلـه وكثيره، وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها، دليلـه قولـه الحق: ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ﴾ (يونس: ٤٤) وروى العدول الثقات، والأئمة الأثبات، عن الزاهد العدل، عن أمين الأرض، عن أمين السماء، عن الرب جل جلالـه: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا. . .)[1] الحديث. وأيضا فهو الحكيم المالك، وما يفعلـه المالك في ملكه لا اعتراض عليه؛ إذ لـه التصرف في ملكه بما يريد.

قوله تعالى: ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّـٰكَ

---

(١) أخرجه مسلم وغيره وقد تقدم.

مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ أي حين وقتها. وذلك أنهم قالوا: يا محمد إن كنت نبيا فخبرنا متى قيام الساعة فنزلت: ﴿ وما تخرج من ثمرات ﴾ "من" زائدة أي وما تخرج ثمرة. ﴿ من أكمامها ﴾ أي من أوعيتها، فالأكمام أوعية الثمرة، واحدها كمة وهي كل ظرف لمال أو غيره؛ ولذلك سمي قشر الطلع أعني كفراه الذي ينشق عن الثمرة كمة؛ قال ابن عباس: الكمة الكفرى قبل أن تنشق، فإذا انشقت فليست بكمة. وسيأتي لـهذا مزيد بيان في سورة (الرحمن). وقرأ نافع وابن عامر وحفص "من ثمرات" على الجمع. الباقون "ثمرة" على التوحيد والمراد الجمع، لقولـه: ﴿ وما تحمل من أنثى ﴾ والمراد الجمـع، يقول: "إليه يـرد علم الساعة" كما يرد إليه علـم الثمـار والنتاج.
﴿ ويوم يناديهم ﴾ أي ينادي الله المشركين ﴿ أين شركائي ﴾ الذين زعمتم في الدنيا أنها آلـهة تشفع.
﴿ قالوا ﴾ يعني الأصنام. وقيل: المشركون. ويحتمل أن يريدهم جميعا العابد والمعبود ﴿ آذناك ﴾ أسمعناك وأعلمناك. يقال: آذن يؤذن: إذا أعلم، قال (الشاعر الحارث بن حلزة):

آذنتنـا ببينـها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

قولـه تعالى: ﴿ ما منا من شهيد ﴾ أي نعلمك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكا. لما عاينوا القيامة تبرؤوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم كما تقدم في غير موضع. ﴿ وضل عنهم ﴾ أي بطـل عنهم ﴿ ما كانوا يدعون من قبل ﴾ في الدنيا ﴿ وظنوا ﴾ أي أيقنوا وعلموا ﴿ ما لـهم من محيص ﴾ أي فرار عن النار. و"ما" هنا حرف وليس باسم؛ فلذلك لم يعمل فيه الظن وجعل الفعل ملغى؛ تقديره: وظنوا أنهم ما لـهم محيص ولا مهرب. يقال: حاص يحيص حيصا ومحيصا إذا هرب. وقيل: إن الظن هنا الذي هو أغلب الرأي، لا يشكون في أنهم أصحاب النار ولكن يطمعون أن يخرجوا منها. وليس يبعد أن يكون لـهم ظن ورجاء إلى أن يؤيسوا.

قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ﴾ أي لا يمل من دعائه بالخير. والخير هنا المال والصحة والسلطان والعز. قال السدي: والإنسان ها هنا يراد به الكافر. وقيل: الوليد بن المغيرة. وقيل: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف. وفي قـراءة عبد الله "لا يسأم الإنسان مـن دعاء المال".
﴿ وإن مسه الشر ﴾ الفقر والمرض ﴿ فيؤوس ﴾ من روح الله ﴿ قنوط ﴾ من رحمته. وقيل: "يؤوس"

من إجابة الدعاء "قنوط" بسوء الظن بربه. "يؤوس" أي يئس من زوال ما به من المكروه "قنوط" أي يظن أنه يدوم؛ والمعنى متقارب.

قولـه تعالى: ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا ﴾ عاقبة ورخاء وغنى ﴿ من بعد ضراء مسته ﴾ ضر وسقم وشدة وفقر. ﴿ ليقولن هذا لي ﴾ أي هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي، فيرى النعمة حتما واجبا على الله تعالى، ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة؛ ليتبين شكره وصبره. وقال ابن عباس: "هذا لي" أي هذا من عندي. ﴿ وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ أي الجنة، واللام للتأكيد. يتمنى الأماني بلا عمل. قال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب: للكافر أمنيتان أما في الدنيا فيقول: "لئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى"، وأما في الآخرة فيقول: ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ (الأنعام: ٢٧) و﴿ يا ليتني كنت ترابا ﴾ (النبأ: ٤٠). ﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ﴾ أي لنجزينهم. قسم أقسم الله عليه. ﴿ ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ أي شديد.

قولـه تعالى: ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ﴾ يريد الكافر ﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ وقال ابن عباس: يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه. ومعنى "نأى بجانبه" أي ترفع عن الانقياد إلى الحق وتكبر على أنبياء الله. وقيل: "نأى" تباعد. يقال: نأيته ونأيت عنه نأيا بمعنى تباعدت عنه، وأنأيته فانتأى: أبعدته فبعد، وتناءوا تباعدوا، والمنتأى الموضع البعيد؛ قال النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقرأ يزيد بن القعقاع و"ناء بجانبه" بالألف قبل الهمزة. فيجوز أن يكون من "ناء" إذا نهض. ويجوز أن يكون على قلب الهمزة بمعنى الأول. ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ أي أصابه المكروه ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ أي كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة. يقال: أطال فلان في الكلام وأعرض في الدعاء إذا أكثر. وقال ابن عباس: "فذو دعاء عريض" فذو تضرع واستغاثة. والكافر يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرخاء.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل أرأيتم ﴾ أي قل لـهم يا محمد "أرأيتم" يا معشر المشركين. ﴿ إن كان ﴾ هذا القرآن ﴿ من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ أي فأي الناس أضل، أي لا أحد أضل منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم. وقيل: قولـه: "إن كان من عند الله" يرجع إلى الكتاب المذكور في قولـه: ﴿ آتينا موسى الكتاب ﴾ (البقرة: ٥٣) والأول أظهر وهو قول ابن عباس.

قولـه تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا ﴾ أي علامات وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ في الآفاق ﴾ يعني خراب منازل الأمم الخالية ﴿ وفي أنفسهم ﴾ بالبلايا والأمراض. وقال ابن زيد: "في الآفاق" آيات السماء "وفي أنفسهم" حوادث الأرض. وقال مجاهد: "في الآفاق" فتح القرى؛ فيسر الله عز وجل لرسولـه ﷺ وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموما، وفي ناحية المغرب خصوصا من الفتوح التي لم يتيسر أمثالـها لأحد من خلفاء الأرض قبلـهم، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلـهم على كثيرهم، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أمورا خارجة عن المعهود خارقة للعادات "وفي أنفسهم" فتح مكة. وهذا اختيار الطبري. وقاله المنهال بن عمرو والسدي. وقال قتادة والضحاك: "في الآفاق" وقائع الله في الأمم "وفي أنفسهم" يوم بدر. وقال عطاء وابن زيد أيضا "في الآفاق" يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها. وفي الصحاح: الآفاق النواحي، واحدها أفق وأفق مثل عسر وعسر، ورجل أفقي بفتح الـهمزة والفاء: إذا كان من آفاق الأرض. حكاه أبو نصر. وبعضهم يقول: أفقي بضمهما وهو القياس. وأنشد غير الجوهري:

أخذنا بآفاق السماء عليكم   لنا قمراها والنجوم الطوالع

"وفي أنفسهم" من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول؛ فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة. وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه. وقيل: "وفي أنفسهم" من كونهم نطفا إلى غير ذلك من انتقال أحوالـهم كما تقدم في "المؤمنون" بيانه. وقيل: المعنى سيرون ما أخبرهم به النبي ﷺ من الفتن وأخبار الغيوب ﴿ حتى يتبين لـهم أنه الحق ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: أنه القرآن. الثاني: الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه. الثالث: أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق. الرابع: أن محمدا ﷺ هو الرسول الحق. ﴿ أو لم يكف بربك ﴾ في موضع رفع بأنه فاعل "بيكف" و﴿ أنه ﴾ بدل من "ربك" فهو رفع إن قدرته بدلا على الموضع، وجر إن قدرته بدلا على اللفظ. ويجوز أن يكون نصباً بتقدير حذف اللام، والمعنى أو لم يكفهم ربك بما دلـهم عليه من توحيده؛ لأنه ﴿ على كل شيء شهيد ﴾ وإذا شهده جازى عليه. وقيل: المعنى "أو لم يكف بربك" في معاقبته الكفار. وقيل: المعنى "أو لم يكف بربك" يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار. وقيل: "أو لم يكف بربك" شاهدا على أن القرآن من عند الله. وقيل: "أو لم يكف بربك أنه على كل شيء" مما يفعلـه العبد "شهيد" والشهيد بمعنى العالم؛ أو هو من الشهادة التي هي الحضور ﴿ ألا إنهم في مرية ﴾ أي في شك ﴿ من لقاء ربهم ﴾ في الآخرة. وقال السدي: أي من البعث. ﴿ ألا إنه بكل شيء محيط ﴾ أي أحاط علمه بكل شيء. قالـه السدي. وقال الكلبي: أحاطت قدرته بكل شيء. وقال الخطابي: هو الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه، وهو الذي أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا. وهذا الاسم أكثر ما يجيء في معرض الوعيد، وحقيقته الإحاطة بكل شيء، واستئصال المحاط به، وأصلـه محيط نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت. يقال منه: أحاط يحيط إحاطة وحيطة؛ ومن ذلك حائط الدار، يحوطها أهلـها. وأحاطت الخيل بفلان: إذا أخذ مأخذا حاصرا من كل جهة، ومنه قولـه تعالى: ﴿ وأحيط بثمره ﴾ (الكهف: ٤٢) والله أعلم بصواب ذلك.

سورة الشورى

مقدمة السورة:

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة: "قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى" إلى آخرها. وهي ثلاث وخمسون آية.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حم. عسق﴾ قال عبد المؤمن: سألت الحسين بن الفضل: لم قطع "حم" من "عسق" ولم تقطع "كهيعص" و"المر" و"المص"؟ فقال: لأن "حم. عسق" بين سور أولها "حم" فجرت مجرى نظائرها قبلها وبعدها؛ فكأن "حم" مبتدأ و"عسق" خبره. ولأنها عدت آيتين، وعدت أخواتها اللواتي كتبت جملة آية واحدة. وقيل: إن الحروف المعجمة كلها في معنى واحد، من حيث إنها أس البيان وقاعدة الكلام؛ ذكره الجرجاني. وكتبت "حم. عسق" منفصلا و"كهيعص" متصلا لأنه قيل: حم؛ أي حم ما هو كائن، ففصلوا بين ما يقدر فيه فعل وبين ما لا يقدر. ثم لو فصل هذا ووصل ذا لجاز؛ حكاه القشيري. وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس "حم. سق" قال ابن عباس: وكان علي ﷺ يعرف الفتن بها. وقال أرطاة بن المنذر قال رجل لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان: أخبرني عن تفسير قوله تعالى: "حم. عسق"؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه ثلاثا فأعرض عنه. فقال حذيفة بن اليمان: أنا أنبئك بها، قد عرفت لم تركها؛ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله أو عبد الله؛ ينزل على نهر من أنهار المشرق، يبني عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقا، فإذا أراد الله زوال ملكهم وانقطاع دولتهم، بعث على إحداهما نارا ليلا فتصبح سوداء مظلمة، فتحترق كلها كأنها لم تكن مكانها؛ فتصبح صاحبتها متعجبة، كيف قلبت! فما هو إلا بياض يومها حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا؛ فذلك قوله: "حم. عسق" أي عزمة من عزمات الله، وفتنة وقضاء حُمّ: حم. "ع": عدلا منه، "س": سيكون، "ق": واقع في هاتين المدينتين[1].

ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البجلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقُطْرَبُل والصراة، يجتمع فيها جبابرة الأرض تجبى إليها الخزائن يخسف بها - وفي رواية بأهلها - فلهي أسرع ذهابا في الأرض من الوتد الجيد في الأرض الرخوة)[2]. وقرأ ابن عباس: "حم. سق" بغير عين. وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود؛ حكاه الطبري. وروى

---

(١) الأثر ذكره ابن كثير في التفسير (٤/ ١٠٥، ١٠٦) واستنكره بقوله: وقد روى ابن جرير ها هنا أثراً غريباً عجيباً منكراً فقال: . . . وذكره.

(٢) ضعيف.

نافع عن ابن عباس: "الحاء" حلمه، و"الميم" مجده، و"العين" علمه، و"السين" سناه، و"القاف" قدرته؛ أقسم الله بها. وعن محمد بن كعب: أقسم الله بحلمه ومجده وعلوه وسناه وقدرته ألا يعذب من عاذ بلا إلـه إلا الله مخلصا من قلبه. وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جبير: "الحاء" من الرحمن، والميم "من المجيد"، و"العين" من العليم، و"السين" من القدوس، و"القاف" من القاهر. وقال مجاهد: فواتح السور. وقال عبد الله بن بريدة: إنه اسم الجبل المحيط بالدنيا. وذكر القشيري، واللفظ للثعلبي: أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية عرفت الكآبة في وجهه؛ فقيل لـه: يا رسول الله، ما أحزنك؟ قال: (أخبرت ببلايا تنزل بأمتي من خسف وقذف ونار تحشرهم وريح تقذفهم في البحر وآيات متتابعات متصلات بنزول عيسى وخروج الدجال)[1]. والله أعلم. وقيل: هذا في شأن النبي ﷺ فـ "الحاء" حوضه المورود، و"الميم" ملكه الممدود، و"العين" عزه الموجود، و"السين" سناه المشهود، و"القاف" قيامه في المقام المحمود، وقربه في الكرامة من الملك المعبود. وقال ابن عباس: ليس من نبي صاحب كتاب إلا وقد أوحي إليه: "حم. عسق"؛ فلذلك قال: ﴿ يوحي إليك وإلى الذين من قبلك ﴾ المهدوي: وقد جاء في الخبر أن ("حم. عسق" معناه أوحيت إلى الأنبياء المتقدمين). وقرأ ابن محيصن وابن كثير ومجاهد "يوحى" (بفتح الحاء) على ما لم يسم فاعلـه؛ وروي عن ابن عمر. فيكون الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل، ويجوز أن يكون اسم ما لم يسم فاعلـه مضمرا؛ أي يوحى إليك القرآن الذي تضمنته هذه السورة، ويكون اسم الله مرفوعا بإضمار فعـل، التقـدير: يوحيه الله إليك؛ كقراءة ابن عامر وأبي بكر ﴿ يسبح لـه فيها بالغدو والآصال رجال ﴾ (النور: ٣٦) أي يسبحه رجال. وأنشد سيبويه (للحارث بن نهيك):

ليبك يزيد ضارع بخصـــومة وأشعث ممن طوحته الطوائح

فقال: ليبكَ يزيد، ثم بين من ينبغي أن يبكيه، فالمعنى يبكيه ضارع. ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوفَ؛ كأنه قال: الله يوحيه. أو على تقدير إضمار مبتدأ أي الموحي الله. أو يكون مبتدأ والخبر "العزيز الحكيم". وقرأ الباقون "يوحي إليك" بكسر الحاء، ورفع الاسم على أنه الفاعل. ﴿ لـه ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم ﴾ تقدم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

قولـه تعـالى: ﴿ تكاد السماوات ﴾ قراءة العامة بالتاء. وقرأ نافع وابن وثاب والكسائي بالياء. ﴿ يتفطرن ﴾ قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد في الطاء، وهي قراءة العامة. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضل وأبو عبيد "ينفطرن" من الانفطار؛ كقولـه تعـالى: ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ (الانفطار: ١) وقد مضى في سورة "مريم" بيان هذا. وقال ابن عباس: "تكاد السماوات يتفطرن" أي تكاد كل واحدة منها تنفطر فوق التي تليها؛ من قول المشركين: ﴿ اتخذ الله ولدا ﴾ (البقرة: ١١٦).

---

(١) ضعيف.

وقال الضحاك والسدي: "يتفطرن" أي يتشققن من عظمة الله وجلالـه فوقهن. وقيل: "فوقهن": فوق الأرضين من خشية الله لو كن مما يعقل.

قولـه تعالى: ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ أي ينزهونه عما لا يجوز في وصفه، وما لا يليق بجلاله. وقيل: يتعجبون من جرأة المشركين؛ فيذكر التسبيح في موضع التعجب. وعن علي ﷺ: أن تسبيحهم تعجب مما يرون من تعرضهم لسخط الله. وقال ابن عباس: تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله. ومعنى "بحمد ربهم": بأمر ربهم؛ قاله السدي. ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ قال الضحاك: لمن في الأرض من المؤمنين؛ وقاله السدي. بيانه في سورة المؤمن: ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ (غافر: ٧). وعلى هذا تكون الملائكة هنا حملة العرش. وقيل: جميع ملائكة السماء؛ وهو الظاهر من قول الكلبي. وقال وهب بن منبه: هو منسوخ بقولـه: "ويستغفرون للذين آمنوا". قال المهدوي: والصحيح أنه ليس بمنسوخ؛ لأنه خبر، وهو خاص للمؤمنين. وقال أبو الحسن الماوردي عن الكلبي: إن الملائكة لما رأت الملكين اللذين اختبرا وبعثا إلى الأرض ليحكما بينهم، فافتتنا بالزهرة وهربا إلى إدريس ـ وهو جد أبي نوح عليهما السلام ـ وسألاه أن يدعو لـهما، سبحت الملائكة بحمد ربهم واستغفرت لبني آدم. قال أبو الحسن بن الحصار: وقد ظن بعض من جهل أن هذه الآية نزلت بسبب هاروت وماروت، وأنها منسوخة بالآية التي في المؤمن، وما علموا أن حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين خاصة، ولله ملائكة أخر يستغفرون لمن في الأرض. الماوردي: وفي استغفارهم لـهم قولان: أحدهما: من الذنوب والخطايا؛ وهو ظاهر قول مقاتل. الثاني: أنه طلب الرزق لـهم والسعة عليهم؛ قالـه الكلبي.

قلت: وهو أظهر، لأن الأرض تعم الكافر وغيره، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر. وقد روي في هذا الباب خبر رواه عاصم الأحول عن أبي عثمان عن سلمان قال: إن العبد إذا كان يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء قالت الملائكة: صوت معروف من آدمي ضعيف، كان يذكر الله تعالى في السراء فنزلت به الضراء؛ فيستغفرون لـه. فإذا كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء قالت الملائكة: صوت منكر من آدمي كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء فلا يستغفرون الله لـه. وهذا يدل على أن الآية في الذاكر لله تعالى في السراء والضراء، فهي خاصة ببعض من في الأرض من المؤمنين. والله أعلم. يحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران في قولـه تعالى: ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ (فاطر: ٤١) إلى أن قال "إنه كان حليما غفورا"، وقولـه تعالى: ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ (الرعد: ٦). والمراد الحلم عنهم وألا يعاجلهم بالانتقام؛ فيكون عاما؛ قاله الزمخشري. وقال مطرف: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشياطين. وقد تقدم. ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ قال بعض العلماء: هيب وعظم جل وعز في الابتداء، وألطف وبشر في الانتهاء.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ يعني أصناما يعبدونها. ﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ أي يحفظ أعمالـهم ليجازيهم بها. ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ وهذه منسوخة بآية السيف. وفي الخبر: (أطت السماء وحق لـها أن تئط)[1] أي صوتت من ثقل سكانها لكثرتهم، فهم مع كثرتهم لا يفترون عن عبادة الله؛ وهؤلاء الكفار يشركون به.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا ﴾ أي وكما أوحينا إليك وإلى من قبلك هذه المعاني فكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا بيناه بلغة العرب. قيل: أي أنزلنا عليك قرآنا عربيا بلسان قومك؛ كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه. والمعنى واحد. ﴿ لتنذر أم القرى ﴾ يعني مكة. قيل لمكة أم القرى لأن الأرض دحيت من تحتها. ﴿ ومن حولـها ﴾ من سائر الخلق. ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ أي بيوم الجمع، وهو يوم القيامة. ﴿ لا ريب فيه ﴾ لا شك فيه. ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ ابتداء وخبر. وأجاز الكسائي النصب على تقدير: لتنذر فريقا في الجنة وفريقا في السعير.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولو شاء الله لجعلـهم أمة واحدة ﴾ قال الضحاك: أهل دين واحد؛ أو أهل ضلالة أو أهل هدى. ﴿ ولكن يدخل من يشاء في رحمته ﴾ قال أنس بن مالك: في الإسلام. ﴿ والظالمون ﴾ رفع على الابتداء، والخبر ﴿ ما لـهم من ولي ولا نصير ﴾ عطف على اللفظ. ويجوز "ولا نصير" بالرفع على الموضع و "من" زائدة.

قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أم اتخذوا ﴾ أي بل اتخذوا. ﴿ من دونه أولياء ﴾ يعني أصناما. ﴿ فالله هو الولي ﴾ أي وليك يا محمد وولي من اتبعك، لا ولي سواه. ﴿ وهو يحيي الموتى ﴾ يريد عند البعث. ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ وغيره من الأولياء لا يقدر على شيء.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ ﴾

---

(١) "صحيح"، وقد تقدم.

قولـه تعالى: ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين؛ أي وما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين، فقولوا لـهم حكمه إلى الله لا إليكم، وقد حكم أن الديـن هو الإسـلام لا غيره. وأمور الشـرائع إنما تتلقى مـن بيان الله. ﴿ ذلكم الله ربي ﴾ أي الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده؛ وفيه إضمار: أي قل لـهم يا محمد ذلكم الله الذي يحيي الموتى ويحكـم بين المختلفين هو ربي. ﴿ عليه توكلت ﴾ اعتمـدت. ﴿ وإليه أنيب ﴾ أرجع.

قوله تعالى:﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ بالرفع على النعت لاسم الله، أو على تقدير هو فاطر. ويجوز النصب على النداء، والجر على البدل من الـهاء في "عليه". والفاطر: المبدع والخالق. وقد تقدم. ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ قيل معناه إناثا. وإنما قال: "من أنفسكم" لأنه خلق حواء من ضلع آدم. وقال مجاهد: نسلا بعد نسل. ﴿ ومن الأنعام أزواجا ﴾ يعني الثمانية التي ذكرها في "الأنعام" ذكور الإبل والبقر والضأن والمعز وإناثها. ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ أي يخلقكم وينشئكم "فيه" أي في الرحم. وقيل: في البطن. وقال الفراء وابن كيسان: "فيه" بمعنى به. وكذلك قال الزجاج: معنى "يذرؤكم فيه" يكثركم به؛ أي يكثركم بجعلكم أزواجا، أي حلائل؛ لأنهن سبب النسل. وقيل: إن الـهاء في "فيه" للجعل؛ ودل عليه "جعل"؛ فكأنه قال: يخلقكم ويكثركم في الجعل. ابن قتيبة: "يذرؤكم فيه" أي في الزوج؛ أي يخلقكم في بطون الإناث. وقال: ويكون "فيه" في الرحم، وفيه بعد؛ لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدم لـها ذكر. ﴿ ليس كمثلـه شيء وهو السميع البصير ﴾ قيل: إن الكاف زائدة للتوكيد؛ أي ليس مثلـه شيء. قال:

وصاليات ككما يؤثفين

فأدخل على الكاف كافا تأكيدا للتشبيه. وقيل: المثل زائدة للتوكيد؛ وهو قول ثعلب: ليس كهو شيء؛ نحو قولـه تعالى: ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ (البقرة: ١٣٧). وفي حرف ابن مسعود "فإن آمنوا بما آمنتم به فقد اهتدوا" قال أوس بن حجر:

وقتلى كمثل جذوع النخـ ـــيل يغشاهم مطر منهمر

أي كجذوع. والذي يعتقد في هذا الباب أن الله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى أسمائه وعليّ صفاته، لا يشبه شيئا من مخلوقاته ولا يشبه به، وإنما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق، فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي؛ إذ صفات القديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق؛ إذ صفاتهم لا تنفك عن الأغراض والأعراض، وهو تعالى منزه عن ذلك؛ بل لم يزل بأسمائه وبصفاته على ما بيناه في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى)، وكفى في هذا قولـه الحق: "ليس كمثلـه شيء". وقد قال بعض العلماء المحققين: التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة من الصفات. وزاد الواسطي رحمه الله بيانا فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعلـه

فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ؛ وجلت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة؛ كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة. وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة. ﷺ!

قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ له مقاليد السماوات والأرض ﴾ تقدم في "الزمر" بيانه. النحاس: والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن؛ يقال للمفتاح: إقليد، وجمعه على غير قياس؛ كمحاسن والواحد حسن. ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم ﴾ تقدم أيضاً في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴿١٣﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ شرع لكم من الدين ﴾ أي الذي له مقاليد السماوات والأرض شرع لكم من الدين ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى؛ ثم بين ذلك بقوله تعالى: ﴿ أن أقيموا الدين ﴾ وهو توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء، وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما. ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسن أحوالها، فإنها مختلفة متفاوتة؛ قال الله تعالى: ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ (المائدة: ٤٨) وقد تقدم القول فيه. ومعنى "شرع" أي نهج وأوضح وبين المسالك. وقد شرع لهم يشرع شرعا أي سن. والشارع: الطريق الأعظم. وقد شرع المنزل إذا كان على طريق نافذ. وشرعت الإبل إذا أمكنتها من الشريعة. وشرعت الأديم إذا سلخته. وقال يعقوب: إذا شققت ما بين الرجلين، قال: وسمعته من أم الحمارس البكرية. وشرعت في هذا الأمر شروعا أي خضت. ﴿ أن أقيموا الدين ﴾ "أن" في محل رفع، على تقدير والذي وصى به نوحا أن أقيموا الدين، ويوقف على هذا الوجه على "عيسى". وقيل: هو نصب، أي شرع لكم إقامة الدين. وقيل: هو جر بدلا من الهاء في "به"؛ كأنه قال: به أقيموا الدين. ولا يوقف على "عيسى" على هذين الوجهين. ويجوز أن تكون "أن" مفسرة؛ مثل: أن امشوا، فلا يكون لها محل من الإعراب.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربي: ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال في حديث الشفاعة الكبير المشهور: (ولكن ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحا

فيقولون لـه أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . . .)[1] وهذا صحيح لا إشكال فيه، كما أن آدم أول نبي بغير إشكال؛ لأن آدم لم يكن معه إلا نبوة، ولم تفرض لـه الفرائض ولا شرعت لـه المحارم، وإنما كان تنبيها على بعض الأمور واقتصارا على ضرورات المعاش، وأخذا بوظائف الحياة والبقاء؛ واستقر المدى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات، ووظف عليه الواجبات وأوضح لـه الآداب في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ واحدا بعد واحد وشريعة إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ؛ فكان المعنى أوصيناك يا محمد ونوحا دينا واحدا؛ يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال، والزلف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنى والأذية للخلق كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوان كيفما دار، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات؛ فهذا كلـه مشروع دينا واحدا وملة متحدة، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم؛ وذلك قولـه تعالى: ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ أي اجعلوه قائما؛ يريد دائما مستمرا محفوظا مستقرا من غير خلاف فيه ولا اضطراب؛ فمن الخلق من وفى بذلك ومنهم من نكث؛ ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ (الفتح: ١٠). واختلفت الشرائع وراء هذا في معان حسبما أراده الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم. والله أعلم. قال مجاهد: لم يبعث الله نبيا قط إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع لـهم؛ وقاله الوالبي عن ابن عباس، وهو قول الكلبي. وقال قتادة: يعني تحليل الحلال وتحريم الحرام. وقال الحكم: تحريم الأمهات والأخوات والبنات. وما ذكره القاضي يجمع هذه الأقوال ويزيد عليها. وخص نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى بالذكر لأنهم أرباب الشرائع.

قولـه تعالى: ﴿ كبر على المشركين ﴾ أي عظم عليهم. ﴿ ما تدعوهم إليه ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان. قال قتادة: كبر على المشركين فاشتد عليهم شهادة أن لا إلـه إلا الله، وضاق بها إبليس وجنوده، فأبى الله عز وجل إلا أن ينصرها ويعليها ويظهرها على من ناوأها. ثم قال: ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ﴾ أي يختار. والاجتباء الاختيار؛ أي يختار للتوحيد من يشاء. ﴿ ويهدي إليه من ينيب ﴾ أي يستخلص لدينه من رجع إليه. ﴿ وما تفرقوا ﴾ قال ابن عباس: يعني قريشا. ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ محمد ﷺ؛ وكانوا يتمنون أن يبعث إليهم نبي؛ دليلـه قولـه تعالى في سورة فاطر: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير﴾ (فاطر: ٤٢) يريد نبيا. وقال في سورة البقرة: ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ (البقرة: ٨٩) على ما تقدم بيانه هناك. وقيل: أمم الأنبياء المتقدمين؛ فإنهم فيما بينهم اختلفوا لما طال بهم المدى، فآمن قوم وكفر قوم. وقال ابن عباس أيضا: يعني أهل الكتاب؛ دليلـه في سورة المنفكين: ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾

---

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد تقدم.

(البينة : ٤) فالمشركون قالوا : لم خُص بالنبوة! واليهود حسدوه لما بعث ؛ وكذا النصارى . "بغياً بينهم" أي بغيا من بعضهم على بعض طلبا للرياسة ، فليس تفرقهم لقصور في البيان والحجج ، ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا . ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ في تأخير العقاب عن هؤلاء . ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ قيل : القيامة ؛ لقوله تعالى : ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ (القمر : ٤٦) . وقيل : إلى الأجل الذي قضي فيه بعذابهم . ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي بين من آمن وبين من كفر بنزول العذاب . ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب ﴾ يريد اليهود والنصارى . ﴿ من بعدهم ﴾ أي من بعد المختلفين في الحق . ﴿ لفي شك منه مريب ﴾ من الذي أوصى به الأنبياء . والكتاب هنا التوراة والإنجيل . وقيل : " إن الذين أورثوا الكتاب " قريش . "من بعدهم" من بعد اليهود والنصارى . "لفي شك" من القرآن أو من محمد . وقال مجاهد : معنى "من بعدهم" من قبلهم ؛ يعني من قبل مشركي مكة ، وهم اليهود والنصارى .

قوله تعالى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (١٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ﴾ لما أجاز أن يكون الشك لليهود والنصارى ، أو لقريش قيل له : ﴿ فلذلك فادع ﴾ أي فتبينت شكهم فادع إلى الله ؛ أي إلى ذلك الدين الذي شرعه الله للأنبياء ووصاهم به . فاللام بمعنى إلى ؛ كقوله تعالى : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ (الزلزلة : ٥) أي إليها . و"ذلك" بمعنى هذا . وقد تقدم أول "البقرة" . والمعنى فلهذا القرآن فادع . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى كبر على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع . وقيل : إن اللام على بابها ؛ والمعنى : فمن أجل ذلك الذي تقدم ذكره فادع واستقم . قال ابن عباس : أي إلى القرآن فادع الخلق . ﴿ واستقم ﴾ خطاب له ﷺ . قال قتادة : أي استقم على أمر الله . وقال سفيان : أي استقم على القرآن . وقال الضحاك : استقم على تبليغ الرسالة . ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ أي لا تنظر إلى خلاف من خالفك . ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ﴾ أي أن أعدل ؛ كقوله تعالى : ﴿ وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ (غافر : ٦٦) . وقيل : هي لام كي ، أي لكي أعدل . قال ابن عباس وأبو العالية : لأسوي بينكم في الدين فأومن بكل كتاب وبكل رسول . وقال غيرهما : لأعدل في جميع الأحوال . وقيل : هذا العدل هو العدل في الأحكام . وقيل في التبليغ . ﴿ الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : الخطاب لليهود ؛ أي لنا ديننا ولكم دينكم . قال : ثم نسخت بقوله : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ (التوبة : ٢٩) الآية . قال مجاهد : ومعنى "لا حجة بيننا وبينكم" لا خصومة بيننا وبينكم . وقيل : ليس بمنسوخ ، لأن البراهين قد ظهرت ، والحجج قد قامت ، فلم يبق إلا العناد ، وبعد العناد لا حجة ولا جدال . قال النحاس : ويجوز أن يكون معنى "لا حجة بيننا وبينكم" على ذلك القول : لم يؤمر أن يحتج عليكم ويقاتلكم ؛ ثم نسخ هذا . كما أن قائلا لو قال من قبل أن تحول القبلة : لا تصل إلى

الكعبة، ثم حول الناس بعد؛ لجاز أن يقال نسخ ذلك. ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿ وإليه المصير ﴾ أي فهو يحكم بيننا إذا صرنا إليه، ويجازي كلا بما كان عليه. وقيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة، وقد سألا رسول الله ﷺ أن يرجع عن دعوته ودينه إلى دين قريش، على أن يعطيه الوليد نصف ماله ويزوجه شيبة بابنته.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والذين يحاجون في الله ﴾ رجع إلى المشركين. ﴿ من بعد ما استجيب له ﴾ قال مجاهد: من بعد ما أسلم الناس. قال: وهؤلاء قد توهموا أن الجاهلية تعود. وقال قتادة: الذين يحاجون في الله اليهود والنصارى، ومحاجتهم قولهم نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم؛ وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل الكتاب وأنهم أولاد الأنبياء. وكان المشركون يقولون: ﴿ أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾ (مريم: ٧٣) فقال الله تعالى: ﴿ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ أي لا ثبات لها كالشيء الذي يزل عن موضعه. والهاء في "له" يجوز أن يكون لله عز وجل؛ أي من بعد ما وحدوا الله وشهدوا له بالوحدانية. ويجوز أن يكون للنبي ﷺ؛ أي من بعد ما استجيب لمحمد ﷺ في دعوته من أهل بدر ونصر الله المؤمنين. يقال: دحضت حجته دحوضا بطلت. وأدحضها الله. والإدحاض: الإزلاق. ومكان دَحْض ودَحَض أيضا (بالتحريك) أي زلق. ودحضت رجله تدحض دحضا زلقت. ودحضت الشمس عن كبد السماء زالت. ﴿وعليهم غضب ﴾ يريد في الدنيا. ﴿ ولهم عذاب شديد ﴾ يريد في الآخرة عذاب دائم.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الله الذي أنزل الكتاب ﴾ يعني القرآن وسائر الكتب المنزلة. ﴿ بالحق ﴾ أي بالصدق. ﴿ والميزان ﴾ أي العدل؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين. والعدل يسمى ميزانا؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والعدل. وقيل: الميزان ما بين في الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به. وقال قتادة: الميزان العدل فيما أمر به ونهي عنه. وهذه الأقوال متقاربة المعنى. وقيل: هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب. وقيل: إنه الميزان نفسه الذي يوزن به، أنزله من السماء وعلم العباد الوزن به؛ لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس؛ قال الله تعالى: ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (الحديد: ٢٥). قال مجاهد: هو الذي يوزن به. ومعنى أنزل الميزان. هو إلهامه للخلق أن يعملوه ويعملوا به. وقيل: الميزان محمد ﷺ يقضي بينكم بكتاب الله. ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ فلم يخبره بها. يحضه على العمل بالكتاب والعدل والسوية، والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئ اليوم الذي يكون فيه المحاسبة ووزن الأعمال، فيوفى لمن أوفى ويطفف لمن طفف. فـ "لعل الساعة قريب" أي منك وأنت لا تدري. وقال: "قريب" ولم يقل قريبة؛ لأن تأنيثها غير حقيقي لأنها كالوقت؛ قاله الزجاج. والمعنى: لعل البعث أو لعل مجيء

الساعة قريب. وقال الكسائي: "قريب" نعت ينعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنى ولفظ واحد؛ قال الله تعالى: ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ (الأعراف: ٥٦) قال الشاعر:

وكـنا قريبـــا والديـــار بعيدة فلما وصلنا نصب أعينهم غبنا

قوله تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ يعني على طريق الاستهزاء، ظنا منهم أنها غير آتية، أو إيهاما للضعفة أنها لا تكون. ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ أي خائفون وجلون لاستقصارهم أنفسهم مع الجهد في الطاعة؛ كما قال: ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ (المؤمنون: ٦٠). ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ أي التي لا شك فيها. ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة ﴾ أي يشكون ويخاصمون في قيام الساعة. ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾ أي عن الحق وطريق الاعتبار؛ إذ لو تذكروا لعلموا أن الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة إلى أن بلغوا ما بلغوا، قادر على أن يبعثهم.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ الله لطيف بعباده ﴾ قال ابن عباس: حفي بهم. وقال عكرمة: بار بهم. وقال السدي: رفيق بهم. وقال مقاتل: لطيف بالبر والفاجر؛ حيث لم يقتلـهم جوعا بمعاصيهم. وقال القرظي: لطيف بهم في العرض والمحاسبة. قال:

غدا عند مولى الخلق للخلق موقف يسائلـــهم فيه الجليل ويلـــطف

وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: يلطف بهم في الرزق من وجهين: أحدهما: أنه جعل رزقك من الطيبات. والثاني: أنه لم يدفعه إليك مرة واحدة فتبذره. وقال الحسين بن الفضل: لطيف بهم في القرآن وتفصيلـه وتفسيره. وقال الجنيد: لطيف بأوليائه حتى عرفوه، ولو لطف بأعدائه لما جحدوه. وقال محمد بن علي الكتاني: اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق توكل ورجع إليه، فحينئذ يقبلـه ويقبل عليه. وجاء في حديث النبي ﷺ: (إن الله تعالى يطلع على القبور الدوارس فيقول جل وعز امحت آثارهم واضمحلت صورهم وبقي عليهم العذاب وأنا اللطيف وأنا أرحم الراحمين خففوا عنهم العذاب فيخفف عنهم العذاب)[1]. قال أبو علي الثقفي رضي الله عنه:

أمـــر بأفـــناء القـــبور كـــأنني أخـو فطنة والثوب فيه نحيف

ومـن شـــق فـاه الله قدر رزقـــه وربـي بمـــن يلجأ إليه لطيف

---

(١) ضعيف.

وقيل: اللطيف الذي ينشر من عباده المناقب ويستر عليهم المثالب؛ وعلى هذا قال النبي ﷺ: (يا من أظهر الجميل وستر القبيح)[1]. وقيل: هو الذي يقبل القليل ويبذل الجزيل. وقيل: هو الذي يجبر الكسير وييسر العسير. وقيل: هو الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله. وقيل: هو الذي يبذل لعبده النعمة فوق الهمة ويكلفه الطاعة فوق الطاقة؛ قال تعالى: ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ (النحل: ١٨) ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ (لقمان: ٢٠)، وقال: ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ (الحج: ٧٨)، ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ (النساء: ٢٨). وقيل: هو الذي يعين على الخدمة ويكثر المدحة. وقيل: هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيب من رجاه. وقيل: هو الذي لا يرد سائله ولا يوئس آمله. وقيل: هو الذي يعفو عمن يهفو. وقيل: هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه. وقيل: هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المشاهدة سراجا، وجعل الصراط المستقيم لهم منهاجا، وأجزل لهم من سحائب بره ماء ثجاجا. وقد مضى في "الأنعام" قول أبي العالية والجنيد أيضا. وقد ذكرنا جميع هذا في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) عند اسمه اللطيف، والحمد لله. ﴿ يرزق من يشاء ﴾ ويحرم من يشاء. وفي تفضيل قوم بالمال حكمة؛ ليحتاج البعض إلى البعض؛ كما قال: ﴿ ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ (الزخرف: ٣٢)، فكان هذا لطفا بالعباد. وأيضا ليمتحن الغني بالفقير والفقير بالغني؛ كما قال: ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ (الفرقان: ٢٠) على ما تقدم بيانه. ﴿ وهو القوي العزيز ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾ الحرث العمل والكسب. ومنه قول عبد الله بن عمر: واحرث لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا[2]. ومنه سمي الرجل حارثا. والمعنى أي من طلب بما رزقناه حرثا لآخرته، فأدى حقوق الله وأنفق في إعزاز الدين؛ فإنما نعطيه ثواب ذلك للواحد عشرا إلى سبعمائة فأكثر. ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا ﴾ أي طلب بالمال الذي آتاه الله رياسة الدنيا والتوصل إلى المحظورات، فإنا لا نحرمه الرزق أصلا، ولكن لا حظ في الآخرة من ماله؛ قال الله تعالى: ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ (الإسراء: ١٨). وقيل: "نزد له في حرثه" نوفقه للعبادة ونسهلها عليه. وقيل: حرث الآخرة الطاعة؛ أي من أطاع فله الثواب. وقيل: "نزد له في حرثه" أي نعطيه الدنيا مع الآخرة. وقيل: الآية في الغزو؛ أي من أراد بغزوه الآخرة أوتي الثواب، ومن أراد بغزوه الغنيمة أوتي منها.

(١) جزء من حديث أخرجه الحاكم، وصححه وأقره الذهبي، وفيه نظر.

(٢) رواه ابن المبارك في "الزهد"، (٢/ ٢١٨) بسند منقطع موقوفاً على عبد الله بن عمرو، وكذا البيهقي في "الكبرى"، (٣/ ١٩).

قال القشيري: والظاهر أن الآية في الكافر؛ يوسع لـه في الدنيا؛ أي لا ينبغي لـه أن يغتر بذلك لأن الدنيا لا تبقى. وقال قتادة: إن الله يعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا. وقال أيضا: يقول الله تعالى: (من عمل لآخرته زدناه في عمله وأعطيناه من الدنيا ما كتبنا لـه ومن آثر دنياه على آخرته لم نجعل لـه نصيبا في الآخرة إلا النار ولم يصب من الدنيا إلا رزقا قد قسمناه لـه لا بد أن كان يؤتاه مع إيثار أو غير إيثار)[١]. وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: وقولـه عز وجل: ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ من كان من الأبرار يريد بعملـه الصالح ثواب الآخرة "نزد لـه في حرثه" أي في حسناته.

"ومن كان يريد حرث الدنيا" أي من كان من الفجار يريد بعملـه الحسن الدنيا "نؤته منها" ثم نسخ ذلك في سبحان[٢] ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا لـه فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ (الإسراء: ١٨). والصواب أن هذا ليس بنسخ؛ لأن هذا خبر والأشياء كلـها بإرادة الله عز وجل. ألا ترى أنه قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت)[٣]. وقد قال قتادة ما تقدم ذكره، وهو يبين لك أن لا نسخ. وقد ذكرنا في "هود" أن هذا من باب المطلق والمقيد، وأن النسخ لا يدخل في الأخبار. والله المستعان.

مسألة: هذه الآية تبطل مذهب أبي حنيفة في قولـه: إنه من توضأ تبردا أنه يجزيه عن فريضة الوضوء الموظف عليه؛ فإن فريضة الوضوء من حرث الآخرة والتبرد من حرث الدنيا، فلا يدخل أحدهما على الآخر، ولا تجزي نيته عنه بظاهر هذه الآية؛ قالـه ابن العربي.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أم لـهم شركاء ﴾ أي ألهم! والميم صـلة والـهمزة للتقريع. وهذا متصل بقولـه: ﴿ شرع لكم مـن الدين ما وصى به نوحا ﴾ (الشورى: ١٣)، وقولـه تعالى: ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ (الشورى: ١٧) كانوا لا يؤمنون به، فهل لـهم آلـهة شرعوا لـهم الشرك الذي لم يأذن به الله! وإذا استحال هذا فالله لـم يشرع الشرك، فمن أين يدينون به. ﴿ ولولا كلمة الفصل ﴾ يوم القيامة حيث قال: ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ (القمر: ٤٦). ﴿ لقضي بينهم ﴾ في الدنيا، فعاجل الظالـم بالعقوبة وأثاب الطائع. ﴿ وإن الظالمين ﴾ أي المشركين. ﴿ لـهم عذاب أليم ﴾ في الدنيا القتل والأسر والقهر، وفي الآخرة عذاب النار. وقرأ ابن هرمز "وأن" بفتح الـهمزة على العطف على "ولولا كلمة" والفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب "لولا" جائز. ويجوز أن يكون موضع "أن" رفعا على تقدير: وجب أن الظالمين لـهم عذاب أليم، فيكون منقطعا مما قبلـه كقراءة الكسر؛ فاعلمه.

---

(١) ضعيف.

(٢) في نسخة (الإسراء) بدل (سبحان).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٧٧)، ومسلم (٢٦٧٩).

قوله تعالى: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ترى الظالمين مشفقين ﴾ أي خائفين ﴿ مما كسبوا ﴾ أي من جزاء ما كسبوا. والظالمون ها هنا الكافرون؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر. ﴿ وهو واقع بهم ﴾ أي نازل بهم. ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات ﴾ الروضة: الموضع النزه الكثير الخضرة. وقد مضى في "الروم". ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾ أي من النعيم والثواب الجزيل. ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ أي لا يوصف ولا تهتدي العقول إلى كنه صفته؛ لأن الحق إذا قال كبير فمن ذا الذي يقدر قدره.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا ﴾ قرئ "يبشر" من بشره، "ويبشر" من أبشره، "ويبشر" من بشره، وفيه حذف؛ أي يبشر الله به عباده المؤمنين ليتعجلوا السرور ويزدادوا منه وجدا في الطاعة.

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ ﴿٢٣﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا ﴾ أي قل يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة جعلا. ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ قال الزجاج: "إلا المودة" استثناء ليس من الأول؛ أي إلا أن تودوني لقرابتي فتحفظوني. والخطاب لقريش خاصة؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبي وغيرهم. قال الشعبي: أكثر الناس علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها؛ فكتب أن رسول الله ﷺ كان أوسط الناس في قريش، فليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده؛ فقال الله له: "قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى" إلا أن تودوني في قرابتي منكم؛ أي تراعوا ما بيني وبينكم فتصدقوني. فـ "القربى" ها هنا قرابة الرحم؛ كأنه قال: اتبعوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوة. قال عكرمة: وكانت قريش تصل أرحامها فلما بعث النبي ﷺ قطعته؛ فقال: (صلوني كما كنتم تفعلون)[1]. فالمعنى على هذا: قل لا أسألكم عليه أجرا لكن أذكركم قرابتي؛ على استثناء ليس من الأول؛ ذكره النحاس. وفي البخاري عن طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: "إلا المودة في القربى" فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد؛ فقال ابن عباس: عجلت! إن النبي ﷺ لم

---

(١) ذكره الحافظ في "الفتح"، (٨/ ٥٦٥) على أنه ليس بحديث، بلفظ: ... فلما بعث النبي ﷺ قطعوه فقال: صلوني كما تصلون غيري من أقاربكم.

يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بينكم من القرابة[1]. فهذا قول. وقيل: القربى قرابة الرسول ﷺ، أي لا أسألكم أجرا إلا أن تودوا قرابتي وأهل بيتي، كما أمر بإعظامهم ذوي القربى. وهذا قول علي بن حسين وعمرو بن شعيب والسدي. وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس: لما أنزل الله عز وجل: "قل لا أسالكم عليه أجرا إلا المودة في القربى" قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين نودهم؟ قال: (علي وفاطمة وأبناؤهما)[2]. ويدل عليه أيضا ما روي عن علي ﷺ قال: شكوت إلى النبي ﷺ حسد الناس لي. فقال: (أما ترضى أن تكون رابع أربعة أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا وذريتنا خلف أزواجنا)[3]. وعن النبي ﷺ: (حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدا إذا لقيني يوم القيامة)[4]. وقال الحسن وقتادة: المعنى إلا أن يتوددوا إلى الله عز وجل ويتقربوا إليه بطاعته. فـ "القربى" على هذا بمعنى القربة. يقال: قربة وقربى بمعنى؛ كالزلفة والزلفى. وروى قزعة بن سويد عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ: (قل لا أسألكم على ما آتيتكم به أجرا إلا أن توادوا وتقربوا إليه بالطاعة)[5].

وروى منصور وعوف عن الحسن "قل لا أسالكم عليه أجرا إلا المودة في القربى" قال: يتوددون إلى الله عز وجل ويتقربون منه بطاعته. وقال قوم: الآية منسوخة وإنما نزلت بمكة؛ وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية، وأمرهم الله بمودة نبيّه ﷺ وصلة رحمه، فلما هاجر آوته الأنصار ونصروه، وأراد الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا: ﴿ وما أسئلكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ﴾ (الشعراء: ١٠٩) فأنزل الله تعالى: ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله ﴾ (سبأ: ٤٧) فنسخت بهذه الآية وبقوله: ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ (ص: ٨٦)، وقوله: ﴿ أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير ﴾ (المؤمنون: ٧٢)، وقوله: ﴿ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ﴾ (الطور: ٤٠) قاله الضحاك والحسين بن الفضل. ورواه جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. قال الثعلبي: وليس بالقوي، وكفى قبحا بقول من يقول: إن التقرب إلى الله بطاعته ومودة نبيِّه ﷺ وأهل بيته منسوخ؛ وقد قال النبي ﷺ: (من مات على حب آل محمد مات شهيدا. ومن مات على حب آل محمد جعل الله زوار قبره الملائكة والرحمة. ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه أيس اليوم من رحمة الله. ومن مات على بغض آل محمد لم يرح رائحة الجنة. ومن مات على بغض آل بيتي فلا نصيب له في شفاعتي)[6].

---

(١) ذكره البخاري في "التفسير"، (٤٨١٨).

(٢) ذكره ابن كثير في "التفسير" (٤/ ١١٢) وضعفه بقوله: "وهذا إسناد ضعيف فيه مبهم لا يعرف، عن شيخ شيعي مخترق وهو حسين الأشقر، ولا يقبل خبره في هذا المحل، وذكر نزول الآية في المدينة بعيد فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضي الله عنها أولاد بالكلية فإنها لم تتزوج بعلي ﷺ إلا بعد بدر من السنة الثانية.

(٣) ضعيف.

(٤) ضعيف.

(٥) ذكره الحافظ في "الفتح"، (٨/ ٥٦٥) وعزاه لأحمد وقال: وفي إسناده ضعف.

(٦) موضوع.

قلت: وذكر هذا الخبر الزمخشري في تفسيره بأطول من هذا فقال: وقال رسول الله ﷺ: (من مات على حب آل محمد مات شهيدا ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمان. ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير. ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ألا ومن مات على حب آل محمد فتح لـه في قبره بابان إلى الجنة. ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة. ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة. ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله. ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا. ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة)[١]. قال النحاس: ومذهب عكرمة ليست بمنسوخة؛ قال: كانوا يصلون أرحامهم فلما بعث النبي ﷺ قطعوه فقال: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودوني وتحفظوني لقرابتي ولا تكذبوني).

قلت: وهذا هو معنى قول ابن عباس في البخاري والشعبي عنه بعينه؛ وعليه لا نسخ. قال النحاس: وقول الحسن حسن، ويدل على صحته الحديث المسند عن رسول الله ﷺ كما حدثنا أحمد ابن محمد الأزدي قال أخبرنا الربيع بن سليمان المرادي قال أخبرنا أسد بن موسى قال حدثنا قزعة ـ وهو ابن يزيد البصري ـ قال حدثنا عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (لا أسألكم على ما أنبئكم به من البينات والـهدى أجراً إلا أن توادوا الله عز وجل وأن تتقربوا إليه بطاعته)[٢]. فهذا المبين عن الله عز وجل قد قال هذا، وكذا قالت الأنبياء صلى الله عليهم قبلـه: ﴿إن أجري إلا على الله﴾(سبأ: ٤٧).

الثانية: واختلفوا في سبب نزولـها؛ فقال ابن عباس: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما في يديه؛ فقالت الأنصار: إن هذا الرجل هداكم الله به وهو ابن أخيكم، وتنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما في يديه فنجمع لـه؛ ففعلوا، ثم أتوه به فنزلت. وقال الحسن: نزلت حين تفاخرت الأنصار والمهاجرون، فقالت الأنصار نحن فعلنا، وفخرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله ﷺ. روى مقسم عن ابن عباس قال: سمع رسول الله ﷺ شيئا فخطب فقال للأنصار: (ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله بي. ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله بي. ألم تكونوا خائفين فأمنكم الله بي ألا تردون علي)؟ فقالوا: بم نجيبك؟ قال: (تقولون ألم يطردك قومك فآويناك. ألم يكذبك قومك فصدقناك. . .) فعدد عليهم. قال فجثوا على ركبهم فقالوا: أنفسنا وأموالنا لك؛ فنزلت: "قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى"[٣] وقال قتادة: قال المشركون لعل محمداً فيما يتعاطاه يطلب أجرا؛ فنزلت هذه الآية؛ ليحثهم على مودته ومودة أقربائه. قال الثعلبي: وهذا أشبه بالآية، لأن السورة مكية.

---

(١)موضوع.

(٢)إسناده ضعيف، لضعف قزعة ضعفه ابن معين، وقال أحمد: مضطرب الحديث، وقال البخاري: ليس بذاك القوي.

(٣)ذكره ابن كثير في "تفسيره"، (٤/ ١١٢) من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم عن علي بن الحسين عن عبد المؤمن بن علي عن عبد السلام عن يزيد بن أبي الزناد وهو ضعيف، وفي الصحيحين قريب من هذا السياق ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ ومن يقترف حسنة ﴾ أي يكتسب. وأصل القرف الكسب، يقال: فلان يقرف لعياله، أي يكسب. والاقتراف الاكتساب؛ وهو مأخوذ من قولهم رجل قرفة، إذا كان محتالا. وقد مضى في "الأنعام" القول فيه. وقال ابن عباس: "ومن يقترف حسنة" قال المودة لآل محمد ﷺ. ﴿ نزد له فيها حسنا ﴾ أي نضاعف له الحسنة بعشر فصاعدا. ﴿ إن الله غفور شكور ﴾ قال قتادة: "غفور" للذنوب "شكور" للحسنات. وقال السدي: "غفور" لذنوب آل محمد ﷺ، "شكور" لحسناتهم.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا ﴾ الميم صلة، والتقدير أيقولون افترى. واتصل الكلام بما قبل؛ لأن الله تعالى لما قال: ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ (الشورى: ١٥)، وقال: ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق ﴾ (الشورى: ١٧) قال إتماما للبيان: "أم يقولون افترى على الله كذبا" يعني كفار قريش قالوا: إن محمدا اختلق الكذب على الله. ﴿ فإن يشأ الله ﴾ شرط وجوابه "يختم على قلبك" قال قتادة: يطبع على قلبك فينسيك القرآن؛ فأخبرهم الله أنه لو افترى عليه لفعل بمحمد ما أخبرهم به في هذه الآية. وقال مجاهد ومقاتل: "إن يشأ الله" يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم. وقيل: المعنى إن يشأ يزل تمييزك. وقيل: المعنى لو حدثت نفسك أن تفتري على الله كذبا لطبع على قلبك؛ قاله ابن عيسى. وقيل: فإن يشأ الله يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم وعاجلهم بالعقاب. فالخطاب له والمراد الكفار؛ ذكره القشيري. ثم ابتدأ فقال: ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ قال ابن الأنباري: "يختم على قلبك" تام. وقال الكسائي: فيه تقديم وتأخير؛ مجازه: والله يمحو الباطل؛ فحذف منه الواو في المصحف، وهو في موضع رفع. كما حذفت من قوله: ﴿ سندع الزبانية ﴾ (العلق: ١٨)، ﴿ ويدع الإنسان ﴾ (الإسراء: ١١) ولأنه عطف على قوله: "يختم على قلبك". وقال الزجاج: قوله: "أم يقولون افترى على الله كذبا" تمام؛ وقوله: "ويمح الله الباطل" احتجاج على من أنكر ما أتى به النبي ﷺ؛ أي لو كان ما أتى به باطلا لمحاه كما جرت به عادته في المفترين. ﴿ ويحق الحق ﴾ أي الإسلام فيثبته ﴿ بكلماته ﴾ أي بما أنزله من القرآن. ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ عام، أي بما في قلوب العباد. وقيل خاص. والمعنى أنك لو حدثت نفسك أن تفتري على الله كذبا لعلمه وطبع على قلبك.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾ قال قوم في نفوسهم: ما يريد إلا أن يحثنا على أقاربه من بعده؛ فأخبر جبريل النبي ﷺ، وأنهم قد اتهموه فأنزل: "أم يقولون افترى على الله كذبا" الآية؛

فقال القوم: يا رسول الله، فإنا نشهد أنك صادق ونتوب. فنزلت: ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾. قال ابن عباس: أي عن أوليائه وأهل طاعته. والآية عامة. وقد مضى الكلام في معنى التوبة وأحكامها؛ ومضى هذا اللفظ في "التوبة". ﴿ ويعفو عن السيئات ﴾ أي عن الشرك قبل الإسلام. ﴿ويعلم ما تفعلون ﴾ أي من الخير والشر. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بالتاء على الخطاب، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه. الباقون بالياء على الخبر، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنه بين خبرين: الأول "وهو الذي يقبل التوبة عن عباده" والثاني "ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات".

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الذين ﴾ في موضع نصب؛ أي ويستجيب الله للذين آمنوا، أي يقبل عبادة من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه. وقيل: يعطيهم مسألتهم إذا دعوه. وقيل: ويجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض؛ يقال: أجاب واستجاب بمعنى، وقد مضى في "البقرة". وقال ابن عباس: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ يشفعهم في إخوانهم. ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ قال: يشفعهم في إخوان إخوانهم. وقال المبرد: معنى "ويستجيب الذين آمنوا" وليستدع الذين آمنوا الإجابة؛ هكذا حقيقة معنى استفعل. فـ "الذين" في موضع رفع. ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: في سبب نزولها قيل: إنها نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق. وقال خباب بن الأرت: فينا نزلت؛ نظرنا إلى أموال بني النضير وقريظة وبني قينقاع فتمنيناها فنزلت. ﴿ ولو بسط ﴾[1] معناه وسع. وبسط الشيء نشره. وبالصاد أيضا. ﴿ لبغوا في الأرض ﴾ طغوا وعصوا. وقال ابن عباس: بغيهم طلبهم منزلة بعد منزلة ودابة بعد دابة ومركبا بعد مركب وملبسا بعد ملبس. وقيل: أراد لو أعطاهم الكثير لطلبوا ما هو أكثر منه، لقوله: (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثا)[2] وهذا هو البغي، وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: لو جعلناهم سواء في المال لما انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع. وقيل: أراد بالرزق المطر الذي هو سَبَبُ الرزق؛ أي لو أدام المطر لتشاغلوا به عن الدعاء، فيقبض تارة ليتضرعوا ويبسط أخرى ليشكروا. وقيل: كانوا إذا أخصبوا أغار بعضهم على بعض؛ فلا يبعد حمل البغي على هذا. الزمخشري: "لبغوا" من البغي وهو

---

(١) ذكره الواحدي في "أسباب النزول"، (ص ٢٥١، ٢٥٢).
(٢) أخرجاه في الصحيحين.

الظلم؛ أي لبغى هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأن الغنى مبطرة مأشرة، وكفى بقارون عبرة. ومنه قوله ﷺ: (أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها)[1] . ولبعض العرب:

وقد جعل الوسمي ينبت بيننا وبين بني دودان نبعا وشوحطا

يعني أنهم أحيوا فحدثوا أنفسهم بالبغي والتغابن. أو من البغي وهو البذخ والكبر؛ أي لتكبروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد. ﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ أي ينزل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفايتهم وقال مقاتل: "ينزل بقدر ما يشاء" يجعل من يشاء غنيا ومن يشاء فقيرا.

الثانية: قال علماؤنا: أفعال الرب سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يجب على الله الاستصلاح؛ فقد يعلم من حال عبد أنه لو بسط عليه قاده ذلك إلى الفساد فيزوي عنه الدنيا مصلحة له. فليس ضيق الرزق هوانا ولا سعة الرزق فضيلة؛ وقد أعطى أقواما مع علمه أنهم يستعملونه في الفساد، ولو فعل بهم خلاف ما فعل لكانوا أقرب إلى الصلاح. والأمر على الجملة مفوض إلى مشيئته، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح في كل فعل من أفعال الله تعالى. وروى أنس عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: (من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وإني لأسرع شيء إلى نصرة أوليائي وإني لأغضب لهم كما يغضب الليث الحرد. وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته ولا بد له منه. وما تقرب إلي عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه. وما يزال عبدي المؤمن يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ولسانا ويدا ومؤيدا فإن سألني أعطيته وإن دعاني أجبته. وإن من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإني عليم أن لو أعطيته إياه لدخله العجب فأفسده. وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر. وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى. وإني لأدبر عبادي لعلمي بقلوبهم فإني عليم خبير)[2] . ثم قال أنس: اللهم إني من عبادك المؤمنين الذين لا يصلحهم إلا الغنى، فلا تفقرني برحمتك.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾

قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد ومجاهد وأبو عمرو ويعقوب وابن وثاب والأعمش وغيرهما والكسائي "ينزل" مخففا. الباقون بالتشديد. وقرأ ابن وثاب أيضا والأعمش وغيرهما "قنطوا" بكسر النون؛ وقد تقدم جميع هذا. والغيث المطر؛ وسمي الغيث غيثا لأنه يغيث الخلق. وقد غاث الغيث الأرض أي أصابها. وغاث الله البلاد يغيثها غيثا. وغيثت الأرض تغاث غيثا فهي أرض مغيثة ومغيوثة. وعن الأصمعي قال: مررت ببعض قبائل العرب وقد مطروا فسألت عجوزا منهم: أتاكم

---

(١) ضعيف.

(٢) "ضعيف" ذكره ابن رجب الحنبلي في "جامع العلوم والحكم"، (ص٣٣٨) وعزاه للطبراني وغيره من حديث الحسن بن يحيى الخشني عن صدقة بن عبد الله الدمشقي، عن هشام الكناني عن أنس ﷺ عن جبريل عليه السلام عن ربه تعالى قال: "... فذكره". ثم قال: الخشني وصدقة ضعيفان، وهشام لا يعرف". وأصل الحديث في البخاري.

المطر؟ فقالت: غثنا ما شئنا غيثا، أي مطرنا. وقال ذو الرمة: قاتل الله أمة بني فلان ما أفصحها! قلت لها كيف كان المطر عندكم؟ فقالت: غثنا ما شئنا. ذكر الأول الثعلبي والثاني الجوهري. وربما سمي السحاب والنبات غيثا. والقنوط الإياس؛ قاله قتادة وغيره. قال قتادة: ذكر أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قحط المطر وقل الغيث وقنط الناس؟ فقال: مطرتم إن شاء الله، ثم قرأ: "وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا". والغيث ما كان نافعا في وقته، والمطر قد يكون نافعا وضارا في وقته وغير وقته؛ قاله الماوردي. ﴿ وينشر رحمته ﴾ قيل المطر؛ وهو قول السدي. وقيل ظهور الشمس بعد المطر؛ ذكره المهدوي. وقال مقاتل: نزلت في حبس المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا، ثم أنزل الله المطر. وقيل: نزلت في الأعرابي سأل رسول الله ﷺ عن المطر يوم الجمعة في خبر الاستسقاء[1]؛ ذكره القشيري، والله أعلم. ﴿ وهو الولي الحميد ﴾ "الولي" الذي ينصر أولياءه. "الحميد" المحمود بكل لسان.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ (٢٩) ﴾

قوله تعالى: ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض ﴾ أي علاماته الدالة على قدرته. ﴿ وما بث فيهما من دابة ﴾ قال مجاهد: يدخل في هذا الملائكة والناس، وقد قال تعالى: ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ (النحل: ٨). وقال الفراء أراد ما بث في الأرض دون السماء؛ كقوله: ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ (الرحمن: ٢٢) وإنما يخرج من الملح دون العذب. وقال أبو علي: تقديره وما بث في أحدهما؛ فحذف المضاف. وقوله. "يخرج منهما" أي من أحدهما. ﴿ وهو على جمعهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إذا يشاء قدير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ قرأ نافع وابن عامر "بما كسبت" بغير فاء. الباقون "فبما" بالفاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم للزيادة في الحرف والأجر. قال المهدوي: إن قدرت أن "ما" الموصولة جاز حذف الفاء وإثباتها، والإثبات أحسن. وإن قدرتها التي للشرط لم يجز الحذف عند سيبويه، وأجازه الأخفش واحتج بقوله تعالى: ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ (الأنعام: ١٢١). والمصيبة هنا الحدود على المعاصي؛ قاله الحسن. وقال الضحاك: ما تعلم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب؛ قال الله تعالى: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ ثم قال: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن؛ ذكره ابن المبارك عن عبد العزيز بن أبي رواد. قال أبو

---

(١) خبر الأعرابي أخرجه البخاري في "الاستسقاء"، (١٠١٤)، وكذا مسلم.

عبيد: إنما هذا على الترك، فأما الذي هو دائب في تلاوته حريص على حفظه إلا أن النسيان يغلبه فليس من ذلك في شيء. ومما يحقق ذلك أن النبي ﷺ كان ينسى الشيء من القرآن حتى يذكره؛ من ذلك حديث عائشة عن النبي ﷺ: سمع قراءة رجل في المسجد فقال: (ما لـه رحمه الله ! لقد أذكرني آيات كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا)[1]. وقيل: "ما" بمعنى الذي، والمعنى الذي أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم. وقال علي ﷺ: هذه الآية أرجى آية في كتاب الله عز وجل. وإذا كان يكفر عني بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه ! وقد روي هذا المعنى مرفوعا عنه ﷺ، قال علي بن أبي طالب ﷺ: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها النبي ﷺ: "وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم" الآية: (يا علي ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم. والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه)[2]. وقال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: (ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلا بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر)[3]. وقال الحسن: دخلنا على عمران بن حصين فقال رجل: لا بد أن أسألك عما أرى بك من الوجع؛ فقال عمران: يا أخي لا تفعل ! فوالله إني لأحب الوجع ومن أحبه كان أحب الناس إلى الله، قال الله تعالى: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبتم أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ فهذا مما كسبت يدي، وعفو ربي عما بقي أكثر.

وقال مُرَّة الهمذاني: رأيت على ظهر كف شريح قرحة فقلت: يا أبا أمية، ما هذا؟ قال: هذا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير. وقال ابن عون: إن محمد بن سيرين لما ركبه الدين اغتم لذلك فقال: إني لأعرف هذا الغم، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة. وقال أحمد بن أبي الحواري قيل لأبي سليمان الداراني: ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساء إليهم ؟ فقال: لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم، قال الله تعالى: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾. وقال عكرمة: ما من نكبة أصابت عبدا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره لـه إلا بها أو لينال درجة لم يكن يوصلـه إليها إلا بها. وروي أن رجلا قال لموسى: يا موسى، سل الله لي حاجة يقضيها لي هو أعلم بها؛ ففعل موسى؛ فلما نزل إذا هو بالرجل قد مزق السبع لحمه وقتلـه؛ فقال موسى: ما بال هذا يا رب؟ فقال الله تبارك وتعالى لـه: (يا موسى إنه سألني درجة علمت أنه لم يبلغها بعملـه فأصبته بما ترى لأجعلـها وسيلة لـه في نيل تلك الدرجة). فكان أبو سليمان الداراني إذا ذكر هذا الحديث يقول: سبحان من كان قادرا على أن ينيلـه تلك الدرجة بلا بلوى ! ولكنه يفعل ما يشاء.

قلت: ونظير هذه الآية في المعنى قولـه تعالى: ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾ (النساء: ١٢٣) وقد مضى القول فيه. قال علماؤنا: وهذا في حق المؤمنين، فأما الكافر فعقوبته مؤخرة إلى الآخرة. وقيل:

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه في "فضائل القرآن"، (٥٠٣٧).

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في "التفسير" (٤/ ١١٦) من رواية أبي حاتم، وقال: وكذا رواه الإمام أحمد عن مروان بن معاوية وعبدة عن أبي سخيلة.

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ١١٦، ١١٧) من رواية ابن أبي حاتم بسنده عن الحسن البصري مرسلا. قلت: وسنده ضعيف.

هذا خطاب للكفار، وكان إذا أصابهم شر قالوا: هذا بشؤم محمد؛ فرد عليهم وقال بل ذلك بشؤم كفركم. والأول أكثر وأظهر وأشهر. وقال ثابت البناني: إنه كان يقال ساعات الأذى يذهبن ساعات الخطايا. ثم فيها قولان: أحدهما: أنها خاصة في البالغين أن تكون عقوبة لـهم، وفي الأطفال أن تكون مثوبة لـهم. الثاني: أنها عقوبة عامة للبالغين في أنفسهم والأطفال في غيرهم من والد ووالدة. ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ أي عن كثير من المعاصي ألا يكون عليها حدود؛ وهو مقتضى قول الحسن. وقيل: أي يعفو عن كثير من العصاة ألا يعجل عليهم بالعقوبة. ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ أي بفائتين الله؛ أي لن تعجزوه ولن تفوتوه ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ تقدم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾ أي ومن علاماته الدالة على قدرته السفن الجارية في البحر كأنها من عظمها أعلام. والأعلام: الجبال، وواحد الجواري جارية، قال الله تعالى: ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾ (الحاقة: ١١). سميت جارية لأنها تجري في الماء. والجارية: هي المرأة الشابة؛ سميت بذلك لأنها يجري فيها ماء الشباب. وقال مجاهد: الأعلام القصور، واحدها علم؛ ذكره الثعلبي. وذكر الماوردي عنه أنها الجبال. وقال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم. قالت الخنساء ترثي أخاها صخرا:

وإن صخرا لتأتم الـهداة به كـأنه علـم فـي رأسـه نار

﴿ إن يشأ يسكن الريح ﴾ كذا قرأه أهل المدينة "الرياح" بالجمع. ﴿ فيظللن رواكد على ظهره ﴾ أي فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر لا تجري. ركد الماء ركودا سكن. وكذلك الريح والسفينة، والشمس إذا قام قائم الظهيرة. وكل ثابت في مكان فهو راكد. وركد الميزان استوى. وركد القوم هدؤوا. والمراكد: المواضع التي يركد فيها الإنسان وغيره. وقرأ قتادة "فيظللن" بكسر اللام الأولى على أن يكون لغة، مثل ضللت أضل. وفتح اللام هي اللغة المشهورة. ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي دلالات وعلامات ﴿ لكل صبار شكور ﴾ أي صبار على البلوى شكور على النعماء. قال قطرب: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر. قال عون بن عبد الله: فكم من منعم عليه غير شاكر، وكم من مبتلى غير صابر.

قوله تعالى: ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيوبق السفن أي يغرقهن بذنوب أهلـها. وقيل: يوبق أهل السفن. ﴿ ويعف عن كثير ﴾ من أهلـها فلا يغرقهم معها؛

حكاه الماوردي. وقيل: "ويعفو عن كثير" أي ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك. قال القشيري: والقراءة الفاشية "ويعف" بالجزم، وفيها إشكال؛ لأن المعنى: إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد ويهلكها بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف "يعف" على هذا لأنه يصير المعنى: إن يشأ يعف، وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة فهو إذًا عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى. وقد قرأ قوم "ويعفو" بالرفع، وهي جيدة في المعنى. ﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴾ يعني الكفار؛ أي إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أو بقيت السفن رواكد علموا أنه لا ملجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة وقد مضى هذا المعنى في غير موضع ومضى القول في ركوب البحر في "البقرة" وغيرها بما يغني عن إعادته. وقرأ نافع وابن عامر "ويعلم" بالرفع، الباقون بالنصب. فالرفع على الاستئناف بعد الشرط والجزاء؛ كقوله في سورة التوبة: ﴿ ويخزهم وينصركم عليهم ﴾ (التوبة: ١٤) ثم قال: ﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾ (التوبة: ١٥) رفعا. ونظيره في الكلام: إن تأتني آتك وينطلق عبد الله. أو على أنه خبر ابتداء محذوف. والنصب على الصرف؛ كقوله تعالى: ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (آل عمران: ١٤٢) صرف من حال الجزم إلى النصب استخفافا كراهية لتوالي الجزم؛ كقول النابغة:

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام
ويمسك بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام

وهذا معنى قول الفراء، قال: ولو جزم "ويعلم" جاز. وقال الزجاج: نصب على إضمار "أن" لأن قبلها جزما؛ تقول: ما تصنع أصنع مثله وأكرمَك. وإن شئت قلت وأكرمْك بالجزم. وفي بعض المصاحف "وليعلم". وهذا يدل على أن النصب بمعنى: وليعلم أو لأن يعلم. وقال أبو علي والمبرد: النصب بإضمار "أن" على أن يجعل الأول في تقدير المصدر؛ أي ويكون منه عفو وأن يعلم فلما حمله على الاسم أضمر أن، كما تقول: إن تأتني وتعطيني أكرمك، فتنصب تعطيني؛ أي إن يكن منك إتيان وأن تعطيني. ومعنى ﴿ من محيص ﴾ أي من فرار ومهرب؛ قاله قطرب. السدي: من ملجأ. وهو مأخوذ من قولهم: حاص به البعير حيصة إذا رمى به. ومنه قولهم: فلان يحيص عن الحق أي يميل عنه.

قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) ﴾

قوله تعالى: ﴿ فما أوتيتم من شيء ﴾ يريد من الغنى والسعة في الدنيا. ﴿ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أي فإنما هو متاع في أيام قليلة تمضي وتذهب؛ فلا ينبغي أن يتفاخر به. والخطاب للمشركين. ﴿ وما عند الله خير وأبقى ﴾ يريد من الثواب على الطاعة ﴿ للذين آمنوا ﴾ صدقوا ووحدوا ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ نزلت في أبي بكر الصديق حين أنفق جميع ماله في طاعة الله فلامه الناس. وجاء في الحديث أنه: أنفق ثمانين ألفا.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ والذين يجتنبون ﴾ الذين في موضع جر معطوف على قوله: "خير وأبقى للذين آمنوا" أي وهو للذين يجتنبون ﴿ كبائر الإثم ﴾ وقد مضى القول في الكبائر في "النساء". وقرأ حمزة والكسائي "كبير الإثم" والواحد قد يراد به الجمع عند الإضافة؛ كقوله تعالى: ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ (النحل: ١٨)، وكما جاء في الحديث: (منعت العراق درهمها وقفيزها)[١]. الباقون بالجمع هنا وفي "النجم". ﴿ والفواحش ﴾ قال السدي: يعني الزنى. وقاله ابن عباس، وقال: كبير الإثم الشرك. وقال قوم: كبائر الإثم ما تقع على الصغائر مغفورة عند اجتنابها. والفواحش داخلة في الكبائر، ولكنها تكون أفحش وأشنع كالقتل بالنسبة إلى الجرح، والزنى بالنسبة إلى المراودة. وقيل: الفواحش والكبائر بمعنى واحد، فكرر لتعدد اللفظ؛ أي يجتنبون المعاصي لأنها كبائر وفواحش. وقال مقاتل: الفواحش موجبات الحدود.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ أي يتجاوزون ويحلمون عمن ظلمهم. قيل: نزلت في عمر حين شُتم بمكة. وقيل: في أبي بكر حين لامه الناس على إنفاق ماله كله وحين شتم فحلم. وعن علي ﷺ قال: اجتمع لأبي بكر مال مرة، فتصدق به كله في سبيل الخير؛ فلامه المسلمون وخطأه الكافرون فنزلت: "فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون" - إلى قوله "وإذا ما غضبوا هم يغفرون". وقال ابن عباس: شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يرد عليه شيئا؛ فنزلت الآية. وهذه من محاسن الأخلاق؛ يشفقون على ظالمهم ويصفحون لمن جهل عليهم؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه؛ لقوله تعالى في آل عمران: ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ (آل عمران: ١٣٤). وهو أن يتناولك الرجل فتكظم غيظك عنه. وأنشد بعضهم:

إنـي عفـوت لظـالمي ظـلمي ووهبـت ذاك لـه على علمي
مـا زال يظلـمني وأرحمـه حتى بكـيت لـه من الظلم

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هم الأنصار بالمدينة؛ استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيبا منهم قبل الهجرة. ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أي أدوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ أي يتشاورون في الأمور. والشورى مصدر شاورته؛ مثل البشرى والذكرى ونحوه. فكانت الأنصار قبل قدوم النبي ﷺ إليهم إذا أرادوا أمرا

---

(١) أخرجه مسلم وقد تقدم.

تشاوروا فيه ثم عملوا عليه؛ فمدحهم الله تعالى به؛ قاله النقاش. وقال الحسن: أي إنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون؛ فمدحوا باتفاق كلمتهم. قال الحسن: ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم. وقال الضحاك: هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله ﷺ، وورد النقباء إليهم حتى اجتمع رأيهم في دار أبي أيوب على الإيمان به والنصرة له. وقيل تشاورهم فيما يعرض لهم؛ فلا يستأثر بعضهم بخبر دون بعض. وقال ابن العربي: الشورى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم قط إلا هدوا. وقد قال الحكيم:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي لبيب أو مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم

فمدح الله المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك. وقد كان النبي ﷺ يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب؛ وذلك في الآراء كثير. ولم يكن يشاورهم في الأحكام؛ لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام. فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يتشاورون في الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة. وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة؛ فإن النبي ﷺ لم ينص عليها حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما سبق بيانه. وقال عمر رضي الله عنه: نرضى لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا وتشاوروا في أهل الردة فاستقر رأي أبي بكر على القتال. وتشاوروا في الجد وميراثه، وفي حد الخمر وعدده. وتشاوروا بعد رسول الله ﷺ في الحروب؛ حتى شاور عمر الهرمزان حين وفد عليه مسلما في المغازي، فقال له الهرمزان: مثلها ومثل من فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له ريش وله جناحان ورجلان فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس وإن كسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس وإن شدخ الرأس ذهب الرجلان والجناحان. والرأس كسرى والجناح الواحد قيصر والآخر فارس؛ فمر المسلمين فلينفروا إلى كسرى. . . وذكر الحديث. وقال بعض العقلاء: ما أخطأت قط! إذا حزبني أمر شاورت قومي ففعلت الذي يرون؛ فإن أصبت فهم المصيبون، وإن أخطأت فهم المخطئون.

الثالثة: قد مضى في "آل عمران" ما تضمنته الشورى من الأحكام عند قوله تعالى: ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ (آل عمران: ١٥٩) والمشورة بركة. والمشورة: الشورى، وكذلك المشورة (بضم الشين)؛ تقول منه: شاورته في الأمر واستشرته بمعنى. وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها)[1]. قال حديث غريب. ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي ومما أعطيناهم يتصدقون. وقد تقدم في "البقرة".

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ

(١) أخرجه الترمذي في "الفتن"، (٢٢٦٦)، وفي سنده صالح المري وهو ضعيف، وانظر ضعيف الجامع (٦٤٦).

بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ والذين إذا أصابهم البغي ﴾ أي أصابهم بغي المشركين. قال ابن عباس: وذلك أن المشركين بغوا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وآذوهم وأخرجوهم من مكة، فأذن الله لهم بالخروج ومكن لهم في الأرض ونصرهم على من بغى عليهم؛ وذلك قوله في سورة الحج: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا... ﴾ (الحج: ٣٩ ـ ٤٠) الآيات كلها. وقيل: هو عام في بغي كل باغ من كافر وغيره، أي إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه. وهذه إشارة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود. قال ابن العربي: ذكر الله الانتصار في البغي في معرض المدح، وذكر العفو عن الجرم في موضع آخر في معرض المدح؛ فاحتمل أن يكون أحدهما رافعا للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعا إلى حالتين؛ إحداهما: أن يكون الباغي معلنا بالفجور؛ وقحا في الجمهور، مؤذيا للصغير والكبير؛ فيكون الانتقام منه أفضل. وفي مثله قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق. الثانية: أن تكون الفلتة، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة ويسأل المغفرة؛ فالعفو ها هنا أفضل، وفي مثله نزلت: ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ (البقرة: ٢٣٧). وقوله: ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ (المائدة: ٤٥). وقوله: ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ (النور: ٢٢).

قلت: هذا حسن، وهكذا ذكر الكيا الطبري في أحكامه قال: قوله تعالى: ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ يدل ظاهره على أن الانتصار في هذا الموضع أفضل؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله سبحانه وتعالى وإقام الصلاة؛ وهو محمول على ما ذكر إبراهيم النخعي أنهم كانوا يكرهون للمؤمنين أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق؛ فهذا فيمن تعدى وأصر على ذلك. والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجاني نادما مقلعا. وقد قال عقيب هذه الآية: "ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل". ويقتضي ذلك إباحة الانتصار لا الأمر به، وقد عقبه بقوله: "ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور". وهو محمول على الغفران عن غير المصر، فأما المصر على البغي والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلالة الآية التي قبلها. وقيل: أي إذا أصابهم البغي تناصروا عليه حتى يزيلوه عنهم ويدفعوه؛ قاله ابن بحر. وهو راجع إلى العموم على ما ذكرنا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ قال العلماء: جعل الله المؤمنين صنفين؛ صنف يعفون عن الظالم فبدأ بذكرهم في قول ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ (الشورى: ٣٧). وصنف ينتصرون من ظالمهم. ثم بين حد الانتصار بقوله: "وجزاء سيئة سيئة مثلها" فينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي. قال مقاتل وهشام بن حجير: هذا في المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سب أو شتم. وقاله الشافعي وأبو حنيفة وسفيان. قال سفيان: وكان ابن شبرمة يقول: ليس

بمكة مثل هشام. وتأول الشافعي في هذه الآية أن للإنسان أن يأخذ من مال من خانه مثل ما خانه من غير علمه؛ واستشهد في ذلك بقول النبي ﷺ لهند زوج أبي سفيان: (خذي من ماله ما يكفيك وولدك)[1] فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه. وقد مضى الكلام في هذا مستوفى في "البقرة". وقال ابن أبي نجيح: إنه محمول على المقابلة في الجراح. وإذا قال: أخزاه الله أو لعنه الله أن يقول مثله. ولا يقابل القذف بقذف ولا الكذب بكذب. وقال السدي: إنما مدح الله من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتداء بالزيادة على مقدار ما فعل به؛ يعني كما كانت العرب تفعله. وسمي الجزاء سيئة لأنه في مقابلتها؛ فالأول ساء هذا في مال أو بدن، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضا؛ وقد مضى هذا كله في "البقرة" مستوفى.

الثالثة : قوله تعالى: ﴿ فمن عفا وأصلح ﴾ قال ابن عباس: من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو ﴿ فأجره على الله ﴾ أي إن الله يأجره على ذلك. قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة. وقد مضى في "آل عمران" في هذا ما فيه كفاية، والحمد لله. وذكر أبو نعيم الحافظ عن علي ابن الحسين رضي الله عنه قال: إذا كان يوم القيامة نادى مناد أيكم أهل الفضل ؟ فيقوم ناس من الناس؛ فيقال: انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة؛ فيقولون إلى أين ؟ فيقولون إلى الجنة؛ قالوا قبل الحساب ؟ قالوا نعم. قالوا من أنتم ؟ قالوا أهل الفضل؛ قالوا وما كان فضلكم ؟ قالوا كنا إذا جهل علينا حلمنا وإذا ظلمنا صبرنا وإذا سيء إلينا عفونا؛ قالوا ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين[2]. وذكر الحديث.
﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ أي من بدأ بالظلم؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل: لا يحب من يتعدى في الاقتصاص ويجاوز الحد؛ قاله ابن عيسى.

الرابعة : قوله تعالى: ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه ﴾ أي المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيل إلى لومه، بل يحمد على ذلك مع الكافر. ولا لوم إن انتصر الظالم من المسلم؛ فالانتصار من الكافر حتم، ومن المسلم مباح، والعفو مندوب.

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ دليل على أن له أن يستوفي ذلك بنفسه. وهذا ينقسم ثلاثة أقسام: أحدها: أن يكون قصاصا في بدن يستحقه آدمي، فلا حرج عليه إن استوفاه من غير عدوان وثبت حقه عند الحكام، لكن يزجره الإمام في تفوته بالقصاص لما فيه من الجرأة على سفك الدم. وإن كان حقه غير ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج؛ وهو في الظاهر مطالب وبفعله مؤاخذ ومعاقب. القسم الثاني: أن يكون حد الله تعالى لا حق لآدمي فيه كحد الزنى وقطع السرقة؛ فإن لم يثبت ذلك عند حاكم أخذ به وعوقب عليه، وإن ثبت عند حاكم نظر، فإن كان قطعا في سرقة سقط به الحد لزوال العضو المستحق قطعه، ولم يجب عليه في ذلك حق لأن التعزير أدب، وإن كان جلدا لم يسقط به الحد لتعديه مع بقاء محله فكان مأخوذا بحكمه. القسم الثالث: أن يكون حقا في مال؛ فيجوز لصاحبه أن يغالب على حقه حتى يصل

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد سبق.
(٢) إسناده واه، وقد تقدم.

إليه إن كان ممن هو عالم به، وإن كان غير عالم نظر، فإن أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن لـه الاستسرار بأخذه. وإن كان لا يصل إليه بالمطالبة لجحود من هو عليه من عدم بينة تشهد لـه ففي جواز استسراره بأخذه مذهبان: أحدهما: جوازه؛ وهو قول مالك والشافعي. الثاني: المنع؛ وهو قول أبي حنيفة.

السادسة: قولـه تعالى: ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾ أي بعدوانهم عليهم؛ في قول أكثر العلماء. وقال ابن جريج: أي يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم. ﴿ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لـهم عذاب أليم﴾ أي في النفوس والأموال؛ في قول الأكثرين. وقال مقاتل: بغيهم عملهم بالمعاصي. وقال أبو مالك: هو ما يرجوه كفار قريش أن يكون بمكة غير الإسلام دينا. وعلى هذا الحد قال ابن زيد: إن هذا كلـه منسوخ بالجهاد، وإن هذا للمشركين خاصة. وقول قتادة: إنه عام؛ وكذا يدل ظاهر الكلام. وقد بيناه والحمد لله.

السابعة: قال ابن العربي: هذه الآية في مقابلة الآية المتقدمة في "براءة" وهي قولـه: ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ (التوبة: ٩١)؛ فكما نفى الله السبيل عمن أحسن فكذلك نفاها على من ظلم؛ واستوفى بيان القسمين.

الثامنة: واختلف علماؤنا في السلطان يضع على أهل بلد مالا معلوما يأخذهم به ويؤدونه على قدر أموالـهم؛ هل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد بتمام ما جعل عليهم. فقيل لا؛ وهو قول سحنون من علمائنا. وقيل: نعم، لـه ذلك إن قدر على الخلاص؛ وإليه ذهب أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي ثم المالكي. قال: ويدل عليه قول مالك في الساعي يأخذ من غنم أحد الخلطاء شاة وليس في جميعها نصاب إنها مظلمة على من أخذت لـه لا يرجع على أصحابه بشيء. قال: ولست آخذ بما روي عن سحنون؛ لأن الظلم لا أسوة فيه، ولا يلزم أحد أن يولج نفسه في ظلم مخافة أن يضاعف الظلم على غيره، والله سبحانه يقول: "إنما السبيل على الذين يظلمون الناس".

التاسعة: واختلفت العلماء في التحليل؛ فكان ابن المسيب لا يحلل أحدا من عرض ولا مال. وكان سليمان بن يسار ومحمد بن سيرين يحللان من العرض والمال. ورأى مالك التحليل من المال دون العرض. روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب "لا أحلل أحدا" فقال: ذلك يختلف؛ فقلت لـه يا أبا عبد الله، الرجل يسلف الرجل فيهلك ولا وفاء لـه؟ قال: أرى أن يحلله وهـو أفضل عندي؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ (الزمر: ١٨). فقيل لـه: الرجل يظلم الرجل؟ فقال: لا أرى ذلك، هو عندي مخالف للأول، يقول الله تعالى: "إنما السبيل على الذين يظلمون الناس" ويقول تعالى: ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ (التوبة: ٩١) فلا أرى أن يجعلـه من ظلمه في حل. قال ابن العربي: فصار في المسألة ثلاثة أقوال: أحدها: لا يحلله بحال؛ قاله سعيد بن المسيب. الثاني: يحلله؛ قالـه محمد بن سيرين. الثالث: إن كان مالا حلله وإن كان ظلما لم يحلله؛ وهو قول مالك. وجه الأول ألا يحلل ما حرم الله؛ فيكون

كالتبديل لحكم الله . ووجه الثاني أنه حقه فلـه أن يسقط كما يسقط دمه وعرضه . ووجه الثالث الذي اختاره مالك هو أن الرجل إذا غلب على أداء حقك فمن الرفق به أن يتحلله ، وإن كان ظالما فمن الحق ألا تتركه لئلا تغتر الظلمة ويسترسلوا في أفعالـهم القبيحة . وفي صحيح مسلم حديث أبي اليسر الطويل وفيه أنه قال لغريمه: اخرج إلي، فقد علمت أين أنت؛ فخرج؛ فقال: ما حملك على أن اختبأت مني؟ قال: أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك، خشيت والله أن أحدثك فأكذبك، وأن أعدك فأخلفك، وكنت صاحب رسول الله ﷺ، وكنت والله معسرا . قال قلت: آلله؟ قال الله؛ قال: فأتى بصحيفة فمحاها فقال: إن وجدت قضاء فاقض، وإلا فأنت في حل . . . وذكر الحديث[١] . قال ابن العربي: وهذا في الحي الذي يرجى لـه الأداء لسلامة الذمة ورجاء التمحل، فكيف بالميت الذي لا محاللة لـه ولا ذمة معه .

العاشرة: قال بعض العلماء: إن من ظلم وأخذ لـه مال فإنما لـه ثواب ما احتبس عنه إلى موته، ثم يرجع الثواب إلى ورثته، ثم كذلك إلى آخرهم؛ لأن المال يصير بعده للوارث . قال أبو جعفر الداودي المالكي: هذا صحيح في النظر؛ وعلى هذا القول إن مات الظالم قبل من ظلمه ولم يترك شيئا أو ترك ما لم يعلم وارثه فيه بظلم لم تنتقل تباعة المظلوم إلى ورثة الظالم؛ لأنه لم يبق للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم .

الحادية عشرة : قولـه تعالى: ﴿ ولمن صبر وغفر ﴾ أي صبر على الأذى و "غفر" أي ترك الانتصار لوجه الله تعالى؛ وهذا فيمن ظلمه مسلم . ويحكى أن رجلا سب رجلا في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية؛ فقال الحسن: عقلـها والله ! وفهمها إذ ضيعها الجاهلون . وبالجملة العفو مندوب إليه، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبا إليه كما تقدم؛ وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي وقطع مادة الأذى، وعن النبي ﷺ ما يدل عليه، وهو أن زينب أسمعت عائشة رضي الله عنهما بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهي، فقال لعائشة: (دونك فانتصري)[٢] خرَّجه مسلم في صحيحه بمعناه . وقيل: "صبر" عن المعاصي وستر على المساوئ . ﴿ إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ أي من عزائم الله التي أمر بها . وقيل: من عزائم الصواب التي وفق لـها . وذكر الكلبي والفراء أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع ثلاث آيات قبلـها، وقد شتمه بعض الأنصار فرد عليه ثم أمسك . وهي المدنيات من هذه السورة . وقيل: هذه الآيات في المشركين، وكان هذا في ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آية القتال؛ وهو قول ابن زيد، وقد تقدم . وفي تفسير ابن عباس "ولمن انتصر بعد ظلمه" يريد حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة وعليا وجميع المهاجرين رضوان الله عليهم . ﴿ فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعليا رضوان الله عليهم أجمعين . ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود، وكل من قاتل من المشركين يوم بدر . ﴿ ويبغـون

---

(١) أخرجه مسلم في "الزهد" ، (٣٠٠٦) .

(٢) أخرجاه بنحوه في الصحيحين، وأحمد واللفظ له .

في الأرض ﴾ يريد بالظلم والكفر. ﴿ أولئك لهم عذاب أليم ﴾ يريد وجيع. ﴿ ولمن صبر وغفر ﴾ يريد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ومصعب بن عمير وجميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين. ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ حيث قبلوا الفداء وصبروا على الأذى.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي يخذله ﴿ فما له من ولي من بعده ﴾ هذا فيمن أعرض عن النبي ﷺ فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والمودة في القربى، ولم يصدقه في البعث وأن متاع الدنيا قليل. أي من أضله الله عن هذه الأشياء فلا يهديه هاد. قوله تعالى: ﴿ وترى الظالمين ﴾ أي الكافرين. ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ يعني جهنم. وقيل رأوا العذاب عند الموت. ﴿ يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾ يطلبون أن يردوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله فلا يجابون إلى ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وتراهم يعرضون عليها ﴾ أي على النار لأنها عذابهم؛ فكنى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث لأن ذلك العذاب هو النار، وإن شئت جهنم، ولو راعى اللفظ لقال عليه. ثم قيل: هم المشركون جميعا يعرضون على جهنم عند انطلاقهم إليها؛ قاله الأكثرون. وقيل: آل فرعون خصوصا، تحبس أرواحهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح؛ فهو عرضهم عليها؛ قاله ابن مسعود. وقيل: إنهم عامة المشركين، تعرض عليهم ذنوبهم في قبورهم، ويعرضون على العذاب في قبورهم؛ وهذا معنى قول أبي الحجاج. ﴿ خاشعين من الذل ﴾ ذهب بعض القراء إلى الوقف على "خاشعين". وقوله: "من الذل" متعلق بـ "ينتظرون". وقيل: متعلق بـ "خاشعين". والخشوع الانكسار والتواضع. ومعنى ﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ أي لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعا تاما؛ لأنهم ناكسو الرؤوس. والعرب تصف الذليل بغض الطرف، كما يستعملون في ضده حديد النظر إذا لم يتهم بريبة فيكون عليه منها غضاضة. وقال مجاهد: "من طرف خفي" أي ذليل، قال: وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يحشرون عميا، وعين القلب طرف خفي. وقال قتادة والسدي والقرظي وسعيد بن جبير: يسارقون النظر من شدة الخوف. وقيل: المعنى ينظرون من عين ضعيفة النظر. وقال يونس: "من" بمعنى الباء؛ أي ينظرون بطرف خفي، أي ضعيف من الذل والخوف، ونحوه عن الأخفش. وقال ابن عباس: بطرف ذابل ذليل. وقيل: أي يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لما يرون من أصناف العذاب.

قوله تعالى: ﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ أي يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حل بالكفار إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء فإنهم خسروا

أنفسهم لأنهم في العذاب المخلد، وخسروا أهليهم لأن الأهل إن كانوا في النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينه وبينهم. وقيل: خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لـهم أهل في الجنة من الحور العين. وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا لـه منزلان منزل فـي الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزلـه فذلك قولـه تعالى: ﴿ أولئك هم الوارثون[1] ﴾) (المؤمنون: ١٠). وقد تقدم. وفي مسند الدارمي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من أحد يدخلـه الله الجنة إلا زوجه اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار وما منهن واحدة إلا ولـها قبل شهي ولـه ذكر لا ينثني)[2]. قال هشام بن خالد: (من ميراثه من أهل النار) يعني رجالا أدخلوا النار فورث أهل الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون. ﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ أي دائم لا ينقطع. ثم يجوز أن يكون هذا من قول المؤمنين، ويجوز أن يكون ابتداء من الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وما كان لـهم من أولياء ﴾ أي أعوانا ونصراء ﴿ ينصرونهم من دون الله ﴾ أي من عذابه ﴿ ومن يضلل الله فما لـه من سبيل ﴾ أي طريق يصل به إلى الحق في الدنيا والجنة في الآخرة؛ لأنه قد سدت عليه طريق النجاة.

قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ استجيبوا لربكم ﴾ أي أجيبوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة. استجاب وأجاب بمعنى؛ وقد تقدم. ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا مرد لـه من الله ﴾ يريد يوم القيامة؛ أي لا يرده أحد بعدما حكم الله به وجعلـه أجلا ووقتا. ﴿ ما لكم من ملجأ يومئذ ﴾ أي من ملجأ ينجيكم من العذاب. ﴿ وما لكم من نكير ﴾ أي من ناصر ينصركم؛ قاله مجاهد. وقيل: النكير بمعنى المنكر؛ كالأليم بمعنى المؤلم؛ أي لا تجدون يومئذ منكرا لما ينزل بكم من العذاب؛ حكاه ابن أبي حاتم؛ وقاله الكلبي. الزجاج: معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها. وقيل: "من نكير" أي إنكار ما ينزل بكم من العذاب، والنكير والإنكار تغيير المنكر.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

(١) صحيح، انظر صحيح الجامع (٥٧٩٩).
(٢) ضعيف جداً، انظر ضعيف الجامع (٥١٤٣).

قولـه تعالى: ﴿ فإن أعرضوا ﴾ أي عن الإيمان ﴿ فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ أي حافظا لأعمالـهم حتى تحاسبهم عليها. وقيل: موكلا بهم لا تفارقهم دون أن يؤمنوا؛ أي ليس لك إكراههم على الإيمان. ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ وقيل: نسخ هذا بآية القتال. ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان ﴾ الكافر. ﴿ منا رحمة ﴾ رخـاء وصحـة. ﴿ فرح بها ﴾ بطر بها. ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ بلاء وشـدة. ﴿ بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ أي لما تقدم من النعمة فيعدد المصائب وينسى النعم.

قوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾

قوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ (٤٩) ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ لله ملك السماوات والأرض ﴾ ابتداء وخبر. ﴿يخلق ما يشاء﴾ من الخلق. ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ قال أبو عبيدة وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك: يهب لمن يشاء إناثا لا ذكور معهن، ويهب لمن يشاء ذكورا لا إناث معهم؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف فميزهم بسمة التعريف. وقال واثلة بن الأسقع: إن من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ فبدأ بالإناث. ﴿ أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ﴾ قال مجاهد: هو أن تلد المرأة غلاما ثم تلد جارية ثم تلد غلاما ثم تلد جارية. وقال محمد بن الحنفية: هو أن تلد توأما، غلاما وجارية، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا. قال القتبي: التزويج ها هنا هو الجمع بين البنين والبنات؛ تقول العرب: زوجت إبلي إذا جمعت بين الكبار والصغار. ﴿ ويجعل من يشاء عقيما ﴾ أي لا يولد لـه؛ يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيم. وعقمت المرأة تعقم عقما؛ مثل حمد يحمد. وعقمت تعقم، مثل عظم يعظم. وأصلـه القطع، ومنه الملك العقيم، أي تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفا على الملك. وريح عقيم؛ أي لا تلقح سحابا ولا شجرا. ويوم القيامة يوم عقيم؛ لأنه لا يوم بعده. ويقال: نساء عقم وعقم؛ قال الشاعر:

عقم النساء فما يلدن شبيهه   إن النســاء بمثلــه عقم

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في الأنبياء خصوصا وإن عم حكمها. وهب للوط الإناث ليس معهن ذكر، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث، وجعل عيسى ويحيى عقيمين؛ ونحوه عن ابن عباس وإسحاق بن بشر. قال إسحاق: نزلت في الأنبياء، ثم عمت. ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ﴾ يعني لوطا عليه السلام، لم يولد لـه ذكر وإنما ولد لـه ابنتان. ﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ يعني إبراهيم عليه السلام لم يولد لـه أنثى بل ولد لـه ثمانية ذكور. ﴿ أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ﴾ يعني رسول الله ﷺ، ولد لـه أربعة بنين وأربع بنات. ﴿ ويجعل من يشاء عقيما ﴾ يعني يحيى بن زكريا عليهما السلام؛ لم يذكر عيسى. ابن العربي: قال علماؤنا "يهب لمن

يشاء إناثا" يعني لوطا كان لـه بنات ولم يكن لـه ابن. "ويهب لمن يشاء الذكور" يعني إبراهيم، كان لـه بنون ولـم يكن لـه بنت. وقوله: "أو يزوجهم ذكرانا وإناثا" يعني آدم، كانت حواء تلد لـه في كل بطن توأمين ذكرا وأنثى، ويزوج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر، حتى أحكم الله التحريم في شرع نوح ﷺ. وكذلك محمد ﷺ كان لـه ذكور وإناث من الأولاد: القاسم والطيب والطاهر وعبد الله وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة؛ وكلـهم من خديجة رضي الله عنها، وإبراهيم وهو من مارية القبطية. وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا، إلى أن تقوم الساعة، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيئته النافذة؛ ليبقى النسل، ويتمادى الخلق، وينفذ الوعد، ويحق الأمر، وتعمـر الدنيا، وتأخذ الجنة وجهنم كل واحـدة ما يملؤها ويبقى. ففي الحديث: (إن النار لن تمتلئ حتى يضع الجبار فيها قدمه، فتقول قط قط. وأما الجنة فيبقى منها فينشئ الله لـها خلقا آخر)[1].

الثانية: قال ابن العربي: إن الله تعالى لعموم قدرته وشديد قوته يخلق الخلق ابتداء من غير شيء، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئا من شيء لا عن حاجة؛ فإنه قدوس عن الحاجات سلام عن الآفات، كما قال القدوس السلام؛ فخلق آدم من الأرض وخلق حواء من آدم وخلق النشأة من بينهما منهما مرتبا على الوطء كائنا عن الحمل موجودا في الجنين بالوضع؛ كما قال النبي ﷺ: (إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أذكرا وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل آنثا)[2]. وكذلك في الصحيح أيضا: (إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أعمامه وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخوالـه)[3].

قلت: وهذا معنى حديث عائشة لا لفظه خرجه مسلم من حديث عروة بن الزبير عنها أن امرأة قالت لرسول الله ﷺ: هل تغتسـل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟ فقال: (نعم) فقالت لـها عائشة: تربت يداك وألت؛ فقال رسول الله ﷺ: (دعيها وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك. إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخوالـه وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه)[4]. قال علماؤنا: فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضي الشبه؛ وقد جاء في حديث ثوبان خرجه مسلم أيضا أن النبي ﷺ قال لليهودي: (ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله...)[5] الحديث. فجعل في هذا الحديث أيضا العلو يقتضي الذكورة والأنوثة؛ فعلى مقتضى الحديثين يلزم اقتران الشبه للأعمام والذكورة إن علا مني الرجل، وكذلك يلزم إن علا مني المرأة اقتران الشبه للأخوال والأنوثة؛ لأنهما معلولا علة واحدة، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك؛ لأنا نجد الشبه للأخوال والذكورة والشبه للأعمام والأنوثة فتعين تأويل أحد الحديثين. والذي يتعين تأويلـه الذي في حديث ثوبان فيقال: إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم، ووجهه أن العلو لما كان معناه الغلبة من قولـهم سابقني فلان فسبقته أي

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، وفي غير موضع، ومسلم (٢٨٤٦).

(٢) أخرجه مسلم في "الحيض"، (٣١٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٠)، وفي مواضع أخر، ومسلم (١٣٠). واللفظ له.

(٤) التخريج السابق.

(٥) سبق.

غلبته؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ (الواقعة: ٦٠) أي بمغلوبين، قيل عليه علا. ويؤيد هذا التأويل قولـه في الحديث: (إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أذكرا وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل آنثا). وقد بنى القاضي أبو بكر بن العربي على هذه الأحاديث بناء فقال: إن للماءين أربعة أحوال: الأول: أن يخرج ماء الرجل أولا، الثاني: أن يخرج ماء المرأة أولا، الثالث: أن يخرج ماء الرجل أولا ويكون أكثر، الرابع: أن يخرج ماء المرأة أولا ويكون أكثر. ويتم التقسيم بأن يخرج ماء الرجل أولا ثم يخرج ماء المرأة بعده ويكون أكثر أو بالعكس؛ فإذا خرج ماء الرجل أولا وكان أكثر جاء الولد ذكرا بحكم السبق وأشبه الولد أعمامه بحكم الكثرة. وإن خرج ماء المرأة أولا وكان أكثر جاء الولد أنثى بحكم السبق وأشبه أخوالـه بحكم الغلبة. وإن خرج ماء الرجل أولا لكن لما خرج ماء المرأة بعده كان أكثر كان الولد ذكرا بحكم السبق وأشبه أخوالـه بحكم غلبة ماء المرأة، وإن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة، كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامه بحكم غلبة ماء الرجل. قال: وبانتظام هذه الأقسام يستتب الكلام ويرتفع التعارض عن الأحاديث، فسبحان الخالق العليم

الثالثة : قال علماؤنا: كانت الخلقة مستمرة ذكرا وأنثى إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخنثى فأتي به فريض العرب ومعمرها عامر بن الظرب فلم يدر ما يقول فيه وأرجأهم عنه؛ فلما جن عليه الليل تنكر موضعه، وأقض عليه مضجعه، وجعل يتقلى ويتقلب، وتجيء به الأفكار وتذهب، إلى أن أنكرت خادمة حالـه فقالت: ما بك؟ قال لـها: سهرت لأمر قصدت به فلم أدر ما أقول فيه ؟ فقالت ما هو؟ قال لـها: رجل لـه ذكر وفرج كيف يكون حالـه في الميراث ؟ قالت لـه الأمة: ورثه من حيث يبول؛ فعقلـها وأصبح فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين. وجاء الإسلام على ذلك فلم تنزل إلا في عهد علي ﷺ فقضى فيها. وقد روى الفرضيون عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه سئل عن مولود لـه قبل وذكر من أين يورث ؟ قال: من حيث يبول[(١)] . وروي أنه أتى بخنثى من الأنصار فقال: (ورثوه من أول ما يبول)[(٢)] . وكذا روى محمد بن الحنفية عن علي، ونحوه عن ابن عباس، وبه قال ابن المسيب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد، وحكاه المزني عن الشافعي. وقال قوم: لا دلالة في البول؛ فإن خرج البول منهما جميعا قال أبو يوسف: يحكم بالأكثر. وأنكره أبو حنيفة وقال: أتكيلـه ! ولم يجعل أصحاب الشافعي للكثرة حكما. وحكي عن علي والحسن أنهما قالا: تعد أضلاعه، فإن المرأة تزيد على الرجل بضلع واحد. وقد مضى ما للعلماء في هذا في آية المواريث في "النساء" مجودا والحمد لله.

الرابعة : قال القاضي أبو بكر بن العربي: وقد أنكر قوم من رؤوس العوام وجود الخنثى، لأن الله تعالى قسم الخلق إلى ذكر وأنثى. قلنا: هذا جهل باللغة، وغباوة عن مقطع الفصاحة، وقصور عن معرفة سعة القدرة. أما قدرة الله سبحانه فإنه واسع عليم، وأما ظاهر القرآن فلا ينفي وجود الخنثى؛

---

(١) أخرجه البيهقي في "الكبرى" ، (٦/ ٢٦١)، وقال: "محمد بن السائب الكلبي لا يحتج به" . وقد صح عن علي موقوفا.

(٢) انظر الإرواء (٦/ ١٥٢)، (١٧١١).

لأن الله تعالى قال: ﴿ لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء ﴾. فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه؛ لأن القدرة تقتضيه. وأما قولـه: ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما ﴾ فهذا إخبار عن الغالب في الموجودات، وسكت عن ذكر النادر لدخوله تحت عموم الكلام الأول، والوجود يشهد لـه والعيان يكذب منكره، وقد كان يقرأ معنا برباط أبي سعيد على الإمام الشهيد من بلاد المغرب خنثى ليس لـه لحية ولـه ثديان وعنده جارية؛ فربك أعلم به، ومع طول الصحبة عقلني الحياء عن سؤاله، وبودي اليوم لو كاشفته عن حالـه.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ﴾ سبب ذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر إليه؛ فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك. فقال النبي ﷺ: (إن موسى لن ينظر إليه) فنزل قولـه: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ﴾؛ ذكره النقاش والواحدي[1] والثعلبي. "وحيا" قال مجاهد: نفث ينفث في قلبه فيكون إلـهاما؛ ومنه قولـه ﷺ: (إن روح القدس نفث في روعي إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلـها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب. خذوا ما حل ودعوا ما حرم)[2]. ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ كما كلم موسى. ﴿ أو يرسل رسولا ﴾ كإرسالـه جبريل عليه السلام. وقيل: "إلا وحيا" رؤيا يراها في منامه؛ قاله محمد بن زهير. "أو من وراء حجاب" كما كلم موسى. "أو يرسل رسولا" قال زهير: هو جبريل عليه السلام. ﴿ فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم ﴾ وهذا الوحي من الرسل خطاب منهم للأنبياء يسمعونه نطقا ويرونه عيانا. وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحي على النبي ﷺ. قال ابن عباس: نزل جبريل عليه السلام على كل نبي فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وزكريا عليهم السلام. فأما غيرهم فكان وحيا إلـهاما في المنام. وقيل: "إلا وحيا" بإرسال جبريل "أو من وراء حجاب" كما كلم موسى. "أو يرسل رسولا" إلى الناس كافة. وقرأ الزهري وشيبة ونافع "أو يرسل رسولا فيوحي" برفع الفعلين. الباقون بنصبهما. فالرفع على الاستئناف؛ أي وهو يرسل. وقيل: "يرسل" بالرفع في موضع الحال؛ والتقدير إلا موحيا أو مرسلا. ومن نصب عطفوه على محل الوحي؛ لأن معناه وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي أو يرسل. ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الجار من أن المضمرة. ويكون في موضع الحال؛ التقدير أو بأن يرسل رسولا. ولا يجوز أن يعطف "أو يرسل" بالنصب على "أن يكلمه" لفساد المعنى؛ لأنه يصير: ما كان لبشر أن يرسلـه أو أن يرسل إليه رسولا، وهو قد أرسل الرسل من البشر وأرسل إليهم.

الثانية: احتج بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يكلم رجلا فأرسل إليه رسولا أنه حانث، لأن المرسل قد سمي فيها مكلما للمرسل إليه؛ إلا أن ينوي الحالف المواجهة بالخطاب. قال ابن المنذر:

---

(١) ذكره في "أسباب النزول"، (ص٢٥٢)، وإسناده ضعيف.

(٢) صحيح، أخرجه أبو نعيم عن أبي أمامة بأتم من هذا السياق، كما في صحيح الجامع (٢٠٨٥).

واختلفوا في الرجل يحلف ألا يكلم فلانا فكتب إليه كتابا أو أرسل إليه رسولا ؛ فقال الثوري : الرسول ليس بكلام. وقال الشافعي: لا يبين أن يحنث. وقال النخعي: والحكم في الكتاب يحنث. وقال مالك: يحنث في الكتاب والرسول. وقال مرة: الرسول أسهل من الكتاب. وقال أبو عبيد: الكلام سوى الخط والإشارة. وقال أبو ثور: لا يحنث في الكتاب. قال ابن المنذر: لا يحنث في الكتاب والرسول.

قلت: وهو قول مالك. قال أبو عمر: ومن حلف ألا يكلم رجلا فسلم عليه عامدا أو ساهيا، أو سلم على جماعة هو فيهم فقد حنث في ذلك كله عند مالك. وإن أرسل إليه رسولا أو سلم عليه في الصلاة لم يحنث.

قلت: يحنث في الرسول إلا أن ينوي المشافهة؛ للآية، وهو قول مالك وابن الماجشون. وقد مضى في أول "سورة مريم" هذا المعنى عن علمائنا مستوفى، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى : قوله تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك ﴾ أي وكالذي أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿ روحا ﴾ أي نبوة؛ قاله ابن عباس. الحسن وقتادة: رحمة من عندنا. السدي: وحيا. الكلبي: كتابا. الربيع: هو جبريل. الضحاك: هو القرآن. وهو قول مالك بن دينار. وسماه روحا لأن فيه حياة من موت الجهل. وجعله من أمره بمعنى أنزله كما شاء على من يشاء من النظم المعجز والتأليف المعجب. ويمكن أن يحمل قوله: ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ (الإسراء: ٨٥) على القرآن أيضا ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ (الإسراء: ٨٥) أي يسألونك من أين لك هذا القرآن، قل إنه من أمر الله أنزله علي معجزا؛ ذكره القشيري. وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض.

الثانية : قوله تعالى: ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ أي لم تكن تعرف الطريق إلى الإيمان. وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء متصفا بالإيمان. قال القشيري: وهو من مجوزات العقول، والذي صار إليه المعظم أن الله ما بعث نبيا إلا كان مؤمنا به قبل البعثة. وفيه تحكم، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به. قال القاضي أبو الفضل عياض: وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف؛ والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك. وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك؛ كما عرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم

السلام. قال الله تعالى: ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ (مريم: ١٢) قال المفسرون: أعطي يحيى العلم بكتاب الله في حال صباه. قال معمر: كان ابن سنتين أو ثلاث؛ فقال لـه الصبيان: لم لا تلعب! فقال: أللعب خلقت! وقيل في قولـه: ﴿ مصدقا بكلمة من الله ﴾ (آل عمران: ٣٩) صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين، فشهد لـه أنه كلمة الله وروحه وقيل: صدقه وهو في بطن أمه؛ فكانت أم يحيى تقول لمريم إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك تحية لـه. وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله: ﴿ ألا تحزني ﴾ (مريم: ٢٤) على قراءة من قرأ "مَنْ تحتها"، وعلى قول من قال: إن المنادي عيسى ونص على كلامه في مهده فقال: ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا ﴾ (مريم: ٣٠). وقال ﴿ ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ (الأنبياء: ٧٩) وقد ذكر من حكم سليمان وهو صبي يلعب في قصة المرجومة وفي قصة الصبي ما اقتدى به أبوه داود. وحكى الطبري أن عمره كان حين أوتي الملك اثني عشر عاما. وكذلك قصة موسى عليه السلام مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل. وقال المفسرون في قولـه تعالى: ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ﴾ (الأنبياء: ٥١): أي هديناه صغيرا؛ قاله مجاهد وغيره. وقال ابن عطاء: اصطفاه قبل إبداء خلقه.

وقال بعضهم: لما ولد إبراهيم بعث الله إليه ملكا يأمره عن الله تعالى أن يعرفه بقلبه ويذكره بلسانه فقال: قد فعلت؛ ولم يقل أفعل؛ فذلك رشده. وقيل: إن إلقاء إبراهيم في النار ومحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة. وإن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين. وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمس عشرة سنة. وقيل أوحي إلى يوسف وهو صبي عندما هم إخوته بإلقائه في الجب بقولـه تعالى: ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا ﴾ (يوسف: ١٥) الآية؛ إلى غير ذلك من أخبارهم. وقد حكى أهل السير أن آمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمدا ﷺ ولد حين ولد باسطا يديه إلى الأرض رافعا رأسه إلى السماء، وقال في حديثه ﷺ: (لما نشأت بغضت إلي الأوثان وبغض إلي الشعر ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعلـه إلا مرتين فعصمني الله منهما ثم لم أعد).

ثم يتمكن الأمر لـهم، وتترادف نفحات الله تعالى عليهم، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لـهم بالنبوة في تحصيل الخصال الشريفة النهاية دون ممارسة ولا رياضة. قال الله تعالى: ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ (يوسف: ٢٢). قال القاضي: ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدا نبئ واصطفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك. ومستند هذا الباب النقل. وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيلـه. قال القاضي: وأنا أقول إن قريشا قد رمت نبيّنا ﷺ بكل ما افترته، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته، مما نص الله عليه أو نقلته إلينا الرواة، ولـم نجد في شيء من ذلك تعييرا لواحد منهم برفضه آلـهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه. ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلونه في معبوده محتجين، ولكان توبيخهم لـه بنهيهم عما كان يعبد قبل أفظع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركه آلـهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل؛ ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لـم يجدوا

سبيلا إليه؛ إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا: ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ (البقرة: ١٤٢) كما حكاه الله عنهم.

الثالثة: وتكلم العلماء في نبينا ﷺ؛ هل كان متعبدا بدين قبل الوحي أم لا؛ فمنهم من منع ذلك مطلقا وأحاله عقلا. قالوا: لأنه يبعد أن يكون متبوعا من عرف تابعا، وبنوا هذا على التحسين والتقبيح. وقالت فرقة أخرى: بالوقف في أمره ﷺ وترك قطع الحكم عليه بشيء في ذلك، إذ لم يحل الوجهين منهما العقل ولا استبان عندها في أحدهما طريق النقل، وهذا مذهب أبي المعالي. وقالت فرقة ثالثة: إنه كان متعبدا بشرع من قبله وعاملا به؛ ثم اختلف هؤلاء في التعيين، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها؛ فلا يجوز أن يكون النبي على دين منسوخ. وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم؛ لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء. وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى؛ لأنه أقدم الأديان. وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بد أن يكون على دين ولكن عين الدين غير معلومة عندنا. وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتنا؛ إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة، وإن كان العقل يجوز ذلك كله. والذي يقطع به أنه ﷺ لم يكن منسوبا إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحدا من أمته ومخاطبا بكل شريعته؛ بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جل وعز وأنه ﷺ كان مؤمنا بالله عز وجل، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله، ولا زنى ولا شرب الخمر، ولا شهد السامر ولا حضر حلف المطر ولا حلف المطيبين؛ بل نزهه الله وصانه عن ذلك. فإن قيل: فقد روى عثمان بن أبي شيبة حديثا بسنده عن جابر أن النبي ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع ملكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه، فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد؟ فالجواب أن هذا حديث أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدا وقال: هذا موضوع أو شبيه بالموضوع. وقال الدارقطني: إن عثمان وهم في إسناده، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يلتفت إليه، والمعروف عن النبي ﷺ خلافه عند أهل العلم من قوله: (بغضت إلي الأصنام) وقوله في قصة بحيرا حين استحلف النبي ﷺ باللات والعزى إذ لقيه بالشام في سفرته مع عمه أبي طالب وهو صبي، ورأى فيه علامات النبوة فاختبره بذلك؛ فقال له النبي ﷺ: (لا تسألني بهما فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما) فقال له بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال: (سل عما بدا لك)[(١)]. وكذلك المعروف من سيرته ﷺ وتوفيق الله إياه أنه كان قبل نبوته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلفة في الحج، وكان يقف هو بعرفة، لأنه كان موقف إبراهيم عليه السلام. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿ قل بل ملة إبراهيم ﴾ (البقرة: ١٣٥) وقال: ﴿ أن اتبع ملة إبراهيم ﴾ (النحل: ١٢) وقال: ﴿ شرع لكم من الدين ﴾ (الشورى: ١٣) الآية. وهذا يقتضي أن يكون متعبدا بشرع. فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدين؛ على ما تقدم بيانه في غير موضع وفي هذه السورة عند قوله: ﴿ شرع لكم من الدين ﴾ (الشورى: ١٣) والحمد لله.

---

(١) صحيح، أخرجه الترمذي وغيره.

الرابعة : إذا تقرر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾. فقال جماعة: معنى الإيمان في هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه ؛ ذكره الثعلبي. وقيل: تفاصيل هذا الشرع ؛ أي كنت غافلا عن هذه التفاصيل. ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع ؛ ذكره القشيري: وقيل: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان؛ ونحوه عن أبي العالية. وقال بكر القاضي: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام. قال: وكان قبل مؤمنا بتوحيده ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل؛ فزاد بالتكليف إيمانا. وهذه الأقوال الأربعة متقاربة. وقال ابن خزيمة: عنى بالإيمان الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾(البقرة: ١٤٣) أي صلاتكم إلى بيت المقدس؛ فيكون اللفظ عاما والمراد الخصوص. وقال الحسين بن الفضل: أي ما كنت تدري ما الكتاب ولا أهل الإيمان. وهو من باب حذف المضاف؛ أي من الذي يؤمن ؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما. وقيل: ما كنت تدري شيئا إذ كنت في المهد وقبل البلوغ. وحكى الماوردي نحوه عن علي بن عيسى قال: ما كنت تدري ما الكتاب لولا الرسالة، ولا الإيمان لولا البلوغ. وقيل: ما كنت تدري ما الكتاب لولا إنعامنا عليك، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك، وهو محتمل. وفي هذا الإيمان وجهان: أحدهما: أنه الإيمان بالله، وهذا يعرفه بعد بلوغه وقبل نبوته. والثاني: أنه دين الإسلام، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوة.

قلت: الصحيح أنه ﷺ كان مؤمنا بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه؛ على ما تقدم. وقيل: "ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان" أي كنت من قوم أميين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان، حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾(العنكبوت: ٤٨) روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما. ﴿ولكن جعلناه ﴾ قال ابن عباس والضحاك: يعني الإيمان. السدي: القرآن. وقيل الوحي؛ أي جعلنا هذا الوحي ﴿نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ أي من نختاره للنبوة؛ كقوله تعالى: ﴿يختص برحمته من يشاء ﴾(آل عمران: ٧٤). ووحد الكناية لأن الفعل في كثرة أسمائه بمنزلة الفعل في الاسم الواحد؛ ألا ترى أنك تقول: إقبالك وإدبارك يعجبني؛ فتوحد، وهما اثنان. ﴿وإنك لتهدي ﴾ أي تدعو وترشد ﴿إلى صراط مستقيم ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه. وقال علي: إلى كتاب مستقيم. وقرأ عاصم الجحدري وحوشب "وإنك لتهدى" غير مسمى الفاعل؛ أي لتدعى. الباقون "لتهدي" مسمى الفاعل. وفي قراءة أبي "وإنك لتدعو". قال النحاس: وهذا لا يقرأ به؛ لأنه مخالف للسواد، وإنما يحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير؛ كما قال: "وإنك لتهدي" أي لتدعو. وروى معمر عن قتادة في قوله تعالى: "وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم" قال: ﴿ولكل قوم هاد ﴾(الرعد: ٧). ﴿صراط الله ﴾ بدل من الأول بدل المعرفة من النكرة. قال علي: هو القرآن. وقيل الإسلام. ورواه النواس بن سمعان عن النبي ﷺ. ﴿الذي له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ ملكا وعبدا وخلقا. ﴿ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ وعيد بالبعث والجزاء. قال سهل بن أبي الجعد: احترق مصحف فلم يبق إلا قوله: "ألا إلى الله تصير الأمور" وغرق مصحف فامحى كله إلا قوله: "ألا إلى الله تصير الأمور". والحمد لله وحده.

سورة الزخرف

مقدمة السورة:

مكية بإجماع. وقال مقاتل: إلا قوله: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ (الزخرف: ٤٥). وهي تسع وثمانون آية.

قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿حم، والكتاب المبين﴾ تقدم الكلام فيه. وقيل: "حم" قسم. "والكتاب المبين" قسم ثان؛ ولله أن يقسم بما شاء. والجواب ﴿إنا جعلناه﴾. وقال ابن الأنباري: من جعل جواب "والكتاب" "حم" ـ كما تقول نزل والله وجب والله ـ وقف على "الكتاب المبين". ومن جعل جواب القسم "إنا جعلناه" لم يقف على "الكتاب المبين". ومعنى: "جعلناه" أي سميناه ووصفناه؛ ولذلك تعدى إلى مفعولين؛ كقوله تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة﴾ (المائدة: ١٠٣). وقال السدي: أي أنزلناه قرآنا. مجاهد: قلناه. الزجاج وسفيان الثوري: بيناه. ﴿عربيا﴾ أي أنزلناه بلسان العرب؛ لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه؛ قاله سفيان الثوري وغيره. وقال مقاتل: لأن لسان أهل السماء عربي. وقيل: المراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأن الكتاب اسم جنس فكأنه أقسم بجميع ما أنزل من الكتب أنه جعل القرآن عربيا.

والكناية في قوله: "جعلناه" ترجع إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة؛ كقوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ (القدر: ١). ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي تفهمون أحكامه ومعانيه. فعلى هذا القول يكون خاصا للعرب دون العجم؛ قاله ابن عيسى.

وقال ابن زيد: المعنى لعلكم تتفكرون؛ فعلى هذا يكون خطابا عاما للعرب والعجم. ونعت الكتاب بالمبين لأن الله بين فيه أحكامه وفرائضه؛ على ما تقدم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وإنه في أم الكتاب﴾ يعني القرآن في اللوح المحفوظ ﴿لدينا﴾ عندنا ﴿لعلي حكيم﴾ أي رفيع محكم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض؛ قال الله تعالى: ﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون﴾ (الواقعة: ٧٨) وقال تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ﴾ (البروج: ٢٢). وقال ابن جريج: المراد بقوله تعالى: "وإنه" أي أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية. "لعلي" أي رفيع عن أن ينال فيبدل "حكيم" أي محفوظ من نقص أو تغيير. وقال ابن عباس: أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق؛ فالكتاب عنده؛ ثم قرأ "وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم". وكسر الهمزة من "أم الكتاب" حمزة والكسائي. وضم الباقون، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا ﴾ يعني: القرآن؛ عن الضحاك وغيره. وقيل: المراد بالذكر العذاب؛ أي أفنضرب عنكم العذاب ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم؛ قاله مجاهد وأبو صالح والسدي، ورواه العوفي عن ابن عباس. وقال ابن عباس: المعنى أفحسبتم أن نصفح عنكم العذاب ولما تفعلوا ما أمرتم به. وعنه أيضا أن المعنى أتكذبون بالقرآن ولا تعاقبون. وقال السدي أيضا: المعنى أفنترككم سدى فلا نأمركم ولا ننهاكم. وقال قتادة: المعنى أفنهلككم ولا نأمركم ولا ننهاكم. وعنه أيضا: أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به فلا ننزله عليكم. وقاله ابن زيد. قال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله ردده وكرره عليهم برحمته. وقال الكسائي: أفنطوي عنكم الذكر طيا فلا توعظون ولا تؤمرون. وقيل: الذكر التذكر؛ فكأنه قال: أنترك تذكيركم لأن كنتم قوما مسرفين؛ في قراءة من فتح. ومن كسر جعلها للشرط وما قبلها جوابا لها؛ لأنها لم تعمل في اللفظ. ونظيره: ﴿وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ (البقرة: ٢٧٨) وقيل: الجواب محذوف دل عليه ما تقدم؛ كما تقول: أنت ظالم إن فعلت. ومعنى الكسر عند الزجاج الحال؛ لأن في الكلام معنى التقرير والتوبيخ. ومعنى "صفحا" إعراضا؛ يقال صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه. وقد ضربت عنه صفحا إذا أعرضت عنه وتركته. والأصل فيه صفحة العنق؛ يقال: أعرضت عنه أي وليته صفحة عنقي. قال الشاعر (كثير عزة):

صفوحا فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت

وانتصب "صفحا" على المصدر لأن معنى "أفنضرب" أفنصفح. وقيل: التقدير أفنضرب عنكم الذكر صافحين، كما يقال: جاء فلان مشيا. ومعنى: ﴿ مسرفين ﴾ مشركين. واختار أبو عبيدة الفتح في "أن" وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم وابن عامر، قال: لأن الله تعالى عاتبهم على ما كان منهم، وعلمه قبل ذلك من فعلهم.

قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين ﴾ "كم" هنا خبرية والمراد بها التكثير؛ والمعنى ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء. كما قال: ﴿كم تركوا من جنات وعيون ﴾ (الدخان: ٢٥) أي ما أكثر ما تركوا. ﴿وما يأتيهم من نبي ﴾ أي لم يكن يأتيهم نبي ﴿إلا كانوا به يستهزئون ﴾ كاستهزاء قومك بك. يعزي نبيه محمدا ﷺ ويسليه. ﴿فأهلكنا أشد منهم بطشا ﴾ أي قوما أشد منهم قوة. والكناية في "منهم" ترجع إلى المشركين المخاطبين بقوله: "أفنضرب عنكم الذكر صفحا" فكنى عنهم بعد أن خاطبهم. و"أشد" نصب على الحال. وقيل: هو مفعول؛ أي فقد أهلكنا أقوى من هؤلاء المشركين في أبدانهم وأتباعهم. ﴿ومضى مثل الأولين ﴾ أي عقوبتهم؛ عن قتادة. وقيل: صفحة الأولين؛ فخبرهم بأنهم أهلكوا على كفرهم؛ حكاه النقاش والمهدوي. والمثل: الوصف والخبر.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم ﴾ يعني المشركين. ﴿ من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ فأقروا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم. وقد مضى في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهادا ﴾ وصف نفسه سبحانه بكمال القدرة. وهذا ابتداء إخبار منه عن نفسه، ولو كان هذا إخبارا عن قول الكفار لقال الذي جعل لنا الأرض "مهادا" فراشا وبساطا. وقد تقدم. وقرأ الكوفيون "مهدا" ﴿ وجعل لكم فيها سبلا ﴾ أي معايش. وقيل طرقا، لتسلكوا منها إلى حيث أردتم.

قوله تعالى: ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ فتستدلون بمقدوراته على قدرته. وقيل: "لعلكم تهتدون" في أسفاركم؛ قاله ابن عيسى. وقيل: لعلكم تعرفون نعمة الله عليكم؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل: تهتدون إلى معايشكم.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والذي نزل من السماء ماء بقدر ﴾ قال ابن عباس: أي لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم، بل هو بقدر لا طوفان مغرق ولا قاصر عن الحاجة، حتى يكون معاشا لكم ولأنعامكم. ﴿ فأنشرنا ﴾ أي أحيينا. ﴿ به ﴾ أي بالماء. ﴿ بلدة ميتا ﴾ أي مقفرة من النبات. ﴿ كذلك تخرجون ﴾ أي من قبوركم؛ لأن من قدر على هذا قدر على ذلك. وقد مضى في "الأعراف" مجودا. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر "يخرجون" بفتح الياء وضم الراء. الباقون على الفعل المجهول.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ والذي خلق الأزواج ﴾ أي والله الذي خلق الأزواج. قال سعيد بن جبير: أي الأصناف كلها. وقال الحسن: الشتاء والصيف والليل والنهار والسموات والأرض والشمس والقمر والجنة والنار. وقيل: أزواج الحيوان من ذكر وأنثى؛ قاله ابن عيسى. وقيل: أراد أزواج النبات؛ كما قال تعالى: ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ (ق: ٧) و﴿ من كل زوج كريم ﴾ (لقمان: ١٠). وقيل: ما يتقلب فيه الإنسان من خير وشر، وإيمان وكفر، ونفع وضر، وفقر وغنى، وصحة وسقم.

قلت: وهذا القول يعم الأقوال كلها ويجمعها بعمومه.

قوله تعالى: ﴿ وجعل لكم من الفلك ﴾ السفن ﴿ والأنعام ﴾ الإبل ﴿ ما تركبون ﴾ في البر والبحر. ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ ذكر الكناية لأنه رده إلى ما في قوله: "ما تركبون"؛ قاله أبو عبيد. وقال الفراء: أضاف الظهور إلى واحد لأن المراد به الجنس، فصار الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجيش والجند؛ فلذلك ذكر، وجمع الظهور، أي على ظهور هذا الجنس.

الثانية: قال سعيد بن جبير: الأنعام هنا الإبل والبقر. وقال أبو معاذ: الإبل وحدها؛ وهو الصحيح لقوله ﷺ: بينما رجل راكب بقرة إذ قالت له لم أخلق لهذا إنما خلقت للحرث فقال النبي ﷺ: (آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر)[1]. وما هما في القوم. وقد مضى هذا في أول (النحل) مستوفى. والحمد لله.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ يعني به الإبل خاصة بدليل ما ذكرنا. ولأن الفلك إنما تركب بطونها، ولكنه ذكرهما جميعا في أول الآية وعطف آخرها على أحدهما. ويحتمل أن يجعل ظاهرهما باطنهما؛ لأن الماء غمره وستره وباطنهما ظاهرا؛ لأنه انكشف للظاهرين وظهر للمبصرين.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ﴾ أي ركبتم عليه وذكر النعمة هو الحمد لله على تسخير ذلك لنا في البر والبحر. ﴿ وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا ﴾ أي ذلل لنا هذا المركب. وفي قراءة علي بن أبي طالب "سبحان من سخر لنا هذا". ﴿ وما كنا له مقرنين ﴾ أي مطيقين؛ في قول ابن عباس والكلبي. وقال الأخفش وأبو عبيدة: "مقرنين" ضابطين. وقيل: مماثلين في الأيد والقوة؛ من قولهم: هو قرن فلان إذا كان مثله في القوة. ويقال: فلان مقرن لفلان أي ضابط له. وأقرنت كذا أي أطقته. وأقرن له أي أطاقه وقوي عليه؛ كأنه صار له قرنا. قال الله تعالى: ﴿ وما كنا له مقرنين ﴾ أي مطيقين. وأنشد قطرب قول عمرو بن معد يكرب:

لقد علم القبائل ما عقيل لنا في النائبات بمقرنينا

وقال آخر:

ركبتم صعبتي أشرا وحيفا ولستم للصعاب بمقرنينا

والمقرن أيضا: الذي غلبته ضيعته؛ يكون له إبل أو غنم ولا معين له عليها، أو يكون يسقي إبله ولا ذائد له يذودها. قال ابن السكيت: وفي أصله قولان: أحدهما: أنه مأخوذ من الإقران؛ يقال: أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق. وأقرنت كذا إذا أطقته وحكمته؛ كأنه جعله في قرن - وهو الحبل - فأوثقه به وشده. والثاني: أنه مأخوذ من المقارنة وهو أن يقرن بعضها ببعض في السير؛ يقال: قرنت كذا بكذا إذا ربطته به وجعلته قرينه.

الخامسة: علمنا الله سبحانه ما نقول إذا ركبنا الدواب، وعرفنا في آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن؛ وهي قوله تعالى: ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴾ (هود: ٤١) فكم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت أو طاح من ظهرها فهلك. وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا. فلما كان الركوب مباشرة أمر محظور واتصالا

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد تقدم.

بأسباب من أسباب التلف أمر ألا ينسى عند اتصاله به يومه، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله عز وجل غير منفلت من قضائه. ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدا للقاء الله بإصلاحه من نفسه. والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه. حكى سليمان ابن يسار أن قوما كانوا في سفر فكانوا إذا ركبوا قالوا: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين" وكان فيهم رجل على ناقة له رازم ـ وهي التي لا تتحرك هزالا ـ الرازم من الإبل: الثابت على الأرض لا يقوم من الهزال. أو قد رزمت الناقة ترزم وترزم رزوما ورزاما: قامت من الإعياء والهزال فلم تتحرك؛ فهي رازم. قاله الجوهري في الصحاح. فقال: أما أنا فإني لهذه لمقرن، قال: فقمصت به فدقت عنقه. وروي أن أعرابيا ركب قعودا له وقال إني لمقرن له فركضت به القعود حتى صرعته فاندقت عنقه. ذكر الأول الماوردي والثاني ابن العربي. قال: وما ينبغي لعبد أن يدع قول هذا وليس بواجب ذكره باللسان؛ فيقول متى ركب وخاصة في السفر إذا تذكر: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له بمقرنين. وإنا إلى ربنا لمنقلبون" اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، والجور بعد الكور، وسوء المنظر في الأهل والمال؛ يعني بـ "الجور بعد الكور" تشتت أمر الرجل بعد اجتماعه. وقال عمرو بن دينار: ركبت مع أبي جعفر إلى أرض له نحو حائط يقال لها مدركة، فركب على جمل صعب فقلت له: أبا جعفر! أما تخاف أن يصرعك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: (على سنام كل بعير شيطان إذا ركبتموها فاذكروا اسم الله كما أمركم ثم امتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله)[1]. وقال علي بن ربيعة: شهدت علي بن أبي طالب ركب دابة يوما فلما وضع رجله في الركاب قال: باسم الله، فلما استوى على الدابة قال الحمد لله، ثم قال: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وإنا إلى ربنا لمنقلبون" ثم قال: الحمد لله والله أكبر ـ ثلاثا ـ اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت؛ ثم ضحك فقلت له: ما أضحكك؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، وقال كما قلت؛ ثم ضحك فقلت له ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: (العبد ـ أو قال ـ عجبا لعبد أن يقول اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيره)[2]. خرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، وأبو عبد الله محمد بن خويز منداد في أحكامه. وذكر الثعلبي له نحوه مختصرا عن علي ﷺ، ولفظه عنه: أن النبي ﷺ كان إذا وضع رجله في الركاب قال: (باسم الله ـ فإذا استوى قال ـ الحمد لله على كل حال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون وإذا نزلتم من الفلك والأنعام فقولوا اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين)[3]. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: من ركب ولم يقل "سبحان الذي سخر

---

(١) "حسن" أخرجه أحمد والحاكم بنحوه من حديث أبي الأوس الخزاعي، وانظر صحيح الجامع (٥٦٩٩)، وراجع الصحيحة (٥٦٩٩).

(٢) "صحيح" أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم، وكذا صححه العلامة أحمد شاكر في تعليقه على "المسند"، (٧٥٣).

(٣) ضعيف.

لنا هذا وما كنا لـه مقرنين" قال لـه الشيطان تغنه؛ فإن لم يحسن قال لـه تمنه؛ ذكره النحاس. ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق؛ فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف، فلا يزالون يستقون حتى تمل طلاهم وهم على ظهور الدواب أو في بطون السفن وهي تجري بهم؛ لا يذكرون إلا الشيطان، ولا يمتثلون إلا أوامره. الزمخشري: ولقد بلغني أن بعض السلاطين ركب وهو يشرب الخمر من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر، فلم يصح إلا بعدما اطمأنت به الدار، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به؛ فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمر الله به في هذه الآية ! ؟

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وجعلوا لـه من عباده جزءا ﴾ أي عدلا؛ عن قتادة. يعني ما عبد من دون الله عز وجل. الزجاج والمبرد: الجزء ها هنا البنات؛ عجب المؤمنين من جهلـهم إذ أقروا بأن خالق السموات والأرض هو الله ثم جعلوا لـه شريكا أو ولدا، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به؛ لأن هذا من صفات النقص. قال الماوردي: والجزء عند أهل العربية البنات؛ يقال: قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات؛ قال الشاعر:

إن أجزأت حرة يوما فلا عجب قـد تجـزئ الحـرة المذكار أحيانا

الزمخشري: ومن بدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث، وادعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث متحول، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه: أجزأت المرأة، ثم صنعوا بيتا، وبيتا:

إن أجزأت حرة يوما فلا عجب زوجتها من بنات الأوس مجزئة

وإنما قولـه: "وجعلوا لـه من عباده جزءًا" متصل بقولـه: "ولئن سألتهم" أي ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به؛ وقد جعلوا لـه مع ذلك الاعتراف من عباده جزءا فوصفوه بصفات المخلوقين. ومعنى "من عباده جزءا" أن قالوا الملائكة بنات الله؛ فجعلوهم جزءا لـه وبعضا، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءا لـه. وقرئ "جزؤا" بضمتين. ﴿ إن الإنسان ﴾ يعني الكافر. ﴿ لكفور مبين ﴾ قال الحسن: يعد المصائب وينسى النعم. "مبين" مظهر الكفر.

قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات ﴾ الميم صلة؛ تقديره اتخذ مما يخلق بنات كما زعمتم أن الملائكة بنات الله؛ فلفظه لفظ الاستفهام ومعناه التوبيخ. ﴿ وأصفاكم بالبنين ﴾ أي اختصكم وأخلصكم بالبنين؛ يقال: أصفيته بكذا؛ أي آثرته به. وأصفيته الود أخلصته لـه وصافيته وتصافينا تخالصنا. عجب من إضافتهم إلى الله اختيار البنات مع اختيارهم لأنفسهم البنين، وهو مقدس عن أن يكون لـه ولد إن توهم جاهل أنه اتخذ لنفسه ولدا فهلا أضاف إليه أرفع الجنسين ! ولـم جعل هؤلاء لأنفسهم أشرف الجنسين ولـه الأخس ؟ وهذا كما قال تعالى: ﴿ ألكم الذكر ولـه الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ (النجم: ٢٢).

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ﴾ أي بأنه ولدت له بنت ﴿ ظل وجهه ﴾ أي صار وجهه ﴿ مسودا ﴾ قيل ببطلان مثله الذي ضربه. وقيل: بما بشر به من الأنثى؛ دليله في سورة النحل: ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ﴾ (النحل: ٥٨). ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له قد ولدت له أنثى اغتم واربد وجهه غيظا وتأسفا وهو مملوء من الكرب. وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا وإنما نأخذ ما أعطينا

وقرئ "مسودٌ، ومسوادٌ". وعلى قراءة الجماعة يكون وجهه اسم "ظل" و"مسودا" خبر "ظل". ويجوز أن يكون في "ظل" ضمير عائد على أحد وهو اسمها، و"وجهه" بدل من الضمير، و"مسودا" خبر "ظل". ويجوز أن يكون رفع "وجهه" بالابتداء ويرفع "مسودا" على أنه خبره، وفي "ظل" اسمها والجملة خبرها. ﴿ وهو كظيم ﴾ أي حزين؛ قاله قتادة. وقيل مكروب؛ قاله عكرمة وقيل ساكت؛ قاله ابن أبي حاتم؛ وذلك لفساد مثله وبطلان حجته. ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله فقد جعل الملائكة شبها لله؛ لأن الولد من جنس الوالد وشبهه. ومن اسود وجهه بما يضاف إليه مما لا يرضى أولى من أن يسود وجهه بإضافة مثل ذلك إلى من هو أجل منه؛ فكيف إلى الله عز وجل! وقد مضى في "النحل" في معنى هذه الآية ما فيه كفاية.

قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ ﴿١٨﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ أو من ينشأ ﴾ أي يربى ويشب. والنشوء: التربية؛ يقال: نشأت في بني فلان نشئاً ونشوءاً إذا شببت فيهم. ونشئ وأنشئ بمعنى. وقرأ ابن عباس والضحاك وابن وثاب وحفص وحمزة والكسائي وخلف "ينشأ" بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين؛ أي يربى ويكبر في الحلية. واختاره أبو عبيد، لأن الإسناد فيها أعلى. وقرأ الباقون "ينشأ" بفتح الياء وإسكان النون، واختاره أبو حاتم، أي يرسخ وينبت، وأصله من نشأ أي ارتفع، قاله الهروي. فـ "ينشأ" متعد، و"ينشأ" لازم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ في الحلية ﴾ أي في الزينة. قال ابن عباس وغيره: هن الجواري زيهن غير زي الرجال. قال مجاهد: رخص للنساء في الذهب والحرير؛ وقرأ هذه الآية. قال الكيا: فيه دلالة على إباحة الحلي للنساء، والإجماع منعقد عليه والأخبار فيه لا تحصى.

قلت: روي عن أبي هريرة أنه كان يقول لابنته: يا بنية، إياك والتحلي بالذهب! فإني أخاف عليك اللهب.

قولـه تعالى: ﴿ وهو في الخصام غير مبين ﴾ أي في المجادلة والإدلاء بالحجة. قال قتادة: ما تكلمت امرأة ولـها حجة إلا جعلتها على نفسها. وفي مصحف عبد الله "وهو في الكلام غير مبين". ومعنى الآية: أيضاف إلى الله من هذا وصفه! أي لا يجوز ذلك. وقيل: المنشأ في الحلية أصنامهم التي صاغوها من ذهب وفضة وحلوها؛ قاله ابن زيد والضحاك. ويكون معنى "وهو في الخصام غير مبين" على هذا القول: أي ساكت عن الجواب. و"من" في محل نصب، أي اتخذوا لله من ينشأ في الحلية. ويجوز أن يكون رفعا على الابتداء والخبر مضمر؛ قاله الفراء. وتقديره: أو من كان على هذه الحالة يستحق العبادة. وإن شئت قلت خفض ردا إلى أول الكلام وهو قولـه: "بما ضرب" أو على "ما" في قولـه: "مما يخلق بنات". وكون البدل في هذين الموضعين ضعيف لكون ألف الاستفهام حائلة بين البدل والمبدل منه. ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ﴾ قرأ الكوفيون "عباد" بالجمع. واختاره أبو عبيد؛ لأن الإسناد فيها أعلى، ولأن الله تعالى إنما كذبهم في قولـهم إنهم بنات الله، فأخبرهم أنهم عبيد وأنهم ليسوا بناته. وعن ابن عباس أنه قرأ "عُبَّاد الرحمن"، فقال سعيد بن جبير: إن في مصحفي "عبد الرحمن" فقال: امحها واكتبها "عباد الرحمن"[1]. وتصديق هذه القراءة قولـه تعالى: ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ (الأنبياء: ٢٦). وقولـه تعالى: ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ (الكهف: ١٠٢). وقولـه تعالى: ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ (الأعراف: ١٩٤) وقرأ الباقون "عند الرحمن" بنون ساكنة واختاره أبو حاتم. وتصديق هذه القراءة قولـه تعالى: ﴿ إن الذين عند ربك ﴾ وقولـه: ﴿ ولـه من في السماوات والأرض ومن عنده ﴾ (الأنبياء: ١٩). والمقصود إيضاح كذبهم وبيان جهلـهم في نسبة الأولاد إلى الله سبحانه، ثم في تحكمهم بأن الملائكة إناث وهم بنات الله. وذكر العباد مدح لـهم؛ أي كيف عبدوا من هو في نهاية العبادة، ثم كيف حكموا بأنهم إناث من غير دليل. والجعل هنا بمعنى القول والحكم؛ تقول: جعلت زيدا أعلم الناس؛ أي حكمت لـه بذلك. ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ أي أحضروا حالة خلقهم حتى حكموا بأنهم إناث. وقيل: إن النبي ﷺ سألـهم وقال: (فما يدريكم أنهم إناث)؟ فقالوا: سمعنا بذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا في أنهم إناث، فقال الله تعالى: ﴿ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ أي يسألون عنها في الآخرة. وقرأ نافع "أوشهدوا" بهمزة استفهام داخلة على همزة مضمومة مسهلة، ولا يمد سوى ما روى المسيبي عنه أنه يمد. وروى المفضل عن عاصم مثل ذلك وتحقق الـهمزتين. والباقون "أشهدوا" بهمزة واحدة للاستفهام.

وروي عن الزهري "أُشْهِدوا خلقهم" على الخبر، "ستكتب" قراءة العامة بضم التاء على الفعل المجهول "شهادتهم" رفعاً. وقرأ السلمي وابن السميقع وهبيرة عن حفص "سنكتب" بنون، "شهادتهم" نصبا بتسمية الفاعل. وعن أبي رجاء "ستكتب شهاداتهم" بالجمع.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ﴾ يعني قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية: لو شاء الرحمن على زعمكم ما عبدنا هذه الملائكة. وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل. وكل شيء بإرادة الله وإرادته تجب، وكذا علمه فلا يمكن الاحتجاج بها؛ وخلاف المعلوم والمراد مقدور وإن لم

(١) أخرجه الحاكم في "المستدرك"، (٢/ ٤٤٧) وقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه". ووافقه الذهبي.

يقع. ولو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أن الله أراد منهم ما حصل منهم. وقد مضى هذا المعنى في الأنعام عند قوله: ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ﴾ (الأنعام: ١٤٨) وفي "يس": ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ (يس: ٤٧). وقوله: ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ مردود إلى قوله ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ﴾ (الزخرف: ١٩) أي ما لهم بقولهم: الملائكة بنات الله ـ من علم؛ قاله قتادة ومقاتل والكلبي. وقال مجاهد وابن جريج: يعني الأوثان؛ أي ما لهم بعبادة الأوثان من علم. "من" صلة. ﴿ إن هم إلا يخرصون ﴾ أي يحدسون ويكذبون؛ فلا عذر لهم في عبادة غير الله عز وجل. وكان في ضمن كلامهم أن الله أمرنا بهذا أو رضي ذلك منا، ولهذا لم ينهنا ولم يعاجلنا بالعقوبة.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

هذا معادل لقوله: ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾. والمعنى: أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتابا من قبله؛ أي من قبل القرآن بما ادعوه؛ فهم به متمسكون يعملون بما فيه.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ على أمة ﴾ أي على طريقة ومذهب؛ قاله عمر بن عبد العزيز. وكان يقرأ هو ومجاهد وقتادة "على إمة" بكسر الألف. والأمة الطريقة. وقال الجوهري: والإمة (بالكسر): النعمة. والإمة أيضا لغة في الأمة، وهي الطريقة والدين؛ عن أبي عبيدة. قال عدي بن زيد في النعمة:

ثم بعد الفلاح والملك والأ مة وارتهم هناك القبور

عن غير الجوهري. وقال قتادة وعطية: "على أمة" على دين؛ ومنه قول قيس بن الخطيم:

كنا على أمة آبائنا ويقتدي الآخر بالأول

قال الجوهري: والأمة الطريقة والدين، يقال: فلان لا أمة له؛ أي لا دين له ولا نحلة. قال الشاعر:

وهل يستوي ذو أمة وكفور

وقال مجاهد وقطرب: على دين على ملة. وفي بعض المصاحف "قالوا إنا وجدنا آباءنا على ملة" وهذه الأقوال متقاربة. وحكي عن الفراء على ملة على قبلة. الأخفش: على استقامة، وأنشد قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ أي نهتدي بهم. وفي الآية الأخرى "مقتدون" أي نقتدي بهم، والمعنى واحد. قال قتادة: مقتدون متبعون. وفي هذا دليل على إبطال التقليد؛ لذمه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول ﷺ. وقد مضى القول

في هذا في "البقرة" مستوفى. وحكى مقاتل أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وأبي سفيان وأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة من قريش؛ أي وكما قال هؤلاء فقد قال من قبلهم أيضا. يعزي نبيه ﷺ؛ ونظيره: ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ (فصلت: ٤٣). والمترف: المنعم، والمراد هنا الملوك والجبابرة.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل أو لو جئتكم بأهدى ﴾ أي قل يا محمد لقومك: أو ليس قد جئتكم من عند الله بأهدى؛ يريد بأرشد. ﴿ مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ يعني بكل ما أرسل به الرسل. فالخطاب للنبي ﷺ ولفظه لفظ الجمع؛ لأن تكذيبه تكذيب لمن سواه. وقرئ "قل وقال وجئتكم وجئناكم" يعني أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟ قالوا: إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى. وقد مضى في "البقرة" القول في التقليد وذمه فلا معنى لإعادته. وقراءة العامة "قل أو لو جئتكم" وقرأ ابن عامر وحفص "قال أو لو" على الخبر عن النذير أنه قال لهم هذه المقالة. وقرأ أبو جعفر "قل أو لو جئناكم" بنون وألف؛ على أن المخاطبة من رسول الله ﷺ عن جميع الرسل.

قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ بالقحط والقتل والسبي ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ آخر أمر من كذب الرسل.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذ قال ﴾ أي ذكرهم إذ قال. ﴿ إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ﴾ البراء يستعمل للواحد فما فوقه فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث؛ لأنه مصدر وضع موضع النعت؛ لا يقال: البراءان والبراؤون، لأن المعنى ذو البراء وذوو البراء. قال الجوهري: وتبرأت من كذا، وأنا منه براء، وخلاء منه لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر في الأصل؛ مثل: سمع سماعا. فإذا قلت: أنا بريء منه وخلي ثنيت وجمعت وأنثت، وقلت في الجمع: نحن منه بُرآء مثل فقيه وفقهاء، وبراء أيضا مثل كريم وكرام، وأبراء مثل شريف وأشراف، وأبرياء مثل نصيب وأنصباء، وبريئون. وامرأة بريئة وهما بريئتان وهن بريئات وبرايا. ورجل بريء وبراء مثل عجيب وعجاب.

والبراء (بالفتح) أول ليلة من الشهر، سميت بذلك لتبرؤ القمر من الشمس. ﴿ إلا الذي فطرني ﴾ استثناء متصل، لأنهم عبدوا الله مع آلهتهم. قال قتادة: كانوا يقولون الله ربنا؛ مع عبادة

الأوثان. ويجوز أن يكون منقطعا؛ أي لكن الذي فطرني فهو يهدين. قال ذلك ثقة بالله وتنبيها لقومه أن الـهداية من ربه.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿وجعلـها كلمة باقية ﴾ الضمير في "جعلـها" عائد على قولـه: "إلا الذي فطرني". وضمير الفاعل في "جعلـها" لله عز وجل؛ أي وجعل الله هذه الكلمة والمقالة باقية في عقبه، وهم ولده وولد ولده؛ أي إنهم توارثوا البراءة عن عبادة غير الله، وأوصى بعضهم بعضا في ذلك. والعقب من يأتي بعده. وقال السدي: هم آل محمد ﷺ. وقال ابن عباس: قولـه: "في عقبه" أي في خلقه. وفي الكلام تقديم وتأخير؛ المعنى فإنه سيهدين لعلـهم يرجعون وجعلـها كلمة باقية في عقبه. أي قال لـهم ذلك لعلـهم يتوبون عن عبادة غير الله. قال مجاهد وقتادة: الكلمة لا إلـه إلا الله. قال قتادة: لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة. وقال الضحاك: الكلمة أن لا تعبدوا إلا الله. عكرمة: الإسلام؛ لقولـه تعالى: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل ﴾(الحج: ٧٨). القرظي: وجعل وصية إبراهيم التي وصى بها بنيه وهو قولـه: ﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين ﴾(البقرة: ١٣٢) ـ الآية المذكورة في البقرة ـ كلمة باقية في ذريته وبنيه. وقال ابن زيد: الكلمة قولـه: ﴿أسلمت لرب العالمين ﴾(البقرة: ١٣١) وقرأ "سماكم المسلمين من قبل". وقيل: الكلمة النبوة. قال ابن العربي: ولم تزل النبوة باقية في ذرية إبراهيم. والتوحيد هم أصلـه وغيرهم فيه تبع لـهم.

الثانية: قال ابن العربي: إنما كانت لإبراهيم في الأعقاب موصولة بالأحقاب بدعوتيه المجابتين؛ إحداهما في قولـه: ﴿إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾(البقرة: ١٢٤) فقد قال نعم إلا من ظلم منهم فلا عهد. ثانيهما قولـه: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ (إبراهيم: ٣٥). وقيل: بل الأولى قولـه: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾(الشعراء: ٨٤) فكل أمة تعظمه، بنوه وغيرهم ممن يجتمع معه في سام أو نوح.

الثالثة: قال ابن العربي: جرى ذكر العقب ها هنا موصولا في المعنى، وذلك مما يدخل في الأحكام وترتب عليه عقود العمرى والتحبيس. قال النبي ﷺ: (أيما رجل أعمر عمرى لـه ولعقبه فإنها للذي أعطيها لا ترجع إلى الذي أعطاها لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث)[1]. وهي ترد على أحد عشر لفظا:

اللفظ الأول: الولد، وهو عند الإطلاق عبارة عمن وجد من الرجل وامرأته في الإناث والذكور. وعن ولد الذكور دون الإناث لغة وشرعا؛ ولذلك وقع الميراث على الولد المعين وأولاد الذكور من المعين دون ولد الإناث لأنه من قوم آخرين، ولذلك لم يدخلوا في الحبس بهذا اللفظ، قالـه مالك في المجموعة وغيرها.

قلت: هذا مذهب مالك وجميع أصحابه المتقدمين، ومن حجتهم على ذلك الإجماع على أن ولد البنات لا ميراث لـهم مع قولـه تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم ﴾(النساء: ١١). وقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون في الأحباس؛ يقول المحبس: حبست

(١) أخرجه مسلم في "الهبات"، (١٦٢٥). وغيره.

على ولدي أو على عقبي. وهذا اختيار أبي عمر بن عبد البر وغيره؛ واحتجوا بقول الله جل وعز: ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم ﴾ (النساء: ٢٣). قالوا: فلما حرم الله البنات فحرمت بذلك بنت البنت بإجماع علم أنها بنت ووجب أن تدخل في حبس أبيها إذا حبس على ولده أو عقبه. وقد مضى هذا المعنى في "الأنعام" مستوفى.

اللفظ الثاني: البنون؛ فإن قال: هذا حبس على ابني؛ فلا يتعدى الولد المعين ولا يتعدد. ولو قال ولدي، لتعدى وتعدد في كل من ولد. وإن قال على بني، دخل فيه الذكور والإناث. قال مالك: من تصدق على بنيه وبني بنيه فإن بناته وبنات بناته يدخلن في ذلك. روى عيسى عن ابن القاسم فيمن حبس على بناته فإن بنات بنته يدخلن في ذلك مع بنات صلبه. والذي عليه جماعة أصحابه أن ولد البنات لا يدخلون في البنين. فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ في الحسن ابن ابنته (إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)[١]. قلنا: هذا مجاز، وإنما أشار به إلى تشريفه وتقديمه؛ ألا ترى أنه يجوز نفيه عنه فيقول الرجل في ولد بنته ليس بابني؛ ولو كان حقيقة ما جاز نفيه عنه؛ لأن الحقائق لا تنفى عن منتسباتها. ألا ترى أنه ينتسب إلى أبيه دون أمه؛ ولذلك قيل في عبد الله ابن عباس: إنه هاشمي وليس بهلالي وإن كانت أمه هلالية.

قلت: هذا الاستدلال غير صحيح، بل هو ولد على الحقيقة في اللغة لوجود معنى الولادة فيه، ولأن أهل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت من قول الله تعالى: ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم ﴾ (النساء: ٢٣). وقال تعالى: ﴿ ومن ذريته داود وسليمان ﴾ إلى قوله ﴿ من الصالحين ﴾ (الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥) فجعل عيسى من ذريته وهو ابن بنته على ما تقدم بيانه هناك. فإن قيل فقد قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

قيل لهم: هذا لا دليل فيه؛ لأن معنى قوله: إنما هو ولد بنيه الذكران هم الذين لهم حكم بنيه في الموارثة والنسب، وإن ولد بناته ليس لهم حكم بناته في ذلك؛ إذ ينتسبون إلى غيره فأخبر بافتراقهم بالحكم مع اجتماعهم في التسمية ولم ينف عن ولد البنات اسم الولد لأنه ابن؛ وقد يقول الرجل في ولده ليس هو بابني إذ لا يطيعني ولا يرى لي حقا، ولا يريد بذلك نفي اسم الولد عنه، وإنما يريد أن ينفي عنه حكمه. ومن استدل بهذا البيت على أن ولد البنت لا يسمى ولدا فقد أفسد معناه وأبطل فائدته، وتأول على قائله ما لا يصح، إذ لا يمكن أن يسمى ولد الابن في اللسان العربي ابنا، ولا يسمى ولد الابنة ابنا؛ من أجل أن معنى الولادة التي اشتق منها اسم الولد فيه أبين وأقوى لأن ولد الابنة هو ولدها بحقيقة الولادة، وولد الابن إنما هو ولده بماله مما كان سببا للولادة. ولم يخرج مالك رحمه الله أولاد البنات من حبس على ولده من أجل أن اسم الولد غير واقع عليه عنده في اللسان، وإنما أخرجهم منه قياسا على الموارثة. وقد مضى هذا في "الأنعام" والحمد لله.

اللفظ الثالث: الذرية؛ وهي مأخوذة من ذرأ الله الخلق؛ فيدخل فيه ولد البنات لقوله: ﴿ ومن ذريته داود وسليمان ﴾ إلى أن قال ﴿ وزكريا ويحيى وعيسى ﴾ (الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥). وإنما كان من

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد سبق.

ذريته من قبل أمه. وقد مضى في "البقرة" اشتقاق الذرية وفي "الأنعام" الكلام على ﴿ ومن ذريته ﴾ (الأنعام: ٨٤) الآية؛ فلا معنى للإعادة.

اللفظ الرابع: العقب؛ وهو في اللغة عبارة عن شيء بعد شيء كان من جنسه أو من غير جنسه؛ يقال: أعقب الله بخير؛ أي جاء بعد الشدة بالرخاء. وأعقب الشيب السواد. وعقب يَعقبْ عقوبا وعقبا إذا جاء شيئا بعد شيء؛ ولهذا قيل لولد الرجل: عقْبه. والمعقاب من النساء: التي تلد ذكرا بعد أنثى، هكذا أبدا. وعقب الرجل: ولده وولد ولده الباَقون بعده. والعاقبة الولد؛ قال يعقوب: في القرآن "وجعلها كلمة باقية في عقبه" وقيل: بل الورثة كلهم عقب. والعاقبة الولد؛ ولذلك فسره مجاهد هنا. وقال ابن زيد: ها هنا هم الذرية. وقال ابن شهاب: هم الولد وولد الولد. وقيل غيره على ما تقدم عن السدي. وفي الصحاح والعقب (بكسر القاف) مؤخر القدم وهي مؤنثة. وعقب الرجل أيضا ولده وولد ولده. وفيه لغتان: عقب وعقب (بالتسكين) وهي أيضا مؤنثة، عن الأخفش. وعقب فلان مكان أبيه عاقبة أي خلفه؛ وهو اسم جاء بمعنى المصدر كقوله تعالى: ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ (الواقعة: ٢). ولا فرق عند أحد من العلماء بين لفظ العقب والولد في المعنى. واختلف في الذرية والنسل فقيل إنهما بمنزلة الولد والعقَب؛ لا يدخل ولد البنات فيهما على مذهب مالك. وقيل: إنهم يدخلون فيهما. وقد مضى الكلام في الذرية هنا وفي "الأنعام".

اللفظ الخامس: نسلي؛ وهو عند علمائنا كقوله: ولدي وولد ولدي؛ فإنه يدخل فيه ولد البنات. ويجب أن يدخلوا؛ لأن نسل بمعنى خرج، وولد البنات قد خرجوا منه بوجه، ولم يقترن به ما يخصه كما اقترن بقوله عقبي ما تناسلوا. وقال بعض علمائنا: إن النسل بمنزلة الولد والعقب لا يدخل فيه ولد البنات؛ إلا أن يقول المحبس نسلي ونسل نسلي، كما إذا قال: عقبي وعقب عقبي، وأما إذا قال ولدي أو عقبي مفردا فلا يدخل فيه البنات.

اللفظ السادس: الآل؛ وهم الأهل؛ وهو اللفظ السابع. قال ابن القاسم: هما سواء، وهم العصبة والإخوة والبنات والعمات؛ ولا يدخل فيه الخالات. وأصل أهل الاجتماعُ يقال: مكان آهل إذا كان فيه جماعة، وذلك بالعصبة ومن دخل في القعدد من النساء والعصبة مشتقة منه وهي أخص به. وفي حديث الإفك: يا رسول الله، أهلك ! ولا نعلم إلا خيرا[1]؛ يعني عائشة. ولكن لا تدخل فيه الزوجة بإجماع وإن كانت أصل التأهل؛ لأن ثبوتها ليس بيقين إذ قد يتبدل ربطها وينحل بالطلاق. وقد قال مالك: آل محمد كل تقي؛ وليس من هذا الباب. وإنما أراد أن الإيمان أخص من القرابة فاشتملت عليه الدعوة وقصد بالرحمة. وقد قال أبو إسحاق التونسي: يدخل في الأهل كل من كان من جهة الأبوين، فوفى الاشتقاق حقه وغفل عن العرف ومطلق الاستعمال. وهذه المعاني إنما تبنى على الحقيقة أو على العرف المستعمل عند الإطلاق، فهذان لفظان.

اللفظ الثامن: قرابة، فيه أربعة أقوال: الأول: قال مالك في كتاب محمد بن عبدوس: إنهم الأقرب فالأقرب بالاجتهاد؛ ولا يدخل فيه ولد البنات ولا ولد الخالات. الثاني: يدخل فيه أقاربه من

(١) جزء من حديث الإفك أخرجاه في الصحيحين، وقد سبق مراراً. وهذا من كلام أسامة بن زيد في عائشة.

قبل أبيه وأمه؛ قاله علي بن زياد. الثالث: قال أشهب: يدخل فيه كل رحم من الرجال والنساء. الرابع: قال ابن كنانة: يدخل فيه الأعمام والعمات والأخوال والخالات وبنات الأخت. وقد قال ابن عباس في تفسير قولـه تعالى: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾ (الشورى: ٢٣) قال: إلا أن تصلوا قرابة ما بيني وبينكم. وقال: لم يكن بطن من قريش إلا كان بينه وبين النبي ﷺ قرابة؛ فهذا يضبطه والله أعلم.

اللفظ التاسع: العشيرة؛ ويضبطه الحديث الصحيح: إن الله تعالى لما أنزل: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ (الشعراء: ٢١٤) دعا النبي ﷺ بطون قريش وسماهم[١] ـ كما تقدم ذكره ـ وهم العشيرة الأقربون؛ وسواهم عشيرة في الإطلاق. واللفظ يحمل على الأخص الأقرب بالاجتهاد، كما تقدم من قول علمائنا.

اللفظ العاشر: القوم؛ يحمل ذلك على الرجال خاصة من العصبة دون النساء. والقول يشمل الرجال والنساء؛ وإن كان الشاعر قد قال:

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

ولكنه أراد أن الرجل إذا دعا قومه للنصرة عنى الرجال، وإذا دعاهم للحرمة دخل فيهم الرجال والنساء؛ فتعممه الصفة وتخصصه القرينة.

اللفظ الحادي عشر: الموالي؛ قال مالك: يدخل فيه موالي أبيه وابنه مع مواليه. وقال ابن وهب: يدخل فيه أولاد مواليه. قال ابن العربي: والذي يتحصل منه أنه يدخل فيه من يرثه بالولاء؛ قال: وهذه فصول الكلام وأصوله المرتبطة بظاهر القرآن والسنة المبينة لـه؛ والتفريع والتميم في كتاب المسائل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ بل متعت ﴾ وقرئ "بل متعنا". ﴿ هؤلاء وآباءهم ﴾ أي في الدنيا بالإمهال. ﴿ حتى جاءهم الحق ﴾ أي محمد ﷺ بالتوحيد والإسلام الذي هو أصل دين إبراهيم؛ وهو الكلمة التي بقاها الله في عقبه. ﴿ ورسول مبين ﴾ أي يبين لـهم ما بهم إليه حاجة. ﴿ ولما جاءهم الحق ﴾ يعني القرآن. ﴿ قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ جاحدون. ﴿ وقالوا لولا نزل ﴾ أي هلا نزل ﴿ هذا القرآن على رجل ﴾ وقرئ "على رجل" بسكون الجيم. ﴿ من القريتين عظيم ﴾ أي من إحدى

---

١ أخرجه البخاري وقد سبق.

القريتين؛ كقولـه تعالى: ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ (الرحمن: ٢٢) أي من أحدهما. أو على أحد رجلين من القريتين. القريتان: مكة والطائف. والرجلان: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم عم أبي جهل. والذي من الطائف أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي؛ قالـه قتادة. وقيل: عمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف، وعتبة بن ربيعة من مكة؛ وهو قول مجاهد. وعن ابن عباس: أن عظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفي. وقال السدي: كنانة بن عبد بن عمرو. روي أن الوليد بن المغيرة ـ وكان يسمى ريحانة قريش ـ كان يقول: لو كان ما يقوله محمد حقا لنزل علي أو على أبي مسعود؛ فقال الله تعالى: ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ يعني النبوة فيضعونها حيث شاءوا. ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ أي أفقرنا قوما وأغنينا قوما؛ فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهم فكيف يفوض أمر النبوة إليهم. قال قتادة: تلقاه ضعيف القوة قليل الحيلة عيي اللسان وهو مبسوط لـه، وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان وهو مقتر عليه. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن في رواية عنه "معايشهم". وقيل: أي نحن أعطينا عظيم القريتين ما أعطينا لا لكرامتهما علي وأنا قادر على نزع النعمة عنهما؛ فأي فضل وقدر لـهما. ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ﴾ أي فاضلنا بينهم فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرؤوس؛ قاله مقاتل. وقيل: بالحرية والرق؛ فبعضهم مالك وبعضهم مملوك. وقيل: بالغنى والفقر؛ فبعضهم غني وبعضهم فقير. وقيل: بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ﴿ ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ قال السدي وابن زيد: خولا وخداما، يسخر الأغنياء الفقراء فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض. وقال قتادة والضحاك: يعني ليملك بعضهم بعضا. وقيل: هو من السخرية التي بمعنى الاستهزاء؛ أي ليستهزئ الغني بالفقير. قال الأخفش: سخرت به وسخرت منه، وضحكت منه وضحكت به، وهزئت منه وبه؛ كل يقال، والاسم السخرية (بالضم). والسخري والسخري (بالضم والكسر). وكل الناس ضموا "سخريا" إلا ابن محيصن ومجاهد فإنهما قرآ "سخريا" ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ أي أفضل مما يجمعون من الدنيا. ثم قيل: الرحمة النبوة، وقيل الجنة. وقيل: تمام الفرائض خير من كثير النوافل. وقيل: ما يتفضل به عليهم خير مما يجازيهم عليه من أعمالـهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قال العلماء: ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها، وأنها عنده من الـهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفرة ودرجها ذهبا وفضة لولا غلبة حب الدنيا على القلوب؛ فيحمل ذلك على الكفر. قال الحسن: المعنى لولا أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلـهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه؛ لـهوان الدنيا عند الله عز وجل. وعلى هذا أكثر المفسرين ابن عباس والسدي وغيرهم. وقال ابن زيد: ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ في طلب الدنيا واختيارها على الآخرة ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ﴾. وقال الكسائي: المعنى لولا أن يكون في الكفار غني وفقير وفي المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لـهوانها.

الثانية : قرأ ابن كثير وأبو عمرو "سقفا" بفتح السين وإسكان القاف على الواحد ومعناه الجمع؛ اعتبارا بقوله تعالى: ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم﴾ (النحل: ٢٦). وقرأ الباقون بضم السين والقاف على الجمع؛ مثل رهن ورهن. قال أبو عبيد: ولا ثالث لهما. وقيل: هو جمع سقيف؛ مثل كثيب وكثب، ورغيف ورغف؛ قاله الفراء. وقيل: هو جمع سقوف؛ فيصير جمع الجمع: سقف وسقوف، نحو فلس وفلوس. ثم جعلوا فعولا كأنه اسم واحد فجمعوه على فُعُل. وروي عن مجاهد "سقفا" بإسكان القاف. وقيل: اللام في "لبيوتهم" بمعنى على؛ أي على بيوتهم. وقيل: بدل؛ كما تقول: فعلت هذا لزيد لكرامته؛ قال الله تعالى: ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس﴾ (النساء: ١١) كذلك قال هنا: "لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم".

الثالثة : قوله تعالى: ﴿ ومعارج﴾ يعني الدرج؛ قاله ابن عباس وهو قول الجمهور. واحدها معراج، والمعراج السلم؛ ومنه ليلة المعراج. والجمع معارج ومعاريج؛ مثل مفاتح ومفاتيح؛ لغتان. "ومعاريج" قرأ أبو رجاء العطاردي وطلحة بن مصرف؛ وهي المراقي والسلاليم. قال الأخفش: إن شئت جعلت الواحد معْرَج ومَعْرَج؛ مثل مرقاة ومَرقاة. ﴿ عليها يظهرون﴾ أي على المعارج يرتقون ويصعدون؛ يقال: ظهَرت على البيت أي علوت سطحه. وهذا لأن من علا شيئا وارتفع عليه ظهر للناظرين. ويقال: ظهرت على الشيء أي علمته. وظهرت على العدو أي غلبته.

وأنشد نابغة بني جعدة رسول الله ﷺ قوله:

علونا السماء عزة ومهابة وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

أي مصعدا؛ فغضب رسول ﷺ وقال: (إلى أين) ؟ قال إلى الجنة؛ قال: (أجل إن شاء الله). قال الحسن: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل ذلك ! فكيف لو فعل ؟!

الرابعة : استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن السقف لا حق فيه لرب العلو؛ لأن الله تعالى جعل السقوف للبيوت كما جعل الأبواب لها. وهذا مذهب مالك رحمه الله.

قال ابن العربي: وذلك لأن البيت عبارة عن قاعة وجدار وسقف وباب، فمن له البيت فله أركانه. ولا خلاف أن العلو له إلى السماء. واختلفوا في السفل؛ فمنهم من قال هو له، ومنهم من قال ليس له في باطن الأرض شيء. وفي مذهبنا القولان.

وقد بين حديث الإسرائيلي الصحيح فيما تقدم: أن رجلا باع من رجل دارا فبناها فوجد فيها جرة من ذهب، فجاء بها إلى البائع فقال: إنما اشتريت الدار دون الجرة، وقال البائع: إنما بعت الدار بما فيها؛ وكلهم تدافعها فقضى بينهم النبي ﷺ أن يزوج أحدهما ولده من بنت الآخر ويكون المال لهما[1].

والصحيح أن العلو والسفل له إلا أن يخرج عنهما بالبيع؛ فإذا باع أحدهما أحد الموضعين فله منه ما ينتفع به وباقيه للمبتاع منه.

الخامسة : من أحكام العلو والسفل. إذا كان العلو والسفل بين رجلين فيعتل السفل أو يريد صاحبه هدمه؛ فذكر سحنون عن أشهب أنه قال: إذا أراد صاحب السفل أن يهدم، أو أراد صاحب

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٢)، ومسلم (١٧٢١)، وقول المصنف: "فقضى بينهما النبي ﷺ"، أي نبي يعني ؟!! لأن في الرواية: "فتحاكما إلى رجل".

العلو أن يبني علوه فليس لصاحب السفل أن يهدم إلا من ضرورة، ويكون هدمه لـه أرفق لصاحب العلو؛ لئلا ينهدم بانهدامه العلو، وليس لرب العلو أن يبني على علوه شيئا لم يكن قبل ذلك إلا الشيء الخفيف الذي لا يضر بصاحب السفل. ولو انكسرت خشبة من سقف العلو لأدخل مكانها خشبة ما لم تكن أثقل منها ويخاف ضررها على صاحب السفل. قال أشهب: وباب الدار على صاحب السفل. قال: ولو انهدم السفل أجبر صاحبه على بنائه، وليس على صاحب العلو أن يبني السفل؛ فإن أبى صاحب السفل من البناء قيل لـه بع ممن يبني. وروى ابن القاسم عن مالك في السفل لرجل والعلو لآخر فاعتل السفل، فإن صلاحه على رب السفل وعليه تعليق العلو حتى يصلح سفلـه؛ لأن عليه إما أن يحملـه على بنيان أو على تعليق، وكذلك لو كان على العلو علو فتعليق العلو الثاني على صاحب الأوسط. وقد قيل: إن تعليق العلو الثاني على رب العلو حتى يبني الأسفل.
وحديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلـها فكان الذين في أسفلـها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولـم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا)[1] أصل في هذا الباب. وهو حجة لمالك وأشهب. وفيه دليل على أن صاحب السفل ليس لـه أن يحدث على صاحب العلو ما يضر به، وأنه إن أحدث عليه ضررا لزمه إصلاحه دون صاحب العلو، وأن لصاحب العلو منعه مـن الضرر؛ لقولـه ﷺ: (فإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا) ولا يجوز الأخذ إلا على يد الظالم أو من هو ممنوع من إحداث ما لا يجوز لـه في السنة. وفيه دليل على استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وقد مضى في "الأنفال". وفيه دليل على جواز القرعة واستعمالـها، وقد مضى في "آل عمران" فتأمل كلا في موضعه تجده مبينا، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولبيوتهم أبوابا ﴾ أي وجعلنا لبيوتهم. وقيل: "لبيوتهم" بدل اشتمال من قولـه: "لمن يكفر بالرحمن". "أبوابا" أي من فضة. ﴿ وسررا ﴾ كذلك؛ وهو جمع السرير. وقيل: جمع الأسرة، والأسرة جمع السرير؛ فيكون جمع الجمع. ﴿ عليها يتكئون ﴾ الاتكاء والتوكؤ: التحامل على الشيء؛ ومنه، "أتوكأ عليها". ورجل تكأة؛ مثال همزة؛ كثير الاتكاء. والتكأة أيضا: ما يتكأ عليه. واتكأ على الشيء فهو متكئ؛ والموضع متكأ. وطعنه حتى أتكأه (على أفعلـه) أي ألقاه على هيئة المتكئ. وتوكـأت على العصا. وأصل التـاء في جميع ذلـك واو، ففعل به ما فعل باتـزن واتعد.
﴿ وزخرفا ﴾ الزخرف هنا الذهب؛ عن ابن عباس وغيره. نظيره: ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ (الإسراء: ٩٣) وقد تقدم. وقال ابن زيد: هو ما يتخذه الناس في منازلـهم من الأمتعة والأثاث. وقال الحسن: النقوش؛ وأصلـه الزينة. يقال: زخرفت الدار؛ أي زينتها. وتزخرف فلان؛ أي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٩٣) وفي غير موضع من صحيحه.

تزين. وانتصب "زخرفا" على معنى وجعلنا لهم مع ذلك زخرفا. وقيل: بنزع الخافض؛ والمعنى فجعلنا لهم سقفا وأبوابا وسررا من فضة ومن ذهب؛ فلما حذف "من" قال: "وزخرفا" فنصب.

﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ قرأ عاصم وحمزة وهشام عن ابن عامر "وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا" بالتشديد. الباقون بالتخفيف؛ وقد ذكر هذا. وروي عن أبي رجاء كسر اللام من "لما"؛ فـ "ما" عنده بمنزلة الذي، والعائد عليها محذوف؛ والتقدير: وإن كل ذلك للذي هو متاع الحياة الدنيا، وحذف الضمير ها هنا كحذفه في قراءة من قرأ ﴿ مثلا ما بعوضة فما فوقها ﴾ (البقرة: ٢٦) و﴿ تماما على الذي أحسن ﴾ (الأنعام: ١٥٤). أبو الفتح: ينبغي أن يكون "كل" على هذه القراءة منصوبة؛ لأن "إن" مخففة من الثقيلة، وهي إذا خففت وبطل عملها لزمتها اللام في آخر الكلام للفرق بينها وبين "إن" النافية التي بمعنى ما؛ نحو إن زيد لقائم، ولا لام هنا سوى الجارة.

﴿ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ يريد الجنة لمن اتقى وخاف. وقال كعب: إني لأجد في بعض كتب الله المنزلة: لولا أن يحزن عبدي المؤمن لكللت رأس عبدي الكافر بالإكليل، ولا يتصدع ولا ينبض منه عرق بوجع. وفي صحيح الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)[1].

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء)[2]. وفي الباب عن أبي هريرة، وقال: حديث حسن غريب. وأنشدوا:

فلو كانت الدنيا جزاء لمحسن ... إذاً لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة ... وقد شبعت فيها بطون البهائم

وقال آخر:

تمتع من الأيام إن كنت حازما ... فإنك فيها بين ناه وآمر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته منها فليس بضائر
فلا تزن الدنيا جناح بعوضة ... ولا وزن رقّ من جناح لطائر
فلم يرض بالدنيا ثوابا لمحسن ... ولا رضي الدنيا عقابا لكافر

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾ وقرأ ابن عباس وعكرمة "ومن يعش" بفتح الشين، ومعناه يعمى؛ يقال منه عشي يعشى عشا إذا عمي. ورجل أعشى وامرأة عشواء إذا كان لا يبصر؛ ومنه قول الأعشى:

---

(١) أخرجه مسلم في "الزهد"، (٢٩٥٦).
(٢) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٥٢٩٢).

رأت رجلا غائب الوافدَيـــــ ـــن مختلفَ الخلق أعشى ضريرا

وقولـه:

أأن رأت رجلا أعشى أضرّ به ريب المنون ودهر مفند خَبِلُ

الباقون بالضم؛ من عشا يعشو إذا لحقه ما لحق الأعشى. وقال الخليل: العشو هو النظر ببصر ضعيف؛ وأنشد:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

وقال آخر:

لنعم الفتى يعشو إلى ضوء ناره إذا الريح هبت والمكان جديب

الجوهري: والعشا (مقصور) مصدر الأعشى وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار. والمرأة عشواء، وامرأتان عشواوان. وأعشاه الله فعشي (بالكسر) يعشى عشى، وهما يعشيان، ولم يقولوا يعشوان؛ لأن الواو لما صارت في الواحد ياء لكسرة ما قبلـها تركت في التثنية على حالـها. وتعاشى إذا أرى من نفسه أنه أعشى. والنسبة إلى أعشى أعشوي. وإلى العشية عشوي. والعشواء: الناقة التي لا تبصر أمامها فهي تخبط بيديها كل شيء. وركب فلان العشواء إذا خبط أمره على غير بصيرة. وفلان خابط خبط عشواء.

وهذه الآية تتصل بقوله أول السورة: ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحا ﴾ (الزخرف: ٥) أي نواصل لكم الذكر؛ فمن يعش عن ذلك الذكر بالإعراض عنه إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم ﴿ نقيض لـه شيطانا ﴾ أي نسبب لـه شيطانا جزاء لـه على كفره ﴿ فهو لـه قرين ﴾ قيل في الدنيا، يمنعه من الحلال، ويبعثه على الحرام، وينهاه عن الطاعة، ويأمره بالمعصية؛ وهو معنى قول ابن عباس. وقيل في الآخرة إذا قام من قبره؛ قاله سعيد الجريري. وفي الخبر: أن الكافر إذا خرج من قبره يشفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار. وأن المؤمن يشفع بملك حتى يقضي الله بين خلقه؛ ذكره المهدوي. وقال القشيري: والصحيح فهو لـه قرين في الدنيا والآخرة. وقال أبو الـهيثم والأزهري: عشوت إلى كذا أي قصدته. وعشوت عن كذا أي أعرضت عنه، فتفرق بين "إلى" و"عن"؛ مثل: ملت إليه وملت عنه. وكذا قال قتادة: يعش، يعرض؛ وهو قول الفراء. النحاس: وهو غير معروف في اللغة. وقال القرظي: يولي ظهره؛ والمعنى واحد. وقال أبو عبيدة والأخفش: تظلم عينه. وأنكر العتبي عشوت بمعنى أعرضت؛ قال: وإنما الصواب تعاشيت. والقول قول أبي الـهيثم والأزهري. وكذلك قال جميع أهل المعرفة. وقرأ السلمي وابن أبي إسحاق ويعقوب وعصمة عن عاصم وعن الأعمش "يقيض" (بالياء) لذكر "الرحمن" أولا؛ أي يقيض لـه الرحمن شيطانا. الباقون بالنون. وعن ابن عباس "يقيض لـه شيطان فهو لـه قرين" أي ملازم ومصاحب. قيل: "فهو" كناية عن الشيطان؛ على ما تقدم. وقيل عن الإعراض عن القرآن؛ أي هو قرين للشيطان. ﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ﴾ أي وإن الشياطين ليصدونهم عن سبيل الـهدى؛ وذكر بلفظ الجمع لأن "من" في قولـه: "ومن يعش" في معنى الجمع. ﴿ ويحسبون ﴾ أي ويحسب الكفار ﴿ أنهم مهتدون ﴾ وقيل: ويحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم.

قولـه تعالى: ﴿ حتى إذا جاءنا ﴾ على التوحيد قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص يعني الكافر يوم القيامة. الباقون "جاءانا" على التثنية، يعني الكافر وقرينه وقد جعلا في سلسلة واحدة؛ فيقول الكافر: ﴿ يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ أي مشرق الشتاء ومشرق الصيف، كما قال تعالى: ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ (الرحمن: ١٧) ونحوه قول مقاتل. وقراءة التوحيد وإن كان ظاهرها الإفراد فالمعنى لـهما جميعا؛ لأنه قد عرف ذلك بما بعده؛ كما قال (امرؤ القيس):

وعين لـها حدرة بدرة شقت مآقيهما من أخر

قال مقاتل: يتمنى الكافر أن بينهما بعد مشرق أطول يوم في السنة إلى مشرق أقصر يوم في السنة، ولذلك قال: "بعد المشرقين". وقال الفراء: أراد المشرق والمغرب فغلب اسم أحدهما، كما يقال: القمران للشمس والقمر، والعمران لأبي بكر وعمر، والبصرتان للكوفة والبصرة، والعصران للغداة والعصر. وقال الشاعر:

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

وأنشد أبو عبيدة لجرير:

ما كان يرضى رسول الله فعلـهم والعمـــران أبو بكـــر ولا عمـــر

وأنشد سيبويه:

قَدْنيَ من نصر الخُبَيبين قَدي

يريد عبد الله ومصعبا ابني الزبير، وإنما أبو خبيب عبد الله. ﴿ فبئس القرين ﴾ أي فبئس الصاحب أنت؛ لأنه يورده إلى النار. قال أبو سعيد الخدري: إذا بعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار[(١)].

قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم ﴾ "إذ" بدل من اليوم؛ أي يقول الله للكافر: لن ينفعكم اليوم إذ أشركتم في الدنيا هذا الكلام؛ وهو قول الكافر: "يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين" أي لا تنفع الندامة اليوم. "إنكم" بالكسر ﴿ في العذاب مشتركون ﴾ وهي قراءة ابن عامر باختلاف عنه. الباقون بالفتح. وهي في موضع رفع تقديره: ولن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب؛ لأن لكل واحد نصيبه الأوفر منه. أعلم الله تعالى أنه منع أهل النار التأسي كما يتأسى أهل المصائب في الدنيا، وذلك أن التأسي يستروحه أهل الدنيا فيقول أحدهم: لي في البلاء والمصيبة أسوة؛ فيسكن ذلك من حزنه؛ كما قالت الخنساء:

فلـــولا كـــثرة الـــباكين حولـــي عـلى إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكـــون مثـــل أخـــي ولكن أعــزي النفــس عنه بالتأسي

---

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٥/ ٧٢٣) بأطول منه وعزاه إلى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن سعيد الجزري وليس عن أبي سعيد الخدري.

فإذا كان في الآخرة لم ينفعهم التأسي شيئا لشغلهم بالعذاب. وقال مقاتل: لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم؛ لأن قرناءكم وأنتم في العذاب مشتركون كما اشتركتم في الكفر.

قوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٠)﴾

قوله تعالى: ﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ﴾ يا محمد ﴿ ومن كان في ضلال مبين ﴾ أي ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا؛ ففيه تسلية للنبي ﷺ. وفيه رد على القدرية وغيرهم، وأن الهدى والرشد والخذلان في القلب خلق الله تعالى، يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢)﴾

قوله تعالى: ﴿ فإما نذهبن بك ﴾ يريد نخرجنك من مكة من أذى قريش. ﴿ فإنا منهم منتقمون * أو نرينك الذي وعدناهم ﴾ وهو الانتقام منهم في حياتك. ﴿ فإنا عليهم مقتدرون ﴾ قال ابن عباس: قد أراه الله ذلك يوم بدر؛ وهو قول أكثر المفسرين.

وقال الحسن وقتادة: هي في أهل الإسلام؛ يريد ما كان بعد النبي ﷺ من الفتن. و"نذهبن بك" على هذا نتوفينك. وقد كان بعد النبي ﷺ نقمة شديدة فأكرم الله نبيّه ﷺ وذهب به فلم يره في أمته إلا التي تقر به عينه وأبقى النقمة بعده، وليس من نبي إلا وقد أري النقمة في أمته. وروي أن النبي ﷺ أري ما لقيت أمته من بعده، فما زال منقبضا، ما انبسط ضاحكا حتى لقي الله عز وجل[1]. وعن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال: (إذا أراد الله بأمة خيرا قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطا وسلفا. وإذا أراد الله بأمة عذابا عذبها ونبيها حي لتقر عينه لما كذبوه وعصوا أمره)[2].

قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)﴾

قوله تعالى: ﴿ فاستمسك بالذي أوحي إليك ﴾ يريد القرآن، وإن كذب به من كذب؛ فـ ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ يوصلك إلى الله ورضاه وثوابه. ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ يعني القرآن شرف لك ولقومك من قريش، إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم؛ نظيره: ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ﴾ (الأنبياء: ١٠) أي شرفكم. فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب؛ فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم كل من آمن بذلك فصاروا عيالا عليهم؛ لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذي عنى به من الأمر والنهي وجميع ما فيه من الأنباء، فشرفوا بذلك على سائر أهل اللغات ولذلك سمي عربياً.

---

(١) أخرجه مسلم في "الفضائل"، (٥/ ١٥٠) بنحوه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) روى ذلك أنس رضي الله عنه أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وأقره الذهبي، كما في الدر المنثور (٥/ ٧٢٤).

وقيل: بيان لك ولأمتك فيما بكم إليه حاجة. وقيل: تذكرة تذكرون به أمر الدين وتعملون به. وقيل: "وإنه لذكر لك ولقومك" يعني الخلافة فإنها في قريش لا تكون في غيرهم؛ قال النبي ﷺ: (الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم)[١]. وقال مالك: هو قول الرجل حدثني أبي عن أبيه، حكاه ابن أبي سلمة عن أبيه عن مالك بن أنس فيما ذكر الماوردي والثعلبي وغيرهما. قال ابن العربي: ولم أجد في الإسلام هذه المرتبة لأحد إلا ببغداد فإن بني التميمي بها يقولون: حدثني أبي قال حدثني أبي، إلى رسول الله ﷺ؛ وبذلك شرفت أقدارهم، وعظم الناس شأنهم، وتهممت الخلافة بهم. ورأيت بمدينة السلام ابني أبي محمد رزق الله بن عبد الوهاب أبي الفرج ابن عبد العزيز بن الحارث بن الأسد بن الليث بن سليمان بن أسود بن سفيان بن يزيد بن أكينة ابن عبد الله التميمي وكانا يقولان: سمعنا أبانا رزق الله يقول سمعت أبي يقول سمعت أبي يقول سمعت أبي يقول سمعت أبي يقول سمعت أبي يقول سمعت علي بن أبي طالب يقول وقد سئل عن الحنان المنان فقال: الحنان الذي يقبل على من أعرض عنه، والمنان الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال. والقائل سمعت عليا: أكينة بن عبد الله جدهم الأعلى. والأقوى أن يكون المراد بقولـه: "وإنه لذكر لك ولقومك" يعني القرآن؛ فعليه انبنى الكلام وإليه يرجع المصير، والله أعلم. قال الماوردي: "ولقومك" فيهم قولان: أحدهما: من اتبعك من أمتك؛ قالـه قتادة وذكره الثعلبي عن الحسن. الثاني: لقومك من قريش؛ فيقال ممن هذا ؟ فيقال من العرب، فيقال من أي العرب ؟ فيقال من قريش؛ قاله مجاهد.

قلت: والصحيح أنه شرف لمن عمل به، كان من قريش أو من غيرهم. روى ابن عباس قال: أقبل نبي الله ﷺ من سرية أو غزاة فدعا فاطمة فقال: (يا فاطمة اشتري نفسك من الله فإني لا أغني عنك من الله شيئا)[٢] وقال مثل ذلك لنسوته، وقال مثل ذلك لعترته، ثم قال نبي الله ﷺ: (ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون، ولا قريش بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون، ولا الأنصار بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون، ولا الموالي بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون. إنما أنتم من رجل وامرأة وأنتم كجمام الصاع ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى). وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لينتهين أقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم أو يكونون شرا عند الله من الجعلان التي تدفع النتن بأنفها، كلكم بنو آدم وآدم من تراب، إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء الناس مؤمن تقي وفاجر شقي)[٣]. خرَّجهما الطبري. وسيأتي لـهذا مزيد بيان في الحجرات إن شاء الله تعالى.

قولـه تعالى: ﴿ وسوف تسألون ﴾ أي عن الشكر عليه؛ قاله مقاتل والفراء. وقال ابن جريج: أي تسألون أنت ومن معك على ما أتاك. وقيل: تسألون عما عملتم فيه؛ والمعنى متقارب.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٠٠)، ومسلم (١٨١٨) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم في "الإيمان"، (٢٠٤).

(٣) "حسن" أخرجه بنحوه أبو داود والترمذي وحسنه، وانظر صحيح أبي داود (٤٢٦٩).

قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قال ابن عباس وابن زيد: لما أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ـ وهو مسجد بيت المقدس ـ بعث الله لـه آدم ومن ولد من المرسلين، وجبريل مع النبي ﷺ؛ فأذن جبريل ﷺ ثم أقام الصلاة، ثم قال: يا محمد تقدم فصل بهم؛ فلما فرغ رسول الله ﷺ؛ قال جبريل ﷺ: (سل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلـهة يعبدون). فقال رسول الله ﷺ: (لا أسأل قد اكتفيت). قال ابن عباس: وكانوا سبعين نبيا منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام؛ فلم يسألـهم لأنه كان أعلم بالله منهم. في غير رواية ابن عباس: فصلوا خلف رسول الله ﷺ سبعة صفوف، المرسلون ثلاثة صفوف والنبيون أربعة؛ وكان يلي ظهر رسول الله ﷺ إبراهيم خليل الله، وعلى يمينه إسماعيل وعلى يساره إسحاق ثم موسى ثم سائر المرسلين فأمهم ركعتين؛ فلما انفتل قام فقال: (إن ربي أوحى إلي أن أسألكم هل أرسل أحد منكم يدعو إلى عبادة غير الله)؟ فقالوا: (يا محمد، إنا نشهد إنا أرسلنا أجمعين بدعوة واحدة أن لا إلـه إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل، وأنك خاتم النبيين وسيد المرسلين، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيانا، وأن لا نبي بعدك إلى يوم القيامة إلا عيسى ابن مريم فإنه مأمور أن يتبع أثرك).

وقال سعيد بن جبير في قولـه تعالى: ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ قال: لقي الرسل ليلة أسري به. وقال الوليد بن مسلم في قولـه تعالى: ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ قال: سألت عن ذلك خليد بن دعلج فحدثني عن قتادة قال: سألـهم ليلة أسري به، لقي الأنبياء ولقي آدم ومالك خازن النار.

قلت: هذا هو الصحيح في تفسير هذه الآية. و"من" التي قبل "رسلنا" على هذا القول غير زائدة. وقال المبرد وجماعة من العلماء: إن المعنى واسأل أمم من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا. وروي أن في قراءة ابن مسعود: "واسأل الذي أرسلنا إليهم قبلك رسلنا". وهذه قراءة مفسرة؛ فـ "من" على هذا زائدة، وهو قول مجاهد والسدي والضحاك وقتادة وعطاء والحسن وابن عباس أيضا. أي واسأل مؤمني أهل الكتابين التوراة والإنجيل. وقيل: المعنى سلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا قبلك؛ فحذفت "عن"، والوقف على "رسلنا" على هذا تام، ثم ابتدأ بالاستفهام على طريق الإنكار. وقيل: المعنى واسأل تباع من أرسلنا من قبلك من رسلنا، فحذف المضاف. والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته.

قولـه تعالى: ﴿ أجعلنا من دون الرحمن آلـهة يعبدون ﴾ أخبر عن الآلـهة كما أخبر عمن يعقل فقال: "يعبدون" ولم يقل تعبد ولا يعبدن، لأن الآلـهة جرت عندهم مجرى من يعقل فأجرى الخبر عنهم مجرى الخبر عمن يعقل.

وسبب هذا الأمر بالسؤال أن اليهود والمشركين قالوا للنبي ﷺ: إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك؛ فأمره الله بسؤال الأنبياء على جهة التوقيف والتقرير؛ لا لأنه كان في شك منه.

واختلف أهل التأويل في سؤال النبي ﷺ لهم على قولين: أحدهما: أنه سألهم فقالت الرسل بعثنا بالتوحيد؛ قاله الواقدي. الثاني: أنه لم يسألهم ليقينه بالله عز وجل؛ حتى حكى ابن زيد أن ميكائيل قال لجبريل: (هل سألك محمد عن ذلك ؟ فقال جبريل: هو أشد إيمانا وأعظم يقينا من أن يسأل عن ذلك)[١] . وقد تقدم هذا المعنى في الروايتين حسبما ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ لما أعلم النبي ﷺ أنه منتقم له من عدوه وأقام الحجة باستشهاد الأنبياء واتفاق الكل على التوحيد أكد ذلك بقصة موسى وفرعون، وما كان من فرعون من التكذيب، وما نزل به وبقومه من الإغراق والتكذيب: أي أرسلنا موسى بالمعجزات وهي التسع الآيات فكذب؛ فجعلت العاقبة الجميلة له، فكذلك أنت. ومعنى: ﴿ يضحكون ﴾ استهزاء وسخرية؛ يوهمون أتباعهم أن تلك الآيات سحر وتخييل، وأنهم قادرون عليها. وقوله: ﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ أي كانت آيات موسى من أكبر الآيات، وكانت كل واحدة أعظم مما قبلها. وقيل: "إلا هي أكبر من أختها" لأن الأولى تقتضي علما والثانية تقتضي علما، فتضم الثانية إلى الأولى فيزداد الوضوح، ومعنى الأخوة المشاكلة والمناسبة؛ كما يقال: هذه صاحبة هذه؛ أي قريبتان في المعنى. ﴿ وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ﴾ أي على تكذيبهم بتلك الآيات؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ﴾ (الأعراف: ١٣٠). والطوفان والجراد والقمل والضفادع. وكانت هذه الآيات الأخيرة عذابا لهم وآيات لموسى. ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ من كفرهم.

قوله تعالى: ﴿ وقالوا يا أيها الساحر ﴾ لما عاينوا العذاب قالوا يا أيها الساحر؛ نادوه بما كانوا ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم. وقيل: كانوا يسمون العلماء سحرة فنادوه بذلك على سبيل التعظيم. قال ابن عباس: "يا أيها الساحر" يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيما يوقرونه؛ ولم يكن السحر صفة ذم. وقيل: يا أيها الذي غلبنا بسحره؛ يقال: ساحرته فسحرته؛ أي غلبته

---

(١) لا يصح.

بالسحر؛ كقول العرب: خاصمته فخصمته أي غلبته بالخصومة، وفاضلته ففضلته، ونحوها. ويحتمل أن يكون أرادوا به الساحر على الحقيقة على معنى الاستفهام، فلم يلمهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا. وقرأ ابن عامر وأبو حيوة ويحيى بن وثاب "أيهُ الساحر" بغير ألف والهاء مضمومة؛ وعلتها أن الهاء خلطت بما قبلها وألزمت ضم الياء الذي أوجبه النداء المفرد. وأنشد الفراء:

يأيه القلب اللجوج النفس أفق عن البيض الحسان اللعس

فضم الهاء حملا على ضم الياء؛ وقد مضى في "النور" معنى هذا. ووقف أبو عمرو وابن أبي إسحاق ويحيى والكسائي "أيها" بالألف على الأصل. الباقون بغير ألف؛ لأنها كذلك وقعت في المصحف. ﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ أي بما أخبرنا عن عهده إليك إنا إن آمنا كشف عنا؛ فسله يكشف عنا ﴿ إننا لمهتدون ﴾ أي فيما يستقبل. ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب ﴾ أي فدعا فكشفنا. ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ أي ينقضون العهد الذي جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا. وقيل: قولهم: "إننا لمهتدون" إخبار منهم عن أنفسهم بالإيمان؛ فلما كشف عنهم العذاب ارتدوا.

قوله تعالى: "ونادى فرعون في قومه" قيل: لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إليه فجمع قومه فقال؛ فنادى بمعنى قال؛ قاله أبو مالك. فيجوز أن يكون عنده عظماء القبط فرفع صوته بذلك فيما بينهم ثم ينشر عنه في جموع القبط؛ وكأنه نودي به بينهم. وقيل: إنه أمر من ينادي في قومه؛ قاله ابن جريج. ﴿ قال يا قوم أليس لي ملك مصر ﴾ أي لا ينازعني فيه أحد. قيل: إنه ملك منها أربعين فرسخا في مثلها؛ حكاه النقاش. وقيل أراد بالملك هنا الإسكندرية. ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ يعني أنهار النيل، ومعظمها أربعة: نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس. قال قتادة: كانت جنانا وأنهارا تجري من تحت قصوره. وقيل: من تحت سريره. وقيل: "من تحتي" أي تصرفي نافذ فيها من غير صانع. وقيل: كان إذا أمسك عنانه أمسك النيل عن الجري. قال القشيري: ويجوز ظهور خوارق العادة على مدعي الربوبية؛ إذ لا حاجة في تمييز الإله من غير الإله إلى فعل خارق للعادة. وقيل: معنى "وهذه الأنهار تجري من تحتي" أي القواد والرؤساء والجبابرة يسيرون من تحت لوائي؛ قاله الضحاك. وقيل: أراد بالأنهار الأموال، وعبر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها. وقوله: "تجري من تحتي" أي أفرقها على من يتبعني؛ لأن الترغيب والقدرة في الأموال دون الأنهار. ﴿ أفلا تبصرون ﴾ عظمتي وقوتي وضعف موسى. وقيل: قدرتي على نفقتكم وعجز موسى. والواو في "وهذه" يجوز أن تكون عاطفة للأنهار على "ملك مصر" و"تجري" نصب على الحال منها. ويجوز أن تكون واو الحال، واسم الإشارة مبتدأ، و"الأنهار" صفة لاسم الإشارة، و"تجري" خبر للمبتدأ. وفتح الياء من "تحتي" أهل المدينة والبزي وأبو عمرو، وأسكن الباقون. وعن الرشيد أنه لما قرأها قال: لأولينها أحسن عبيدي، فولاها الخصيب، وكان على وضوئه. وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال: أهذه القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: "أليس لي ملك مصر"؟! والله لهي عندي أقل من أن أدخلها! فثنى عنانه. ثم صرح بحاله فقال: ﴿ أم أنا خير ﴾ قال أبو عبيدة والسدي: "أم" بمعنى "بل" وليست بحرف عطف؛ على قول أكثر

المفسرين. والمعنى: قال فرعون لقومه بل أنا خير﴿ من هذا الذي هو مهين ﴾ أي لا عز لـه فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ يعني ما كان في لسانه من العقدة؛ على ما تقدم في "طه" وقال الفراء: في "أم" وجهان: إن شئت جعلتها من الاستفهام الذي جعل بأم لاتصالـه بكلام قبلـه، وإن شئت جعلتها نسقا على قولـه: "أليس لي ملك مصر". وقيل: هي زائدة. وروى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون "أم" زائدة؛ والمعنى أنا خير من هذا الذي هو مهين. وقال الأخفش: في الكلام حذف، والمعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؛ كما قال:

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا آأنت أم أم سالم

أي أنت أحسن أم أم سالم. ثم ابتداء فقال: (أنا خير). وقال الخليل وسيبويه: المعنى "أفلا تبصرون"، أم أنتم بصراء، فعطف بـ "أم" على "أفلا تبصرون" لأن معنى "أم أنا خير" أي أم تبصرون؛ وذلك أنهم إذا قالوا لـه أنت خير منه كانوا عنده بصراء.

وروي عن عيسى الثقفي ويعقوب الحضرمي أنهما وقفا على "أم" على أن يكون التقدير أفلا تبصرون أم تبصرون؛ فحذف تبصرون الثاني. وقيل: من وقف على "أم" جعلـها زائدة، وكأنه وقف على "تبصرون" من قولـه: "أفلا تبصرون". ولا يتم الكلام على "تبصرون" عند الخليل وسيبويه؛ لأن "أم" تقتضي الاتصال بما قبلـها. وقال قوم: الوقف على قولـه: "أفلا تبصرون" ثم ابتدأ "أم أنا خير" بمعنى بل أنا خير وأنشد الفراء:

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى وصورتها أم أنت في العين أملح

فمعناه: بل أنت أملح. وذكر الفراء أن بعض القراء قرأ "أما أنا خير"؛ ومعنى هذا ألست خيرا. وروي عن مجاهد أنه وقف على "أم" ثم يبتدئ "أنا خير" وقد ذكر.

قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فلولا ﴾ أي هلا ﴿ ألقي عليه أساورة من ذهب ﴾ إنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزي أهل الشرف. وقرأ حفص "أسورة" جمع سوار، كخمار وأخمرة. وقرأ أبي "أساور" جمع إسوار. وابن مسعود "أساوير". الباقون "أساورة" جمع الأسورة فهو جمع الجمع. ويجوز أن يكون "أساورة" جمع "إسوار" وألحقت الـهاء في الجمع عوضا من الياء؛ فهو مثل زناديق وزنادقة، وبطاريق وبطارقة، وشبهه. وقال أبو عمرو بن العلاء: واحد الأساورة والأساور والأساوير إسوار، وهي لغة في سوار. قال مجاهد: كانوا إذا سوروا رجلا سوروه بسوارين وطوقوه بطوق ذهب علامة لسيادته، فقال فرعون: هلا ألقى رب موسى عليه أساورة من ذهب إن كان صادقا! ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ يعني متتابعين؛ في قول قتادة. مجاهد: يمشون معا. ابن عباس: يعاونونه على من خالفه؛ والمعنى: هلا ضم إليه الملائكة التي يزعم أنها عند ربه حتى يتكثر بهم ويصرفهم على أمره ونهيه؛ فيكون ذلك أهيب في القلوب. فأوهم قومه أن رسل الله ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في

الشاهد، ولم يعلم أن رسل الله إنما أيدوا بالجنود السماوية؛ وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى مع تفرده ووحدته من فرعون مع كثرة أتباعه، وإمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون لـه أسورة أو ملائكة يكونون معه أعوانا ـ في قول مقاتل ـ أو دليلا على صدقه ـ في قول الكلبي ـ وليس يلزم هذا لأن الإعجاز كاف، وقد كان في الجائز أن يكذب مع مجيء الملائكة كما كذب مع ظهور الآيات. وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم.

قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فاستخف قومه ﴾ قال ابن الأعرابي: المعنى فاستجهل قومه ﴿ فأطاعوه ﴾ لخفة أحلامهم وقلة عقولـهم؛ يقال: استخفه الفرح أي أزعجه، واستخفه أي حملـه على الجهل؛ ومنه: ﴿ ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ (الروم: ٦٠). وقيل: استفزهم بالقول فأطاعوه على التكذيب. وقيل: استخف قومه أي وجدهم خفاف العقول. وهذا لا يدل على أنه يجب أن يطيعوه، فلا بد من إضمار بعيد تقديره وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه. وقيل: استخف قومه وقهرهم حتى اتبعوه؛ يقال: استخفه خلاف استثقلـه، واستخف به أهانه. ﴿ إنهـم كانوا قوما فاسقين ﴾ أي خارجين عن طاعة الله.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس: أي غاظونا وأغضبونا. وروى عنه علي بن أبي طلحة: أي أسخطونا. قال الماوردي: ومعناهما مختلف، والفرق بينهما أن السخط إظهار الكراهة. والغضب إرادة الانتقام. القشيري: والأسف ها هنا بمعنى الغضب؛ والغضب من الله إما إرادة العقوبة فيكون من صفات الذات، وإما عين العقوبة فيكون من صفات الفعل؛ وهو معنى قول الماوردي.

وقال عمر بن ذر: يا أهل معاصي الله، لا تغتروا بطول حلم الله عنكم، واحذروا أسفه؛ فإنه قال: "فلما آسفونا انتقمنا منهم". وقيل: "آسفونا" أي أغضبوا رسلنا وأولياءنا المؤمنين؛ نحو السحرة وبني إسرائيل. وهو كقولـه تعالى: ﴿ يؤذون الله ﴾ (الأحزاب: ٥٧) و﴿ يحاربون الله ﴾ (المائدة: ٣٣) أي أولياءه ورسلـه.

قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فجعلناهم سلفا ﴾ أي جعلنا قوم فرعون سلفا. قال أبو مِجْلَز: "سلفا" لمن عمل عملـهم، و"مثلا" لمن يعمل عملـهم. وقال مجاهد: "سلفا" إخبارا لأمة محمد ﷺ، "ومثلا" أي عبرة لـهم. وعنه أيضا "سلفا" لكفار قومك يتقدمونهم إلى النار. قتادة: "سلفا" إلى النار، "ومثلا" عظة لمن يأتي بعدهم. والسلف المتقدم؛ يقال: سلف يسلف سلفا؛ مثل طلب طلبا؛ أي تقدم ومضى. وسلف لـه عمل صالح أي تقدم. والقوم السلاف المتقدمون. وسلف الرجل: آباؤه

المتقدمون؛ والجمع أسلاف وسلاف. وقراءة العامة "سلفا" (بفتح السين واللام) جمع سالف؛ كخادم وخدم، وراصد ورصد، وحارس وحرس. وقرأ حمزة والكسائي "سلفا" (بضم السين واللام). قال الفراء هو جمع سليف، نحو سرير وسرر. وقال أبو حاتم: هو جمع سلف؛ نحو خشب وخشب، وثمر وثمر؛ ومعناهما واحد. وقرأ علي وابن مسعود وعلقمة وأبو وائل والنخعي وحميد بن قيس "سلفا" (بضم السين وفتح اللام) جمع سلفة، أي فرقة متقدمة. قال المؤرج والنضر بن شميل: "سلفا" جمع سلفة، نحو غرفة وغرف، وطرفة وطرف، وظلمة وظلم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

لما قال تعالى: ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلـهة يعبدون ﴾ (الزخرف: ٤٥) تعلق المشركون بأمر عيسى وقالوا: ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلـها كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم إلـها؛ قالـه قتادة. ونحوه عن مجاهد قال: إن قريشا قالت إن محمدا يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى؛ فأنزل الله هذه الآية. وقال ابن عباس: أراد به مناظرة عبد الله بن الزبعرى مع النبي ﷺ في شأن عيسى، وأن الضارب لـهذا المثل هو عبد الله بن الزبعرى السهمي حالة كفره لما قالت لـه قريش إن محمدا يتلو: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ (الأنبياء: ٩٨) الآية، فقال: لو حضرته لرددت عليه؛ قالوا: وما كنت تقول لـه ؟ قال: كنت أقول لـه هذا المسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عزيرا، أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنه قد خصم؛ وذلك معنى قولـه: "يصدون" فأنزل الله تعالى: ﴿ إن الذين سبقت لـهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ (الأنبياء: ١٠١). ولو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها؛ لأنه قال: "وما تعبدون" ولم يقل ومن تعبدون وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين. وقد مضى هذا في آخر سورة "الأنبياء".

وروى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لقريش: (يا معشر قريش لا خير في أحد يعبد من دون الله). قالوا: أليس تزعم أن عيسى كان عبدا نبيا وعبدا صالحا، فإن كان كما تزعم فقد كان يعبد من دون الله ! فأنزل الله تعالى: ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ﴾[1] أي يضجون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي "يصدون" (بضم الصاد) ومعناه يعرضون؛ قالـه النخعي، وكسر الباقون. قال الكسائي: هما لغتان؛ مثل يعرشون ويعرشون وينمون وينمون، ومعناه يضجون. قال الجوهري: وصد يصد صديدا؛ أي ضج. وقيل: إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض، وبالكسر من الضجيج؛ قالـه قطرب. قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود عن الحق لكانت: إذا قومك عنه يصدون. الفراء: هما سواء؛ منه وعنه. ابن المسيب: يصدون يضجون. الضحاك يعجون. ابن عباس: يضحكون. أبو عبيدة: من ضم فمعناه يعدلون؛ فيكون المعنى: من أجل الميل يعدلون. ولا يعدى "يصدون" بمن، ومن كسر فمعناه يضجون؛ فـ "من" متصلة بـ "يصدون" والمعنى يضجون منه.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣١٨) مطولا، وقال الشيخ شاكر في تعليقه على "المسند"، (٢٩٢١): "إسناده صحيح".

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقالوا أآلـهتنا خير أم هو ﴾ أي آلـهتنا خير أم عيسى ؟ قالـه السدي. وقال: خاصموه وقالوا إن كل من عبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلـهتنا مع عيسى والملائكة وعزير، فأنزل الله تعالى: ﴿ إن الذين سبقت لـهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ (الأنبياء: ١٠١) الآية. وقال قتادة: "أم هو" يعنون محمدا ﷺ. وفي قراءة ابن مسعود "آلـهتنا خير أم هذا". وهو يقوي قول قتادة، فهو استفهام تقرير في أن آلـهتهم خير. وقرأ الكوفيون ويعقوب "أآلـهتنا" بتحقيق الـهمزتين، ولين الباقون. وقد تقدم. ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلا ﴾ "جدلاً" حال؛ أي جدلين. يعني ما ضربوا لك هذا المثل إلا إرادة الجدل؛ لأنهم علموا أن المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من الموات ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ مجادلون بالباطل. وفي صحيح الترمذي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ـ ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ـ "ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون")[1].

قوله تعالى: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ أي ما عيسى إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة، وجعلـه مثلا لبني إسرائيل؛ أي آية وعبرة يستدل بها على قدرة الله تعالى؛ فإن عيسى كان من غير أب، ثم جعل إليه من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والأسقام كلـها ما لم يجعل لغيره في زمانه، مع أن بني إسرائيل كانوا يومئذ خير الخلق وأحبه إلى الله عز وجل، والناس دونهم، ليس أحد عند الله عز وجل مثلـهم.

وقيل: المراد بالعبد المنعم عليه محمد ﷺ؛ والأول أظهر. ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ﴾ أي بدلا منكم ﴿ ملائكة ﴾ يكونون خلفا عنكم؛ قالـه السدي. ونحوه عن مجاهد قال: ملائكة يعمرون الأرض بدلا منكم. وقال الأزهري: إن "من" قد تكون للبدل؛ بدليل هذه الآية.

قلت: قد تقدم هذا المعنى في "التوبة" وغيرها. وقيل: لو نشاء لجعلنا من الإنس ملائكة وإن لم تجر العادة بذلك، والجواهر جنس واحد والاختلاف بالأوصاف؛ والمعنى: لو نشاء لأسكنا الأرض الملائكة، وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا، أو يقال لـهم بنات الله. ومعنى ﴿ يخلفون ﴾ يخلف بعضهم بعضا؛ قالـه ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

---

[1] "حسن" أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم، وانظر صحيح الجامع (٥٦٣٣).

قولـه تعالى: ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير: يريد القرآن؛ لأنه يدل على قرب مجيء الساعة، أو به تعلم الساعة وأهوالـها وأحوالـها.

وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقتادة أيضا: إنه خروج عيسى عليه السلام، وذلك من أعلام الساعة. لأن الله ينزلـه من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة. وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك "وإنه لعلم للساعة" (بفتح العين واللام) أي أمارة. وقد روي عن عكرمة "وإنه للعلم" (بلامين) وذلك خلاف للمصاحف.

وعن عبد الله بن مسعود. قال: لما كان ليلة أسري برسول الله ﷺ لقي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدؤوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علم؛ فرد الحديث إلى عيسى ابن مريم قال: قد عهد إلي فيما دون وجبتها فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله عز وجل؛ فذكر خروج الدجال ـ قال: فأنزل فأقتلـه. وذكر الحديث، خرجه ابن ماجه في سننه[1]. وفي صحيح مسلم (فبينما هو ـ يعني المسيح الدجال ـ إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتلـه...)[2] الحديث...

وذكر الثعلبي والزمخشري وغيرهما من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء على ثنية من الأرض المقدسة يقال لـها أفيق بين ممصرتين وشعر رأسه دهين وبيده حربة يقتل بها الدجال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر والإمام يؤم بهم فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد ﷺ ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به)[3]. وروى خالد عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: (الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم إنه ليس بيني وبينه نبي وإنه أول نازل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويقاتل الناس على الإسلام)[4]. قال الماوردي: وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا إذا نزل عيسى رفع التكليف لئلا يكون رسولا إلى ذلك الزمان يأمرهم عن الله تعالى وينهاهم. وهذا قول مردود لثلاثة أمور؛ منها الحديث، ولأن بقاء الدنيا يقتضي التكليف فيها، ولأنه ينزل آمرا بمعروف وناهيا عن منكر. وليس يستنكر أن يكون أمر الله تعالى لـه مقصورا على تأييد الإسلام والأمر به والدعاء إليه.

قلت: ثبت في صحيح مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لينزلن عيسى ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعى

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف سنن ابن ماجه (٨٨٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه بنحوه أبو داود (٤٣٢٤)، وأورده الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٣٥)، وقال: "صحيح".

(٤) ضعيف لإرساله، وقد أخرج الشطر الأول منه إلى قوله: "ليس بيني وبينه نبي" البخاري ومسلم من طرق عن أبي هريرة.

عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبلـه أحد)[١] . وعنه قال: قال رسول الله ﷺ : (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم) وفي رواية (فأمكم منكم) قال ابن أبي ذئب: تدري (ما أمكم منكم)؟ قلت: تخبرني، قال: فأمكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم ﷺ . قال علماؤنا رحمة الله عليهم: فهذا نص على أنه ينزل مجددا لدين النبي ﷺ للذي درس منه، لا بشرع مبتدأ والتكليف باق؛ على ما بيناه هنا وفي كتاب التذكرة.

وقيل: "وإنه لعلم للساعة" أي وإن إحياء عيسى الموتى دليل على الساعة وبعث الموتى؛ قالـه ابن إسحاق.

قلت: ويحتمل أن يكون المعنى "وإنه" وإن محمدا ﷺ لعلم للساعة؛ بدليل قولـه ﷺ : (بعثت أنا والساعة كهاتين) وضم السبابة والوسطى؛ خرجه البخاري ومسلم. وقال الحسن: أول أشراطها محمد ﷺ .

قولـه تعالى: ﴿ فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ﴾ "فلا تمترن بها" فلا تشكون فيها؛ يعني في الساعة؛ قالـه يحيى بن سلام. وقال السدي: فلا تكذبون بها، ولا تجادلون فيها فإنها كائنة لا محالة. "واتبعون" أي في التوحيد وفيما أبلغكم عن الله. "هذا صراط مستقيم" أي طريق قويم إلى الله، أي إلى جنته. وأثبت الياء يعقوب في قولـه: "واتبعون" في الحالين، وكذلك "وأطيعون". وأبو عمرو وإسماعيل عن نافع في الوصل دون الوقف، وحذف الباقون في الحالين. ﴿ ولا يصدنكم الشيطان ﴾ أي لا تغتروا بوساوسه وشبه الكفار المجادلين؛ فإن شرائع الأنبياء لم تختلف في التوحيد ولا فيما أخبروا به من علم الساعة وغيرها بما تضمنته من جنة أو نار. ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ تقدم في البقرة وغيرها.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولما جاء عيسى بالبينات ﴾ قال ابن عباس: يريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام، وخلق الطير، والمائدة وغيرها، والإخبار بكثير من الغيوب. وقال قتادة: البينات هنا الإنجيل. ﴿ قال قد جئتكم بالحكمة ﴾ أي النبوة؛ قالـه السدي. ابن عباس: علم ما يؤدي إلى الجميل ويكف عن القبيح. وقيل الإنجيل؛ ذكره القشيري والماوردي. ﴿ ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ قال مجاهد: من تبديل التوراة. الزجاج: المعنى لأبين لكم في الإنجيل بعض الذي تختلفون فيه من تبديل التوراة.

قال مجاهد: وبين لـهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. وقيل: بين لـهم بعض الذي اختلفوا فيه من أحكام التوراة على قدر ما سألوه. ويجوز أن يختلفوا في أشياء غير ذلك لم يسألوه عنها. وقيل: إن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٦)، ومسلم (١٥٥).

بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم وأشياء من أمر دنياهم فبين لهم أمر دينهم. ومذهب أبي عبيدة أن البعض بمعنى الكل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾(غافر: ٢٨). وأنشد الأخفش قول لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو تعتلق بعض النفوس حمامها

والموت لا يعتلق بعض النفوس دون بعض. ويقال للمنية: علوق وعلاقة. قال المفضل البكري:

وسائلة بثعلبة بن سير وقد علقت بثعلبة العلوق

وقال مقاتل: هو كقوله: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾(آل عمران: ٥٠). يعني ما أحل في الإنجيل مما كان محرما في التوراة؛ كلحم الإبل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت. ﴿فاتقوا الله ﴾أي اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده؛ وإذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلها أو ابن إله. ﴿وأطيعون ﴾فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره. ﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾أي عبادة الله صراط مستقيم، وما سواه معوج لا يؤدي سالكه إلى الحق.

قوله تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ قال قتادة: يعني ما بينهم، وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، خالف بعضهم بعضا، قاله مجاهد والسدي. الثاني: فرق النصارى من النسطورية والملكية واليعاقبة، اختلفوا في عيسى؛ فقالت النسطورية: هو ابن الله. وقالت اليعاقبة: هو الله. وقالت الملكية: ثالث ثلاثة أحدهم الله؛ قاله الكلبي ومقاتل، وقد مضى هذا في سورة "مريم". ﴿فويل للذين ظلموا ﴾أي كفروا وأشركوا؛ كما في سورة "مريم". ﴿من عذاب يوم أليم ﴾ أي أليم عذابه؛ ومثله: ليل نائم؛ أي ينام فيه. ﴿هل ينظرون ﴾ يريد الأحزاب لا ينتظرون. ﴿إلا الساعة ﴾ يريد القيامة. ﴿أن تأتيهم بغتة ﴾ أي فجأة. ﴿وهم لا يشعرون ﴾ يفطنون. وقد مضى في غير موضع. وقيل: المعنى لا ينتظر مشركو العرب إلا الساعة. ويكون "الأحزاب" على هذا، الذين تحزبوا على النبي ﷺ وكذبوه من المشركين. ويتصل هذا بقوله تعالى: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلا ﴾(الزخرف: ٥٨).

قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ ﴾يريد يوم القيامة. ﴿بعضهم لبعض عدو ﴾أي أعداء، يعادي بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا. ﴿إلا المتقين ﴾فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة؛ قال معناه ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في أمية بن خلف الجمحي وعقبة بن أبي معيط، كانا خليلين؛ وكان عقبة يجالس النبي ﷺ، فقالت قريش: قد صبأ عقبة بن أبي معيط؛ فقال له أمية: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا ولم تتفل في وجهه؛ ففعل عقبة ذلك؛ فنذر النبي

ﷺ قتلـه فقتلـه يوم بدر صبرا، وقتل أمية في المعركة؛ وفيهم نزلت هذه الآية. وذكر الثعلبي ﷺ في هذه الآية قال: كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فمات أحد المؤمنين فقال: يا رب، إن فلانا كان يأمرني بطاعتك، وطاعة رسولك، وكان يأمرني بالخير وينهاني عن الشر. ويخبرني أني ملاقيك، يا رب فلا تضلـه بعدي، وأهده كما هديتني، وأكرمه كما أكرمتني. فإذا مات خليلـه المؤمن جمع الله بينهما، فيقول الله تعالى: ليثن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول: يا رب، إنه كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، ويخبرني أني ملاقيك، فيقول الله تعالى: نعم الخليل ونعم الأخ ونعم الصاحب كان. قال: ويموت أحد الكافرين فيقول: يا رب، إن فلانا كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك، فأسألك يا رب ألا تهده بعدي، وأن تضلـه كما أضللتني، وأن تهينه كما أهنتني؛ فإذا مات خليلـه الكافر قال الله تعالى لـهما: ليثن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول: يا رب، إنه كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير ملاقيك، فأسألك أن تضاعف عليه العذاب؛ فيقول الله تعالى: بئس الصاحب والأخ والخليل كنت. فيلعن كل واحد منهما صاحبه[1].

قلت: والآية عامة في كل مؤمن ومتق وكافر ومضل.

قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قال مقاتل ورواه المعتمر بن سليمان عن أبيه: ينادي مناد في العرصات "يا عبادي لا خوف عليكم اليوم"، فيرفع أهل العرصة رؤوسهم، فيقول المنادي: "الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين" فينكس أهل الأديان رؤوسهم غير المسلمين.

وذكر المحاسبي في الرعاية: وقد روي في هذا الحديث أن المنادي ينادي يوم القيامة: "يا عباد لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون" فيرفع الخلائق رؤوسهم، يقولون: نحن عباد الله. ثم ينادي الثانية: ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ فينكس الكفار رؤوسهم ويبقى الموحدون رافعي رؤوسهم. ثم ينادي الثالثة: ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (يونس: ٦٣) فينكس أهل الكبائر رؤوسهم، ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسهم، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم؛ لأنه أكرم الأكرمين، لا يخذل وليه ولا يسلمه عند الـهلكة. وقرئ "يا عباد". وقرأ أبو بكر وزر بن حبيش "يا عبادي" بفتح الياء وإثباتها في الحالين؛ ولذلك أثبتها نافع وابن عامر وأبو عمرو ورويس ساكنة في الحالين. وحذفها الباقون في الحالين؛ لأنها وقعت مثبتة في مصاحف أهل الشام والمدينة لا غير.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

---

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٥/ ٧٣١) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وحميد بن زنجويه في ترغيبه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب من قوله.

قال الزجاج: "الذين" نصب على النعت لـ "عبادي" لأن "عبادي" منادى مضاف. وقيل: ﴿ الذين آمنوا ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أو ابتداء وخبره محذوف؛ تقديره هم الذين آمنوا، يقال لهم: ﴿ادخلوا الجنة﴾ أو يا عبادي الذين آمنوا ادخلوا الجنة. ﴿ أنتم وأزواجكم ﴾ المسلمات في الدنيا. وقيل: قرناؤكم من المؤمنين. وقيل: زوجاتكم من الحور العين. ﴿ تحبرون ﴾ تكرمون؛ قاله ابن عباس؛ والكرامة في المنزلة. الحسن: تفرحون. والفرح في القلب. قتادة: تنعمون؛ والنعيم في البدن. مجاهد: تسرون؛ والسرور في العين. ابن أبي نجيح: تعجبون؛ والعجب ها هنا درك ما يستطرف. يحيى بن أبي كثير: هو التلذذ بالسماع. وقد مضى هذا في الروم.

قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ﴾ أي لهم في الجنة أطعمة وأشربة يطاف بها عليهم في صحاف من ذهب وأكواب. ولم يذكر الأطعمة والأشربة؛ لأنه يعلم أنه لا معنى للإطافة بالصحاف والأكواب عليهم من غير أن يكون فيها شيء. وذكر الذهب في الصحاف واستغنى به عن الإعادة في الأكواب؛ كقوله تعالى: ﴿ والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ﴾ (الأحزاب: ٣٥). وفي الصحيحين عن حذيفة أنه سمع النبي ﷺ يقول: (لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة). وقد مضى في سورة "الحج"[1] أن من أكل فيهما في الدنيا أو لبس الحرير في الدنيا ولم يتب حرم ذلك في الآخرة تحريما مؤبداً. والله أعلم. وقال المفسرون: يطوف على أدناهم في الجنة منزلة سبعون ألف غلام بسبعين ألف صحفة من ذهب، يغدى عليه بها، في كل واحدة منها لون ليس في صاحبتها، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها، لا يشبه بعضه بعضا، ويراح عليه بمثلها. ويطوف على أرفعهم درجة كل يوم سبعمائة ألف غلام، مع كل غلام صحفة من ذهب، فيها لون من الطعام ليس في صاحبتها، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها، لا يشبه بعضه بعضا.

﴿ وأكواب ﴾ أي ويطاف عليهم بأكواب؛ كما قال تعالى: ﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب ﴾ (الإنسان: ١٥).

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا معمر عن رجل عن أبي قلابة قال: يؤتون بالطعام والشراب، فإذا كان في آخر ذلك أوتوا بالشراب الطهور فتضمر لذلك بطونهم، ويفيض عرقا من جلودهم أطيب من ريح المسك؛ ثم قرأ ﴿ شرابا طهورا ﴾ (الإنسان: ٢١). وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون قالوا فما بال الطعام ؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد والتكبير ـ في رواية ـ كما يلهمون النفس)[2].

---

(١) عند تفسير الآية (٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٥).

الثانية: روى الأئمة من حديث أم سلمة عن النبي ﷺ قال: (الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم)[١] وقال: (لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها)[٢] وهذا يقتضي التحريم، ولا خلاف في ذلك. واختلف الناس في استعمالها في غير ذلك. قال ابن العربي: والصحيح أنه لا يجوز للرجال استعمالها في شي؛ لقول النبي ﷺ في الذهب والحرير: (هذان حرام لذكور أمتي حل لإناثها)[٣]. والنهي عن الأكل والشرب فيها يدل على تحريم استعمالها؛ لأنه نوع من المتاع فلم يجز. أصله الأكل والشرب، ولأن العلة في ذلك استعجال أمر الآخرة، وذلك يستوي فيه الأكل والشرب وسائر أجزاء الانتفاع؛ ولأنه ﷺ قال: (هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة)[٤] فلم يجعل لنا فيها حظا في الدنيا.

الثالثة: إذا كان الإناء مضببا بهما أو فيه حلقة منهما؛ فقال مالك: لا يعجبني أن يشرب فيه، وكذلك المرآة تكون فيها الحلقة من الفضة ولا يعجبني أن ينظر فيها وجهه.

وقد كان عند أنس إناء مضبب بفضة وقال: لقد سقيت فيه النبي ﷺ. قال ابن سيرين: كانت فيه حلقة حديد فأراد أنس أن يجعل فيه حلقة فضة؛ فقال أبو طلحة: لا أغير شيئا مما صنعه رسول الله ﷺ؛ فتركه.

الرابعة: إذا لم يجز استعمالها لم يجز اقتناؤها؛ لأن ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناؤه كالصنم والطنبور. وفي كتب علمائنا أنه يلزم الغرم في قيمتها لمن كسرها، وهو معنى فاسد، فإن كسرها واجب فلا ثمن لقيمتها. ولا يجوز تقويمها في الزكاة بحال. وغير هذا لا يلتفت إليه.

قوله تعالى: ﴿بصحاف﴾ قال الجوهري: الصحفة كالقصعة والجمع صحاف. قال الكسائي: أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة تليها تشبع العشرة، ثم الصحفة تشبع الخمسة، ثم المئكلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصحيفة تشبع الرجل. والصحيفة الكتاب والجمع صحف وصحائف.
﴿وأكواب﴾ قال الجوهري: الكوب كوز لا عروة له، والجمع أكواب قال الأعشى يصف الخمر:

صريفية طيب طعمها لها زبد بين كوب ودن

وقال آخر:

متكئا تصفق أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب

وقال قتادة: الكوب المدور القصير العنق القصير العروة. والإبريق: المستطيل العنق الطويل العروة. وقال الأخفش: الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها. وقال قطرب: هي الأباريق التي ليست لها عرى. وقال مجاهد: إنها الآنية المدورة الأفواه. السدي: هي التي لا آذان لها. ابن عزيز: "أكواب" أباريق لا عرى لها ولا خراطيم؛ واحدها كوب.

قلت: وهو معنى قول مجاهد والسدي، وهو مذهب أهل اللغة أنها التي لا آذان لها ولا عرى.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٣٤).
(٢) أخرجه البخاري (٥٦٣٣).
(٣) صحيح.
(٤) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٦٣٣).

قولـه تعالى: ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ روى الترمذي عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلا سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من خيل ؟ قال: (إن الله أدخلك الجنة فلا تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك في الجنة حيث شئت). قال: وسألـه رجل فقال يا رسول الله، هل في الجنة من إبل ؟ قال: فلم يقل لـه مثل ما قال لصاحبه قال: (إن يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك)[١]. وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأهل الشام "وفيها ما تشتهيه الأنفس"، الباقون "تشتهي الأنفس" أي تشتهيه الأنفس؛ تقول: الذي ضربت زيد، أي الذي ضربته زيد. "وتلذ الأعين" تقول: لذ الشيء يلذ لذاذا، ولذاذة. ولذذت بالشيء ألذ (بالكسر في الماضي والفتح في المستقبل) لذاذا ولذاذة؛ أي وجدته لذيذا. والتذذت به وتلذذت به بمعنى. أي في الجنة ما تستلذه العين فكان حسن المنظر. وقال سعيد بن جبير: "وتلذ الأعين" النظر إلى الله عز وجل؛ كما في الخبر: "أسألك لذة النظر إلى وجهك"[٢]. ﴿ وأنتم فيها خالدون ﴾ باقون دائمون؛ لأنها لو انقطعت لتبغضت.

قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وتلك الجنة ﴾ أي يقال لـهم هذه تلك الجنة التي كانت توصف لكم في الدنيا. وقال ابن خالَويه: أشار تعالى إلى الجنة بتلك وإلى جهنم بهذه؛ ليخوف بجهنم ويؤكد التحذير منها. وجعلـها بالإشارة القريبة كالحاضرة التي ينظر إليها. ﴿ التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ قال ابن عباس: خلق الله لكل نفس جنة ونارا؛ فالكافر يرث نار المسلم، والمسلم يرث جنة الكافر؛ وقد تقدم هذا مرفوعا في ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ (المؤمنون: ١) من حديث أبي هريرة، وفي "الأعراف" أيضا.

قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

الفاكهة معروفة، وأجناسها الفواكه، والفاكهاني الذي يبيعها. وقال ابن عباس: هي الثمار كلـها، رطبها ويابسها؛ أي لـهم في الجنة سوى الطَعام والشراب فاكهة كثيرة يأكلون منها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ﴾ لما ذكر أحوال أهل الجنة ذكر أحوال أهل النار أيضا ليبين فضل المطيع على العاصي. ﴿ لا يفتر عنهم ﴾ أي لا يخفف عنهـم ذلك العذاب. ﴿وهم فيه مبلسون﴾ أي آيسون من الرحمة. وقيل: ساكتون سكوت يأس؛ وقد مضى في الأنعـام. ﴿وما ظلمناهم﴾ بالعذاب ﴿ ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ أنفسهم بالشرك. ويجوز "ولكن كانوا هم الظالمون" بالرفع على الابتداء والخبر والجملة خبر كان.

---

(١) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (١٣٩٩).

(٢) "صحيح" وهو جزء من حديث أخرجه النسائي والحاكم عن عمار مرفوعاً، وانظر صحيح الجامع (١٣٠١).

قوله تعالى: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ونادوا يا مالك ﴾ وهو خازن جهنم، خلقه لغضبه؛ إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضا. وقرأ علي وابن مسعود رضي الله عنهما "ونادوا يا مال" وذلك خلاف المصحف. وقال أبو الدرداء وابن مسعود: قرأ النبي ﷺ "ونادوا يا مال "باللامَ خاصة؛ يعني رخم الاسم وحذف الكاف. والترخيم الحذف، ومنه ترخيم الاسم في النداء، وهو أن يحذف من آخره حرف أو أكثر، فتقول في مالك: يا مال، وفي حارث: يا حار، وفي فاطمة: يا فاطم، وفي عائشة يا عائش وفي مروان: يا مرو، وهكذا. قال:

يا حار لا أرمين منكم بداهية   لم يلقها سوقة قبلي ولا ملك

وقال امرؤ القيس:

أحار ترى برقا أريك وميضه   كلمع اليدين في حبي مكلل

وقال أيضا:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل   وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

وقال آخر:

يا مرو إن مطيتي محبوسة   ترجو الحباء وربها لم ييأس

وفي صحيح الحديث (أي فل، هلم)[1]. ولك في آخر الاسم المرخم وجهان: أحدهما: أن تبقيه على ما كان عليه قبل الحذف. والآخر: أن تبنيه على الضم؛ مثل: يا زيد؛ كأنك أنزلته منزلته ولم تراع المحذوف. وذكر أبو بكر الأنباري قال: حدثنا محمد بن يحيى المروزي قال حدثنا محمد ـ وهو ابن سعدان ـ قال حدثنا حجاج عن شعبة عن الحكم بن عيينة عن مجاهد قال: كنا لا ندري ما الزخرف حتى وجدناه في قراءة عبد الله "بيت من ذهب"، وكنا لا ندري "ونادوا يا مالك" أو يا ملك (بفتح اللام وكسرها) حتى وجدناه في قراءة عبد الله "ونادوا يا مال" على الترخيم. قال أبو بكر: لا يعمل على هذا الحديث لأنه مقطوع لا يقبل مثله في الرواية عن الرسول ﷺ؛ وكتاب الله أحق بأن يحتاط له وينفى عنه الباطل.

قلت: وفي صحيح البخاري عن صفوان بن يعلى عن أبيه قال سمعت النبي ﷺ يقرأ على المنبر: "ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك"[2] بإثبات الكاف.

وقال محمد بن كعب القرظي: بلغني ـ أو ذكر لي ـ أن أهل النار استغاثوا بالخزنة فقال الله تعالى: ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ﴾ (غافر: ٤٩) فسألوا يوما واحدا يخفف عنهم فيه العذاب؛ فردت عليهم: ﴿ قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ (غافر: ٥٠) قال: فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا مالكا؛ وهو عليهم وله مجلس في وسطها، وجسور تمر عليها ملائكة العذاب؛ فهو يرى أقصاها كما

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم وغيره.
(٢) أخرجه البخاري (٤٨١٩).

يرى أدناها فقالوا: "يا مالك ليقض علينا ربك" سألوا الموت، قال: فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانين سنة، قال: والسنة ستون وثلاثمائة يوم، والشهر ثلاثون يوما، واليوم كألف سنة مما تعدون، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين فقال: "إنكم ماكثون" وذكر الحديث؛ ذكره ابن المبارك. وفي حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: (فيقولون ادعوا مالكا فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون). قال الأعمش: نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام؛ خرجه الترمذي[1]. وقال ابن عباس: يقولون ذلك فلا يجيبهم ألف سنة، ثم يقول إنكم ماكثون. وقال مجاهد ونوف البكالي: بين ندائهم وإجابته إياهم مائة سنة. وقال عبد الله بن عمرو: أربعون سنة؛ ذكره ابن المبارك.

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ (٧٨) ﴾

يحتمل أن يكون هذا من قول مالك لهم؛ أي إنكم ماكثون في النار لأنا جئناكم في الدنيا بالحق فلم تقبلوا. ويحتمل أن يكون من كلام الله لهم اليوم؛ أي بينا لكم الأدلة وأرسلنا إليكم الرسل. ﴿ولكن أكثركم ﴾ قال ابن عباس: "ولكن أكثركم" أي ولكن كلكم. وقيل: أراد بالكثرة الرؤساء والقادة منهم؛ وأما الأتباع فما كان لهم أثر ﴿للحق ﴾أي للإسلام ودين الله ﴿كارهون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) ﴾

قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم بالمكر بالنبي ﷺ في دار الندوة، حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتله فتضعف المطالبة بدمه؛ فنزلت هذه الآية، وقتل الله جميعهم ببدر.

"أبرموا" أحكموا. والإبرام الإحكام. أبرمت الشيء أحكمته. وأبرم الفتال إذا أحكم الفتل، وهو الفتل الثاني، والأول سحيل؛ كما قال:

. . . من سحيل ومبرم

فالمعنى: أم أحكموا كيدا فإنا محكمون لهم كيدا؛ قاله ابن زيد ومجاهد. قتادة: أم أجمعوا على التكذيب فإنا مجمعون على الجزاء بالبعث. الكلبي: أم قضوا أمرا فإنا قاضون عليهم بالعذاب. وأم بمعنى بل. وقيل: "أم أبرموا" عطف على قوله: ﴿ أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ (الزخرف: ٤٥). وقيل: أي ولقد جئناكم بالحق فلم تسمعوا، أم سمعوا فأعرضوا لأنهم في أنفسهم أبرموا أمرا أمنوا به العقاب.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) ﴾

قوله تعالى: ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾أي ما يسرونه في أنفسهم ويتناجون به بينهم. ﴿بلى ﴾نسمع ونعلم. ﴿ورسلنا لديهم يكتبون ﴾أي الحفظة عندهم يكتبون عليهم. وروي أن هذا نزل في ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها؛ فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا؟ وقال

(١) ضعيف، وهو جزء من حديث طويل، وانظر ضعيف الجامع (٦٤٦١).

الثاني: إذا جهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع. وقال الثالث: إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم؛ قاله محمد بن كعب القرظي، وقد مضى هذا المعنى عن ابن مسعود في سورة "فصلت".

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ اختلف في معناه؛ فقال ابن عباس والحسن والسدي: المعنى ما كان للرحمن ولد، فـ "إن" بمعنى ما، ويكون الكلام على هذا تاما، ثم تبتدئ: "فأنا أول العابدين" أي الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولد له. والوقف على "العابدين" تام. وقيل: المعنى قل يا محمد إن ثبت لله ولد فأنا أول من يعبد ولده، ولكن يستحيل أن يكون له ولد؛ وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده؛ وهذا مبالغة في الاستبعاد؛ أي لا سبيل إلى اعتقاده. وهذا ترقيق في الكلام؛ كقوله: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ (سبأ: ٢٤). والمعنى على هذا: فأنا أول العابدين لذلك الولد، لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد. وقال مجاهد: المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده وحده، على أنه لا ولد له. وقال السدي أيضا: المعنى لو كان له ولد كنت أول من عبده على أن له ولدا؛ ولكن لا ينبغي ذلك. قال المهدوي: فـ "إن" على هذه الأقوال للشرط، وهو الأجود، وهو اختيار الطبري، لأن كونها بمعنى ما يتوهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى. وقيل: إن معنى "العابدين" الآنفين. وقال بعض العلماء: لو كان كذلك لكان العبدين. وكذلك قرأ أبو عبد الرحمن واليماني "فأنا أول العبدين" بغير ألف، يقال: عبد يعبد عبدا (بالتحريك) إذا أنف وغضب فهو عبد، والاسم العبدة مثل الأنفة، عن أبي زيد. قال الفرزدق:

أولئك أجلاسي فجئني بمثلهم   وأعبد أن أهجو كليباً بدارم

وينشد أيضا:

أولئك ناس إن هجوني هجوتهم   وأعبدِ أن يهجى كليب بدارم

قال الجوهري: وقال أبو عمرو وقوله تعالى: "فأنا أول العابدين" من الأنف والغضب، وقاله الكسائي والقتبي، حكاه الماوردي عنهما. وقال الهروي: وقوله تعالى: "فأنا أول العابدين" قيل هو من عبد يعبد؛ أي من الآنفين. وقال ابن عرفة: إنما يقال عبد يعبد فهو عبد؛ وقلما يقال عابد، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذ، ولكن المعنى فأنا أول من يعبد الله عز وجل على أنه واحد لا ولد له.

وروي أن امرأة دخلت على زوجها فولدت منه لستة أشهر، فذكر ذلك لعثمان ﷺ فأمر برجمها؛ فقال له علي: قال الله تعالى: ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾ (الأحقاف: ١٥) وقال في آية أخرى: ﴿وفصاله في عامين ﴾ (لقمان: ١٤) فوالله ما عَبِد عثمان أن بعث إليها تُرَدُّ. قال عبد الله بن وهب: يعني ما استنكف ولا أنف. وقال ابن الأعرابي "فأنا أول العابدين" أي الغضاب الآنفين

وقيل: "فأنا أول العابدين" أي أنا أول من يعبده على الوحدانية مخالفا لكم. أبو عبيدة: معناه الجاحدين؛ وحكي: عبدني حقي أي جحدني. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما "ولد" بضم الواو وإسكان اللام. الباقون وعاصم "ولد" وقد تقدم. ﴿ سبحان رب السماوات والأرض ﴾ أي تنزيها لـه وتقديسا. نزه نفسه عن كل ما يقتضي الحدوث، وأمر النبي ﷺ بالتنزيه. ﴿ رب العرش عما يصفون ﴾ أي عما يقولون من الكذب.

قوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا ﴾ يعني كفار مكة حين كذبوا بعذاب الآخرة. أي اتركهم يخوضوا في باطلـهم ويلعبوا في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ إما العذاب في الدنيا أو في الآخرة. وقيل: إن هذا منسوخ بآية السيف. وقيل: هو محكم، وإنما أخرج مخرج التهديد. وقرأ ابن محيصن ومجاهد وحميد وابن القعقاع وابن السميقع "حتى يلقوا" بفتح الياء وإسكان اللام من غير ألف؛ وفتح القاف هنا وفي "الطور" و"المعارج". الباقون "يلاقوا".

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وهو الذي في السماء إلـه وفي الأرض إلـه ﴾ هذا تكذيب لـهم في أن لله شريكا وولدا؛ أي هو المستحق للعبادة في السماء والأرض. وقال عمر ﷺ وغيره: المعنى وهو الذي في السماء إلـه في الأرض؛ وكذلك قرأ. والمعنى أنه يعبد فيهما. وروي أنه قرأ هو وابن مسعود وغيرهما "وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله" وهذا خلاف المصحف. و"إلـه" رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي وهو الذي في السماء هو إلـه؛ قالـه أبو علي. وحسن حذفه لطول الكلام. وقيل: "في" بمعنى على؛ كقولـه تعالى: ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ (طه: ٧١) أي على جذوع النخل؛ أي هو القادر على السماء والأرض. ﴿ وهو الحكيم العليم ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ تبارك ﴾ تفاعل من البركة؛ وقد تقدم. ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أي وقت قيامها. ﴿ وإليه ترجعون ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي "وإليه يرجعون" بالياء. الباقون بالتاء. وكان ابن محيصن وحميد ويعقوب وابن أبي إسحاق يفتحون أولـه على أصولـهم. وضم الباقون.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ من في موضع الخفض. وأراد بـ "الذين يدعون من دونه" عيسى وعزيرا والملائكة. والمعنى ولا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة؛ قالـه سعيد بن جبير وغيره. قال: وشهادة الحق لا إلـه إلا الله. وقيل: "من" في محل رفع؛

أي ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة؛ يعني الآلـهة ـ في قول قتادة ـ أي لا يشفعون لعابديها إلا من شهد بالحق؛ يعني عزيرا وعيسى والملائكة فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله. ﴿ وهم يعلمون ﴾ حقيقة ما شهدوا به. قيل: إنها نزلت بسبب أن النضر بن الحارث ونفرا من قريش قالوا: إن كان ما يقول محمد حقا فنحن نتولى الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه؛ فأنزل الله: "ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق" أي اعتقدوا أن الملائكة أو الأصنام أو الجن أو الشياطين تشفع لـهم ولا شفاعة لأحد يوم القيامة.

﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ يعني المؤمنين إذا أذن لـهم. قال ابن عباس: "إلا من شهد بالحق" أي شهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله. وقيل: أي لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله أن يشفع لـهم أحد إلا من شهد بالحق؛ فإن من شهد بالحق يشفع لـه ولا يشفع لمشرك. و"إلا" بمعنى لكن؛ أي لا ينال المشركون الشفاعة لكن ينال الشفاعة من شهد بالحق؛ فهو استثناء منقطع. ويجوز أن يكون متصلا؛ لأن في جملة "الذين يدعون من دونه" الملائكة. ويقال: شفعته وشفعت لـه؛ مثل كلته وكلت لـه. وقد مضى في "البقرة" معنى الشفاعة واشتقاقها فلا معنى لإعادتها.

وقيل: "إلا من شهد بالحق" إلا من تشهد لـه الملائكة بأنه كان على الحق في الدنيا، مع علمهم بذلك منه بأن يكون الله أخبرهم به، أو بأن شاهدوه على الإيمان.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ يدل على معنيين: أحدهما: أن الشفاعة بالحق غير نافعة إلا مع العلم، وأن التقليد لا يغني مع عدم العلم بصحة المقالة. والثاني: أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالما بها. ونحوه ما روي عن النبي ﷺ: (إذا رأيت مثل الشمس فاشهد وإلا فدع). وقد مضى في البقرة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ أي لأقروا بأن الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا. ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ أي كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنها حتى أشركوا به غيره رجاء شفاعتهم لـه. يقال: أفكه يأفكه أفكا؛ أي قلبه وصرفه عن الشيء. ومنه قولـه تعالى: ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلـهتنا ﴾ (الأحقاف: ٢٢). وقيل: أي ولئن سألت الملائكة وعيسى "من خلقهم" لقالوا الله. "فأنى يؤفكون" أي فأنى يؤفك هؤلاء في ادعائهم إياهم آلـهة.

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقيلـه ﴾ فيه ثلاث قراءات: النصب، والجر، والرفع. فأما الجر فهي قراءة عاصم وحمزة. وبقية السبعة بالنصب. وأما الرفع فهي قراءة الأعرج وقتادة وابن هرمز ومسلم بن جندب. فمن جر حملـه على معنى: وعنده علم الساعة وعلم قيلـه. ومن نصب فعلى معنى: وعنده علم الساعة ويعلم قيلـه؛ وهذا اختيار الزجاج.

وقال الفراء والأخفش: يجوز أن يكون "قيله" عطفا على قوله: ﴿ أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ (الزخرف: ٨٠). قال ابن الأنباري: سألت أبا العباس محمد بن يزيد المبرد بأي شيء تنصب القيل؟ فقال: أنصبه على "وعنده علم الساعة ويعلم قيله". فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على "ترجعون"، ولا على "يعلمون". ويحسن الوقف على "يكتبون". وأجاز الفراء والأخفش أن ينصب القيل على معنى: لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله؛ كما ذكرنا عنهما. فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على "يكتبون". وأجاز الفراء والأخفش أيضا: أن ينصب على المصدر؛ كأنه قال: وقال قيله، وشكا شكواه إلى الله عز وجل، كما قال كعب بن زهير:

تمشي الوشاة جنابيها وقيلهم   إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول

أراد: ويقولون قيلهم. ومن رفع "قيله" فالتقدير: وعنده قيله، أو قيله مسموع، أو قيله هذا القول. الزمخشري: والذي قالوه ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضا ومع تنافر النظم. وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه. والرفع على قولهم: أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ولعمرك، ويكون قوله: "إن هؤلاء قوم لا يؤمنون" جواب القسم؛ كأنه قال: وأقسم بقيله يا رب، أو قيله يا رب قسمي، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون. وقال ابن الأنباري: ويجوز في العربية "وقيله" بالرفع، على أن ترفعه بإن هؤلاء قوم لا يؤمنون. المهدوي: أو يكون على تقدير وقيله قيله يا رب؛ فحذف قيله الثاني الذي هو خبر، وموضع "يا رب" نصب بالخبر المضمر، ولا يمتنع ذلك من حيث امتنع حذف بعض الموصول وبقي بعضه؛ لأن حذف القول قد كثر حتى صار بمنزلة المذكور. والهاء في "قيله" لعيسى، وقيل لمحمد ﷺ، وقد جرى ذكره إذ قال: ﴿ قل إن كان للرحمن ولد ﴾ (الزخرف: ٨١). وقرأ أبو قلابة "يا رب" بفتح الباء. والقيل مصدر كالقول؛ ومنه الخبر (نهى عن قيل وقال). ويقال: قلت قولا وقيلا وقالا. وفي النساء ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ (النساء: ١٢٢).

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

قال قتادة: أمر بالصفح عنهم ثم أمره بقتالهم؛ فصار الصفح منسوخا بالسيف. ونحوه عن ابن عباس قال: ﴿ فاصفح عنهم ﴾ أي أعرض عنهم. ﴿ وقل سلام ﴾ أي معروفا؛ أي قل لمشركي أهل مكة ﴿ فسوف تعلمون ﴾ ثم نسخ هذا في سورة "التوبة" بقوله تعالى: ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (التوبة: ٥) الآية. وقيل: هي محكمة لم تنسخ. وقراءة العامة "فسوف يعلمون" (بالياء) على أنه خبر من الله تعالى لنبيه بالتهديد. وقرأ نافع وابن عامر "تعلمون" (بالتاء) على أنه من خطاب النبي ﷺ للمشركين بالتهديد. و"سلام" رفع بإضمار عليكم؛ قاله الفراء. ومعناه الأمر بتوديعهم بالسلام، ولم يجعله تحية لهم؛ حكاه النقاش. وروى شعيب بن الحبحاب أنه عرفه بذلك كيف السلام عليهم؛ والله أعلم.

سورة الدخان

مقدمة السورة:

سورة الدخان مكية باتفاق، إلا قوله تعالى: ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلا ﴾ (الدخان: ١٥). وهي سبع وخمسون آية. وقيل تسع. وفي مسند الدارمي عن أبي رافع قال: (من قرأ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفورا له وزوج من الحور العين)[١] رفعه الثعلبي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (من قرأ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفورا له)[٢] وفي لفظ آخر عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (من قرأ الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك)[٣]. وعن أبي أمامة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بيتا في الجنة)[٤].

قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ ﴾

إن جعلت "حم" جواب القسم تم الكلام عند قوله: "المبين" ثم تبتدئ "إنا أنزلناه". وإن جعلت "إنا كنا منذرين" جواب القسم الذي هو "الكتاب" وقفت على "منذرين" وابتدأت "فيها يفرق كل أمر حكيم". وقيل: الجواب "إنا أنزلناه"، وأنكره بعض النحويين من حيث كان صفة للمقسم به، ولا تكون صفة المقسم به جوابا للقسم، والهاء في "أنزلناه" للقرآن. ومن قال: أقسم بسائر الكتب فقوله: "إنا أنزلناه" كنى به عن غير القرآن، على ما تقدم بيانه في أول "الزخرف" والليلة المباركة ليلة القدر. ويقال: ليلة النصف من شعبان، ولها أربعة أسماء: الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصك، وليلة القدر. ووصفها بالبركة لما ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب. وروى قتادة عن واثلة أن النبي ﷺ قال: (أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان وأنزلت الزبور لاثنتي عشرة من رمضان وأنزل الإنجيل لثمان عشرة خلت من رمضان وأنزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان)[٥]. ثم قيل: أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا في هذه الليلة. ثم أنزل نجما نجما في سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب. وقيل: كان ينزل في كل ليلة القدر ما ينزل في سائر السنة. وقيل: كان ابتداء الإنزال في هذه الليلة. وقال عكرمة: الليلة المباركة ها هنا ليلة النصف من شعبان. والأول أصح لقوله تعالى: ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ (القدر: ١). قال قتادة وابن زيد: أنزل الله القرآن كله في ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزة في سماء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيّه ﷺ في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين سنة. وهذا المعنى قد مضى في "البقرة" عند قوله تعالى: ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ (البقرة: ١٨٥)، ويأتي آنفا إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٢/ ٥٥٠) كذا موقوفاً على أبي رافع.
(٢) "ضعيف جداً"، أخرجه الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً، كما في ضعيف الجامع (٥٧٧٩).
(٣) "موضوع" انظر ضعيف الجامع (٥٧٧٨).
(٤) "ضعيف جداً" أخرجه الطبراني عن أبي أمامة مرفوعاً، كما في ضعيف الجامع (٥٧٨٠).
(٥) "حسن" انظر صحيح الجامع (١٤٩٧)، وراجع الصحيحة (١٥٧٥).

قوله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

قال ابن عباس: يحكم الله أمر الدنيا إلى قابل في ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق. وقاله قتادة ومجاهد والحسن وغيرهم. وقيل: إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيران، قاله ابن عمر. قال المهدوي: ومعنى هذا القول أمر الله عز وجل الملائكة بما يكون في ذلك العام ولم يزل ذلك في علمه عز وجل. وقال عكرمة: هي ليلة النصف من شعبان يبرم فيها أمر السنة وينسخ الأحياء من الأموات، ويكتب الحاج فلا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد. وروى عثمان بن المغيرة قال: قال النبي ﷺ: (تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتى)[١]. وعن النبي ـ ﷺ ـ قال: (إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلتها وصوموا نهارها فإن الله ينزل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا يقول ألا مستغفر فأغفر له ألا مبتلى فأعافيه ألا مسترزق فأرزقه ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر)[٢] ذكره الثعلبي. وخرج الترمذي بمعناه عن عائشة عن النبي ﷺ قال: (إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب)[٣]. وفي الباب عن أبي بكر الصديق قال أبو عيسى: حديث عائشة لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحجاج بن أرطاة عن يحيى بن أبي كثير عن عروة عن عائشة، وسمعت محمدا يضعف هذا الحديث، وقال: يحيى بن أبي كثير لم يسمع من عروة، والحجاج بن أرطاة لم يسمع من يحيى بن أبي كثير.

قلت: وقد ذكر حديث عائشة مطولا صاحب كتاب العروس، واختار أن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ليلة النصف من شعبان، وأنها تسمى ليلة البراءة. وقد ذكرنا قوله والرد عليه في غير هذا الموضع، وأن الصحيح إنما هي ليلة القدر على ما بيناه. روى حماد بن سلمة قال أخبرنا ربيعة بن كلثوم قال: سأل رجل الحسن وأنا عنده فقال: يا أبا سعيد، أرأيت ليلة القدر أفي كل رمضان هي؟ قال: إي والله الذي لا إله إلا هو، إنها في كل رمضان، إنها الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي الله كل خلق وأجل ورزق وعمل إلى مثلها. وقال ابن عباس: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحج؛ يقال: يحج فلان ويحج فلان. وقال في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى. وهذه الإبانة لإحكام السنة إنما هي للملائكة الموكلين بأسباب الخلق. وقد ذكرنا هذا المعنى آنفا. وقال القاضي أبو بكر بن العربي: وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر. ومنهم من قال: إنها ليلة النصف من شعبان؛ وهو باطل لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع: ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ (البقرة: ١٨٥) فنص على أن ميقات نزوله رمضان، ثم عين من زمانه الليل ها هنا بقوله: "في ليلة مباركة" فمن زعم أنه في غيره فقد أعظم الفرية على الله، وليس في ليلة النصف من شعبان حديث يعول عليه لا

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في "التفسير"، (٤/ ١٣٧) وقال: "حديث مرسل، ومثله لا يعارض به النصوص".
(٢) "موضوع" أخرجه ابن ماجه والبيهقي عن علي مرفوعاً، وانظر ضعيف الجامع (٧٥٢).
(٣) "ضعيف" أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وانظر ضعيف الجامع (١٧٦١).

في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليها[1]. الزمخشري: "وقيل يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ويقع الفراغ في ليلة القدر؛ فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبريل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف؛ ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم؛ ونسخة المصائب إلى ملك الموت. وعن بعضهم: يعطى كل عامل بركات أعماله؛ فيلقى على ألسنة الخلق مدحه، وعلى قلوبهم هيبته. وقرئ "نفرق" بالتشديد، و"يفرق" كل على بنائه للفاعل ونصب "كل"، والفارق الله عز وجل. وقرأ زيد بن علي ﷺ "نفرق" بالنون. "وكل أمر حكيم" كل شأن ذي حكمة؛ أي مفعول على ما تقتضيه الحكمة".

قوله تعالى: ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦)﴾

قوله تعالى: ﴿ أمرا من عندنا ﴾ قال النقاش: الأمر هو القرآن أنزله الله من عنده. وقال ابن عيسى: هو ما قضاه الله في الليلة المباركة من أحوال عباده. وهو مصدر في موضع الحال. وكذلك ﴿رحمة من ربك ﴾وهما عند الأخفش حالان؛ تقديرهما: أنزلناه آمرين به وراحمين. المبرد: "أمرا" في موضع المصدر، والتقدير: أنزلناه إنزالا. الفراء والزجاج: "أمرا" نصب بـ"يفرق"، مثل قولك "يفرق فرقا" فأمر بمعنى فرق فهو مصدر، مثل قولك: يضرب ضربا. وقيل: "يفرق" يدل على يؤمر، فهو مصدر عمل فيه ما قبله. ﴿إنا كنا مرسلين ﴾رحمة من ربك ﴾قال الفراء "رحمة" مفعول بـ "مرسلين". والرحمة النبي ﷺ. وقال الزجاج: "رحمة" مفعول من أجله؛ أي أرسلناه للرحمة. وقيل: هي بدل من "أمرا" وقيل: هي مصدر. الزمخشري: "أمرا" نصب على الاختصاص، جعل كل أمر جزلا فخما بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وكسبه فخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا، كائنا من لدنا، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا. وفي قراءة زيد بن علي "أمر من عندنا" على هو أمر، وهي تنصر انتصابه على الاختصاص. وقرأ الحسن "رحمة" على تلك هي رحمة، وهي تنصر انتصابها بأنه مفعول له.

قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩)﴾

قوله تعالى: ﴿رب السماوات والأرض ﴾قرأ الكوفيون "رب" بالجر. الباقون بالرفع؛ ردا على قوله: "إنه هو السميع العليم". وإن شئت على الابتداء، والخبر لا إله إلا هو. أو يكون خبر ابتداء

---

(١) في هذا الإطلاق نظر، إذ ثبت في فضل ليلة النصف من شعبان قوله ﷺ: "يطلع الله تبارك وتعالى إلى خلقه ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن" وهو حديث صحيح، روي عن جماعة من الصحابة من طرق مختلفة يشد بعضها بعضا، وهم معاذ بن جبل، وأبو ثعلبة الخشني وعبد الله بن عمرو، وأبو موسى الأشعري وأبو هريرة وأبو بكر الصديق وعوف بن مالك، وعائشة. وقد تكلم على هذه الطرق كلها مفصلة الشيخ الألباني كما في الصحيحة (١١٤٤)، ثم قال: "وجملة القول أن الحديث بمجموع هذه الطرق صحيح بلا ريب، والصحة تثبت بأقل منها عدداً، فما نقله الشيخ القاسمي رحمه الله تعالى في "إصلاح المساجد"، (ص١٠٧) عن أهل التعديل والتجريح أنه ليس في فضل ليلة النصف من شعبان حديث يصح، فليس مما ينبغي الاعتماد عليه، ولئن كان أحد منهم أطلق مثل هذا القول ـ أي كابن العربي كما في هذا الموضع ـ فإنما أوتي من قبل التسرع وعدم وسع الجهد لتتبع الطرق على هذا النحو الذي بين يديك".

محذوف؛ تقديره: هو رب السماوات والأرض. والجر على البدل من "ربك" وكذلك: "ربكم ورب آبائكم الأولين" بالجر فيهما؛ رواه الشيزري عن الكسائي. الباقون بالرفع على الاستئناف. ثم يحتمل أن يكون هذا الخطاب مع المعترف بأن الله خلق السماوات والأرض؛ أي إن كنتم موقنين به فاعلموا أن له أن يرسل الرسل، وينزل الكتب. ويجوز أن يكون الخطاب مع من لا يعترف أنه الخالق؛ أي ينبغي أن يعرفوا أنه الخالق؛ وأنه الذي يحيي ويميت. وقيل: الموقن ها هنا هو الذي يريد اليقين ويطلبه؛ كما تقول: فلان ينجد؛ أي يريد نجدا. ويتهم؛ أي يريد تهامة. ﴿ لا إله إلا هو يحيي ويميت ﴾ أي هو خالق العالم؛ فلا يجوز أن يشرك به غيره ممن لا يقدر على خلق شيء. و"هو يحيي ويميت" أي يحيي الأموات ويميت الأحياء. ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أي مالككم ومالك من تقدم منكم. واتقوا تكذيب محمد لئلا ينزل بكم العذاب. ﴿ بل هم في شك يلعبون ﴾ أي ليسوا على يقين فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم: إن الله خالقهم؛ وإنما يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم فهم في شك. وإن توهموا أنهم مؤمنون فهم يلعبون في دينهم بما يعن لهم من غير حجة. وقيل: "يلعبون" يضيفون إلى النبي ﷺ الافتراء استهزاء. ويقال لمن أعرض عن المواعظ: لاعب؛ وهو كالصبي الذي يلعب فيفعل ما لا يدري عاقبته.

قوله تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ ارتقب معناه انتظر يا محمد بهؤلاء الكفار يوم تأتي السماء بدخان مبين؛ قاله قتادة. وقيل: معناه احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء بدخان مبين؛ ولذلك سمي الحافظ رقيبا. وفي الدخان أقوال ثلاثة: الأول: أنه من أشراط الساعة لم يجئ بعد، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوما يملأ ما بين السماء والأرض؛ فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام، وأما الكافر والفاجر فيدخل في أنوفهم فيثقب مسامعهم، ويضيق أنفاسهم؛ وهو من آثار جهنم يوم القيامة. وممن قال إن الدخان لم يأت بعد: علي وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وزيد بن علي والحسن وابن أبي مليكة وغيرهم. وروى أبو سعيد الخدري مرفوعا أنه دخان يهيج بالناس يوم القيامة؛ يأخذ المؤمن منه كالزكمة. وينفخ الكافر حتى يخرج من كل مسمع منه؛ ذكره الماوردي. وفي صحيح مسلم عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: (ما تذكرون)؟ قالوا: نذكر الساعة؛ قال: (إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ـ فذكر ـ الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم)[1]. في رواية عن حذيفة (إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف في جزيرة العرب والدخان والدجال ودابة الأرض ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس). وخرّجه الثعلبي أيضا عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: (أول الآيات خروجا الدجال ونزول عيسى ابن

(١) أخرجه مسلم في "الفتن"، (٢٩٠١).

مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم إذا قالوا وتصبح معهم إذا أصبحوا وتمسي معهم إذا أمسوا). قلت: يا نبي الله، وما الدخان؟ قال هذه الآية: ("فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين" يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره)[١]. فهذا قول. القول الثاني: أن الدخان هو ما أصاب قريشا من الجوع بدعاء النبي ﷺ، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخانا؛ قاله ابن مسعود. قال: وقد كشفه الله عنهم، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم. والحديث عنه بهذا في صحيح البخاري ومسلم والترمذي. قال البخاري: حدثني يحيى قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مسلم عن مسروق قال: قال عبد الله: إنما كان هذا لأن قريشا لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد؛ فأنزل الله تعالى: "فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين. يغشى الناس هذا عذاب أليم". قال: فأتي رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمضر فإنها قد هلكت. قال: (لمضر! إنك لجريء) فاستسقى فسقوا؛ فنزلت ﴿ إنكم عائدون ﴾ (الدخان: ١٥). فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية؛ فأنزل الله عز وجل: "يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون" قال: يعني يوم بدر[٢]. قال أبو عبيدة: والدخان الجدب. القتبي سمي دخانا ليبس الأرض منه حين يرتفع منها كالدخان. القول الثالث: إنه يوم فتح مكة لما حجبت السماء الغبرة؛ قاله عبد الرحمن الأعرج.

قوله تعالى: ﴿ يغشى الناس ﴾ في موضع الصفة للدخان، فإن كان قد مضى على ما قال ابن مسعود فهو خاص بالمشركين من أهل مكة، وإن كان من أشراط الساعة فهو عام على ما تقدم. ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أي يقول الله لهم: "هذا عذاب أليم". فمن قال: إن الدخان قد مضى فقوله: "هذا عذاب أليم" حكاية حال ماضية، ومن جعله مستقبلا فهو حكاية حال آتية. وقيل: "هذا" بمعنى ذلك. وقيل: أي يقول الناس لذلك الدخان: "هذا عذاب أليم". وقيل: هو إخبار عن دنو الأمر؛ كما تقول: هذا الشتاء فأعد له.

قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

أي يقولون ذلك: اكشف عنا العذاب فـ "إنا مؤمنون"؛ أي نؤمن بك إن كشفته عنا. قيل: إن قريشا أتوا النبي ﷺ وقالوا: إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا، ثم نقضوا هذا القول. قال قتادة: "العذاب" هنا الدخان. وقيل: الجوع؛ حكاه النقاش.

---

(١) ذكره ابن كثير في "التفسير"، (٤/ ١٣٩) من طريق ابن جرير، ثم أورد قول ابن جرير فيه: "لو صح هذا الحديث لكان فاصلا، وإنما لم أشهد له بالصحة..." ثم قال ابن كثير معلقا: وقد أجاد ابن جرير في هذا الحديث ها هنا فإنه بهذا السند موضوع.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢١)، وفي مواضع أخر من صحيحه، ومسلم (٢٧٩٨).

قلت: ولا تناقض؛ فإن الدخان لم يكن، إلا من الجوع الذي أصابهم؛ على ما تقدم. وقد يقال للجوع والقحط: الدخان؛ ليبس الأرض في سنة الجدب وارتفاع الغبار بسبب قلة الأمطار؛ ولهذا يقال لسنة الجدب: الغبراء. وقيل: إن العذاب هنا الثلج. قال الماوردي: وهذا لا وجه له؛ لأن هذا إنما يكون في الآخرة أو في أهل مكة، ولم تكن مكة من بلاد الثلج؛ غير أنه مقول فحكيناه.

قوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) ﴾

قوله تعالى: ﴿ أنى لهم الذكرى ﴾ أي من أين يكون لهم التذكر والاتعاظ عند حلول العذاب. ﴿ وقد جاءهم رسول مبين ﴾ يبين لهم الحق، والذكرى والذكر واحد؛ قاله البخاري. ﴿ ثم تولوا عنه ﴾ أي أعرضوا. قال ابن عباس: أي متى يتعظون والله أبعدهم من الاتعاظ والتذكر بعد توليهم عن محمد ﷺ وتكذيبهم إياه. وقيل: أي أنى ينفعهم قولهم: "إنا مؤمنون" بعد ظهور العذاب غدا أو بعد ظهور أعلام الساعة، فقد صارت المعارف ضرورية. وهذا إذا جعلت الدخان آية مرتقبة. ﴿ وقالوا معلم مجنون ﴾ أي علمه بشر أو علمه الكهنة والشياطين، ثم هو مجنون وليس برسول.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ (١٥) ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلا ﴾ أي وقتا قليلا، وعد أن يكشف عنهم ذلك العذاب قليلا؛ أي في زمان قليل ليعلم أنهم لا يفون بقولهم، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه؛ قاله ابن مسعود. فلما كشف ذلك عنهم باستسقاء النبي ﷺ عادوا إلى تكذيبه. ومن قال: إن الدخان منتظر قال: أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية من آيات قيام الساعة. ثم من قضي عليه بالكفر يستمر على كفره. ومن قال هذا في القيامة قال: أي لو كشفنا عنكم العذاب لعدتم إلى الكفر. وقيل: معنى ﴿ إنكم عائدون ﴾ إلينا؛ أي مبعوثون بعد الموت. وقيل: المعنى "إنكم عائدون" إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) ﴾

قوله تعالى: ﴿ يوم ﴾ محمول على ما دل عليه ﴿ منتقمون ﴾؛ أي ننتقم منهم يوم نبطش. وأبعده بعض النحويين بسبب أن ما بعد "إن" لا يفسر ما قبلها. وقيل: إن العامل فيه "منتقمون". وهو بعيد أيضا؛ لأن ما بعد "إن" لا يعمل فيما قبلها. ولا يحسن تعلقه بقوله: "عائدون" ولا بقوله: "إنا كاشفو العذاب"؛ إذ ليس المعنى عليه. ويجوز نصبه بإضمار فعل؛ كأنه قال: ذكرهم أو اذكر. ويجوز أن يكون المعنى إنكم عائدون، فإذا عدتم أنتقم منكم يوم نبطش البطشة الكبرى. ولهذا وصل هذا بقصة فرعون، فإنهم وعدوا موسى الإيمان إن كشف عنهم العذاب، ثم لم يؤمنوا حتى غرقوا. وقيل: "إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون" كلام تام. ثم ابتدأ: "يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون" أي ننتقم من جميع الكفار. وقيل: المعنى وارتقب الدخان وارتقب يوم نبطش، فحذف واو

العطف؛ كما تقول: اتق النار اتق العذاب. و﴿ البطشة الكبرى ﴾ في قول ابن مسعود: يوم بدر. وهو قول ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد والضحاك. وقيل: عذاب جهنم يوم القيامة؛ قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضا، واختاره الزجاج. وقيل: دخان يقع في الدنيا، أو جوع أو قحط يقع قبل يوم القيامة. الماوردي: ويحتمل أنها قيام الساعة؛ لأنها خاتمة بطشاته في الدنيا. ويقال: انتقم الله منه؛ أي عاقبه. والاسم منه النقمة والجمع النقمات. وقيل بالفرق بين النقمة والعقوبة؛ فالعقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة. والنقمة قد تكون قبلها؛ قاله ابن عباس. وقيل: العقوبة ما تقدرت والانتقام غير مقدر.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

أي ابتليناهم. ومعنى هذه الفتنة والابتلاء الأمر بالطاعة. والمعنى عاملناهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم فكذبوا فأهلكوا؛ فهكذا أفعل بأعدائك يا محمد إن لم يؤمنوا. وقيل: فتناهم عذبناهم بالغرق. وفي الكلام تقديم وتأخير؛ والتقدير: ولقد جاء آل فرعون رسول كريم وفتناهم، أي أغرقناهم؛ لأن الفتنة كانت بعد مجيء الرسول. والواو لا ترتب. ومعنى ﴿ كريم ﴾ أي كريم في قومه. وقيل: كريم الأخلاق بالتجاوز والصفح. وقال الفراء: كريم على ربه إذ اختصه بالنبوة وإسماع الكلام.

قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أن أدوا إلي عباد الله ﴾ قال ابن عباس: المعنى جاءهم فقال: اتبعوني. فـ "عباد الله" منادى. وقال مجاهد: المعنى أرسلوا معي عباد الله وأطلقوهم من العذاب. فـ "عباد الله" على هذا مفعول. وقيل: المعنى أدوا إلي سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربي. ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي أمين على الوحي فاقبلوا نصحي. وقيل: أمين على ما أستأديه منكم فلا أخون فيه. ﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ أي لا تتكبروا عليه ولا ترتفعوا عن طاعته. وقال قتادة: لا تبغوا على الله. ابن عباس: لا تفتروا على الله. والفرق بين البغي والافتراء: أن البغي بالفعل والافتراء بالقول. وقال ابن جريج: لا تعظموا على الله. يحيى بن سلام: لا تستكبروا على عبادة الله. والفرق بين التعظيم والاستكبار: أن التعظيم تطاول المقتدر، والاستكبار ترفع المحتقر؛ ذكره الماوردي. ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ قال قتادة: بعذر بين. وقال يحيى بن سلام بحجة بينة. والمعنى واحد؛ أي برهان بين.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾

كأنهم توعدوه بالقتل فاستجار بالله. قال قتادة: "ترجمون" بالحجارة. وقال ابن عباس: تشتمون؛ فتقولوا ساحر كذاب. وأظهر الذال من "عذت" نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم ويعقوب. وأدغم الباقون. والإدغام طلبا للتخفيف، والإظهار على الأصل. ثم قيل: إني عذت بالله

فيما مضى؛ لأن الله وعده فقال: ﴿ فلا يصلون إليكما ﴾ (القصص: ٣٥). وقيل: إني أعوذ؛ كما تقول نشدتك بالله، وأقسمت عليك بالله؛ أي أقسم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإن لم تؤمنوا لي ﴾ أي إن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل برهاني؛ فاللام في "لي" لام أجل. وقيل: أي وإن لم تؤمنوا بي؛ كقوله: ﴿ فآمن له لوط ﴾ (العنكبوت: ٢٦) أي به. ﴿ فاعتزلون ﴾ أي دعوني كفافا لا لي ولا علي؛ قاله مقاتل. وقيل: أي كونوا بمعزل مني وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا. وقيل: فخلوا سبيلي وكفوا عن أذاي. والمعنى متقارب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فدعا ربه ﴾ فيه حذف؛ أي فكفروا فدعا ربه. ﴿ أن هؤلاء ﴾ بفتح "أن" أي بأن هؤلاء. ﴿ قوم مجرمون ﴾ أي مشركون، قد امتنعوا من إطلاق بني إسرائيل ومن الإيمان.

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فأسر بعبادي ليلا ﴾ أي فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أن أسر بعبادي؛ أي بمن آمن بالله من بني إسرائيل. ﴿ ليلا ﴾ أي قبل الصباح ﴿ إنكم متبعون ﴾ وقرأ أهل الحجاز "فأسر" بوصل الألف. وكذلك ابن كثير؛ من سرى. الباقون "فأسر" بالقطع؛ من أسرى. وقد تقدم. وتقدم خروج فرعون وراء موسى في "البقرة والأعراف وطه والشعراء ويونس" وإغراقه وإنجاء موسى؛ فلا معنى للإعادة.

الثانية: أمر موسى عليه السلام بالخروج ليلا. وسير الليل في الغالب إنما يكون عن خوف، والخوف يكون بوجهين: إما من العدو فيتخذ الليل سترا مسدلا؛ فهو من أستار الله تعالى. وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحر أو جدب، فيتخذ السرى مصلحة من ذلك. وكان النبي ﷺ يسري ويدلج ويترفق ويستعجل، بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة. وفي الصحيح عن النبي ﷺ: (إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض وإذا سافرتم في السنة فبادروا بها نقيها)[١]. وقد مضى في أول "النحل"؛ والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قال ابن عباس: ﴿ رهوا ﴾ أي طريقا. وقاله كعب والحسن. وعن ابن عباس أيضا سمتا. الضحاك والربيع: سهلا. عكرمة: يبسا، لقوله: "فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا" وقيل: مفترقا. مجاهد: منفرجا. وعنه يابسا. وعنه ساكنا، وهو المعروف في اللغة. وقاله قتادة والهروي. وقال غيرهما: منفرجا. وقال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد وإن اختلف لفظاهما، لأنه إذا

---

(١) أخرجه مسلم وغيره وقد تقدم.

سكن جريه انفرج. وكذلك كان البحر يسكن جريه وانفرج لموسى عليه السلام. والرهو عند العرب: الساكن، يقال: جاءت الخيل رهوا، أي ساكنة. قال:

والخيل تمزع رهوا في أعنتها كالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد

الجوهري: ويقال افعل ذلك رهوا، أي ساكنا على هينتك. وعيش راه، أي ساكن رافه. وخمس راه، إذا كان سهلا. ورها البحر أي سكن. وقال أبو عبيد: رها بين رجليه يرهو رهوا أي فتح، ومنه قوله تعالى: "واترك البحر رهوا" والرهو: السير السهل، يقال: جاءت الخيل رهوا. قال ابن الأعرابي: رها يرهو في السير أي رفق. قال القطامي في نعت الركاب:

يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل

والرهو والرهوة: المكان المرتفع، والمنخفض أيضا يجتمع فيه الماء، وهو من الأضداد. وقال أبو عبيد: الرهو: الجوبة تكون في محلة القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره. وفي الحديث أنه قضى أن (لا شفعة في فناء ولا طريق ولا منقبة ولا ركح ولا رهو)[1]. والجمع رهاء. والرهو: المرأة الواسعة الهن. حكاه النضر بن شميل. والرهو: ضرب من الطير، ويقال: هو الكركي. قال الهروي: ويجوز أن يكون "رهوا "من نعت موسى – وقاله القشيري - أي سر ساكنا على هينتك؛ فالرهو من نعت موسى وقومه لا من نعت البحر، وعلى الأول هو من نعت البحر؛ أي اتركه ساكنا كما هو قد انفرق فلا تأمره بالانضمام. حتى يدخل فرعون وقومه. قال قتادة: أراد موسى أن يضرب البحر لما قطعه بعصاه حتى يلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون فقيل له هذا. وقيل: ليس الرهو من السكون بل هو الفرجة بين الشيئين؛ يقال: رها ما بين الرجلين أي فرج. فقوله: "رهوا" أي منفرجا. وقال الليث: الرهو مشي في سكون، يقال: رها يرهو رهوا فهو راه. وعيش راه: وادع خافض. وافعل ذلك سهوا رهوا؛ أي ساكنا بغير شدة. وقد ذكرناه آنفا. ﴿ إنهم ﴾ أي إن فرعون وقومه. ﴿ جند مغرقون ﴾ أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه.

قوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم ﴾ "كم" للتكثير. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية. ﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ النعمة (بالفتح): التنعيم، يقال: نعمه الله وناعمه فتنعم. وامرأة منعمة ومناعمة، بمعنى. والنعمة (بالكسر): اليد والصنيعة والمنة وما أنعم به عليك. وكذلك النعمى. فإن فتحت النون مددت وقلت: النعماء. والنعيم مثله. وفلان واسع النعمة، أي واسع المال؛ جميعه عن الجوهري. وقال ابن عمر: المراد بالنعمة نيل مصر. ابن لهيعة: الفيوم. ابن زياد: أرض مصر لكثرة خيرها. وقيل: ما كانوا فيه من السعة والدعة. وقد يقال: نعمة ونعمة (بفتح النون وكسرها)، حكاه الماوردي. قال: وفي الفرق بينهما وجهان: أحدهما: أنها بكسر

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١١٢)، والبيهقي في "السنن الكبرى"، (٦/ ١٥٢) بنحوه وضعفه.

النون في الملك، وبفتحها في البدن والدين، قاله النضر بن شميل. الثاني: أنها بالكسر من المنة وهو الإفضال والعطية؛ وبالفتح من التنعيم وهو سعة العيش والراحة؛ قاله ابن زياد.

قلت: هذا الفرق هو الذي وقع في الصحاح وقد ذكرناه. وقرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشهب والأعرج وأبو جعفر وشيبة "فكهين" بغير ألف، ومعناه أشرين بطرين. قال الجوهري: فكه الرجل (بالكسر) فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحا. والفكه أيضا الأشر البطر. وقرئ "ونعمة كانوا فيها فكهين" أي أشرين بطرين. و"فاكهين" أي ناعمين. القشيري: "فاكهين" لاهين مازحين، يقال: إنه لفاكه أي مزاح. وفيه فكاهة أي مزح. الثعلبي: وهما لغتان كالحاذر والحذر، والفاره والفره. وقيل: إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الآكل بأنواع الفاكهة. والفاكهة: فضل عن القوت الذي لا بد منه.

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قال الزجاج: أي الأمر كذلك؛ فيوقف على "كذلك". وقيل: إن الكاف في موضع نصب، على تقدير نفعل فعلا كذلك بمن نريد إهلاكه. وقال الكلبي: "كذلك" أفعل بمن عصاني. وقيل: "كذلك" كان أمرهم فأهلكوا. ﴿ وأورثناها قوما آخرين ﴾ يعني بني إسرائيل، ملكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وارثين؛ لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث. ونظيره: ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ﴾ (الأعراف: ١٣٧).

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ أي لكفرهم. ﴿ وما كانوا منظرين ﴾ أي مؤخرين بالغرق. وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض؛ أي عمت مصيبته الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق، وبكته الليالي الشاتيات. قال الشاعر:

فالريح تبكي شجوها والبرق يلمع في الغمامة

وقال آخر:

والشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

وقالت الخارجية:

أيا شجر الخابور ما لك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه. والمعنى أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فقد. وقيل: في الكلام إضمار، أي ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة؛ كقوله تعالى: ﴿ واسأل القرية ﴾ (يوسف: ٨٢) بل سروا بهلاكهم، قاله الحسن. وروى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان باب ينزل منه رزقه وباب يدخل منه كلامه وعمله فإذا مات فقداه فبكيا عليه ـ ثم تلا ـ

"فما بكت عليهم السماء والأرض")[1] . يعني أنهم لم يعملوا على الأرض عملا صالحا تبكي عليهم لأجله، ولا صعد لهم إلى السماء عمل صالح فتبكي فقد ذلك. وقال مجاهد: إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحا. قال أبو يحيى: فعجبت من قوله فقال: أتعجب ! وما للأرض لا تبكي على عبد يعمرها بالركوع والسجود ! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دوي كدوي النحل ! . وقال علي وابن عباس رضي الله عنهما: إنه يبكي عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء. وتقدير الآية على هذا: فما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء ولا مواضع عبادتهم من الأرض. وهو معنى قول سعيد بن جبير. وفي بكاء السماء والأرض ثلاثة أوجه: أحدها أنه كالمعروف من بكاء الحيوان. ويشبه أن يكون قول مجاهد. وقال شريح الحضرمي قال النبي ﷺ: (إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء يوم القيامة قيل: من هم يا رسول الله؟ قال ـ هم الذين إذا فسد الناس صلحوا ـ ثم قال ـ ألا لا غربة على مؤمن وما مات مؤمن في غربة غائبا عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض ـ ثم قرأ رسول الله ﷺ ـ "فما بكت عليهم السماء والأرض" ثم قال: ألا إنهما لا يبكيان على الكافر)[2] .

قلت: وذكر أبو نعيم محمد بن معمر قال: حدثنا أبو شعيب الحراني قال حدثنا يحيى بن عبد الله قال حدثنا الأوزاعي قال حدثني عطاء الخراساني قال: ما من عبد يسجد لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت. وقيل: بكاؤهما حمرة أطرافهما؛ قاله علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وعطاء والسدي والترمذي محمد بن علي وحكاه عن الحسن. قال السدي: لما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما بكت عليه السماء؛ وبكاؤها حمرتها. وحكى جرير عن يزيد بن أبي زياد قال: لما قتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما احمر له آفاق السماء أربعة أشهر. قال يزيد: واحمرارها بكاؤها. وقال محمد بن سيرين: أخبرونا أن الحمرة التي تكون مع الشفق لم تكن حتى قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما. وقال سليمان القاضي: مطرنا دما يوم قتل الحسين[3] .

قلت: روى الدارقطني من حديث مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: (الشفق الحمرة)[4] . وعن عبادة بن الصامت وشداد بن أوس قالا: الشفق شفقان: الحمرة والبياض؛ فإذا غابت الحمرة حلت الصلاة. وعن أبي هريرة قال: الشفق الحمرة. وهذا يرد ما حكاه ابن سيرين. وقد تقدم في "الإسراء" عن قرة بن خالد قال: ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن علي، وحمرتها بكاؤها. وقال محمد بن علي الترمذي: البكاء إدرار الشيء فإذا أدرت

---

(١) "ضعيف" أخرجه الترمذي (٣٢٥٥) وقال: "هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة، ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث".

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا وابن جرير عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلا، كما في الدر المنثور (٥/ ٧٤٨).

(٣) قال الحافظ ابن كثير في "التفسير"، (٤/ ١٤٢، ١٤٣) بعد أن ذكر أقوالا شبيهة بهذه التي أوردها القرطبي: "وفي كل ذلك نظر، والظاهر أنه من سخف الشيعة وكذبهم ليعظموا الأمر، ولا شك أنه عظيم، ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسين رضي الله عنه، ولم يقع شيء مما ذكروه، فإنه قد قتل أبوه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أفضل منه بالإجماع، ولم يقع شيء من ذلك. . ." .

(٤) "ضعيف"، وتمامه: "فإذا غاب الشفق وجبت الصلاة". وانظر ضعيف الجامع (٣٤٣٩).

العين بمائها قيل بكت، وإذا أدرت السماء بحمرتها قيل بكت، وإذا أدرت الأرض بغبرتها قيل بكت؛ لأن المؤمن نور ومعه نور الله؛ فالأرض مضيئة بنوره ـ وإن غاب عن عينيك ـ فإن فقدت نور المؤمن اغبرت فدرت باغبرارها؛ لأنها كانت غبراء بخطايا أهل الشرك، وإنما صارت مضيئة بنور المؤمن؛ فإذا قبض المؤمن منها درت بغبرتها. وقال أنس: لما كان اليوم الذي دخل فيه النبي ﷺ المدينة أضاء كل شيء، فلما كان اليوم الذي قبض فيه أظلم كل شيء، وإنا لفي دفنه ما نفضنا الأيدي منه حتى أنكرنا قلوبنا[1]. وأما بكاء السماء فحمرتها كما قال الحسن. وقال نصر بن عاصم: إن أول الآيات حمرة تظهر، وإنما ذلك لدنو الساعة، فتدر بالبكاء لخلائها من أنوار المؤمنين. وقيل: بكاؤها أمارة تظهر منها تدل على أسف وحزن.

قلت: والقول الأول أظهر؛ إذ لا استحالة في ذلك. وإذا كانت السماوات والأرض تسبح وتسمع وتتكلم كما بيناه في "الإسراء ومريم وحم فصلت" فكذلك تبكي، مع ما جاء من الخبر في ذلك. والله أعلم بصواب هذه الأقوال.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

يعني ما كانت القبط تفعل بهم بأمر فرعون، من قتل الأبناء واستخدام النساء، واستعبادهم إياهم وتكلفهم الأعمال الشاقة. ﴿ من فرعون ﴾ بدل من "العذاب المهين" فلا تتعلق "من" بقوله: "من العذاب" لأنه قد وصف، وهو لا يعمل بعد الوصف عمل الفعل. وقيل: أي أنجيناهم من العذاب ومن فرعون. ﴿ إنه كان عاليا من المسرفين ﴾ أي جبارا من المشركين. وليس هذا علو مدح بل هو علو في الإسراف. كقوله: ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ (القصص: ٤). وقيل: هذا العلو هو الترفع عن عبادة الله.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد اخترناهم ﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿ على علم ﴾ أي على علم منا بهم لكثرة الأنبياء منهم. ﴿ على العالمين ﴾ أي عالمي زمانهم، بدليل قوله لهذه الأمة: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ (آل عمران: ١١٠). وهذا قول قتادة وغيره. وقيل: على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء. وهذا خاصة لهم وليس لغيرهم؛ حكاه ابن عيسى والزمخشري وغيرهما. ويكون قوله: "كنتم خير أمة" أي بعد بني إسرائيل. والله أعلم. وقيل: يرجع هذا الاختيار إلى تخليصهم من الغرق وإيراثهم الأرض بعد فرعون.

---

(١) "صحيح" انظر صحيح سنن ابن ماجه (١٣٢٢).

قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾ أي من المعجزات لموسى. ﴿ ما فيه بلاء مبين ﴾ قال قتادة: الآيات إنجاؤهم من فرعون وفلق البحر لهم، وتظليل الغمام عليهم وإنزال المن والسلوى. ويكون هذا الخطاب متوجها إلى بني إسرائيل. وقيل: إنها العصا واليد. ويشبه أن يكون قول الفراء. ويكون الخطاب متوجها إلى قوم فرعون. وقول ثالث: إنه الشر الذي كفهم عنه والخير الذي أمرهم به؛ قاله عبد الرحمن بن زيد. ويكون الخطاب متوجها إلى الفريقين معا من قوم فرعون وبني إسرائيل. وفي قوله: "بلاء مبين" أربعة أوجه: أحدها: نعمة ظاهرة؛ قاله الحسن وقتادة. كما قال الله تعالى: ﴿ وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا ﴾ (الأنفال: ١٧). وقال زهير:

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

الثاني: عذاب شديد؛ قاله الفراء. الثالث: اختبار يتميز به المؤمن من الكافر؛ قاله عبد الرحمن بن زيد. وعنه أيضا: ابتلاؤهم بالرخاء والشدة؛ ثم قرأ ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن هؤلاء ليقولون ﴾ يعني كفار قريش ﴿ إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ ابتداء وخبر؛ مثل: ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ (الأعراف: ١٥٥)، ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ (المؤمنون: ٣٧) ﴿ وما نحن بمنشرين ﴾ أي بمبعوثين ﴿ فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾. أنشر الله الموتى فنشروا. وقد تقدم. والمنشورون المبعوثون. قيل: إن قائل هذا من كفار قريش أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنت صادقا في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا، أحدهما: قصي بن كلاب فإنه كان رجلا صادقا؛ لنسأله عما يكون بعد الموت. وهذا القول من أبي جهل من أضعف الشبهات؛ لأن الإعادة إنما هي للجزاء لا للتكليف؛ فكأنه قال: إن كنت صادقا في إعادتهم للجزاء فأعدهم للتكليف. وهو كقول قائل: لو قال إن كان ينشأ بعدنا قوم من الأبناء؛ فلم لا يرجع من مضى من الآباء؛ حكاه الماوردي. ثم قيل: "فأتوا بآبائنا" مخاطبة للنبي ﷺ وحده؛ كقوله: ﴿ رب ارجعون ﴾ (المؤمنون: ٩٩) قاله الفراء. وقيل: مخاطبة له ولأتباعه.

قوله تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أهم خير أم قوم تبع ﴾ هذا استفهام إنكار؛ أي إنهم مستحقون في هذا القول العذاب؛ إذ ليسوا خيرا من قوم تبع والأمم المهلكة، وإذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء. وقيل: المعنى

أهم أظهر نعمة وأكثر أموالا أم قوم تبع. وقيل: أهم أعز وأشد وأمنع أم قوم تبع. وليس المراد بتبع رجلا واحدا بل المراد به ملوك اليمن؛ فكانوا يسمون ملوكهم التبابعة. فتبع لقب للملك منهم كالخليفة للمسلمين، وكسرى للفرس، وقيصر للروم. وقال أبو عبيدة: سمي كل واحد منهم تبعًا لأنه يتبع صاحبه. قال الجوهري: والتبابعة ملوك اليمن، واحدهم تبع. والتبع أيضا الظل؛ وقال:

يرد المياه حضيرة ونفيضــة ورد القطاة إذا اسمأل التبع

والتبع أيضا ضرب من الطير. وقال السهيلي: تبع اسم لكل ملك ملك اليمن والشِّحْر وحضرموت. وإن ملك اليمن وحدها لم يقل له تبع؛ قاله المسعودي. فمن التبابعة: الحارث الرائش وهو ابن همال ذي سدد. وأبرهة ذو المنار. وعمرو ذو الأذعار. وشمر بن مالك، الذي تنسب إليه سمرقند. وأفريقيس بن قيس، الذي ساق البربر إلى أفريقية من أرض كنعان، وبه سميت إفريقية. والظاهر من الآيات: أن الله سبحانه إنما أراد واحدا من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشد من معرفة غيره؛ ولذلك قال ﷺ: (ولا أدري أتبع لعين أم لا)[١]. ثم قد روي عنه أنه قال: (لا تسبوا تبعا فإنه كان مؤمنا)[٢] فهذا يدلك على أنه كان واحدا بعينه؛ وهو - والله أعلم - أبو كرب الذي كسا البيت بعدما أراد غزوه، وبعدما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لما أخبر أنها مهاجر نبي اسمه أحمد. وقال شعرا أودعه عند أهلها؛ فكانوا يتوارثونه كابرا عن كابر إلى أن هاجر النبي ﷺ فأدوه إليه. ويقال: كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب خالد بن زيد. وفيه:

شــهدت عــلى أحمــد أنــه رسول من الله باري النسم

فلــو مد عمـري إلى عمره لكــنت وزيرا له وابن عم

وذكر الزجاج وابن أبي الدنيا والزمخشري وغيرهم أنه حُفر قبر له بصنعاء - ويقال بناحية حمير - في الإسلام، فوجد فيه امرأتان صحيحتان، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب "هذا قبر حُبّى ولميس" ويروى أيضا: "حبى وتماضر" ويروى أيضا: "هذا قبر رضوى وقبر حبى ابنتا تبع، ماتتا وهما يشهدان أن لا إله إلا الله ولا يشركان به شيئا؛ وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما".

قلت: وروى ابن إسحاق وغيره أنه كان في الكتاب الذي كتبه: (أما بعد، فإني آمنت بك وبكتابك الذي أنزل عليك، وأنا على دينك وسنتك، وآمنت بربك ورب كل شيء، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام؛ فإن أدركتك فبها ونعمت، وإن لم أدركك فاشفع لي ولا تنسني يوم القيامة، فإني من أمتك الأولين وبايعتك قبل مجيئك، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام"). ثم ختم الكتاب ونقش عليه: ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ (الروم: ٤). وكتب على عنوانه (إلى محمد ابن عبد الله نبي الله ورسوله، خاتم النبيين ورسول رب العالمين ﷺ). من تبع الأول. وقد ذكرنا بقية خبره وأوله في "اللمع اللؤلؤية شرح العشر بينات النبوية" للفارابي رحمه الله. وكان من اليوم الذي مات فيه تبع إلى اليوم الذي بعث فيه النبي ﷺ ألف سنة لا يزيد ولا ينقص.

---

(١) أخرجه الحاكم في "المستدرك"، (٢/ ٤٥٠) وقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه". وأقره الذهبي.

(٢) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٨/ ٧٦) بلفظ: "لا تسبوا تبعا فإنه قد أسلم"، وقال: "رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عمرو بن جابر وهو كذا".

واختلف هل كان نبيا أو ملكا؛ فقال ابن عباس: كان تبع نبيا. وقال كعب: كان تبع ملكا من الملوك، وكان قومه كهانا وكان معهم قوم من أهل الكتاب، فأمر الفريقين أن يقرب كل فريق منهم قربانا ففعلوا، فتقبل قربان أهل الكتاب فأسلم، وقالت عائشة رضي الله عنها: لا تسبوا تبعا فإنه كان رجلا صالحا[1]. وحكى قتادة أن تبعا كان رجلا من حمير، سار بالجنود حتى عبر الحيرة وأتى سمرقند فهدمها؛ حكاه الماوردي. وحكى الثعلبي عن قتادة أنه تبع الحميري، وكان سار بالجنود حتى عبر الحيرة. وبنى سمرقند وقتل وهدم البلاد. وقال الكلبي: تبع هو أبو كرب أسعد بن ملكيكرب، وإنما سمي تبعا لأنه تبع من قبله. وقال سعيد بن جبير: هو الذي كسا البيت الحبرات[2]. وقال كعب: ذم الله قومه ولم يذمه، وضرب بهم لقريش مثلا لقربهم من دارهم وعظمهم في نفوسهم؛ فلما أهلكهم الله تعالى ومن قبلهم ـ لأنهم كانوا مجرمين ـ كان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أحرى بالهلاك. وافتخر أهل اليمن بهذه الآية، إذ جعل الله قوم تبع خيرا من قريش. وقيل: سمي أولهم تبعا لأنه أتبع قرن الشمس وسافر في الشرق مع العساكر.

قوله تعالى: ﴿ والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ﴾ "الذين" في موضع رفع عطف على "قوم تبع". "أهلكناهم" صلته. ويكون "من قبلهم" متعلقا به. ويجوز أن يكون "من قبلهم" صلة "الذين" ويكون في الظرف عائد إلى الموصول. وإذا كان كذلك كان "أهلكناهم" على أحد أمرين: إما أن يقدر معه "قد" فيكون في موضع الحال. أو يقدر حذف موصوف؛ كأنه قال: قوم أهلكناهم. والتقدير أفلا تعتبرون أنا إذا قدرنا على إهلاك هؤلاء المذكورين قدرنا على إهلاك المشركين. ويجوز أن يكون "والذين من قبلهم" ابتداء خبره "أهلكناهم". ويجوز أن يكون "الذين" في موضع جر عطفا على "تبع" كأنه قال: قوم تبع المهلكين من قبلهم. ويجوز أن يكون "الذين" في موضع نصب بإضمار فعل دل عليه "أهلكناهم". والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ أي غافلين، قاله مقاتل. وقيل: لاهين؛ وهو قول الكلبي. ﴿ ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ أي إلا بالأمر الحق؛ قاله مقاتل. وقيل: إلا للحق؛ قاله الكلبي والحسن. وقيل: إلا لإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والتزام طاعته. وقد مضى هذا المعنى في "الأنبياء". ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ يعني أكثر الناس ﴿ لا يعلمون ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يوم الفصل ﴾ هو يوم القيامة؛ وسمي بذلك لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه. دليله قوله تعالى: ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم ﴾ (الممتحنة: ٣). ونظيره قوله تعالى: ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ (الروم: ١٤). فـ "يوم الفصل" ميقات الكل؛ كما قال تعالى: ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتا ﴾ (النبأ: ١٧) أي الوقت المجهول لتمييز المسيء من المحسن، والفصل بينهما: فريق في الجنة وفريق في السعير. وهذا غاية في التحذير والوعيد. ولا

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥٠) وصححه وأقره الذهبي.

(٢) الحبرات مفردها حبرة من برود اليمن.

خلاف بين القراء في رفع "ميقاتهم" على أنه خبر "إن" واسمها "يوم الفصل". وأجاز الكسائي والفراء نصب "ميقاتهم". بـ "إن" و"يوم الفصل" ظرف في موضع خبر "إن"؛ أي إن ميقاتهم يوم الفصل.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ﴾ "يوم" بدل من "يوم" الأول. والمولى: الولي وهو ابن العم والناصر. أي لا يدفع ابن عم عن ابن عمه، ولا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه. ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي لا ينصر المؤمن الكافر لقرابته. ونظير هذه الآية: ﴿ واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ﴾ (البقرة: ٤٨) الآية. ﴿ إلا من رحم الله ﴾ "من" رفع على البدل من المضمر في "ينصرون"؛ كأنك قلت: لا يقوم أحد إلا فلان. أو على الابتداء والخبر مضمر؛ كأنه قال: إلا من رحم الله فمغفور له؛ أو فيغني عنه ويشفع وينصر. أو على البدل من "مولى" الأول؛ كأنه قال: لا يغني إلا من رحم الله. وهو عند الكسائي والفراء نصب على الاستثناء المنقطع؛ أي لكن من رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى من يغنيهم من المخلوقين. ويجوز أن يكون استثناء متصلاً؛ أي لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض. ﴿ إنه هو العزيز الرحيم ﴾ أي المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه؛ كما قال: ﴿ شديد العقاب ذي الطول ﴾ (غافر: ٣) فقرن الوعد بالوعيد.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ إن شجرة الزقوم ﴾ كل ما في كتاب الله تعالى من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهاء؛ إلا حرفا واحدا في صورة الدخان "إن شجرة الزقوم. طعام الأثيم"؛ قاله ابن الأنباري. و"الأثيم" الفاجر؛ قاله أبو الدرداء. وكذلك قرأ هو وابن مسعود. وقال همام بن الحارث: كان أبو الدرداء يقرئ رجلا "إن شجرة الزقوم طعام الأثيم" والرجل يقول: طعام اليتيم، فلما لم يفهم قال له: "طعام الفاجر"[1]. قال أبو بكر الأنباري: حدثني أبي قال حدثنا نصر قال حدثنا أبو عبيد قال حدثنا نعيم بن حماد عن عبد العزيز بن محمد عن ابن عجلان عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال: علم عبد الله بن مسعود رجلا "إن شجرة الزقوم. طعام الأثيم" فقال الرجل: طعام اليتيم، فأعاد عليه عبد الله الصواب وأعاد الرجل الخطأ، فلما رأى عبد الله أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له: أما تحسن أن تقول طعام الفاجر؟ قال بلى، قال فافعل. ولا حجة في هذا للجهال من أهل الزيغ،

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥١) وصححه وأقره الذهبي.

أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره، لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريبا للمتعلم، وتوطئة منه له للرجوع إلى الصواب، واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله ﷺ. وقال الزمخشري: "وبهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها. ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة، وهي أن يؤدي القارئ المعاني على كمالها من غير أن يخرم منها شيئا. قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة؛ لأن في كلام العرب خصوصا في القرآن الذي هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه، من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر. وروى علي بن الجعد عن أبي يوسف عن أبي حنيفة مثل قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية". وشجرة الزقوم: الشجرة التي خلقها الله في جهنم وسماها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، فغليت في بطونهم كما يغلي الماء الحار. وشبه ما يصير منها إلى بطونهم بالمهل، وهو النحاس المذاب. وقراءة العامة "تغلي" بالتاء حملا على الشجرة. وقرأ ابن كثير وحفص وابن محيصن ورويس عن يعقوب "يغلي" بالياء حملا على الطعام؛ وهو في معنى الشجرة. ولا يحمل على المهل لأنه ذكر للتشبيه. و"الأثيم" الآثم؛ من أثم يأثم إثما؛ قاله القشيري وابن عيسى. وقيل هو المشرك المكتسب للإثم؛ قاله يحيى بن سلام. وفي الصحاح: قد أثم الرجل (بالكسر) إثما ومأثما إذا وقع في الإثم، فهو آثم وأثيم وأثوم أيضا. فمعنى "طعام الأثيم" أي ذي الإثم الفاجر، وهو أبو جهل. وذلك أنه قال: يعدنا محمد أن في جهنم الزقوم، وإنما هو الثريد بالزبد والتمر، فبين الله خلاف ما قاله. وحكى النقاش عن مجاهد أن شجرة الزقوم أبو جهل.

قلت: وهذا لا يصح عن مجاهد. وهو مردود بما ذكرناه في هذه الشجرة في سورة "الصافات والإسراء" أيضاً.

قوله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ خذوه ﴾ أي يقال للزبانية خذوه؛ يعني الأثيم. ﴿ فاعتلوه ﴾ أي جروه وسوقوه. والعتل: أن تأخذ بتلابيب الرجل فتعتله، أي تجره إليك لتذهب به إلى حبس أو بلية. عتلت الرجل أعتله وأعتُله عتلا إذا جذبته جذبا عنيفا. ورجل معتل (بالكسر). وقال يصف فرسا:

نفرعه فرعا ولسنا نعتله

وفيه لغتان؛ عتله وعتنه (باللام والنون جميعا)، قاله ابن السكيت. وقرأ الكوفيون وأبو عمرو "فاعتلوه" بالكسر. وضم الباقون. ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ وسط الجحيم. ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ قال مقاتل: يضرب مالك خازن النار ضربة. على رأس أبي جهل بمقمع من حديد، فيتفتت رأسه عن دماغه، فيجري دماغه على جسده، ثم يصب الملك فيه ماء حميما قد انتهى حره فيقع في بطنه؛ فيقول الملك: ذق العذاب. ونظيره ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ (الحج: ١٩).

قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ قال ابن الأنباري: أجمعت العوام على كسر "إن" وروي عن الحسن عن علي رحمه الله "ذق أنك" بفتح "أن"، وبها قرأ الكسائي. فمن كسر "إن" وقف على "ذق". ومن فتحها لم يقف على "ذق"؛ لأن المعنى ذق لأنك وبأنك أنت العزيز الكريم. قال قتادة: نزلت في أبي جهل وكان قد قال: ما فيها أعز مني ولا أكرم؛ فلذلك قيل له: "ذق إنك أنت العزيز الكريم". وقال عكرمة: التقى النبي ﷺ وأبو جهل فقال النبي ﷺ: (إن الله أمرني أن أقول لك أولى لك فأولى) فقال: بأي شيء تهددني! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه؛ فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية[1]. أي يقول له الملك: ذق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك. وقيل: هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص؛ أي قال له: إنك أنت الذليل المهان. وهو كما قال قوم شعيب لشعيب: ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ (هود: ٨٧) يعنون السفيه الجاهل في أحد التأويلات على ما تقدم. وهذا قول سعيد بن جبير. ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ أي تقول لهم الملائكة: إن هذا ما كنتم تشكون فيه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ إن المتقين في مقام أمين ﴾ لما ذكر مستقر الكافرين وعذابهم ذكر نزل المؤمنين ونعيمهم. وقرأ نافع وابن عامر "في مقام" بضم الميم. الباقون بالفتح. قال الكسائي: المقام المكان، والمقام الإقامة، كما قال:

عفت الديار محلها فمقامها

قال الجوهري: وأما المقام والمقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم، لأن الفعل إذا جاوز الثلاث فالموضع مضموم الميم، لأنه مشبه ببنات الأربعة، نحو دحرج وهذا مدحرجنا. وقيل: المقام (بالفتح) المشهد والمجلس، و(بالضم) يمكن أن يراد به المكان، ويمكن أن يكون مصدرا ويقدر فيه المضاف، أي في موضع إقامة. ﴿ أمين ﴾ يؤمن فيه من الآفات ﴿ في جنات وعيون ﴾ بدل من "مقام أمين". ﴿ يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض، متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا. والسندس: ما رق من الديباج. والإستبرق: ما غلظ منه. وقد مضى في "الكهف".

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

---

(١) أخرجه الأموي في مغازيه عن عكرمة مرسلا، كما في الدر المنثور (٥/ ٧٥٢).

قوله تعالى: ﴿ كذلك ﴾ أي الأمر كذلك الذي ذكرناه. فيوقف على "كذلك". وقيل: أي كما أدخلناهم الجنة وفعلنا بهم ما تقدم ذكره، كذلك أكرمناهم بأن زوجناهم حوراً عيناً. وقد مضى الكلام في العين في "والصافات". والحور: البيض؛ في قول قتادة والعامة، جمع حوراء. والحوراء: البيضاء التي يرى ساقها من وراء ثيابها، ويرى الناظر وجهه في كعبها؛ كالمرآة من دقة الجلد وبضاضة البشرة وصفاء اللون. ودليل هذا التأويل أنها في حرف ابن مسعود "بعيس عين". وذكر أبو بكر الأنباري أخبرنا أحمد بن الحسين قال حدثنا حسين قال حدثنا عمار بن محمد قال: صليت خلف منصور بن المعتمر فقرأ في "حم" الدخان "بعيس عين. لا يذوقون طعم الموت إلا الموتة الأولى". والعيس: البيض؛ ومنه قيل للإبل البيض: عيس، واحدها بعير أعيس وناقة عيساء. قال امرؤ القيس:

يرعن إلى صوتي إذا ما سمعنه كما ترعوي عيط إلى صوت أعيسا

فمعنى الحور هنا: الحسان الثاقبات البياض بحسن. وذكر ابن المبارك أخبرنا معمر عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودي عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحور العين ليرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم، ومن تحت سبعين حلة، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء. وقال مجاهد: إنما سميت الحور حورا لأنهن يحار الطرف في حسنهن وبياضهن وصفاء لونهن. وقيل: إنما قيل لهن حور لحور أعينهن. والحور: شدة بياض العين في شدة سوادها. امرأة حوراء بينة الحور. يقال: أحورت عينه احورارا. واحور الشيء ابيض. قال الأصمعي: ما أدري ما الحور في العين؟ وقال أبو عمرو: الحور أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر. قال: وليس في بني آدم حور؛ وإنما قيل للنساء: حور العين لأنهن يشبهن بالظباء والبقر. وقال العجاج:

بأعين محورات حور

يعني الأعين النقيات البياض الشديدات سواد الحدق. والعين جمع عيناء؛ وهي الواسعة العظيمة العينين. وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مهور الحور العين قبضات التمر وفلق الخبز)[(١)]. وعن أبي قرصافة سمعت النبي ﷺ يقول: (إخراج القمامة من المسجد مهور الحور العين)[(٢)]. وعن أنس أن النبي ﷺ قال: (كنس المساجد مهور الحور العين)[(٣)] ذكره الثعلبي رحمه الله. وقد أفردنا لهذا المعنى بابا مفردا في (كتاب التذكرة) والحمد لله.

واختلف أيما أفضل في الجنة؛ نساء الآدميات أم الحور؟ فذكر ابن المبارك قال: وأخبرنا رشدين عن ابن أنعم عن حبان بن أبي جبلة قال: إن نساء الآدميات من دخل منهن الجنة فضلن على الحور العين بما عملن في الدنيا. وروي مرفوعا إن (الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف)[(٤)].

---

(١) أورده ابن الجوزي في "الموضوعات"، (٣/ ٢٥٣) وقال: في سنده أبان بن المحبر، قال أبو حاتم بن حبان. وهو الذي روى عن نافع هذا الحديث وهو باطل. وقال الدارقطني: أبان متروك.

(٢) ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات" الموضع السابق، وقال: في إسناده عبد الواحد بن زيد، قال عنه يحيى بن معين، ليس بثقة. وقال البخاري والفلاس والنسائي: متروك الحديث.

(٣) التخريج السابق.

(٤) ضعيف.

وقيل: إن الحور العين أفضل؛ لقوله عليه السلام في دعائه: (وأبدله زوجا خيرا من زوجه)[1]. والله أعلم. وقرأ عكرمة "بحور عين" مضاف. والإضافة والتنوين في "بحور عين" سواء.

قوله تعالى: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ (٥٥) ﴾

قال قتادة: "آمنين" من الموت والوصب والشيطان. وقيل: آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم، أو من أن ينالهم من أكلها أذى أو مكروه.

قوله تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٥٧) ﴾

قوله تعالى: ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ أي لا يذوقون فيها الموت البتة لأنهم خالدون فيها. ثم قال: ﴿ إلا الموتة الأولى ﴾ على الاستثناء المنقطع؛ أي لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا. وأنشد سيبويه:

من كان أسرع في تفرق فالج   فلبونه جـربت معا وأغدت

ثم استثنى بما ليس من الأول فقال:

إلا كناشرة الذي ضيعتم   كالغصن في غلوائه المتنبت

وقيل: إن "إلا" بمعنى بعد؛ كقولك: ما كلمت رجلا اليوم إلا رجلا عندك، أي بعد رجل عندك. وقيل: "إلا" بمعنى سوى، أي سوى الموتة التي ماتوها في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ (النساء: ٢٢). وهو كما تقول: ما ذقت اليوم طعاما سوى ما أكلت أمس. وقال القتبي: "إلا الموتة الأولى" معناه أن المؤمن إذا أشرف على الموت استقبلته ملائكة الرحمة ويلقى الروح والريحان، وكان موته في الجنة لاتصافه بأسبابها، فهو استثناء صحيح. والموت عرض لا يذاق، ولكن جعل كالطعام الذي يكره ذوقه، فاستعير فيه لفظ الذوق. ﴿ ووقاهم عذاب الجحيم * فضلا من ربك ﴾ أي فعل ذلك بهم تفضلا منه عليهم. فـ "فضلا" مصدر عمل فيه "يدعون". وقيل: العامل فيه "ووقاهم" وقيل: فعل مضمر. وقيل: معنى الكلام الذي قبله، لأنه تفضل منه عليهم، إذ وفقهم في الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة. ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ أي السعادة والربح العظيم والنجاة العظيمة. وقيل: هو من قولك فاز بكذا، أي ناله وظفر به.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩) ﴾

قوله تعالى: ﴿ فإنما يسرناه بلسانك ﴾ يعني القرآن، أي سهلناه بلغتك عليك وعلى من يقرؤه ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي يتعظون وينزجرون. ونظيره: ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ (القمر: ١٧) فختم السورة بالحث على اتباع القرآن وإن لم يكن مذكورا، كما قال في مفتتح السورة:

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩٦٣).

﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ (الدخان : ٣)، ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ (القدر : ١) على ما تقدم.

﴿ فارتقب إنهم مرتقبون ﴾ أي انتظر ما وعدتك من النصر عليهم إنهم منتظرون لك الموت؛ حكاه النقاش. وقيل: انتظر الفتح من ربك إنهم منتظرون بزعمهم قهرك. وقيل: انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم فإنهم ينتظرون بك ريب الحدثان. والمعنى متقارب. وقيل: ارتقب ما وعدتك من الثواب فإنهم كالمنتظرين لما وعدتهم من العقاب. وقيل: ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة، جعلوا كالمرتقبين لأن عاقبتهم ذلك. والله تعالى أعلم.

سورة الجاثية

مقدمة السورة:

سورة الجاثية مكية كلها في قول الحسن وجابر وعكرمة. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية، هي﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ (الجاثية: ١٤) نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب ﷺ؛ ذكره الماوردي. وقال المهدوي والنحاس عن ابن عباس: إنها نزلت في عمر ﷺ، شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة. فأراد أن يبطش به، فأنزل الله عز وجل: ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ (الجاثية: ١٤) ثم نسخت بقوله: ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (التوبة: ٥). فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف. وهي سبع وثلاثون آية. وقيل ست.

قوله تعالى: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ حم ﴾ مبتدأ و﴿ تنزيل ﴾ خبره. وقال بعضهم: "حم" اسم السورة. و﴿ تنزيل الكتاب ﴾ مبتدأ. وخبره ﴿ من الله ﴾. والكتاب القرآن. ﴿ العزيز ﴾ المنيع. ﴿ الحكيم ﴾ في فعله. وقد تقدم جميعه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن في السماوات والأرض ﴾ أي في خلقهما ﴿ لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق ﴾ يعني المطر. ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾ تقدم جميعه مستوفى في "البقرة" وغيرها. وقراءة العامة "وما يبث من دابة آيات" "وتصريف الرياح آيات" بالرفع فيهما. وقرأ حمزة والكسائي بكسر التاء فيهما. ولا خلاف في الأول أنه بالنصب على اسم "إن" وخبرها "في السموات". ووجه الكسر في "آيات" الثاني العطف على ما عملت فيه؛ التقدير: وإن في خلقكم وما يبث من دابة آيات. فأما الثالث فقيل: إن وجه النصب فيه تكرير "آيات" لما طال الكلام؛ كما تقول: ضربت زيدا زيدا. وقيل: إنه على الحمل على ما عملت فيه "إن" على تقدير حذف "في"؛ التقدير: وفي اختلاف الليل والنهار آيات. فحذفت "في" لتقدم ذكرها. وأنشد سيبويه في الحذف:

أكل امرئ تحسبين امرأ ونار توقد بالليل نارا

فحذف "كل" المضاف إلى نار المجرورة لتقدم ذكرها. وقيل: هو من باب العطف على عاملين. ولم يجزه سيبويه، وأجازه الأخفش وجماعة من الكوفيين؛ فعطف "اختلاف" على قوله: "وفي خلقكم"

ثم قال: "وتصريف الرياح آيات" فيحتاج إلى العطف على عاملين، والعطف على عاملين قبيح من أجل أن حروف العطف تنوب مناب العامل، فلم تقو أن تنوب مناب عاملين مختلفين؛ إذ لو ناب مناب رافع وناصب لكان رافعا ناصبا في حال. وأما قراءة الرفع فحملا على موضع "إن" مع ما عملت فيه. وقد ألزم النحويون في ذلك أيضا العطف على عاملين؛ لأنه عطف "واختلاف" على "وفي خلقكم"، وعطف "آيات" على موضع "آيات" الأول، ولكنه يقدر على تكرير "في". ويجوز أن يرفع على القطع مما قبله فيرفع بالابتداء، وما قبله خبره، ويكون عطف جملة على جملة. وحكى الفراء رفع "واختلاف" و"آيات" جميعا، وجعل الاختلاف هو الآيات.

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ تلك آيات الله ﴾ أي هذه آيات الله أي حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته. ﴿ نتلوها عليك بالحق ﴾ أي بالصدق الذي لا باطل ولا كذب فيه. وقرئ "يتلوها" بالياء. ﴿ فبأي حديث بعد الله ﴾ أي بعد حديث الله وقيل بعد قرآنه ﴿ وآياته يؤمنون ﴾ وقراءة العامة بالياء على الخبر. وقرأ ابن محيصن وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي "تؤمنون" بالتاء على الخطاب.

قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ "ويل" واد في جهنم. توعد من ترك الاستدلال بآياته. والأفاك: الكذاب. والإفك الكذب. "أثيم" أي مرتكب للإثم. والمراد فيما روي: النضر بن الحارث وعن ابن عباس أنه الحارث بن كلدة. وحكى الثعلبي أنه أبو جهل وأصحابه. ﴿ يسمع آيات الله تتلى عليه ﴾ يعني آيات القرآن. ﴿ ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ﴾ أي يتمادى على كفره متعظما في نفسه عن الانقياد؛ مأخوذ من صر الصرة إذا شدها. قال معناه ابن عباس وغيره. وقيل: أصله من إصرار الحمار على العانة[1] وهو أن ينحني عليها صارا أذنيه. و"أن" من "كأنْ" مخففة من الثقيلة؛ كأنه لم يسمعها، والضمير ضمير الشأن؛ كما في قوله:

كأن ظبية تعطو إلى ناضر السلم

ومحل الجملة النصب، أي يصر مثل غير السامع. وقد تقدم في أول "لقمان" القول في هذه الآية. وتقدم معنى ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ في "البقرة".

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

---

(١) الأتان (أنثى الحمار) أو القطيع من حمر الوحش والجمع عون وعانات.

قوله تعالى: ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا ﴾ نحو قوله في الزقوم: إنه الزبد والتمر، وقوله في خزنة جهنم: إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدي. ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ مذل مخز. ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ أي من وراء ما هم فيه من التعزز في الدنيا والتكبر عن الحق جهنم. وقال ابن عباس: "من ورائهم جهنم" أي أمامهم، نظيره: ﴿ من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ﴾ (إبراهيم: ١٦) أي من أمامه. قال:

أليس ورائي إن تراخت منيتي أدب مع الولدان أزحف كالنسر

﴿ ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ﴾ أي من المال والولد؛ نظيره: ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ﴾ (آل عمران: ١٠) أي من المال والولد. ﴿ ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ يعني الأصنام. ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ أي دائم مؤلم.

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ هذا هدى ﴾ ابتداء وخبر؛ يعني القرآن. وقال ابن عباس: يعني كل ما جاء به محمد ﷺ. ﴿ والذين كفروا بآيات ربهم ﴾ أي جحدوا دلائله. ﴿ لهم عذاب من رجز أليم ﴾ الرجز العذاب؛ أي لهم عذاب من عذاب أليم دليله قوله تعالى: ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء ﴾ (البقرة: ٥٩) أي عذابا. وقيل: الرجز القذر مثل الرجس؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ (إبراهيم: ١٦) أي لهم عذاب من تجرع الشراب القذر. وضم الراء من الرجز ابن محيصن حيث وقع. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحفص "أليم" بالرفع؛ على معنى لهم عذاب أليم من رجز. الباقون بالخفض نعتا للرجز.

قوله تعالى: ﴿ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ذكر كمال قدرته وتمام نعمته على عباده، وبين أنه خلق ما خلق لمنافعهم. ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه ﴾ يعني أن ذلك فعله وخلقه وإحسان منه وإنعام. وقرأ ابن عباس والجحدري وغيرهما "جميعا مِنَّةً" بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء، منصوبا على المصدر. قال أبو عمرو: وكذلك سمعت مسلمة يقرؤها "مِنَّةً" أي تفضلا وكرما. وعن مسلمة بن محارب أيضا "جميعا مَنُّهُ" على إضافة المن إلى هاء الكناية. وهو عند أبي حاتم خبر ابتداء محذوف، أي ذلك، أو هو مَنُّهُ. وقراءة الجماعة ظاهرة. ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ جزم على جواب "قل" تشبيها بالشرط والجزاء كقولك: قم تصب خيرا. وقيل: هو على حذف اللام. وقيل: على معنى قل لـهم اغفروا يغفروا؛ فهو جواب أمر محذوف دل الكلام عليه؛ قالـه علي بن عيسى واختاره ابن العربي. ونزلت الآية بسبب أن رجلا من قريش شتم عمر بن الخطاب فهم أن يبطش به. قال ابن العربي: وهذا لم يصح. وذكر الواحدي والقشيري وغيرهما عن ابن عباس أن الآية نزلت في عمر مع عبد الله بن أبي في غزوة بني المصطلق، فإنهم نزلوا على بئر يقال لـها "المريسيع" فأرسل عبد الله غلامه ليستقي، وأبطأ عليه فقال: ما حبسك؟ قال: غلام عمر بن الخطاب قعد على فم البئر، فما ترك أحدا يستقي حتى ملأ قرب النبي ﷺ وقرب أبي بكر، وملأ لمولاه. فقال عبد الله: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: سمن كلبك يأكلك. فبلغ عمر ﷺ قولـه، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتلـه؛ فأنزل الله هذه الآية. هذه رواية عطاء عن ابن عباس. وروى عنه ميمون بن مهران قال: لما نزلت ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ (البقرة: ٢٤٥) قال يهودي بالمدينة يقال لـه فنحاص: احتاج رب محمد! قال: فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه؛ فجاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: (إن ربك يقول لك قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله). وأعلم أن عمر قد اشتمل على سيفه وخرج في طلب اليهودي، فبعث رسول الله ﷺ في طلبه، فلما جاء قال: (يا عمر، ضع سيفك) قال: يا رسول الله، صدقت. أشهد أنك أرسلت بالحق. قال: (فإن ربك يقول: قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) قال: لا جرم! والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي[1].

قلت: وما ذكره المهدوي والنحاس فهو رواية الضحاك عن ابن عباس، وهو قول القرظي والسدي، وعليه يتوجه النسخ في الآية. وعلى أن الآية نزلت بالمدينة أو في غزوة بني المصطلق فليست بمنسوخة. ومعنى "يغفروا" يعفوا ويتجاوزوا. ومعنى: "لا يرجون أيام الله" أي لا يرجون ثوابه. وقيل: أي لا يخافون بأس الله ونقمه. وقيل: الرجاء بمعنى الخوف؛ كقولـه: ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا ﴾ (نوح: ١٣) أي لا تخافون لـه عظمة. والمعنى: لا تخشون مثل عذاب الأمم الخالية. والأيام يعبر بها عن الوقائع. وقيل: لا يأملون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه. وقيل: المعنى لا يخافون البعث. ﴿ ليجزي قوما بما كانوا يكسبون ﴾ قراءة العامة "ليجزي" بالياء على معنى ليجزي الله. وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر "لنجزي" بالنون على التعظيم. وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة "ليجزى" بياء مضمومة وفتح الزاي على الفعل المجهول، "قوما" بالنصب. قال أبو عمرو: وهذا لحن ظاهر. وقال الكسائي: معناه ليجزى الجزاء قوما، نظيره: "وكذلك نجي المؤمنين" على قراءة ابن عامر وأبي بكر في سورة "الأنبياء". قال الشاعر:

ولو وَلَدت قُفيرة جرو كلب لَسُـبَّ بذلك الجروِ الكلابا

أي لَسُبَّ السب.

---

(١) ضعيف لإرساله، ذكره الواحدي في "أسباب النزول"، (ص٢٥٣، ٢٥٤).

قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب ﴾ يعني التوراة. ﴿ والحكم والنبوة ﴾ الحكم: الفهم في الكتاب. وقيل: الحكم على الناس والقضاء. و"النبوة" يعني الأنبياء من وقت يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام. ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي الحلال من الأقوات والثمار والأطعمة التي كانت بالشام. وقيل: يعني المن والسلوى في التيه. ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أي على عالمي زمانهم على ما تقدم بيانه في "الدخان". ﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ قال ابن عباس: يعني أمر النبي ﷺ، وشواهد نبوته بأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب، وينصره أهل يثرب. وقيل: بينات الأمر شرائع واضحات في الحلال والحرام ومعجزات. ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ يريد يوشع بن نون؛ فآمن بعضهم وكفر بعضهم؛ حكاه النقاش. وقيل: "إلا من بعد ما جاءهم العلم" نبوة النبي ﷺ فاختلفوا فيها. ﴿ بغيا بينهم ﴾ أي حسدا على النبي ﷺ؛ قال معناه الضحاك. قيل: معنى "بغيا" أي بغى بعضهم على بعض يطلب الفضل والرياسة، وقتلوا الأنبياء؛ فكذا مشركو عصرك يا محمد، قد جاءتهم البينات ولكن أعرضوا عنها للمنافسة في الرياسة. ﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ أي يحكم ويفصل. ﴿ يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر ﴾ الشريعة في اللغة: المذهب والملة. ويقال لمشرعة الماء ـ وهي مورد الشاربة ـ: شريعة. ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد. فالشريعة: ما شرع الله لعباده من الدين؛ والجمع الشرائع. والشرائع في الدين: المذاهب التي شرعها الله لخلقه. فمعنى: "جعلناك على شريعة من الأمر" أي على منهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق. وقال ابن عباس: "على شريعة" أي على هدى من الأمر. قتادة: الشريعة الأمر والنهي والحدود والفرائض. مقاتل: البينة؛ لأنها طريق إلى الحق. الكلبي: السنة؛ لأنه يستن بطريقة من قبله من الأنبياء. ابن زيد: الدين؛ لأنه طريق النجاة. قال ابن العربي: والأمر يرد في اللغة بمعنيين: أحدهما: بمعنى الشأن كقوله: ﴿ فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾ (هود: ٩٧). والثاني: أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي. وكلاهما يصح أن يكون مرادا هاهنا؛ وتقديره: ثم جعلناك على

طريقة من الدين وهي ملة الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾(النحل: ١٢٣).

ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح، وإنما خالف بينهما في الفروع حسبما علمه سبحانه.

الثانية: قال ابن العربي: ظن بعض من يتكلم في العلم أن هذه الآية دليل على أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا؛ لأن الله تعالى أفرد النبي ﷺ وأمته في هذه الآية بشريعة، ولا ننكر أن النبي ﷺ وأمته منفردان بشريعة، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي ﷺ عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء هل يلزم اتباعه أم لا. ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ يعني المشركين. وقال ابن عباس: قريظة والنضير. وعنه: نزلت لما دعته قريش إلى دين آبائه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ﴾ أي إن اتبعت أهواءهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئا. ﴿وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ أي أصدقاء وأنصار وأحباب. قال ابن عباس: يريد أن المنافقين أولياء اليهود. ﴿والله ولي المتقين ﴾ أي ناصرهم ومعينهم. والمتقون هنا: الذين اتقوا الشرك والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هذا بصائر للناس ﴾ ابتداء وخبر؛ أي هذا الذي أنزلت عليك براهين ودلائل ومعالم للناس في الحدود والأحكام. وقرئ "هذه بصائر" أي هذه الآيات. ﴿وهدى ﴾ أي رشد وطريق يؤدي إلى الجنة لمن أخذ به. ﴿ورحمة ﴾ في الآخرة ﴿لقوم يوقنون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ أي اكتسبوها. والاجتراح: الاكتساب؛ ومنه الجوارح، وقد تقدم في المائدة. ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال الكلبي: "الذين اجترحوا" عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة. و"الذين آمنوا" علي وحمزة وعبيدة بن الحارث ـ ﷺ ـ حين برزوا إليهم يوم بدر فقتلوهم. وقيل: نزلت في قوم من المشركين قالوا: إنهم يعطون في الآخرة خيرا مما يعطاه المؤمن؛ كما أخبر الرب عنهم في قوله: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾(فصلت: ٥٠). وقوله: "أم حسب" استفهام معطوف معناه الإنكار. وأهل العربية يجوزون ذلك من غير عطف إذا كان متوسطا للخطاب. وقوم يقولون: فيه إضمار؛ أي والله

ولي المتقين أفيعلم المشركون ذلك أم حسبوا أنا نسوي بينهم. وقيل: هي أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان. وقراءة العامة "سواء" بالرفع على أنه خبر ابتداء مقدم، أي محياهم ومماتهم سواء. والضمير في "محياهم ومماتهم" يعود على الكفار، أي محياهم محيا سوء ومماتهم كذلك. وقرأ حمزة والكسائي والأعمش سواء بالنصب، واختاره أبو عبيد قال: معناه نجعلهم سواء. وقرأ الأعمش أيضا وعيسى بن عمر "ومماتهم" بالنصب؛ على معنى سواء في محياهم ومماتهم؛ فلما أسقط الخافض انتصب. ويجوز أن يكون محياهم ومماتهم بدلا من الهاء والميم في نجعلهم؛ المعنى: أن نجعل محياهم ومماتهم سواء كمحيا الذين آمنوا ومماتهم. ويجوز أن يكون الضمير في "محياهم ومماتهم" للكفار والمؤمنين جميعا. قال مجاهد: المؤمن يموت مؤمنا ويبعث مؤمنا، والكافر يموت كافرا ويبعث كافرا. وذكر ابن المبارك أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحا عن مسروق قال: قال رجل من أهل مكة: هذا مقام تميم الداري، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله ويركع ويسجد ويبكي "أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات" الآية كلها. وقال بشير: بت عند الربيع بن خيثم ذات ليلة فقام يصلي فمر بهذه الآية فمكث ليله حتى أصبح لم يعدها ببكاء شديد. وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيرا ما رأيت الفضيل بن عياض يردد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها، ثم يقول: ليت شعري! من أي الفريقين أنت؟ وكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين لأنها محكمة.

قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وخلق الله السماوات والأرض بالحق ﴾ أي بالأمر الحق. ﴿ ولتجزى ﴾ أي ولكي تجزى. ﴿ كل نفس بما كسبت ﴾ أي في الآخرة. ﴿ وهم لا يظلمون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه؛ فلا يهوى شيئا إلا ركبه. وقال عكرمة: أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبده ما يهواه أو يستحسنه؛ فإذا استحسن شيئا وهويه اتخذه إلها. قال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر؛ فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر. وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين، لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه. وقال سفيان بن عيينة: إنما عبدوا الحجارة لأن البيت حجارة. وقيل: المعنى أفرأيت من ينقاد لهواه ومعبوده تعجيبا لذوي العقول من هذا الجهل. وقال الحسن بن الفضل: في هذه الآية تقديم وتأخير، مجازه: أفرأيت من اتخذ هواه إلهه. وقال الشعبي: إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار. وقال ابن عباس: ما ذكر الله هوى في القرآن إلا

ذمه، قال الله تعالى: ﴿ واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ﴾ (الأعراف: ١٧٦). وقال تعالى: ﴿ واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ (الكهف: ٢٨). وقال تعالى: ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله ﴾ (الروم: ٢٩). وقال تعالى: ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ (القصص: ٥٠). وقال تعالى: ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ (ص: ٢٦). وقال عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[(١)].
وقال أبو أمامة: سمعت النبي ﷺ يقول: (ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى)[(٢)].
وقال شداد بن أوس عن النبي ﷺ: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)[(٣)]. وقال ﷺ: (إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة)[(٤)]. وقال ﷺ: (ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فالمهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه. والمنجيات خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب)[(٥)]. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه؛ فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان عمله تبعا لعلمه فيومه يوم صالح. وقال الأصمعي سمعت رجلا يقول:

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه ... فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال: هوان سرقت نونه، فأخذه شاعر فنظمه وقال:

نون الهوان من الهوى مسروقة ... فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وقال آخر:

إن الهوى لهو الهوان بعينه ... فإذا هويت فقد كسبت هوانا
وإذا هويت فقد تعبّدك الهوى ... فاخضع لحبك كائنا من كانا

ولعبد الله بن المبارك:

ومن البلايا للبلاء علامة ... ألا يرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها ... والحر يشبع تارة ويجوع

ولابن دريد:

إذا طالبتك النفس يوما بشهوة ... وكان إليها للخلاف طريق
فدعها وخالف ما هويت فإنما ... هواك عدو والخلاف صديق

ولأبي عبيد الطوسي:

---

(١) أخرجه البغوي في "شرح السنة"، (١/ ٢١٣)، وفي سنده نعيم بن حماد وهو ضعيف، وقد بسط الكلام عليه الحافظ ابن رجب في "جامع العلوم والحكم"، فراجعه.
(٢) "ضعيف".
(٣) "ضعيف" أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم، وانظر ضعيف الجامع (٤٣١٠).
(٤) "ضعيف" أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وانظر ضعيف سنن ابن ماجه (٨٦٩).
(٥) "حسن" انظر صحيح الجامع (٣٠٤٥).

والنفس إن أعطيتها مناها فاغـرة نحو هـوىاها فاها

وقال أحمد بن أبي الحواري: مررت براهب فوجدته نحيفا فقلت لـه: أنت عليل. قال نعم. قلت: مذ كم؟ قال: مذ عرفت نفسي! قلت فتداوى؟ قال: قد أعياني الدواء وقد عزمت على الكي. قلت وما الكي؟ قال: مخالفة الـهوى. وقال سهل بن عبد الله التستري: هواك داؤك. فإن خالفته فدواؤك. وقال وهب: إذا شككت في أمرين ولم تدر خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فأته. وللعلماء في هذا الباب في ذم الـهوى ومخالفته كتب وأبواب أشرنا إلى ما فيه كفاية منه؛ وحسبك بقولـه تعالى: ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الـهوى. فإن الجنة هي المأوى﴾ (النازعات: ٤١).

قولـه تعالى: ﴿ وأضلـه الله على علم﴾ أي على علم قد علمه منه. وقيل: أضلـه عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه. وقال ابن عباس: أي على علم قد سبق عنده أنه سيضل. مقاتل: على علم منه أنه ضال؛ والمعنى متقارب. وقيل: على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر. ثم قيل: "على علم" يجوز أن يكون حالا من الفاعل؛ المعنى: أضلـه على علم منه به، أي أضلـه عالما بأنه من أهل الضلال في سابق علمه. ويجوز أن يكون حالا من المفعول؛ فيكون المعنى: أضلـه في حال علم الكافر بأنه ضال. ﴿ وختم على سمعه وقلبه﴾ أي طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الـهدى. ﴿ وجعل على بصره غشاوة﴾ أي غطاء حتى لا يبصر الرشد. وقرأ حمزة والكسائي "غشوة" بفتح الغين من غير ألف وقد مضى في "البقرة" وقال الشاعر:

أمـا والـذي أنـا عـبد لـه يمينا ومـا لـك أبـدي اليمينا
لئـن كـنت ألبستني غشوة لقد كنت أصفيتك الود حينا

﴿ فمن يهديه من بعد الله﴾ أي من بعد أن أضلـه. ﴿ أفلا تذكرون﴾ تتعظون وتعرفون أنه قادر على ما يشاء.

وهذه الآية ترد على القدرية والإمامية ومن سلك سبيلـهم في الاعتقاد؛ إذ هي مصرحة بمنعهم من الـهداية. ثم قيل: "وختم على سمعه وقلبه" إنه خارج مخرج الخبر عن أحوالـهم. وقيل: إنه خارج مخرج الدعاء بذلك عليهم؛ كما تقدم في أول "البقرة". وحكى ابن جريج أنها نزلت في الحارث بن قيس من الغياطلة. وحكى النقاش أنها نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبيﷺ، فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لصادق! فقال لـه مه! وما دلك على ذلك!؟ قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين؛ فلما تم عقلـه وكمل رشده، نسميه الكذاب الخائن!! والله إني لأعلم إنه لصادق! قال: فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعزى إن اتبعته أبدا. فنزلت: "وختم على سمعه وقلبه".

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ﴾ هذا إنكار منهم للآخرة وتكذيب للبعث وإبطال للجزاء. ومعنى: "نموت ونحيا" أي نموت نحن وتحيا أولادنا؛ قالـه الكلبي. وقرئ "ونُحيا" بضم النون. وقيل: يموت بعضنا ويحيا بعضنا. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي نحيا ونموت؛ وهي قراءة ابن مسعود. ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ قال مجاهد: يعني السنين والأيام. وقال قتادة: إلا العمر، والمعنى واحد. وقرئ "إلا دهر يمر". وقال ابن عيينة: كان أهل الجاهلية يقولون: الدهر هو الذي يهلكنا وهو الذي يحيينا ويميتنا؛ فنزلت هذه الآية. وقال قطرب: وما يهلكنا إلا الموت؛ وأنشد قول أبي ذؤيب:

أمن المنون وريبها تتوجـــع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وقال عكرمة: أي وما يهلكنا إلا الله. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: (كان أهل الجاهلية يقولون ما يهلكنا إلا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا فيسبون الدهر قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار).

قلت: قولـه "قال الله" إلى آخره نص البخاري ولفظه[١]. وخرجه مسلم[٢] أيضا وأبو داود. وفي الموطأ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإن الله هو الدهر)[٣].

وقد استدل بهذا الحديث من قال: إن الدهر من أسماء الله. وقال: من لم يجعلـه من العلماء اسما إنما خرج ردا على العرب في جاهليتها؛ فإنهم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهم في هذه الآية؛ فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضيم أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر فقيل لـهم على ذلك: لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر؛ أي إن الله هو الفاعل لـهذه الأمور التي تضيفونها إلى الدهر فيرجع السب إليه سبحانه؛ فنهوا عن ذلك. ودل على صحة هذا ما ذكرناه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله تبارك وتعالى يؤذيني ابن آدم...) الحديث. ولقد أحسن من قال، وهو أبو علي الثقفي:

يـا عاتب الدهر إذا نابه لا تلم الدهر على غدره

الدهـر مـأمور، لـه آمر وينـتهي الدهـر إلى أمره

كـم كافـر أموالــه جمـة تزداد أضعافا على كفره

ومؤمـن ليـس له درهـم يـزداد إيمـانا علـى فقره

وروي أن سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيرا ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال: إياك يا بني وذكر الدهر! وأنشد:

فمـا الدهر بالجاني لشيء لحينه ولا جالـب البلوى فلا تشتم الدهرا

ولكـن متى ما يبعـث الله باعثا علـى معشر يجعل مياسيرهم عسرا

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦).

(٣) أخرجاه في الصحيحين، واللفظ لمسلم.

وقال أبو عبيد: ناظرت بعض الملحدة فقال: ألا تراه يقول: "فإن الله هو الدهر"؟ فقلت: وهل كان أحد يسب الله في آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى:

إن محــلا وإن مــرتحلا وإن في السفر إذ مضوا مهلا
اســتأثر الله بالوفاء وبالعد ل وولــى الملامــة الرجلا

قال أبو عبيد: ومن شأن العرب أن يذموا الدهر عند المصائب والنوائب؛ حتى ذكروه في أشعارهم، ونسبوا الأحداث إليه. قال عمرو بن قميئة:

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرمى وليس برام
فلــو أنهــا نــبل إذاً لاتقيــتها ولكــنني أرمــى بغــير ســهام
علــى الراحــتين مرة وعلى العصا أنــوء ثلاثــا بعدهــن قيامــي

ومثلـه كثير في الشعـر. ينسبون ذلك إلى الدهـر ويضيفونه إليه، والله سبحانـه الفاعل لا رب سواه. ﴿ وما لـهم بذلك من علم ﴾ أي علم. و"من" زائدة؛ أي قالـوا ما قالوا شاكين. ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ أي ما هم إلا يتكلمون بالظن. وكان المشركون أصنافا، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره. وحدث في الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفا من المسلمين؛ فيتأولون ويرون القيامة موت البدن، ويرون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم؛ فشر هؤلاء أضر من شر جميع الكفار؛ لأن هؤلاء يلبسون على الحق، ويغتر بتلبيسهم الظاهر. والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم. وقيل: نموت وتحيا آثارنا؛ فهذه حياة الذكر. وقيل: أشاروا إلى التناسخ؛ أي يموت الرجل فتجعل روحه في موات فتحيا به.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أي وإذ تقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة في جواز البعث لم يكن ثم دفع ﴿ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ "حجتهم" خبر كان، والاسم "إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا" الموتى نسألـهم عن صدق ما تقولون، فرد الله عليهم بقولـه ﴿ قل الله يحييكم ﴾ يعني بعد كونكم نطفا أمواتا ﴿ ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ كما أحياكم في الدنيا. ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أن الله يعيدهم كما بدأهم. الزمخشري: فإن قلت لم سمي قولـهم حجة وليس بحجة؟ قلت: لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته، وساقوه مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم. أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة. أو لأنه في أسلوب قولـه:

تحية بينهم ضرب وجيع

كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. والمراد نفي أن تكون لهم حجة البتة. فإن قلت: كيف وقع قوله: "قل الله يحييكم" جواب "ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين"؟ قلت: لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أن ما قالوه قول مبكت ألزموا ما هم مقرون به من أن الله عز وجل هو الذي يحييهم ثم يميتهم، وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحق وهو جمعهم يوم القيامة، ومن كان قادرا على ذلك كان قادرا على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولله ملك السماوات والأرض ﴾ خلقا وملكا. ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾ "يوم" الأول منصوب بـ "يخسر" و"يومئذ" تكرير للتأكيد أو بدل. وقيل: إن التقدير وله الملك يوم تقوم الساعة. والعامل في "يومئذ" "يخسر"، ومفعول "يخسر" محذوف، والمعنى يخسرون منازلهم في الجنة.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ أي من هول ذلك اليوم. والأمة هنا: أهل كل ملة. وفي الجاثية تأويلات خمس: الأول: قال مجاهد: مستوفزة. وقال سفيان: المستوفز الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله. الضحاك: ذلك عند الحساب. الثاني: مجتمعة؛ قاله ابن عباس. الفراء: المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين. الثالث: متميزة، قاله عكرمة. الرابع: خاضعة بلغة قريش، قاله مؤرج. الخامس: باركة على الركب، قاله الحسن. والجثو: الجلوس على الركب. جثا على ركبتيه يجثو ويجثي جُثُوّا وجُثيا، على فعول فيهما، وقد مضى في "مريم": وأصل الجثوة: الجماعة من كل شيء. قال طرفة يصف قبرين:

ترى جثوتين من تراب عليهما ... صفائح صم من صفيح منضد

ثم قيل: هو خاص بالكفار، قاله يحيى بن سلام. وقيل: إنه عام للمؤمن والكافر انتظارا للحساب. وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو عن عبد الله بن باباه أن النبي ﷺ قال: (كأني أراكم بالكوم جاثين دون جهنم)[1] ذكره الماوردي. وقال سلمان: إن في يوم القيامة لساعة هي عشر سنين يخر الناس فيها جثاة على ركبهم حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادي "لا أسألك اليوم إلا نفسي". ﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ قال يحيى بن سلام: إلى حسابها. وقيل: إلى كتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر، قاله مقاتل. وهو معنى قول مجاهد. وقيل: "كتابها" ما كتبت الملائكة عليها. وقيل كتابها المنزل عليها لينظر هل عملوا بما فيه. وقيل: الكتاب ها هنا اللوح المحفوظ. وقرأ يعقوب الحضرمي "كل أمة" بالنصب على البدل من "كل" الأولى لما في الثانية من الإيضاح الذي ليس في الأولى، إذ ليس في جثوها شيء من حال شرح الجثو كما في الثانية من ذكر السبب الداعي إليه وهو

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "الحلية"، (٧/ ٢٩٩)، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور"، (٥/ ٧٥٩) إلى سعيد بن منصور وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

استدعاؤها إلى كتابها. وقيل: انتصب بإعمال "ترى" مضمرا. والرفع على الابتداء. ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ من خير أو شر.

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ هذا كتابنا ﴾ قيل من قول الله لـهم. وقيل من قـول الملائكة. ﴿ ينطق عليكم بالحق ﴾ أي يشهد. وهو استعارة يقال: نطق الكتاب بكذا أي بين. وقيل: إنهم يقرؤونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا، فكأنه ينطق عليهم، دليلـه قولـه: ﴿ ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ (الكهف: ٤٩). وفي المؤمنين: "ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون" وقد تقدم. و"ينطق" في موضع الحال من الكتاب، أو من ذا، أو خبر ثان لذا، أو يكون "كتابنا" بدلا من "هذا" و"ينطق" الخبر. ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ أي نأمر بنسخ ما كنتم تعملون. قال علي ﷺ: إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم. وقال ابن عباس: إن الله وكل ملائكة مطهرين فينسخون من أم الكتاب في رمضان كل ما يكون من أعمال بني آدم فيعارضون حفظة الله على العباد كل خميس، فيجدون ما جاء به الحفظة من أعمال العباد موافقا لما في كتابهم الذي استنسخوا من ذلك الكتاب لا زيادة فيه ولا نقصان. قال ابن عباس: وهل يكون النسخ إلا من كتاب. الحسن: نستنسخ ما كتبته الحفظة على بني آدم، لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال. وقيل: تحمل الحفظة كل يوم ما كتبوا على العبد، ثم إذا عادوا إلى مكانهم نسخ منه الحسنات والسيئات، ولا تحول المباحات إلى النسخة الثانية. وقيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله عز وجل أمر بأن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب، ويسقط من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عقاب.

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلـهم ربهم في رحمته ﴾ أي الجنة * ذلك هو الفوز المبين * وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم ﴾ أي فيقال لـهم ذلك. وهو استفهام توبيخ. ﴿ فاستكبرتم ﴾ عن قبولـها. ﴿ وكنتم قوما مجرمين ﴾ أي مشركين تكسبون المعاصي. يقال: فلان جريمة أهلـه إذا كان كاسبهم، فالمجرم من أكسب نفسه المعاصي. وقد قال الله تعالى: ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ (القلم: ٣٥) فالمجرم ضد المسلم فهو المذنب بالكفر إذاً.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق ﴾ أي البعث كائن. ﴿ والساعة لا ريب فيها ﴾ وقرأ حمزة "والساعة" بالنصب عطفا على "وعد". الباقون بالرفع على الابتداء، أو العطف على موضع "إن وعد الله". ولا يحسن على الضمير الذي في المصدر، لأنه غير مؤكد، والضمير المرفوع إنما يعطف

عليه بغير تأكيد في الشعر. ﴿ قلتم ما ندري ما الساعة ﴾ هل هي حق أم باطل. ﴿ إن نظن إلا ظنا ﴾ تقديره عند المبرد: إن نحن إلا نظن ظنا. وقيل: التقدير: إن نظن إلا أنكم تظنون ظنا. وقيل: أي وقلتم إن نظن إلا ظنا ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ أن الساعة آتية.

قوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وبدا لـهم سيئات ما عملوا ﴾ أي ظهر لـهـم جزاء سيئات ما عملوا. ﴿ وحاق بهم ﴾ أي نزل بهم وأحاط. ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٣٤) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ أي نترككم في النار كما تركتم لقاء يومكم هذا أي تركتم العمل لـه. ﴿ ومأواكم النار ﴾ أي مسكنكم ومستقركم. ﴿ وما لكم من ناصرين ﴾ من ينصركم.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله ﴾ يعني القرآن. ﴿ هزوا ﴾ لعبا. ﴿ وغرتكم الحياة الدنيا ﴾ أي خدعتكم بأباطيلـها وزخارفها، فظننتم أن ليس ثم غيرها، وأن لا بعث. ﴿ فاليوم لا يخرجون منها ﴾ أي من النار. ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ يسترضون وقد تقدم. وقرأ حمزة والكسائي "فاليوم لا يخرجون" بفتح الياء وضم الراء لقولـه تعالى: ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ (السجدة: ٢٠) الباقون بضم الياء وفتح الراء، لقولـه تعالى: ﴿ ربنا أخرجنا ﴾ (فاطر: ٣٧) ونحوه.

قوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٦) وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣٧) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين ﴾ قرأ مجاهد وحميد وابن محيصن "رب السموات ورب الأرض رب العالمين" بالرفع فيها كلـها على معنى هو رب. ﴿ولـه الكبرياء﴾ أي العظمـة والجـلال والبقـاء والسلطـان والقـدرة والكمـال. ﴿في السمـوات والأرض وهـو العزيز الحكيم﴾ الله أعلم.

سورة الأحقاف

مقدمة السورة:

مكية في قول جميعهم، وهي خمس وثلاثون آية.

قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

قولـه تعالى: ﴿ حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ تقدم. ﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ تقدم أيضا. ﴿ وأجل مسمى ﴾ يعني القيامة، في قول ابن عباس وغيره. وهو الأجل الذي تنتهي إليه السموات والأرض. وقيل: إنه هو الأجل المقدور لكل مخلوق. ﴿ والذين كفروا عما أنذروا ﴾ خُوفوه ﴿ معرضون ﴾ مولون لاهون غير مستعدين لـه ويجوز أن تكون "ما" مصدرية، أي عن إنذارهم ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾ أي ما تعبدون من الأصنام والأنداد من دون الله. ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ أي هل خلقوا شيئا من الأرض ﴿ أم لـهم شرك ﴾ أي نصيب ﴿ في السماوات ﴾ أي في خلق السموات مع الله. ﴿ ائتوني بكتاب من قبل هذا ﴾ أي من قبل هذا القرآن.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ أو أثارة من علم ﴾ قراءة العامة "أو أثارة" بألف بعد الثاء. قال ابن عباس عن النبي ﷺ: (هو خط كانت تخطه العرب في الأرض)، ذكره المهدوي والثعلبي. وقال ابن العربي: ولم يصح. وفي مشهور الحديث عن النبي ﷺ قال: (كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك) ولم يصح أيضا[1].

قلت: هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السلمي، خرجه مسلم[2]. وأسند النحاس: حدثنا محمد بن أحمد (يعرف بالجراجي) قال حدثنا محمد بن بندار قال حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان الثوري عن صفوان بن سليم عن أبي سلمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قولـه عز وجل: "أو أثارة من علم" قال: (الخط) وهذا صحيح أيضا[3]. قال ابن العربي: واختلفوا في تأويلـه، فمنهم من قال: جاء لإباحة الضرب، لأن بعض الأنبياء كان يفعلـه. ومنهم من قال جاء للنهي عنه، لأنه ﷺ قال:

---

(١) سبحان الله، الإحاطة له وحده.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٣) ذكره الهيثمي في "المجمع"، ٧/ ١٠٥) وقال: "رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح". وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٥٤) عن ابن عباس موقوفاً عليه بنحوه، وصححه وأقره الذهبي.

(فمن وافق خطه فذاك). ولا سبيل إلى معرفة طريق النهي المتقدم فيه، فإذاً لا سبيل إلى العمل به. قال:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وحقيقته عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب، فيدل ما يخرج منها على ما تدل عليه تلك الكواكب من سعد أو نحس يحل بهم، فصار ظنا مبنيا على ظن، وتعلقا بأمر غائب قد درست طريقه وفات تحقيقه، وقد نهت الشريعة عنه، وأخبرت أن ذلك مما اختص الله به، وقطعه عن الخلق، وإن كانت لهم قبل ذلك أسباب يتعلقون بها في درك الأشياء المغيبة، فإن الله قد رفع تلك الأسباب وطمس تلك الأبواب وأفرد نفسه بعلم الغيب، فلا يجوز مزاحمته في ذلك، ولا يحل لأحد دعواه. وطلبه عناء لو لم يكن فيه نهي. فإذ وقد ورد النهي فطلبه معصية أو كفر بحسب قصد الطالب.

قلت: ما أختاره هو قول الخطابي. قال الخطابي: قوله ﷺ: (فمن وافق خطه فذاك) هذا يحتمل الزجر إذ كان ذلك علما لنبوته وقد انقطعت، فنهينا عن التعاطي لذلك. قال القاضي عياض: الأظهر من اللفظ خلاف هذا، وتصويب خط من يوافق خطه، لكن من أين تعلم الموافقة والشرع منع من التخرص وادعاء الغيب جملة ـ فإنما معناه أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون إصابته، لا أنه يريد إباحة ذلك لفاعله على ما تأوله بعضهم. وحكى مكي في تفسير قوله: "كان نبي من الأنبياء يخط" أنه كان يخط بأصبعه السبابة والوسطى في الرمل ثم يزجر. وقال ابن عباس في تفسير قوله "ومنا رجال يخطون": هو الخط الذي يخطه الحازي فيعطى حلوانا فيقول: اقعد حتى أخط لك، وبين يدي الحازي غلام معه ميل ثم يأتي إلى أرض رخوة فيخط الأستاذ خطوطا معجلة لئلا يلحقها العدد، ثم يرجع فيمحو على مهل خطين خطين، فإن بقي خطان فهو علامة النجح، وإن بقي خط فهو علامة الخيبة. والعرب تسميه الأسحم وهو مشؤوم عندهم.

الثالثة: قال ابن العربي: إن الله تعالى لم يبق من الأسباب الدالة على الغيب التي أذن في التعلق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا، فإنه أذن فيها، وأخبر أنها جزء من النبوة وكذلك الفأل، وأما الطيرة والزجر فإنه نهى عنهما. والفأل: هو الاستدلال بما يسمع من الكلام على ما يريد من الأمر إذا كان حسنا، فإذا سمع مكروها فهو تطير، أمره الشرع بأن يفرح بالفأل ويمضي على أمره مسرورا. وإذا سمع المكروه أعرض عنه ولم يرجع لأجله، وقد قال النبي ﷺ: (اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك)[1]. وقد روى بعض الأدباء:

الفأل والزجر والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أقفال

وهذا كلام صحيح، إلا في الفأل فإن الشرع استثناه وأمر به، فلا يقبل من هذا الشاعر ما نظمه فيه، فإنه تكلم بجهل، وصاحب الشرع أصدق وأعلم وأحكم.

---

(1) أخرجه أحمد في "المسند"، (٢/ ٢٢٠)، وقال العلامة أحمد شاكر في تعليقه على "المسند" (٧٠٤٥). "إسناده صحيح".

قلت: قد مضى في الطيرة والفأل وفي الفرق بينهما ما يكفي في (المائدة) وغيرها. ومضى في (الأنعام) أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب، وأن أحدا لا يعلم ذلك إلا ما أعلمه الله، أو يجعل على ذلك دلالة عادية يعلم بها ما يكون على جري العادة. وقد يختلف مثالـه إذا رأى نخلة قد أطلعت فإنه يعلم أنها ستثمر، وإذا رآها قد تناثر طلعها علم أنها لا تثمر. وقد يجوز أن يأتي عليها آفة تهلك ثمرها فلا تثمر، كما أنه جائز أن تكون النخلة التي تناثر طلعها يطلع الله فيها طلعا ثانيا فتثمر. وكما أنه جائز أيضا ألا يلي شهره شهر ولا يومه يوم إذا أراد الله إفناء العالم ذلك الوقت. إلى غير ذلك مما تقدم في (الأنعام) بيانه.

الرابعة: قال ابن خويز منداد: قولـه تعالى: ﴿أو أثارة من علم﴾ يريد الخط. وقد كان مالك رحمه الله يحكم بالخط إذا عرف الشاهد خطه. وإذا عرف الحاكم خطه أو خط من كتب إليه حكم به، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الحيل والتزوير. وقد روي عنه أنه قال: (يُحدث الناس فجورا فتحدث لـهم أقضية). فأما إذا شهد الشهود على الخط المحكوم به، مثل أن يشهدَوا أن هذا خط الحاكم وكتابه، أشهدنا على ما فيه وإن لم يعلموا ما في الكتاب. وكذلك الوصية أو خط الرجل باعترافه بمال لغيره يشهدون أنه خطه ونحو ذلك - فلا يختلف مذهبه أن يحكم به. وقيل: "أو أثارة من علم" أو بقية من علم، قالـه ابن عباس والكلبي وأبو بكر بن عياش وغيرهم. وفي الصحاح "أو أثارة من علم" بقية منه. وكذلك الأثرة (بالتحريك). ويقال: سمنت الإبل على أثارة، أي بقية شحم كان قبل ذلك. وأنشد الماوردي والثعلبي قول الراعي:

وذات أثارة أكلت عليها نباتـا فـي أكـمته ففارا

وقال الـهروي: والأثارة والأثر: البقية، يقال: ما ثم عين ولا أثر. وقال ميمون بن مهران وأبو سلمة ابن عبد الرحمن وقتادة: "أو أثارة من علم" خاصة من علم. وقال مجاهد: رواية تأثرونها عمن كان قبلكم. وقال عكرمة ومقاتل: رواية عن الأنبياء. وقال القرظي: هو الإسناد. الحسن: المعنى شيء يثار أو يستخرج. وقال الزجاج: "أو أثارة" أي علامة. والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة. وأصل الكلمة من الأثر، وهي الرواية، يقال: أثرت الحديث آثره أثرا وأثارة وأثرة فأنا آثر، إذا ذكرته عن غيرك. ومنه قيل: حديث مأثور، أي نقلـه خلف عن سلف. قال الأعشى:

إن الذي فيه تماريتما بيِّن للسـامـع والآثر

ويروى "بيَّن" وقرئ "أو أثرة" بضم الـهمزة وسكون الثاء. ويجوز أن يكون معناه بقية من علم. ويجوز أن يكون معناه شيئا مأثورا من كتب الأولين. والمأثور: ما يتحدث به مما صح سنده عمن تحدث به عنه. وقرأ السلمي والحسن وأبو رجاء بفتح الـهمزة والثاء من غير ألف، أي خاصة من علم أوتيتموها أو أوثرتم بها على غيركم. وروي عن الحسن أيضا وطائفة "أثرة" مفتوحة الألف ساكنة الثاء، ذكر الأولى الثعلبي والثانية الماوردي. وحكى الثعلبي عن عكرمة: أو ميراث علم. ﴿إن كنتم صادقين﴾.

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿ ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ﴾ فيه بيان مسالك الأدلة بأسرها، فأولـها المعقول، وهو قولـه تعالى: ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لـهم شرك في السموات ﴾ وهو احتجاج بدليل العقل في أن الجماد لا يصح أن يدعى من دون الله فإنه لا يضر ولا ينفع. ثم قال: "ائتوني بكتاب من قبل هذا" فيه بيان أدلة السمع "أو أثارة من علم".

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ومن أضل ﴾ أي لا أحد أضل وأجهل ﴿ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب لـه إلى يوم القيامة ﴾ وهي الأوثان. ﴿ وهم عن دعائهم غافلون ﴾ يعني لا يسمعون ولا يفهمون، فأخرجها وهي جماد مخرج ذكور بني آدم، إذ قد مثلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تُخدم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإذا حشر الناس ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿ كانوا لـهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ أي هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيامة. فالملائكة أعداء الكفار، والجن والشياطين يتبرؤون غدا من عبدتهم، ويلعن بعضهم بعضا.

ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء، على تقدير خلق الحياة لـها، دليلـه قولـه تعالى: ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ (القصص: ٦٣). وقيل: عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم، وجحد المعبودون عبادتهم، وهو قولـه: ﴿ وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ يعني القرآن. ﴿ قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ الميم صلة، التقدير: أيقولون افتراه، أي تقولـه محمد. وهو إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا. ومعنى الـهمزة في "أم" الإنكار والتعجب، كأنه قال: دع هذا واسمع قولـهم المستنكر المقضي منه العجب. وذلك أن محمدا كان لا يقدر عليه حتى يقولـه ويفتريه على الله، ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة، وإذا كانت

معجزة كانت تصديقا من الله لـه، والحكيم لا يصدق الكاذب فلا يكون مفتريا، والضمير للحق، والمراد به الآيات. ﴿ قل إن افتريته ﴾ على سبيل الفرض. ﴿ فلا تملكون لي من الله شيئا ﴾ أي لا تقدرون على أن تردوا عني عذاب الله، فكيف أفتري على الله لأجلكم. ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه ﴾ أي تقولونه، عن مجاهد. وقيل: تخوضون فيه من التكذيب. والإفاضة في الشيء: الخوض فيه والاندفاع. أفاضوا في الحديث أي اندفعوا فيه. وأفاض البعير أي دفع جرته من كرشه فأخرجها، ومنه قول الشاعر:

وأفضن بعد كظومهن بجرة

وأفاض الناس من عرفات إلى منى أي دفعوا، وكل دفعة إفاضة. ﴿ كفى به شهيدا ﴾ نصب على التمييز. ﴿ بيني وبينكم ﴾ أي هو يعلم صدقي وأنكم مبطلون. ﴿ وهو الغفور ﴾ لمن تاب ﴿ الرحيم ﴾ بعباده المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل ﴾ أي أول من أرسل، قد كان قبلي رسل، عن ابن عباس وغيره. والبدع: الأول. وقرأ عكرمة وغيره "بدعا" بفتح الدال، على تقدير حذف المضاف، والمعنى: ما كنت صاحب بدع. وقيل: بدع وبديع بمعنى، مثل نصف ونصيف. وأبدع الشاعر: جاء بالبديع. وشيء بدع (بالكسر) أي مبتدع. وفلان بدع في هذا الأمر أي بديع. وقوم أبداع، عن الأخفش. وأنشد قطرب قول عدي بن زيد:

فلا أنا بدع من حوادث تعتري رجالا غدت من بعد بؤسي بأسعد

﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ يريد يوم القيامة. ولما نزلت فرح المشركون واليهود والمنافقون وقالوا: كيف نتبع نبيا لا يدري ما يفعل به ولا بنا، وأنه لا فضل لـه علينا، ولولا أنه ابتدع الذي يقولـه من تلقاء نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعل به، فنزلت: ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ (الفتح: ٢) فنسخت هذه الآية، وأرغم الله أنف الكفار. وقالت الصحابة: هنيئا لك يا رسول الله، لقد بين الله لك ما يفعل بك يا رسول الله، فليت شعرنا ما هو فاعل بنا؟ فنزلت: ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ (الفتح: ٥) الآية. ونزلت: ﴿ وبشر المؤمنين بأن لـهم من الله فضلا كبيرا ﴾ (الأحزاب: ٤٧). قالـه أنس وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك. وقالت أم العلاء امرأة من الأنصار: اقتسمنا المهاجرين فصار لنا عثمان بن مظعون بن حذافة بن جمح، فأنزلناه أبياتنا فتوفي، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب إن الله أكرمك. فقال النبي ﷺ: (وما يدريك أن الله أكرمه)؟ فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله فمن؟ قال: (أما هو فقد جاءه اليقين وما رأينا إلا خيرا فوالله إني لأرجو لـه الجنة ووالله إني لرسول الله وما أدري ما يفعل بي

ولا بكم). قالت: فوالله لا أزكي بعده أحدا [١] أبدا. ذكره الثعلبي، وقال: وإنما قال هذا حين لم يعلم بغفران ذنبه، وإنما غفر الله لـه ذنبه في غزوة الحديبية قبل موته بأربع سنين.

قلت: حديث أم العلاء خرجه البخاري، وروايتي فيه: (وما أدري ما يفعل به [٢]) ليس فيه (بي ولا بكم) [٣] وهو الصحيح إن شاء الله، على ما يأتي بيانه. والآية ليست منسوخة، لأنها خبر. قال النحاس: محال أن يكون في هذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين: أحدهما أنه خبر، والآخر أنه من أول السورة إلى هذا الموضع خطاب للمشركين واحتجاج عليهم وتوبيخ لـهم، فوجب أن يكون هذا أيضا خطابا للمشركين كما كان قبلـه وما بعده، ومحال أن يقول النبي ﷺ للمشركين (ما أدري ما يفعل بي ولا بكم) في الآخرة، ولم يزل ﷺ من أول مبعثه إلى مماته يخبر أن من مات على الكفر مخلد في النار، ومن مات على الإيمان واتبعه وأطاعه فهو في الجنة، فقد رأى ﷺ ما يفعل به وبهم في الآخرة. وليس يجوز أن يقول لـهم ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة، فيقولون كيف نتبعك وأنت لا تدري أتصير إلى خفض ودعة أم إلى عذاب وعقاب.

والصحيح في الآية قول الحسن، كما قرأ علي بن محمد بن جعفر بن حفص عن يوسف بن موسى قال حدثنا وكيع قال حدثنا أبو بكر الـهذلي عن الحسن: (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا) قال أبو جعفر: وهذا أصح قول وأحسنه، لا يدري ﷺ ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة ورخص وغلاء وغنى وفقر. ومثلـه: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير﴾ (الأعراف: ١٨٨). وذكر الواحدي وغيره عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء، فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك، ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذى المشركين، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك فقالوا: يا رسول الله، متى نهاجر إلى الأرض التي رأيت؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: "وما أدري ما يفعل بي ولا بكم" أي لا أدري أأخرج إلى الموضع الذي رأيته في منامي أم لا. ثم قال: (إنما هو شيء رأيته في منامي ما أتبع إلا ما يوحى إلي) [٤] أي لم يوح إلي ما أخبرتكم به. قال القشيري: فعلى هذا لا نسخ في الآية. وقيل: المعنى لا أدري ما يفرض علي وعليكم من الفرائض. واختار الطبري أن يكون المعنى: ما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا، أتؤمنون أم تكفرون، أم تعاجلون بالعذاب أم تؤخرون.

قلت: وهو معنى قول الحسن والسدي وغيرهما. قال الحسن: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أما في الآخرة فمعاذ الله! قد علم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل، ولكن قال ما أدري ما يفعل بي في الدنيا أأخرج كما أخرجت الأنبياء قبلي، أو أقتل كما قتلت الأنبياء قبلي، ولا أدري ما

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم (٢/ ٤٥٥)، وقال: "هذا حديث قد اختلف الشيخان في إخراجه، فرواه البخاري عن عبدان مختصراً، ولم يخرجه مسلم". وأقره الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري في "التعبير"، (٧٠٠٤).

(٣) إطلاق هذا النفي غير صحيح، لأن قولـه ﷺ: "ما يفعل بي ولا بكم" ثابت أيضا في البخاري (ح٧٠١٨).

(٤) ذكره الواحدي في "أسباب النزول"، (ص٢٥٥)، وفيه الكلبي وهو محمد بن السائب كذبوه.

يفعل بكم، أأمتي المصدقة أم المكذبة، أم أمتي المرمية بالحجارة من السماء قذفا، أو مخسوف بها خسفا، ثم نزلت: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ (التوبة: ٣٣). يقول: سيظهر دينه على الأديان. ثم قال في أمته: ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ (الأنفال: ٣٣) فأخبره تعالى بما يصنع به وبأمته، ولا نسخ على هذا كله، والحمد لله. وقال الضحاك أيضا: "ما أدري ما يفعل بي ولا بكم" أي ما تؤمرون به وتنهون عنه. وقيل: أمر النبي ﷺ أن يقول للمؤمنين ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في القيامة، ثم بين الله تعالى ذلك في قوله: ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ (الفتح: ٢) وبين فيما بعد ذلك حال المؤمنين ثم بين حال الكافرين.

قلت: وهذا معنى القول الأول، إلا أنه أطلق فيه النسخ بمعنى البيان، وأنه أمر أن يقول ذلك للمؤمنين، والصحيح ما ذكرناه عن الحسن وغيره. و"ما" في "ما يفعل" يجوز أن تكون موصولة، وأن تكون استفهامية مرفوعة.

قوله تعالى: ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين ﴾ وقرئ "يوحي" أي الله عز وجل. تقدم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ﴾ يعني القرآن. ﴿ وكفرتم به ﴾ وقال الشعبي: المراد محمد ﷺ. ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل ﴾ قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: هو عبد الله بن سلام، شهد على اليهود أن رسول الله ﷺ مذكور في التوراة، وأنه نبي من عند الله. وفي الترمذي عنه: ونزلت فيّ آيات من كتاب الله، نزلت في: "وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين"[1]. وقد تقدم في آخر سورة "الرعد". وقال مسروق: هو موسى والتوراة، لا ابن سلام؛ لأنه أسلم بالمدينة والسورة مكية. وقال: وقوله: "وكفرتم به" مخاطبة لقريش. الشعبي: هو من آمن من بني إسرائيل بموسى والتوراة، لأن ابن سلام إنما أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بعامين، والسورة مكية. قال القشيري: ومن قال الشاهد موسى قال السورة مكية، وأسلم ابن سلام قبل موت النبي ﷺ بعامين. ويجوز أن تكون الآية نزلت بالمدينة وتوضع في سورة مكية، فإن الآية كانت تنزل فيقول النبي ﷺ ضعوها في سورة كذا. والآية في محاجة المشركين، ووجه الحجة أنهم كانوا يراجعون اليهود في أشياء، أي شهادتهم لهم وشهادة نبيهم لي من أوضح الحجج. ولا يبعد أن تكون السورة في محاجة اليهود، ولما جاء ابن سلام مسلما من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال: يا رسول الله، اجعلني حكما بينك وبين اليهود، فسألهم عنه: "أي رجل هو فيكم" قالوا: سيدنا وعالمنا. فقال: "إنه قد آمن بي" فأساؤوا القول فيه... الحديث[2]، وقد تقدم.

---

(١) ضعيف، أخرجه الترمذي (٣٣٠٩ـ أحوذي).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٣٨).

قال ابن عباس: رضيت اليهود بحكم ابن سلام، وقالت للنبي ﷺ: إن يشهد لك آمنا بك، فسئل فشهد ثم أسلم. ﴿ على مثله ﴾ أي على مثل ما جئتكم به، فشهد موسى على التوراة ومحمد على القرآن. وقال الجرجاني: "مثل" صلة، أي وشهد شاهد عليه أنه من عند الله. ﴿ فآمن ﴾ أي هذا الشاهد. ﴿ واستكبرتم ﴾ أنتم عن الإيمان. وجواب "إن كان" محذوف تقديره: فآمن أتؤمنون، قاله الزجاج. وقيل: "فآمن واستكبرتم" أليس قد ظلمتم، يبينه ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ وقيل: "فآمن واستكبرتم" أفتأمنون عذاب الله. و"أرأيتم" لفظ موضوع للسؤال والاستفهام، ولذلك لا يقتضي مفعولا. وحكى النقاش وغيره أن في الآية تقديما وتأخيرا، وتقديره: قل أرأيتم إن كان من عند الله وشهد شاهد من بني إسرائيل فآمن هو وكفرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ﴾ اختلف في سبب نزولـها على ستة أقوال:

الأول: أن أبا ذر الغفاري دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام بمكة فأجاب، واستجار به قومه فأتاه زعيمهم فأسلم، ثم دعاهم الزعيم فأسلموا، فبلغ ذلك قريشا فقالوا: غفار الحلفاء لو كان هذا خيرا ما سبقونا إليه، فنزلت هذه الآية، قالـه أبو المتوكل.

الثاني: أن زنيرة أسلمت فأصيب بصرها فقالوا لـها: أصابك اللات والعزى، فرد الله عليها بصرها. فقال عظماء قريش: لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه زنيرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، قالـه عروة بن الزبير.

الثالث: أن الذين كفروا هم بنو عامر وغطفان وتميم وأسد وحنظلة وأشجع قالوا لمن أسلم من غفار وأسلم وجهينة ومزينة وخزاعة: لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه رعاة البهم إذ نحن أعز منهم، قالـه الكلبي والزجاج، وحكاه القشيري عن ابن عباس.

الرابع: وقال قتادة: نزلت في مشركي قريش، قالوا: لو كان ما يدعونا إليه محمد خيرا ما سبقنا إليه بلال وصهيب وعمار وفلان وفلان.

الخامس: أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا يعني عبد الله بن سلام وأصحابه: لو كان دين محمد حقا ما سبقونا إليه، قالـه أكثر المفسرين، حكاه الثعلبي.

السادس: وقال مسروق: إن الكفار قالوا لو كان خيرا ما سبقتنا إليه اليهود، فنزلت هذه الآية.

وهذه المعارضة من الكفار في قولـهم: لو كان خيرا ما سبقونا إليه من أكبر المعارضات بانقلابها عليهم لكل من خالفهم، حتى يقال لـهم: لو كان ما أنتم عليه خيرا ما عدلنا عنه، ولو كان تكذيبكم للرسول خيرا ما سبقتمونا إليه، ذكره الماوردي. ثم قيل: قولـه: "ما سبقونا إليه" يجوز أن يكون من قول الكفار لبعض المؤمنين، ويجوز أن يكون على الخروج من الخطاب إلى الغيبة، كقولـه تعالى:

﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾ (يونس: ٢٢). ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ يعني الإيمان. وقيل القرآن. وقيل محمد ﷺ. ﴿ فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ أي لما لم يصيبوا الـهدى بالقرآن ولا بمن جاء به عادوه ونسبوه إلى الكذب، وقالوا هذا إفك قديم، كما قالوا: "أساطير الأولين" وقيل لبعضهم: هل في القرآن: من جهل شيئا عاداه؟ فقال نعم، قال الله تعالى: "وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم" ومثلـه: ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ (يونس: ٣٩).

قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ومن قبلـه ﴾ أي ومن قبل القرآن ﴿كتاب موسى ﴾ أي التوراة ﴿ إماما ﴾ يقتدى بما فيه. ﴿ ورحمة ﴾ من الله. وفي الكلام حذف، أي: فلم تهتدوا به. وذلك أنه كان في التوراة نعت النبي ﷺ والإيمان به فتركوا ذلك. و"إماما" نصب على الحال، لأن المعنى: وتقدمه كتاب موسى إماما. "ورحمة" معطوف عليه. وقيل: انتصب بإضمار فعل، أي أنزلناه إماما ورحمة. وقال الأخفش: على القطع، لأن كتاب موسى معرفة بالإضافة، لأن النكرة إذا أعيدت أو أضيفت أو أدخل عليها ألف ولام صارت معرفة. ﴿ وهذا كتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ مصدق ﴾ يعني للتوراة ولما قبلـه من الكتب. وقيل: مصدق للنبي ﷺ. ﴿ لسانا عربيا ﴾ منصوبٌ على الحال، أي مصدق لما قبلـه عربيا، و"لسانا" توطئة للحال أي تأكيد، كقولـهم: جاءني زيد رجلا صالحا، فتذكر رجلا توكيدا.

وقيل: نصب بإضمار فعل تقديره: وهذا كتاب مصدق أعني لسانا عربيا. وقيل: نصب بإسقاط حرف الخفض تقديره: بلسان عربي. وقيل: إن لسانا مفعول والمراد به النبي ﷺ، أي وهذا كتاب مصدق للنبي ﷺ لأنه معجزته، والتقدير: مصدق ذا لسان عربي. فاللسان منصوب بمصدق، وهو النبي ﷺ. ويبعد أن يكون اللسان القرآن، لأن المعنى يكون يصدق نفسه. ﴿ لينذر الذين ظلموا ﴾ قراءة العامة "لينذر" بالياء خبراً عن الكتاب، أي لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية. وقيل: هو خبر عن الرسول ﷺ. وقرأ نافع وابن عامر والبزي بالتاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، على خطاب النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ إنما أنت منذر ﴾ (الرعد: ٧). ﴿ وبشرى للمحسنين ﴾ "بشرى" في موضع رفع، أي وهو بشرى. وقيل: عطفا على الكتاب، أي وهذا كتاب مصدق وبشرى. ويجوز أن يكون منصوبا بإسقاط حرف الخفض، أي لينذر الذين ظلموا وللبشرى، فلما حذف الخافض نصب. وقيل: على المصدر، أي وتبشر المحسنين بشرى، فلما جعل مكان وتبشر بشرى أو بشارة نصب، كما تقول: أتيتك لأزورك، وكرامة لك وقضاء لحقك، يعني لأزورك وأكرمك وأقضي حقك، فنصب الكرامة بفعل مضمر.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ الآية تقدم معناها. وقال ابن عباس: نزلت في أبي بكر الصديق. والآية تعم. ﴿ جزاء ﴾ نصب على المصدر.

قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾ بين اختلاف حال الإنسان مع أبويه، فقد يطيعهما وقد يخالفهما، أي فلا يبعد مثل هذا في حق النبي ﷺ وقومه حتى يستجيب لـه البعض ويكفر البعض. فهذا وجه اتصال الكلام بعضه ببعض، قالـه القشيري.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ حسنا ﴾ قراءة العامة "حُسناً" وكذا هو في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام. وقرأ ابن عباس والكوفيون "إحسانا" وحجتهم قولـه تعالى في سورة (الأنعام وبني إسرائيل): ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ (الأنعام: ١٥١) وكذا هو في مصاحف الكوفة. وحجة القراءة الأولى قولـه تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ﴾ (العنكبوت: ٨) ولم يختلفوا فيها. والحسن خلاف القبح. والإحسان خلاف الإساءة. والتوصية الأمر. وقد مضى القول في هذا وفيمن نزلت.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ حملته أمه كرها ووضعته كرها ﴾ أي بكره ومشقة. وقراءة العامة بفتح الكاف. واختاره أبو عبيد، قال: وكـذلك لفـظ الكره في كل القرآن بالفتح إلا التي في سورة البقرة: ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ (البقرة: ٢١٦) لأن ذلك اسم وهذه كلـها مصادر. وقرأ الكوفيون "كرها" بالضم. قيل: هما لغتان مثل الضُّعف والضَّعف والشُّهد والشَّهد، قالـه الكسائي، وكذلك هو عند جميع البصريين. وقال الكسائي أيضا والفراء في الفرق بينهما: إن الكره (بالضم) ما حمل الإنسان على نفسه، وبالفتح ما حمل على غيره، أي قهرا وغصبا، ولـهذا قال بعض أهل العربية إن كرها (بفتح الكاف) لحن.

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ وحملـه وفصالـه ثلاثون شهرا ﴾ قال ابن عباس: إذا حملت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرا، وإن حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا. وروي أن عثمان قد أتي بامرأة قد ولدت لستة أشهر، فأراد أن يقضي عليها بالحد، فقال لـه علي ﷺ: ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: ﴿ وحملـه وفصالـه ثلاثون شهرا ﴾ وقال تعالى: ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ (البقرة: ٢٣٣) فالرضاع أربعة وعشرون شهرا والحمل ستة أشهر، فرجع عثمان عن قولـه ولم يحدها. وقد مضى في "البقرة". وقيل: لم يعد ثلاثة أشهر في ابتداء الحمل، لأن

الولد فيها نطفة وعلقة ومضغة فلا يكون لـه ثقل يحس به، وهو معنى قولـه تعالى: ﴿فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به﴾ (الأعراف: ١٨٩). والفصال الفطام. وقد تقدم في "لقمان" الكلام فيه. وقرأ الحسن ويعقوب وغيرهما "وفصلـه" بفتح الفاء وسكون الصاد. وروي أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق؛ وكان حملـه وفصالـه في ثلاثين شهرا، حملته أمه تسعة أشهر وأرضعته إحدى وعشرين شهرا. وفي الكلام إضمار، أي ومدة حملـه ومدة فصالـه ثلاثون شهرا، ولولا هذا الإضمار لنصب ثلاثون على الظرف وتغير المعنى.

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ قال ابن عباس: "أشده" ثماني عشرة سنة. وقال في رواية عطاء عنه: إن أبا بكر صحب النبي ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة والنبي ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام للتجارة، فنزلوا منزلا فيه سدرة، فقعد النبي ﷺ في ظلـها، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك فسألـه عن الدين. فقال الراهب: من الرجل الذي في ظل الشجرة؟ فقال: ذاك محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب. فقال: هذا والله نبي، وما استظل أحد تحتها بعد عيسى. فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، وكان لا يكاد يفارق رسول الله ﷺ في أسفاره وحضره. فلما نبئ رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، صدق أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ وهو ابن ثمانية وثلاثين سنة. فلما بلغ أربعين سنة قال: "رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي" الآية. وقال الشعبي وابن زيد: الأشد: الحلم. وقال الحسن: هو بلوغ الأربعين. وعنه قيام الحجة عليه. وقد مضى في "الأنعام" الكلام في الآية. وقال السدي والضحاك: نزلت في سعد بن أبي وقاص. وقد تقدم. وقال الحسن: هي مرسلة نزلت على العموم. والله أعلم.

السادسة: قولـه تعالى: ﴿قال رب أوزعني﴾ أي ألـهمني. ﴿أن أشكر نعمتك﴾ في موضع نصب على المصدر، أي شكر نعمتك ﴿علي﴾ أي ما أنعمت به علي من الـهداية ﴿وعلى والدي﴾ بالتحنن والشفقة حتى ربياني صغيرا. وقيل: أنعمت علي بالصحة والعافية وعلى والدي بالغنى والثروة. وقال علي رضي الله عنه: هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره، فأوصاه الله بهما ولزم ذلك من بعده. ووالده هو قحافة عثمان بن عامر ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم. وأمه أم الخير، واسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد. وأم أبيه أبي قحافة "قيلة" "بالياء المعجمة باثنتين من تحتها". وامرأة أبي بكر الصديق اسمها "قتيلة" "بالتاء المعجمة باثنتين من فوقها" بنت عبد العزى. ﴿وأن أعمل صالحا ترضاه﴾ قال ابن عباس: فأجابه الله فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله منهم بلال وعامر بن فهيرة، ولم يدع شيئا من الخير إلا أعانه الله عليه. وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من أصبح منكم اليوم صائما)؟ قال أبو بكر أنا. قال: (فمن تبع منكم اليوم جنازة)؟ قال أبو بكر أنا. قال:

(فمن أطعم منكم اليوم مسكينا)؟ قال أبو بكر أنا. قال: (فمن عاد منكم اليوم مريضا)؟ قال أبو بكر أنا. قال رسول الله ﷺ: (ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة)[1].

السابعة: قوله تعالى: ﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ أي اجعل ذريتي صالحين. قال ابن عباس: فلم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده. ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله أسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم إلا أبو بكر. وقال سهل بن عبد الله: المعنى اجعلهم لي خلف صدق، ولك عبيد حق. وقال أبو عثمان: اجعلهم أبرارا لي مطيعين لك. وقال ابن عطاء: وفقهم لصالح أعمال ترضى بها عنهم. وقال محمد بن علي: لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلا. وقال مالك بن مغول: اشتكى أبو معشر ابنه إلى طلحة بن مصرف، فقال: استعن عليه بهذه الآية، وتلا: "رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين". ﴿ إني تبت إليك ﴾ قال ابن عباس: رجعت عن الأمر الذي كنت عليه. ﴿ وإني من المسلمين ﴾ أي المخلصين بالتوحيد.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم ﴾ قراءة العامة بضم الياء فيهما. وقرئ "يتقبل، ويتجاوز" بفتح الياء، والضمير فيهما يرجع لله عز وجل. وقرأ حفص وحمزة والكسائي "نتقبل، ونتجاوز" بالنون فيهما، أي نغفرها ونصفح عنها. والتجاوز أصله من جزت الشيء إذا لم تقف عليه. وهذه الآية تدل على أن الآية التي قبلها "ووصينا الإنسان" إلى آخرها مرسلة نزلت على العموم. وهو قول الحسن. ومعنى "نتقبل عنهم" أي نتقبل منهم الحسنات ونتجاوز عن السيئات. قال زيد بن أسلم ـ ويحكيه مرفوعا ـ : إنهم إذا أسلموا قبلت حسناتهم وغفرت سيئاتهم. وقيل: الأحسن ما يقتضي الثواب من الطاعات، وليس في الحسن المباح ثواب ولا عقاب، حكاه ابن عيسى. ﴿ في أصحاب الجنة ﴾ "في" بمعنى مع، أي مع أصحاب الجنة، تقول: أكرمك وأحسن إليك في جمع أهل البلد، أي مع جميعهم. ﴿ وعد الصدق ﴾ نصب لأنه مصدر مؤكد لما قبله، أي وعد الله أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وعد الصدق. وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، لأن الصدق هو ذلك الوعد الذي وعده الله، وهو كقوله تعالى: ﴿ حق اليقين ﴾ (الواقعة: ٩٥). وهذا عند الكوفيين، فأما عند البصريين فتقديره: وعد الكلام الصدق أو الكتاب الصدق، فحذف الموصوف. وقد مضى هذا في غير موضع. ﴿ الذي كانوا يوعدون ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل، وذلك الجنة.

---

(١) أخرجه مسلم في "الفضائل"، (١٠٢٨).

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج ﴾ أي أن أبعث. ﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾ قراءة نافع وحفص وغيرهما "أف" مكسور منون. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وابن عامر والمفضل عن عاصم "أف" بالفتح من غير تنوين. الباقون بالكسر غير منون، وكلها لغات، وقد مضى في "بني إسرائيل". وقراءة العامة "أتعدانني" بنونين مخففتين. وفتح ياءه أهل المدينة ومكة. وأسكن الباقون. وقرأ أبو حيوة والمغيرة وهشام "أتعداني" بنون واحدة مشددة، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام. والعامة على ضم الألف وفتح الراء من "أن أخرج". وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الألف وضم الراء. قال ابن عباس والسدي وأبو العالية ومجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما، وكان يدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله عز وجل.

وقال قتادة والسدي أيضا: هو عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، وكان أبوه وأمه أم رومان يدعوانه إلى الإسلام ويعدانه بالبعث، فيرد عليهما بما حكاه الله عز وجل عنه، وكان هذا منه قبل إسلامه. وروي أن عائشة رضي الله عنها أنكرت أن تكون نزلت في عبد الرحمن. وقال الحسن وقتادة أيضا: هي نعت عبد كافر عاق لوالديه. وقال الزجاج: كيف يقال نزلت في عبد الرحمن قبل إسلامه والله عز وجل يقول: "أولئك الذين حق عليهم القول في أمم" أي العذاب، ومن ضرورته عدم الإيمان، وعبد الرحمن من أفاضل المؤمنين، فالصحيح أنها نزلت في عبد كافر عاق لوالديه. وقال محمد ابن زياد: كتب معاوية إلى مروان بن الحكم حتى يبايع الناس ليزيد، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتم بها هرقلية، أتبايعون لأبنائكم؟! فقال مروان: هو الذي يقول الله فيه: "والذي قال لوالديه أف لكما" الآية. فقال: والله ما هو به. ولو شئت لسميت، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فضض من لعنة الله[1]. قال المهدوي: ومن جعل الآية في عبد الرحمن كان قوله بعد ذلك "أولئك الذين حق عليهم القول" يراد به من اعتقد ما تقدم ذكره، فأول الآية خاص وآخرها عام. وقيل إن عبد الرحمن لما قال: "وقد خلت القرون من قبلي" قال مع ذلك: فأين عبد الله بن جدعان، وأين عثمان بن عمرو، وأين عامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما يقولون. فقوله: "أولئك الذين حق عليهم القول" يرجع إلى أولئك الأقوام.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد والنسائي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه، كما في "الدر المنثور"، (٦/ ١١).

قلت: قد مضى من خبر عبد الرحمن بن أبي بكر في سورة (الأنعام) عند قوله: ﴿له أصحاب يدعونه إلى الهدى﴾ (الأنعام: ٧١) ما يدل على نزول هذه الآية فيه، إذ كان كافرا وعند إسلامه وفضله تعين أنه ليس المراد بقوله: "أولئك الذين حق عليهم القول". ﴿وهما﴾ يعني والديه. ﴿يستغيثان الله﴾ أي يدعوان الله له بالهداية. أو يستغيثان بالله من كفره، فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب. وقيل: الاستغاثة الدعاء، فلا حاجة إلى الباء. قال الفراء: أجاب الله دعاءه وغواثه. ﴿ويلك آمن﴾ أي صدق بالبعث. ﴿إن وعد الله حق﴾ أي صدق لا خلف فيه. ﴿فيقول ما هذا﴾ أي ما يقوله والداه. ﴿إلا أساطير الأولين﴾ أي أحاديثهم وما سطروه مما لا أصل له. ﴿أولئك الذين حق عليهم القول﴾ يعني الذين أشار إليهم ابن أبي بكر في قوله أحيوا لي مشايخ قريش، وهم المعنيون بقوله: "وقد خلت القرون من قبلي". فأما ابن أبي بكر عبد الله أو عبد الرحمن فقد أجاب الله فيه دعاء أبيه في قوله: ﴿وأصلح لي في ذريتي﴾ (الأحقاف: ١٥) على ما تقدم. ومعنى: "حق عليهم القول" أي وجب عليهم العذاب، وهي كلمة الله: (هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي)[1]. ﴿في أمم﴾ أي مع أمم ﴿قد خلت من قبلهم﴾ تقدمت ومضت. ﴿من الجن والإنس﴾ الكافرين ﴿إنهم﴾ أي تلك الأمم الكافرة ﴿كانوا خاسرين﴾ لأعمالهم، أي ضاع سعيهم وخسروا الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ أي ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم. قال ابن زيد: درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سفالا، ودرج أهل الجنة علوا. ﴿وليوفيهم أعمالهم﴾ قرأ ابن كثير وابن محيصن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء لذكر الله قبله، وهو قوله تعالى: "إن وعد الله حق" واختاره أبو حاتم. الباقون بالنون ردا على قوله تعالى: "ووصينا الإنسان بوالديه" وهو اختيار أبي عبيد. ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا يزاد على مسيء ولا ينقص من محسن.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿ويوم يعرض﴾ أي ذكرهم يا محمد يوم يعرض. ﴿الذين كفروا على النار﴾ أي يكشف الغطاء فيقربون من النار وينظرون إليها. ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ أي يقال لهم أذهبتم، فالقول مضمر. وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير "أأذهبتم" بهمزتين مخففتين، واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو حيوة وهشام "آذهبتم" بهمزة واحدة مطولة على

(١) جزء من حديث أخرجاه في الصحيحين، وقد سبق.

الاستفهام. الباقون بهمزة واحدة من غير مد على الخبر، وكلها لغات فصيحة ومعناها التوبيخ، والعرب توبخ بالاستفهام وبغير الاستفهام، وقد تقدم. واختار أبو عبيد ترك الاستفهام لأنه قراءة أكثر أئمة السبعة نافع وعاصم وأبي عمرو وحمزة والكسائي، مع من وافقهم شيبة والزهري وابن محيصن والمغيرة بن أبي شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثاب وغيرهم، فهذه عليها جلة الناس. وترك الاستفهام أحسن، لأن إثباته يوهم أنهم لم يفعلوا ذلك، كما تقول: أنا ظلمتك؟ تريد أنا لم أظلمك. وإثباته حسن أيضا، يقول القائل: ذهبت: فعلت كذا، يوبخ ويقول: أذهبت فعلت! كل ذلك جائز. ومعنى "أذهبتم طيباتكم" أي تمتعتم بالطيبات في الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات، يعني المعاصي. ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ أي عذاب الخزي والفضيحة. قال مجاهد: الهون الهوان. قتادة: بلغة قريش. ﴿ بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ أي تستعلون على أهلها بغير استحقاق. ﴿ وبما كنتم تفسقون ﴾ في أفعالكم بغيا وظلما. وقيل: "أذهبتم طيباتكم" أي أفنيتم شبابكم في الكفر والمعاصي. قال ابن بحر: الطيبات الشباب والقوة، مأخوذ من قولهم: ذهب أطيباه، أي شبابه وقوته. قال الماوردي: ووجدت الضحاك قاله أيضا.

قلت: القول الأول أظهر، روى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب ﷺ يقول: لأنا أعلم بخفض العيش، ولو شئت لجعلت أكبادا وصلاء وصنابا وصلائق، ولكني أستبقي حسناتي، فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال: "أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها" وقال أبو عبيد في حديث عمر: لو شئت لدعوت بصلائق وصناب وكراكر وأسنمة. وفي بعض الحديث: وأفلاذ. قال أبو عمرو وغيره: الصلاء (بالمد والكسر): الشواء، سمي بذلك لأنه يصلى بالنار. والصلاء أيضا: صلاء النار، فإن فتحت الصاد قصرت وقلت: صلى النار. والصناب: الأصبغة المتخذة من الخردل والزبيب. قال أبو عمرو: ولهذا قيل للبرذون: صنابي، وإنما شبه لونه بذلك. قال: والسلائق (بالسين) هو ما يسلق من البقول وغيرها. وقال غيره: هي الصلائق بالصاد، قال جرير:

تكلفني معيشة آل زيد ومن لي بالصلائق والصناب

والصلائق: الخبز الرقاق العريض. وقد مضى هذا المعنى في (الأعراف). وأما الكراكر فكراكر الإبل، واحدتها كركرة وهي معروفة، هذا قول أبي عبيد.

وفي الصحاح: والكركرة رحى زور البعير، وهي إحدى الثفنات الخمس. والكركرة أيضا الجماعة من الناس. وأبو مالك عمرو بن كركرة رجل من علماء اللغة. قال أبو عبيد: وأما الأفلاذ فإن واحدها فلذ، وهي القطعة من الكبد. قال أعشى باهلة:

تكفيه حزة فلذ إن ألم بها من الشواء ويروي شربه الغمر

وقال قتادة: ذكر لنا أن عمر ﷺ قال: لو شئت كنت أطيبكم طعاما، وألينكم لباسا، ولكني أستبقي طيباتي للآخرة. ولما قدم عمر الشام صنع له طعام لم ير قط مثله قال: هذا لنا! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير؟ فقال خالد بن الوليد: لهم الجنة، فاغرورقت عينا عمر بالدموع وقال: لئن كان حظنا من الدنيا هذا الحطام، وذهبوا هم في حظهم بالجنة فلقد باينونا بونا بعيدا.

وفي صحيح مسلم وغيره أن عمر ﷺ دخل على النبي ﷺ وهو في مشربته حين هجر نساءه قال: فالتفت فلم أر شيئا يرد البصر إلا أهبا جلودا معطونة قد سطع ريحها، فقلت: يا رسول الله، أنت رسول الله وخيرته، وهذا كسرى وقيصر في الديباج والحرير؟ قال: فاستوى جالسا وقال: (أفي شك أنت يا ابن الخطاب. أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا) فقلت: استغفر لي فقال: (اللهم اغفر له)[١]. وقال حفص بن أبي العاص: كنت أتغدى عند عمر بن الخطاب ﷺ الخبز والزيت، والخبز والخل، والخبز واللبن، والخبز والقديد، وأقل ذلك اللحم الغريض. وكان يقول: لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كله، فجيء بخبز متفلع غليظ، فجعل يأكل ويقول: كلوا، فجعلنا لا نأكل، فقال: ما لكم لا تأكلون؟ فقلنا: والله يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا، فقال: يا بن أبي العاص أما ترى بأني عالم أن لو أمرت بعناق سمينة فيلقى عنها شعرها ثم تخرج مصلية كأنها كذا وكذا، أما ترى بأني عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله في سقاء ثم أشن عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال، فقلت: يا أمير المؤمنين، أجل ما تنعت العيش، قال: أجل! والله الذي لا إله إلا هو لولا أني أخاف أن تنقص حسناتي يوم القيامة لشاركناكم في العيش! ولكني سمعت الله تعالى يقول لأقوام: "أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها"[٢]. ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ أي الهوان. ﴿ بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ أي تتعظمون عن طاعة الله وعلى عباد الله. ﴿ وبما كنتم تفسقون ﴾ تخرجون عن طاعة الله. وقال جابر: اشتهى أهلي لحما فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب ﷺ فقال: ما هذا يا جابر؟ فأخبرته، فقال: أو كلما اشتهى أحدكم شيئا جعله في بطنه؟ أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية: "أذهبتم طيباتكم" الآية.

قال ابن العربي: وهذا عتاب منه له على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جلف الخبز والماء، فإن تعاطي الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع وتستمرئها العادة فإذا فقدتها استسهلت في تحصيلها بالشبهات حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمارة بالسوء. فأخذ عمر الأمر من أوله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله. والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه: على المرء أن يأكل ما وجد، طيبا كان أو قفارا، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة، وقد كان النبي ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمده أصلا، ولا يجعله ديدنا. ومعيشة النبي ﷺ معلومة، وطريقة الصحابة منقولة، فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير، والله يهب الإخلاص، ويعين على الخلاص برحمته. وقيل: إن التوبيخ واقع على ترك الشكر لا على تناول

---

(١) جزء من حديث إيلاء النبي ﷺ من نسائه، أخرجاه في الصحيحين، وسيأتي مبسوطا في موضعه عند تفسير سورة التحريم عند قوله: ﴿ إن تتوبا إلى الله .. ﴾.

(٢) الأثر أخرجه ابن سعد وعبد بن حميد عن حميد بن هلال قال: كان حفص... فذكره. كما في الدر المنثور (١٣٢١٢/٦).

الطيبات المحللة، وهو حسن، فإن تناول الطيب الحلال مأذون فيه، فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يحل لـه فقد أذهبه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ واذكر أخا عاد ﴾ هو هود بن عبد الله بن رباح عليه السلام، كان أخاهم في النسب لا في الدين. ﴿ إذ أنذر قومه بالأحقاف ﴾ أي اذكر لـهؤلاء المشركين قصة عاد ليعتبروا بها. وقيل: أمره بأن يتذكر في نفسه قصة هود ليقتدي به، ويهون عليه تكذيب قومه لـه. والأحقاف: ديار عاد. وهي الرمال العظام، في قول الخليل وغيره. وكانوا قهروا أهل الأرض بفضل قوتهم. والأحقاف جمع حقف، وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوج ولم يبلغ أن يكون جبلا، والجمع حقاف وأحقاف وحقوف. واحقوقف الرمل والـهلال أي اعوج. وقيل: الحقف جمع حقاف. والأحقاف جمع الجمع. ويقال: حقف أحقف. قال الأعشى:

بات إلى أرطاة حقف أحقفا

أي رمل مستطيل مشرف. والفعل منه احقوقف. قال العجاج:

طـي الليالـي زلـفا فـزلفا سماوة الـهلال حتى احقوقفا

أي انحنى واستدار. وقال امرؤ القيس:

كحقف النقا يمشي الوليدان فوقه بما احتسبا من لين مس وتسهال

وفيما أريد بالأحقاف ها هنا مختلف فيه. فقال ابن زيد: هي رمال مشرفة مستطيلة كهيئة الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبالا، وشاهده ما ذكرناه. وقال قتادة: هي جبال مشرفة بالشحر، والشحر قريب من عدن، يقال: شحْرُ عمان وشَحْرُ عمان، وهو ساحل البحر بين عمان وعدن. وعنه أيضا: ذكر لنا أن عادا كانوا أحياءً باليمن، أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لـها: الشحر. وقال مجاهد: هي أرض من حسمى تسمى بالأحقاف. وحسمى (بكسر الحاء) اسم أرض بالبادية فيها جبال شواهق ملس الجوانب لا يكاد القتام يفارقها. قال النابغة:

فأصبح عاقلا بجبال حسمى دقـاق الـترب محـتزم القتام

قالـه الجوهري. وقال ابن عباس والضحاك: الأحقاف جبل بالشام. وعن ابن عباس أيضا: واد بين عمان ومهرة. وقال مقاتل: كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بواد يقال لـه مهرة، وإليه تنسب الإبل المهرية، فيقال: إبل مهرية ومهاري. وكانوا أهل عمد سيارة في الربيع فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلـهم، وكانوا من قبيلة إرم. وقال الكلبي: أحقاف الجبل ما نضب عنه الماء زمان الغرق، كان ينضب الماء من الأرض ويبقى أثره. وروى الطفيل عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: خير واديين في الناس واد بمكة وواد نزل به آدم بأرض الـهند. وشر واديين في الناس واد بالأحقاف وواد بحضرموت يدعى برهوت تلقى فيه أرواح الكفار. وخير بئر في الناس بئر زمزم. وشر بئر في الناس بئر برهوت، وهو في ذلك الوادي الذي بحضرموت. ﴿ وقد خلت النذر ﴾ أي مضت الرسل. ﴿ من بين يديه ﴾ أي من قبل هود. ﴿ ومن خلفه ﴾ أي ومن بعده، قالـه الفراء. وفي قراءة ابن مسعود "من بين يديه

ومن بعده". ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ هذا من قول المرسل، فهو كلام معترض. ثم قال هود: ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ وقيل: "ألا تعبدوا إلا الله" من كلام هود، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَا بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمۡ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ﴾ فيه وجهان: أحدهما: لتزيلنا عن عبادتها بالإفك. الثاني: لتصرفنا عن آلهتنا بالمنع، قاله الضحاك. قال عروة بن أذينة:

إن تك عن أحسن الصنيعة مأ فوكا ففي آخرين قد أفكوا

يقول: إن لم توفق للإحسان فأنت في قوم قد صرفوا. ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ هذا يدل على أن الوعد قد يوضع موضع الوعيد. ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ أنك نبي ﴿ قال إنما العلم ﴾ بوقت مجيء العذاب. ﴿ عند الله ﴾ لا عندي ﴿ وأبلغكم ما أرسلت به ﴾ عن ربكم. ﴿ ولكني أراكم قوما تجهلون ﴾ في سؤالكم استعجال العذاب. ﴿ فلما رأوه عارضا ﴾ قال المبرد: الضمير في "رأوه" يعود إلى غير مذكور، وبينه قوله: "عارضا" فالضمير يعود إلى السحاب، أي فلما رأوا السحاب عارضا. فـ "عارضا" نصب على التكرير، سمي بذلك لأنه يبدو في عرض السماء. وقيل: نصب على الحال. وقيل: يرجع الضمير إلى قوله: "فأتنا بما تعدنا" فلما رأوه حسبوه سحابا يمطرهم، وكان المطر قد أبطأ عنهم، فلما رأوه ﴿ مستقبل أوديتهم ﴾ استبشروا. وكان قد جاءهم من واد جرت العادة أن ما جاء منه يكون غيثا، قاله ابن عباس وغيره. قال الجوهري: والعارض السحاب يعترض في الأفق، ومنه قوله تعالى: ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ أي ممطر لنا، لأنه معرفة لا يجوز أن يكون صفة لعارض وهو نكرة. والعرب إنما تفعل مثل هذا في الأسماء المشتقة من الأفعال دون غيرها. قال جرير:

يا رب غابطنا لو كان يطلبكم لاقى مباعدة منكم وحرمانا

ولا يجوز أن يقال: هذا رجل غلامنا. وقال أعرابي بعد الفطر: رب صائمة لن تصومه، وقائمة لن تقومه، فجعله نعتا للنكرة وأضافه إلى المعرفة.

قلت: قوله: (لا يجوز أن يكون صفة لعارض) خلاف قول النحويين، والإضافة في تقدير الانفصال، فهي إضافة لفظية لا حقيقية، لأنها لم تفد الأول تعريفا، بل الاسم نكرة على حاله، فلذلك جرى نعتا على النكرة. هذا قول النحويين في الآية والبيت. ونعت النكرة نكرة. و"رب" لا تدخل إلا على النكرة. ﴿ بل هو ﴾ أي قال هود لهم. والدليل عليه قراءة من قرأ "قال هود بل هو" وقرئ "قل بل ما استعجلتم به هي ريح" أي قال الله: قل بل هو ما استعجلتم به، يعني قولهم: "فأتنا بما تعدنا" ثم بين ما هو فقال: ﴿ ريح فيها عذاب أليم ﴾ والريح التي عذبوا بها نشأت من ذلك

السحاب الذي رأوه، وخرج هود من بين أظهرهم، فجعلت تحمل الفساطيط وتحمل الظعينة فترفعها كأنها جرادة، ثم تضرب بها الصخور. قال ابن عباس: أول ما رأوا العارض قاموا فمدوا أيديهم، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما، ولهم أنين، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم في البحر، فهي التي قال الله تعالى فيها: ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ أي كل شيء مرت عليه من رجال عاد وأموالها. قال ابن عباس: أي كل شيء بعثت إليه.

قوله تعالى: ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ والتدمير: الهلاك. وكذلك الدمار. وقرئ "يدمر كل شيء" من دمر دمارا. يقال: دمره تدميرا ودمارا ودمر عليه بمعنى. ودمر يدمر دمورا دخل بغير إذن. وفي الحديث: (من سبق طرفه استئذانه فقد دمر)[١] مخفف الميم. وتدمر: بلد بالشام. ويربوع تدمري إذا كان صغيرا قصيرا. ﴿ بأمر ربها ﴾ بإذن ربها. وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكا حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم[٢]. قالت: وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرف في وجهه. قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ فقال: (يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا) خرّجه مسلم[٣] والترمذي، وقال فيه: حديث حسن. وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور)[٤]. وذكر الماوردي أن القائل "هذا عارض ممطرنا" من قوم عاد: بكر بن معاوية، ولما رأى السحاب قال: إني لأرى سحابا مرمدا، لا تدع من عاد أحدا. فذكر عمرو بن ميمون أنها كانت تأتيهم بالرجل الغائب حتى تقذفه في ناديهم. قال ابن إسحاق: واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه منها إلا ما يلين أعلى ثيابهم. وتلتذ الأنفس به، وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة حتى هلكوا. وحكى الكلبي أن شاعرهم قال في ذلك:

فدعا هود عليهم ... دعوة أضحوا همودا
عصفت ريح عليهم ... تركت عادا خمودا
سخرت سبع ليال ... لم تدع في الأرض عودا

وعمر هود في قومه بعدهم مائة وخمسين سنة. ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾ قرأ عاصم وحمزة "لا يرى إلا مساكنهم" بالياء غير مسمى الفاعل. وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إلا أنه قرأ "ترى" بالتاء. وقد روي ذلك عن أبي بكر عن عاصم. الباقون "ترى" بتاء مفتوحة. "مساكنهم"

---

(١) أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٥٦٩) عن طريق الحسن مرفوعاً مرسلا.
(٢) أخرجه البخاري في "الأدب"، (٦٠٩٢).
(٣) أخرجه مسلم (٨٩٩).
(٤) أخرجاه في الصحيحين.

بالنصب، أي لا ترى يا محمد إلا مساكنهم. قال المهدوي: ومن قرأ بالتاء غير مسمى الفاعل فعلى لفظ الظاهر الذي هو المساكن المؤنثة، وهو قليل لا يستعمل إلا في الشعر. وقال أبو حاتم: لا يستقيم هذا في اللغة إلا أن يكون فيها إضمار، كما تقول في الكلام ألا ترى النساء إلا زينب. ولا يجوز لا ترى إلا زينب. وقال سيبويه: معناه لا ترى أشخاصهم إلا مساكنهم. واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة عاصم وحمزة. قال الكسائي: معناه لا يرى شيء إلا مساكنهم، فهو محمول على المعنى، كما تقول: ما قام إلا هند، والمعنى ما قام أحد إلا هند. وقال الفراء: لا يرى الناس لأنهم كانوا تحت الرمل، وإنما ترى مساكنهم لأنها قائمة. ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ أي مثل هذه العقوبة نعاقب بها المشركين.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦) ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ﴾ قيل: إن "إن" زائدة، تقديره ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه. وهذا قول القتبي. وأنشد الأخفش:

يرجي المرء ما إن لا يراه ... وتعرض دون أدناه الخطوب

وقال آخر:

فما إن طبنا جبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا

وقيل: إن "ما" بمعنى الذي. و"إن" بمعنى ما، والتقدير ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه، قاله المبرد. وقيل: شرطية وجوابها مضمر محذوف، والتقدير ولقد مكناهم في ما إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر وعنادكم أشد، وتم الكلام. ثم ابتدأ فقال: ﴿ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ﴾ يعني قلوبا يفقهون بها. ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ﴾ ما أغنت عنهم من عذاب الله. ﴿ إذ كانوا يجحدون ﴾ يكفرون ﴿ بآيات الله وحاق بهم ﴾ أحاط بهم ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ يريد حجر ثمود وقرى لوط ونحوهما مما كان يجاور بلاد الحجاز، وكانت أخبارهم متواترة عندهم. ﴿ وصرفنا الآيات ﴾ يعني الحجج والدلالات وأنواع البينات والعظات، أي بيناها لأهل تلك القرى. ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ فلم يرجعوا. وقيل: أي صرفنا آيات القرآن في الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعل هؤلاء المشركين يرجعون.

قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فلولا نصرهم ﴾ "لولا" بمعنى هلا، أي هلا نصرهم آلـهتهم التي تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لـهم حيث قالوا: ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ (يونس: ١٨) ومنعتهم من الـهلاك الواقع بهم. قال الكسائي: القربان كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من طاعة ونسيكة، والجمع قرابين، كالرهبان والرهابين. وأحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين المحذوف، والثاني "آلـهة". و"قربانا" حال، ولا يصح أن يكون "قربانا" مفعولا ثانيا. و"آلـهة" بدل منه لفساد المعنى، قالـه الزمخشري. وقرئ "قربانا" بضم الراء. ﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ أي هلكوا عنهم. وقيل: "بل ضلوا عنهم" أي ضلت عنهم آلـهتهم لأنها لم يصبها ما أصابهم، إذ هي جماد. وقيل: "ضلوا عنهم"، أي تركوا الأصنام وتبرؤوا منها. ﴿ وذلك إفكهم ﴾ أي والآلـهة التي ضلت عنهم هي إفكهم في قولـهم: إنها تقربهم إلى الله زلفى. وقراءة العامة "إفكهم" بكسر الـهمزة وسكون الفاء، أي كذبهم. والإفك: الكذب، وكذلك الأفيكة، والجمع الأفائك. ورجل أفاك أي كذاب. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن الزبير "وذلك أفكهم" بفتح الـهمزة والفاء والكاف، على الفعل، أي ذلك القول صرفهم عن التوحيد. والأفك "بالفتح" مصدر قولك: أفكه يأفكه أفكا، أي قلبه وصرفه عن الشيء. وقرأ عكرمة "أفكهم" بتشديد الفاء على التأكيد والتكثير. قال أبو حاتم: يعني قلبهم عما كانوا عليه من النعيم. وذكر المهدوي عن ابن عباس أيضا "آفكهم" بالمد وكسر الفاء، بمعنى صارفهم. وعن عبد الله بن الزبير باختلاف عنه "آفكهم" بالمد، فجاز أن يكون أفعلـهم، أي أصارهم إلى الإفك. وجاز أن يكون فاعلـهم كخادعهم. ودليل قراءة العامة "إفكهم" قولـه: ﴿ وما كانوا يفترون ﴾ أي يكذبون. وقيل "إفكهم" مثل "أفكهم". الإفْك والأَفَك كالحِذْر والحَذَر، قالـه المهدوي.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن ﴾ هذا توبيخ لمشركي قريش، أي إن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله وأنتم معرضون مصرون على الكفر. ومعنى: "صرفنا" وجهنا إليك وبعثنا. وذلك أنهم صرفوا عن استراق السمع من السماء برجوم الشهب ـ على ما يأتي ـ ولم يكونوا بعد عيسى قد صرفوا عنه إلا عند مبعث النبي ﷺ. قال المفسرون ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم: لما مات أبو طالب خرج النبي ﷺ وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة فقصد عبد ياليل ومسعودا وحبيبا وهم إخوة ـ بنو عمرو بن عمير ـ وعندهم امرأة من قريش من بني جمح، فدعاهم إلى الإيمان وسألـهم أن ينصروه على قومه فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك وقال الآخر: ما وجد الله أحدا يرسلـه غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك كلمة أبدا، إن كان الله أرسلك! كما تقول فأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، وإن كنت تكذب فما ينبغي لي أن أكلمك. ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويضحكون به، حتى اجتمع عليه الناس

وألجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة. فقال للجمحية: (ماذا لقينا من أحمائك)؟ ثم قال: (اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، لمن تكلني! إلى عبد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري! إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)(١). فرحمه ابنا ربيعة وقالا لغلام لهما نصراني يقال له عداس: خذ قطفا من العنب وضعه في هذا الطبق ثم ضعه بين يدي هذا الرجل، فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ قال النبي ﷺ (باسم الله) ثم أكل، فنظر عداس إلى وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة! فقال النبي ﷺ: (من أي البلاد أنت يا عداس وما دينك) قال: أنا نصراني من أهل نينوى. فقال له النبي ﷺ: (أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى)؟ فقال: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال: (ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي) فانكب عداس حتى قبل رأس النبي ﷺ ويديه ورجليه. فقال له ابنا ربيعة: لم فعلت هكذا؟ فقال: يا سيدي ما في الأرض خير من هذا، أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي(٢).

ثم انصرف النبي ﷺ حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان ببطن نخلة قام من الليل يصلي فمر به نفر من جن أهل نصيبين. وكان سبب ذلك أن الجن كانوا يسترقون السمع، فلما حرست السماء ورموا بالشهب قال إبليس: إن هذا الذي حدث في السماء لشيء حدث في الأرض، فبعث سراياه ليعرف الخبر، أولهم ركب نصيبين وهم أشراف الجن إلى تهامة، فلما بلغوا بطن نخلة سمعوا النبي ﷺ يصلي صلاة الغداة ببطن نخلة ويتلو القرآن، فاستمعوا له وقالوا: أنصتوا. وقالت طائفة: بل أمر النبي ﷺ أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن، فصرف الله عز وجل إليه نفرا من الجن من نينوى وجمعهم له، فقال النبي ﷺ: (إني أريد أن أقرأ القرآن على الجن الليلة فأيكم يتبعني)؟ فأطرقوا، ثم قال الثانية فأطرقوا، ثم قال الثالثة فأطرقوا، فقال ابن مسعود: أنا يا رسول الله، قال ابن مسعود: ولم يحضر معه أحد غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل النبي ﷺ شعبا يقال له (شعب الحجون) وخط لي خطا وأمرني أن أجلس فيه وقال: (لا تخرج منه حتى أعود إليك). ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن، فجعلت أرى أمثال النسور تهوي وتمشي في رفرفها، وسمعت لغطا وغمغمة حتى خفت على النبي ﷺ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، ففرغ النبي ﷺ مع الفجر فقال: (أنمت)؟ قلت: لا والله، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول اجلسوا، فقال: (لو خرجت لم آمن عليك أن يخطفك بعضهم) ثم قال: (هل رأيت شيئا)؟ قلت: نعم يا رسول الله، رأيت رجالا سودا مستثفري ثيابا بيضا، فقال: (أولئك جن نصيبين سألوني المتاع والزاد فمتعتهم بكل عظم حائل وروثة وبعرة). فقالوا: يا رسول الله يقذرها الناس علينا. فنهى

---

(١) ضعيف.

(٢) ضعيف.

رسول الله ﷺ أن يستنجى بالعظم والروث. قلت: يا نبي الله، وما يغني ذلك عنهم قال: (إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكل) فقلت: يا رسول الله، لقد سمعت لغطا شديدا؟ فقال: (إن الجن تدارأت في قتيل بينهم فتحاكموا إلي فقضيت بينهم بالحق). ثم تبرز النبي ﷺ ثم أتاني فقال: (هل معك ماء)؟ فقلت يا نبي الله، معي إداوة فيها شيء من نبيذ التمر فصببت على يديه فتوضأ فقال: (تمرة طيبة وماء طهور)[١]. روى معناه معمر عن قتادة وشعبة أيضا عن ابن مسعود. وليس في حديث معمر ذكر نبيذ التمر.

روي عن أبي عثمان النهدي أن ابن مسعود أبصر زطا فقال: ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزط. قال: ما رأيت شبههم إلا الجن ليلة الجن فكانوا مستفزين يتبع بعضهم بعضا. وذكر الدارقطني عن عبد الله ابن لـهيعة حدثني قيس بن الحجاج عن حنش عن ابن عباس عن ابن مسعود أنه وضأ النبي ﷺ ليلة الجن بنبيذ فتوضأ به وقال: (شراب وطهور)[٢]. ابن لـهيعة لا يحتج به. وبهذا السند عن ابن مسعود: أنه خرج مع النبي ﷺ ليلة الجن، فقال لـه رسول الله ﷺ: (أمعك ماء يا ابن مسعود)؟ فقال: معي نبيذ في إداوة، فقال رسول الله ﷺ: (صب علي منه). فتوضأ وقال: (هو شراب وطهور) تفرد به ابن لـهيعة وهو ضعيف الحديث. قال الدارقطني: وقيل إن ابن مسعود لم يشهد مع النبي ﷺ ليلة الجن. كذلك رواه علقمة بن قيس وأبو عبيدة بن عبد الله وغيرهما عنه أنه قال: ما شهدت ليلة الجن. حدثنا أبو محمد بن صاعد حدثنا أبو الأشعث حدثنا بشر بن المفضل حدثنا داود بن أبي هند عن عامر عن علقمة بن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود: أشهد رسول الله ﷺ أحد منكم ليلة أتاه داعي الجن؟ قال لا. قال الدارقطني: هذا إسناد صحيح لا يختلف في عدالة راويه[٣]. وعن عمرو بن مرة قال قلت لأبي عبيدة: حضر عبد الله بن مسعود ليلة الجن؟ فقال لا. قال ابن عباس: كان الجن سبعة نفر من جن نصيبين فجعلـهم النبي ﷺ رسلا إلى قومهم. وقال زر بن حبيش: كانوا تسعة أحدهم زوبعة. وقال قتادة: إنهم من أهل نينوى. وقال مجاهد: من أهل حران. وقال عكرمة: من جزيرة الموصل. وقيل: إنهم كانوا سبعة، ثلاثة من أهل نجران وأربعة من أهل نصيبين. وروى ابن أبي الدنيا أن النبي ﷺ قال في هذا الحديث وذكر فيه نصيبين فقال: (رفعت إلي حتى رأيتها فدعوت الله أن يكثر مطرها وينضر شجرها وأن يغزر نهرها)[٤]. وقال السهيلي: ويقال كانوا سبعة، وكانوا يهودا فأسلموا، ولذلك قالوا: "أنزل من بعد موسى". وقيل في أسمائهم: شاصر وماصر ومنشى وماشى والأحقب، ذكر هؤلاء الخمسة ابن دريد. ومنهم عمرو بن جابر، ذكره ابن سلام من طريق أبي

---

(١) أشار إليه الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٦٤)، وعزاه إلى البيهقي في الدلائل، وقال: "فيه غرابة شديدة". وقوله: "تمرة طيبة وماء طهور" أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود مرفوعاً بسند ضعيف، وانظر ضعيف ابن ماجه (٨٤، ٥٨).

(٢) ضعيف. رواه الدارقطني (١/ ٧٦).

(٣) سنن الدارقطني (١/ ٧٧). وروى مسلم في "الصلاة"، (٤٥٠) قول ابن مسعود: لم أكن ليلة الجن مع رسول الله ﷺ، ووددت أني كنت معه.

(٤) ضعيف.

إسحاق السبيعي عن أشياخه عن ابن مسعود أنه كان في نفر من أصحاب النبي ﷺ يمشون فرفع لهم إعصار ثم جاء إعصار أعظم منه فإذا حية قتيل، فعمد رجل منا إلى ردائه فشقه وكفن الحية ببعضه ودفنها، فلما جن الليل إذا امرأتان تسألان: أيكم دفن عمرو بن جابر؟ فقلنا: ما ندري من عمرو بن جابر! فقالتا: إن كنتم ابتغيتم الأجر فقد وجدتموه، إن فسقة الجن اقتتلوا مع المؤمنين فقتل عمرو، وهو الحية التي رأيتم، وهو من النفر الذين استمعوا القرآن من محمد ﷺ ثم ولوا إلى قومهم منذرين. وذكر ابن سلام رواية أخرى: أن الذي كفنه هو صفوان بن المعطل.

قلت: وذكر هذا الخبر الثعلبي بنحوه فقال: وقال ثابت بن قطبة جاء أناس إلى ابن مسعود فقالوا: إنا كنا في سفر فرأينا حية متشحطة في دمائها، فأخذها رجل منا فواريناها، فجاء أناس فقالوا: أيكم دفن عمرا؟ قلنا وما عمرو؟ قالوا الحية التي دفنتم في مكان كذا، أما إنه كان من النفر الذين سمعوا القرآن من النبي ﷺ وكان بين حيين من الجن مسلمين وكافرين قتال فقتل. ففي هذا الخبر أن ابن مسعود لم يكن في سفر ولا حضر الدفن، والله أعلم. وذكر ابن أبي الدنيا عن رجل من التابعين سماه: أن حية دخلت عليه في خبائه تلهث عطشا فسقاها ثم أنها ماتت فدفنها، فأتي من الليل فسلم عليه وشكر، وأخبر أن تلك الحية كانت رجلا من جن نصيبين اسمه زوبعة. قال السهيلي: وبلغنا في فضائل عمر بن عبد العزيز ﷺ مما حدثنا به أبو بكر بن طاهر الأشبيلي أن عمر بن عبد العزيز كان يمشي بأرض فلاة، فإذا حية ميتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها، فإذا قائل يقول: يا سرق، أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: (ستموت بأرض فلاة فيكفنك رجل صالح). فقال: ومن أنت يرحمك الله؟ فقال: رجل من الجن الذين استمعوا القرآن من رسول الله ﷺ لم يبق منهم إلا أنا وسرق، وهذا سرق قد مات[1]. وقد قتلت عائشة رضي الله عنها حية رأتها في حجرتها تستمع وعائشة تقرأ، فأتيت في المنام فقيل لها: إنك قتلت رجلاً مؤمنا من الجن الذين قدموا على رسول الله ﷺ، فقالت: لو كان مؤمنا ما دخل على حرم رسول الله ﷺ، فقيل لها: ما دخل عليك إلا وأنت متقنعة، وما جاء إلا ليستمع الذكر. فأصبحت عائشة فزعة، واشترت رقابا فأعتقتهم. قال السهيلي: وقد ذكرنا من أسماء هؤلاء الجن ما حضرنا، فإن كانوا سبعة فالأحقب منهم وصف لأحدهم، وليس باسم علم، فإن الأسماء التي ذكرناها آنفا ثمانية بالأحقب. والله أعلم.

قلت: وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه: هامة بن الهيم بن الأقيس بن إبليس، قيل: إنه من مؤمني الجن وممن لقي النبي ﷺ وعلمه سورة ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ (الواقعة: ١) و﴿ المرسلات ﴾ (المرسلات: ١) و﴿ عم يتساءلون ﴾ (النبأ: ١) و﴿ إذا الشمس كورت ﴾ (التكوير: ١) و﴿ الحمد ﴾ (الفاتحة: ١) و(المعوذتين) (الفلق: ١ ، والناس: ١). وذكر أنه حضر قتل هابيل وشرك في دمه وهو غلام ابن أعوام، وأنه لقي نوحا وتاب على يديه، وهودا وصالحا ويعقوب ويوسف وإلياس وموسى ابن عمران وعيسى ابن مريم عليهم السلام. وقد ذكر الماوردي أسماءهم عن مجاهد فقال: حسى ومسى ومنشى وشاصر وماصر والأرد وأنيان والأحقم. وذكرها أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السماك قال: حدثنا محمد بن البراء قال حدثنا الزبير بن بكار قال: كان حمزة بن عتبة بن أبي

---

(١) ضعيف.

لـهب يسمي جن نصيبين الذين قدموا على رسول الله ﷺ فيقول: حسى ومسى وشاصر وماصر والأفخر والأرد وأنيال.

قولـه تعالى: ﴿ فلما حضروه﴾ أي حضروا النبي ﷺ، وهو من باب تلوين الخطاب. وقيل: لما حضروا القرآن واستماعه. ﴿ قالوا أنصتوا﴾ أي قال بعضهم لبعض اسكتوا لاستماع القرآن. قال ابن مسعود: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه "قالوا أنصتوا" قالوا صه. وكانوا سبعة: أحدهم زوبعة، فأنزل الله تعالى: ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾ الآية إلى قولـه: ﴿ في ضلال مبين﴾ (الأحقاف: ٣٢). وقيل: "أنصتوا" لسماع قول رسول الله ﷺ، والمعنى متقارب. ﴿ فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين﴾ وقرأ لاحق بن حميد وخبيب بن عبد الله بن الزبير "فلما قضى" بفتح القاف والضاد، يعني النبي ﷺ قبل الصلاة. وذلك أنهم خرجوا حين حرست السماء من استراق السمع ليستخبروا ما أوجب ذلك؟ فجاؤوا وادي نخلة والنبي ﷺ يقرأ في صلاة الفجر، وكانوا سبعة، فسمعوه وانصرفوا إلى قومهم منذرين، ولم يعلم بهم النبي ﷺ. وقيل: بل أمر النبي ﷺ أن ينذر الجن ويقرأ عليهم القرآن، فصرف الله إليه نفرا من الجن ليستمعوا منه وينذروا قومهم، فلما تلا عليهم القرآن وفرغ انصرفوا بأمره قاصدين من وراءهم من قومهم من الجن، منذرين لـهم مخالفة القرآن ومحذرين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا. وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبي ﷺ، وأنه أرسلـهم. ويدل على هذا قولهم: ﴿ يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به﴾ (الأحقاف: ٣١) ولولا ذلك لما أنذروا قومهم. وقد تقدم عن ابن عباس أن النبي ﷺ جعلـهم رسلا إلى قومهم، فعلى هذا ليلة الجن ليلتان، وقد تقدم هذا المعنى مستوفى. وفي صحيح مسلم[1] ما يدل على ذلك على ما يأتي بيانه في ﴿ قل أوحي إلي﴾ (الجن: ١). وفي صحيح مسلم عن معن قال: سمعت أبي قال سألت مسروقا: من آذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك ـ يعني ابن مسعود ـ أنه آذنته بهم شجرة.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى﴾ أي القرآن، وكانوا مؤمنين بموسى. قال عطاء: كانوا يهودا فأسلموا، ولذلك قالوا: "أنزل من بعد موسى". وعن ابن عباس: أن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى، فلذلك قالت: "أنزل من بعد موسى". ﴿ مصدقا لما بين يديه﴾ يعني ما قبلـه من التوراة. ﴿ يهدي إلى الحق﴾ دين الحق. ﴿ وإلى طريق مستقيم﴾ دين الله القويـم. ﴿ يا قومنا أجيبوا داعي الله﴾ يعني محمدا ﷺ، وهذا يدل على أنه كان مبعوثا إلى الجن والإنس. قال مقاتل: ولـم يبعث الله نبيا إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٥٠).

قلت: يدل على قوله ما في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض طيبة طهورا ومسجدا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة) (١). قال مجاهد: الأحمر والأسود: الجن والإنس. وفي رواية من حديث أبي هريرة ﴿وبعثت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون﴾(٢).

قوله تعالى: ﴿وآمنوا به﴾أي بالداعي، وهو محمد ﷺ وقيل: "به" أي بالله، لقوله: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ قال ابن عباس: فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلا، فرجعوا إلى النبي ﷺ فوافقوه بالبطحاء، فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم.

مسألة: هذه الآي تدل على أن الجن كالإنس في الأمر والنهي والثواب والعقاب. وقال الحسن: ليس لمؤمني الجن ثواب غير نجاتهم من النار، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾ وبه قال أبو حنيفة قال: ليس ثواب الجن إلا أن يجاروا من النار، ثم يقال لهم: كونوا ترابا مثل البهائم. وقال آخرون: إنهم كما يعاقبون في الإساءة يجازون في الإحسان مثل الإنس. وإليه ذهب مالك والشافعي وابن أبي ليلى. وقد قال الضحاك: الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون. قال القشيري: والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشيء، والعلم عند الله.

قلت: قوله تعالى: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾(الأنعام: ١٣٢) يدل على أنهم يثابون ويدخلون الجنة، لأنه قال في أول الآية: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾إلى أن قال ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾(الأنعام: ١٣٠). والله أعلم، وسيأتي لهذا في سورة "الرحمن" مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾أي لا يفوت الله ولا يسبقه ﴿وليس له من دونه أولياء﴾أي أنصار يمنعونه من عذاب الله. ﴿أولئك في ضلال مبين﴾

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض﴾الرؤية هنا بمعنى العلم. و"أن" واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي الرؤية. ﴿ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى

---

(١) أخرجه مسلم في "المساجد"، (٥٢١).
(٢) أخرجه مسلم. الموضع السابق (٥٢٣).

بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ احتجاج على منكري البعث. ومعنى "لم يعي" يعجز ويضعف عن إبداعهن. يقال: عي بأمره وعيي إذا لم يهتد لوجهه، والإدغام أكثر. وتقول في الجمع عيوا، مخففا، وعيوا أيضا بالتشديد. قال:

عيوا بأمرهـــــم كما   عيت ببيضتها الحمامة

وعييت بأمري إذا لم تهتد لوجهه. وأعياني هو. وقرأ الحسن "ولم يعي" بكسر العين وإسكان الياء، وهو قليل شاذ، لم يأت إعلال العين وتصحيح اللام إلا في أسماء قليلة، نحو غاية وآية. ولم يأت في الفعل سوى بيت أنشده الفراء، وهو قول الشاعر:

فكأنها بين النساء سبيكة   تمشـــي بسدة بيتها فتعي

﴿ بقادر ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش: الباء زائدة للتوكيد كالباء في قولـه: ﴿ وكفى بالله شهيدا ﴾ (النساء: ١٦٦)، وقولـه: ﴿ تنبت بالدهن ﴾ (المؤمنون: ٢٠). وقال الكسائي والفراء والزجاج: الباء فيه خلف الاستفهام والجحد في أول الكلام. قال الزجاج: والعرب تدخلـها مع الجحد تقول: ما ظننت أن زيدا بقائم. ولا تقول: ظننت أن زيدا بقائم. وهو لدخول "ما" ودخول "أن" للتوكيد. والتقدير: أليس الله بقادر، كقولـه تعالى: ﴿ أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر ﴾ (يس: ٨١). وقرأ ابن مسعود والأعرج والجحدري وابن أبي إسحاق ويعقوب "يقدر" واختاره أبو حاتم، لأن دخول الباء في خبر "أن" قبيح. واختار أبو عبيد قراءة العامة، لأنها في قراءة عبد الله "خلق السموات والأرض قادر" بغير باء. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ أي ذكرهم يوم يعرضون فيقال لـهم: ﴿ أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا ﴾ فيقول لـهم المقرر: ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ أي بكفركم.

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ وقال ابن عباس: ذوو الحزم والصبر، قال مجاهد: هم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام. وهم أصحاب الشرائع. وقال أبو العالية: إن أولي العزم: نوح، وهود، وإبراهيم. فأمر الله عز وجل نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يكون رابعهم. وقال السدي: هم ستة: إبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ومحمد، صلوات الله عليهم أجمعين. وقيل: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى، وهم المذكورون على النسق في سورة "الأعراف والشعراء". وقال مقاتل: هم

ستة: نوح صبر على أذى قومه مدة. وإبراهيم صبر على النار. وإسحاق صبر على الذبح. ويعقوب صبر على فقد الولد وذهاب البصر. ويوسف صبر على البئر والسجن. وأيوب صبر على الضر. وقال ابن جريج: إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم. وقال الشعبي والكلبي ومجاهد أيضا: هم الذين أمروا بالقتال فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة. وقيل: هم نجباء الرسل المذكورون في سورة "الأنعام" وهم ثمانية عشر: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهرون، وزكرياء، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط. واختاره الحسن بن الفضل لقوله في عقبه: ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (الأنعام: ٩٠) وقال ابن عباس أيضا: كل الرسل كانوا أولي عزم. واختاره علي بن مهدي الطبري، قال: وإنما دخلت "من" للتجنيس لا للتبعيض، كما تقول: اشتريت أردية من البز وأكسية من الخز. أي اصبر كما صبر الرسل. وقيل: كل الأنبياء أولو عزم إلا يونس بن متى، ألا ترى أن النبي ﷺ نهي أن يكون مثله، لخفة وعجلة ظهرت منه حين ولى مغاضبا لقومه، فابتلاه الله بثلاث: سلط عليه العمالقة حتى أغاروا على أهله وماله، وسلط الذئب على ولده فأكله، وسلط عليه الحوت فابتلعه، قاله أبو القاسم الحكيم.

وقال بعض العلماء: أولو العزم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى بني إسرائيل بالشام فعصوهم، فأوحى الله إلى الأنبياء أني مرسل عذابي إلى عصاة بني إسرائيل؛ فشق ذلك على المرسلين فأوحى الله إليهم اختاروا لأنفسكم، إن شئتم أنزلت بكم العذاب وأنجيت بني إسرائيل، وإن شئتم نجيتكم وأنزلت العذاب ببني إسرائيل، فتشاوروا بينهم فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب وينجي الله بني إسرائيل، فأنجى الله بني إسرائيل وأنزل بأولئك العذاب. وذلك أنه سلط عليهم ملوك الأرض، فمنهم من نشر بالمناشير، ومنهم من سلخ جلدة رأسه ووجهه، ومنهم من صلب على الخشب حتى مات، ومنهم من حرق بالنار. والله أعلم. وقال الحسن: أولو العزم أربعة: إبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى، فأما إبراهيم فقيل له: ﴿ أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ (البقرة: ١٣١) ثم ابتلي في ماله وولده ووطنه ونفسه، فوجد صادقا وافيا في جميع ما ابتلي به. وأما موسى فعزمه حين قال له قومه: ﴿ إنا لمدركون. قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ (الشعراء: ٦١). وأما داود فأخطأ خطيئته فنبه عليها، فأقام يبكي أربعين سنة حتى نبتت من دموعه شجرة، فقعد تحت ظلها. وأما عيسى فعزمه أنه لم يضع لبنة على لبنة وقال: "إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها". فكأن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: اصبر، أي كن صادقا فيما ابتليت به مثل صدق إبراهيم، واثقا بنصرة مولاك مثل ثقة موسى، مهتما بما سلف من هفواتك مثل اهتمام داود، زاهدا في الدنيا مثل زهد عيسى. ثم قيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: محكمة، والأظهر أنها منسوخة، لأن السورة مكية. وذكر مقاتل: أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ يوم أحد، فأمره الله عز وجل أن يصبر على ما أصابه كما صبر أولو العزم من الرسل، تسهيلا عليه وتثبيتا له. والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ ولا تستعجل لـهم ﴾ قال مقاتل: بالدعاء عليهم. وقيل: في إحلال العذاب بهم، فإن أبعد غاياتهم يوم القيامة. ومفعول الاستعجال محذوف، وهو العذاب. ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون ﴾ قال يحيى: من العذاب. النقاش: من الآخرة. ﴿ لم يلبثوا ﴾ أي في الدنيا حتى جاءهم العذاب، وهو مقتضى قول يحيى. وقال النقاش: في قبورهم حتى بعثوا للحساب. ﴿ إلا ساعة من نهار ﴾ يعني في جنب يوم القيامة. وقيل: نساهم هول ما عاينوا من العذاب طول لبثهم في الدنيا. ثم قال: ﴿ بلاغ ﴾ أي هذا القرآن بلاغ، قالـه الحسن. فـ "بلاغ" رفع على إضمار مبتدأ، دليلـه قولـه تعالـى: ﴿ هـذا بلاغ للناس ولينذروا به ﴾ (إبراهيم: ٥٢)، وقولـه: ﴿ إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين ﴾ (الأنبياء: ١٠٦). والبلاغ بمعنى التبليغ. وقيل: أي إن ذلك اللبث بلاغ، قالـه ابن عيسى، فيوقف على هذا على "بلاغ" وعلى "نهار". وذكر أبو حاتم أن بعضهم وقف على "ولا تستعجل" ثم ابتدأ "لـهم" على معنى لـهم بلاغ. قال ابن الأنباري: وهذا خطأ، لأنك قد فصلت بين البلاغ وبين اللام، ـ وهي رافعة ـ بشيء ليس منهما. ويجوز في العربية: بلاغا وبلاغ، النصب على معنى إلا ساعة بلاغا، على المصدر أو على النعت للساعة. والخفض على معنى من نهار بلاغ. وبالنصب قرأ عيسى بن عمر والحسن. وروي عن بعض القراء "بلغ" على الأمر، فعلى هذه القراءة يكون الوقف على "من نهار" ثم يبتدئ "بلغ". ﴿ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن أمر الله، قالـه ابن عباس وغيره. وقرأ ابن محيصن "فهل يهلك إلا القوم" على إسناد الفعل إلى القوم. وقال ابن عباس: إذا عسر على المرأة ولدها تكتب هاتين الآيتين والكلمتين في صحيفة ثم تغسل وتسقى منها، وهي: بسم الله الرحمن الرحيم لا إلـه إلا الله العظيم الحليم الكريم، سبحان الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ (النازعات: ٤٦). "كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون" صدق الله العظيم. وعن قتادة: لا يهلك الله إلا هالكا مشركا. وقيل: هذه أقوى آية في الرجاء. والله أعلم.

سورة محمد

مقدمة السورة:

مدنية في قول ابن عباس، ذكره النحاس. وقال الماوردي: في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا: إلا آية منها نزلت عليه بعد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزنا عليه، فنزل عليه ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك ﴾ (محمد: ١٣). وقال الثعلبي: إنها مكية، وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد بن جبير. وهي تسع وثلاثون آية. وقيل ثمان.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد: هم أهل مكة كفروا بتوحيد الله، وصدوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه، وقاله السدي. وقال الضحاك: "عن سبيل الله" عن بيت الله بمنع قاصديه. ومعنى "أضل أعمالهم": أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ، وجعل الدائرة عليهم، قاله الضحاك. وقيل: أبطل ما عملوه في كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم، من صلة الأرحام وفك الأسارى وقرى الأضياف وحفظ الجوار. وقال ابن عباس: نزلت في المطعمين ببدر، وهم اثنا عشر رجلا: أبو جهل، والحارث بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبي وأمية ابنا خلف، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، والحارث بن عامر بن نوفل.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والذين آمنوا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار. وقال مقاتل: إنها نزلت خاصة في ناس من قريش. وقيل: هما عامتان فيمن كفر وآمن. ومعنى "أضل أعمالهم": أبطلها. وقيل: أضلهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق. ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ من قال إنهم الأنصار فهي المواساة في مساكنهم وأموالهم. ومن قال إنهم من قريش فهي الهجرة. ومن قال بالعموم فالصالحات جميع الأعمال التي ترضي الله تعالى. ﴿ وآمنوا بما نزل على محمد ﴾ لم يخالفوه في شيء، قاله سفيان الثوري. وقيل: صدقوا محمدا ﷺ فيما جاء به. ﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ يريد أن إيمانهم هو الحق من ربهم. وقيل: أي إن القرآن هو الحق من ربهم، نسخ به ما قبله ﴿ كفر عنهم سيئاتهم ﴾ أي ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان. ﴿ وأصلح بالهم ﴾ أي شأنهم، عن مجاهد وغيره. وقال قتادة: حالهم. ابن عباس: أمورهم. والثلاثة متقاربة وهي متأولة على إصلاح ما تعلق بدنياهم. وحكى النقاش أن المعنى أصلح نياتهم، ومنه قول الشاعر:

فـإن تقبلـي بالـود أقبـل بمثلـه وإن تدبري أذهب إلى حال باليا

وهو على هذا التأول محمول على صلاح دينهم. "والبال" كالمصدر، ولا يعرف منه فعل، ولا تجمعه العرب إلا في ضرورة الشعر فيقولون فيه: بالات. المبرد: قد يكون البال في موضع آخر بمعنى القلب، يقال: ما يخطر فلان على بالي، أي على قلبي. الجوهري: والبال رخاء النفس، يقال فلان رخي البال. والبال: الحال؛ يقال ما بالك. وقولـهم: ليس هذا من بالي، أي مما أباليه. والبال: الحوت العظيم من حيتان البحر، وليس بعربي. والبالة: وعاء الطيب، فارسي معرب، وأصلـه بالفارسية بيلة. قال أبو ذؤيب:

كأن عليـها بالـة لطمـــية لها من خلال الدأيتين أريج

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم﴾ "ذلك" في موضع رفع، أي الأمر ذلك، أو ذلك الإضلال والـهدى المتقدم ذكرهما سببه هذا. فالكافر اتبع الباطل، والمؤمن اتبع الحق. والباطل: الشرك. والحق: التوحيد والإيمان. ﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالـهم﴾ أي كهذا البيان الذي بين يبين الله للناس أمر الحسنات والسيئات. والضمير في "أمثالـهم" يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ لما ميز بين الفريقين أمر بجهاد الكفار. قال ابن عباس: الكفار المشركون عبدة الأوثان. وقيل: كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابي إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة، ذكره الماوردي. واختاره ابن العربي وقال: وهو الصحيح لعموم الآية فيه. "فضرب الرقاب" مصدر. قال الزجاج: أي فاضربوا الرقاب ضربا. وخص الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها. وقيل: نصب على الإغراء. قال أبو عبيدة: هو كقولك يا نفس صبرا. وقيل: التقدير اقصدوا ضرب الرقاب. وقال: "فضرب الرقاب" ولم يقل فاقتلوهم، لأن في العبارة بضرب الرقاب من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل، لما فيه من تصوير القتل بأشنع صوره، وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿حتى إذا أثخنتموهم﴾ أي أكثرتم القتل. وقد مضى في "الأنفال" عند قولـه تعالى: ﴿حتى يثخن في الأرض﴾ (الأنفال: ٦٧). ﴿فشدوا الوثاق﴾ أي إذا أسرتموهم.

والوثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدرا، يقال: أوثقته إيثاقا ووثاقا. وأما الوثاق (بالكسر) فهو اسم الشيء الذي يوثق به كالرباط؛ قاله القشيري. وقال الجوهري: وأوثقه في الوثاق أي شده، وقال تعالى: "فشدوا الوثاق". والوثاق (بكسر الواو) لغة فيه. وإنما أمر بشد الوثاق لئلا يفلتوا. ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ "فإما منا" عليهم بالإطلاق من غير فدية "وإما فداء". ولم يذكر القتل ها هنا اكتفاء بما تقدم من القتل في صدر الكلام، و"منا" و"فداء" نصب بإضمار فعل. وقرئ "فدى" بالقصر مع فتح الفاء، أي فإما أن تمنوا عليهم منا، وإما أن تفادوهم فداء.

روي عن بعضهم أنه قال: كنت واقفا على رأس الحجاج حين أتي بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة فقتل منهم نحو من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كندة فقال: يا حجاج، لا جازاك الله عن السنة والكرم خيرا قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: "فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء" في حق الذين كفروا، فوالله! ما مننت ولا فديت؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقـل الأعناق حمل المغارم

فقال الحجاج: أف لهذه الجيف أما كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام؟ خلوا سبيل من بقي. فخلي يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زهاء ألفين، بقول ذلك الرجل.

الثالثة: واختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال:

الأول: أنها منسوخة، وهي في أهل الأوثان، لا يجوز أن يفادوا ولا يمن عليهم. والناسخ لها عندهم قوله تعالى: ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (التوبة: ٥) وقوله: ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم ﴾ (الأنفال: ٥٧) وقوله: ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ (التوبة: ٣٦) الآية، قاله قتادة والضحاك والسدي وابن جريج والعوفي عن ابن عباس، وقاله كثير من الكوفيين. وقال عبد الكريم الجوزي: كتب إلى أبي بكر في أسير أسر، فذكروا أنهم التمسوه بفداء كذا وكذا، فقال اقتلوه، لقتل رجل من المشركين أحب إلي من كذا وكذا.

الثاني: أنها في الكفار جميعا. وهي منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر، منهم قتادة ومجاهد. قالوا: إذا أسر المشرك لم يجز أن يمن عليه، ولا أن يفادى به فيرد إلى المشركين، ولا يجوز أن يفادى عندهم إلا بالمرأة، لأنها لا تقتل. والناسخ لها: ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (التوبة: ٥) إذ كانت براءة آخر ما نزلت بالتوقيف، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن يؤخذ منه الجزية. وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة، خيفة أن يعودوا حربا للمسلمين. ذكر عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة "فإما منا بعد وإما فداء" قال: نسخها "فشرد بهم من خلفهم". وقال مجاهد: نسخها ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (التوبة: ٥). وهو قول الحكم.

الثالث: أنها ناسخة، قاله الضحاك وغيره. روى الثوري عن جويبر عن الضحاك: ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (التوبة: ٥) قال: نسخها "فإما منا بعد وإما فداء". وقال ابن المبارك عن ابن جريج عن عطاء: "فإما منا بعد وإما فداء" فلا يقتل المشرك ولكن يمن عليه ويفادى، كما قال

الله عز وجل. وقال أشعث: كان الحسن يكره أن يقتل الأسير، ويتلو "فإما منا بعد وإما فداء". وقال الحسن أيضا: في الآية تقديم وتأخير، فكأنه قال: فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها. ثم قال: "حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق". وزعم أنه ليس للإمام إذا حصل الأسير في يديه أن يقتله، لكنه بالخيار في ثلاثة منازل: إما أن يمن، أو يفادي، أو يسترق.

الرابع: قول سعيد بن جبير: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف، لقوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ (الأنفال: ٦٧). فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره.

الخامس: أن الآية محكمة، والإمام مخير في كل حال، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء، وهو مذهب مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأبي عبيد وغيرهم. وهو الاختيار، لأن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك، قتل النبي ﷺ عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث يوم بدر صبرا، وفادى سائر أسارى بدر، ومن على ثمامة بن أثال الحنفي وهو أسير في يده، وأخذ من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أناسا من المسلمين، وهبط عليه ﷺ قوم من أهل مكة فأخذهم النبي ﷺ ومن عليهم، وقد من على سبي هوازن. وهذا كله ثابت في الصحيح، وقد مضى جميعه في (الأنفال) وغيرها.

قال النحاس: وهذا على أن الآيتين محكمتان معمول بهما، وهو قول حسن، لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ، إذا كان يجوز أن يقع التعبد إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم؛ فإذا كان الأسر جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمن، على ما فيه الصلاح للمسلمين. وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعي وأبي عبيد، وحكاه الطحاوي مذهبا عن أبي حنيفة، والمشهور عنه ما قدمناه، وبالله عز وجل التوفيق.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ قاله مجاهد وابن جبير: هو خروج عيسى عليه السلام. وعن مجاهد أيضا: أن المعنى حتى لا يكون دين إلا دين الإسلام، فيسلم كل يهودي ونصراني وصاحب ملة، وتأمن الشاة من الذئب. ونحوه عن الحسن والكلبي والفراء والكسائي. قال الكسائي: حتى يسلم الخلق. وقال الفراء: حتى يؤمنوا ويذهب الكفر. وقال الكلبي: حتى يظهر الإسلام على الدين كله. وقال الحسن: حتى لا يعبدوا إلا الله. وقيل: معنى الأوزار السلاح، فالمعنى شدوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح. وقيل: معناه حتى تضع الحرب، أي الأعداء المحاربون أوزارهم، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة. ويقال للكراع أوزار. قال الأعشى:

وأعددت للحرب أوزارها ... رماحا طوالا وخيلا ذكورا

ومن نسج داود يحدى بها ... على أثر الحي عيرا فعيرا

وقيل: "حتى تضع الحرب أوزارها" أي أثقالها. والوزر الثقل، ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأثقال. وأثقالها السلاح لثقل حملها. قال ابن العربي: قال الحسن وعطاء: في الآية تقديم وتأخير، المعنى فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها فإذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، وليس للإمام أن يقتل

الأسير. وقد روي عن الحجاج أنه دفع أسيرا إلى عبد الله بن عمر ليقتله فأبى وقال: ليس بهذا أمرنا الله، وقرأ "حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق". قلنا: قد قاله رسول اللهﷺ وفعله، وليس في تفسير الله للمن والفداء منع من غيره، فقد بين الله في الزنى حكم الجلد، وبين النبيﷺ حكم الرجم، ولعل ابن عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال، وربك أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ "ذلك" في موضع رفع على ما تقدم، أي الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت. وقيل: هو منصوب على معنى افعلوا ذلك. ويجوز أن يكون مبتدأ، المعنى ذلك حكم الكفار. وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام، وهو كما قال تعالى: ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾ (ص: ٥٥). أي هذا حق وأنا أعرفكم أن للظالمين كذا. ومعنى: "لانتصر منهم" أي أهلكهم بغير قتال. وقال ابن عباس: لأهلكهم بجند من الملائكة. ﴿ ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ أي أمركم بالحرب ليبلو ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين والصابرين، كما في السورة نفسها. ﴿ والذين قتلوا في سبيل الله﴾ يريد قتلى أحد من المؤمنين﴿ فلن يضل أعمالهم﴾ قراءة العامة "قاتلوا" وهي اختيار أبي عبيد. وقرأ أبو عمرو وحفص "قتلوا" بضم القاف وكسر التاء، وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شدد التاء على التكثير. وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وأبو حيوة "قتلوا" بفتح القاف والتاء من غير ألف، يعني الذين قتلوا المشركين. قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد ورسول اللهﷺ في الشعب، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركون: اعل هبل. ونادى المسلمون: الله أعلى وأجل. وقال المشركون: يوم بيوم بدر والحرب سجال. فقال النبيﷺ: (قولوا لا سواء. قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون وقتلاكم في النار يعذبون). فقال المشركون: إن لنا العزى ولا عزى لكم. فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم[(١)]. وقد تقدم ذكر ذلك في (آل عمران).

قوله تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾

قال القشيري: قراءة أبي عمرو "قتلوا" بعيدة، لقوله تعالى: ﴿ سيهديهم ويصلح بالهم﴾ والمقتول لا يوصف بهذا. قال غيره: يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة، أو سيهدي من بقي منهم، أي يحقق لهم الهداية. وقال ابن زياد: سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير في القبر. قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها، ومن ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿ فلن يضل أعمالهم. سيهديهم﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ (الصافات: ٢٣) معناه فاسلكوا بهم إليها.

قوله تعالى: ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾

أي إذا دخلوها يقال لهم تفرقوا إلى منازلكم؛ فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم. قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين. وفي البخاري ما يدل على صحة هذا القول عن أبي

---

(١) ضعيف.

سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: (يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لـهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزلـه في الجنة منه بمنزلـه في الدنيا)[1]. وقيل: "عرفها لـهم" أي بينها لـهم حتى عرفوها من غير استدلال. قال الحسن: وصف الله تعالى لـهم الجنة في الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها. وقيل: فيه حذف؛ أي عرف طرقها ومساكنها وبيوتها لـهم؛ فحذف المضاف. وقيل: هذا التعريف بدليل، وهو الملك الموكل بعمل العبد يمشي بين يديه ويتبعه العبد حتى يأتي العبد منزلـه، ويعرفه الملك جميع ما جعل لـه في الجنة. وحديث أبي سعيد الخدري يرده. وقال ابن عباس: "عرفها لـهم" أي طيبها لـهم بأنواع الملاذ؛ مأخوذ من العرف، وهو الرائحة الطيبة[2]. وطعام معرف أي مطيب؛ تقول العرب: عرفت القدر إذا طيبتها بالملح والأبزار. وقال الشاعر يخاطب رجلا ويمدحه:

عرفت كإتب عرفته اللطائم

يقول: كما عرف الإتب، وهو البقير والبقيرة، وهو قميص لا كمين لـه تلبسه النساء. وقيل: هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته، يقال حرير معرف، أي بعضه على بعض، وهو من العرف المتتابع كعرف الفرس. وقيل: "عرفها لـهم" أي وفقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة. وقيل: عرف أهل السماء أنها لـهم إظهارا لكرامتهم فيها. وقيل: عرف المطيعين أنها لـهم.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾

قولـه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ﴾ أي إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار. نظيره: ﴿ولينصرن الله من ينصره ﴾(الحج: ٤٠) وقد تقدم. وقال قطرب: إن تنصروا نبي الله ينصركم الله، والمعنى واحد. ﴿ويثبت أقدامكم ﴾ أي عند القتال. وقيل على الإسلام. وقيل على الصراط. وقيل: المراد تثبيت القلوب بالأمن، فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب. وقد مضى في "الأنفال" هذا المعنى. وقال هناك: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾(الأنفال: ١٢) فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا، كقولـه تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت ﴾(السجدة: ١١) ثم نفاها بقولـه: ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ﴾ (الروم: ٤٠). ﴿الذي خلق الموت والحياة ﴾(الملك: ٢) ومثلـه كثير، فلا فاعل إلا الله وحده.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٨ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والذين كفروا فتعسا لـهم ﴾ يحتمل الرفع على الابتداء، والنصب بما يفسره "فتعسا لـهم" كأنه قال: أتعس الذين كفروا. و"تعسا لـهم" نصب على المصدر بسبيل الدعاء، قالـه الفراء، مثل سقيا لـه ورعيا. وهو نقيض لعا لـه. قال الأعشى:

---

(١) أخرجه البخاري في "الرقاق"، (٦٥٣٥).

(٢) قلت: ومنه قولـه ﷺ: "من تعلم علما مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرْف الجنة يوم القيامة، يعني: ريحها" وهو صحيح، انظر صحيح الجامع (٦١٥٩).

فالتعس أولى لـها من أن أقول لعا

وفيه عشرة أقوال: الأول: بعدا لـهم، قاله ابن عباس وابن جريج. الثاني: حزنا لـهم، قاله السدي. الثالث: شقاء لـهم، قاله ابن زيد. الرابع: شتما لـهم من الله، قاله الحسن. الخامس: هلاكا لـهم، قاله ثعلب. السادس: خيبة لـهم، قاله الضحاك وابن زيد. السابع: قبحا لـهم، حكاه النقاش. الثامن: رغما لـهم، قاله الضحاك أيضا. التاسع: شرا لـهم، قاله ثعلب أيضا. العاشر: شقوة لـهم، قاله أبو العالية. وقيل: إن التعس الانحطاط والعثار. قال ابن السكيت: التعس أن يخر على وجهه. والنكس أن يخر على رأسه. قال: والتعس أيضا الـهلاك. قال الجوهري: وأصله الكب، وهو ضد الانتعاش. وقد تعس (بفتح العين) يتعس تعسا، وأتعسه الله. قال مجمع بن هلال:

تقول وقد أفردتها من خليلـها تعسـت كما أتعستني يا مجمع

يقال: تعسا لفلان، أي ألزمه الله هلاكا. قال القشيري: وجوز قوم تعس (بكسر العين). قلت: ومنه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض) خرَّجه البخاري[1]. في بعض طرق هذا الحديث "تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش"[2] خرجه ابن ماجه.

قولـه تعالى: ﴿ وأضل أعمالـهم ﴾ أي أبطلـها لأنها كانت في طاعة الشيطان. ودخلت الفاء في قولـه: "فتعسا" لأجل الإبهام الذي في "الذين"، وجاء "وأضل أعمالـهم" على الخبر حملا على لفظ الذين، لأنه خبر في اللفظ، فدخول الفاء حملا على المعنى، "وأضل" حملا على اللفظ.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾

أي ذلك الإضلال والإتعاس، لأنهم ﴿ كرهوا ما أنزل الله ﴾ من الكتب والشرائع. ﴿ فأحبط أعمالـهم ﴾ أي ما لـهم من صور الخيرات، كعمارة المسجد وقرى الضيف وأصناف القرب، ولا يقبل الله العمل إلا من مؤمن. وقيل: أحبط أعمالـهم أي عبادة الصنم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾

بين أحوال المؤمن والكافر تنبيها على وجوب الإيمان، ثم وصل هذا بالنظر، أي ألم يسر هؤلاء في أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿ فينظروا ﴾ بقلوبهم ﴿ كيف كان ﴾ آخر أمر الكافرين قبلـهم. ﴿ دمر الله عليهم ﴾ أي أهلكهم واستأصلـهم. يقال: دمره تدميرا، ودمر عليه بمعنى. ثم تواعد مشركي مكة فقال: ﴿ وللكافرين أمثالـها ﴾ أي أمثال هذه الفعلة، يعني التدمير.

---

(١) أخرجه البخاري في "الجهاد"، (٢٨٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في "الجهاد"، (٢٨٨٧)، وابن ماجه (٤١٣٦).

وقال الزجاج والطبري: الهاء تعود على العاقبة، أي وللكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ﴾ أي وليهم وناصرهم. وفي حرف ابن مسعود "ذلك بأن الله ولي الذين آمنوا". فالمولى: الناصر ها هنا، قاله ابن عباس وغيره. قال:

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها

قال قتادة: نزلت يوم أحد والنبي ﷺ في الشعب، إذ صاح المشركون: يوم بيوم، لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: (قولوا الله مولانا ولا مولى لكم) وقد تقدم[1]. ﴿ وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ أي لا ينصرهم أحد من الله.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ تقدم في غير موضع. ﴿ والذين كفروا يتمتعون ﴾ في الدنيا كأنهم أنعام، ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم، ساهون عما في غدهم. وقيل: المؤمن في الدنيا يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. ﴿ والنار مثوى لهم ﴾ أي مقام ومنزل.

قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وكأين من قرية ﴾ تقدم الكلام في "كأين" في (آل عمران). وهي ها هنا بمعنى كم، أي وكم من قرية. وأنشد الأخفش قول لبيد:

وكائن رأينا من ملوك وسوقة ومفتاح قيد للأسير المكبل

فيكون معناه: وكم من أهل قرية ﴿ هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ﴾ أي أخرجك أهلها. ﴿ أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ قال قتادة وابن عباس: لما خرج النبي ﷺ من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: (اللهم أنت أحب البلاد إلى الله وأنت أحب البلاد إلي ولولا المشركون أهلك أخرجوني لما خرجت منك). فنزلت الآية، ذكره الثعلبي، وهو حديث صحيح[2].

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾

(١) تقدم قبل قليل من رواية قتادة، وهو في البخاري من طريق أخرى.

(٢) أخرجه عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً، كما في الدر المنثور (٦/ ٢٤)، وأصله عند مسلم وغيره.

قولـه تعالى: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ الألف ألف تقرير. ومعنى "على بينة" أي على ثبات ويقين، قاله ابن عباس. أبو العالية: وهو محمد ﷺ. والبينة: الوحي. ﴿ كمن زين لـه سوء عملـه ﴾ أي عبادة الأصنام، وهو أبو جهل والكفار. ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ أي ما اشتهوا. وهذا التزيين من جهة الله خلقا. ويجوز أن يكون من الشيطان دعاء ووسوسة. ويجوز أن يكون من الكافر، أي زين لنفسه سوء عملـه وأصر على الكفر. وقال: "سوء" على لفظ "من" "واتبعوا" على معناه.

قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ لما قال عز وجل: ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات ﴾ (الحج: ١٤) وصف تلك الجنات، أي صفة الجنة المعدة للمتقين. وقد مضى الكلام في هذا في "الرعد". وقرأ علي بن أبي طالب "مثال الجنة التي وعد المتقون". ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ أي غير متغير الرائحة. والآسن من الماء مثل الآجن. وقد أسن الماء يأسن ويأسن أسنا وأسونا إذا تغيرت رائحته. وكذلك أجن الماء يأجن ويأجن أجنا وأجونا. ويقال بالكسر فيهما: أجن وأسن يأسن ويأجن أسنا وأجنا، قالـه اليزيدي. وأسن الرجل أيضا يأسن (بالكسر لا غير) إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغشي عليه أو دار رأسه، قال زهير:

قد أترك القرن مصفرا أناملـه يميد في الرمح ميد المائح الأسن

ويروى "الوسن". وتأسن الماء تغير. أبو زيد: تأسن علي تأسنا اعتل وأبطأ. أبو عمرو: تأسن الرجل أباه أخذ أخلاقه. وقال اللحياني: إذا نزع إليه في الشبه، وقراءة العامة "آسن" بالمد. وقرأ ابن كثير وحميد "أسن" بالقصر، وهما لغتان، مثل حاذر وحذر. وقال الأخفش: أسن للحال، وآسن (مثل فاعل) يراد به الاستقبال.

قولـه تعالى: ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ أي لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة. ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ أي لم تدنسها الأرجل ولم ترنقها الأيدي كخمر الدنيا، فهي لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون. يقال: شراب لذ ولذيذ بمعنى. واستلذه عده لذيذا. ﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ العسل ما يسيل من لعاب النحل. "مصفى" أي من الشمع والقذى، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنسه النحل. وفي الترمذي عن حكيم بن معاوية عن أبيـه عن النبي ﷺ قال: (إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعـد)[1]. قال: حديث حسن صحيح. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله

(١) "صحيح" أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما، وانظر صحيح الجامع (٢١٢٢).

ﷺ: (سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة)(١). وقال كعب: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم. وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر. والعسل: يذكر ويؤنث. وقال ابن عباس: "من عسل مصفى" أي لم يخرج من بطون النحل. ﴿ ولهم فيها من كل الثمرات﴾ "من" زائدة للتأكيد. ﴿ ومغفرة من ربهم﴾ أي لذنوبهم. ﴿ كمن هو خالد في النار﴾ قال الفراء: المعنى أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار. وقال الزجاج: أي أفمن كان على بينة من ربه وأعطي هذه الأشياء كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار. فقوله: "كمن" بدل من قوله: ﴿ أفمن زين له سوء عمله﴾ (فاطر: ٨). وقال ابن كيسان: مثل هذه الجنة التي فيها الثمار والأنهار كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم. ومثل أهل الجنة في النعيم المقيم كمثل أهل النار في العذاب المقيم. ﴿ وسقوا ماء حميما﴾ أي حارا شديد الغليان، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رؤوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم. والأمعاء: جمع معى، والتثنية معيان، وهو جميع ما في البطن من الحوايا.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ومنهم من يستمع إليك﴾ أي من هؤلاء الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، وزين لهم سوء عملهم قوم يستمعون إليك وهم المنافقون: عبد الله بن أبي بن سلول ورفاعة بن التابوت وزيد بن الصليت والحارث بن عمرو ومالك بن دخشم، كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه، قاله الكلبي ومقاتل. وقيل: كانوا يحضرون عند رسول الله ﷺ مع المؤمنين، فيستمعون منه ما يقول، فيعيه المؤمن ولا يعيه الكافر. ﴿ حتى إذا خرجوا من عندك﴾ أي إذا فارقوا مجلسك. ﴿ قالوا للذين أوتوا العلم﴾ قال عكرمة: هو عبد الله بن العباس. قال ابن عباس: كنت ممن يُسأل، أي كنت من الذين أوتوا العلم. وفي رواية عن ابن عباس: أنه يريد عبد الله بن مسعود. وكذا قال عبد الله بن بريدة: هو عبد الله بن مسعود. وقال القاسم بن عبد الرحمن: هو أبو الدرداء. وقال ابن زيد: إنهم الصحابة. ﴿ ماذا قال آنفا﴾ أي الآن، على جهة الاستهزاء. أي أنا لم ألتفت إلى قوله. و"آنفا" يراد به الساعة التي هي أقرب الأوقات إليك، من قولك: استأنفت الشيء إذا ابتدأت به. ومنه أمر أنف، وروضة أنف، أي لم يرعها أحد. وكأس أنف: إذا لم يشرب منها شيء، كأنه استؤنف شربها مثل روضة أنف. قال الشاعر:

ويحرم سر جارتهم عليهم ويأكل جارهم أنف القصاع

وقال آخر:

إن الشواء والنشيل والرغف والقينة الحسناء والكأس الأنف

للطاعنين الخيل والخيل قطف

---

(١) أخرجه مسلم في "صفة الجنة"، (٢٨٣٩).

وقال امرؤ القيس:

قد غدا يحملني في أنفه

أي في أوله. وأنف كل شيء أوله. وقال قتادة في هؤلاء المنافقين: الناس رجلان: رجل عقل عن الله فانتفع بما سمع، ورجل لم يعقل ولم ينتفع بما سمع. وكان يقال: الناس ثلاثة: فسامع عامل، وسامع عاقل، وسامع غافل تارك.

قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ﴾ فلم يؤمنوا. ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ في الكفر. ﴿ والذين اهتدوا ﴾ أي للإيمان زادهم الله هدى. وقيل: زادهم النبي ﷺ هدى. وقيل: ما يستمعونه من القرآن هدى، أي يتضاعف يقينهم. وقال الفراء: زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى. وقيل: زادهم نزول الناسخ هدى. وفي الهدى الذي زادهم أربعة أقاويل: أحدها: زادهم علما، قاله الربيع ابن أنس. الثاني: أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا، قاله الضحاك. الثالث: زادهم بصيرة في دينهم وتصديقا لنبيهم، قاله الكلبي. الرابع: شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان.

قوله تعالى: ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ أي ألهمهم إياها. وقيل: فيه خمسة أوجه: أحدها: آتاهم الخشية، قاله الربيع. الثاني: ثواب تقواهم في الآخرة، قاله السدي. الثالث: وفقهم للعمل الذي فرض عليهم، قاله مقاتل. الرابع: بين لهم ما يتقون، قاله ابن زياد والسدي أيضا. الخامس: أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ، قاله عطية. الماوردي: ويحتمل. سادسا: أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم. وقرئ "وأعطاهم" بدل "وآتاهم". وقال عكرمة: هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ (١٨) ﴾

قوله تعالى: ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ﴾ أي فجأة. وهذا وعيد للكفار. ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ أي أماراتها وعلاماتها. وكانوا قد قرؤوا في كتبهم أن محمدا ﷺ آخر الأنبياء، فبعثه من أشراطها وأدلتها، قاله الضحاك والحسن. وفي الصحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (بعثت أنا والساعة كهاتين) وضم السبابة والوسطى، لفظ مسلم[(١)]. وخرّجه البخاري[(٢)] والترمذي وابن ماجه. ويروى (بعثت والساعة كفرسي رهان)[(٣)]. وقيل: أشراط الساعة أسبابها التي هي دون معظمها. ومنه يقال للدون من الناس: الشرط. وقيل: يعني علامات الساعة انشقاق القمر والدخان، قاله الحسن أيضا. وعن الكلبي: كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام، وقلة الكرام وكثرة اللئام. وقد أتينا على هذا الباب في كتاب "التذكرة" مستوفى والحمد لله. وواحد

---

(١) أخرجه مسلم في "الفتن"، (٢٩٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في "الرقاق"، (٦٥٠٣) وفيه: "ويشير بأصبعيه فيمدهما".

(٣) ذكره الحافظ في "الفتح"، (١١/ ٣٥٦) من رواية أبي ضمرة عن أبي حازم بلفظ: "ما مثلي ومثل الساعة إلا كفرسي رهان" وعزاه إلى ابن جرير.

الأشراط شرط، وأصله الأعلام. ومنه قيل الشرط، لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها. ومنه الشرط في البيع وغيره. قال أبو الأسود:

فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا ... فقد جعلت أشراط أوله تبدو

ويقال: أشرط فلان نفسه في عمل كذا أي أعلمها وجعلها له. قال أوس بن حجر يصف رجلا تدلى بحبل من رأس جبل إلى نبعة يقطعها ليتخذ منها قوسا:

فأشرط نفسه فيها وهو معصم ... وألقى بأسباب له وتوكلا

﴿أن تأتيهم بغتة﴾ "أن" بدل اشتمال من "الساعة"، نحو قوله: ﴿أن تطؤوهم﴾ (الفتح: ٢٥) من قوله: ﴿رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ (الفتح: ٢٥). وقرئ "بغتة" بوزن جربة، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها، وهي مروية عن أبي عمرو. الزمخشري: وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي عن أبي عمرو، وأن يكون الصواب "بغتة" بفتح الغين من غير تشديد، كقراءة الحسن. وروى أبو جعفر الرؤاسي وغيره من أهل مكة "إن تأتهم بغتة". قال المهدوي: ومن قرأ "إن تأتهم بغتة" كان الوقف على "الساعة" ثم استأنف الشرط. وما يحتمله الكلام من الشك مردود إلى الخلق، كأنه قال: إن شكوا في مجيئها "فقد جاء أشراطها".

قوله تعالى: ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ "ذكراهم" ابتداء و"أنى لهم" الخبر. والضمير المرفوع في "جاءتهم" للساعة، التقدير: فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة، قال معناه قتادة وغيره. وقيل: فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة، قاله ابن زيد. وفي الذكرى وجهان: أحدهما: تذكيرهم بما عملوه من خير أو شر. الثاني: هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيرا وتخويفا، روى أبان عن أنس عن النبي ﷺ قال[1]: (أحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة يا فلان قم إلى نورك يا فلان قم لا نور لك) ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ قال الماوردي: وفيه - وإن كان الرسول عالما بالله - ثلاثة أوجه: يعني اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله. الثاني: ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا. الثالث: يعني فاذكر أن لا إله إلا الله، فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه. وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به "فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك" فأمر بالعمل بعد العلم وقال: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ إلى قوله ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ (الحديد: ٢٠ - ٢١) وقال: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ (الأنفال: ٢٨). ثم قال بعد: ﴿فاحذروهم﴾ (التغابن: ١٤). وقال تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه﴾ (الأنفال: ٤١). ثم أمر بالعمل بعد.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في "تاريخ دمشق"، (٥/ ٢١٠)، وفيه أبان وهو ابن أبي عياش مولى أنس بن مالك ﷺ متروك كما في التقريب (١/ ٣١).

قولـه تعالى: ﴿ واستغفر لذنبك﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب. الثاني: استغفر الله ليعصمك من الذنوب. وقيل: لما ذكر لـه حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان، أي اثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر عما تحتاج معه إلى استغفار. وقيل: الخطاب لـه والمراد به الأمة، وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين. وقيل: كانﷺ يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين، فنزلت الآية. أي فأعلم أنه لا كاشف يكشف ما بك إلا الله، فلا تعلق قلبك بأحد سواه. وقيل: أمر بالاستغفار لتقتدي به الأمة. ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات﴾ أي ولذنوبهم. وهذا أمر بالشفاعة. وروى مسلم عن عاصم الأحْوَل عن عبد الله بن سرجس المخزومي قال: أتيت النبيﷺ وأكلت من طعامه فقلت: يا رسول الله، غفر الله لك! فقال لـه صاحبي: هل استغفر لك النبيﷺ؟ قال: نعم، ولك. ثم تلا هذه الآية: "واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات" ثم تحولت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، جمعا عليه خيلان كأنه الثآليل[(١)].

قولـه تعالى: ﴿ والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتكم. الثاني: "متقلبكم" في أعمالكم نهارا "ومثواكم" في ليلكم نياما. وقيل "متقلبكم" في الدنيا. "ومثواكم" في الدنيا والآخرة، قالـه ابن عباس والضحاك. وقال عكرمة: "متقلبكم" في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات. "ومثواكم" مقامكم في الأرض. وقال ابن كيسان: "متقلبكم" من ظهر إلى بطن الدنيا. "ومثواكم" في القبور.

قلت: والعموم يأتي على هذا كلـه، فلا يخفى عليه سبحانه شيء من حركات بني آدم وسكناتهم، وكذا جميع خلقه. فهو عالم بجميع ذلك قبل كونه جملة وتفصيلا أولى وأخرى. سبحانه! لا إلـه إلا هو.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويقول الذين آمنوا﴾ أي المؤمنون المخلصون. ﴿ لولا نزلت سورة﴾ اشتياقا للوحي وحرصا على الجهاد وثوابه. ومعنى "لولا" هلا. ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة﴾ لا نسخ فيها. قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين. وفي قراءة عبد الله "فإذا أنزلت سورة محدثة" أي محدثة النزول. ﴿ وذكر فيها القتال﴾ أي فرض فيها الجهاد. وقرئ "فإذا أنزلت سورة وذكر فيها القتال" على البناء للفاعل ونصب القتال. ﴿ رأيت الذين في قلوبهم

---

(١) أخرجه مسلم في "الفضائل"، (٢٣٤٦).

مرض ﴾ أي شك ونفاق. ﴿ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت ﴾ أي نظر مغموصين مغتاظين بتحديد وتحديق، كمن يشخص بصره عند الموت، وذلك لجبنهم عن القتال جزعا وهلعا، ولميلهم في السر إلى الكفار.

قوله تعالى: ﴿فأولى لهم ﴾ قال الجوهري: وقولهم: أولى لك، تهديد ووعيد. قال الشاعر:

فأولى ثم أولى ثم أولى وهل للدر يحلب من مرد

قال الأصمعي: معناه قاربه ما يهلكه، أي نزل به. وأنشد:

فعادى بين هاديتين منها وأولى أن يزيد على الثلاث

أي قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل أحد في "أولى" أحسن مما قال الأصمعي. وقال المبرد: يقال لمن هم بالعطب ثم أفلت: أولى لك، أي قاربت العطب. كما روي أن أعرابيا كان يوالي رمي الصيد فيفلت منه فيقول: أولى لك. ثم رمى صيدا فقاربه ثم أفلت منه فقال:

فلو كان أولى يطعم القوم صدتهم ولكن أولى يترك القوم جوعا

وقيل: هو كقول الرجل لصاحبه: يا محروم، أي شيء فاتك! وقال الجرجاني: هو مأخوذ من الويل، فهو أفعل، ولكن فيه قلب، وهو أن عين الفعل وقع موقع اللام. وقد تم الكلام على قوله: "فأولى لهم". قال قتادة: كأنه قال العقاب أولى لهم. وقيل: أي وليهم المكروه. ثم قال: ﴿طاعة وقول معروف ﴾ أي طاعة وقول معروف أمثل وأحسن، وهو مذهب سيبويه والخليل. وقيل: إن التقدير أمرنا طاعة وقول معروف، فحذف المبتدأ فيوقف على "فأولى لهم". وكذا من قدر يقولون منا طاعة. وقيل: إن الآية الثانية متصلة بالأولى. واللام في قوله: "لهم" بمعنى الباء، أي الطاعة أولى وأليق بهم، وأحق لهم من ترك امتثال أمر الله. وهي قراءة أبي "يقولون طاعة". وقيل إن: "طاعة" نعت لـ "سورة"، على تقدير: فإذا أنزلت سورة ذات طاعة، فلا يوقف على هذا على "فأولى لهم". قال ابن عباس: إن قولهم "طاعة" إخبار من الله عز وجل عن المنافقين. والمعنى لهم طاعة وقول معروف، قيل: وجوب الفرائض عليهم، فإذا أنزلت الفرائض شق عليهم نزولها. فيوقف على هذا على "فأولى". ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ أي جد القتال، أو وجب فرض القتال، كرهوه. فكرهوه جواب "إذا" وهو محذوف. وقيل: المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر. ﴿فلو صدقوا الله ﴾ أي في الإيمان والجهاد. ﴿لكان خيرا لهم ﴾ من المعصية والمخالفة.

قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض ﴾ اختلف في معنى "إن توليتم" فقيل: هو من الولاية. قال أبو العالية: المعنى فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجُعلتم حكاما أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشا. وقال الكلبي: أي فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في

الأرض بالظلم. وقال ابن جريج: المعنى فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام. وقال كعب: المعنى فهل عسيتم إن توليتم الأمر أن يقتل بعضكم بعضا. وقيل: من الإعراض عن الشيء. قال قتادة: أي فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام، وتقطعوا أرحامكم. وقيل: "فهل عسيتم" أي فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم. وقرئ بفتح السين وكسرها. وقد مضى في "البقرة" القول فيه مستوفى. وقال بكر المزني: إنها نزلت في الحرورية والخوارج، وفيه بعد. والأظهر أنه إنما عني بها المنافقون. وقال ابن حيان: قريش. ونحوه قال المسيب بن شريك والفراء، قالا: نزلت في بني أمية وبني هاشم، ودليل هذا التأويل ما روى عبد الله بن مغفل قال سمعت النبي ﷺ يقول: (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض ـ ثم قال ـ هم هذا الحي من قريش أخذ الله عليهم إن ولوا الناس ألا يفسدوا في الأرض ولا يقطعوا أرحامهم)[1]. وقرأ علي بن أبي طالب "إن توليتم أن تفسدوا في الأرض" بضم التاء والواو وكسر اللام. وهي قراءة ابن أبي إسحاق، ورواها رويس عن يعقوب. يقول: إن وليتكم ولاة جائرة خرجتم معهم في الفتنة وحاربتموهم.

قوله تعالى: ﴿ وتقطعوا أرحامكم ﴾ بالبغي والظلم والقتل. وقرأ يعقوب وسلام وعيسى وأبو حاتم "وتقطعوا" بفتح التاء وتخفيف القاف، من القطع، اعتبارا بقوله تعالى: ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ (البقرة: ٢٧). وروى هذه القراءة هارون عن أبي عمرو. وقرأ الحسن "وتقطعوا" مفتوحة الحروف مشددة، اعتبارا بقوله تعالى: ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ (الأنبياء: ٩٣). الباقون "وتقطعوا" بضم التاء مشددة الطاء، من التقطيع على التكثير، وهو اختيار أبي عبيد. وتقدم ذكر ﴿ عسيتم ﴾ (البقرة: ٢٤٦) في (البقرة). وقال الزجاج في قراءة نافع: لو جاز هذا لجاز "عَسِي" بالكسر. قال الجوهري: ويقال عسيت أن أفعل ذلك، وعسيت بالكسر. وقرئ "فهل عَسِيتَم" بالكسر.

قلت: ويدل قوله هذا على أنهما لغتان. وقد مضى القول فيه في "البقرة" مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين لعنهم الله ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته. ﴿ فأصمهم ﴾ عن الحق. ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ أي قلوبهم عن الخير. فأتبع الأخبار بأن من فعل ذلك حقت عليه لعنته، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل. وقال: "فهل عسيتم" ثم قال: "أولئك الذين لعنهم الله" فرجع من الخطاب إلى الغيبة على عادة العرب في ذلك.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ أي يتفهمونه فيعلمون ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الإسلام. ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ أي بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون. وهذا يرد على القدرية والإمامية مذهبهم. وفي حديث مرفوع أن النبي ﷺ قال: (إن عليها

---

(١) ذكره الحافظ في "الفتح"، (٨/ ٤٤٥)، وعزاه إلى الطبري في تهذيبه، وجعله شاهداً لمن أول قوله: ﴿ إن توليتم ﴾ على أنها الولاية.

أقفالا كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها)[1] . وأصل القفل اليبس والصلابة. ويقال لما يبس من الشجر: القفل. والقفيل مثله. والقفيل أيضا نبت. والقفيل: الصوت. قال الراجز:

لما أتاك يابسا قرشبا قمت إليه بالقفيل ضربا
كيف قريت شيخك الأزبا

القِرْشَبُّ (بكسر القاف) المسن، عن الأصمعي. وأقفله الصوم أي أيبسه، قاله القشيري والجوهري. فالأقفال ها هنا إشارة إلى ارتجاج القلب وخلوه عن الإيمان. أي لا يدخل قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر، لأن الله تعالى طبع على قلوبهم وقال: "على قلوب" لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة. والمراد أم على قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها.

الثالثة: في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت هذا مقام العائذ من القطيعة قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك قالت بلى قال فذاك لك - ثم قال رسول الله ﷺ - اقرؤوا إن شئتم "فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها")[2] . وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار. وقال قتادة وغيره: معنى الآية فلعلكم، أو يخاف عليكم، إن أعرضتم عن الإيمان أن تعودوا إلى الفساد في الأرض لسفك الدماء. قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى؟ ألم يسفكوا الدماء الحرام ويقطعوا الأرحام وعصوا الرحمن. فالرحم على هذا رحم دين الإسلام والإيمان، التي قد سماها الله إخوة بقوله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (الحجرات: ١٠). وعلى قول الفراء أن الآية نزلت في بني هاشم وبني أمية، والمراد من أضمر منهم نفاقا، فأشار بقطع الرحم إلى ما كان بينهم وبين النبي ﷺ من القرابة بتكذيبهم النبي ﷺ. وذلك يوجب القتال. وبالجملة فالرحم على وجهين: عامة وخاصة، فالعامة رحم الدين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم، والنصفة في معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة، كتمريض المرضى وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم. وأما الرحم الخاصة وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة، كالنفقة وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم، وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب. وقال بعض أهل العلم: إن الرحم التي تجب صلتها هي كل رحم محرم وعليه فلا تجب في بني الأعمام وبني الأخوال. وقيل: بل هذا في كل رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوي الأرحام في المواريث، محرما كان أو غير محرم. فيخرج من هذا أن رحم الأم

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عروة مرسلا بلفظ: "قال رسول الله ﷺ (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) فقال شاب من أهل اليمن بل عليها أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرجها.
وأخرجه الدارقطني في الأفراد وابن مردويه عن سهل بن سعد مرفوعاً بنحوه كما في الدر المنثور (٦/ ٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٣٠)، وفي مواضع أخر من صحيحه، ومسلم (٢٥٥٤).

التي لا يتوارث بها لا تجب صلتهم ولا يحرم قطعهم. وهذا ليس بصحيح، والصواب أن كل ما يشمله ويعمه الرحم تجب صلته على كل حال، قربة ودينية، على ما ذكرناه أولا والله أعلم. قد روى أبو داود الطيالسي في مسنده قال: حدثنا شعبة قال أخبرني محمد بن عبد الجبار قال سمعت محمد بن كعب القرظي يحدث عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن للرحم لسانا يوم القيامة تحت العرش يقول يا رب قطعت يا رب ظلمت يا رب أسيء إلي فيجيبها ربها ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك)[1]. وفي صحيح مسلم عن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ قال: (لا يدخل الجنة قاطع)[2]. قال ابن أبي عمر قال سفيان: يعني قاطع رحم. ورواه البخاري.

الرابعة: قوله ﷺ: (إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم . . .) "خلق" بمعنى اخترع وأصله التقدير، كما تقدم. والخلق هنا بمعنى المخلوق. ومنه قوله تعالى: ﴿هذا خلق الله﴾(لقمان: ١١) أي مخلوقه. ومعنى (فرغ منهم) كمل خلقهم. لا أنه اشتغل بهم ثم فرغ من شغله بهم، إذ ليس فعله بمباشرة ولا مناولة، ولا خلقه بآلة ولا محاولة، تعالى عن ذلك. وقوله: "قامت الرحم فقالت" يحمل على أحد وجهين: أحدهما: أن يكون الله تعالى أقام من يتكلم عن الرحم من الملائكة فيقول ذلك، وكأنه وكل بهذه العبادة من يناضل عنها ويكتب ثواب من وصلها ووزر من قطعها، كما وكل الله بسائر الأعمال كراما كاتبين، وبمشاهدة أوقات الصلوات ملائكة متعاقبين. وثانيهما: أن ذلك على جهة التقدير والتمثيل المفهم للإعياء وشدة الاعتناء. فكأنه قال: لو كانت الرحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام، كما قال تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾ ثم قال ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ (الحشر: ٢١). وقوله: (فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة) مقصود هذا الكلام الإخبار بتأكد أمر صلة الرحم، وأن الله سبحانه قد نزلها بمنزلة من استجار به فأجاره، وأدخله في ذمته وخفارته. وإذا كان كذلك فجار الله غير مخذول وعهده غير منقوض. ولذلك قال مخاطبا للرحم: (أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك). وهذا كما قال ﷺ: (ومن صلى الصبح فهو في ذمة الله تعالى فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فإنه من يطلبه بذمته بشيء يدركه ثم يكبه في النار على وجهه)[3].

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم﴾ قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب، كفروا بالنبي ﷺ بعدما عرفوا نعته عندهم، قاله ابن جريج. وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون، قعدوا عن القتال بعدما علموه في القرآن. ﴿الشيطان سول لهم﴾ أي زين لهم خطاياهم، قاله

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة والحاكم وصححه والبيهقي كما في "الدر المنثور"، (٦/ ٤٩).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٦).
(٣) أخرجه مسلم (٦٥٧).

الحسن. ﴿ وأملى لهم﴾ أي مد لـهم الشيطان في الأمل ووعدهم طول العمر، عن الحسن أيضا. وقال: إن الذي أملى لـهم في الأمل ومد في آجالـهم هو الله عز وجل، قالـه الفراء والمفضل. وقال الكلبي ومقاتل: إن معنى "أملى لـهم" أمهلـهم، فعلى هذا يكون الله تعالى أملى لـهم بالإمهال في عذابهم. وقرأ أبو عمرو وابن إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة "وأملي لـهم" بضم الـهمزة وكسر اللام وفتح الياء، على ما لم يسم فاعلـه. وكذلك قرأ ابن هرمز ومجاهد والجحدري ويعقوب، إلا أنهم سكنوا الياء على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم، كأنه قال: وأنا أملي لـهم. واختاره أبو حاتم، قال: لأن فتح الـهمزة يوهم أن الشيطان يملي لـهم، وليس كذلك، فلـهذا عدل إلى الضم. قال المهدوي: ومن قرأ "وأملى لـهم" فالفاعل اسم الله تعالى. وقيل الشيطان. واختار أبو عبيد قراءة العامة، قال: لأن المعنى معلوم، لقولـه: ﴿ لتؤمنوا بالله ورسولـه وتعزروه وتوقروه وتسبحوه﴾ (الفتح: ٩) رد التسبيح على اسم الله، والتوقير والتعزير على اسم الرسول.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ذلك بأنهم قالوا﴾ أي ذلك الإملاء لـهم حتى يتمادوا في الكفر بأنهم قالوا، يعني المنافقين واليهود. ﴿ للذين كرهوا ما نزل الله﴾ وهم المشركون. ﴿ سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم﴾ أي في مخالفة محمد والتظاهر على عداوته، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره في السر. وهم إنما قالوا ذلك سرا فأخبر الله نبيه. وقراءة العامة "أسرارهم" بفتح الـهمزة جمع سر، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ الكوفيون وابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم "إسرارهم" بكسر الـهمزة على المصدر، نحو قولـه تعالى: ﴿ وأسررت لـهم إسرارا﴾ (نوح: ٩) جمع لاختلاف ضروب السر.

قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ فكيف﴾ أي فكيف تكون حالـهم. ﴿ إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ أي ضاربين، فهو في موضع الحال. ومعنى الكلام التخويف والتهديد، أي إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر. وقد مضى في "الأنفال والنحل". وقال ابن عباس: لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه. وقيل: ذلك عند القتال نصرة لرسول الله ﷺ، بضرب الملائكة وجوههم عند الطلب وأدبارهم عند الـهرب. وقيل: ذلك في القيامة عند سوقهم إلى النار.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ذلك﴾ أي ذلك جزاؤهم. ﴿ بأنهم اتبعوا ما أسخط الله﴾ قال ابن عباس: هو كتمانهم ما في التوراة من نعت محمد ﷺ. وإن حملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر. ﴿ وكرهوا رضوانه﴾ يعني الإيمان. ﴿ فأحبط أعمالـهم﴾ أي ما عملوه من صدقة وصلة رحم وغير ذلك، على ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض﴾ نفاق وشك، يعني المنافقين. ﴿أن لن يخرج الله أضغانهم﴾ الأضغان ما يضمر من المكروه. واختلف في معناه، فقال السدي: غشهم. وقال ابن عباس: حسدهم. وقال قطرب: عداوتهم، وأنشد قول الشاعر:

قل لابن هند ما أردت بمنطق ساء الصديق وشيد الأضغانا

وقيل: أحقادهم. واحدها ضغن. قال:

وذي ضغن كففت النفس عنه

وقد تقدم. وقال عمرو بن كلثوم:

وإن الضغن بعد الضغن يفشو عليك ويخـرج الـداء الدفينا

قال الجوهري: الضغن والضغينة: الحقد. وقد ضغن عليه (بالكسر) ضغنا. وتضاغن القوم واضطغنوا: أبطنوا على الأحقاد. واضطغنت الصبي إذا أخذته تحت حضنك. وأنشد الأحمر:

كأنه مضطغن صبيا

أي حامله في حجره. وقال ابن مقبل:

إذا اضطغنت سلاحي عند مغرضها ومرفق كرئـاس السـيف إذ شسفا

وفرس ضاغن: لا يعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب. والمعنى: أم حسبوا أن لن يظهر الله عداوتهم وحقدهم لأهل الإسلام. ﴿ولو نشاء لأريناكهم﴾ أي لعرفناكهم. قال ابن عباس: وقد عرفه إياهم في سورة "التوبة". تقول العرب: سأريك ما أصنع، أي سأعلمك، ومنه قولـه تعالى: ﴿بما أراك الله﴾ (النساء: ١٠٥) أي بما أعلمك. ﴿فلعرفتهم بسيماهم﴾ أي بعلاماتهم. قال أنس: ما خفي على النبي ﷺ بعد هذه الآية أحد من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم. وقد كنا في غزاة وفيها سبعة من المنافقين يشك فيهم الناس، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب (هذا منافق) فذلك سيماهم. وقال ابن زيد: قدر الله إظهارهم وأمر أن يخرجوا من المسجد فأبوا إلا أن يتمسكوا بلا إلـه إلا الله، فحقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها. ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ أي في فحواه ومعناه. ومنه قول الشاعر:

وخير الكلام ما كان لحنا

أي ما عرف بالمعنى ولم يصرح به. مأخوذ من اللحن في الإعراب، وهو الذهاب عن الصواب، ومنه قول النبي ﷺ: (إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض)[1] أي أذهب بها في الجواب لقوته على تصريف الكلام. أبو زيد: لحنت لـه (بالفتح) ألحن لحنا إذا قلت لـه قولا يفهمه

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣).

عنك ويخفى على غيره. ولحنه هو عني (بالكسر) يلحنه لحنا أي فهمه. وألحنته أنا إياه، ولاحنت الناس فاطنتهم، قال الفزاري:

وحديث ألذه هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق رائع وتلحن أحيانا وخير الحديث ما كان لحنا

يريد أنها تتكلم بشيء وهي تريد غيره، وتعرض في حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها. وقد قال تعالى: "ولتعرفنهم في لحن القول". وقال القتال الكلابي:

. ولقد وحيت لكم لكيما تفهموا ولحنت لحنا ليس بالمرتاب

وقال مرار الأسدي:

ولحنت لحنا فيه غش ورابني صدودك ترضين الوشاة الأعاديا

قال الكلبي: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافق إلا عرفه. وقيل: كان المنافقون يخاطبون النبي ﷺ بكلام تواضعوه فيما بينهم، والنبي ﷺ يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد، فنبهه الله تعالى عليه، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم. قال أنس: فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ، عرفه الله ذلك بوحي أو علامة عرفها بتعريف الله إياه. ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ أي لا يخفى عليه شيء منها.

قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولنبلونكم ﴾ أي نتعبدكم بالشرائع وإن علمنا عواقب الأمور. وقيل: لنعاملنكم معاملة المختبرين. ﴿ حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾ عليه. قال ابن عباس: "حتى نعلم" حتى نميز. وقال علي ﷺ: "حتى نعلم" حتى نرى. وقد مضى في "البقرة". وقراءة العامة بالنون في "نبلونكم" و"نعلم" "ونبلو". وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهن. وروى رويس عن يعقوب إسكان الواو من "نبلو" على القطع مما قبل. ونصب الباقون ردا على قوله: "حتى نعلم". وهذا العلم هو العلم الذي يقع به الجزاء، لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم. فتأويله: حتى نعلم المجاهدين علم شهادة، لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة. ﴿ونبلو أخباركم﴾ نختبرها ونظهرها. قال إبراهيم بن الأشعث: كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴾ يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود. وقال ابن عباس: هم المطعمون يوم بدر. نظيرها: ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾

(الأنفال: ٣٦) الآية. ﴿وشاقوا الرسول ﴾أي عادوه وخالفوه. ﴿من بعد ما تبين لـهم الـهدى ﴾ أي علموا أنه نبي بالحجج والآيات. ﴿لن يضروا الله شيئا ﴾بكفرهم. ﴿وسيحبط أعمالـهم ﴾أي ثواب ما عملوه.

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾لما بين حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة في أوامره والرسول في سننه. ﴿ولا تبطلوا أعمالكم ﴾أي حسناتكم بالمعاصي، قالـه الحسن. وقال الزهري: بالكبائر. ابن جريج: بالرياء والسمعة. وقال مقاتل والثمالي: بالمن، وهو خطاب لمن كان يمن على النبي ﷺبإسلامه. وكلـه متقارب، وقول الحسن يجمعه. وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات، والمعاصي تخرج عن الإيمان.

الثانية: احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوع ـ صلاة كان أو صوما ـ بعد التلبس به لا يجوز، لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه. وقال من أجاز ذلك ـ وهو الإمام الشافعي وغيره ـ: المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض، فنهي الرجل عن إحباط ثوابه. فأما ما كان نفلا فلا، لأنه ليس واجبا عليه. فإن زعموا أن اللفظ عام فالعام يجوز تخصيصه ووجه تخصيصه أن النفل تطوع، والتطوع يقتضي تخييرا. وعن أبي العالية كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب، حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تحبط الأعمال. وقال مقاتل: يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾

بين أن الاعتبار بالوفاة على الكفر يوجب الخلود في النار. وقد مضى في "البقرة" الكلام فيه. وقيل: إن المراد بالآية أصحاب القليب. وحكمها عام.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿فلا تهنوا ﴾أي تضعفوا عن القتال. والوهن: الضعف. وقد وهن الإنسان ووهنه غيره، يتعدى ولا يتعدى. قال:

إنني لست بموهون فقر

ووهن أيضا (بالكسر) وهنا أي ضعف، وقرئ "فما وهنوا" بضم الـهاء وكسرها. وقد مضى في (آل عمران).

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ وتدعوا إلى السلم﴾ أي الصلح. ﴿ وأنتم الأعلون﴾ أي وأنتم أعلم بالله منهم. وقيل: وأنتم الأعلون في الحجة. وقيل: المعنى وأنتم الغالبون لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم في الظاهر في بعض الأحوال. وقال قتادة: لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها.

الثالثة: واختلف العلماء في حكمها، فقيل: إنها ناسخة لقوله تعالى: ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لـها﴾ (الأنفال: ٦١)، لأن الله تعالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح. وقيل: منسوخة بقوله تعالى: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لـها". وقيل: هي محكمة. والآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال. وقيل: إن قولـه: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لـها" مخصوص في قوم بأعيانهم، والأخرى عامة. فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين. وقد مضى هذا المعنى مستوفى. ﴿ والله معكم﴾ أي بالنصر والمعونة، مثل: ﴿ وإن الله لمع المحسنين﴾ (العنكبوت: ٦٩): ﴿ ولن يتركم أعمالكم﴾ أي لن ينقصكم، عن ابن عباس وغيره. ومنه الموتور الذي قتل لـه قتيل فلم يدرك بدمه، تقول منه: وتره يتره وترا وترة. ومنه قولـهﷺ: (من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهلـه[1] ومالـه) أي ذهب بهما. وكذلك وتره حقه أي نقصه. وقوله تعالى: "ولن يتركم أعمالكم" أي لن ينتقصكم في أعمالكم، كما تقول: دخلت البيت، وأنت تريد في البيت، قالـه الجوهري. الفراء: "ولن يتركم" هو مشتق من الوتر وهو الفرد، فكان المعنى: ولن يفردكم بغير ثواب.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ تقدم في "الأنعام. ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم﴾ شرط وجوابه. ﴿ ولا يسألكم أموالكم﴾ أي لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة، بل أمر بإخراج البعض، قالـه ابن عيينة وغيره. وقيل: "لا يسألكم أموالكم" لنفسه أو لحاجة منه إليها، إنما يأمركم بالإنفاق في سبيلـه ليرجع ثوابه إليكم. وقيل: "لا يسألكم أموالكم" إنما يسألكم أموالـه، لأنه المالك لـها وهو المنعم بإعطائها. وقيل: ولا يسألكم محمد أموالكم أجرا على تبليغ الرسالة. نظيره: ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر﴾ (الفرقان: ٥٧) الآية.

قولـه تعالى: ﴿ إن يسألكموها فيحفكم﴾ يلح عليكم، يقال: أحفى بالمسألة وألحف وألح بمعنى واحد. والحفي المستقصي في السؤال، وكذلك الإحفاء الاستقصاء في الكلام والمنازعة. ومنه أحفى شاربه أي استقصى في أخذه. ﴿ تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾ أي يخرج البخل أضغانكم. قال قتادة: قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن وحميد "وتخرج" بتاء مفتوحة وراء مضمومة. "أضغانكم" بالرفع لكونه الفاعل. وروى الوليد عن يعقوب الحضرمي "ونخرج" بالنون. وأبو معمر عن عبد الوارث عن أبي عمرو "ويخرج" بالرفع في الجيم على القطع والاستئناف والمشهور عنه "ويخرج" كسائر القراء، عطف على ما تقدم.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦).

قوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون ﴾ أي ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون ﴿ لتنفقوا في سبيل الله ﴾ أي في الجهاد وطريق الخير. ﴿ فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ﴾ أي على نفسه، أي يمنعها الأجر والثواب. ﴿ والله الغني ﴾ أي إنه ليس بمحتاج إلى أموالكم. ﴿ وأنتم الفقراء ﴾ إليها. ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ أي أطوع لله منكم. روى الترمذي عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية "وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم" قالوا: ومن يستبدل بنا؟ قال: فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثم قال: (هذا وقومه. هذا وقومه) قال: حديث غريب في إسناده مقال[١]. وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد علي بن المديني أيضا هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يا رسول الله، من هؤلاء الذين ذكر الله إن تولينا استبدلوا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: وكان سلمان جنب رسول الله ﷺ قال: فضرب رسول الله ﷺ فخذ سلمان، قال: (هذا وأصحابه. والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس)[٢]. وقال الحسن: هم العجم. وقال عكرمة: هم فارس والروم. قال المحاسبي: فلا أحد بعد العربي من جميع أجناس الأعاجم أحسن دينا، ولا كانت العلماء منهم إلا الفرس. وقيل: إنهم اليمن، وهم الأنصار، قاله شريح بن عبيد. وكذا قال ابن عباس: هم الأنصار. وعنه أنهم الملائكة. وعنه هم التابعون. وقال مجاهد: إنهم من شاء من سائر الناس. ﴿ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ قال الطبري: أي في البخل بالإنفاق في سبيل الله. وحكي عن أبي موسى الأشعري أنه لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله ﷺ وقال: (هي أحب إلي من الدنيا). والله أعلم.

ختمت السورة بحمد الله وعونه، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الأطهار.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣١٣ـ أحوذي)، وفي سنده مجهول.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣١٤ـ أحوذي)، وعبد الله بن جعفر بن نجيح والد علي بن المديني ضعيف. وأخرجاه بنحوه في الصحيحين.

سورة الفتح

مقدمة السورة:

مدنية بإجماع، وهي تسع وعشرون آية. ونزلت ليلا بين مكة والمدينة في شأن الحديبية. روى محمد ابن إسحاق عن الزهري عن عروة عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها[١]. وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر بن الخطاب: ثكلت أم عمر، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لم يجبك، فقال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال: (لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ـ ثم قرأ ـ "إنا فتحنا لك فتحا مبينا") لفظ البخاري[٢]. وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت: "إنا فتحنا لك فتحا مبينا. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ـ إلى قوله ـ فوزا عظيما" مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية، فقال: (لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعا)[٣]. وقال عطاء عن ابن عباس: إن اليهود شتموا النبي ﷺ والمسلمين لما نزل قوله تعالى: ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ (الأحقاف: ٩) وقالوا: كيف نتبع رجلا لا يدري ما يفعل به! فاشتد ذلك على النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: "إنا فتحنا لك فتحا مبينا. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر"[٤]. ونحوه قال مقاتل بن سليمان: لما نزل قوله تعالى: ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ (الأحقاف: ٩) فرح المشركون والمنافقون وقالوا: كيف نتبع رجلا لا يدري ما يفعل به ولا بأصحابه، فنزلت بعدما رجع من الحديبية: "إنا فتحنا لك فتحا مبينا"[٥] أي قضينا لك قضاء. فنسخت هذه الآية تلك. فقال النبي ﷺ: (لقد أنزلت علي سورة ما يسرني بها حمر النعم). وقال المسعودي: بلغني أنه من قرأ سورة الفتح في أول ليلة من رمضان في صلاة التطوع حفظه الله ذلك العام[٦].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥٩)، وقال: "صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه". وأقره الذهبي.
(٢) أخرجه البخاري في "التفسير"، (٤٨٣٣).
(٣) أخرجه مسلم في "الجهاد"، (١٧٨٦).
(٤) ذكره الواحدي في "أسباب النزول"، (٢٥٨).
(٥) مقاتل بن سليمان كذبوه وهجروه، ورمي بالتجسيم.
(٦) هذا قول عار عن الدليل.

اختلف في هذا الفتح ما هو؟ ففي البخاري حدثني محمد بن بشار قال حدثنا غندر قال حدثنا شعبة قال سمعت قتادة عن أنس "إنا فتحنا لك فتحا مبينا" قال: الحديبية. وقال جابر: ما كنا نعد فتح مكة إلا يوم الحديبية[١]. وقال الفراء: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا نعد مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر. وقال الضحاك: "إنا فتحنا لك فتحا مبينا" بغير قتال. وكان الصلح من الفتح. وقال مجاهد: هو منحره بالحديبية وحلقه رأسه. وقال: كان فتح الحديبية آية عظيمة، نزح ماؤها فمج فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه. وقال موسى بن عقبة: قال رجل عند منصرفهم من الحديبية: ما هذا بفتح، لقد صدونا عن البيت. فقال النبي ﷺ: (بل هو أعظم الفتوح قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا). وقال الشعبي في قوله تعالى: "إنا فتحنا لك فتحا مبينا" قال: هو فتح الحديبية، لقد أصاب فيها ما لم يصب في غزوة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبويع بيعة الرضوان، وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهدي محله، وظهرت الروم على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. وقال الزهري: لقد كان الحديبية أعظم الفتوح، وذلك أن النبي ﷺ جاء إليها في ألف وأربعمائة، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم في بعض وعلموا وسمعوا عن الله، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه، فما مضت تلك السنتان إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف. وقال مجاهد أيضا والعوفي: هو فتح خيبر. والأول أكثر، وخيبر إنما كانت وعدا وعدوه، على ما يأتي بيانه في قوله تعالى: ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم ﴾ (الفتح: ١٠) وقوله: ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ﴾ (الفتح: ٢٠). وقال مجمع بن جارية ـ وكان أحد القراء الذين قرؤوا القرآن ـ: شهدنا الحديبية مع النبي ﷺ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر، فقال بعض الناس لبعض: ما بال الناس؟ قالوا: أوحى الله إلى النبي ﷺ. قال: فخرجنا نوجف فوجدنا نبي الله ﷺ عند كراع الغميم، فلما اجتمع الناس قرأ النبي ﷺ "إنا فتحنا لك فتحا مبينا" فقال عمر بن الخطاب: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: (نعم، والذي نفسي بيده إنه لفتح)[٢]. فقسمت خيبر على أهل الحديبية، لم يدخل أحد إلا من شهد الحديبية. وقيل: إن قوله تعالى: "فتحا" يدل على أن مكة فتحت عنوة، لأن اسم الفتح لا يقع مطلقا إلا على ما فتح عنوة. هذا هو حقيقة الاسم. وقد يقال: فتح البلد صلحا، فلا يفهم الصلح إلا بأن يقرن بالفتح، فصار الفتح في الصلح مجازا. والأخبار دالة على أنها فتحت عنوة، وقد مضى القول فيها، ويأتي.

قوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾

قال ابن الأنباري: "فتحا مبينا" غير تام، لأن قوله: "ليغفر لك الله ما تقدم" متعلق بالفتح. كأنه قال: إنا فتحنا لك فتحا مبينا لكي يجمع الله لك مع الفتح المغفرة، فيجمع الله لك به ما تقر به

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٤).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥٩) وقال: "صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه". وتعقبه الذهبي بقوله: "قلت: لم يرو مسلم لمجمع شيئا ولا لأبيه وهما ثقتان".

عينك في الدنيا والآخرة. وقال أبو حاتم السجستاني: هي لام القسم. وهذا خطأ، لأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها، ولو جاز هذا الجاز: ليقوم زيد، بتأويل ليقومن زيد. الزمخشري: فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قلت: لم يجعل علة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة، وهي: المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز. كأنه قال يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك ليجمع لك عز الدارين وأعراض العاجل والآجل. ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو سببا للغفران والثواب. وفي الترمذي عن أنس قال: أنزلت على النبي ﷺ "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر" مرجعه من الحديبية، فقال النبي ﷺ (لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على وجه الأرض). ثم قرأها النبي ﷺ عليهم، فقالوا: هنيئا مريئا يا رسول الله، لقد بين الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا، فنزلت عليه: "ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ـ حتى بلغ ـ فوزا عظيما" قال حديث حسن صحيح [(١)]. وفيه عن مجمع ابن جارية. واختلف أهل التأويل في معنى "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر" فقيل: "ما تقدم من ذنبك" قبل الرسالة. "وما تأخر" بعدها، قاله مجاهد. ونحوه قال الطبري وسفيان الثوري، قال الطبري: هو راجع إلى قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ﴾إلى قوله ﴿توابا ﴾(النصر: ١ ـ ٣) "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك" قبل الرسالة "وما تأخر" إلى وقت نزول هذه الآية. وقال سفيان الثوري: "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك" ما عملته في الجاهلية من قبل أن يوحى إليك. "وما تأخر" كل شيء لم تعمله، وقاله الواحدي. وقد مضى الكلام في جريان الصغائر على الأنبياء في سورة "البقرة"، فهذا قول. وقيل: "ما تقدم" قبل الفتح. "وما تأخر" بعد الفتح. وقيل: "ما تقدم" قبل نزول هذه الآية. "وما تأخر" بعدها. وقال عطاء الخُراساني: "ما تقدم من ذنبك" يعني من ذنب أبويك آدم وحواء. "وما تأخر" من ذنوب أمتك. وقيل: من ذنب أبيك إبراهيم. "وما تأخر" من ذنوب النبيين. وقيل: "ما تقدم" من ذنب يوم بدر. "وما تأخر" من ذنب يوم حنين. وذلك أن الذنب المتقدم يوم بدر، أنه جعل يدعو ويقول: (اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض أبدا) وجعل يردد هذا القول دفعات، فأوحى الله إليه: منَ أين تعلم أني لو أهلكت هذه العصابة لا أعبد أبدا، فكان هذا الذنب المتقدم [(٢)]. وأما الذنب المتأخر فيوم حنين، لما انهزم الناس قال لعمه العباس ولابن عمه أبي سفيان: (ناولاني كفا من حصباء الوادي) فناولاه فأخذه بيده ورمى به في وجوه المشركين وقال: (شاهت الوجوه. حم. لا ينصرون) فانهزم القوم عن آخرهم، فلم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملا وحصباء. ثم نادى في أصحابه فرجعوا فقال لهم عند رجوعهم: (لو لم أرمهم لم ينهزموا) فأنزل الله عز وجل: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾(الأنفال: ١٧) فكان هذا هو الذنب المتأخر [(٣)]. وقال أبو علي الروذباري: يقول لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك.

---

(١) "صحيح" انظر صحيح سنن الترمذي (٢٦٠١).

(٢) "صحيح" دون قوله: " فأوحي الله إليه . . . إلخ" أخرجه مسلم (١٧٦٣).

(٣) "صحيح" دون قوله: "لو لم أرمهم. . . ".

قولـه تعالى: ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ قال ابن عباس: في الجنة. وقيل: بالنبوة والحكمة. وقيل: بفتح مكة والطائف وخيبر. وقيل: بخضوع من استكبر وطاعة من تجبر. ﴿ ويهديك صراطا مستقيما ﴾ أي يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه. ﴿ وينصرك الله نصرا عزيزا ﴾ أي غالبا منيعا لا يتبعه ذل.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾

"السكينة": السكون والطمأنينة. قال ابن عباس: كل سكينة في القرآن هي الطمأنينة إلا التي في "البقرة". وتقدم معنى زيادة الإيمان في "آل عمران". وقال ابن عباس: بعث النبي ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدقوه فيها زادهم الصلاة، فلما صدقوه زادهم الزكاة، فلما صدقوه زادهم الصيام، فلما صدقوه زادهم الحج، ثم أكمل لهم دينهم، فذلك قولـه: ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ أي تصديقا بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان. وقال الربيع بن أنس: خشية مع خشيتهم. وقال الضحاك: يقينا مع يقينهم. ﴿ ولله جنود السماوات والأرض ﴾ قال ابن عباس: يريد الملائكة والجن والشياطين والإنس ﴿ وكان الله عليما ﴾ بأحوال خلقه ﴿ حكيما ﴾ فيما يريده.

قوله تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

أي أنزل السكينة ليزدادوا إيمانا. ثم تلك الزيادة بسبب إدخالهم الجنة. وقيل: اللام في "ليدخل" يتعلق بما يتعلق به اللام في قولـه: "ليغفر لك الله" ﴿ وكان ذلك ﴾ أي ذلك الوعد من دخول مكة وغفران الذنوب. ﴿ عند الله فوزا عظيما ﴾ أي نجاة من كل غم، وظفرا بكل مطلوب. وقيل: لما قرأ النبي ﷺ على أصحابه "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر" قالوا: هنيئا لك يا رسول الله، فماذا لنا؟ فنزل: "ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات" ولما قرأ "ويتم نعمته عليك" قالوا: هنيئا لك، فنزلت: ﴿ وأتممت عليكم نعمتي ﴾ (المائدة: ٣) فلما قرأ "ويهديك صراطا مستقيما" نزل في حق الأمة: ﴿ ويهديكم صراطا مستقيما ﴾ (الفتح: ٢٠). ولما قال: ﴿ وينصرك الله نصرا عزيزا ﴾ (الفتح: ٣) نزل: ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ (الروم: ٤٧). وهو كقولـه تعالى: ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ (الأحزاب: ٥٦). ثم قال: ﴿ هو الذي يصلي عليكم ﴾ (الأحزاب: ٤٣) ذكره القشيري.

قوله تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ أي بإيصال الهموم إليهم بسبب علو كلمة المسلمين، وبأن يسلط النبي ﷺ قتلا وأسرا واسترقاقا. ﴿ الظانين بالله ظن

السوء﴾ يعني ظنهم أن النبي ﷺ لا يرجع إلى المدينة، ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وأن المشركين يستأصلونهم. كما قال: ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ﴾ (الفتح: ١٢). وقال الخليل وسيبويه: "السوء" هنا الفساد. ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ في الدنيا بالقتل والسبي والأسر، وفي الآخرة بجهنم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "دائرة السوء" بالضم. وفتح الباقون. قال الجوهري: ساءه يسوءه سوءا (بالفتح) ومساءة ومساية، نقيض سره، والاسم السوء (بالضم). وقرئ "عليهم دائرة السُّوء" يعني الهزيمة والشر. ومن فتح فهو من المساءة. ﴿ وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا * ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما ﴾ تقدم في غير موضع جميعه. والحمد لله. وقيل: لما جرى صلح الحديبية قال ابن أبي: أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو، فأين فارس والروم فبين الله عز وجل أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم. وقيل: يدخل فيه جميع المخلوقات. وقال ابن عباس: "ولله جنود السموات" الملائكة. وجنود الأرض المؤمنون. وأعاد لأن الذي سبق عقيب ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائر المشركين. والمراد في الموضعين التخويف والتهديد. فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يعجزه ذلك، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنا أرسلناك شاهدا ﴾ قال قتادة: على أمتك بالبلاغ. وقيل: شاهدا عليهم بأعمالهم من طاعة أو معصية. وقيل: مبينا لهم ما أرسلناك به إليهم. وقيل: شاهدا عليهم يوم القيامة. فهو شاهد أفعالهم اليوم، والشهيد عليهم يوم القيامة. وقد مضى في "النساء" عن سعيد بن جبير هذا المعنى مبينا. ﴿ ومبشرا ﴾ لمن أطاعه بالجنة. ﴿ ونذيرا ﴾ من النار لمن عصى، قاله قتادة وغيره. وقد مضى في "البقرة" اشتقاق البشارة والنذارة ومعناهما. وانتصب "شاهدا ومبشرا ونذيرا" على الحال المقدرة. حكى سيبويه: مررت برجل معه صقر صائدا به غدا، فالمعنى: إنا أرسلناك مقدرين بشهادتك يوم القيامة. وعلى هذا تقول: رأيت عمرا قائما غدا.

قوله تعالى: ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ قرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو "ليؤمنوا" بالياء، وكذلك "يعزروه ويوقروه ويسبحوه" كله بالياء على الخبر. واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده، فأما قبله فقوله: "ليدخل" وأما بعده فقوله: ﴿ إن الذين يبايعونك ﴾ (الفتح: ١٠) الباقون بالتاء على الخطاب، واختاره أبو حاتم. "وتعزروه" أي تعظموه وتفخموه، قاله الحسن والكلبي، والتعزير: التعظيم والتوقير. وقال قتادة: تنصروه وتمنعوا منه. ومنه التعزير في الحد. لأنه مانع. قال القطامي:

ألا بكرت مي بغير سفاهة تعاتب والمودود ينفعه العزر

وقال ابن عباس وعكرمة: تقاتلون معه بالسيف. وقال بعض أهل اللغة: تطيعوه. ﴿ وتوقروه﴾ أي تسودوه، قاله السدي. وقيل تعظموه. والتوقير: التعظيم والترزين أيضا. والهاء فيهما للنبيﷺ. وهنا وقف تام، ثم تبتدئ﴿ وتسبحوه﴾ أي تسبحوا الله﴿ بكرة وأصيلا﴾ أي عشيا. وقيل: الضمائر كلها لله تعالى، فعلى هذا يكون تأويل "تعزروه وتوقروه" أي تثبتوا له صحة الربوبية وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك. واختار هذا القول القشيري. والأول قول الضحاك، وعليه يكون بعض الكلام راجعا إلى الله سبحانه وتعالى وهو "وتسبحوه" من غير خلاف. وبعضه راجعا إلى رسوله ﷺ وهو "وتعزروه وتوقروه" أي تدعوه بالرسالة والنبوة لا بالاسم والكنية. وفي "تسبحوه" وجهان: تسبيحه بالتنزيه له سبحانه من كل قبيح. والثاني: هو فعل الصلاة التي فيها التسبيح. "بكرة وأصيلا" أي غدوة وعشيا. وقد مضى القول فيه. وقال الشاعر:

لعمري لأنت البيت أكرم أهله وأجلس في أفيائه بالأصائل

قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ إن الذين يبايعونك﴾ بالحديبية يا محمد. ﴿ إنما يبايعون الله﴾ بين أن بيعتهم لنبيّه ﷺ إنما هي بيعة الله، كما قال تعالى: ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (النساء: ٨٠). وهذه المبايعة هي بيعة الرضوان، على ما يأتي بيانها في هذه السورة إن شاء الله تعالى. ﴿ يد الله فوق أيديهم﴾ قيل: يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويده في المنة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة. وقال الكلبي: معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة. وقال ابن كيسان: قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم. ﴿ فمن نكث﴾ بعد البيعة. ﴿ فإنما ينكث على نفسه﴾ أي يرجع ضرر النكث عليه، لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب. ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه الله﴾ قيل في البيعة. وقيل في إيمانه. وقرأ حفص والزهري "عليه" بضم الهاء. وجرها الباقون. ﴿ فسيؤتيه أجرا عظيما﴾ يعني في الجنة. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر "فسنؤتيه" بالنون. واختاره الفراء وأبو معاذ. وقرأ الباقون بالياء. وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم، لقرب اسم الله منه.

قوله تعالى:﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب﴾ قال مجاهد وابن عباس: يعني أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والديل، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة، تخلفوا عن رسول الله ﷺ حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح، بعد أن كان استنفرهم ليخرجوا معه حذرا من قريش، وأحرم

بعمرة وساق معه الـهدي، ليعلم الناس أنه لا يريد حربا فتثاقلوا عنه واعتلوا بالشغل، فنزلت. وإنما قال: "المخلفون" لأن الله خلفهم عن صحبة نبيه. والمخلف المتروك. وقد مضى في "التوبة".

﴿شغلتنا أموالنا وأهلونا﴾ أي ليس لنا من يقوم بهما. ﴿فاستغفر لنا﴾ جاؤوا يطلبون الاستغفار واعتقادهم بخلاف ظاهرهم، ففضحهم الله تعالى بقوله: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ وهذا هو النفاق المحض.

قوله تعالى: ﴿قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا﴾ قرأ حمزة والكسائي "ضرا" بضم الضاد هنا فقط، أي أمرا يضركم. وقال ابن عباس: الـهزيمة. الباقون بالفتح، وهو مصدر ضررته ضراً. وبالضم اسم لما ينال الإنسان من الـهزال وسوء الحال. والمصدر يؤدي عن المرة وأكثر. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قالا: لأنه قابله بالنفع وهو ضد الضر. وقيل: هما لغتان بمعنى، كالفَقْر والفُقْر والضَّعَف والضُّعْف. ﴿أو أراد بكم نفعا﴾ أي نصرا وغنيمة. وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر ويعجل لـهم النفع.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا﴾ وذلك أنهم قالوا: إن محمدا وأصحابه أكلة رأس لا يرجعون. ﴿وزين ذلك﴾ أي النفاق. ﴿في قلوبكم﴾ وهذا التزيين من الشيطان، أو يخلق الله ذلك في قلوبهم. ﴿وظننتم ظن السوء﴾ أن الله لا ينصر رسوله. ﴿وكنتم قوما بورا﴾ أي هلكى، قاله مجاهد. وقال قتادة: فاسدين لا يصلحون لشيء من الخير. قال الجوهري: البور: الرجل الفاسد الـهالك الذي لا خير فيه. قال عبد الله بن الزبعرى السهمي:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور

وامرأة بور أيضا، حكاه أبو عبيد. وقوم بور هلكى. قال تعالى: "وكنتم قوما بورا" وهو جمع بائر، مثل حائل وحول. وقد بار فلان أي هلك. وأباره الله أي أهلكه. وقيل: "بورا" أشرارا، قاله ابن بحر. وقال حسان بن ثابت:

لا ينفع الطول من نوك الرجال وقد ... يهدي الإلـه سبيل المعشر البور

أي الـهالك.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

وعيد لـهم، وبيان أنهم كفروا بالنفاق.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

أي هو غني عن عباده، وإنما ابتلاهم بالتكليف ليثيب من آمن ويعاقب من كفر وعصى.

قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)﴾

قوله تعالى: ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ﴾ يعني مغانم خيبر، لأن الله عز وجل وعد أهل الحديبية فتح خيبر، وأنها لهم خاصة من غاب منهم ومن حضر. ولم يغب منهم عنها غير جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضر. قال ابن إسحاق: وكان المتولي للقسمة بخيبر جبار بن صخر الأنصاري من بني سلمة، وزيد بن ثابت من بني النجار، كانا حاسبين قاسمين. ﴿ ذرونا نتبعكم ﴾ أي دعونا. تقول: ذره، أي دعه. وهو يذره، أي يدعه. وأصله وذره يذره مثال وسعه يسعه. وقد أميت صدره، لا يقال: وذره ولا واذر، ولكن تركه وهو تارك. قال مجاهد: تخلفوا عن الخروج إلى مكة، فلما خرج النبي ﷺ وأخذ قوما ووجه بهم قالوا ذرونا نتبعكم فنقاتل معكم. ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ أي يغيروا. قال ابن زيد: هو قوله تعالى: ﴿فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا ﴾ (التوبة: ٨٣) الآية. وأنكر هذا القول الطبري وغيره، بسبب أن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة. وقيل: المعنى يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد لأهل الحديبية، وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عوضا عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح، قاله مجاهد وقتادة، واختاره الطبري وعليه عامة أهل التأويل. وقرأ حمزة والكسائي "كلم" بإسقاط الألف وكسر اللام جمع كلمة، نحو سلمة وسلم. الباقون "كلام" على المصدر. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، اعتبارا بقوله: ﴿ إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ (الأعراف: ١٤٤). والكلام: ما استقل بنفسه من الجمل. قال الجوهري: الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير. والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة، مثل نبقة ونبق. ولهذا قال سيبويه: (هذا باب علم ما الكلم من العربية) ولم يقل ما الكلام، لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء: الاسم والفعل والحرف، فجاء بما لا يكون إلا جمعا، وترك ما يمكن أن يقع على الواحد والجماعة. وتميم تقول: هي كلمة، بكسر الكاف، وقد مضى في "التوبة" القول فيها.

قوله تعالى: ﴿ كذلكم قال الله من قبل ﴾ أي من قبل رجوعنا من الحديبية إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة. ﴿ فسيقولون بل تحسدوننا ﴾ أن نصيب معكم من الغنائم. وقيل: قال رسول الله ﷺ: (إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لا سهم لكم). فقالوا: هذا حسد. فقال المسلمون: قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى: "فسيقولون بل تحسدوننا" فقال الله تعالى: ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾ يعني لا يعلمون إلا أمر الدنيا. وقيل: لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلا، وهو ترك القتال.

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ﴾ أي قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية. ﴿ ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد ﴾ قال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن أبي ليلى وعطاء الخراساني: هم فارس. وقال كعب والحسن وعبد الرحمن بن أبي ليلى: الروم. وعن الحسن أيضا: فارس والروم. وقال ابن جبير: هوازن وثقيف. وقال عكرمة: هوازن. وقال قتادة: هوازن وغطفان يوم حنين. وقال الزهري ومقاتل: بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة. وقال رافع بن خديج: والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى "ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد" فلا نعلم من هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم. وقال أبو هريرة: لم تأت هذه الآية بعد. وظاهر الآية يرده.

الثانية: في هذه الآية دليل على صحة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم. وأما قول عكرمة وقتادة إن ذلك في هوازن وغطفان يوم حنين فلا، لأنه يمتنع أن يكون الداعي لهم الرسول ﷺ، لأنه قال: "لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا" فدل على أن المراد بالداعي غير النبي ﷺ. ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبي ﷺ إلا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. الزمخشري: فإن صح ذلك عن قتادة فالمعنى لن تخرجوا معي أبدا ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدين. أو على قول مجاهد كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله ﷺ إلا متطوعين لا نصيب لهم في المغنم. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ هذا حكم من لا تؤخذ منهم الجزية، وهو معطوف على "تقاتلونهم" أي يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة وإما الإسلام، لا ثالث لهما. وفي حرف أبي "أو يسلموا" بمعنى حتى يسلموا، كما تقول: كل أو تشبع، أي حتى تشبع. قال:

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقال الزجاج: قال "أو يسلمون" لأن المعنى أو هم يسلمون من غير قتال. وهذا في قتال المشركين لا في أهل الكتاب.

الرابعة: ﴿ فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ﴾ الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة. ﴿ وإن تتولوا كما توليتم من قبل ﴾ عام الحديبية. ﴿ يعذبكم عذابا أليما ﴾ وهو عذاب النار.

قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

قال ابن عباس: لما نزلت: "وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما" قال أهل الزمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فنزلت ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض

حرج ﴾[1] أي لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد لعماهم وزمانتهم وضعفهم. وقد مضى في "التوبة" وغيرها الكلام فيه مبينا. والعرج: آفة تعرض لرجل واحدة، وإذا كان ذلك مؤثرا فخلل الرجلين أولى أن يؤثر. وقال مقاتل: هم أهل الزمانة الذين تخلفوا عن الحديبية وقد عذرهم. أي من شاء أن يسير منهم معكم إلى خيبر فليفعل. ﴿ومن يطع الله ورسوله ﴾فيما أمره. ﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾قرأ نافع وابن عامر "ندخله" بالنون على التعظيم. الباقون بالياء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدم اسم الله أولا. ﴿ومن يتول يعذبه عذابا أليما ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾هذه بيعة الرضوان، وكانت بالحديبية، وهذا خبر الحديبية على اختصار: وذلك أن النبي ﷺأقام منصرفه من غزوة بني المصطلق في شوال، وخرج في ذي القعدة معتمرا، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة فأبطأ عنه أكثرهم، وخرج النبي ﷺبمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتبعه من العرب، وجميعهم نحو ألف وأربعمائة. وقيل: ألف وخمسمائة. وقيل غير هذا، على ما يأتي. وساق معه الهدي، فأحرم رسول الله ﷺليعلم الناس أنه لم يخرج لحرب، فلما بلغ خروجه قريشا خرج جمعهم صادين لرسول الله ﷺ عن المسجد الحرام ودخول مكة، وإنه إن قاتلهم قاتلوه دون ذلك، وقدموا خالد بن الوليد في خيل إلى (كراع الغميم) فورد الخبر بذلك على رسول الله ﷺوهو (بعسفان) وكان المخبر له بشر بن سفيان الكعبي، فسلك طريقا يخرج به في ظهورهم، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة، وكان دليله فيهم رجل من أسلم، فلما بلغ ذلك خيل قريش التي مع خالد جرت إلى قريش تعلمهم بذلك، فلما وصل رسول الله ﷺإلى الحديبية بركت ناقته ﷺفقال الناس: خلأت! خلأت! فقال النبي ﷺ: (ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها). ثم نزل ﷺهناك، فقيل: يا رسول الله، ليس بهذا الوادي ماء فأخرج عليه الصلاة والسلام سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه، فنزل في قليب من تلك القلب فغرزه في جوفه فجاش بالماء الرواء حتى كفى جميع الجيش. وقيل: إن الذي نزل بالسهم في القليب ناجية بن جندب بن عمير الأسلمي وهو سائق بدن النبي ﷺيومئذ. وقيل: نزل بالسهم في القليب البراء بن عازب، ثم جرت السفراء بين رسول الله ﷺوبين كفار قريش، وطال التراجع والتنازع إلى أن جاءه سهيل بن عمرو العامري، فقاضاه على أن ينصرف عليه الصلاة والسلام عامه ذلك، فإذا كان من قابل أتى معتمرا ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح، حاشا السيوف في قربها فيقيم بها ثلاثا ويخرج،

---

(١) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٧/ ١٠٧) من حديث زيد بن ثابت وقال: "رواه الطبراني، وفيه محمد بن جابر السحيمي، وهو ضعيف يكتب حديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح". وحسنه السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٦٧).

وعلى أن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام، يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضا، وعلى أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلما من رجل أو امرأة رد إلى الكفار، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدا لم يردوه إلى المسلمين، فعظم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام، وكان رسول الله ﷺ أعلم بما علمه الله من أنه سيجعل للمسلمين فرجا، فقال لأصحابه (اصبروا فإن الله يجعل هذا الصلح سببا إلى ظهور دينه) فأنس الناس إلى قوله هذا بعد نفار منهم، وأبى سهيل بن عمرو أن يكتب في صدر صحيفة الصلح: من محمد رسول الله، وقالوا له: لو صدقناك بذلك ما دفعناك عما تريد! فلا بد أن تكتب: باسمك اللهم. فقال لعلي وكان يكتب صحيفة الصلح: (امح يا علي، واكتب باسمك اللهم) فأبى علي أن يمحو بيده "محمد رسول الله". فقال له رسول الله ﷺ: (اعرضه علي) فأشار إليه فمحاه رسول الله ﷺ بيده، وأمره أن يكتب (من محمد بن عبد الله). وأتى أبو جندل بن سهيل يومئذ بأثر كتاب الصلح وهو يرسف في قيوده، فرده رسول الله ﷺ إلى أبيه، فعظم ذلك على المسلمين، فأخبرهم رسول الله ﷺ وأخبر أبا جندل (أن الله سيجعل له فرجا ومخرجا). وكان رسول الله ﷺ قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكة رسولا، فجاء خبر إلى رسول الله ﷺ بأن أهل مكة قتلوه، فدعا رسول الله ﷺ حينئذ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكة، فروي أنه بايعهم على الموت. وروي أنه بايعهم على ألا يفروا. وهي بيعة الرضوان تحت الشجرة، التي أخبر الله تعالى أنه رضي عن المبايعين لرسول الله ﷺ تحتها. وأخبر رسول الله ﷺ أنهم لا يدخلون النار. وضرب رسول الله ﷺ بيمينه على شماله لعثمان، فهو كمن شهدها[١].

وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال: أول من بايع رسول الله ﷺ يوم الحديبية أبو سفيان الأسدي. وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة، وقال: بايعناه على ألا نفر ولم نبايعه على الموت. وعنه أنه سمع جابرا يسأل: كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشرة مائة، فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة، فبايعناه، غير جد بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره[٢]. وعن سالم ابن أبي الجعد قال: سألت جابر بن عبد الله عن أصحاب الشجرة. فقال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا ألفا وخمسمائة. وفي رواية: كنا خمس عشرة مائة.

وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان أصحاب الشجرة ألفا وثلاثمائة، وكانت أسلم ثمن المهاجرين[٣]. وعن يزيد بن أبي عبيد قال: قلت لسلمة: على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت. وعن البراء بن عازب قال: كتب علي رضي الله عنه الصلح بين النبي ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية، فكتب: هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله ﷺ فقالوا: لا تكتب رسول الله، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك. فقال النبي ﷺ لعلي: (امحه). فقال: ما أنا بالذي أمحاه، فمحاه النبي ﷺ بيده. وكان فيما اشترطوا: أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثا، ولا يدخلها بسلاح إلا جلبان السلاح. قلت لأبي إسحاق وما جلبان السلاح؟ قال: القراب وما فيه. وعن أنس: أن قريشا

(١) حديث صلح الحديبية أخرجه البخاري بطوله في "الشروط"، (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٢) أخرجه مسلم في "الإمارة"، (١٨٥٦).
(٣) أخرجه مسلم في "الإمارة"، (١٨٥٧).

صالحوا النبي ﷺ فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعلي: (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل بن عمرو: أما باسم الله، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم. فقال: (اكتب من محمد رسول الله) قالوا: لو علمنا أنك رسوله لاتبعناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال النبي ﷺ: (اكتب من محمد بن عبد الله) فاشترطوا على النبي ﷺ: أن من جاء منكم لم نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا. فقالوا: يا رسول الله، أنكتب هذا قال: (نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا)(١). وعن أبي وائل قال: قام سهل بن حنيف يوم صفين فقال يا أيها الناس، اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نرى قتالا لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين. فجاء عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال (بلى) قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال (بلى) قال ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال (يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدا) قال: فانطلق عمر، فلم يصبر متغيظا فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا. قال: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال (نعم). فطابت نفسه ورجع(٢).

قوله تعالى: ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ من الصدق والوفاء، قاله الفراء. وقال ابن جريج وقتادة: من الرضا بأمر البيعة على ألا يفروا. وقال مقاتل: من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت ﴿ فأنزل السكينة عليهم ﴾ حتى بايعوا. وقيل: "فعلم ما في قلوبهم" من الكآبة بصد المشركين إياهم وتخلف رؤيا النبي ﷺ عنهم، إذ رأى أنه يدخل الكعبة، حتى قال رسول الله ﷺ: (إنما ذلك رؤيا منام). وقال الصديق: لم يكن فيها الدخول في هذا العام. والسكينة: الطمأنينة وسكون النفس إلى صدق الوعد. وقيل الصبر. ﴿ وأثابهم فتحا قريبا ﴾ قال قتادة وابن أبي ليلى: فتح خيبر. وقيل فتح مكة. وقرئ "وآتاهم" ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها ﴾ يعني أموال خيبر، وكانت خيبر ذات عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكة. فـ "مغانم" على هذا بدل من "فتحا قريبا" والواو مقحمة. وقيل "ومغانم" فارس والروم.

قوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: إنها المغانم التي تكون إلى يوم القيامة. وقال ابن زيد: هي مغانم خيبر. ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ أي خيبر، قاله مجاهد. وقال ابن عباس: عجل لكم صلح الحديبية. ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ يعني أهل مكة، كفهم

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٤).

(٢) أخرجه البخاري في حديث صلح الحديبية المشار إليه آنفا. ومسلم (١٧٨٥) واللفظ له.

عنكم بالصلح. وقال قتادة: كف أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبى ﷺ إلى الحديبية وخيبر. وهو اختيار الطبري، لأن كف أيدي المشركين بالحديبية مذكور في قولـه: ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم ﴾ (الفتح: ٢٤). وقال ابن عباس: في "كف أيدي الناس عنكم" يعني عيينة بن حصن الفزاري وعوف بن مالك النضري ومن كان معهما، إذ جاؤوا لينصروا أهل خيبر والنبي ﷺ محاصر لـهم، فألقى الله عز وجل في قلوبهم الرعب وكفهم عن المسلمين ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ أي ولتكون هزيمتهم وسلامتكم آية للمؤمنين، فيعلموا أن الله يحرسهم في مشهدهم ومغيبهم. وقيل: أي ولتكون كف أيديهم عنكم آية للمؤمنين. وقيل: أي ولتكون هذه التي عجلـها لكم آية للمؤمنين على صدقك حيث وعدتهم أن يصيبوها. والواو في "ولتكون" مقحمة عند الكوفيين. وقال البصريون: عاطفة على مضمر، أي وكف أيدي الناس عنكم لتشكروه ولتكون آية للمؤمنين. ﴿ ويهديكم صراطا مستقيما ﴾ أي يزيدكم هدى، أو يثبتكم على الـهداية.

قوله تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وأخرى ﴾ "أخرى" معطوفة على "هذه"، أي فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى. ﴿ لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ﴾ قال ابن عباس: هي الفتوح التي فتحت على المسلمين، كأرض فارس والروم، وجميع ما فتحه المسلمون. وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبي ليلى. وعن ابن عباس أيضا والضحاك وابن زيد وابن إسحاق: هي خيبر، وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها. وعن الحسن أيضا وقتادة: هو فتح مكة. وقال عكرمة: حنين، لأنه قال: "لم تقدروا عليها". وهذا يدل على تقدم محاولة لـها وفوات درك المطلوب في الحال كما كان في مكة، قالـه القشيري. وقال مجاهد: هي ما يكون إلى يوم القيامة. ومعنى "قد أحاط الله بها": أي أعدها لكم. فهي كالشيء الذي قد أحيط به من جوانبه، فهو محصور لا يفوت، فأنتم وإن لم تقدروا عليها في الحال فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم. وقيل: "أحاط الله بها" علم أنها ستكون لكم، كما قال: ﴿ وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ (الطلاق: ١٢). وقيل: حفظها الله عليكم. ليكون فتحها لكم. ﴿ وكان الله على كل شيء قديرا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ﴾ قال قتادة: يعني كفار قريش في الحديبية. وقيل: "ولو قاتلكم" غطفان وأسد والذين أرادوا نصرة أهل خيبر، لكانت الدائرة عليهم. ﴿ ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا * سنة الله التي قد خلت من قبل ﴾ يعني طريقة الله وعاداته السالفة نصر أوليائه على أعدائه. وانتصب "سنة" على المصدر. وقيل: "سنة الله" أي كسنة الله. والسنة الطريقة والسيرة. قال:

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها

والسنة أيضا: ضرب من تمر المدينة. ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة ﴾ وهي الحديبية. ﴿من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ روى يزيد بن هارون قال: أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذناهم سلما فاستحييناهم، فأنزل الله تعالى: "وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم"[1]. وقال عبد الله بن مغفل المزني: كنا مع النبي ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن، فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم النبي ﷺ فأخذ الله بأبصارهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: (هل جئتم في عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أمانا). قالوا: اللهم لا، فخلى سبيلهم. فأنزل الله تعالى: "وهو الذي كف أيديهم عنكم"[2] الآية. وذكر ابن هشام عن وكيع: وكانت قريش قد جاء منهم نحو سبعين رجلا أو ثمانين رجلا للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة في أطرافهم، ففطن المسلمون لهم فأخذوهم أسرى، وكان ذلك والسفراء يمشون بينهم في الصلح، فأطلقهم رسول الله ﷺ، فهم الذين يسمون العتقاء، ومنهم معاوية وأبوه. وقال مجاهد: أقبل النبي ﷺ معتمرا، إذ أخذ أصحابه ناسا من الحرم غافلين فأرسلهم النبي ﷺ، فذلك الإظفار ببطن مكة. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له زنيم، اطلع الثنية من الحديبية فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث النبي ﷺ خيلا فأتوا باثني عشر فارسا من الكفار، فقال لهم النبي ﷺ: (هل لكم علي ذمة) قالوا لا؟ فأرسلهم فنزلت. وقال ابن أبزى والكلبي: هم أهل الحديبية، كف الله أيديهم عن المسلمين حتى وقع الصلح، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين، وكف أيدي المسلمين عنهم. وقد تقدم أن خالد بن الوليد كان في خيل المشركين. قال القشيري: فهذه رواية، والصحيح أنه كان مع النبي ﷺ في ذلك الوقت[3]. وقد قال سلمة بن الأكوع: كانوا في أمر الصلح إذ أقبل أبو سفيان، فإذا الوادي يسير بالرجال والسلاح، قال: فجئت بستة من المشركين أسوقهم متسلحين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، فأتيت بهم رسول الله ﷺ. وكان عمر قال في الطريق: يا رسول الله، نأتي قوما حربا وليس معنا سلاح ولا كراع؟ فبعث رسول الله ﷺ إلى المدينة من الطريق فأتوه بكل سلاح وكراع كان فيها، وأخبر رسول الله ﷺ أن عكرمة بن أبي جهل خرج إليك في خمسمائة فارس، فقال رسول الله ﷺ لخالد ابن الوليد: (هذا ابن عمك أتاك في خمسمائة). فقال خالد: أنا سيف الله وسيف رسوله، فيومئذ

---

(١) أخرجه مسلم في "الجهاد"، (١٨٠٨).

(٢) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٦/ ١٤٥) وقال: "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح".

(٣) قلت: هذا وهم، لأن خالداً لم يسلم إلا بعد ستة أشهر من صلح الحديبية.

سمي بسيف الله، فخرج ومعه خيل وهزم الكفار ودفعهم إلى حوائط مكة[1]. وهذه الرواية أصح، وكان بينهم قتال بالحجارة، وقيل بالنبل والظفر. وقيل: أراد بكف اليد أنه شرط في الكتاب أن من جاءنا منهم فهو رد عليهم، فخرج أقوام من مكة مسلمون وخافوا أن يردهم الرسول ﷺ إلى المشركين فلحقوا بالساحل، ومنهم أبو بصير، وجعلوا يغيرون على الكفار ويأخذون عيرهم، حتى جاء كبار قريش إلى النبي ﷺ وقالوا: اضممهم إليك حتى نأمن، ففعل. وقيل: همت غطفان وأسد منع المسلمين من يهود خيبر، لأنهم كانوا حلفاءهم فمنعهم الله عن ذلك، فهو كف اليد. ﴿ ببطن مكة ﴾ فيه قولان: أحدهما: يريد به مكة. الثاني: الحديبية، لأن بعضها مضاف إلى الحرم. قال الماوردي: وفي قوله: "من بعد أن أظفركم عليهم" بفتح مكة. تكون هذه نزلت بعد فتح مكة، وفيها دليل على أن مكة فتحت صلحا، لقوله عز وجل: "كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم".

قلت: الصحيح أن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة، حسب ما قدمناه عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين. وروى الترمذي قال: حدثنا عبد بن حميد قال حدثني سليمان بن حرب قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس: أن ثمانين هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه، فأخذوا أخذا فأعتقهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: "وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم"[2] الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وقد تقدم. وأما فتح مكة فالذي تدل عليه الأخبار أنها إنما فتحت عنوة، وقد مضى القول في ذلك في "الحج" وغيرها. ﴿ وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ هم الذين كفروا ﴾ يعني قريشا، منعوكم دخول المسجد الحرام عام الحديبية حين أحرم النبي ﷺ مع أصحابه بعمرة، ومنعوا الهدي وحبسوه عن أن يبلغ محله. وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكنه حملتهم الأنفة ودعتهم حمية الجاهلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دينا، فوبخهم الله على ذلك وتوعدهم عليه، وأدخل الأنس على رسول الله ﷺ ببيانه ووعده.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ والهدي معكوفا ﴾ أي محبوسا. وقيل موقوفا. وقال أبو عمرو بن العلاء: مجموعا. الجوهري: عكفه أي حبسه ووقفه، يَعْكِفه ويَعْكُفه عكفا، ومنه قوله تعالى: "والهدي

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن أبي أبزى مرفوعاً، كما في الدر المنثور (٦/ ٧٥).

(٢) "صحيح" أخرجه أبو داود والترمذي، وانظر صحيح سنن الترمذي (٢٦٠٢).

معكوفا" ، يقال ما عكفك عن كذا. ومنه الاعتكاف في المسجد وهو الاحتباس. ﴿ أن يبلغ محلـه ﴾ أي منحره، قالـه الفراء. وقال الشافعي ﷺ: الحرم. وكذا قال أبو حنيفة ﷺ، المحصر محل هديه الحرم. والمحل (بكسر الحاء): غاية الشيء. (وبالفتح): هو الموضع الذي يحلـه الناس. وكان الـهدي سبعين بدنة، ولكن الله بفضلـه جعل ذلك الموضع لـه محلا. وقد اختلف العلماء في هذا على ما تقدم بيانه في "البقرة" عند قولـه تعالى: "فإن أحصرتم"[1] والصحيح ما ذكرناه. وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة[2]. وعنه قال: اشتركنا مع رسول الله ﷺ في الحج والعمرة كل سبعة في بدنة. فقال رجل لجابر: أيشترك في البدنة ما يشترك في الجزور؟ قال: ما هي إلا من البدن. وحضر جابر الحديبية قال: ونحرنا يومئذ سبعين بدنة، اشتركنا كل سبعة في بدنة. وفي البخاري عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين، فحال كفار قريش دون البيت، فنحر رسول الله ﷺ بدنة وحلق رأسه[3]. قيل: إن الذي حلق رأسه يومئذ خراش بن أمية بن أبي العيص الخزاعي، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينحروا ويحلوا، ففعلوا بعد توقف كان منهم أغضب رسول الله ﷺ. فقالت لـه أم سلمة: لو نحرت لنحروا، فنحر رسول الله ﷺ هديه ونحروا بنحره، وحلق رسول الله ﷺ رأسه ودعا للمحلقين ثلاثا وللمقصرين مرة. ورأى كعب بن عجرة والقمل يسقط على وجهه، فقال: (أيؤذيك هوامك)؟ قال نعم، فأمره أن يحلق وهو بالحديبية. خرجه البخاري والدارقطني. وقد مضى في "البقرة".

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ والـهدي ﴾ والـهديُ والـهديّ لغتان. وقرئ ﴿ حتى يبلغ الـهدْيُ محلـه ﴾ (البقرة: ١٩٦) بالتخفيف والتشديد، الواحدة هدية. وقد مضى في "البقرة" أيضا. وهو معطوف على الكاف والميم من "صدوكم". و﴿ معكوفا ﴾ حال، وموضع "أن" من قولـه: "أن يبلغ محلـه" نصب على تقدير الحمل على "صدوكم" أي صدوكم وصدوا الـهدي عن أن يبلغ. ويجوز أن يكون مفعولا لـه، كأنه قال: وصدوا الـهدي كراهية أن يبلغ محلـه. أبو علي: لا يصح حملـه على العكف، لأنا لا نعلم "عكف" جاء متعديا، ومجيء "معكوفا" في الآية يجوز أن يكون محمولا على المعنى، كأنه لما كان حبسا حمل المعنى على ذلك، كما حمل الرفث على معنى الإفضاء فعدي بإلى، فإن حمل على ذلك كان موضعه نصبا على قياس قول سيبويه، وجرا على قياس قول الخليل. أو يكون مفعولا لـه، كأنه قال: محبوسا كراهية أن يبلغ محلـه. ويجوز تقدير الجر في "أن" لأن عن تقدمت، فكأنه قال: وصدوكم عن المسجد الحرام، وصدوا الـهدي "عن" أن يبلغ محلـه. ومثلـه ما حكاه سيبويه عن يونس: مررت برجل إن زيد وإن عمرو، فأضمر الجار لتقدم ذكره.

قولـه تعالى: ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ﴾ فيه ثلاث مسائل:

---

(١) البقرة: ١٩٦.
(٢) أخرجه مسلم (١٣١٨).
(٣) أخرجه البخاري (١٨٠٧).

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ ولولا رجال مؤمنون ﴾ يعني المستضعفين من المؤمنين بمكة وسط الكفار، كسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة وأبي جندل بن سهيل، وأشباههم. ﴿ لم تعلموهم ﴾ أي تعرفوهم. وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون. ﴿ أن تطؤوهم ﴾ بالقتل والإيقاع بهم، يقال: وطئت القوم، أي أوقعت بهم. و"أن" يجوز أن يكون رفعا على البدل من رجال، ونساء كأنه قال ولولا وطؤكم رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات. ويجوز أن يكون نصبا على البدل من الـهاء والميم في "تعلموهم"، فيكون التقدير: لم تعلموا وطأهم، وهو في الوجهين بدل الاشتمال. "لم تعلموهم" نعت لـ "رجال" و"نساء". وجواب "لولا" محذوف، والتقدير: ولو أن تطؤوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم لأذن الله لكم في دخول مكة، ولسلطكم عليهم، ولكنا صنا من كان فيها يكتم إيمانه خوفاً. وقال الضحاك: لولا من في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموا أن تطؤوا آباءهم فتهلك أبناؤهم.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ فتصيبكم منهم معرة ﴾ المعرة العيب، وهي مفعلة من العر وهو الجرب، أي يقول المشركون: قد قتلوا أهل دينهم. وقيل: المعنى يصيبكم من قتلـهم ما يلزمكم من أجلـه كفارة قتل الخطأ، لأن الله تعالى إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ولم يعلم بإيمانه الكفارة دون الدية في قولـه: ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ (النساء: ٩٢) قالـه الكلبي ومقاتل وغيرهما. وقد مضى في "النساء" القول فيه. وقال ابن زيد: "معرة" إثم. وقال الجوهري وابن إسحاق: غرم الدية. قطرب: شدة. وقيل غم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ بغير علم ﴾ تفضيل للصحابة وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدي، حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحدا لكان عن غير قصد. وهذا كما وصفت النملة عن جند سليمان عليه السلام في قولـها: ﴿ لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ (النمل: ١٨).

قولـه تعالى: ﴿ ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ ليدخل الله في رحمته من يشاء ﴾ اللام في "ليدخل" متعلقة بمحذوف، أي لو قتلتموهم لأدخلـهم الله في رحمته. ويجوز أن تتعلق بالإيمان. ولا تحمل على مؤمنين دون مؤمنات ولا على مؤمنات دون مؤمنين لأن الجميع يدخلون في الرحمة. وقيل: المعنى لم يأذن الله لكم في قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة، وكذلك كان أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه، ودخلوا في رحمته، أي جنته.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما ﴾ أي تميزوا، قالـه القتبي. وقيل: لو تفرقوا، قالـه الكلبي. وقيل: لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار لعذب الكفار بالسيف، قالـه الضحاك. ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار. وقال علي رضي الله عنه: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية "لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا" فقال: (هم المشركون من أجداد نبي الله ومن كان بعدهم وفي عصرهم كان في أصلابهم قوم مؤمنون فلو تزيل المؤمنون عن أصلاب الكافرين لعذب الله تعالى الكافرين عذابا أليما).

الثالثة: هذه الآية دليل على مراعاة الكافر في حرمة المؤمن، إذ لا يمكن أذية الكافر إلا بأذية المؤمن. قال أبو زيد قلت لابن القاسم: أرأيت لو أن قوما من المشركين في حصن من حصونهم، حصرهم أهل

الإسلام وفيهم قوم من المسلمين أسارى في أيديهم، أيحرق هذا الحصن أم لا؟ قال: سمعت مالكا وسئل عن قوم من المشركين في مراكبهم: أنرمي في مراكبهم بالنار ومعهم الأسارى في مراكبهم؟ قال: فقال مالك لا أرى ذلك، لقولـه تعالى لأهل مكة: "لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما". وكذلك لو تترس كافر بمسلم لم يجز رميه. وإن فعل ذلك فاعل فأتلف أحدا من المسلمين فعليه الدية والكفارة. فإن لم يعلموا فلا دية ولا كفارة، وذلك أنهم إذا علموا فليس لـهم أن يرموا، فإذا فعلوه صاروا قتلة خطأ والدية على عواقلـهم. فإن لم يعلموا فلـهم أن يرموا. وإذا أبيحوا الفعل لم يجز أن يبقى عليهم فيها تباعة. قال ابن العربي: وقد قال جماعة إن معناه لو تزيلوا عن بطون النساء وأصلاب الرجال. وهذا ضعيف، لأن من في الصلب أو في البطن لا يوطأ ولا تصيب منه معرة. وهو سبحانه قد صرح فقال: "ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم" وذلك لا ينطلق على من في بطن المرأة وصلب الرجال، وإنما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش ابن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل. وكذلك قال مالك: وقد حاصرنا مدينة الروم فحبس عنهم الماء، فكانوا ينزلون الأسارى يستقون لـهم الماء، فلا يقدر أحد على رميهم بالنبل، فيحصل لـهم الماء بغير اختيارنا. وقد جوز أبو حنيفة وأصحابه والثوري الرمي في حصون المشركين وإن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالـهم. ولو تترس كافر بولد مسلم رمي المشرك، وإن أصيب أحد من المسلمين فلا دية فيه ولا كفارة. وقال الثوري: فيه الكفارة ولا دية. وقال الشافعي بقولنا. وهذا ظاهر، فإن التوصل إلى المباح بالمحظور لا يجوز، سيما بروح المسلم، فلا قول إلا ما قالـه مالك رضي الله عنه. والله أعلم.

قلت: قد يجوز قتل الترس، ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كلية قطعية. فمعنى كونها ضرورية: أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس. ومعنى أنها كلية: أنها قاطعة لكل الأمة، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين، فإن لم يفعل قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة. ومعنى كونها قطعية: أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعا. قال علماؤنا: وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعا، فإما بأيدي العدو فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدو على كل المسلمين، وإما بأيدي المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون. ولا يتأتى لعاقل أن يقول: لا يقتل الترس في هذه الصورة بوجه، لأنه يلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة، نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها، فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما حصل منها عدم أو كالعدم. والله أعلم.

الرابعة: قراءة العامة "لو تزيلوا" إلا أبا حيوة فإنه قرأ "تزايلوا" وهو مثل "تزيلوا" في المعنى. والتزايل: التباين. و"تزيلوا" تفعلوا، من زلت. وقيل: هي تفيعلوا. "لعذبنا الذين كفروا" قيل: اللام جواب لكلامين، أحدهما: "لولا رجال" والثاني: "لو تزيلوا". وقيل جواب "لولا" محذوف، وقد تقدم. "ولو تزيلوا" ابتداء كلام.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾العامل في "إذ" قوله تعالى: "لعذبنا" أي لعذبناهم إذ جعلوا هذا. أو فعل مضمر تقديره واذكروا. "الحمية" فعيلة وهي الأنفة. يقال: حميت عن كذا حمية (بالتشديد) ومحمية إذا أنفت منه وداخلك عار وأنفة أن تفعله. ومنه قول المتلمس:

ألا إنني منهم وعرضي عرضهم كذي الأنف يحمي أنفه أن يكشما

أي: يمنع. قال الزهري: حميتهم أنفتهم من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم، ومنعهم من دخول مكة. وكان الذي امتنع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله: سهيل بن عمرو، على ما تقدم. وقال ابن بحر: حميتهم عصبيتهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، والأنفة من أن يعبدوا غيرها. وقيل: "حمية الجاهلية" إنهم قالوا: قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا في منازلنا، واللات والعزى لا يدخلها أبدا. ﴿فأنزل الله سكينته ﴾أي الطمأنينة والوقار. ﴿على رسوله وعلى المؤمنين ﴾. وقيل: ثبتهم على الرضا والتسليم، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية.

قوله تعالى: ﴿وألزمهم كلمة التقوى ﴾قيل: لا إله إلا الله. روي مرفوعا من حديث أبي بن كعب عن النبي ﷺ.[1] وهو قول علي وابن عمر وابن عباس، وعمرو بن ميمون ومجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك، وسلمة بن كهيل وعبيد بن عمير وطلحة بن مصرف، والربيع والسدي وابن زيد. وقاله عطاء الخراساني، وزاد "محمد رسول الله". وعن علي وابن عمر أيضا هي لا إله إلا الله والله أكبر. وقاله عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضا: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. وقال الزهري: بسم الله الرحمن الرحيم. يعني أن المشركين لم يقروا بهذه الكلمة، فخص الله بها المؤمنين. و"كلمة التقوى" هي التي يتقى بها من الشرك. وعن مجاهد أيضا أن "كلمة التقوى" الإخلاص. ﴿وكانوا أحق بها وأهلها ﴾أي أحق بها من كفار مكة، لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه. ﴿وكان الله بكل شيء عليما ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾

---

(١) "صحيح" أخرجه الترمذي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن جرير والدارقطني في الأفراد وغيرهم، وانظر صحيح الترمذي (٢٦٠٣).

قولـه تعالى: ﴿ لقد صدق الله رسولـه الرؤيا بالحق ﴾ قال قتادة: كان رسول الله ﷺ رأى في المنام أنه يدخل مكة على هذه الصفة، فلما صالح قريشا بالحديبية ارتاب المنافقون حتى قال رسول الله ﷺ إنه يدخل مكة، فأنزل الله تعالى: "لقد صدق الله رسولـه الرؤيا بالحق" فأعلمهم أنهم سيدخلون في غير ذلك العام، وأن رؤياه ﷺ حق. وقيل: إن أبا بكر هو الذي قال إن المنام لم يكن مؤقتا بوقت، وأنه سيدخل. وروي أن الرؤيا كانت بالحديبية، وأن رؤيا الأنبياء حق. والرؤيا أحد وجوه الوحي إلى الأنبياء. ﴿لتدخلن﴾ أي في العام القابل ﴿ المسجد الحرام إن شاء الله ﴾ قال ابن كيسان: إنه حكاية ما قيل للنبي ﷺ في منامه، خوطب في منامه بما جرت به العادة، فأخبر الله عن رسولـه أنه قال ذلك ولـهذا استثنى، تأدب بأدب الله تعالـى حيث قال تعالى: ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ (الكهف: ٢٣). وقيل: خاطب الله العباد بما يجب أن يقولوه، كما قال: "ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله". وقيل: استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون، قالـه ثعلب. وقيل: كان الله علم أنه يميت بعض هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية فوقع الاستثناء لـهذا المعنى، قاله الحسين بن الفضل. وقيل: الاستثناء من "آمنين"، وذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة. وقيل: معنى "إن شاء الله" إن أمركم الله بالدخول. وقيل: أي إن سهل الله. وقيل: "إن شاء الله" أي كما شاء الله. وقال أبو عبيدة: "إن" بمعنى "إذ"، أي إذ شاء الله، كقولـه تعالى: ﴿ اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ (البقرة: ٢٧٨) أي إذ كنتم. وفيه بعد، لأن "إذ" في الماضي من الفعل، و"إذا" في المستقبل، وهذا الدخول في المستقبل، فوعدهم دخول المسجد الحرام وعلقه بشرط المشيئة، وذلك عام الحديبية، فأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا، ثم تأخر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه فساءهم ذلك واشتد عليهم وصالحهم ورجع، ثم أذن الله في العام المقبل فأنزل الله: "لقد صدق الله رسولـه الرؤيا بالحق". وإنما قيل لـه في المنام: "لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله" فحكى في التنزيل ما قيل لـه في المنام، فليس هنا شك كما زعم بعضهم أن الاستثناء يدل على الشـك، والله تعـالى لا يشـك، و"لتدخلـن" تحقيـق فكيـف يكـون شـك. فـ "إن" بمعنـى "إذ". ﴿ آمنين ﴾ أي من العدو. ﴿ محلقين رؤوسكم ومقصرين ﴾ والتحليق والتقصير جميعا للرجال، ولذلك غلب المذكر على المؤنث. والحلق أفضل، وليس للنساء إلا التقصير. وقد مضى القول في هذا في "البقرة". وفي الصحيح أن معاوية أخذ من شعر النبي ﷺ على المروة بمشقص[١]. وهذا كان في العمرة لا في الحج، لأن النبي ﷺ حلق في حجته[٢]. ﴿ لا تخافون ﴾ حال من المحلقين والمقصرين، والتقدير: غير خائفين. ﴿ فعلم ما لم تعلموا ﴾ أي علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم. وذلك أنه ﷺ لما رجع مضى منها إلى خيبر فافتتحها، ورجع بأموال خيبر وأخذ من العدة والقوة أضعاف ما كان فيه في ذلك العام، وأقبل إلى مكة على أهبة وقوة وعدة بأضعاف ذلك. وقال الكلبي: أي علم أن دخولـها إلى سنة ولـم تعلموه أنتم. وقيل: علم أن بمكة رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم.

---

(١) أخرجه البخاري في "الحج"، (١٧٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في "الحج"، (١٧٢٦) عن ابن عمر قال: حلق رسول الله ﷺ في حجته.

قولـه تعالى: ﴿ فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ﴾ أي من دون رؤيا النبي ﷺ فتح خيبر، قاله ابن زيد والضحاك. وقيل فتح مكة. وقال مجاهد: هو صلح الحديبية، وقالـه أكثر المفسرين. قال الزهري: ما فتح الله في الإسلام أعظم من صلح الحديبية، لأنه إنما كان القتال حين تلتقي الناس، فلما كانت الـهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضا، فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة. فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر. يدلك على ذلك أنهم كانوا سنة ست يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان في عشرة آلاف.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ هو الذي أرسل رسولـه ﴾ يعني محمدا ﷺ ﴿ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلـه ﴾ أي يعليه على كل الأديان. فالدين اسم بمعنى المصدر، ويستوي لفظ الواحد والجمع فيه. وقيل: أي ليظهر رسولـه على الدين كلـه، أي على الدين الذي هو شرعه بالحجة ثم باليد والسيف، ونسخ ما عداه. ﴿ وكفى بالله شهيدا ﴾ "شهيدا" نصب على التفسير، والباء زائدة، أي كفى الله شهيدا لنبيه ﷺ، وشهادته لـه تبين صحة نبوته بالمعجزات. وقيل: "شهيدا" على ما أرسل به، لأن الكفار أبوا أن يكتبوا: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله.

قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ محمد رسول الله ﴾ "محمد" مبتدأ و"رسول" خبره. وقيل: "محمد" ابتداء و"رسول الله" نعته. ﴿ والذين معه ﴾ عطف على المبتدأ، والخبر فيما بعده؛ فلا يوقف على هذا التقدير على "رسول الله". وعلى الأول يوقف على "رسول الله"؛ لأن صفاته ﷺ تزيد على ما وصف به أصحابه؛ فيكون "محمد" ابتداء و"رسول الله" الخبر "والذين معه" ابتداء ثان. و"أشداء" خبره و"رحماء" خبر ثان. وكون الصفات في جملة أصحاب النبي ﷺ هو الأشبه. وقيل: المراد بـ "الذين معه" جميع المؤمنين. ﴿ أشداء على الكفار ﴾ قال ابن عباس: أهل الحديبية أشداء على الكفار؛ أي غلاظ عليهم كالأسد على فريسته. ﴿ رحماء بينهم ﴾ أي يرحم بعضهم بعضا. وقيل: متعاطفون متوادون. وقرأ الحسن "أشداء على الكفار رحماء بينهم" بالنصب على الحال، كأنه قال:

والذين معه في حال شدتهم على الكفار وتراحمهم بينهم. ﴿تراهم ركعا سجدا ﴾إخبار عن كثرة صلاتهم. ﴿يبتغون فضلا من الله ورضوانا ﴾أي يطلبون الجنة ورضا الله تعالى.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾السيما العلامة، وفيها لغتان: المد والقصر، أي لاحت علامات التهجد بالليل وأمارات السهر. وفي سنن ابن ماجه قال: حدثنا إسماعيل بن محمد الطلحي قال حدثنا ثابت بن موسى أبو يزيد عن شريك عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار)[١]. وقال ابن العربي: ودسه قوم في حديث النبي ﷺعلى وجه الغلط، وليس عن النبي ﷺفيه ذكر بحرف. وقد روى ابن وهب عن مالك "سيماهم في وجوههم من أثر السجود" ذلك مما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود، وبه قال سعيد بن جبير. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: صلى صبيحة إحدى وعشرين من رمضان وقد وكف المسجد وكان على عريش، فانصرف النبي ﷺمن صلاته وعلى جبهته وأرنبته أثر الماء والطين[٢]. وقال الحسن: هو بياض يكون في الوجه يوم القيامة. وقالـه سعيد ابن جبير أيضا، ورواه العوفي عن ابن عباس؛ قالـه الزهري. وفي الصحيح عن رسول الله ﷺمن حديث أبي هريرة، وفيه: (حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إلـه إلا الله فيعرفونهم في النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود)[٣]. وقال شهر بن حوشب: يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر. وقال ابن عباس ومجاهد: السيما في الدنيا وهو السمت الحسن. وعن مجاهد أيضا: هو الخشوع والتواضع. قال منصور: سألت مجاهدا عن قولـه تعالى: "سيماهم في وجوههم" أهو أثر يكون بين عيني الرجل؟ قال لا، ربما يكون بين عيني الرجل مثل ركبة العنز وهو أقسى قلبا من الحجارة ولكنه نور في وجوههم من الخشوع. وقال ابن جريج: هو الوقار والبهاء. وقال شمر بن عطية: هو صفرة الوجه من قيام الليل. قال الحسن: إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى. وقال الضحاك: أما إنه ليس بالندب في وجوههم ولكنه الصفرة. وقال سفيان الثوري: يصلون بالليل فإذا أصبحوا رئي ذلك في وجوههم، بيانه قولـه ﷺ: (من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار)[٤]. وقد مضى القول فيه آنفا. وقال عطاء الخراساني: دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ذلك مثلـهم في التوراة ومثلـهم في الإنجيل ﴾قال الفراء: فيه وجهان، إن شئت قلت المعنى: ذلك مثلـهم في التوراة وفي الإنجيل أيضا، كمثلـهم في القرآن، فيكون الوقف على

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٣)، وقال العجلوني في "كشف الخفاء"، (٢٥٨٧): قال في المقاصد: لا أصل له، وإن روي من طرق عند ابن ماجه بعضها عن جابر، وأورد الكثير منها القضاعي وغيره. قال: ولكن قرأت بخط شيخنا في بعض أجوبته أنه ضعيف، بل قواه بعضهم والمعتمد الأول، وأطنب ابن عدي في رده. قال ابن طاهر: ظن القضاعي أن الحديث صحيح لكثرة طرقه، وهو معذور؛ لأنه لم يكن حافظاً. وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع (٥٨٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٨١٣).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) ضعيف. وقد سبق تخريجه.

"الإنجيل" وإن شئت قلت: تمام الكلام ذلك مثلهم في التوراة، ثم ابتدأ فقال: ومثلهم في الإنجيل. وكذا قال ابن عباس وغيره: هما مثلان، أحدهما في التوراة والآخر في الإنجيل، فيوقف على هذا على "التوراة". وقال مجاهد: هو مثل واحد، يعني أن هذه صفتهم في التوراة والإنجيل، فلا يوقف على "التوراة" على هذا، ويوقف على "الإنجيل"، ويبتدئ: "كزرع أخرج شطأه" على معنى وهم كزرع. و"شطأه" يعني فراخه وأولاده، قاله ابن زيد وغيره. وقال مقاتل: هو نبت واحد، فإذا خرج ما بعده فقد شطأه. قال الجوهري: شطء الزرع والنبات: فراخه، والجمع أشطاء. وقد أشطأ الزرع خرج شطؤه. قال الأخفش في قوله: "أخرج شطأه" أي طرفه. وحكاه الثعلبي عن الكسائي. وقال الفراء: أشطأ الزرع فهو مشطئ إذا خرج. قال الشاعر:

أخرج الشطء على وجه الثرى ومن الأشجار أفنان الثمر

الزجاج: أخرج شطأه أي نباته. وقيل: إن الشطء شوك السنبل، والعرب أيضا تسميه: السفا، وهو شوك البهمى، قاله قطرب. وقيل: إنه السنبل، فيخرج من الحبة عشر سنبلات وتسع وثمان، قاله الفراء، حكاه الماوردي. وقرأ ابن كثير وابن ذكوان "شطأه" بفتح الطاء، وأسكن الباقون. وقرأ أنس ونصر بن عاصم وابن وثاب "شطاه" مثل عصاه. وقرأ الجحدري وابن أبي إسحاق "شطه" بغير همز، وكلها لغات فيها.

وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ، يعني أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي ﷺ حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفا فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفا فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ نباته وأفراخه. فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان. وقال قتادة: مثل أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. "فآزره" أي قواه وأعانه وشده، أي قوى الشطء الزرع. وقيل بالعكس، أي قوى الزرع الشطء. وقراءة العامة "آزره" بالمد. وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة وحميد بن قيس "فأزره" مقصورة، مثل فعله. والمعروف المد. قال امرؤ القيس:

بمحنية قد آزر الضال نبتها مجر جيوش غانمين وخيب

﴿ فاستغلظ فاستوى على سوقه﴾ على عوده الذي يقوم عليه فيكون ساقا له. والسوق: جمع الساق. ﴿ يعجب الزراع﴾ أي يعجب هذا الزرع زراعه. وهو مثل كما بينا، فالزرع محمد ﷺ، والشطء أصحابه، كانوا قليلا فكثروا، وضعفاء فقووا، قاله الضحاك وغيره. ﴿ ليغيظ بهم الكفار﴾ اللام متعلقة بمحذوف، أي فعل الله هذا لمحمد ﷺ وأصحابه ليغيظ بهم الكفار.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وعد الله الذين آمنوا﴾ أي وعد الله هؤلاء الذين مع محمد، وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة. ﴿ مغفرة وأجراً عظيما﴾ أي ثواباً لا ينقطع وهو الجنة. وليست "من" في قوله: "منهم" مبعضة لقوم من الصحابة دون قوم، ولكنها عامة مجنسة، مثل قوله تعالى: ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ (الحج: ٣٠) لا يقصد للتبعيض لكنه يذهب إلى الجنس، أي فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان، إذ كان الرجس يقع من أجناس شتى، منها الزنى والربا وشرب الخمر والكذب، فأدخل "من" يفيد بها الجنس وكذا "منهم"، أي من هذا الجنس، يعني جنس

الصحابة. ويقال: أنفق نفقتك من الدراهم، أي اجعل نفقتك هذا الجنس. وقد يخصص أصحاب محمد ﷺ بوعد المغفرة تفضيلا لـهم، وإن وعد الله جميع المؤمنين المغفرة. وفي الآية جواب آخر: وهو أن "من" مؤكدة للكلام، والمعنى وعدهم الله كلـهم مغفرة وأجرا عظيما. فجرى مجرى قول العربي: قطعت من الثوب قميصا، يريد قطعت الثوب كلـه قميصا. و"من" لم يبعض شيئا. وشاهد هذا من القرآن ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ﴾ (الإسراء: ٨٢) معناه وننزل القرآن شفاء، لأن كل حرف منه يشفي، وليس الشفاء مختصا به بعضه دون بعض. على أن من اللغويين من يقول: "من" مجنسة، تقديرها ننزل الشفاء من جنس القرآن، ومن جهة القرآن، ومن ناحية القرآن. قال زهير:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

أراد من ناحية أم أوفى دمنة، أم من منازلـها دمنة. وقال الآخر:

أخو رغائب يعطيها ويسألـها يأبى الظلامة منه النوفل الزفر

فـ "من" لم تبعض شيئا، إذ كان المقصد يأبى الظلامة لأنه نوفل زفر. والنوفل: الكثير العطاء. والزفر: حامل الأثقال والمؤن عن الناس.

الخامسة: روى أبو عروة الزبيري من ولد الزبير: كنا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالك هذه الآية "محمد رسول الله والذين معه" حتى بلغ "يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار". فقال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية، ذكره الخطيب أبو بكر.

قلت: لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويلـه. فمن نقص واحدا منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على الله رب العالمين، وأبطل شرائع المسلمين، قال الله تعالى: "محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار" الآية. وقال: ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ (الفتح: ١٨) إلى غير ذلك من الآي التي تضمنت الثناء عليهم، والشهادة لـهم بالصدق والفلاح، قال الله تعالى: ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ (الأحزاب: ٢٣). وقال: ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالـهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ﴾ إلى قولـه ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ (الحشر: ٨)، ثم قال عز من قائل: ﴿ والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلـهم ﴾ إلى قولـه ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ (الحشر: ٩). وهذا كلـه مع علمه تبارك وتعالى بحالـهم ومآل أمرهم، وقال رسول الله ﷺ: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم)[1] وقال: (لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا لم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه)[2] خرجهما البخاري. وفي حديث آخر: (فلو أن أحدكم أنفق ما في الأرض لم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه)[3]. قال أبو عبيد: معناه لم يدرك مد أحدهم إذا تصدق به ولا نصف المد، فالنصيف هو النصف هنا. وكذلك يقال للعشر

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٩)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

(٣) أخرجه بنحوه مسلم (٢٥٤٠).

عشير، وللخمس خميس، وللتسع تسيع، وللثمن ثمين، وللسبع سبيع، وللسدس سديس، وللربع ربيع. ولم تقل العرب للثلث ثليث.

وفي البزار عن جابر مرفوعا صحيحا: (إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لي من أصحابي أربعة ـ يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعليا ـ فجعلهم أصحابي). وقال: (في أصحابي كلهم خير)[1]. وروى عويم بن ساعدة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله عز وجل اختارني واختار لي أصحابي فجعل لي منهم وزراء وأختانا وأصهارا فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا)[2]. والأحاديث بهذا المعنى كثيرة، فحذار من الوقوع في أحد منهم، كما فعل من طعن في الدين فقال: إن المعوذتين ليستا من القرآن، وما صح حديث عن رسول الله ﷺ في تثبيتهما ودخولهما في جملة التنزيل إلا عن عقبة بن عامر، وعقبة بن عامر ضعيف لم يوافقه غيره عليها، فروايته مطروحة. وهذا رد لما ذكرناه من الكتاب والسنة، وإبطال لما نقلته لنا الصحابة من الملة. فإن عقبة بن عامر بن عيسى الجهني ممن روى لنا الشريعة في الصحيحين البخاري ومسلم وغيرهما، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم وأثنى عليهم ووعدهم مغفرة وأجرا عظيما. فمن نسبه أو واحدا من الصحابة إلى كذب فهو خارج عن الشريعة، مبطل للقرآن طاعن على رسول الله ﷺ. ومتى ألحق واحد منهم تكذيبا فقد سب، لأنه لا عار ولا عيب بعد الكفر بالله أعظم من الكذب، وقد لعن رسول الله ﷺ من سب أصحابه، فالمكذب لأصغرهم ـ ولا صغير فيهم ـ داخل في لعنة الله التي شهد بها رسول الله ﷺ، وألزمها كل من سب واحدا من أصحابه أو طعن عليه. وعن عمر بن حبيب قال: حضرت مجلس هارون الرشيد فجرت مسألة تنازعها الحضور وعلت أصواتهم، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم: لا يقبل هذا الحديث على رسول الله ﷺ، لأن أبا هريرة متهم فيما يرويه، وصرحوا بتكذيبه، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم فقلت أنا: الحديث صحيح عن رسول الله ﷺ، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن النبي ﷺ وغيره، فنظر إلي الرشيد نظر مغضب، وقمت من المجلس فانصرفت إلى منزلي، فلم ألبث حتى قيل: صاحب البريد بالباب، فدخل فقال لي: أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول، وتحنط وتكفن فقلت: اللهم إنك تعلم أني دافعت عن صاحب نبيك، وأجللت نبيك أن يطعن على أصحابه، فسلمني منه. فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسي من ذهب، حاسر عن ذراعيه، بيده السيف وبين يديه النطع، فلما بصر بي قال لي: يا عمر بن حبيب ما تلقاني أحد من الرد والدفع لقولي بمثل ما تلقيتني به فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الذي قلته وجادلت عنه فيه ازدراء على رسول الله ﷺ وعلى ما جاء به، إذا كان أصحابه كذابين فالشريعة باطلة، والفرائض والأحكام في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كله مردود غير مقبول فرجع إلى نفسه ثم قال: أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله، وأمر لي بعشرة آلاف درهم.

---

(١) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (١٠/ ١٦) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف".

(٢) "ضعيف"، انظر ضعيف الجامع (١٥٣٦).

قلت: فالصحابة كلـهم عدول، أولياء الله تعالى وأصفياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسلـه. هذا مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة. وقد ذهبت شرذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم، فيلزم البحث عن عدالتهم. ومنهم من فرق بين حالـهم في بداءة الأمر فقال: إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك، ثم تغيرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء، فلا بد من البحث. وهذا مردود، فإن خيار الصحابة وفضلاءهم كعلي وطلحة والزبير وغيرهم ﷺ ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضي عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقولـه تعالى: "مغفرة وأجرا عظيما". وخاصة العشرة المقطوع لـهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم بإخباره لـهم بذلك. وذلك غير مُسقط من مرتبتهم وفضلـهم، إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد، وكل مجتهد مصيب. وسيأتي الكلام في تلك الأمور في سورة "الحجرات" مبينة إن شاء الله تعالى.

سورة الحجرات

مقدمة السورة:

مدنية بإجماع. وهي ثماني عشرة آية.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قولـه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسولـه ﴾قال العلماء: كان في العرب جفاء وسوء أدب في خطاب النبي ﷺ وتلقيب الناس. فالسورة في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب. وقرأ الضحاك ويعقوب الحضرمي: "لا تَقَدَّموا" بفتح التاء والدال من التقدم. الباقون "تُقدموا" بضم التاء وكسر الدال من التقديم. ومعناهما ظاهر، أي لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدي الله وَقول رسولـه وفعلـه فيما سبيلـه أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا. ومن قدم قولـه أو فعلـه على الرسول ﷺفقد قدمه على الله تعالى، لأن الرسول ﷺإنما يأمر عن أمر الله عز وجل.

الثانية: واختلف في سبب نزولـها على أقوال ستة [1]: الأول: ما ذكره الواحدي من حديث ابن جريج قال: حدثني ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد. وقال عمر: أمر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي. وقال عمر: ما أردت خلافك. فتماديا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: "يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسولـه ـ إلى قولـه ـ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم". رواه البخاري [2] عن الحسن بن محمد بن الصباح، ذكره المهدوي أيضا.

الثاني: ما روي أن النبي ﷺأراد أن يستخلف على المدينة رجلا إذا مضى إلى خيبر، فأشار عليه عمر برجل آخر، فنزل: "يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسولـه". ذكره المهدوي أيضا.

الثالث: ما ذكره الماوردي عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺأنفذ أربعة وعشرين رجلا من أصحابه إلى بني عامر فقتلوهم، إلا ثلاثة تأخروا عنهم فسلموا وانكفؤوا إلى المدينة، فلقوا رجلين من بني سليم فسألوهما عن نسبهما فقالا: من بني عامر، لأنهم أعز من بني سليم فقتلوهما، فجاء نفر من بني سليم إلى رسول الله ﷺفقالوا: إن بيننا وبينك عهدا، وقد قتل منا رجلان، فوداهما النبي ﷺبمائة بعير، ونزلت عليه هذه الآية في قتلـهم الرجلين.

وقال قتادة: إن ناسا كانوا يقولون لو أنزل في كذا، لو أنزل فيّ كذا؟ فنزلت هذه الآية. ابن عباس: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه. مجاهد: لا تفتاتوا على الله ورسولـه حتى يقضي الله على لسان رسولـه، ذكره البخاري أيضا.

الحسن: نزلت في قوم ذبحوا قبل أن يصلي رسول الله ﷺ فأمرهم أن يعيدوا الذبح. ابن جريج: لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذي أمر الله تعالى به ورسولـه ﷺ.

---

(١)ذكر المصنف – رحمه الله – ثلاثة أقوال محددة، ثم أردف هذه الثلاثة بخمسة فبلغ عدد الأقوال ثمانية وليس ستة.

(٢)أخرجه البخاري في "التفسير"، (٤٨٤٥)، وفي غير موضع من صحيحه.

قلت: هذه الأقوال الخمسة[١] المتأخرة ذكرها القاضي أبو بكر بن العربي، وسردها قبله الماوردي. قال القاضي: وهي كلها صحيحة تدخل تحت العموم، فالله أعلم ما كان السبب المثير للآية منها، ولعلها نزلت دون سبب، والله أعلم. قال القاضي: إذا قلنا إنها نزلت في تقديم الطاعات على أوقاتها فهو صحيح، لأن كل عبادة مؤقتة بميقات لا يجوز تقديمها عليه كالصلاة والصوم والحج، وذلك بيّن. إلا أن العلماء اختلفوا في الزكاة، لما كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنى مفهوم، وهو سد خلة الفقير، ولأن النبي ﷺ استعجل من العباس صدقة عامين، ولما جاء من جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تعطى لمستحقيها يوم الوجوب وهو يوم الفطر، فاقتضى ذلك كله جواز تقديمها العام والاثنين. فإن جاء رأس العام والنصاب بحاله وقعت موقعها. وإن جاء رأس العام وقد تغير النصاب تبين أنها صدقة تطوع. وقال أشهب: لا يجوز تقديمها على الحول لحظة كالصلاة، وكأنه طرد الأصل في العبادات فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام فوفاها حقها في النظام وحسن الترتيب. ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائز، لأنه معفو عنه في الشرع بخلاف الكثير. وما قاله أشهب أصح، فإن مفارقة اليسير الكثير في أصول الشريعة صحيح، ولكنه لمعان تختص باليسير دون الكثير. فأما في مسألتنا فاليوم فيه كالشهر، والشهر كالسنة. فإما تقديم كلي كما قاله أبو حنيفة والشافعي، وإما حفظ العبادة على ميقاتها كما قال أشهب.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ لا تقدموا بين يدي الله ﴾ أصل في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ، وإيجاب اتباعه والاقتداء به، وكذلك قال النبي ﷺ في مرضه: (مروا أبا بكر فليصل بالناس). فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما: قولي له إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقم مقامك لا يُسْمع الناس من البكاء، فَمُرْ عمر فليصل بالناس. فقال ﷺ: (إنكن لأنتن صواحب يوسف. مروا أبا بكر فليصل بالناس)[٢]. فمعنى قوله (صواحب يوسف) الفتنة بالرد عن الجائز إلى غير الجائز. وربما احتج بُغَاةُ القياس بهذه الآية. وهو باطل منهم، فإن ما قامت دلالته فليس في فعله تقديم بين يديه. وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشرع، فليس إذاً تقدمٌ بين يديه. ﴿ واتقوا الله ﴾ يعني في التقدم المنهي عنه. ﴿ إن الله سميع ﴾ لقولكم ﴿ عليم ﴾ بفعلكم.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ روى البخاري والترمذي عن ابن أبي مليكة قال: حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبي ﷺ،

---

(١) يقصد بالأقوال الخمسة قول قتادة، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وابن جرير وهي مذكورة في أحكام القرآن لابن العربي في تفسير سورة الحجرات وفيه: "الزجاج" بدل "ابن جريج".

(٢) أخرجه البخاري في "الأنبياء" (٣٣٨٤)، ومسلم (٤٢٠).

فقال أبو بكر: يا رسول الله استعمله على قومه، فقال عمر: لا تستعمله يا رسول الله، فتكلما عند النبي ﷺ حتى ارتفعت أصواتهما، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي. فقال عمر: ما أردت خلافك، قال: فنزلت هذه الآية: "يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي" قال: فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه[1]. قال: وما ذكر ابن الزبير جده يعني أبا بكر. قال: هذا حديث غريب حسن. وقد رواه بعضهم عن ابن أبي مليكة مرسلا، لم يذكر فيه عن عبد الله بن الزبير.

قلت: هو البخاري، قال: عن ابن أبي مليكة كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، فقال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي. فقال: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي" الآية. فقال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه. ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني أبا بكر الصديق[2]. وذكر المهدوي عن علي رضي الله عنه: نزل قوله: "لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي" فينا لما ارتفعت أصواتنا أنا وجعفر وزيد بن حارثة، نتنازع ابنة حمزة لما جاء بها زيد من مكة، فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر، لأن خالتها عنده. وقد تقدم هذا الحديث في "آل عمران".

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالسا في بيته منكسا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر! كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا. فقال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: (اذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة) (لفظ البخاري)[3] وثابت هذا هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي يكنى أبا محمد بابنه محمد. وقيل: أبا عبد الرحمن. قتل له يوم الحرة ثلاثة من الولد: محمد، ويحيى، وعبد الله. وكان خطيبا بليغا معروفا بذلك، كان يقال له خطيب رسول الله ﷺ، كما يقال لحسان شاعر رسول الله ﷺ. ولما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ وطلبوا المفاخرة قام خطيبهم فافتخر، ثم قام ثابت بن قيس فخطب خطبة بليغة جزلة فغلبهم، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد:

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا	إذا خلفونا عند ذكر المكارم
وإنا رؤوس الناس من كل معشر	وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وإن لنا المرباع في كل غارة	تكون بنجد أو بأرض التهائم

فقام حسان فقال:

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه البخاري (٤٨٤٥).
(٣) أخرجه البخاري في "التفسير" (٤٨٤٦).

بـني دارم لا تفخـروا إن فخـركم يعـود وبالا عند ذكر المكارم
هبلتـم عـلينا تفخـرون وأنتـم لنا خـول من بين ظئر وخادم

في أبيات لـهما.

فقالوا: خطيبهم أخطب من خطيبنا، وشاعرهم أشعر من شاعرنا، فارتفعت أصواتهم فأنزل الله تعالى: "لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا لـه بالقول". وقال عطاء الخراساني: حدثتني ابنة ثابت بن قيس قالت: لما نزلت: "يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي" الآية، دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه، ففقده النبيﷺ فأرسل إليه يسألـه ما خبره، فقال: أنا رجل شديد الصوت، أخاف أن يكون حبط عملي. فقالﷺ: (لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير). قال: ثم أنزل الله: ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ (لقمان: ١٨) فأغلق بابه وطفق يبكي، ففقده النبيﷺ فأرسل إليه فأخبره، فقال: يا رسول الله، إني أحب الجمال وأحب أن أسود قومي. فقال: (لست منهم بل تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة). قالت: فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة فلما التقوا انكشفوا، فقال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول اللهﷺ، ثم حفر كل واحد منهما لـه حفرة فثبتا وقاتلا حتى قتلا، وعلى ثابت يومئذ درع لـه نفيسة، فمر به رجل من المسلمين فأخذها، فبينا رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال لـه: أوصيك بوصية، فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه، إني لما قتلت أمس مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزلـه في أقصى الناس، وعند خبائه فرس يستن في طولـه، وقد كفأ على الدرع برمة، وفوق البرمة رحل، فأت خالدا فمره أن يبعث إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول اللهﷺ ـ يعني أبا بكر ـ فقل لـه: إن علي من الدين كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق وفلان، فأتى الرجل خالدا فأخبره، فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته. قال: ولا نعلم أحدا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت[1]، رحمه الله، ذكره أبو عمر في الاستيعاب.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ ولا تجهروا لـه بالقول ﴾ أي لا تخاطبوه: يا محمد، ويا أحمد. ولكن: يا نبي الله، ويا رسول الله، توقيرا لـه. وقيل: كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبيﷺ، ليقتدي بهم ضعفة المسلمين فنهي المسلمون عن ذلك. وقيل: "لا تجهروا لـه" أي لا تجهروا عليه، كما يقال: سقط لفيه، أي على فيه - ﴿ كجهر بعضكم لبعض ﴾ الكاف كاف التشبيه في محل النصب، أي لا تجهروا لـه جهرا مثل جهر بعضكم لبعض. وفي هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا حتى لا يسوغ لـهم إلا أن يكلموه بالـهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة، أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها. ﴿ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ أي من أجل أن تحبط، أي تبطل، هذا قول البصريين. وقال الكوفيون: أي لئلا تحبط أعمالكم.

(١) ذكره بطوله السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٨٨) وعزاه إلى البغوي وابن المنذر والطبراني والحاكم وابن مردويه والخطيب في "المتفق والمفترق" عن عطاء الخراساني.

الثالثة: معنى الآية الأمر بتعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته، أي إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه غالبا لكلامكم، وجهره باهرا لجهركم، حتى تكون مزيته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشية الأبلق. لا أن تغمروا صوته بلغطكم، وتبهروا منطقه بصخبكم. وفي قراءة ابن مسعود "لا ترفعوا بأصواتكم". وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره ﷺ. وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفا لهم، إذ هم ورثة الأنبياء.

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي: حرمة النبي ﷺ ميتا كحرمته حيا، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه، وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به. وقد نبه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ (الأعراف: ٢٠٤). وكلامه ﷺ من الوحي، وله من الحكمة مثل ما للقرآن، إلا معاني مستثناة، بيانها في كتب الفقه.

الخامسة: وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون. وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جَرْسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه ورده إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير. ولم يتناول النهي أيضا رفع الصوت الذي يتأذى به رسول الله ﷺ وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو ما أشبه ذلك، ففي الحديث أنه قال ﷺ للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين: (اصرخ بالناس)[(١)]، وكان العباس أجهر الناس صوتا. يروى أن غارة أتتهم يوما فصاح العباس: يا صباحاه فأسقطت الحوامل لشدة صوته، وفيه يقول نابغة بني جعدة:

زجر أبي عروة السباع إذا أشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع في جوفه.

السادسة: قال الزجاج: ﴿ أن تحبط أعمالكم ﴾ التقدير لأن تحبط، أي فتحبط أعمالكم، فاللام المقدرة لام الصيرورة وليس قوله: "أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون" بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافرا من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع. كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) ﴾

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٧٧٥).

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ أي يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالا لـه، أو كلموا غيره بين يديه إجلالا لـه. قال أبو هريرة: لما نزلت "لا ترفعوا أصواتكم" قال أبو بكر ﷺ: والله لا أرفع صوتي إلا كأخي السرار. وذكر سنيد قال: حدثنا عباد بن العوام عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة قال: لما نزلت: ﴿ لا تقدموا بين يدي الله ورسولـه ﴾ (الحجرات: ١) قال أبو بكر: والذي بعثك بالحق لا أكلمك بعد هذا إلا كأخي السرار[1]. وقال عبد الله بن الزبير: لما نزلت: "لا ترفعوا أصواتكم" ما حدث عمر عند النبي ﷺ بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض، فنزلت: "إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى". قال الفراء: أي أخلصها للتقوى. وقال الأخفش: أي اختصها للتقوى. وقال ابن عباس: "امتحن الله قلوبهم للتقوى" طهرهم من كل قبيح، وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوى. وقال عمر ﷺ: أذهب عن قلوبهم الشهوات. والامتحان افتعال من محنت الأديم محنا حتى أوسعته. فمعنى امتحن الله قلوبهم للتقوى وسعها وشرحها للتقوى. وعلى الأقوال المتقدمة: امتحن قلوبهم فأخلصها، كقولك: امتحنت الفضة أي اختبرتها حتى خلصت. ففي الكلام حذف يدل عليه الكلام، وهو الإخلاص. وقال أبو عمرو: كل شيء جهدته فقد محنته. وأنشد:

أتـت رذايـا باديـا كـلالـها   قد محنت واضطربت آطالـها

﴿ لـهم مغفرة وأجر عظيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ قال مجاهد وغيره: نزلت في أعراب بني تميم، قدم الوفد منهم على النبي ﷺ، فدخلوا المسجد ونادوا النبي ﷺ من وراء حجرته أن اخرج إلينا، فإن مدحنا زين وذمنا شين. وكانوا سبعين رجلا قدموا الفداء ذراري لـهم، وكان النبي ﷺ نام للقائلة. وروي أن الذي نادى الأقرع بن حابس، وأنه القائل: إن مدحي زين وإن ذمي شين، فقال النبي ﷺ: (ذاك الله). ذكره الترمذي عن البراء بن عازب أيضا[2]. وروى زيد بن أرقم فقال: أتى أناس النبي ﷺ فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبيا فنحن أسعد الناس باتباعه، وإن يكن ملكا نعش في جنابه. فأتوا النبي ﷺ فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية[3]. قيل: إنهم كانوا من بني تميم. قال مقاتل كانوا تسعة عشر: قيس ابن عاصم، والزبرقان بن بدر، والأقرع بن حابس، وسويد بن هاشم، وخالد بن مالك، وعطاء بن حابس، والقعقاع بن معبد، ووكيع بن وكيع، وعيينة بن حصن وهو الأحمق المطاع، وكان من

---

(١) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٧/١٠٨) وقال: "رواه البزار وفيه حصين بن عمر الأحمسي، وهو متروك، وقد وثقه العجلي، وبقية رجاله رجال الصحيح".

(٢) "صحيح" وانظر صحيح سنن الترمذي (٢٦٠٥).

(٣) رواه الطبراني، وفيه داود بن راشد الطفاوي، وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات. وحسنه السيوطي كما في "الدر المنثور"، (٦/ ٨٩).

الجرارين يجر عشرة آلاف قناة، أي يتبعه، وكان اسمه حذيفة وسمي عيينة لشتر[1] كان في عينيه. ذكر عبد الرزاق في عيينة هذا: أنه الذي نزل فيه ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ (الكهف: ٢٨). وقد مضى في آخر "الأعراف" من قولـه لعمر ﷺ ما فيه كفاية، ذكره البخاري. وروي أنهم وفدوا وقت الظهيرة ورسول الله ﷺ راقد، فجعلوا ينادونه: يا محمد يا محمد، اخرج إلينا، فاستيقظ وخرج، ونزلت. وسئل رسول الله ﷺ فقال: (هم جفاة بني تميم لولا أنهم من أشد الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم)[2]. والحجرات جمع الحجرة، كالغرفات جمع غرفة، والظلمات جمع ظلمة. وقيل: الحجرات جمع الحجر، والحجر جمع حجرة، فهو جمع الجمع. وفيه لغتان: ضم الجيم وفتحها. قال:

ولما رأونا باديا ركباتنا على موطن لا نخلط الجد بالهزل

والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها. وحظيرة الإبل تسمى الحجرة، وهي فعلة بمعنى مفعولة. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع "الحجرات" بفتح الجيم استثقالا للضمتين. وقرئ "الحجرات" بسكون الجيم تخفيفا. وأصل الكلمة المنع. وكل ما منعت أن يوصل إليه فقد حجرت عليه. ثم يحتمل أن يكون المنادي بعضا من الجملة فلـهذا قال: "أكثرهم لا يعقلون" أي إن الذين ينادونك من جملة قوم الغالب عليهم الجهل.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

أي لو انتظروا خروجك لكان أصلح في دينهم ودنياهم. وكان ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه، فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب. وقيل: كانوا جاؤوا شفعاء في أسارى بني عنبر فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم، وفادى على النصف. ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء. ﴿ والله غفور رحيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط. وسبب ذلك ما رواه سعيد عن قتادة أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة مصدقا إلى بني المصطلق، فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم ـ في رواية: لإحنة كانت بينه وبينهم ـ، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام. فبعث نبي الله ﷺ خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلا، فبعث عيونه فلما جاءوا أخبروا خالدا أنهم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه،

(١) الشتر: انقلاب جفن العين من أعلى وأسفل وتشنجه، وقيل استرخاء الجفن الأسفل.

(٢) أخرجه ابن مردويه من طريق يعلى بن الأشدق عن سعد بن عبد الله مرسلا كما في المصدر السابق (٦/ ٩٠).

فعاد إلى نبي الله ﷺ فأخبره، فنزلت هذه الآية، فكان يقول نبي الله ﷺ: (التأني من الله والعجلة من الشيطان)[1]. وفي رواية: أن النبي ﷺ بعثه إلى بني المصطلق بعد إسلامهم، فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم خافهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن القوم قد هموا بقتله، ومنعوا صدقاتهم. فهم رسول الله ﷺ بغزوهم، فبينما هم كذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة، فاستمر راجعا، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله أنا خرجنا لنقاتله، والله ما خرجنا لذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وسمي الوليد فاسقا أي كاذبا. قال ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله: الفاسق: الكذاب. وقال أبو الحسن الوراق: هو المعلن بالذنب. وقال ابن طاهر: الذي لا يستحي من الله. وقرأ حمزة والكسائي "فتثبتوا" من التثبت. الباقون "فتبينوا" من التبين ﴿أن تصيبوا قوما ﴾أي لئلا تصيبوا، فـ "أن" في محل نصب بإسقاط الخافض. ﴿بجهالة ﴾أي بخطأ. ﴿فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾على العجلة وترك التأني.

الثانية: في هذه الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلا، لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق. ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعا، لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها. وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما يتعلق بالدعوى والجحود، وإثبات حق مقصود على الغير، مثل أن يقول: هذا عبدي، فإنه يقبل قوله. وإذا قال: قد أنفذ فلان هذا لك هدية، فإنه يقبل ذلك. وكذلك يقبل في مثله خبر الكافر. وكذلك إذا أقر لغيره بحق على نفسه فلا يبطل إجماعا. وأما في الإنشاء على غيره فقال الشافعي وغيره: لا يكون وليا في النكاح. وقال أبو حنيفة ومالك: يكون وليا، لأنه يلي ما لها فيلي بضعها. كالعدل، وهو وإن كان فاسقا في دينه إلا أن غيرته موفرة وبها يحمي الحريم، وقد يبذل المال ويصون الحرمة، وإذا ولي المال فالنكاح أولى.

قال ابن العربي: ومن العجب أن يجوز الشافعي ونظراؤه إمامة الفاسق. ومن لا يؤتمن على حبة مال كيف يصح أن يؤتمن على قنطار دين. وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم، ولا استطيعت إزالتهم صلي معهم ووراءهم، كما قال عثمان: الصلاة أحسن ما يفعل الناس، فإذا أحسنوا فأحسن، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم. ثم كان من الناس من إذا صلى معهم تقية أعادوا الصلاة لله، ومنهم من كان يجعلها صلاته. وبوجوب الإعادة أقول، فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة، ولكن يعيد سرا في نفسه، ولا يؤثر ذلك عند غيره.

الرابعة: وأما أحكامه إن كان واليا فينفذ منها ما وافق الحق ويرد ما خالفه، ولا ينقض حكمه الذي أمضاه بحال، ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية تؤثر أو قول يحكى، فإن الكلام كثير والحق ظاهر.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مرسلا كما في "الدر المنثور" (٦/ ٩٣). وقوله: "التأني من الله والعجلة من الشيطان" أخرجه البيهقي في الشعب وغيره عن أنس مرفوعاً بسند حسن، كما في صحيح الجامع (٣٠١١).

الخامسة: لا خلاف في أنه يصح أن يكون رسولا عن غيره في قول يبلغه أو شيء يوصلـه، أو إذن يعلمه، إذا لم يخرج عن حق المرسل، والمبلغ، فإن تعلق به حق لغيرهما لم يقبل قولـه. وهذا جائز للضرورة الداعية إليه، فإنه لو لم يتصرف بين الخلق في هذه المعاني إلا العدول لم يحصل منها شيء لعدمهم في ذلك. والله أعلم.

السادسة: وفي الآية دليل على فساد قول من قال: إن المسلمين كلـهم عدول حتى تثبت الجرحة، لأن الله تعالى أمر بالتثبت قبل القبول، ولا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم، فإن حكم الحاكم قبل التثبت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة.

السابعة: فإن قضى بما يغلب على الظن لم يكن ذلك عملا بجهالة، كالقضاء بالشاهدين العدلين، وقبول قول العالم المجتهد. وإنما العمل بالجهالة قبول قول من لا يحصل غلبة الظن بقبولـه. ذكر هذه المسألة القشيري، والذي قبلـها المهدوي.

قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ فلا تكذبوا، فإن الله يعلمه أنباءكـم فتفتضحون. ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ أي لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقة وإثم، فإنه لو قتل القوم الذين سعى بهم الوليد بن عقبة إليه لكان خطأ، ولعنت من أراد إيقاع الـهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم. ومعنى طاعة الرسول لـهم: الائتمار بما يأمر به فيما يبلغونه عـن الناس والسـماع منـهم. والعـنت الإثـم، يقال: عـنت الرجـل. والعـنت أيضا الفجور والزنى، كما في سورة "النساء". والعنت أيضا الوقوع في أمر شاق، وقد مضى في آخر "التوبة" القول في ﴿ عنتم ﴾ (التوبة: ١٢٨) بأكثر من هذا. ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان ﴾ هذا خطاب للمؤمنين المخلصين الذين لا يكذبون النبيﷺ ولا يخبرون بالباطل، أي جعل الإيمان أحب الأديان إليكم. ﴿ وزينه ﴾ بتوفيقه. ﴿ في قلوبكم ﴾ أي حسنه إليكم حتى اخترتموه. وفي هذا رد على القدرية والإمامية وغيرهم، حسب ما تقدم في غير موضع. فهو سبحانه المنفرد بخلق ذوات الخلق وخلق أفعالـهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم، لا شريك لـه. ﴿ وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ قال ابن عباس: يريد به الكذب خاصة. وقالـه ابن زيد. وقيل: كل ما خرج عن الطاعة، مشتق من فسقت الرطبة خرجت من قشرها. والفأرة من جحرها. وقد مضى في "البقرة" القول فيه مستوفى. والعصيان جمع المعاصي. ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال: ﴿ أولئك ﴾ يعني هم الذين وفقهم الله فحبب إليهم الإيمان وكره إليهم الكفر أي قبحه عندهم ﴿ هم الراشدون ﴾ كقولـه تعالى: ﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ (الروم: ٣٩). قال النابغة:

يا دار مَيَّةَ بالعلياء فالسند أقوَتْ وطال عليها سالف الأمد

والرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه، من الرشاد وهي الصخرة. قال أبو الوازع: كل صخرة رشادة. وأنشد:

وغير مقلد وموشمات صلين الضوء من صم الرشاد

﴿ فضلا من الله ونعمة ﴾ أي فعل الله ذلك بكم فضلا، أي الفضل والنعمة، فهو مفعول له. ﴿ والله عليم حكيم ﴾ "عليم" بما يصلحكم "حكيم" في تدبيركم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ روى المعتمر بن سليمان عن أنس بن مالك قال: قلت: يا نبي الله، لو أتيت عبد الله بن أبي؟ فانطلق إليه النبي ﷺ، فركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني فوالله لقد أذاني نتن حمارك. فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك. فغضب لعبد الله رجل من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم حرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزل فيهم هذه الآية[1]. وقال مجاهد: نزلت في الأوس والخزرج. قال مجاهد: تقاتل حيان من الأنصار بالعصي والنعال فنزلت الآية. ومثله عن سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان بينهم على عهد رسول الله ﷺ قتال بالسعف والنعال ونحوه، فأنزل الله هذه الآية فيهم. وقال قتادة: نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مداراة في حق بينهما فقال أحدهما: لآخذن حقي عنوة، لكثرة عشيرته. ودعاه الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ فأبى أن يتبعه، فلم يزل الأمر بينهما حتى تواقعا وتناول بعضهم بعضا بالأيدي والنعال والسيوف، فنزلت هذه الآية. وقال الكلبي: نزلت في حرب سُمير وحاطب، وكان سمير قتل حاطبا، فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبي ﷺ، فنزلت. وأمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أن يصلحوا بينهما. وقال السدي: كانت امرأة من الأنصار يقال لها: أم زيد تحت رجل من غير الأنصار، فتخاصمت مع زوجها، أرادت أن تزور قومها فحبسها زوجها وجعلها في علية لا يدخل عليها أحد من أهلها، وأن المرأة بعثت إلى قومها، فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها، فخرج الرجل فاستغاث أهله فخرج بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها، فتدافعوا وتجالدوا بالنعال، فنزلت الآية. والطائفة تتناول الرجل الواحد والجمع والاثنين، فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد الله "حتى يفيئوا إلى أمر الله فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط". وقرأ ابن أبي عبلة "اقتتلتا" على لفظ الطائفتين. وقد مضى في آخر "التوبة" القول فيه. وقال ابن

---

(1) أخرجه البخاري في "الصلح"، (٢٦٩١)، ومسلم في "الجهاد"، (٤/ ٤٤٣).

عباس في قولـه عز وجل: ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ (الروم: ٢) قال: الواحد فما فوقه، والطائفة من الشيء القطعة منه. ﴿ فأصلحوا بينهما ﴾ بالدعاء إلى كتاب الله لـهما أو عليهما. ﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى ﴾ تعدت ولم تجب إلى حكم الله وكتابه. والبغي: التطاول والفساد. ﴿ فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ أي ترجع إلى كتابه. ﴿ فإن فاءت ﴾ أي فإن رجعت ﴿ فأصلحوا بينهما بالعدل ﴾ أي احملوهما على الإنصاف. ﴿ وأقسطوا ﴾ أقسطوا أيها الناس فلا تقتتلوا. وقيل: أقسطوا أي اعدلوا. ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ أي العادلين المحقين.

الثانية: قال العلماء: لا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالـهما، إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعا أو لا. فإن كان الأول فالواجب في ذلك أن يمشي بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة. فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقامتا على البغي صير إلى مقاتلتهما. وأما إن كان الثاني وهو أن تكون إحداهما باغية على الأخرى، فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغي عليها بالقسط والعدل. فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة، فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق. فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لـهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين. والله أعلم.

الثالثة: في هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين. وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين، واحتج بقولـه ﷺ: (قتال المؤمن كفر)[(١)]. ولو كان قتال المؤمن الباغي كفرا لكان الله تعالى قد أمر بالكفر، تعالى الله عن ذلك! وقد قاتل الصدّيق ﷺ من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة، وأمر ألا يتبع مُولٍّ، ولا يجهز على جريح، ولم تحل أموالـهم، بخلاف الواجب في الكفار. وقال الطبري: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الـهرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حد ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسبي نسائهم وسفك دمائهم، بأن يتحزبوا عليهـم، ويكـف المسلـمون أيديهـم عنهم، وذلك مخالف لقولـه ﷺ: (خذوا على أيدي سفهائكم)[(٢)].

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عول الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عنى النبي ﷺ بقولـه: (تقتل عمارا الفئة الباغية)[(٣)]. وقولـه ﷺ في شأن الخوارج: (يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة)[(٤)]، والرواية الأولى أصح، لقولـه ﷺ: (تقتلـهم أولى الطائفتين إلى الحق). وكان الذي قتلـهم علي بن أبي طالب ومن كان معه. فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدين أن عليا ﷺ كان

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨)، وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٦٤) بلفظ "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر".
(٢) "ضعيف" وانظر ضعيف الجامع (٢٨١٩).
(٣) أخرجاه بنحوه في الصحيحين.
(٤) جزء من حديث الخوارج أخرجاه في الصحيحين.

إماما، وأن كل من خرج عليه باغ وأن قتالـه واجب حتى يفيء إلى الحق وينقاد إلى الصلح، لأن عثمان ﷺ قتل والصحابة برآء من دمه، لأنه منع من قتال من ثار عليه وقال: لا أكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بالقتل، فصبر على البلاء، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة. ثم لم يمكن ترك الناس سدى، فعرضت على باقي الصحابة الذين ذكرهم عمر في الشورى، وتدافعوها، وكان علي كرم الله وجهه أحق بها وأهلـها، فقبلـها حوطة على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل، أو يتخرق أمرها إلى ما لا يتحصل. فربما تغير الدين وانقض عمود الإسلام. فلما بويع لـه طلب أهل الشام في شرط البيعة التمكن من قتلة عثمان وأخذ القود منهم، فقال لـهم علي ﷺ: ادخلوا في البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه. فقالوا: لا تستحق بيعة وقتلة عثمان معك تراهم صباحاً ومساءً. فكان علي في ذلك أشد رأيا وأصوب قيلا، لأن عليا لو تعاطى القود منهم لتعصبت لـهم قبائل وصارت حربا ثالثة، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقد البيعة، ويقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم، فيجري القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة. وكذلك جرى لطلحة والزبير، فإنهما ما خلعا عليا من ولاية ولا اعترضا عليه في ديانة، وإنما رأيا أن البداءة بقتل أصحاب عثمان أولى.

قلت: فهذا قول في سبب الحرب الواقع بينهم. وقال جلة من أهل العلم: إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به، لأن الأمر كان قد انتظم بينهم، وتم الصلح والتفرق على الرضا. فخاف قتلة عثمان ﷺ من التمكين منهم والإحاطة بهم، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين، ويبدأوا بالحرب سحرة في العسكرين، وتختلف السهام بينهم، ويصيح الفريق الذي في عسكر علي: غدر طلحة والزبير. والفريق الذي في عسكر طلحة والزبير: غدر علي. فيتم لـهم ذلك على ما دبروه، ونشبت الحرب، فكان كل فريق دافعا لمكرته عند نفسه، ومانعا من الإشاطة بدمه. وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى، إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل. وهذا هو الصحيح المشهور. والله أعلم.

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿ فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ أمر بالقتال. وهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ولذلك تخلف قوم من الصحابة ﷺ عن هذه المقامات، كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو ومحمد بن مسلمة وغيرهم. وصوب ذلك علي بن أبي طالب لـهم، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبلـه منه. ويروى أن معاوية ﷺ لما أفضى إليه الأمر، عاتب سعدا على ما فعل، وقال لـه: لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا، ولا ممن قاتل الفئة الباغية. فقال لـه سعد: ندمت على تركي قتال الفئة الباغية. فتبين أنه ليس على الكل درك فيما فعل، وإنما كان تصرفا بحكم الاجتهاد وإعمالا بمقتضى الشرع. والله أعلم.

السادسة: قولـه تعالى: ﴿ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ﴾ ومن العدل في صلحهم ألا يطالبوا بما جرى بينهم من دم ولا مال، فإنه تلف على تأويل. وفي طلبهم تنفير لـهم عن الصلح واستشراء في البغي. وهذا أصل في المصلحة. وقد قال لسان الأمة: إن حكمة الله تعالى في حرب الصحابة التعريف

منهم لأحكام قتال أهل التأويل، إذ كان أحكام قتال أهل الشرك قد عرفت على لسان الرسول ﷺ وفعلـه.

السابعة: إذا خرجت على الإمام العدل خارجة باغية ولا حجة لـها، قاتلـهم الإمام بالمسلمين كافة أو بمن فيه كفاية، ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة، فإن أبوا من الرجوع والصلح قوتلوا. ولا يقتل أسيرهم ولا يتبع مدبرهم ولا يذفف على جريحهم، ولا تسبى ذراريهم ولا أموالـهم. وإذا قتل العادل الباغي، أو الباغي العادل وهو وليه لم يتوارثا. ولا يرث قاتل عمدا على حال. وقيل: إن العادل يرث الباغي، قياسا على القصاص.

الثامنة: وما استهلكه البغاة والخوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤاخذوا به. وقال أبو حنيفة: يضمنون. وللشافعي قولان. وجه قول أبي حنيفة أنه إتلاف بعدوان فيلزم الضمان. والمعول في ذلك عندنا أن الصحابة ﷺ في حروبهم لم يتبعوا مدبرا ولا ذففوا على جريح ولا قتلوا أسيرا ولا ضمنوا نفسا ولا مالا، وهم القدوة.

وقال ابن عمر: قال النبي ﷺ: (يا عبد الله أتدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة)؟ قال: الله ورسولـه أعلـم. فقال: (لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيئها)[1]. فأما ما كان قائما رد بعينه.

هذا كله فيمن خرج بتأويل يسوغ لـه. وذكر الزمخشري في تفسيره: إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لـها ضمنت بعد الفيئة ما جنت، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة لم تضمن، إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت. وأما قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنته عند الجميع. فحمل الإصلاح بالعدل في قولـه: "فأصلحوا بينهما بالعدل" على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل. وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة الباغية قليلة العدد. والذي ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات، ليس بحسن الطباق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط. قال الزمخشري: فإن قلت: لم قرن بالإصلاح الثاني العدل دون الأول؟ قلت: لأن المراد بالاقتتال في أول الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبتي شبهة، وأيتهما كانت فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاح ذات البين وتسكين الدهماء بإراءة الحق والمواعظ الشافية ونفي الشبهة، إلا إذا أصرتا فحينئذ تجب المقاتلة، وأما الضمان فلا يتجه. وليس كذلك إذا بغت إحداهما، فإن الضمان متجه على الوجهين المذكورين.

التاسعة: ولو تغلبوا (أي البغاة) على بلد فأخذوا الصدقات وأقاموا الحدود وحكموا فيهم بالأحكام، لم تثن عليهم الصدقات ولا الحدود، ولا ينقض من أحكامهم إلا ما كان خلافا للكتاب أو السنة أو الإجماع، كما تنقض أحكام أهل العدل والسنة، قالـه مطرف وابن الماجشون. وقال ابن

---

(١) قال الهيثمي في "المجمع"، (٦/ ٢٤٣): "رواه البزار والطبراني في الأوسط، وقال: "لا يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد". قلت ـ أي الهيثمي ـ: وفيه كوثر بن حكيم وهو ضعيف متروك".

القاسم: لا تجوز بحال. وروي عن أصبغ أنه جائز. وروي عنه أيضا أنه لا يجوز كقول ابن القاسم. وبه قال أبو حنيفة، لأنه عمل بغير حق ممن لا تجوز توليته. فلم يجز كما لو لم يكونوا بغاة. والعمدة لنا ما قدمناه من أن الصحابة ﷺ، لما انجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالهدنة والصلح، لم يعرضوا لأحد منهم في حكم. قال ابن العربي: الذي عندي أن ذلك لا يصلح، لأن الفتنة لما انجلت كان الإمام هو الباغي، ولم يكن هناك من يعترضه والله أعلم.

العاشرة: لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبة ولنهي النبي ﷺعن سبهم، وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم. هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي ﷺأن طلحة شهيد يمشي على وجه الأرض [(١)]، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصيانا لم يكن بالقتل فيه شهيدا. وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأ في التأويل وتقصيرا في الواجب عليه، لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل في طاعة، فوجب حمل أمرهم على ما بيناه. ومما يدل على ذلك ما قد صح وانتشر من أخبار علي بأن قاتل الزبير في النار. وقوله: سمعت رسول الله ﷺيقول: (بشر قاتل ابن صفية بالنار) [(٢)]. وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير غير عاصيين ولا آثمين بالقتال، لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبي ﷺفي طلحة: (شهيد). ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار. وكذلك من قعد غير مخطئ في التأويل. بل صواب أراهم الله الاجتهاد. وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم، وإبطال فضائلهم وجهادهم، وعظيم غنائهم في الدين، ﷺ. وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ (البقرة: ١٤١). وسئل بعضهم عنها أيضا فقال: تلك دماء طهر الله منها يدي، فلا أخضب بها لساني. يعني في التحرز من الوقوع في خطأ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيبا فيه. قال ابن فورك: ومن أصحابنا من قال: إن سبيل ما جرت بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف مع يوسف، ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حد الولاية والنبوة، فكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة. وقال المحاسبي: فأما الدماء فقد أشكل علينا القول فيها باختلافهم. وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال: قتال شهده أصحاب محمد ﷺوغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا. قال المحاسبي: فنحن نقول كما قال الحسن، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا، ونتبع ما اجتمعوا عليه، ونقف عند ما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأيا منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل، إذ كانوا غير متهمين في الدين، ونسأل الله التوفيق.

---

(١) "صحيح" أخرجه الترمذي (٤٠٠٤) بلفظ: "من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة ابن عبيد"، وانظر صحيح سنن الترمذي (٢٩٤٠).

(٢) أخرجه أحمد في "المسند"، (١/ ٨٩) موقوفاً على علي ﷺ، ولفظه: عن زر بن حبيش قال: استأذن ابن جرموز على علي وأنا عنده، فقال علي: بشر قاتل ابن صفية بالنار. وقال الشيخ شاكر في تعليقه على "المسند"، (٦٨١): "إسناده صحيح".

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ أي في الدين والحرمة لا في النسب، ولـهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب. وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا)[1]. وفي رواية: (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذلـه ولا يحقره، التقوى ها هنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب أمرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه ومالـه وعرضه) لفظ مسلم[2].

وفي غير الصحيحين عن أبي هريرة قال النبي ﷺ: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يعيبه ولا يخذلـه ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغرف لـه غرفة ولا يشتري لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها). ثم قال النبي ﷺ: (احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل).

الثانية: قولـه تعالى: ﴿فأصلحوا بين أخويكم ﴾ أي بين كل مسلمين تخاصما. وقيل: بين الأوس والخزرج، على ما تقدم. وقال أبو علي: أراد بالأخوين الطائفتين، لأن لفظ التثنية يرد والمراد به الكثرة، كقولـه تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان ﴾ (المائدة: ٦٤). وقال أبو عبيدة: أي أصلحوا بين كل أخوين، فهو آت على الجميع. وقرأ ابن سيرين ونصر بن عاصم وأبو العالية والجحدري ويعقوب "بين إخوتكم" بالتاء على الجمع. وقرأ الحسن "إخوانكم". الباقون: "أخويكم" بالياء على التثنية.

الثالثة: في هذه الآية والتي قبلـها دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين. قال الحارث الأعور: سئل علي بن أبي طالب ﷺ وهو القدوة عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصفين: أمشركون هم؟ قال: لا، من الشرك فروا. فقيل: أمنافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا. قيل لـه: فما حالـهم؟ قال إخواننا بغوا علينا.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ﴾ قيل عند الله. وقيل "خيرا منهم" أي معتقدا وأسلم باطنا. والسخرية الاستهزاء. سخرت منه أسخر

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٤٣).

(٢) أخرجه مسلم في "البر والصلة"، (٢٥٦٣).

سخرا (بالتحريك) ومسخرا وسخرا (بالضم). وحكى أبو زيد سخرت به، وهو أردأ اللغتين. وقال الأخفش: سخرت منه وسخرت به، وضحكت منه وضحكت به، وهزئت منه وهزئت به، كل يقال. والاسم السخرية والسخري، وقرئ بهما قولـه تعالى: ﴿ ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ (الزخرف: ٣٢) وقد تقدم. وفلان سخرة، يتسخر في العمل. يقال: خادم سخرة. ورجل سخرة أيضا يسخر منه. وسخرة (بفتح الخاء) يسخر من الناس.

الثانية: واختلف في سبب نزولـها، فقال ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وقر، فإذا سبقوه الى مجلس النبي ﷺ أوسعوا لـه إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبي ﷺ، فلما انصرف النبي ﷺ أخذ أصحابه مجالسهم منه، فربض كل رجل منهم بمجلسه، وعضوا فيه فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يظل الرجل لا يجد مجلسا فيظل قائما، فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا تفسحوا، ففسحوا لـه حتى انتهى إلى النبي ﷺ وبينه وبينه رجل فقال لـه: تفسح. فقال لـه الرجل: قد وجدت مجلسا فاجلس! فجلس ثابت من خلفه مغضبا، ثم قال: من هذا؟ قالوا فلان، فقال ثابت: ابن فلانة! يعيره بها، يعني أما لـه في الجاهلية، فاستحيا الرجل، فنزلت. وقال الضحاك: نزلت في وفد بني تميم الذي تقدم ذكرهم في أول "السورة" استهزؤوا بفقراء الصحابة، مثل عمار وخباب وابن فهيرة وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم، لما رأوا من رثاثة حالـهم، فنزلت في الذين آمنوا منهم. وقال مجاهد: هو سخرية الغني من الفقير. وقال ابن زيد: لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله، فلعل إظهار ذنوبه في الدنيا خير لـه في الآخرة. وقيل: نزلت في عكرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلما، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا ابن فرعون هذه الأمة. فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت.

وبالجملة فينبغي ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رث الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبيق في محادثته، فلعلـه أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله، والاستهزاء بمن عظمه الله. ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل: لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع. وعن عبد الله بن مسعود: البلاء موكل بالقول، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبا.

و"قوم" في اللغة للمذكرين خاصة. قال زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري أقـوم آل حـصن أم نســـاء

وسموا قوما لأنهم يقومون مع داعيهم في الشدائد. وقيل: إنه جمع قائم، ثم استعمل في كل جماعة وإن لم يكونوا قائمين. وقد يدخل في القوم النساء مجازا، وقد مضى في "البقرة" بيانه.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ﴾ أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر. وقد قال الله تعالى: ﴿ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ (نوح: ١) فشمل الجميع. قال المفسرون: نزلت في امرأتين من أزواج النبي ﷺ سخرتا من أم سلمة، وذلك أنها ربطت خصريها

بسبيبة ـ وهو ثوب أبيض، ومثلها السب ـ وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها، فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما: انظري! ما تجر خلفها كأنه لسان كلب، فهذه كانت سخريتهما. وقال أنس وابن زيد: نزلت في نساء النبي ﷺ، عيرن أم سلمة بالقصر. وقيل: نزلت في عائشة، أشارت بيدها إلى أم سلمة، يا نبي الله إنها لقصيرة. وقال عكرمة عن ابن عباس: إن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء يعيرنني، ويقلن لي يا يهودية بنت يهوديين فقال رسول الله ﷺ: (هلا قلت إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي محمد)[١]. فأنزل الله هذه الآية.

الرابعة: في صحيح الترمذي عن عائشة قالت: حكيت للنبي ﷺ رجلا، فقال: (ما يسرني أني حكيت رجلا وأن لي كذا وكذا). قالت فقلت: يا رسول الله، إن صفية امرأة ـ وقالت بيدها ـ هكذا، يعني أنها قصيرة. فقال: (لقد مزجت بكلمة لو مزج بها البحر لمزج)[٢]. وفي البخاري عن عبد الله بن زمعة قال: نهى النبي ﷺ أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنفس. وقال: (لم يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل ثم لعله يعانقها)[٣]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[٤]. وهذا حديث عظيم يترتب عليه ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفا مذموما لا تصح معه تلك الأعمال. ولعل من رأينا عليه تفريطا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه. فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية. ويترتب عليها عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالا صالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالا سيئة. بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة، لا تلك الذات المسيئة. فتدبر هذا، فإنه نظر دقيق، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ اللمز: العيب، وقد مضى في "التوبة" عند قوله تعالى: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ (التوبة: ٥٨). وقال الطبري: اللمز باليد والعين واللسان والإشارة. والهمز لا يكون إلا باللسان. وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ (النساء: ٢٩) أي لا يقتل بعضكم بعضا، لأن المؤمنين كنفس واحدة، فكأنه بقتل أخيه قاتل نفسه. وكقوله تعالى: ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ (النور: ٦١) يعني يسلم بعضكم على بعض. والمعنى: لا يعب بعضكم بعضا. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير: لا يطعن بعضكم على بعض. وقال الضحاك: لا يلعن بعضكم بعضا. وقرئ: "ولا تُلمزوا" بالضم. وفي قوله: "أنفسكم" تنبيه

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي من حديث أنس وليس فيه ذكر نزول الآية، ولفظه: قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي فقال: "ما يبكيك؟" قالت: قالت لي حفصة: إني ابنة يهودي، فقال النبي ﷺ: "وإنك لابنة نبي وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك" وسنده صحيح، انظر صحيح الترمذي (٣٠٥٥).

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي (٢٥٠٢) وصححه.

(٣) أخرجه البخاري في "الأدب"، (٦٠٤٢).

(٤) أخرجه مسلم في "البر والصلة"، (٢٥٦٤).

على أن العاقل لا يعيب نفسه، فلا ينبغي أن يعيب غيره لأنه كنفسه، قال ﷺ: (المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[(١)] . وقال بكر بن عبد الله المزني: إذا أردت أن تنظر العيوب جمة فتأمل عيابا، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب. وقال ﷺ: (يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ويدع الجذع في عينه)[(٢)] وقيل: من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره. قال الشاعر:

المرء إن كان عاقلا ورعا أشغله عن عيوبه ورعه
كما السقيم المريض يشغله عن وجع الناس كلهم وجعه

وقال آخر:

لا تكشفن مساوي الناس ما ستروا فيهتك الله سترا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

الثانية: قوله تعالى: ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ النبز (بالتحريك) اللقب، والجمع الأنباز. والنبز (بالتسكين) المصدر، تقول: نبزه ينبزه نبزا، أي لقبه. وفلان ينبز بالصبيان أي يلقبهم، شدد للكثرة. ويقال النبز والنزب لقب السوء. وتنابزوا بالألقاب: أي لقب بعضهم بعضا. وفي الترمذي عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: كان الرجل منا يكون له الاسمين والثلاثة فيدعى ببعضها فعسى أن يكره، فنزلت هذه الآية: "ولا تنابزوا بالألقاب"[(٣)] . قال هذا حديث حسن. وأبو جبيرة هذا هو أخو ثابت ابن الضحاك بن خليفة الأنصاري. وأبو زيد سعيد بن الربيع صاحب الهروي ثقة. وفي مصنف أبي داود عنه قال: فينا نزلت هذه الآية، في بني سلمة "ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان" قال: قدم رسول الله ﷺ وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل رسول الله ﷺ يقول يا فلان فيقولون مه يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم، فنزلت هذه الآية: "ولا تنابزوا بالألقاب"[(٤)] . فهذا قول. وقول ثان ـ قال الحسن ومجاهد: كان الرجل يعير بعد إسلامه بكفره يا يهودي يا نصراني، فنزلت. وروي عن قتادة وأبي العالية وعكرمة. وقال قتادة: هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق، وقاله مجاهد والحسن أيضا. ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ أي بئس أن يسمى الرجل كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته، قاله ابن زيد. وقيل: المعنى أن من لقب أخاه أو سخر منه فهو فاسق. وفي الصحيح (من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه)[(٥)] . فمن فعل ما نهى الله عنه من السخرية والهمز والنبز فذلك فسوق وذلك لا يجوز. وقد روي أن أبا ذر ﷺ كان عند النبي ﷺ فنازعه رجل فقال له أبو ذر: يا ابن اليهودية! فقال النبي ﷺ: (ما ترى ها هنا أحمر وأسود ما أنت بأفضل منه) يعني بالتقوى، ونزلت: "ولا تنابزوا

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).
(٢) "صحيح" أخرجه أبو نعيم في "الحلية" عن أبي هريرة مرفوعاً، وانظر صحيح الجامع (٨٠١٣).
(٣) "صحيح" انظر صحيح الترمذي (٢٦٠٦).
(٤) "صحيح" انظر صحيح سنن أبي داود (٤١٥١).
(٥) أخرجه البخاري في "الأدب" (٦١٠٤). ومسلم في "الإيمان"، (٦٠).

بالألقاب»[1]. وقال ابن عباس: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب، فنهى الله أن يعير بما سلف. يدل عليه ما روي أن النبي ﷺ قال: (من عير مؤمنا بذنب تاب منه كان حقا على الله أن يبتليه به ويفضحه فيه في الدنيا والآخرة)[2].

الثالثة: وقع من ذلك مستثنى من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ولم يكن له فيه كسب يجد في نفسه منه عليه، فجوزته الأمة واتفق على قوله أهل الملة. قال ابن العربي: وقد ورد لعمر الله من ذلك في كتبهم ما لا أرضاه في صالح جزرة، لأنه صحف «خرزة» فلقب بها. وكذلك قولهم في محمد بن سليمان الحضرمي: مطين، لأنه وقع في طين. ونحو ذلك مما غلب على المتأخرين، ولا أراه سائغا في الدين. وقد كان موسى بن علي بن رباح المصري يقول: لا أجعل أحدا صغر اسم أبي في حل، وكان الغالب على اسمه التصغير بضم العين. والذي يضبط هذا كله: أن كل ما يكره الإنسان إذا نودي به فلا يجوز لأجل الأذيّة. والله أعلم.

قلت: وعلى هذا المعنى ترجم البخاري رحمه الله في (كتاب الأدب) من الجامع الصحيح. في (باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير لا يراد به شين الرجل)[3] قال: وقال النبي ﷺ: (ما يقول ذو اليدين) قال أبو عبد الله بن خويز منداد: تضمنت الآية المنع من تلقيب الإنسان بما يكره، ويجوز تلقيبه بما يحب، ألا ترى أن النبي ﷺ لقب عمر بالفاروق، وأبا بكر بالصديق، وعثمان بذي النورين، وخزيمة بذي الشهادتين، وأبا هريرة بذي الشمالين وبذي اليدين، في أشباه ذلك. الزمخشري: روي عن النبي ﷺ (من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه). ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن، قال عمر ﷺ: أشيعوا الكنى فإنها منبهة. ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله. وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب. ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها ـ من العرب والعجم ـ تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير. قال الماوردي: فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره. وقد وصف رسول الله ﷺ عددا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب.

قلت: فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب فذلك كثير. وقد سئل عبد الله ابن المبارك عن الرجل يقول: حُميد الطويل، وسليمان الأعمش، وحُميد الأعرج، ومروان الأصغر، فقال: إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس[4] به. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سرجس قال: رأيت الأصلع ـ يعني عمر ـ يقبل الحجر. في رواية الأصيلع.

قوله تعالى: ﴿ ومن لم يتب ﴾ أي عن هذه الألقاب التي يتأذى بها السامعون. ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهي.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»، (ص٢٩٥)، وذكر فيه ثابت بن قيس مكان أبي ذر.

(٢) «موضوع» بنحوه في السلسلة الضعيفة والموضوعة للشيخ الألباني (١٧٨).

(٣) صحيح البخاري (١٠/ ٤٨٣ـ فتح).

(٤) وهذا هو قول الجمهور في هذه المسألة، وقال الحافظ: وشذ قوم فشددوا حتى نقل عن الحسن البصري أنه كان يقول: أخاف أن يكون قولنا: حميداً الطويل غيبة. الفتح. الموضع السابق.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ فيه عشر مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ﴾ قيل: إنها نزلت في رجلين من أصحاب النبي ﷺ اغتابا رفيقهما. وذلك أن النبي ﷺ كان إذا سافر ضم الرجل المحتاج إلى الرجلين الموسرين فيخدمهما. فضم سلمان إلى رجلين، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيئ لـهما شيئا، فجاءا فلم يجدا طعاما وإداما، فقالا لـه: انطلق فاطلب لنا من النبي ﷺ طعاما وإداما، فذهب فقال لـه النبي ﷺ: (اذهب إلى أسامة بن زيد فقل لـه إن كان عندك فضل من طعام فليعطك) وكان أسامة خازن النبي ﷺ، فذهب إليه، فقال أسامة: ما عندي شيء، فرجع إليهما فأخبرهما، فقالا: قد كان عنده ولكنه بخل. ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئا، فقالا: لو بعثنا سلمان إلى بئر سُمَيحة لغار ماؤها. ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء، فرآهما النبي ﷺ فقال: (ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما) فقالا: يا نبي الله، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحما ولا غيره. فقال: (ولكنكما ظلتما تأكلان لحم سلمان وأسامة) فنزلت: "يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم"[1] ذكره الثعلبي. أي لا تظنوا بأهل الخير سوءا إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير.

الثانية: ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا) لفظ البخاري. قال علماؤنا: فالظن هنا وفي الآية هو التهمة. ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لـها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلا ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك. ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قولـه تعالى: "ولا تجسسوا" وذلك أنه قد يقع لـه خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه، ويتبصر ويستمع لتحقيق ما وقع لـه من تلك التهمة. فنهى النبي ﷺ عن ذلك. وإن شئت قلت: والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف لـه أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجب الاجتناب. وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد به والخيانة محرم، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث. وعن النبي ﷺ (إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء)[2]. وعن الحسن: كنا في زمن الظن بالناس فيه حرام، وأنت اليوم في زمن اعمل واسكت وظن في الناس ما شئت.

الثالثة: وللظن حالتان: حالة تعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن، كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قيم المتلفات وأروش

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي مرسلا، كما في الدر المنثور (٦/ ١٠٢).
(٢) ضعيف.

الجنايات. والحالة الثانية: أن يقع في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده، فهذا هو الشك، فلا يجوز الحكم به، وهو المنهي عنه على ما قررناه آنفا. وقد أنكرت جماعة من المبتدعة تعبد الله بالظن وجواز العمل به، تحكما في الدين ودعوى في المعقول. وليس في ذلك أصل يعول عليه، فإن البارئ تعالى لم يذم جميعه، وإنما أورد الذم في بعضه. وربما تعلقوا بحديث أبي هريرة (إياكم والظن) فإن هذا لا حجة فيه، لأن الظن في الشريعة قسمان: محمود ومذموم، فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه. والمذموم ضده، بدلالة قوله تعالى: ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾، وقوله: ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ﴾ (النور: ١٢)، وقوله: ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا ﴾ (الفتح: ١٢) وقال النبي ﷺ: (إذا كان أحدكم مادحا أخاه فليقل أحسب كذا ولا أزكي على الله أحدا)(١). وقال: (إذا ظننت فلا تحقق وإذا حسدت فلا تبغ وإذا تطيرت فامض)(٢) خرجه أبو داود. وأكثر العلماء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظن القبيح بمن ظاهره القبح، قاله المهدوي.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ ولا تجسسوا ﴾ قرأ أبو رجاء والحسن باختلاف وغيرهما "ولا تحسسوا" بالحاء. واختلف هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين، فقال الأخفش: ليس تبعد إحداهما من الأخرى، لأن التجسس البحث عما يكتم عنك. والتحسس (بالحاء) طلب الأخبار والبحث عنها. وقيل: إن التجسس (بالجيم) هو البحث، ومنه قيل: رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور. وبالحاء: هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه. وقول ثان في الفرق: أنه بالحاء تطلبه لنفسه، وبالجيم أن يكون رسولا لغيره، قاله ثعلب. والأول أعرف. جسست الأخبار وتجسستها أي تفحصت عنها، ومنه الجاسوس. ومعنى الآية: خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين، أي لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله. وفي كتاب أبي داود عن معاوية قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم) فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها(٣). وعن المقدام بن معدي كرب عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: (إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم)(٤). وعن زيد بن وهب قال: أتي ابن مسعود فقيل: هذا فلان تقطر لحيته خمرا. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به(٥). وعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته)(٦). وقال عبد الرحمن بن عوف: حرست ليلة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة

---

(١) أخرجه مسلم في "الزهد"، (٣٠٠٠).

(٢) "ضعيف" وعزوه إلى أبي داود وهم، إذ أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف عن جابر مرفوعاً كما في ضعيف الجامع (٦٨٧).

(٣) "صحيح" انظر صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٨).

(٤) "صحيح" انظر صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٩).

(٥) "صحيح" المصدر السابق (٤٠٩٠).

(٦) "حسن صحيح" أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما، وانظر صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٣).

إذ تبين لنا سراج في بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر: هذا بيت ربيعة ابن أمية بن خلف، وهم الآن شرب فما ترى !؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله تعالى: "ولا تجسسوا" وقد تجسسنا، فانصرف عمر وتركهم. وقال أبو قلابة: حدث عمر بن الخطاب أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو محجن: إن هذا لا يحل لك قد نهاك الله عن التجسس، فخرج عمر وتركه. وقال زيد بن أسلم: خرج عمر وعبد الرحمن يعسان، إذ تبينت لهما نار فاستأذنا ففتح الباب، فإذا رجل وامرأة تغني وعلى يد الرجل قدح، فقال عمر: وأنت بهذا يا فلان؟ فقال: وأنت بهذا يا أمير المؤمنين! قال عمر: فمن هذه منك؟ قال امرأتي، قال فما في هذا القدح؟ قال ماء زلال، فقال للمرأة: وما الذي تغنين؟ فقالت:

تطاول هذا الليل واسود جانبه ... وأرقني أن لا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله أني أراقبه ... لزعزع من هذا السرير جوانبه

ولكن عقلي والحياء يكفني ... وأكرم بعلي أن تنال مراكبه

ثم قال الرجل: ما بهذا أمرنا يا أمير المؤمنين! قال الله تعالى: "ولا تجسسوا". قال صدقت.

قلت: لا يفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غير زوجة الرجل، لأن عمر لا يقر على الزنى، وإنما غنت بتلك الأبيات تذكارا لزوجها، وأنها قالتها في مغيبه عنها. والله أعلم. وقال عمرو بن دينار: كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت، فكان يعودها فماتت فدفنها. فكان هو الذي نزل في قبرها، فسقط من كمه كيس فيه دنانير، فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس ثم قال: لأكشفن حتى أنظر ما آل حال أختي إليه، فكشف عنها فإذا القبر مشتعل نارا، فجاء إلى أمه فقال: أخبريني ما كان عمل أختي؟ فقالت: قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها! فلم يزل بها حتى قالت له: كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقمت أذنها أبوابهم، فتجسس عليهم وتخرج أسرارهم، فقال: بهذا هلكت.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ نهى عز وجل عن الغيبة، وهي أن تذكر الرجل بما فيه، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان. ثبت معناه في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (أتدرون ما الغيبة)؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (ذكرك أخاك بما يكره) قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته)[(١)].

يقال: اغتابه اغتيابا إذا وقع فيه، والاسم الغيبة، وهي ذكر العيب بظهر الغيب. قال الحسن: الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى: الغيبة والإفك والبهتان. فأما الغيبة فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه. وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه. وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه. وعن شعبة قال: قال لي معاوية ـ يعني ابن قرة ـ: لو مر بك رجل أقطع، فقلت هذا أقطع كان غيبة. قال شعبة: فذكرته لأبي إسحاق فقال صدق. وروى أبو هريرة أن الأسلمي ماعزا جاء إلى النبي ﷺ فشهد على

---

(١) أخرجه مسلم في "البر والصلة"، (٢٥٨٩).

نفسه بالزنى فرجمه رسول الله ﷺ. فسمع نبي الله ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب، فسكت عنهما. ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال: (أين فلان وفلان)؟ فقالا: نحن ذا يا رسول الله، قال: (انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار) فقالا: يا نبي الله ومن يأكل من هذا! قال: (فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها)(١).

السادسة: قوله تعالى: ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا﴾ مثل الله الغيبة بأكل الميتة، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه. وقال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس. وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيا. واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية. قال الشاعر:

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وقال ﷺ: (ما صام من ظل يأكل لحوم الناس)(٢). فشبه الوقيعة في الناس بأكل لحومهم. فمن تنقص مسلما أو ثلم عرضه فهو كالآكل لحمه حيا، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتا. وفي كتاب أبي داود عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم)(٣). وعن المستورد أن رسول الله ﷺ قال: (من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ومن كسي ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن أقام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة)(٤). وقد تقدم قوله ﷺ: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين)(٥). وقوله للرجلين: (ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما)(٦). وقال أبو قلابة الرقاشي: سمعت أبا عاصم يقول: ما اغتبت أحدا مذ عرفت ما في الغيبة. وكان ميمون بن سياه لا يغتاب أحدا، ولا يدع أحدا يغتاب أحدا عنده، ينهاه فإن انتهى وإلا قام. وذكر الثعلبي من حديث أبي هريرة قال: قام رجل من عند النبي ﷺ فرأوا في قيامه عجزا فقالوا: يا رسول الله ما أعجز فلانا! فقال: (أكلتم لحم أخيكم واغتبتموه)(٧). وعن سفيان الثوري قال: أدنى الغيبة أن تقول إن فلانا جعد قطط، إلا أنه يكره ذلك. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إياكم وذكر الناس فإنه داء، وعليكم بذكر الله فإنه شفاء. وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يغتاب آخر، فقال: إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس. وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك، قال: إياه فارحموا. وقال رجل للحسن: بلغني أنك تغتابني فقال: لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي.

---

(١) "ضعيف" أخرجه أبو داود (٤٤٢٨).
(٢) "ضعيف" أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس مرفوعاً، وانظر ضعيف الجامع (٥٠٨٥).
(٣) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (٤٠٨٢)، وراجع الصحيحة (٥٣٣).
(٤) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (٤٠٨٤)، وراجع الصحيحة (٩٣٤).
(٥) صحيح، وقد تقدم قبل قليل.
(٦) ضعيف، وقد تقدم قبل قليل.
(٧) ضعيف.

السابعة: ذهب قوم إلى أن الغيبة لا تكون إلا في الدين ولا تكون في الخلقة والحسب. وقالوا: ذلك فعل الله به. وذهب آخرون إلى عكس هذا فقالوا: لا تكون الغيبة إلا في الخَلْق والخُلُق والحسب. والغيبة في الخلْق أشد، لأن من عيب صنعة فإنما عيب صانعها. وهذا كله مردود. أما الأول فيرده حديث عائشة حين قالت في صفية: إنها امرأة قصيرة، فقال لها النبي ﷺ: (لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته)[1]. خرجه أبو داود. وقال فيه الترمذي: حديث حسن صحيح، وما كان في معناه حسب ما تقدم. وإجماع العلماء قديما على أن ذلك غيبة إذا أريد به العيب. وأما الثاني فمردود أيضا عند جميع العلماء، لأن العلماء من أول الدهر من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظم من الغيبة في الدين، لأن عيب الدين أعظم العيب، فكل مؤمن يكره أن يذكر في دينه أشد مما يكره في بدنه. وكفى ردا لمن قال هذا القول قوله ﷺ: (إذا قلت في أخيك ما يكره فقد اغتبته...[2]) الحديث. فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة فقد رد ما قال النبي ﷺ نصا. وكفى بعموم قول النبي ﷺ: (دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام)[3] وذلك عام للدين والدنيا. وقول النبي ﷺ: (من كانت عنده لأخيه مظلمة في عرضه أو ماله فليتحلله منه)[4]. فعم كل عرض، فمن خص من ذلك شيئا دون شيء فقد عارض ما قال النبي ﷺ.

الثامنة: لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحدا عليه أن يتوب إلى الله عز وجل. وهل يستحل المغتاب؟ اختلف فيه، فقالت فرقة: ليس عليه استحلاله، وإنما هي خطيئة بينه وبين ربه. واحتجت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه، فليس ذلك بمظلمة يستحلها منه، وإنما المظلمة ما يكون منه البدل والعوض في المال والبدن. وقالت فرقة: هي مظلمة، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذي اغتابه. واحتجت بحديث يروى عن الحسن قال: كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته. وقالت فرقة: هي مظلمة وعليه الاستحلال منها. واحتجت بقول النبي ﷺ: (من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليتحلله منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيد على سيئاته). خرجه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه). وقد تقدم هذا المعنى في سورة "آل عمران" عند قوله تعالى: ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء ﴾ (آل عمران: ١٦٩). وقد روي من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها فلما قامت قالت امرأة: ما أطول ذيلها فقالت لها عائشة: لقد اغتبتيها فاستحليها. فدلت الآثار عن النبي ﷺ أنها مظلمة يجب على المغتاب استحلالها. وأما قول من قال: إنما الغيبة في المال والبدن، فقد أجمعت العلماء على أن على القاذف

---

(١) صحيح، وقد سبق قبل قليل.

(٢) سبق.

(٣) سبق.

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٣٤).

للمقذوف مظلمة يأخذه بالحد حتى يقيمه عليه، وذلك ليس في البدن ولا في المال، ففي ذلك دليل على أن الظلم في العرض والبدن والمال، وقد قال الله تعالى في القاذف: ﴿ فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ (النور: ١٣). وقد قال رسول الله ﷺ: (من بهت مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله في طينة الخبال)[١]. وذلك كله في غير المال والبدن. وأما من قال: إنها مظلمة، وكفارة المظلمة أن يستغفر لصاحبها، فقد ناقض إذ سماها مظلمة ثم قال: كفارتها أن يستغفر لصاحبها، لأن قوله مظلمة تثبت ظلامة المظلوم، فإذا ثبتت الظلامة لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له. وأما قول الحسن فليس بحجة، وقد قال النبي ﷺ: (من كانت له عند أخيه مظلمة في عرض أو مال فليتحللها منه). وقد ذهب بعضهم إلى ترك التحليل لمن سأله، ورأى أنه لا يحل ما حرم الله عليه، منهم سعيد ابن المسيب قال: لا أحلل من ظلمني. وقيل لابن سيرين: يا أبا بكر، هذا رجل سألك أن تحلله من مظلمة هي لك عنده، فقال: إني لم أحرمها عليه فأحلها، إن الله حرم الغيبة عليه، وما كنت لأحل ما حرم الله عليه أبدا. وخبر النبي ﷺ يدل على التحليل، وهو الحجة والمبين. والتحليل يدل على الرحمة وهو من وجه العفو، وقد قال تعالى: ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ (الشورى: ٤٠).

التاسعة: ليس من هذا الباب غيبة الفاسق المعلن به المجاهر، فإن في الخبر (من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له)[٢]. وقال ﷺ: (اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس)[٣]. فالغيبة إذاً في المرء الذي يستر نفسه. وروي عن الحسن أنه قال: ثلاثة ليس لهم حرمة: صاحب الهوى، والفاسق المعلن، والإمام الجائر. وقال الحسن لما مات الحجاج: اللهم أنت أمته فاقطع عنا سنته ـ وفي رواية شينه ـ فإنه أتانا أخيفش أعيمش، يمد بيد قصيرة البنان، والله ما عرق فيها غبار في سبيل الله، يرجل جمته ويخطر في مشيته، ويصعد المنبر فيهدر حتى تفوته الصلاة. لا من الله يتقي، ولا من الناس يستحي، فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل. ثم يقول الحسن: هيهات! حال دون ذلك السيف والسوط. وروى الربيع بن صبيح عن الحسن قال: ليس لأهل البدع غيبة. وكذلك قولك للقاضي تستعين به على أخذ حقك ممن ظلمك فتقول فلان ظلمني أو غضبني أو خانني أو ضربني أو قذفني أو أساء إلي، ليس بغيبة. وعلماء الأمة على ذلك مجمعة. وقال النبي ﷺ في ذلك: (لصاحب الحق مقال)[٤]. وقال: (مطل الغني ظلم)[٥] وقال: (لَيّ الواجد يحل عرضه وعقوبته)[٦]. ومن ذلك الاستفتاء، كقول هند للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، فآخذ من غير علمه؟ فقال النبي ﷺ: (نعم فخذي). فذكرته بالشح والظلم لها ولولدها، ولم يرها مغتابة، لأنه لم يغير عليها، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفتيا لها. وكذلك إذا كان في

(١) ذكره بنحوه الهيثمي في "المجمع"، (١٠/ ٩١) وقال: "رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجالهما رجال الصحيح، غير محمد بن منصور الطوسي، وهو ثقة".
(٢) "ضعيف جداً"، انظر الضعيفة (ح٥٨٥).
(٣) ذكره ابن الربيع في "تمييز الطيب من الخبيث"، (ص٣٩) وقال: "أخرجه أبو يعلى وغيره، ولا يصح".
(٤) أخرجه البخاري في "الاستقراض"، (٢٤٠١).
(٥) أخرجه البخاري في "الاستقراض"، (٢٤٠٠)، ومسلم (١٥٦٤).
(٦) "حسن" أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم، وانظر صحيح الجامع (٥٤٨٧).

ذكره بالسوء فائدة، كقوله ﷺ: (أما معاوية فصعلوك لا مال لـه وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه)[١]. فهذا جائز، وكان مقصوده ألا تغتر فاطمة بنت قيس بهما. قال جميعه المحاسبي رحمه الله.

العاشرة: قولـه تعالى: ﴿ ميْتا ﴾ وقرئ "ميّتا" وهو نصب على الحال من اللحم. ويجوز أن ينصب على الأخ، ولما قررهـم عـز وجـل بأن أحـدا منهم لا يحب أكـل جيفة أخيـه عقـب ذلـك بقولـه تعالى: ﴿ فكرهتموه ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: فكرهتم أكل الميتة فكذلك فاكرهوا الغيبة، روي معناه عن مجاهد. الثاني: فكرهتم أن يغتابكم الناس فاكرهوا غيبة الناس. وقال الفراء: أي فقد كرهتموه فلا تفعلوه. وقيل: لفظه خبر ومعناه أمر، أي اكرهوه. ﴿ واتقوا الله ﴾ عطف عليه. وقيل: عطف على قولـه: "اجتنبوا. ولا تجسسوا". ﴿إن الله تواب رحيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ يعني آدم وحواء. ونزلت الآية في أبي هند، ذكره أبو داود في (المراسيل)، حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا حدثنا بقية بن الوليد قال حدثني الزهري قال: أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا لرسول الله ﷺ: نزوج بناتنا موالينا؟ فأنزل الله عز وجل: "إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا" [٢] الآية. قال الزهري: نزلت في أبي هند خاصة. وقيل: إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس. وقولـه في الرجل الذي لم يتفسح لـه: ابن فلانة، فقال النبي ﷺ: (من الذاكر فلانة)؟ قال ثابت: أنا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: (انظر في وجوه القوم) فنظر، فقال: (ما رأيت)؟ قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر، فقال: (فإنك لا تفضلـهم إلا بالتقوى) فنزلت في ثابت هذه الآية[٣]. ونزلت في الرجل الذي لم يتفسح لـه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ﴾ (المجادلة: ١١) الآية. قال ابن عباس: لما كان يوم فتح مكة أمر النبي ﷺ بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فأذن، فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم. قال الحارث بن هشام: ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا. وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئا يغيره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السماء، فأتى جبريل النبي ﷺ وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألـهم عما قالوا فأقروا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. زجرهم عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء، فإن المدار على التقوى. أي الجميع من آدم وحواء، إنما الفضل بالتقوى. وفي الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب بمكة فقال: (يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها. فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في "الطلاق"، (١٤٨٠).

(٢) وأخرجه أيضا في سننه (٢١٠٢) موصولا من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: "يا بني بياضة أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه" وليس فيه ذكر سبب النزول، وهو حسن. انظر صحيح أبي داود (١٨٥٠).

(٣) تقدم من رواية الواحدي.

على الله، وفاجر شقي هين على الله. والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[1]. خرجه من حديث عبد الله بن جعفر والد علي بن المديني وهو ضعيف، ضعفه يحيى بن معين وغيره. وقد خرج الطبري في كتاب (آداب النفوس) وحدثني يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا إسماعيل قال حدثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة قال: حدثني أو حدثنا من شهد خطب رسول الله ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت؟ - قالوا نعم قال: ليبلغ الشاهد الغائب)[2]. وفيه عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم)[3]. ولعلي رضي الله عنه في هذا المعنى وهو مشهور من شعره:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة ... وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ... وللرجال على الأفعال سيماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

الثانية: بيَّن الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى، وكذلك في أول سورة "النساء". ولو شاء لخلقه دونهما كخلقه لآدم، أو دون ذكر كخلقه لعيسى عليه السلام، أو دون أنثى كخلقه حواء من إحدى الجهتين. وهذا الجائز في القدرة لم يرد به الوجود. وقد جاء أن آدم خلق الله منه حواء من ضلع انتزعها من أضلاعه، فلعله هذا القسم، قاله ابن العربي.

الثالثة: خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنسابا وأصهارا وقبائل وشعوبا، وخلق لهم منها التعارف، وجعل لهم بها التواصل للحكمة التي قدرها وهو أعلم بها، فصار كل أحد يحوز نسبه، فإذا نفاه رجل عنه استوجب الحد بقذفه، مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه، بقوله للعربي: يا عجمي، وللعجمي: يا عربي، ونحو ذلك مما يقع به النفي حقيقة. انتهى.

الرابعة: ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده، ويتربى في رحم الأم، ويستمد من الدم الذي يكون فيه. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في

---

(١) ضعيف.
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١)، وأبو نعيم في "الحلية"، (٣/ ١٠٠).
(٣) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (١٠/ ٢٣١) وقال: "رواه الطبراني وفيه يحيى بن عبد الحميد الحماني، وهو ضعيف".

قرار مكين ﴾ (المرسلات: ٢١). وقوله تعالى: ﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ (السجدة: ٨) وقوله: ﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى ﴾ (القيامة: ٣٧). فدل على أن الخلق من ماء واحد. والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية، فإنها نص لا يحتمل التأويل. وقوله تعالى: ﴿ خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ (الطارق: ٦) والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء، على ما يأتي بيانه. وأما ما احتجوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعالى ذكر خلق الإنسان من الماء والسلالة والنطفة ولم يضفها إلى أحد الأبوين دون الآخر. فدل على أن الماء والسلالة لهما والنطفة منهما بدلالة ما ذكرنا. وبأن المرأة تمني كما يمني الرجل، وعن ذلك يكون الشبه، حسب ما تقدم بيانه في آخر "الشورى". وقد قال في قصة نوح: ﴿ فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ (القمر: ١٢) وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض، لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين، فلا ينكر أن يكون ﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ (السجدة: ٨). وقوله تعالى: ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ (المرسلات: ٢١) ويريد ماءين. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ الشعوب رؤوس القبائل، مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج، واحدها شَعْب بفتح الشين، سموا به لتشعبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة. والشعب من الأضداد، يقال شعبته إذا جمعته، ومنه المشعب (بكسر الميم) وهو الإشفى، لأنه يجمع به ويشعب. قال:

فكاب على حر الجبين ومتق   بمدرية كأنه ذلق مشعب

وشعبته إذا فرقته، ومنه سميت المنية شعوبا لأنها مفرقة. فأما الشعب (بالكسر) فهو الطريق في الجبل، والجمع الشعاب. قال الجوهري: الشعب: ما تشعب من قبائل العرب والعجم، والجمع الشعوب. والشعوبية: فرقة لا تفضل العرب على العجم. وأما الذي في الحديث: أن رجلا من الشعوب أسلم، فإنه يعني من العجم. والشعب: القبيلة العظيمة، وهو أبو القبائل الذي ينسبون إليه، أي يجمعهم ويضمهم. قال ابن عباس: الشعوب الجمهور، مثل مضر. والقبائل الأفخاذ. وقال مجاهد: الشعوب البعيد من النسب، والقبائل دون ذلك. وعنه أيضا أن الشعوب النسب الأقرب. وقاله قتادة. ذكر الأول عنه المهدوي، والثاني الماوردي. قال الشاعر:

رأيت سعودا من شعوب كثيرة   فلم أر سعدا مثل سعد بن مالك

وقال آخر:

قبائل من شعوب ليس فيهم   كريم قد يعد ولا نجيب

وقيل: إن الشعوب عرب اليمن من قحطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان. وقيل: إن الشعوب بطون العجم، والقبائل بطون العرب. وقال ابن عباس في رواية: إن الشعوب الموالي، والقبائل العرب. قال القشيري: وعلى هذا فالشعوب من لا يعرف لهم أصل نسب كالهند والجبل والترك، والقبائل من العرب. الماوردي: ويحتمل أن الشعوب هم المضافون إلى النواحي والشعاب، والقبائل هم المشتركون في الأنساب. قال الشاعر:

وتفرقوا شعبا فكل جزيرة فيها أمير المؤمنين ومنبر

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه: الشعب أكبر من القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ. وقيل: الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة، وقد نظمها بعض الأدباء فقال:

اقصد الشعب فهو أكثر حي عددا في الحواء ثم القبيله
ثم تتلوها العمارة ثم البـ ـطن والفخذ بعدها والفصيله
ثم من بعدها العشيرة لكن هي في جنب ما ذكرناه قليله

وقال آخر:

قبيلة قبلها شعب وبعدهما عمارة ثم بطن تلوه فخذ
وليس يؤوي الفتى إلا فصيلته ولا سداد لسهم ماله قذذ

السادسة: قوله تعالى: ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وقد تقدم في سورة "الزخرف" عند قوله تعالى: ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ (الزخرف: ٤٤). وفي هذه الآية ما يدلك على أن التقوى هي المراعى عند الله تعالى وعند رسوله دون الحسب والنسب. وقرئ "أن" بالفتح. كأنه قيل: لم لا يتفاخر بالأنساب؟ قيل: لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم. وفي الترمذي عن سمرة عن النبي ﷺ قال: (الحسب المال والكرم التقوى)[1]. قال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وذلك يرجع إلى قوله تعالى: ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾، وقد جاء منصوصا عنه ﷺ: (من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله)[2]. والتقوى معناها مراعاة حدود الله تعالى أمرا ونهيا، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به، والتنزه عما نهاك عنه. وقد مضى هذا في غير موضع. وفي الخبر من رواية أبي هريرة عن النبي ﷺ: (إن الله تعالى يقول يوم القيامة إني جعلت نسبا وجعلتم نسبا فجعلت أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون)[3]. وروى الطبري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إن أوليائي المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب. يأتي الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد فأقول هكذا وهكذا)[4]. وأعرض في كل عطفيه. وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ جهارا غير سر يقول: (إن آل أبي ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين)[5]. وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ سئل: من أكرم الناس؟ فقال: (يوسف بن يعقوب بن

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٣١٧٨)، وراجع الإرواء (١٨٧٠).

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه الحاكم (٤٣/ ٢٧٠)، وقال الذهبي: فيه هشام بن زياد متروك، ومحمد بن معاوية كذبه الدارقطني فبطل الحديث.

(٣) ضعيف، ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ١٠٩) وعزاه إلى الطبراني وابن مردويه. وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٦٤) بنحوه من حديث أبي هريرة أيضا مرفوعاً، ولفظه: "إن الله يقول يوم القيامة: أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم فيه، ورفعت أنسابكم فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون؟ أين المتقون؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم" وقال: "هذا الحديث عال غريب الإسناد والمتن ولم يخرجاه" وردّه الذهبي بقوله: "قلت: المخزومي بن زبالة ساقط".

(٤) "حسن" أخرجه البخاري في الأدب المفرد وابن أبي عاصم في السنة وغيرهما، وانظر الصحيحة (٧٦٥).

(٥) تقدم.

إسحاق بن إبراهيم) قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فأكرمهم عند الله أتقاهم) فقالوا: ليس عن هذا نسألك، فقال: (عن معادن العرب؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)[١] وأنشدوا في ذلك:

ما يصنع العبد بعز الغني والعــز كل العز للمتقي
من عرف الله فلــم تغنه معرفـة الله فذاك الشقي

السابعة: ذكر الطبري حدثني عمر بن محمد قال حدثنا عبيد بن إسحاق العطار قال حدثنا مندل بن علي عن ثور بن يزيد عن سالم بن أبي الجعد قال: تزوج رجل من الأنصار امرأة فطُعن عليها في حسبها، فقال الرجل: إني لم أتزوجها لحسبها إنما تزوجتها لدينها وخلقها، فقال النبيِّ ﷺ: (ما يضرك ألا تكون من آل حاجب بن زرارة). ثم قال النبي ﷺ: (إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة وأتم به الناقصة وأذهب به اللوم فلا لوم على مسلم إنما اللوم لوم الجاهلية)[٢]. وقال النبي ﷺ: (إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي)[٣] ولذلك كان أكرم البشر على الله تعالى. قال ابن العربي: وهذا الذي لحظ مالك في الكفاءة في النكاح. روى عبد الله عن مالك: يتزوج المولى العربية، واحتج بهذه الآية. وقال أبو حنيفة والشافعي: يراعى الحسب والمال. وفي الصحيح عن عائشة أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة ـ وكان ممن شهد بدرا مع النبي ﷺ ـ تبنى سالما وأنكحه هندا بنت أخيه الوليد بن عتبة بن ربيعة، وهو مولى لامرأة من الأنصار. وضباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد ابن الأسود.

قلت: وأخت عبد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال. وزينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة. فدل على جواز نكاح الموالي العربية، وإنما تراعى الكفاءة في الدين. والدليل عليه أيضا ما روى سهل بن سعد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ مر عليه رجل فقال: (ما تقولون في هذا)؟ فقالوا: حَري إن خطب أن يُنكَح، وإن شفع أن يُشفَّع وإن قال أن يُسْمَع. قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: (ما تقولون في هذا) قالوا: حري إن خطب ألا يُنْكَح، وإن شفع ألا يُشَفّع، وإن قال ألا يُسمَع. فقال رسول الله ﷺ: (هذا خير من ملء الأرض مثل هذا)[٤]. وقال ﷺ: (تنكح المرأة لمالـها وجمالـها ودينها ـ وفي رواية ـ ولحسبها فعليك بذات الدين تربت يداك)[٥]. وقد خطب سلمان إلى أبي بكر ابنته فأجابه، وخطب إلى عمر ابنته فالتوى عليه، ثم سألـه أن ينكحها فلم يفعل سلمان. وخطب بلال بنت البكير فأبى إخوتها، قال بلال: يا رسول الله، ماذا لقيت من بني البكير خطبت إليهم أختهم فمنعوني وآذوني، فغضب رسول الله ﷺ من أجل بلال، فبلغهم الخبر فأتوا أختهم فقالوا: ماذا لقينا من سببك؟ فقالت أختهم: أمري بيد رسول الله ﷺ، فزوجـوها. وقـال

---

(١) أخرجه البخاري وغيره، وقد سبق.
(٢) ضعيف لإرسـاله.
(٣) "صحيح" جزء من حديث أخرجه أبو داود (٢٣٨٩).
(٤) أخرجه البخاري في "النكاح"، (٥٠٩١).
(٥) أخرجه البخاري في "النكاح"، (٥٠٩٠).

النبي ﷺ في أبي هند حين حجمه: (أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه)[١] . وهو مولى بني بياضة. وروى الدارقطني من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أن أبا هند مولى بني بياضة كان حجاما فحجم النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : (من سره أن ينظر إلى من صور الله الإيمان في قلبه فلينظر إلى أبي هند). وقال رسول الله ﷺ : (أنكحوه وأنكحوا إليه)[٢] . قال القشيري أبو نصر: وقد يعتبر النسب في الكفاءة في النكاح وهو الاتصال بشجرة النبوة أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين في الزهد والصلاح. والتقي المؤمن أفضل من الفاجر النسيب، فإن كانا تقيين فحينئذ يقدم النسيب منهما، كما يقدم الشاب على الشيخ في الصلاة إذا استويا في التقوى.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ نزلت في أعراب من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله ﷺ في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر. وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وقال ابن عباس: نزلت في أعراب أرادوا أن يتسموا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا، فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين. وقال السدي: نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح: أعراب مزينة وجهينة وأسلم وغفار والديل وأشجع، قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استنفروا إلى المدينة تخلفوا، فنزلت. وبالجملة فالآية خاصة لبعض الأعراب، لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى. ومعنى "ولكن قولوا أسلمنا" أي استسلمنا خوف القتل والسبي، وهذه صفة المنافقين، لأنهم أسلموا في ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم، وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب. وأما الإسلام فقبول ما أتى به النبي ﷺ في الظاهر، وذلك يحقن الدم. ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله ﴾ يعني إن تخلصوا الإيمان ﴿ لا يلتكم ﴾ أي لا ينقصكم. ﴿ من أعمالكم شيئا ﴾ لاته يليته ويلوته: نقصه. وقرأ أبو عمرو "لا يألتكم" بالهمزة، من ألت يألت ألتا، وهو اختيار أبي حاتم، اعتبارا بقوله تعالى: ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ (الطور: ٢١) قال الشاعر:

أبلــغ بني ثعل عني مغلغلة جهد الرسالة لا ألتا ولا كذبا

واختار الأولى أبو عبيد. قال رؤبة:

---

(١) "حسن" وقد تقدم قبل قليل.

(٢) أخرجه الدارقطني (٣/ ٢٠٨)، وفي سنده ابن سمعان، وهو عبد الله بن زياد متروك واتهمه بالكذب أبو داود وغيره على ما في التقريب (١/ ٤١٦).

وليلة ذات ندى سـريت ولم يلتني عن سراها ليت

أي لم يمنعني عن سراها مانع، وكذلك ألاته عن وجهه، فعل وأفعل بمعنى. ويقال أيضا: ما ألاته من عمله شيئا، أي ما نقصه، مثل ألته، قاله الفراء. وأنشد:

ويأكلن ما أعنى الولي فلم يلت كأن بحافات النهاء المزارعا

قوله: فلم "يلت" أي لم ينقص منه شيئا. و"أعنى" بمعنى أنبت، يقال: ما أعنت الأرض شيئا، أي ما أنبتت. و"الولي" المطر بعد الوسمي، سمي وليا لأنه يلي الوسمي. ولم يقل: لا يألتاكم، لأن طاعة الله تعالى طاعة الرسول.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٦) ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ أي صدقوا ولم يشكوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة. ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ في إيمانهم، لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب. فلما نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السر والعلانية وكذبوا، فنزلت. ﴿ قل أتعلمون الله بدينكم ﴾ الذي أنتم عليه. ﴿ والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٧) إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) ﴾

قوله تعالى: ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ﴾ إشارة إلى قولهم: جئناك بالأثقال والعيال. و"أن" في موضع نصب على تقدير لأن أسلموا. ﴿ قل لا تمنوا علي إسلامكم ﴾ أي بإسلامكم. ﴿ بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ﴾ "أن" موضع نصب، تقديره بأن. وقيل: لأن. وفي مصحف عبد الله "إذ هداكم". ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أنكم مؤمنون. وقرأ عاصم "إن هداكم" بالكسر؛ وفيه بعد؛ لقوله: "إن كنتم صادقين". ولا يقال يمن عليكم أن يهديكم إن صدقتم. والقراءة الظاهرة "أن هداكم". وهذا لا يدل على أنهم كانوا مؤمنين، لأن تقدير الكلام: إن آمنتم فذلك منة الله عليكم. ﴿ إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾. قرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو بالياء على الخبر، ردا على قوله: "قالت الأعراب". الباقون بالتاء على الخطاب.

المجلد الثامن